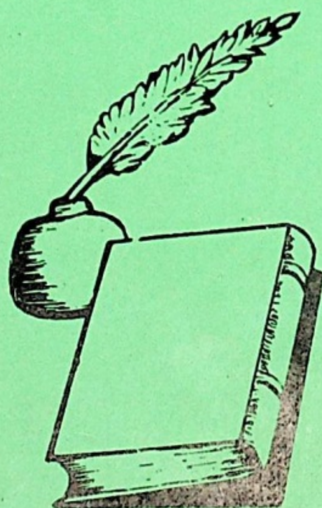
موسوعة

التاريخ الإسلامي

والحضارة الإسلامية

تأليف
الدكتور أحمد شلبي
دكتوراه من جامعة كمبردج

أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة



مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي - القاهرة

مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

موسوعة

التاريخ الإسلامي

والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله ،
من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية
التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٦

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية
منذ دخلها الإسلام حتى الآن

— وسائل انتشار الإسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز دلتعليم
— الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربى :
غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج
— الدول الإسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه فى الفلسفة من جامعة كمبردج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة ١٩٨٣ مع تعديلات مهمة وإضافات واسعة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التاريخ .....

شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل

دكتور أحمد شلبي

الطبعة الأولى — ١٩٧٢
الطبعة الثانية — ١٩٧٥
الطبعة الثالثة — ١٩٧٨
الطبعة الرابعة — ١٩٨٣

خطة البحث فى هذه الموسوعة

ان خطة البحث التى أتبعها فى كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى ان أبرزها فى التخطيط التالى ليعرف القارىء كنهها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية فى هذه الأجزاء الثلاثة اذ أن العالم الاسلامى وحدة واحدة .	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
	ج ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ودور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) فى الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامى انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — الأقليات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتى و الهند و الفلبين وسنغافورة .	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية و العراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن : — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . دراسة عن { — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى . — الدول الاسلامية الحالية : موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال	— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها — الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	— الأندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى اوروبا — المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — السنوسية : مبادئها وتاريخها

ونختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصرة :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد أنور السادات

كتب للمؤلف

أولا : موســوعة التاريخ الاســلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاســلامى كله مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اســهم المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

— **الجزء الأول :** (الطبعة الحادية عشرة)

— مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاســلامى — علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
— تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
— **الســيرة النبوية العطــرة : جوانب من الســيرة تدون لأول مــرة**
— الدعــوة الاســلامية وفلســفتها — عصر الخلفـــاء الراشـــدين

— **الجزء الثانى :** (الطبعة السابعة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

— **الجزء الثالث :** (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

— **الجزء الرابع :** (الطبعة السادسة)

— **الأندلس الاسلامية ، وانتقال الحضـــارة الاسلامية الى اوربا عن طريقهـــا .**
— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيـــا (من مطلع الاســـلام حتى العهد الحاضر) .
— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

— **الجزء الخامس :** (الطبعة السادسة)

— **مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .**
— ... الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الثالثة)

الاســـلام والدول الاســـلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهـــا الاســـلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .
— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربى :
غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجـــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .
— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيـــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :
— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .
— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :
ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا الاقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر محمـــد نجيب وعصر جمـــال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر انور السادات . (عصر النجاح فى الشئون الخارجية والفشل فى الشئون الداخلية) .
(ترجمت اكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجـزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسـلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة والاقتصـاد ، وفى مجـال الحيـاة الاجتماعية والتربوية والعسـكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هى :

١١ ــ الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الثالثة)

مناهج التعليم فى صدر الاسلام ــ انحرافاتها فى عصـور الظلام ــ وجوب تصحيحها .

١٢ ــ الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعة وآثاره (الطبعة السادسة)

١٣ ــ الجزء الثالث : السـياسة (الطبعة السادسة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ ــ الجزء الرابع : الاقتصـاد (الطبعة السادسة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة . ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ ــ الاسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .
٢ ــ مبادىء الاسلام الاقتصادية .
٣ ــ الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار . . .) .
٤ ــ من تاريخ الاقتصاد فى الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه . . .) .
٥ ــ النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيها .

١٥ — **الجزء الخامس : التربية الاسلامية** (الطبعة الثامنة)

نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — **الجزء السادس : المجتمع الاسلامى** (الطبعة السادسة)

أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ — **الجزء السابع : الحياة الاجتماعية** (الطبعة الثالثة)

فى الفكر الاسلامى

— فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المراة ...

— وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ — **الجزء الثامن : تاريخ التشريع الاسلامى** (الطبعة الثالثة)

وتاريخ النظم القضائية فى الاسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع

ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — **الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية** (الطبعة الثالثة)

فى الفكر الاسلامى

بحث علمى يبرز موقف الاسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الاسلام فى مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق المجاهد ، والخديعة فى الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — **الجزء العاشر : رحلة حياة** (الطبعة الثالثة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب للمؤلف

ثالثا : مقـــارنة الأديـــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمـد على ادق المراجـع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق وتشمل :

٢١ — **الجزء الأول : اليهـودية :** (الطبعة السابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهـود فى التاريخ من عهـد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ — **الجزء الثانى : المسيحية :** (الطبعة السابعة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدها .

٢٣ — **الجزء الثالث : الاســلام :** (الطبعة السابعة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المراة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منــه ، السياسة والاقتصاد فى الاسلام .

٢٤ — **الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى :** (الطبعة السابعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : بهجاواسستها ، كيتــا .

— اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجــود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثا أو رسالة (الطبعة السابعة عشرة)

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

كتابان باللغة الانجليزية هما :

٣٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٣٧ — History of Muslim Education

مكتبة النهضة المصرية

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

٢٨ — Negara dan Pemerintahan Dalam Islam
٢٩ — Masjarakat Islam
٣٠ — Hukum Islam
٣١ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 1
٣٢ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 11
٣٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 111
٣٤ — Perbandingan Agama (Jahudi)
٣٥ — Perbandingan Agama (Masihi)
٣٦ — Perbandingan Agama (Islam)
٣٧ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)
٣٨ — Sadjarah Pendidikan Islam
٣٩ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam
٤٠ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam
٤١ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi
٤٢ — Perang Salib
٤٣ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah
٤٤ — Pengajian Al Quraan
٤٥ — Sedjarad Kehakiman Dalam Islam

Pustaka National (Singapore)

كتب المؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الاعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ومن التاريخ والحضارة وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة :

ج ١ محمد قبل البعثة

ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)

ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .

ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة

ج ٦ الرسول فى بيته : ازواجه — اولاده واحفاده — خدمه

ج ٧ الرسول فى بيته : مشكلات الحياة فى بيت الرسول وكيف عالجها

ج ٨ الرسول بين اصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم ويربى المجتمع الاسلامى

ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام

ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل

ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون

ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود

ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة أو بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم أحداث غزوة بدر

ج ١٤ غزوة احد والهزيمة التى اخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى

ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .

ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة :

ج ١٧ (١) ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان والفتنة فى عهده
ج ٢٠ (٤) على بن أبى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن أبى وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية :

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى أدلته والتكسب به .
ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات الرسل فى ميدان المقارنة .
ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : أسراره واعجازه .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم :

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن — قصة اصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزير — قصة أيوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

(لم تدخل أعداد « المكتبة الاسلامية » ضمن العدد الخاص بكتب للمؤلف)

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية [illegible] لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية [illegible] نحو وصرف .
— تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثالثة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم [illegible] مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الأولى)

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى ولغير العرب

كتب نفدت ولن يعاد طبعها

٤٨ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٢ من هذه القائمة .

٤٩ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٠ — الحكومة والدولة فى الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى :

٥٢ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

الباب الأول
تعريف بالقــارة
٢٥ — ٩٦

الباب الثانى
إفريقية قبل الإسلام
٩٧ — ١٤٩

الباب الثالث

انتشار الإسلام بإفريقية

طرقه ووسائطه

١٥١ – ٢٣٦

٥

الموضــوع الصفحة

الباب الخامس

الاستعمار الأوربى لإفريقية

وموقفه من الإسلام

٤١٥ ـ ٤٩٢

الموضوع | الصفحة

الباب السادس

الدول الإسلامية جنوب الصحراء الإفريقية بعد زوال الاستعمار

٤٩٣—٧٠٦

الموضوع | الصفحة

فهرست الخرائط

مقدمة

– كانت كلمة « السودان » فى التاريخ الوسيط تضم الحزام الذى سيشمله الحديث فى هذا الجزء ، وقد اختفت هذه الكلمة الآن إلا من المنطقة التى تقع جنوب مصر ، ولذلك أطلقنا على هذه المنطقة « سودان وادى النيل » أو « السودان العربى » كلما أردنا أن نخصها بحديث .

– وهناك حدود طبيعية لهذا النطاق الذى خصصنا له هذا الجزء ، فيحدُّه شمالا الصحراء الكبرى والمناطق شبه الصحراوية ، ويحده جنوباً منطقة الغابات الاستوائية وقد وقفت الصحراء الكبرى شامخة بين هذه المنطقة وبين الشريط الساحلى للشمال الإفريقى ، واتجه هـذا الشريط الساحلى نحو البحر المتوسط وارتبطت حضارته بحضارة حوض هذا البحر ، ومع هـذا فإن الشريط الساحلى ظل مدى العصور يتجه إلى الجنوب من حين إلى حين ، وعلى هذا تعتبر الصحراء أشبه ببحر عظيم يحيط به المسلمون من كل جانب ، بل يتخللونه ويقيمون به أحياناً فى بعض الواحات أو على جانبى الطرق التجارية الممتدة بين الشمال والجنوب : فكأنهم جزر وسط المحيط العظيم ، وكانت مصر وبلاد المغرب أكثر بلاد الشمال اتجاهاً إلى الجنوب ، فقد اخترقت مصر النطاق الصحراوى بواسطة نهر النيل ، وتسربت حضارتها إلى مناطق دنقلة وكردفان ودارفور حتى منطقة خط الاستواء ، واتصلت مصر بسودان وادى النيل كذلك عن طريق درب الأربعين ، بل إن اتصالها بهذه المنطقة تجاوز السودان إلى بحيرة تشاد وشمالى نيجيريا ، أما بلاد المغرب فقد كانت لها مسارب متعددة إلى مصب السنغال ومنحنى النيجر ، بل إلى جميع المنطقة المعروفة بغربى إفريقية ، وكانت الحضارة المنسابة من مصر تلتقى عند بحيرة تشاد بالحضارة المنطلقة من بلاد المغرب ويقول Roland Oliver إن شعوب

المنطقة الممتدة من مصب نهر السنغال غرباً ، والمتجهة نحو الشرق حتى النصف الجنوبي لشاطىء البحر الأحمر تتميز بحضارة خاصة بها لأن شعوبها الإفريقية المختلفة تتبع نظماً ودساتير متشابهة كأنها منبثقة من مصدر واحد(١) والسبب فى ذلك أن سهولة الانتقال فى هذا الحزام كانت مكفولة نسبياً ، وقد ساعد هذا على قيام دول إفريقية متجانسة يؤثر بعضها على بعض ويكون منها وحدة شديدة التشابه(٢) .

— وعلى الرغم من قيام الدول والممالك فى هذه المنطقة ، فقد كانت القبيلة هى الطابع البارز للحياة فيها ، وللنظام القبلى سلطانه وقوته ، فهو لا يطيق الوحدة والتكتل ،ويميل للتمزق متخذاً له كلمات كالحرية والاستقلال أساساً ، وعلى هذا فلم توجد فى هذه المنطقة حدود ثابتة ، وتعرضت لحركات تجمع وتمزق من حين لآخر ، وقد استغل الاستعمار هذه الظروف عند قدومه لهذه المنطقة وعند زواله عنها ، فخلق بها صوراً من الوحدة والتفكك حسبما تقضى أغراضه ، وتبعاً لذلك فإن تسمية هذه البقاع مرت بعدة أطوار ، ودأب الاستعمار على تسميتها بالسودان ، فكان هناك السودان الفرنسى والسودان البلچيكى . . . . وكان الاستعمار بذلك يرمى إلى القضاء على التسميات التى تسجل تاريخاً حافلا لهذه المناطق ، ويرمى كذلك إلى اعتبار هـذه المناطق جزءاً من الإمبراطوريات الأوربية التى أقامها . وذلك يجعل دراسة هـذه المناطق عسيرة شاقة .

— ومراجع البحث فى تاريخ هذه المنطقة وفى حضارتها قليلة جداً ، وقد كتب الباحثون العرب تاريخ الفترات الأولى ، ولم يكن ما كتبوه شاملا ولا كافياً ، ولكنه يمتاز بصدقه ودقته ، وقد أشار الدكتور نكروما إلى أهمية ما كتبه هؤلاء الرحالة فى حديث له بجامعة أكرا فى ديسمبر سنة ١٩٦٢

---

(١) History of Africa p. 13

(٢) أطلس الشئون الإفريقية ترجمة عبد العليم السيد منسى ص ١٦ .

حيث قال : إن الرحالة العرب كانوا غير متحيزين فيما دونوه عن إفريقية ، ونحن مدينون لهم فيما كتبوه عن ماضينا ، أما السكان الأصليون فلم تكن العربية لغتهم ، وقد كتب بها بعضهم ، ولكن جمهور الناس لم يحفل بما كتبوه فضاع فى ضجيج الأحداث ، وقلما كتب هؤلاء السكان بغير العربية إذ لم تكن هناك لغات ذات بال فى هذه المناطق ، وإنما وجـدت لهجات هزيلة للاستعمال فى مطالب الحياة اليومية دون صلاحية للتدوين أو للكتابة كما سنرى عند الحديث عن اللغات واللهجات ، وعندما جاء الاستعمار ارتبطت كتابة تاريخ هذه المنطقة فى الغالب بالتبشير والمبشرين المسيحيين ، فحادت كتابتهم عن الصواب ، ومشت غالباً فى خدمة المسيحية الغربية والاستعمار الغربى ، ومع هذا فسنحاول بإصرار أن نعرض خطوط الحياة فى هذه المنطقة بوضوح . والله المعين .

وبمناسبة الحديث عن المراجع أحب أن أذكر أنه مع الحشد الكبير للمصادر والمراجع الذى استوعبته هذه الدراسة ، فإن هناك مشكلة طالما استوقفتنى وأنا أطالع بعض ما كتبه المحدثون ، هى أن منهم من أخذ المصادر أصلاً والفكرة فرعاً ، فراح يضع للفكرة الساذجة عشرات المراجع ؛ نعم عشرات المراجع دون مبالغة ، والرأى الذى أدين به أن الفكرة هى الأصل ، فإذا عثرنا عليها وثقفناها بما يضمن صحتها وما يفتح للقارئ آفاقاً جديدة ، وأن يكون حشد المصادر بسبب وبدون سبب هدفاً لى على الإطلاق .

— ومنهجنا فى كتابة تاريخ العالم الإسـلامى يرتبط بالإيجاز من جهة ، والوضوح والشمول من جهة أخرى ، وفى ضوء هذا المنهج لا نعطى تفاصيل الأحداث حتى لا تزيد أجزاء هذه الموسوعة عن ثمانية كما رسمنا منذ ربع قرن ، لأن انسيابنا خلف هذه التفاصيل سيخرج بنا عن هذا المنهاج ويؤجل ظهور باقى أجزاء هـذه الموسوعة ، وقد كان مما دعا لسرورى أن كثيراً من طلاب الدراسات العليا قد لجأوا إلى دراسة الدول والمشكلات التى ألممت بها إلماماً سريعاً فى الجزء الرابع والخامس من هذا المؤلف ، وكتبوا عنها

دراساتهم وأبحاثهم ، وذلك هو ما قصدت إليه ، فإن هورى هو أن أرسم الخطوط العريضة للعالم الإسلامى كله فى هـذه الأجزاء الثمانية ، وأن ألقى الضوء على الشخصيات المهمة والأحداث الكبرى والدول الإسلامية ، رجاء أن يتجه الباحثون لإبراز التفاصيل عن هذه الأحداث والشخصيات والدول ، على أنى فى هذا الجزء بوجه خاص لم أعْنَ بالايجاز ، وعمدت الى ايراد بعض التفاصيل ، وذلك لصعوبة المراجع فى موضوعات هذا الجزء ولقلة مايغنى عنه .

— وإن سرورى بهذا الجزء لا يعدله سرور ، وذلك لسبب واضح هو أننى ضممت به إلى مادة التاريخ الإسلامى تاريخ بلاد عزيزة على الإسلام والمسلمين ، فقد درستُ التاريخ الإسلامى بعدة جامعات بالشرق والغرب ، وكان يروعنى أن التاريخ الإسلامى محصور فيما يمكن أن نسـميه « تاريخ العرب » إذ اتجه الاهتمام إلى دمشق وبغداد والقاهرة ، وما يتصل بها من بلاد عربية ، وعنـدما تذكر إيران أو الهند . . . . يكون ذلك مرتبطاً بالفتوحات والحروب ، وحَصْرُ التاريخ الإسلامى فى نطاق العالم العربى خطأ كان لا بد أن نضع حداً له ، وطالما كنت أوضّح أن هذه المادة فى هـذا النطاق المعمول به ينبغى أن تُسمّى التاريخ العربى أو تاريخ العالم العربى ، أما إذا أريد أن يكون للتاريخ الإسلامى مدلوله الصحيح فيلزم أن يمتد لدراسة تاريخ سبعمائة مليون مسلم يعيشون فى مناطق فسيحة تمتد من المحيط الأطلسى إلى أقصى الجزر فى المحيط الهادى ، ومن مناطق أذربيجان وتركستان شمالا إلى الغابات الاستوائية جنوبا ، فتشمل الدراسة بذلك تاريخ هذه البلاد التى خصصنا لها هذا الجزء ، وتشمل البلاد الإسلامية غير العربية بآسيا التى خصصنا لها الجزء الثامن من هذه الموسوعة . وإننى أرجو أن يحس المسلم فى أى بقعة من هذه البقاع بأنه جزء من هذا العالم الإسلامى الفسيح ، وأن له به إخوة يرتبطون به بأوثق الروابط ، وعليه أن يتدارس تاريخهم وحضارتهم ، فإن تاريخ أى قطر إسلامى فى أية بقعة من البقاع جزء من التاريخ الإسلامى كله ، وأن أية حضارة تنبع فى أى مكان ليست إلا قبساً من الحضارة الإسلامية الخالدة .

ومن مزايا هذا الجزء كذلك أنني أحاول به أن أسهم مع الباحثين في إبراز تاريخ بلاد أوشك التاريخ أن يتجاهلها أو يتجاهل أكثرها ، مع أن لكثير منها دوراً في حضارة العالم ينبغي ألا ينسى .

ومما يدل على نسيانها أن الجغرافيين المعاصرين الذين رسموا خريطة العالم الإسلامي وهي تتسع من قرن إلى قرن لم يضمنوا تلك الخريطة، هذا الجزء المهم[1]، وأن المؤرخين المحدثين الذين تحدثوا عن الأسرات الحاكمة في العالم الإسلامي لم يتحدثوا عن هذه المناطق أي حديث[2].

— ومن الواضح أن انتشار الإسلام بإفريقية استغرق عدة قرون ؛ فبينما كانت هناك وثنية في منطقة كان الإسلام يزدهر في منطقة أخرى ، وفي بعض القبائل أو بعض النواحي تجمعت الوثنية والإسلام والمسيحية في وقت واحد ، وسنحاول ما وسعتنا الطاقة أن نجلي هذه المسألة .

— ويبدو من تخطيط هذا الكتاب أننا تحدثنا عن انتشار الإسلام بإفريقية وعوامله المختلفة ، فلما قامت الدول الإسلامية بإفريقية عمدنا إلى الحديث عن هذه الدول وعن تاريخها منذ قامت ، وطبيعي أننا عددنا الدولة إسلامية أو غير إسلامية حسب أكثرية السكان في أدق إحصاء استطعنا الحصول عليه ، أما الدول التي لم تصل إلى أن تعد في نطاق الأمم الإسلامية لأن المسلمين بها يكونون أقلية بين السكان ، فقد تحدثنا عنها ونحن نتكلم عن نشر الإسلام بالقارة ، كما تحدثنا عنها مجتمعة في الباب السادس تحت عنوان « الأقليات الإسلامية بالدول الإفريقية » .

ولكن تبدو في هذه القارة ظاهرة خطيرة هي وجود أكثرية إسلامية عددية أحياناً بدون نفوذ يطبع الدولة بطابع الاسلام ، فإذا كانت الحبشة مثلا بها أكثرية عددية من المسلمين فإن طابع الدولة هو المسيحية والتعصب

---

(١) انظر : Harry Hazard : Atlas of Islamic Histaoy

(٢) انظر : Stanley Lone-Poole : Muhammadan Dyrastics

ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي لزامباور .

لها ، ومثل هذه الدولة لا نستطيع أن نضعها بين الدول الاسلامية حتى مع كَوْن المسلمين أكثرية بها .

فالدولة الإسلامية الصحيحة هي التي تتبع التشريع الإسلامي والسلوك الإسلامي تماماً ، وإن كنا نكتفي في التاريخ بالاعتقاد بأن الدولة الإسلامية هي ذات الطابع الإسلامي بوجه عام، وهو ما لا يمكن أن ننكره على كثير من الدول وإن كان في تشريعها مقتبسات من تشريعات الغرب . أما الحبشة مثلا فلا يمكن أن نذكر أن الطابع الإسلامي هو طابعها ، مهما كان عدد المسلمين بها .

وفيما يتعلق بالتعداد ينبغي أن أوضح أن الإحصاء ليس دقيقاً في الغالب حتى إذا كان رسمياً ، فقد اتجهت الأنظار إلى المغالطة بسبب الحياة القبلية وبسبب الأديان ، فالوثنية مثلا أو المسيحية تريد أن تبرز أن لها كياناً ، وأن عددها وفير ، فتعمد إلى الزيادة في عدد أتباعها ، وربما فعل المسلمون ذلك أيضاً ، ومثل هذا تفعله القبائل ليكون لها نفوذ أوسع ، ويبرز هذا الوضع في نيجيريا والحبشة ؛ ففي الأولى ارتفع عدد السكان ارتفاعاً يقال إنه صناعي وليس حقيقياً ، وظهر المسلمون أقلية بالنسبة للأرقام الخيالية التي أضافها المسيحيون والوثنيون(١) ، وفي الحبشة تقفز عدد المسيحيين وأهمل المسلمون في التعداد إلى حد كبير ، ومع هذا فسنحاول بوسائل متعددة أن نصل إلى التعداد الأقرب للصواب .

— ولم يكن من الممكن أن نسير في هـــذا الكتاب على نحو ما سرنا في الجزء الرابع أو الخامس من الكلام عن كل قطر على حـــدة منذ دخله الإسلام حتى الآن ، وذلك لاختلاف التسمية ، فغانا الحديثة مثلا ليست هي غانة القديمة لا من ناحية الأرض ولا من ناحية السكان ، ومملكة صنغاي شملت أرضاً تقوم عليها الآن نيجيريا وساحل الذهب ، وإمبراطورية بورنو ومملكة كانم اختفتا حيث قامت دولة تشاد ، وهكذا ، ثم إن الاستعمار عندما جاء ، ألغى الأسماء القديمة والحدود القديمة واقترح أسماء جديدة وحدوداً

---

(١) انظر : Nigeri Handbook 1970 p. 78

جديدة ، فظهر السودان الفرنسي يضم عدة دول إفريقية قديمة ، وظهر السودان البلجيكي وهكذا .

من أجل هذا سرنا على تقسيم هذه الدراسة إلى فترات تاريخية متتابعة ، كل فترة يشملها باب من أبواب هذا المجلد على النحو الآتي :

- إفريقية قبل الإسلام
- انتشار الإسلام بإفريقية : طرقه ووسائطه .
- الدول الإسلامية بإفريقية قبل الاستعمار الأوربي .
- الاستعمار الأوربي لإفريقية وموقفه من الإسلام .
- الدول الإسلامية بإفريقية بعد زوال الاستعمار .

ومع هذا ففي الباب السادس عند الكلام عن الدول الإسلامية الحالية عمدت إلى إيراد دراسة متصلة لكل قطر ، تبدأ من الماضي وتصل إلى الحاضر ، موجزاً ما فصلت في الأبواب السابقة لتصل معالم الصورة إلى أقصى حد ممكن من الوضوح .

- وقد خصصنا الجزء الرابع من هذه الموسوعة للحديث عن الأندلس وعن دول الشمال الإفريقي : المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، ثم سرنا في الجزء الخامس نكمل دول الشمال الإفريقي فتحدثنا عن مصر ، واستلزم ذلك أن نتحدث عن سوريا لطول الوحدة بين مصر وسوريا على مر التاريخ ، واستتبع ذلك أن نتحدث عن الحروب الصليبية التي دارت رحاها في مصر وسوريا ، كما استتبع أن نتحدث عن الإمبراطورية العثمانية التي آل لها مصير مصر وسوريا فترة طويلة من الزمن ، وكان طبيعياً بعد ذلك أن نعود لإفريقية في هذا الجزء لنستكمل دراسة الإسلام والدول الإسلامية بها خلف الصحراء ، وهذا فيما أرى ترتيب طبيعي لم أجد مناصاً من اتباعه .

وهناك محاولة صارمة ألا يحدث تكرار بين موضوعات هذا الجزء والأجزاء السابقة إلا للضرورة القصوى ، فالخطة متكاملة وليست متداخلة .



وبعد ، ما أظنني عانيت فى كتاب مثل ما عانيته فى هذا الجزء ، لقد استدعى صبراً طويلا ، وجهداً متصلا ، واحتاج إلى مراجع كان الحصول على أكثرها عسيراً ، وقد تمت برحلة علمية إلى بعض المناطق التى يشملها هذا البحث ، وكان من أهم أهداف هذه الرحلة التعرف على نقاط غامضة فى الموضوع والحصول على بعض المراجع ، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه .

ودعاء أن يجعل الله هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم ، ومفيداً للأمة الإسلامية ، وأن يثيبنا عليه ، إنه نعم المجيب ؟

دكتور أحمد شلبى

المعادى فى الثانى والعشرين من يناير سنة ١٩٧٢

مقدمة الطبعة الثالثة

حمدا لله واهب النعم ، الملهم لكل خير ، والمعين فى كل عمل ، وشكرا للقراء على إقبالهم الذى فاق كل أمل ، والذى دفعنى لمضاعفة الجهد .

ويسرنى أن ألتقى بالقارىء العزيز خلال الطبعة الثالثة لهذا الكتاب ، وفيها زيادات كبيرة الأهمية فى الباب الأخير منه تصل الأحداث إلى الوقت الحاضر ، وتحقق الغاية التى نسعى لها من أجل الانتفاع بالتاريخ ، بجعله مؤثرا يدفع إلى تحسين الحاضر والمستقبل .

والله المسئول أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به كاتبه وقارئه إنه سميع مجيب ؟

القاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٧٨

دكتور أحمد شلبى

الباب الاول

تعريف بالعمارة

معلومات عامة عن القارة

إفريقية قارة تبلغ مساحتها حوالى ٣٠ مليون كيلو متر مربع (حوالى ١٢ مليون ميل مربع) وهى بذلك خمس مساحة الكرة الأرضية ، وعدد سكانها ٢٣٥ مليون نسمة أى حوالى ٨٪ من سكان العالم ، وهى بذلك قليلة السكان . ويفصلها عن أوربا البحر المتوسط ، وتقف جزره حلقات اتصال بين القارتين ، ويفصلها عن آسيا المحيط الهندى والبحر الأحمر ، وهى تقترب كثيراً من أوربا عند مضيق جبل طارق ، ومن آسيا عند بوغاز باب المندب وترتبط فى شمالها الشرقى بآسيا عن طريق شبه جزيرة سيناء وبرزخ السويس .

وإفريقية تتكون من هضبتين كبيرتين تحف بهما سهول ساحلية منخفضة ؛ الهضبة الشمالية وتمتد من المحيط الأطلنطى حتى البحر الأحمر ، وتشمل الصحراء الكبرى وبلاد السودان ، وبها بعض المرتفعات مثل جبال تيبستى وبعض المنخفضات مثل تشاد والقطارة والفيوم ، والهضبة الجنوبية أكثر ارتفاعاً من الهضبة الشمالية ، ومن أهم مرتفعاتها هضاب الحبشة وشرق إفريقية(١) .

وبالقارة عدد من البحيرات الكبرى أكبرها بحيرة فيكتوريا نيانزا ، وأهم أنهار القارة النيل والكونغو والنيجر والزمبيزى والسنغال ويقسم خط الاستواء القارة قسمين ، والقسم الجنوبى أضيق من القسم الشمالى ولهذا كان مناخه أكثر اعتدالاً .

وتكثر الزراعة فى إفريقية معتمدة على المطر أو على الرى ، فتزرع بها الحبوب الغذائية والقطن والتبغ والفول السودانى والبن والشاى والكاكاو وغيرها .

وفى مجال المعادن نذكر أن مستقبل إفريقية مشرق كل الإشراق ؛ ففيها أكبر كميات من الصفيح فى العالم ، وفيها كميات هائلة من الكوبالت ، وهو

(١) A. J. Hughes : East Africa p. 9

مالا غنى عنه فى صناعة الفولاذ اللازم للآلات السريعة ، وإذا استثنينا الموارد السوفيتية ، فإن الكونغو وكندا ، هما المنطقتان الوحيدتان فى العالم اللتان تنتجان الكوبالت بكميات كبيرة ومهمة ، وتقوم أضخم مخزونات النحاس فى إفريقية ، وتمثل مخزونات الراديوم ستين فى المائة من موارد الغرب من هذا المعدن الثمين النادر ، وهناك كميات ضخمة من الذهب فى إفريقية (حوالى ٥٥٪ من إنتاج العالم) وتعتبر ماسات إفريقية من أجود أنواع الماس وأضخمها فى العالم (٩٨ ٪) ، وفى غانا وسيراليون كميات كبيرة من الماس الصناعى ، وتنتج إفريقية ثلث إنتاج العالم من معدن الكروم ، كما تنتج خمس الإنتاج العالمى من المنجنيز ، ويمكن القول بأن أراضى غانا مملوءة بالمنجنيز والبوكسيت ، ولا تعتبر إفريقية مفتقرة إلى الحديد الذى يوجد متوافراً فى جنوب السودان ، وجبال إفريقية الشرقية ، وفى القارة كميات لا بأس بها من الفحم والبترول .

وليست هناك قارة حبتها الطبيعة بالموارد الطبيعة كما حبت إفريقية ، ولا تفتقر إفريقية إلاّ إلى شيئين هما : المهارة الفنية ، ورأس المال ، وهذان العاملان ضروريان كل الضرورة لتحويل الموارد الطبيعية إلى منتجات نافعة .

ولو قدر لإفريقية أن تحسب مواردها على مستوى القارة كوحدة واحدة ، فإن فى وسعها أن تقول بأنها تملك ثقافة موحدة ، وسكاناً صالحين ، ومخزونات معدنية ، واحتمالات زراعية ، وتملك إفريقية فى داخلها كالاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة جميع المواد الأولية التى تحتاج إليها فى مشاريع تصنيعها (١) .

وموقع القارة شديد الأهمية من الناحية الاستراتيجية ، ويبرز الأميرال ريتشارد كونولى المناطق الاستراتيجية الكبرى بالقارة ، وهى طنجة وقاعدة

---

(١) W. E. Abraham : The Mind of Africa p.p. 187—188

و Basil Davidson : The Lost cities of Africa p. 81

مراكش الجوية ، وليبيا وأريتريا والصومال وجزيرة مدغشقر ورأس الرجاء الصالح وقاعدة دكار[1]،ويوضع فى القمة من هذه المواقع الاستراتيجية مصر التى تعد باباً لإفريقية ولآسيا فى نفس الوقت ، والتى تمتاز بكثير من الامتيازات التاريخية والاجتماعية التى تجعلها شديدة التأثير فى مناطق واسعة تحيط بها .

Richard Coseley : Africa to - day P. 55 (١)

كشف القارة

عنيت المراجع الأوربية بالحديث عن كشف إفريقية وأبرزت دور الأوربيين فى هذا العمل ؛ والذى يقرأ ما كتبه هؤلاء يحس أن إفريقية كانت شديدة الشبه بأمريكا أو أستراليا ؛ كانت عالماً غامضاً كشف عنه الرحالة والمغامرون الأوربيون ، والحق أن إفريقية ليست كذلك وبخاصة هذه المناطق التى شملها الإسلام عندما جاء الإسلام ؛ تلك المناطق التى يتناولها هذا الجزء والجزء الرابع من هذه الموسوعة ، ولم تكن هذه المناطق معروفة فحسب ، بل أنها سبقت شمالى أوربا فى الظهور يقول Panikar [1] : « بالنسبة للإغريق والرومان كان شمالى أوربا ؛ لا إفريقية ، هو الأرض الغريبة غير المألوفة » وقد قامت شمال الصحراء وجنوبها دول وإمبراطوريات قبل ظهور الإسلام والمسيحية وبعد ظهورهما ، وسنوضح ذلك فى الدراسة القادمة ، كما أثبت المسح الأثرى على الشاطئ الآخر للمحيط الهندى أن هناك تشابها يرجع إلى عهد مبكر بين كل من تاريخ الملايو وتاريخ ساحل إفريقية الشرقى ، وكان النفوذ الهندى المباشر قوياً جداً فى الملايو ومن المحتمل أنه كان موجوداً كذلك فى شرقى إفريقية ، كما أن السلع التجارية الصينية والاهتمامات التجارية كانت قد بدأت تُحْدِث أثراً على كل المحيط الهندى فى الفترة التى تمتد من القرن الخامس إلى القرن الثانى عشر[2] ، وقد ذكر الرحالة Gervase Mathew أن التاريخ المدون لمنطقة شرقى إفريقية يبدأ بظهور الكتيب التجارى الذى وضع فى أواخر القرن الأول الميلادى باللغة الإغريقية ،

---

(١) Serpent and Crescent p.p. 12, 26. من الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ أحمد فؤاد بليع ولم تنشر بعد .

(٢) Gervase Mathew : The Land of Negro p. 34.

والذى يطلق عليه اسم كتاب « الطواف البحرى للمحيط الهندى » ويقرر Gervase (١) أنه عندما قام برحلته على الطرق التى وصفها هذا الكتاب أيقن بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الوصف كان وصف شاهد عيان أبحر ناحية الجنوب على طول شواطىء المنطقة المعروفة الآن ، باسم صوماليا وكينيا وتنجانيقا ، ووصف أسواقهم بأنها كانت جزءاً من الشبكة الملتحمة لتجارة المحيط الهندى ، فقد كانت السفن تبحر إلى هناك وافدة من مصر فى شهر يوليو وتصل إليها مباشرة سفن أخرى قادمة من الهند الغربية ، وكان يوجد هناك عرب يعرفون مختلف أجزاء الساحل ، بل ويتحدثون أيضاً اللغة السائدة فيها .

وليس الساحل الشرقى فقط هو الذى كان معروفاً ومطروقاً ، وإنما كانت كذلك منطقة تشاد فى قلب إفريقية ، ومناطق غربى إفريقية تزدهر بها حضارة عريقة يرجع تاريخها إلى بضعة قرون قبل الميلاد ، وسنشير إلى هذه الحضارات عند حديثنا عن حضارة إفريقية الأصيلة .

وعبر مئات السنين كانت الصلة وثيقة بين شمالى إفريقية ، وبين غربى القارة ووسطها .

وعلى هذا فالحديث عن كشف هذه المناطق يمكن أن يكون كشفاً بالنسبة لأوربا ، فقد كانت تجهل هذه المناطق وتعرفت عليها ، والحقيقة أن أوربا كان جهلها بإفريقية عميقاً ، فقبل القرن الخامس عشر لم تكن تعرف عن إفريقية شيئاً إلا عن مصر والشمال الإفريقى (٢) و لم تعرف الحبشة إلا فى عصور متأخرة ، ويقرر John Buchholzer (٣) . أن أوربا فى العصور الوسطى لم تكن تعرف شيئاً عن بلاد اسمها أثيوبيا أو الحبشة أو عن مجرد وجودها ، وكان

(١) The Land of Negro p. 32.

(٢) Endre Sik : The History of Black Africa p. 96.

(٣) The Land of Burnt Faces p.p. 115—116.

يجرى فى أوروبا آنذاك حديث حول حاكم مسيحى تقع دولته فى مكان ما ربما فى آسيا أو شبه القارة الهندية ، وقد قيل إن البابا تلقى من أمير هـذه البلاد خطاباً يصف فيه عجائب بلاده ، وأنه ينوى أن يذهب إلى بيت المقدس ليطرد منها المسلمين بعد أن احتلوها فى عصر صلاح الدين الأيوبى ، وفى القرن الخامس عشر بدأ الرحالة الأوربيون العائدون من مصر وفلسطين يذكرون ما يروى عن وجود مملكة مسيحية كبرى فيما وراء مصر بمسافة بعيدة ، ولم تُعْرَف الحبشة إلى أوروبا بدقة إلا عن طريق البرتغاليين فى القرن السادس عشر مع أن الحبشة كانت معروفة جداً لدى العرب قبل الإسلام بمدى طويل ، وكانت مركزاً من المراكز التجارية الكبرى عند العرب ، وتذكر المراجع العربية أن بنى عبد مناف الأربعة كانوا يتوجهون إلى الجهات الرئيسية الأربعة التى تتجه لها تجارة قريش ، فكان هاشم يتجه للشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء (١) .

وهكذا كان جهل أوربا بقارة إفريقية واضحاً ، ومن هنا كثر حديثهم عن كشف هذه القارة التى كان التاريخ القديم والوسيط يعرفها تمام المعرفة ، ويوحى كلام أكثر الأوربيين بأن إفريقية كانت غير معروفة تماماً ، وينصف بعضهم فيذكر أنها لم تطأها قدم أوربى . . . .

وسنشرح فيما يلى دور مصر فى كشف القارة فى التاريخ القديم ، ثم دور

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٢ — ١٣ وسبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب لمحمد أمين البغدادى ص ٢١٥ .

العرب فى التعريف بها خلال التاريخ الوسيط ، وأخيراً دور أوربا فى العصر الحديث .

دور المصريين القدماء :

فى الشمال الشرقى من قارة إفريقية قامت حضارة من أقدم الحضارات التى عرفها الإنسان ، هى حضارة الفراعنة ، ولم تقف هذه الحضارة فى مكانها تنعم بما قدمته لها الطبيعة من رفاهية وغنى ، بل راحت تبحث حولها لتعرف جيرانها وتنشر مدنيتها ، وكانت خطوات المصريين القدماء هى اولى الخطوات التى كشفت أجزاء مهمة من هذه القارة وبعثت أشعة النور بين الظلام .

ولعل البعثة التى أرسلها سحو رع أحد ملوك الأسرة الخامسة كانت أول الرحلات المصرية المعروفة ؛ وقد اتجهت هذه البعثة إلى بلاد الصومال والمناطق الواقعة جنوبى خليج عدن لجلب العطور وخشب المر ، وكان الهدف من هذه الرحلات تجارياً فى مكانه الأول

أما التوغل عن طريق النيل فقد بدأ أيام الملك بيبى الأول حوالى سنة ٢٥٠٠ ق . م حين أرسل حملة إلى بلاد النوبة « وراء الشلال الأول » ؛ وجنّد من أهلها فرقا بالجيش المصرى ، استعملها فى غزواته الشمالية ؛ وظلت هذه عادته وعادة كثير من الحكام الذين جاءوا من بعده .

وقد أمر الملك مرن رع بن بيبى بفتح خمسة مسالك فى صخور الشلال الجرنتينية لكشف طريق نهرى يصل مصر بأقاليم السودان الجنوبية التى كانت تصدر لمصر الذهب وسن الفيل وريش النعام وخشب الأبنوس .

وفى أيام بيبى الثانى أرسلت حملة بحرية إلى الصومال تدل عليها بعض النقوش التاريخية ؛ وتكررت غزوات مصر فى عهد الدولة الوسطى ؛ وتركزت فى منطقة السودان الأوسط ، وتعتبر رحلات المصريين أيام الملكه حتشبسوت

فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد رحلات استكشافية من الدرجة الأولى وقد وصلت هذه الرحلات إلى بلاد الصومال ، وكانت هذه الرحلات عن طريق البحر الأحمر فالمحيط الهندى(١) .

وهناك رحلات نيلية قامت إبان الدولة المصرية الحديثة وتصوّر نقوشُ هذه الدولة زنوجاً يسكنون الأجزاء التى تلى التقاء النيـــل الأزرق بالنيل الأبيض ، وقد صورهم الفنان المصرى بملامحهم الزنجية ، وهم يكادون أن يكونوا عراة .

وهكذا سار المصريون مع النيـــل شوطاً طويلا حتى قربوا من منابعه تقريباً ، وساروا كذلك مع البحر الأحمر نحو الجنوب فاكتشـــفوا سواحله وتعرفوا على شرقى إفريقية حتى أريتريا والصومال ، كما اتجهوا نحو الجنوب الغربى حتى بحيرة تشاد ، وتخطوها تجاه الغرب إلى غربى إفريقية .

وهناك طريق آخر سلكه المصريون فى الكشف عن هـــذه القارة وهو الطريق الليبى ، ويقع غرب النيل ، وسلك المصريون القدماء فى هذا الطريق ما يعرف بدرب الأربعين ، وأحياناً سلكوا طريقاً آخر بين درب الأربعين وبين النيل ، ويبدو أن الآبار كانت كثيرة خلال تلك الفترة البعيدة ، وكانت تساعد الرحالة على القيام برحلاتهم(٢) .

وكانت صلات قدماء المصريين بهذه المناطق تشمل ارتباطات بشرية ، كما كانت تشمل الصلات التجارية والثقافية ، واتخذت الصلات أحياناً طابعاً سياسياً أو عسكرياً ، ومن هنا نرى تشابها بارزاً يمكن أن يلاحظه الباحث بين الشعوب التى تعيش فى هذه البقاع حتى الوقت الحاضر ،

---

(١) كشف إفريقية من تقديم للدكتور زاهر رياض ص ٧ — ٩ .

(٢) Endre Sik : The History of Black Africa p. 97 f

وسنورد مزيداً من الإيضاح عن هذه النقاط عند الكلام عن الحضارة الإفريقية الأصيلة .

الفينيقيون والرومان :

أما شمالى إفريقية فقد عرفه الفينيقيون منذ أمد بعيد وأنشأوا على سواحله المدن ، حتى حلّ محلهم الرومان وأنشأوا إمبراطوريتهم التى امتدت من مصر حتى المحيط الأطلسى ، ولكن قلّ من الرومان من اخترق الصحراء متجهاً إلى الجنوب .

العرب :

اشتهر العرب بجنوب الجزيرة العربية فى مناطق اليمن وحضرموت بأنهم شعب تجارى أصيل ، وأنه يتخطى الصعاب لنزاول تجارته ، وعلى هذا فإن عرب هذه المنطقة عبروا البحر الأحمر فى فترات بعيـــدة قبل الإسلام ، وتعرفوا على الساحل الشرقى لإفريقية ، وكانت لهم معه تجارة واسعة متصلة .

بل إن هناك نظرية جغرافية قديمة تقول إن الجزيرة العربية كانت امتداداً لقارة إفريقية فى العصور القديمة ، وذلك قبل أن يحدث انكسار الأخدود الإفريقى الذى أدّى إلى نشوء البحر الأحمر ففصل الجزيرة عن القارة[1] وإذا صح هذا فإنه يوضح مدى النفوذ الكبير بين القارة وبين شبه الجزيرة العربية .

فلما جاء الإسلام واستولى العرب على شمالى إفريقية لم يقنعوا كما قنع الرومان بالساحل ، لأن الصحراء لم تكن شيئاً غريباً عليهم ، فاقتحموها واخترقوها إلى ما وراءها ، وكان العرب قد نزلوا مع النيل بعد فتح مصر

(1) Fitzgerald : Africa p. 6 .

شوطاً طويلا وبهــذا تمّت صلاتٌ بين المنافذ العربية الوافدة من الشمال ، والمنافذ العربية المنطلقة مع النيل ، وتلك المنافذ الوافدة عبر البحر الأحمر(١)، ثم انتشر الإسلام بعد ذلك فى هذه المناطق انتشاراً واسعاً سنصفه فيما بعد ، وخلق الإسلام فرصاً واسعة للرحالة العرب الذين لا يعرفون حدوداً تفرق بين البلاد الإسلامية ، وعلى هذا فقد اهتم الجغرافيون العرب بالكتابة عن إفريقية سواء منهم من زارها وكتب مشاهداته ، أو من تلقّى معلوماته من الآخرين بطريق المشافهة أو القراءة ، ومن هؤلاء :

١ — ابن خرداذبة (٣٠١ هـ — ٩١٣ م) جغرافى عربى اسمه عبد الله بن أحمد ، كان جده خرداذبة مجوسياً أسلم على يد البرامكة ، وكان عبد الله يشغل منصب صاحب البريد والخبر بناحية الجبال (العراق العجمى) فأغرته هذه الوظيفة بالتعرف على البلدان ، ونتيجة لهذه المعرفة ألف كتابه « المسالك والممالك »(٢) . وقد عنى فيه بالطرق ومسافاتها بين الأقاليم التى وصفها مع بيان إحصائى عن جباية الخراج إبان الدولة العباسية .

٢ — المسعودى (٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م) وهو من ذرية الصحابى عبد الله ابن مسعود وإليه ينسب ، أمضى ربع قرن فى رحلات شملت الهند والصين وإفريقية ومدغشقر وغيرها ، ودوّن ما رآه وما سمعه فى موسوعة مهمة تعد مرجعاً هاماً فى الدراسات الجغرافية والتاريخية(٣) .

٣ — الإصطخرى : إبراهيم بن محمد (٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) قام بسياحة واسعة شملت الهند شرقاً وإفريقية غرباً ، ووضع مؤلَّفَيْن مهمين ضمنهما

---

(١) Endre Sik : The History of Black Africa p. 160 f

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبه عنى بنشره دى غوية فى المجموعة الجغرافية العربية سنة ١٨٨٩

(٣) كتب المسعودى عشرات المؤلفات أشهر ما بقى منهـا « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، ومخطوط عنوانه « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان » .

ما شاهده وما سمعه أحدهما « المسالك والممالك » والثانى « صور الأقاليم » وقد استعان فى وضع هذا الكتاب بمؤلَّف بهذا الاسم لأبى زيد البلخى .

٤ ـ ابن حوقل : محمد بن على الموصلى (٣٦٧ هـ ٩٧٧ م) وهو الرحالة المشهور بدأ رحلاته من بغداد سنة ٣٣١ لغرض تجارى أو سياسى أو لكليهما معاً واستغرقت رحلاته ٢٥ سنة ، زار بلاد العراق وفارس وبلاد إفريقية والأندلس وصقلية ، عاصر الإصطخرى وقابله ، وعرض عليه الإصطخرى كتابه « المسالك والممالك » فصنف ابن حوقل على منواله كتابه « صورة الأرض »[1] .

٥ ـ المقدسى أبو عبد الله (حوالى ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م) قام برحلات طويلة استغرقت عشرين عاماً ، زار خلالها أكثر بلاد الإسلام ثم دون دائرة معارف فى الجغرافية والتاريخ[2] ، وصف فيها بدقة الأماكن التى زارها ، وقد نقل الأوربيون هذا الكتاب إلى بعض لغاتهم .

٥

٦ ـ البكرى : عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤ م) ينسب إلى بكر إحدى القبائل العربية التى سكنت الأندلس ، سافر فى وفد إلى مراكش سنة ٤٧٨ ليطلب عون يوسف بن تاشفين ضد ألفونس السادس ملك قشتالة ، وكان ذلك سبب عمق صلته بإفريقية ، ألف كتاب « المسالك والممالك » وهو موسوعة كبيرة خصص جزءاً كبيراً منها عن إفريقية والمغرب وهو الجزء الذى وصلنا من موسوعته[3] . وكان لصلة البكرى بقصور حكام الأندلس فائدة كبيرة فيما كتب ، إذ كانت الوثائق والسجلات المحفوظة بهذه القصور تحت تصرفه .

---

(١) يسمى كذلك المسالك والممالك والمفاوز والمهالك

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم

(٣) طبع المستشرق الفرنسى لاسال هذا الجزء سنة ١٨٥٧ باسم « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب »

٧ ــ الإدريسي : محمد بن محمد حفيد إدريس الحمودى (٥٤٨ هـ ١١٥٣ م وهو من أمراء بني حمود) ومن أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط في القرون الوسطى ، طاف بلاد الروم واليونان وإفريقية وأوربا ، دعاه روجر الثانى ملك النورمان إلى زيارة صقلية فرسم له الإدريسي ما رآه من البلدان على كرة من فضة ، ورسم خريطة لوادى النيل أبرز عليها منابع النيل الأصلية التى لم يرها الأوربيون إلا فى القرن التاسع عشر ، وله كذلك خريطة للعالم على شكل قرص . وكتبه فى التاريخ والجغرافيا من أهم المراجع فى هذا الميدان(١) .

٨ ــ ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد (٦١٤ هـ ــ ١٢١٧ م) الرحالة العربى العالم ، قام برحلات ثلاث زار فيها الأندلس وإفريقية والشام والعراق وصقلية ، وقد دون مشاهداته فى كتابه الشهير المسمى « رحلة ابن جبير » .

٩ ــ ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٧٧٩ هـ ــ ١٣٧٧ م) وهو شيخ الرحالة جميعاً ، صاحب العين النفاذة ، والتصوير الدقيق ، والذاكرة الواعية ، والملاحظة الدقيقة ، والأمانة الواضحة فى وصف المشاهدات والمقدرة على العرض والنقد ، طاف بتونس ومصر ثم خرج إلى الحجاز واليمن ثم عبر البحر إلى إفريقية ، وسار مع سواحل شرقى إفريقية فوصل إلى سلطنات مقدشو وكلوه وظفار ، ولمتدت رحلته بعد ذلك فشملت الصين وجنوب شرقى آسيا ، ثم عاد إلى المغرب حتى آسيا الصغرى والقسطنطينية ، ثم سار مع الشمال الإفريقى إلى طنجة ، وانحدر نحو الجنوب إلى فاس ، ثم عبر الصحراء الكبرى حتى وصل إلى حوض النيجر ، ودخل عدة سلطنات من أهمها سلطنة مالى ، وكان ذلك فى القرن الرابع عشر ، وقد حدثنا ابن بطوطة

---

(١) له فى ذلك كتابان هما : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وروض الأنس فى نزهة النفس .

في هذه الرحلة الشهيرة عن كثير من عادات الإفريقيين في هذه البقاع ، وتناول حديثه ألواناً من أطعمتهم وملابسهم ، وصـــوراً من حياتهم الاجتماعية كما رآها ، وذكر أن الرجل لا ينسب إلى أبيه ، بل ينتسب لخاله ، ولا يرث الرجلَ إلاّ أبناءُ أخته دون بنيه ، ووصف مجالس المسلمين ووسائل الثقافة عندهم ، وتحدث عن المرأة فذكر بروزها للرجال وعدم انزوائها عن مجانسهم ، ووصف ابن بطوطة الطرق التي عبرها وما بها من أشجار كثيفة ، ووصل ابن بطوطة إلى مالي وتحدث عن سلطانها « منسى سليمان » فوصف مجالسه وإجلال الناس له ، ووصف بإسهاب ما شاهده من ألعاب السودان التي كانوا يقومون بها في أعيادهم ، وأمام ملوكهم ، وعلى العموم فقد كانت رحلة ابن بطوطة غنية بالمشاهد والدراسات المفيدة[١]

وكان هؤلاء الرحالة والجغرافيون من أهم المصادر التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا الكتاب ، وكان من المراجع المهمة ما كتبه أبناء السودان باللغة العربية التي كانت لغة الثقافة آنذاك ، وفي مقدمة هؤلاء محمود كعت[٢] وعبد الرحمن السعدي[٣] .

ومما يدل على دقة الوصف العربي أن الكشوف الأثرية الحديثة التي ألقت الكثير من الضوء على التاريخ القومي لدول السودان في العصر الوسيط جاءت مطابقة تماماً لأوصاف المؤرخين العرب[٤] .

الأوروبيون :

اتجه الأوروبيون لإفريقية ابتداء من القرن الخامس عشر ، واتخذت رحلاتهم المرتبطة بإفريقية مراحل ثلاثة :

---

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار ج ٢ ص ٢٣٢ وما بعدها (بإيجاز)

(٢) تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وقوله لبعض خدمته

(٣) تاريخ السودان

(٤) دكتور ابراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ص ١٢

المرحلة الأولى : مرحلة كشف الطريق إلى الهند حول إفريقية ، ويدخل ضمن هذه المرحلة وتغلتهم للاتجار بالرقيق الإفريقى واتخاذهم المحطات لهذا الغرض ، وقد امتدت هذه المرحلة من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر ووصل فيها البرتغاليون إلى جنوب إفريقية وداروا حول القارة(١)

أما المرحلة الثانية فهى محاولة الكشف والتعرف على القارة ، ومحاولة الحصول على موارد مالية تحل محل تجارة الرقيق بعد أن صدر قرار تحريمه ، وقد امتدت هذه المرحلة طوال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر .

أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة الكشف السـياسى التى قامت بها الدول الاستعمارية ابتداء من النصف الثانى للقرن التاسع عشر ، وكانت بهدف الحصول على المستعمرات التى تمدهم بالمواد الخام والتى تكوّن أسواقاً لمنتجاتهم .

وقد لعب العرب والمسلمون دوراً كبيراً فى قيادة الأوربيين فى هذه المراحل كلها قبل أن يعرفوا سوء النية التى دفعت الأوربيين لهذا الكشف ، فقد كان هناك بحّار عربى اسمه « أحمد » قام بدور المرشد إلى فاسكو دى جاما (١٥٢٤) واستطاع جاما بهذا العون أن يصل إلى الهند عن طريق المحيط ، وفى بعض الأقوال أن المرشد كان رحالة هندياً تتلمذ على يد الرحالة العرب ، لأن العرب أعرضوا عن فاسكو دى جاما ولم يتعاونوا معه .

وفى الكشوف داخل القارة قاد العرب أيضاً المكتشفين الأوربيين وعرّفوهم المسالك بالغابات ، وقدموهم إلى القبائل ، واعتُبرت منازل العرب ملاذاً لهم كانوا يجدون فيها الزاد والأمن وحسن التوجيه ، وما كان الأوربيون يستطيعون أن يقتحموا البقاع التى اكتشفوها داخل القارة لولا عون المسلمين والعرب .

Endre Sik : The History of Black Africa p. 105 (١)

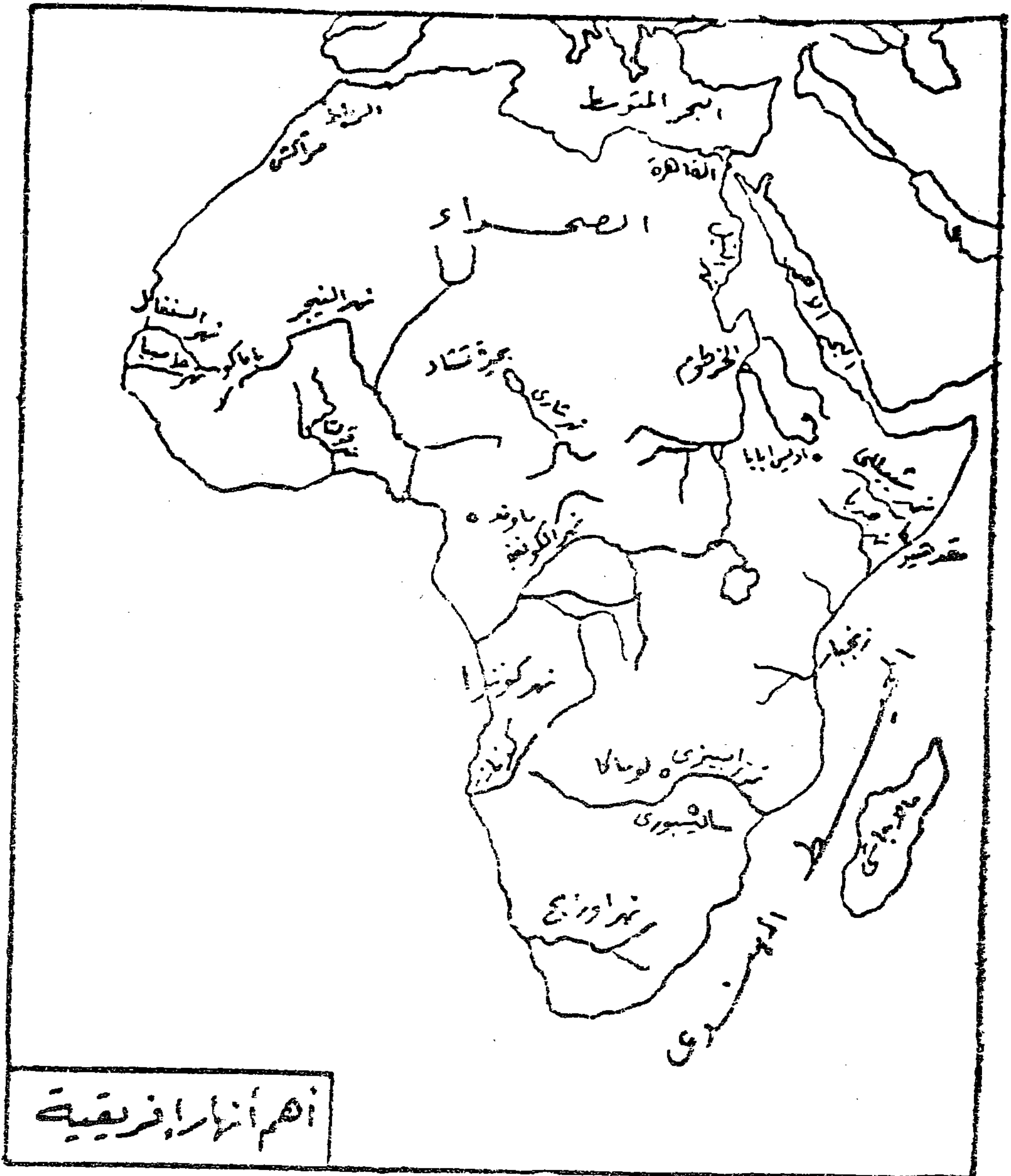
وأهم الرحالة الأوربيين الذين ارتبطت أعمالهم بإفريقية هو هنرى الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) ، وقد كان أمير سجه التى اغتصبتها البرتغال من المغرب فى القرن الخامس عشر ، ومن سبتة اتجه إلى توسيع معلوماته عن إفريقية فأنشأ داراً لصناعة السفن ، ومدرسة للجغرافية والملاحة ، ثم أرسل أتباعه لاكتشاف الساحل الغربى لإفريقية ، وسرعان ما عادوا إليه بالذهب والعبيد ، فأغراه هذا بالمزيد من الكشف والتعرف على القارة ، وأصبح هذا الاتجاه هدف البرتغال الرئيسى ، فقد واصلت سعيها حتى اكتشفت أراضى الزنوج على جانبى السنغال كما اكتشفت الساحل الإفريقى حتى سيراليون والرأس الأخضر سنة ١٤٤٥ ، ثم قفز إلى عالم الملاحة فاسكو دى جاما سالف الذكر (١٤٦٠ — ١٥٢٤) واستطاع أن يدور حول إفريقية وأن يصل إلى الهند فكان أول أوربى يحقق هذا الهدف حوالى سنة ١٤٩٩ وقام برحلة ثانية استعمل فيها أقصى درجات العنف ليدعم قوة البرتغال على الساحل الإفريقى وفى مياه الهند .

ولكن كشف أمريكا بواسطة أسبانيا حوالى هذا التاريخ وجه أنظار أوربا إلى العالم الجديد ، ولم تتجه أنظار الأوربيين لإفريقية آنذاك إلا لتكون مصدراً يُختطف منه الرجال لتعمير أمريكا ، أما موضوع الكشف فقد توقف فترة طويلة فيما عدا نزول الهولنديين جنوبى القارة فى مطلع القرن السابع عشر حيث حلوا محل البرتغاليين .

واستأنفت أوربا كشوفها فى إفريقية فى القرن الثامن عشر ، على يد جيمس بروس الاسكتلندى سنة ١٧٧٠ لكشف منابع النيل ، وقد تمكن من كشف بحيرة (تانا) ثم اتجه شمالا للخرطوم فالقاهرة ، وكانت رحلته علمية تجارية .

وفى سنة ١٨١٦ بدأ الاهتمام بنهر النيجر وحوضه ، وبذل البريطانيون

جهوداً لذلك توّجها جهد « لاندر » ثم « كلابرتون » فأصبح حوض هذا النهر معروفاً لأوروبا .



الأنهار من أهم الطرق لقلب القارة

وفي سنة ١٨٤٠ قام الدكتور « لفنجستون » برحلته التي عبر فيها صحراء كلهاري من جنوبي القارة إلى الشمال ، ثم تمكن من عبور القارة من الغرب إلى الشرق بين سنتي ١٨٥١ و ١٨٥٦ ، وفي سنة ١٨٦٤ تمكن من كشف بحيرة نياسا وتنجانيقا ، وقد ساعده الحكم المصري الذي كان قد امتد أيام أسرة محمد علي إلى كثير من هذه البقاع ، وقد مات « لفنجستون » داخل القارة في تلك السنة :

واستعمل الخديوي إسماعيل صموئيل بيكر لاكتشاف مزيد من البقاع داخل إفريقية حول خط الاستواء وكان ذلك سنة ١٨٦٤ وما بعدها .

وقد مزج صموئيل بكر رحلته بالعنف ، فشن حرباً قاسية على بعض القبائل في أعالي النيل وفي نفس ذلك الوقت قام المكتشف الإيطالي « جيسي » باكتشاف بحيرة ألبرت .

ومن الرحالة المشاهير «استانلي» الذي سار من زنجبار سنة ١٨٧١ واستطاع أن يكتشف مجاهل حوض الكونغو سنة ١٨٧٤ — ١٨٧٥م ، وكان يعمل لحساب ليوبولد ملك بلجيكا ، وهذا دفع بفرنسا إلى المشاركة في أعمال الفتح ليكون لها نصيب في امتلاك الأجزاء المفتوحة .

وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر نشطت أوربا للاستيلاء على البقاع الإفريقية في كل الاتجاهات .

الرحالة العرب في العصر الحديث :

لم تتوقف رحلات العرب في إفريقية في العصر الحديث ، بل كثرت رحلاتهم ودراساتهم في البقاع المختلفة بوسط إفريقية ، ومن أشهر الرحالة العرب في العصر الحديث محمد بن عمر التونسي الذي سار إلى دار فور سنة ١٨٠٢ وترك لنا وصفاً شاقاً لهذه المناطق شرح فيه أحوال السكان

الاجتماعية والسياسية ووصف حياتهم وطرق معيشتهم ، كما أسهم الرحالة أحمد حسنين المصرى فى هذه الكشوف برحلتين قام بهما بين سنتى ١٩٢١ — ١٩٢٣ وقد كشف فيهما الصحراء الغربية ، وكان برفقته رحالة بريطانى فى الأولى ، أما فى الثانية فكان وحيداً ، وقد استطاع فى هذه الرحلة أن يصحح بعض الأخطاء التى وقع فيها من سبقوه[1] .

خريطة القارة :

لم تظهر خريطة إفريقية فى الدراسات الجغرافية إلا على يد بطليموس الاسكندرى سنة ١٥٠ ميلادية ، ولكن خريطة بطليموس لم تعط فكرة واضحة عن إفريقية فليس بها إلا معلومات قليلة عن الساحل الإفريقى للبحر المتوسط ، وسواحل البحر الأحمر ، أما الخريطة الحقيقية التى تعد الأولى من نوعها ، فهى تلك التى وضعها المسعودى فى القرن العاشر وهى خريطة قريبة من الواقع تُظهِر القارة الإفريقية وحولها المياه من كل جانب .

وقد بدأت أوربا تجمع معارفها عن بلاد السودان،وعن التراث الإسلامى وكان هذا التراث هو العمود الفقرى أو الينبوع الرئيسى لمدرسة الخرائط أو معهد الخرائط الذى قام بجزيرة ميورقة فى العصور الوسطى وقد اعتمد علماء تلك المدرسة على المعلومات والأوصاف التى دونها كتاب العرب عن بلاد السودان ، أمثال البيرونى والبكرى وابن سعيد والإدريسى وغيرهم ، وذلك فيما أصدروه من خرائط عن العالم[2] .

تلك لمحة سريعة عن كشف القارة ، ومنها يتضح أن المصريين والعرب كانوا أهم عنصر مثبت أقدامه على مناطق فسيحة من هذه القارة ، وألتى بحضارته وفكره فى أكثر نواحيها .

---

(١) كشف إفريقية : من تقديم الدكتور زاهر رياض ص ١٧ — ١٩ بتصرف .

(٢) دكتور إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ص ١٠ — ١١ .

الأديان فى إفريقيـــة

تنتشر فى إفريقية كثير من العقائد البدائية كما تنتشر بها مجموعة من العقائد الوافدة فى قمتها الإسلام والمسيحية ، ومن العقائد البدائية تقديس ظواهر الطبيعة وأرواح الأجداد ، أو تقديس أرواح وهمية غامضة ، وكذلك تقديس الأبطال والرؤساء .

والطوطمية وجدت طريقها كذلك إلى بعض مناطق إفريقية وبخاصة قبائل الدونكا فى بحر الجبل ، والطوطمية هى الاعتقاد بأصل من الحيوان أو النبات لهذه الجماعات البشرية ، ثم يتطور هذا الاعتقاد إلى تقديس الحيوان أو النبات أو عمل تمثال له يطلق عليه « الطوطم » ويكون هذا الطوطم محل التقديس ، ولعل هذا التمثال كان أساس انتشار الوثنية[1] ، وكانت قبائل الدونكا تتخذ (آجار) — وهو اسم ثور — طوطما لها ، واتخذت بعض قبائل داهومى (الأفعى) معبوداً لها .

وانتشرت فى بعض مناطق الكونغو عبادة الأرواح ، كما وصلت بعض المعادن وبعض النباتات إلى درجة القداسة ، وشاعت عبادة النيل فى أعالى حوض النهر . وهناك اعتقاد بأن أرواح الموتى تنطلق عقب الموت إلى الخلود بقدر ما يقدَّم لها من القرابين والضحايا ، وفى روديسيا يعتقد البعض بتناسخ الأرواح ، وتهتم أكثر قبائل إفريقية بالسحر والكهانة ليمكن الوصول عن طريقهما إلى الأرواح الخفية ومعرفة المغيبات ، وكل هذه المعتقدات هى اتجاهات وثنيةعلى أى حال[2] .

ويمكن أن نبسط النمط الدينى فى إفريقية فى خطوطه العريضة بأن نقسم

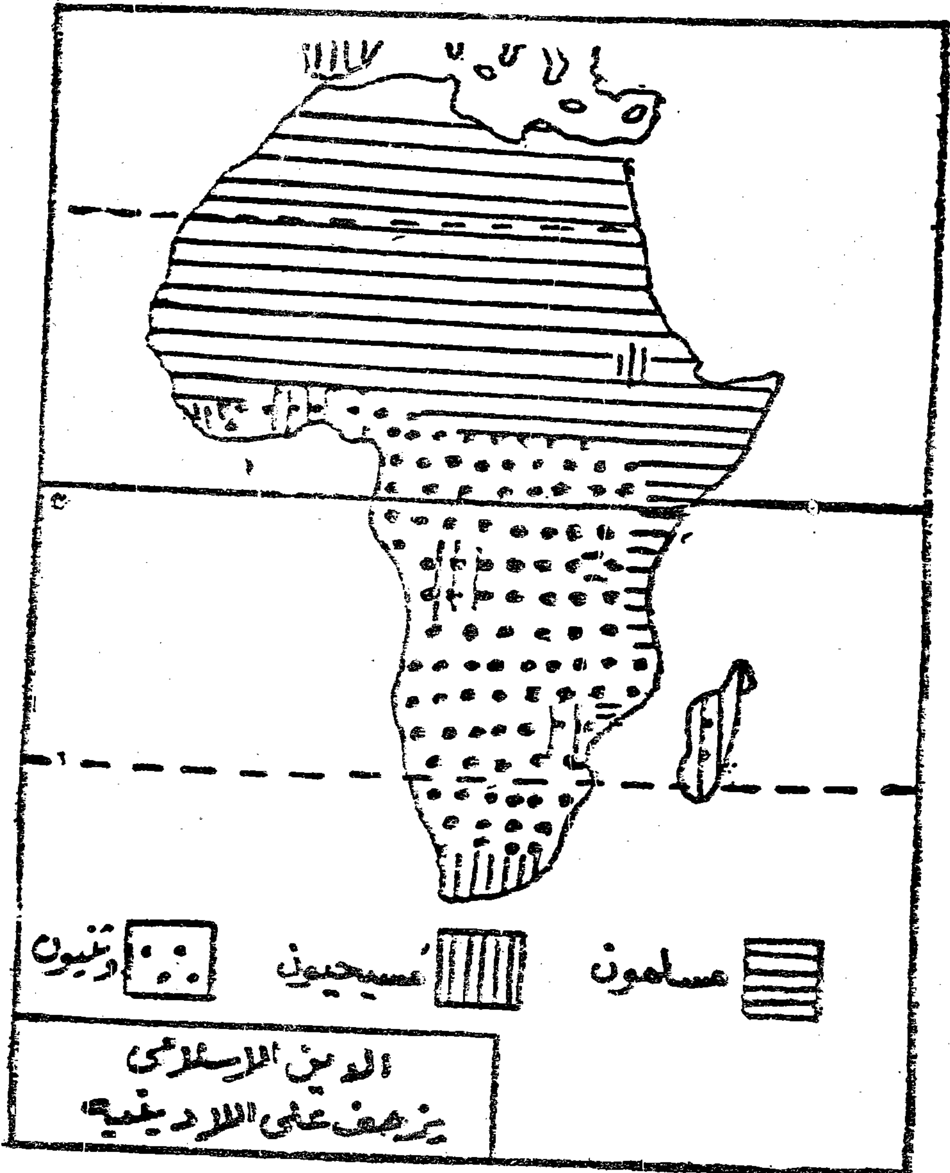
---

(١) اقرأ عن الطوطمية فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٧٨ وما بعدها .

(٢) عن الأديان البدائية بإفريقية انظر :

Geoffrey Porrinder : Religion of Africa pp. 39—88.

القارة كتلتين : إسلام فى الشمال ، ووثنية فى الجنوب ، أما المسيحية فلازالت صبغة محلية ، وظاهرة ساحلية طارئة ، ولما كانت الوثنية (Animism) نوعاً من اللادين أكثر منها دينا ، أو هى دين بالمعنى السلبى ، فإن الصورة تصبح فى النهاية صورة قطب موجب فى الشمال يزحف باطراد على القطب السالب بالجنوب .



ويمكننا أن نميز – من حيث الانتشار فى القارة – بين نطاقين زمنيين للإسلام ، نطاق « الإسلام القديم » ونطاق « الإسلام الحديث » , وقد انتشرت اللغة العربية مع الأول ، فدخلت دوله نطاق العالم العربى ، أما الثانى فيشمل الإسلام جنوب الصحراء ، أو الإسلام المدارى كما يسميه البعض وهو لا يزال يتوسع توسعا سهلاً بعيد المدى ، حتى استطاع أن يضاعف نفسه فى العشرين سنة التى تقع بين ١٩٣١ و ١٩٥١ ، وهو بهذا يكون « ثورة صامتة » تكتسح القارة[١] .

وترجع قوة الدفع التى خدمت تقدم الإسلام إلى أنه – كما سنرى عند الحديث عن انتشار الإسلام – يسير غالباً بقوى من الداخل ، فالعرب أسلموه إلى البربر ، والبربر اندفعوا به فى غربى إفريقية حتى تسلمه منهم السودانيون ، وراح هؤلاء يغزون به أرضهم أرض الزنوج ، وهذا يجعل نموه نمواً طبيعياً ، غير مرتبط بقوى من الخارج ، وذلك يحيطه بهالة من القومية والتقدير .

ثم إن الإسلام جنَّد لخدمته أهم وأقوى لغات القارة ، وهى اللغة السواحلية ولغة الهوسا ولغة الماندنجو ، فلم يعد الشعب السودانى فقط هو الذى يحمل الدين الإسلامى ، وإنما أصبحت اللغات السودانية تلعب نفس الدور وتخدم العقيدة النشطة التى تنساب إلى كل بيت وإلى كل قصر بنفس القوة التى تغزو بها الرعاة وسكان الغابات والصحراء[٢] .

وناحية أخرى مهمة هى أن المسلمين الذين حملوا الإسلام للقارة كانوا رسل حضارة فبذروا فى إفريقية كل جوانب معارفهم فى كل اتجاه ، وكان لهم على الاقتصاد الإفريقى أثر كبير فى مجالات التجارة والزراعة : فهم الذين

---

(١) Bendot نقلا عن دكتور جمال حمدان : إفريقية الجديدة ص ٢٦٨ – ٢٦٨

(٢) D. Westermann : The African to day and Tomorrow p. 280.

أدخلوا زراعة جوز الهند وقصب السكر والأرز والقطن والمانجو وغيرها إلى إفريقية فكانت مصدر خير وفير للسكان[١]

وأصبح الإسلام بذلك دين القــارة ، وقد جاء فى (تقويم البلدان الإسلامية) أن إفريقية هى القارة الوحيدة التى يمكن تسميتها بالقارة المسلمة من بين قارات العالم لأن ١٥٠ مليون نسمة من مجموع سكان ــ الذين يبلغون ٢٣٥ مليوناً ــ من المسلمين ، أما الملايين الباقية فتتوزع بين المسيحية واللادينية والعقائد والأفكار التى أشرنا إليها ، وهناك ٢٢ دولة مستقلة معظم سكانها من المسلمين ، وذلك من بين ٣٦ دولة مستقلة بإفريقية ، هذا بالاضافة إلى انتشار الإسلام انتشاراً كبيراً بين دول تجعل المسيحية طابعها لأن حكامها من المسيحيين[٢] ، ومثل هذا ما يقوله Sir Thomas Arnold الذى يقرر أن الإسلام ينتظم ثلثى قارة إفريقية بمــا فيها من مختلف القبائل وشتى الأجناس[٣] .

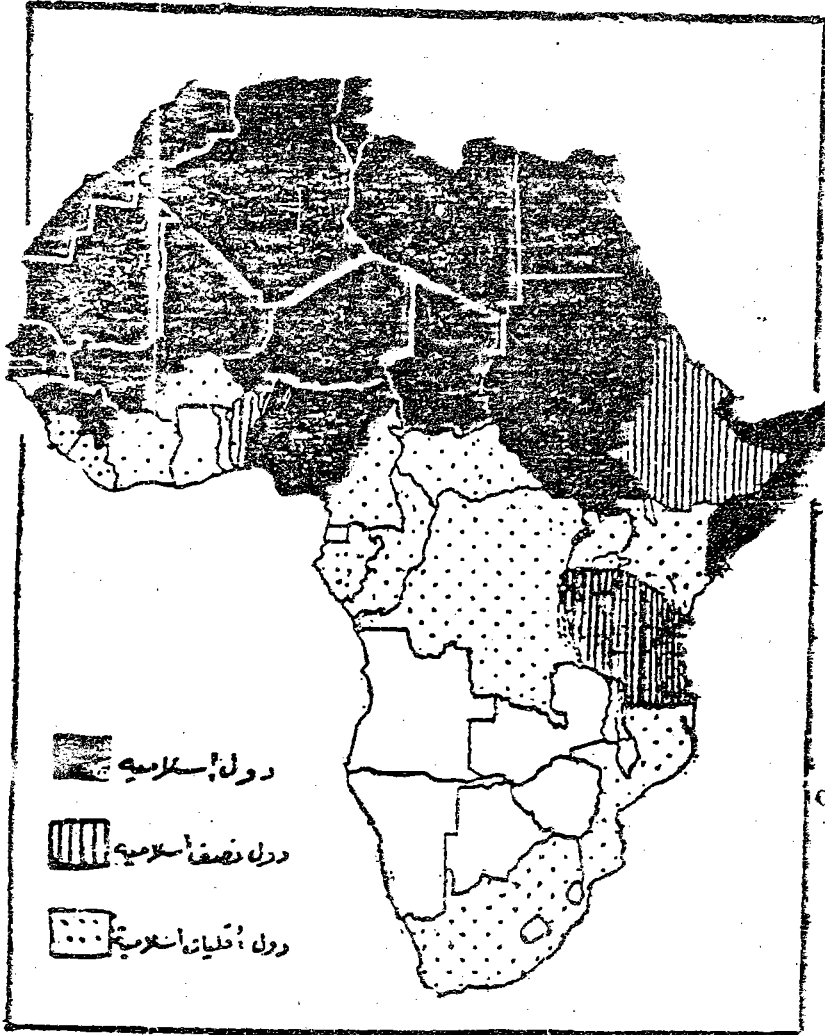
أما عن مستقبل إفريقية الدينى فيكاد يكون محتوما أن الإسلام هو دين المستقبل وهو يبدو للافريقيين « دينا إفريقيا » أو « دينا إفريقيا ــ أسيويا » ولكن المسيحية تبدو لهم دين البيض أو دين الاستعمار[٤] ، وكل شيء يشير إلى أن الإسلام هو دين المستقبل فى قارة المستقبل ، وربما سجل التاريخ قريبا أن تحرير إفريقية كان معناه أكبر موجة حديثة فى انتشار الإسلام ،

(١) دكتور عبد العزيز كامل : قضية كينيا ص ٢٠ .

(٢) تقويم البلدان الإسلامية ص ٩ .

(٣) The Preaching of Islam p. 362

(٤) [illegible] نقلا عن إفريقية الجديدة للدكتور جلال حفنى .



الإسلام في قارة أفريقية الآن

وستصبح إفريقية قارة الإسلام كما أن المحيط الهندى محيط الإسلام(١) .

ولنعد لتاريخ المسيحية بإفريقية لنقرر أنها دخلت القارة دخولا جزئيا محدوداً عن طريق مصر حيث وصلت بلاد النوبة وأرض الحبشة ، أما انتشار المسيحية فى غربى إفريقيا وفى جنوبها فقد ارتبط بالاستعمار ، يقول الدكتور فيليب رفلة : وفدت المسيحية إلى إفريقية مع المستعمرين الأوربيين ، إذ جاء المبشرون فى أعقاب المستعمرين ، وتدخل المبشرون فى السياسة ، ورأى الإفريقيون هؤلاء الأوربيين يمارسون التفرقة العنصرية وتجارة الرقيق والسخرة وأبشع أنواع الاستغلال ، فى الوقت الذى يقدمون فيه ديناً يحث على التسامح والمحبة والسلام ، تلك التى بشر بها المسيح بين الطبقات الفقيرة ، ومن هنا كان إقبال الإفريقيين على المسيحية ضئيلا ومحدودا ، وربما حاولت بعض الإرساليات أن تجعل الدين المسيحى متلائما مع البيئة المسيحية ، فقد صنع أحد الفنانين تمثالا للمسيح أسود اللون ، وعلى كل حال فقد اتخذ المستعمرون من المسيحية سلاحاً لتنفيذ أغراضهم ولتيسير حكمهم ، وكانت هذه العناصر الدخيلة تتعالى على السكان الوطنيين وتستغلهم أسوأ استغلال(٢) .

ويعطى George Kimble مزيداً من التفصيل عن المسيحية بإفريقية ملماً بالأسباب التى جعلتها غريبة بهذه القارة ضعيفة التأثير على سكانها ، ومنه نقتبس بعض عبارات توضح رأيه :

ـ أصبحت المسيحية الاسمية ، التى اكتفى بها كثير من الأوربيين منذ

---

(١) جمال حمدان المرجع السابق .

(٢) الجغرافية السياسية لإفريقية : ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

مدة طويلة ، كافيةً أيضاً لعدد من الإفريقيين ، وأسهم عدم اكتراث الأوربيين بمشاعر الغير وحقوقهم فى عزوف كثير من الإفريقيين عن ملاحظة هذه المشاعر وتلك الحقوق[١] ؟

ـ كان للمسيحية أثر كبير فى تفكك المجتمع الإفريقى فقد قدَّم المبشرون للتلميذ فى المدرسة مبادىء تعد خليطا من المسيحية ومن النظام الأوربى . وعاد التلميذ للبيت ليجد أسرته تمارس حياة مختلفة عما تلقاه بالمدرسة ، فحصل صدع كبير فى المجتمع ، وذلك بخلاف الإسلام الذى كان يقدمه الدعاة للبيت كله أو لبطن من بطون القبيلة فيصبح عاملا جديدا من عوامل التعاون والالتئام ، ومما زاد فى الصدع الذى خلقته المسيحية أنها فرضت على معتنقها نظما وتشريعات تتنافى مع الطقوس الدينية لقبيلته ومع تقاليدها ، فمنعت تعدد الزوجات وختان البنات ، وإنه مهما يكن الاستغلال الاقتصادى شرا ، ومهما يكن التمييز العنصرى شرا أكثر ، فإنه ليس أشد إذلالا للنفس من إنكار حق الشعوب فى تقاليدها ، وأن يَفرِض هذه الأوامرَ غرباءُ[٢] .

ـ قامت بعثات تبشيرية بما فيها أتباع القديس بولس بالدعوة لفكرة أن الأرض ليست دار بقاء ، وأن مستقبل الإنسان فى السماء . . . . . ولكن هذه الدعوة كانت أبعد ما يكون عن سلوك الإنسان الأوربى ؛ ثم إن المثقفين نظروا لهذه الدعوة على أنها متجهة للإفريقيين فقط ، لضمان خيرات الأرض للأوربيين[٣] .

---

(١) Tropical Africa p. 5 انظر أيضاً Porrinder : Religion of Africa p. 164.

(٢) Tropical Africa p. 269 (٣) Ibid p. 270.

وانظر كذلك : Beathams T.A. : Christianity and the New Africa p.p. 82. ff

وهناك أعمال قام بها بعض القسس فأثارت الإفريقيين على المسيحية أو قل على « ديانة البيض » كما كانت تسمى أحيانا ، فقد روى أن قسيسا ضحل الفكر كان يهذى بكلام يثير الأحرار بالقارة ، إذ كان يتساءل : أين اللون الأسود فى النبات والأشجار والبحار ؟ من رأى الإنسان ماء أسود أو زهرا أسود ؟

ولسنا نستطيع أن نصف هذا القسيس إلا بالجهل وسوء الطوية ، ولعل القرآن الكريم كان يقصد تعليم هـذا وأمثاله حين قال « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك »[1] فالأرض التى نستخرج منها المعادن والمياه ونستنبتها الحب والفاكهة يكثر أن تكون سوداء اللون أو أقرب إلى السواد ، والسحاب الحافل بالحيا والمطر هو السحاب الأسود أو القريب من السواد ، والحبر الأسود هو أكثر أنواع الحبر استعمالا وبه تلون الكتب المقدسة وتكتب العلوم والمعارف ، وكان القدامى يقولون سوّدت الأوراق أى كتبت فيها ، والحيوان ذو الروح يكثر فيه اللون الأسود ، والإنسان وهو قمة ما خلق الله على الأرض يختلف لونه من مكان إلى مكان فهو أبيض وأصفر وأسود وهو مزيج من هذه الألوان ، وكم كانت الحضارات من صنع غير البيض وكم كانت البربرية سمة البيض . وقد وضع الإسلام حدا حاسما للاتجاه المنحرف المبنى على لون بشرة الإنسان ، فقد سمع الرسول ﷺ أبا ذر الغفارى يصيح فى خادمه : يا ابن السوداء : فانطلق صوت الرسول يصحح هفوة أبى ذر ولكن فى حزم وعنف ، قال له عليه السلام : « طفّ الصاع ، طف الصاع ، طفّ الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح » وتعلّم أبو ذر هذا الدرس من الرسول فألصق خده بالأرض وقال لخادمه :

---

(١) سورة فاطر الآيتان ٢٧ — ٢٨ .

ثم تضع قدمك على خدى(١) . وكما تعلم أبو ذر هنا الانجاه تعلمه المسلمون وساروا على هدية من مطلع الإسلام حتى الآن ، وكان هذا الموقف من المسلمين وذاك الموقف من البيض كبرى الأثر بالنسبة الإسلام والمسيحية بإفريقية .

وكان من نتيجة اتجاهات الكنيسة واتجاهات القسس ضد الوطنيين وتقاليدهم بإفريقية أن قام الزعيم الإفريقى للمسيحى الكينى Kaggia بتأسيس كنائس إفريقية تخلصا مما يعرف بالمسيحية الأوربية التى أطلق عليها « الدين الأجنبي » وقد وضع Kaggia لكنائسه الأسس التالية :

١ ـ أن تكون إفريقية خالصة مستقلة تماما من السيطرة الأوربية .

٢ ـ تطهير الكنيسة من الرجس الأوربى الذى قدم للإفريقيين على أنه جزء من التعاليم الدينية .

٣ ـ إلغاء جميع الأسماء الأجنبية والعودة إلى الأسماء الإفريقية .

٤ ـ احترام التقاليد الإفريقية .

٥ ـ الدعوة إلى انتشار هذه الكنائس فى كل إفريقية .

وسرعان ما انتشرت هذه الكنائس حيثما وُجد المسيحيون ، والتحق بها الإفريقيون أفواجا ، وهددت الكنائس الأوربية التى لم تكن تهتم بنشر المسيحية بمقدار اهتمامها بخدمة الاستعمار ، فاستعانت الكنائس الأوربية بالقوة البريطانية المحتلة فى كينيا ، وراحت هذه القوة تلاحق Kaggia وأتباعه وألقت بالكثيرين منهم فى السجن ، وحاربت الكنائس الإفريقية حربا

---

(١) اقرأ كتاب « المجتمع الإسلامى » للمؤلف ص ٥٢ .

طويلة ، فضياع المسيحية كان أيسر فى نظر بريطانيا من مسيحية تأخذ الطابع الإفريقى ، أى من مسيحية لا تخدم الاستعمار(١) .

وللتعرف على مستقبل الأديان بإفريقية نورد ما ذكره Parrinder Geoffrey(٢) فهو يمثل الدقة إلى حد بعيد ، وفيما يلى كلماته : يبدو أن المستقبل الإسلام لا للمسيحية فى إفريقية الغربية والساحل الشرقى ؛ إذ يبدو الإسلام هناك دينا ليس غريبا ، ولأن عدة دول أعلنته دينا لها وأصبح الإسلام طابع السكان ، وليس للمسيحية نفوذ يذكر فى منطقة الشمال والمنطقة السودانية ، ويقتصر نفوذها على الحبشة ؛ أما فى الجنوب من خط الاستواء وفى جنوبى إفريقية فتوجد الوثنية فى الداخل والمسيحية على الساحل وبين البيض ، وهذا لا يضمن لها مستقبلا سعيدا لوقوفها موقف الصراع ضد أصحاب البلاد .

وهناك تفسير يوضح السبب فى اقتحام المسيحية لقارة إفريقية ، ذلك هو أن أوربا كانت تعد نفسها قلعة المسيحية وتواجه بذلك إفريقية وجزءا كبيرا من آسيا حيث القلعة الإسلامية ، ولكن الإسلام اقتحم أوربا من طرفيها ؛ الغربى فى العهد الأموى حيث ضمّ اسبانيا واتجه إلى فرنسا ، والشرقى حيث أسقط العثمانيون القسطنطينية وبسطوا نفوذهم على دول شرقى أوربا وأخذوا ينشرون دينهم ، ومن هنا اتجهت المسيحية لاقتحام إفريقية وآسيا للثأر من اقتحام الإسلام للقارة الأوربية .

بيد أن هناك تفسيرا لعله أدق وأشمل . ذلك أن الغرب أدرك أن الدين من أقوى الصلات بين البشر ، وأنه يفوق فى هذا المضمار علائق الدم والجنس

---

(١) Jack Woddis : Africa : the Roots of Revolt pp. 484—485.
من إضافات المترجم الأستاذ فؤاد بلبع .

(٢) Geoffrey Parrinder : Religion of Africa p. 236.

والوطن ، فاتخذ المسيحية وسيلة لبربط بعجلته سكان آسيا وإفريقية ، ولكن التفرقة المنصرية وبعد المستعمر فى سلوكه عن الأديان قلل من انتشار المسيحية ولم يجعلها تقاوم الإسلام فى مجال الانتشار والذيوع ، ومن أجل هذا فاحتمالات المسيحية بإفريقية ضعيفة لجمودها وتناقضاتها الداخلية ولما بها من مركبات النقص والعظمة[1] ، وكذلك لانحسار الاستعمار الأوربى عن إفريقية ، لأن المبشرين كانوا ظلا للاستعمار ، وأخذ هؤلاء ينحسرون معه :

W.H. Lewis : Islam and Nationalism in Africa p. 78. (١)

اللغات فى إفريقية

إن تعدد اللغات فى إفريقية أمر طبيعى ، فالقبائل الكثيرة العدد التى كانت تعيش فى إفريقية قبل تكوين الدول كانت كل منها مستقلة تقريباً ولها لغتها واتجاهها الدينى ، ثم إن الصحارى والغابات والمستنقعات تقيم حدوداً صارمة بين مكان وآخر ، وبالتالى تقيم هنا لغة غير اللغة التى توجد هناك ، وكثيراً ما كانت القبيلة لها لغة واحدة ، ثم انقسمت القبيلة إلى بطون وأفخاذ بعامل الزمن وكثرة العدد ، وبمرور الوقت اختلفت اللهجة التى يتحدث بها هذا القسم عن اللهجة التى يتحدث بها قسم آخر ، وبعد فترة أخرى تتحول كل لهجة إلى لغة تكاد تكون مغايرة للغة الأصيلة ، وتبعاً لذلك وصلت اللغات فى إفريقية إلى ما لا يقل عن ثمانمائة لغة كما يقول الدكتور محمد عوض محمد[1] ، أو ألفى لغة كما يقول الدكتور فيليب رفلة[2] ، ولكن بعض علماء اللغات يرى أن هذا العدد الكبير يدخل فى نطاق أسر لغوية قليلة العدد[3] ، ولكن هذا لا يحل المشكلة ، فليس المهم أصل اللغات بل واقع اللغات الذى يشهد بكثرتها بإفريقية كثرة باهظــة ، وأغلب اللغات فى إفريقية — على كل حال — لغات تفاهم ، لا تكتب ، وليست لها حضارة ذات بال ، وكانت كثرة اللغات واللهجات من جانب ، وضحالة غالبيتها العظمى من جانب آخر من أسباب تمزيق القارة ، لأن اللغة من أهم أسس القومية ، وكلما كثرت اللغات كلما تشتتت إجاعات ، وكلما ضعفت اللغات ضعفت الثقافات ، واللغات التى لا تكتب تعيد مناطقها إلى مرحلة ما قبل الكتابة (Pre literate time) .

---

(١) الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٢١ .

(٢) الجغرافية السياسية لإفريقية ص ٢٠٧ .

(٣) See Encyclopaedia Britannica (Africa)

تلك هي قضية اللغات في إفريقية ، ولكن عوامل خارجية أثرت في هذه القضية ، وقضت بضرورة التجمع بين هذه الأشتات من القبائل المتناثرة المتنافرة ، واقتضى التجمع نوعا من توحيد اللغة هنا وهناك ليمكن التفاهم بين جماعات كانت تتحدث لغات متعددة ، وسنتحدث فيما يلي عن هذه العوامل وعن اللغات الكبرى التي انتشرت في القارة نتيجة لها :

١ — الإسلام واللغة العربية : الدين الإسلامي عقيدة وفكر ، ولكن تسير في ركابه اللغة العربية ، فأنّى حلّ يحل القرآن والحديث وهما باللغة العربية ، وتحل الدراسات الإسلامية وأكثر مراجعها باللغة العربية ، ويقضي الدين الإسلامي بكثير من التعاون والألفة مما يجعل التفاهم بين معتنقيه وبخاصة في المكان الواحد حتميا ، وقد أخذت اللغة العربية تنتشر حيث انتشر الإسلام ، وساعدها على الانتشار عدم وجود لغة موحدة في المناطق الإسلامية بإفريقية ، فلجأ الجميع أو الأغلبية إلى اللغة العربية يعبرون بها عن أنفسهم ويدونون أفكارهم ، وأصبحت اللغة العربية بذلك أوسع اللغات انتشاراً بإفريقية كما أصبحت اللغة الرسمية لكثير من دول هذه القارة .

ويتجه الباحثون المحدثون إلى عدّ اللغة العربية بعد توطنها الطويل بإفريقية ورغم الأصل والنشأة ، لغةً إفريقيّةً ، أكثر منها أسيوية ، وذلك لأن ثلثي العرب يوجدون في إفريقية مقابل الثلث في آسيا[1] . ويمكننا أن نضيف حقيقة مهمة هي أن مصر تعد المركز الأول للثقافة العربية في العالم ، وفيها سُبل الكتب والمؤلفات التي تغذى العالم العربي بأسره ، ومنها يخرج الأساتذة والمدرسون لتدريس اللغة العربية وآدابها في جامعات العالم العربي وجامعات العالم كله تقريبا ، وهذا يجعل هذه اللغة مرتكزة على دعائم إفريقية راسخة .

وللغة العربية قوة تحميها من الانحراف والتشتت والانقسام ، وتلك القوة

---

(١) دكتور جمال حمدان : إفريقية الجديدة ص ٢٥٧ .

هى القرآن الكريم ، فاللهجات التى تحاول البروز سرعان ما تتحطم أمام هذه القوة الهائلة التى تضمن بقاء اللغة وحدة صامدة :

واللغة العربية بلا شك لغة عظيمة ، غنية ، طيعة ، موسيقية ، فيها كل عناصر الجمال والقوة ، وبها زخيرة واســعة المدى فى مختلف الثقافات ، والمكتبة العربية شامخة وعامرة بالمؤلفات الأصيلة وبالكتب التى ترجمت إليها فى كل فروع العلم ، فإذا دعونا أن تصبح اللغة العربية هى اللغة الأولى واللغة القومية للدول الإسلامية بإفريقية ، فإننا بذلك نقدم ثروة طيبة لإخوتنا فى الد... ، ونقدم لهم لغة عالمية عالية الشأن ، ونذكرهم بأننا فى مصر كانت لنا لغة ولكنا عندما اعتنقنا الإسلام أخذنا اللغة العربية لنزيد فهمنا لهذا الدين ، فما أجدر الأقطار الإسلامية بإفريقية أن تأخذ اللغة العربية لغة لها ، إنها بذلك لا تستورد لغة لأن العربية لغة إفريقية ، وهى تضمن لنفسها لغة لن تعود بالناس إلى الانقسام لأن القرآن الكريم يحول دون ذلك ، ثم أن هذه الدول ستصبح بعد جيل أو بعض جيل مسيطرة على مكتبة غنية جمعت فنون الفكر التى دونها الناطقون بالضاد خلال عديد من القرون .

والعجيب أن الذى ندعو له كان موجوداً بالفعل قبل الاستعمار الأوربى ، فقد كان إقبال المسلمين جنوب الصحراء على اللغة العربية واضحاً ، حتى أصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والفكر والوثائق بالإضافة إلى كونها لغة العبادة . وقد ظهر بين مسلمى هذه المناطق الأدباء والشعراء والمؤلفون ، ولولا جهود الاستعمار لنشر لغته ومحاولاته تقطع وشائج الود بين دول العالم الإسلامى بعضها وبعض ، لولا هذا لكان انتصار اللغةالعربية مؤكداً ، وقبل أن ندع هذه النقطة نشير إلى العديد من الكتاب والشعراء الذين دونوا إنتاجهم باللغة العربية وفى قمة هؤلاء عثمان دان فديو الزعيم الدينى الكبير ، وأخوه عبد الله ، وابنه محمد بلّ ، ولكل منهم مؤلفات عدة باللغة العربية ، وقد تحدث

الشيخ عثمان فى كتابه نجم الاخوان يحث المسلمين على قراءة مؤلفاته ، ومؤلفات أخيه وابنه ، وفيما يلى عبارته :

عليكم أيها الاخوان أن تشغلوا أنفسكم بقراءة تآليف أخى عبد الله لأنه اتجه فيها لحفظ ظاهر الشريعة ، وبقراءة تآليف ولدى لأنه اتجه لعلم سياسة الأمة ، واشتغلوا أيضاً بقراءة تآليفى لأنى اتجهت للطرفين جميعاً(١) .

ومنهم كذلك الإمام عبد الله بن محمد مؤلف تزيين الورقات الذى حشد فيه مجموعة كبيرة من قصائده وأشعاره يصف فيها أخلاق الامام عثمان ومعاركه .

ومنهم أيضاً عبد الرحمن السعدى مؤلف تاريخ السودان وكثيرون سواهم .

٢ ــ الاستعمار واللغات الأوربية : اقتحم الاستعمار الأوربى إفريقية ، وراح يجذب السكان إليه أو قل يرغمهم على السير فى ركابه ، وكانت اللغة أهم وسائله ، فأخذ يحارب اللغة العربية ويحيى اللهجات القديمة ، ثم خطا خطوة أخرى بأن جعل لغته هى اللغة الرسمية وفتح باب الوظائف لمن يجيدها ، وجعلها شرطاً لتولى كل عمل مهم فى البلاد ، وانتشرت بذلك اللغة الانجليزية فى نيجيريا وغانا وكينيا وتنجانيقا وأوغنده وجنوبى إفريقية كما انتشرت اللغة الفرنسية فى مالى والسنغال وغينيا وتشاد ، وحصل صراع عنيف بين اللغة العربية ولغات الاستعمار فى السودان العربى وفى الدول العربية بشمالى إفريقية وكانت الغلبة فى النهاية للغة العربية .

٣ ــ التجارة واللغة السواحلية : تحتاج التجارة إلى تفاهم وثقة ،

---

(١) الإمام محمد بل : إنفاق الميسور ص ٢٢ – ٢٣ .

(٢) تزيين الورقات ص ٢٥ – ٨٣ .

وقد اقتحم الأوربيون غربى القارة ، ولكنهم لم يكونوا تجاراً يبيعون السلع ويشترونها ، بل كانوا يخطفون الناس ويسترقونهم ويجعلونهم عبيداً يدفعونهم أو يبيعونهم للعمل فى مزارع أمريكا ، وفى مرحلة أخرى احتلوا الأرض للاستيلاء على ثرواتها ، وفرضوا فى الغالب لغاتهم ، أما شرقى إفريقية فكان وثيق الصلة بالجزيرة العربية لقربه منها ، وقد عرف التجار العرب شرقى إفريقية منـــذ أمد بعيد ، ونشأت بينهم وبين السكان صلات تجارية لم يظهر العرب فيها بمظهر السادة لأنهم لا يحملون أسلحة السيادة والتعالى ، ومن هنا لم يفرضوا لغتهم ، وإن كانت الضرورة للغة موحدة قد برزت ليمكن التفاهم بين السكان بعضهم مع بعض من جهة وليمكن التفاهم بين السكان والتجار العرب من جهة أخرى ، وقد نشأت لذلك لغة للتجارة عرفت باللغة السواحلية ، وهى خليط من كلمات وعبارات عربية وفارسية وهندية وكلمات وعبارات من لغات الساحل ولهجاته ، وكانت مدينة ممبسة بجزيرة لامو مهد هذه اللغة الجديدة ، ومنها سارت إلى زنجبار وعبرت إلى الساحل المقابل لهذه الجزر فانتشرت فى ساحل كينيا وتنجانيقا وصعدت إلى جنوب الصـــومال ، وهبطت إلى موزنبيق ووصلت إلى جزائر القمر ومدغشقر ، ولم تقنع اللغة السواحلية بالساحل الشرقى لإفريقية بل تغزت إلى الداخل فوصلت إلى الكونغو ، وحملها الملاحون والتجار إلى مناطق غير إفريقية مثل عدن والساحل الجنوبى لبـــلاد العرب حتى الخليج العربى والمحيط الهندى .

وعندما جاء الاستعمار البرتغالى فالإنجليزى لهذه المناطق ، أخذت هذه اللغة من هاتين اللغتين مجموعة كبيرة من الكلمات ، إذ كانت فاتحـــة ذراعيها لكل ما يجعل التعامل سهلا بين طوائف الناس مهما اختلفت جنسهم أو جنسياتهم .

وبمرور الزمن اتسع نطاق هذه اللغة ، فلم تعد مقصورة على العلاقات التجارية ، بل أصبحت لغة متداولة فى مختلف شئون الحياة بالبلاد الواقعة على ساحل إفريقية الشرقى وبالجزر المقابلة لهذا الساحل ، ومن ثم أصبحت ضرورية للسائحين والدعاة والمبشرين ، وهذا فتح الطريق لهذه اللغة لترقى وتزدهر ، فظهرت لها آداب رفيعة ، وترجمت لها أكثر الكتب المقدسة ، ودونت بها معارف واسعة وكتب مهمة(١) :

٤ — لغة الهوسا : حافظ شعب الهوسا فى غربى إفريقية على لغته وإن اختلفت بطونه وأفخاذه ، ولم يستطع الاستعمار أن يقضى على هذه اللغة المنتشرة فى شمالى نيجيريا ومع بعض قبائل الهوسا خارج نيجيريا ، ولعل لغة الهوسا هى اللغة الإفريقية — بعد العربية — التى يتجمع حولها ملايين الإفريقيين ، ولكثرة ذيوعها تعلمها أفراد من غير قبائل الهوسا مما زاد عدد المتحدثين بها .

وعلى هذا فترتيب اللغات بإفريقية هو كما يأتى :

١ — اللغة العربية ويتكلم بها حوالى ٨٠ مليوناً

٢ — اللغة الإنجليزية » » » ٦٠ مليونا بجانب لغاتهم الأصلية

٣ — » الفرنسية » » » ٤٠ مليونا » » »

٤ — » السواحلية » » » ٣٠ »

٥ — لغة الهوسا » » » ١٥ »

٦ — اللغة الأمهرية (لغة الأحباش) ويتكلم بها ١٠ ملايين

وهذه هى اللغات التى تكتب بإفريقية ، وما عداها فلهجات للحديث والتفاهم فقط .

---

(١) Gordon Brown : East Africa pp. 359—360

الأجناس والقبائل فى إفريقية

سبق أن ذكرنا أن طبيعة القارة الإفريقية قسمت السكان إلى قبائل متميزة يربط الدم بين أفراد كل قبيلة منها ، ونريد هنا أن نتعرف على أهم قبائل القارة ، بيد أن هنالك تقسيما أوسع للأجناس البشرية التى تعيش فى إفريقية والتى تشعبت عنها هذه القبائل ، وهـذا التقسيم شديد الاتصال بجغرافية القارة ، فهو يرى أن الأجناس البشرية الرئيسية بهذه القارة أربعة هى :

١ — الساميون : العرب) ويعيش هؤلاء وأولئك فى النصف الشمالى
٢ — الحاميون : البربر) للقارة تقريباً وينحدران من القوقازيين

٣ — النيليون : الذين يعيشون فى منطقة منابع النيل وهم مزيج من القوقازيين والزنوج .

٤ — الزنوج : سكان الجنوب وهم ينقسمون قسمين : السلالة السودانية فى شمالى هذه المنطقة ، وسلالة البانتو فى جنوبها :

وفيما يلى تعريف بهذه الأجناس :

١ و ٢ — الساميون والحاميون :

الحديث عن الساميين والحاميين ينبغى أن يكون معا لشدة الاختلاط بينهما فى القسم العامر بهما من القارة ، وهما يعيشان فى الشمال من خط يسير من مصب نهر السنغال ماراً بتمبكتو والخرطوم ثم ينحدر قليلا إلى الجنوب الغربى ليضع الحبشة والصومال فى الشمال منه ويسير حتى يصل إلى المحيط الهندى .

وقد جاء الساميون إلى إفريقية من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر أو عن طريق البر شمالى السويس ، وكانت هجراتهم متتالية بدأت قبل الميلاد بعدة قرون ثم اتسع نطاقها فى ظل الإسلام ، ومن أهم الهجرات الإسلامية

هجرة بني هلال وبنى سليم فى القرن الحادى عشر عندما دفع بهم الخليفة المستنصر إلى الشمال الإفريقى فى أعداد كبيرة[1] ، ولم يقتصر الساميون على على شمالى إفريقية وإنما عبروا البحر الأحمر من الجزيرة العربية إلى شرقى إفريقية ، واندفع القادمون من الشمال ومن الشرق تجاه وسط القارة ، وبخاصة قبائل الجعليين وجهينة ويعيش الجعليون فى دنقلة والنوبة وكردفان وعطبرة وشندى ، أما جهينة فتنتشر أيضاً فى السودان العربى ومن قبائلها الزريقات والحبانية والتعايشة والبقارة وغيرهم ، وهذا صبغ شمال السودان بصبغة عربية واضحة .

أما الحاميون فهم السكان الأصليون للمنطقة التى حددناها آنفا ، وينقسمون إلى فرعين كبيرين هما الحاميون الشرقيون والحاميون الشماليون ، وفى القسم الأول يدخل المصريون والنوبيون وقبائل البجة والجالا والصومال والدناكل والأحباش ، وفى القسم الثانى يدخل البربر والطوارق والتيبو سكان الصحراء والفولبى من سكان السودان الغربى[2] .

ويمكن القول أن الأحباش – من بين الحاميين – اتجهوا إلى الجنوب فكان اختلاطهم بالزنوج واسعا ، أما باقى الحاميين فقد اختلطوا اختلاطا عميقا بالساميين حتى أصبح من العسير فى هذه المناطق عزل الحاميين عن الساميين :

٣ – النيليون :

هذا الجنس من سكان إفريقية سمى باسم النيل ؛ وهى مجموعة من القبائل تعيش فى أعالى النيل وحول روافده ومنابعه ، وتربط بينها روابط بدنية

---

(١) انظر حديثنا عنها فى الجزء الرابع ص ١٦٤ و ٣٣٢ وابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢ .

(٢) سليجمان : أجناس أفريقية ص ٨٦ .

ولغوية وثقافية وبعض التقاليد والأساطير مما يدفع إلى الاعتقاد بأنهم جميعا جاءوا عن أصل واحد[١] ، وتعيش هذه الجماعة الآن فى السودان الجنوبى وغربى الحبشة وفى الأقاليم الشمالية لأوغنده والأقاليم الشرقية لكينيا ، وأشهر قبائل هذه المجموعة هى : الدنكا والنوير والشلوك والأنواك والبورون .

ويرى الدكتور محمد عوض[٢] أن النيليين أصلهم من الزنوج ولكنهم اختلطوا على مدى قرون بعيدة بالقوقازيين فأخذوا صفة الشعر الزولبى من الزنوج ، وضيق الأنف ورقة الشفة نسبيا من القوقازيين .

٤ — الزنوج (السودانيون والبانتو) :

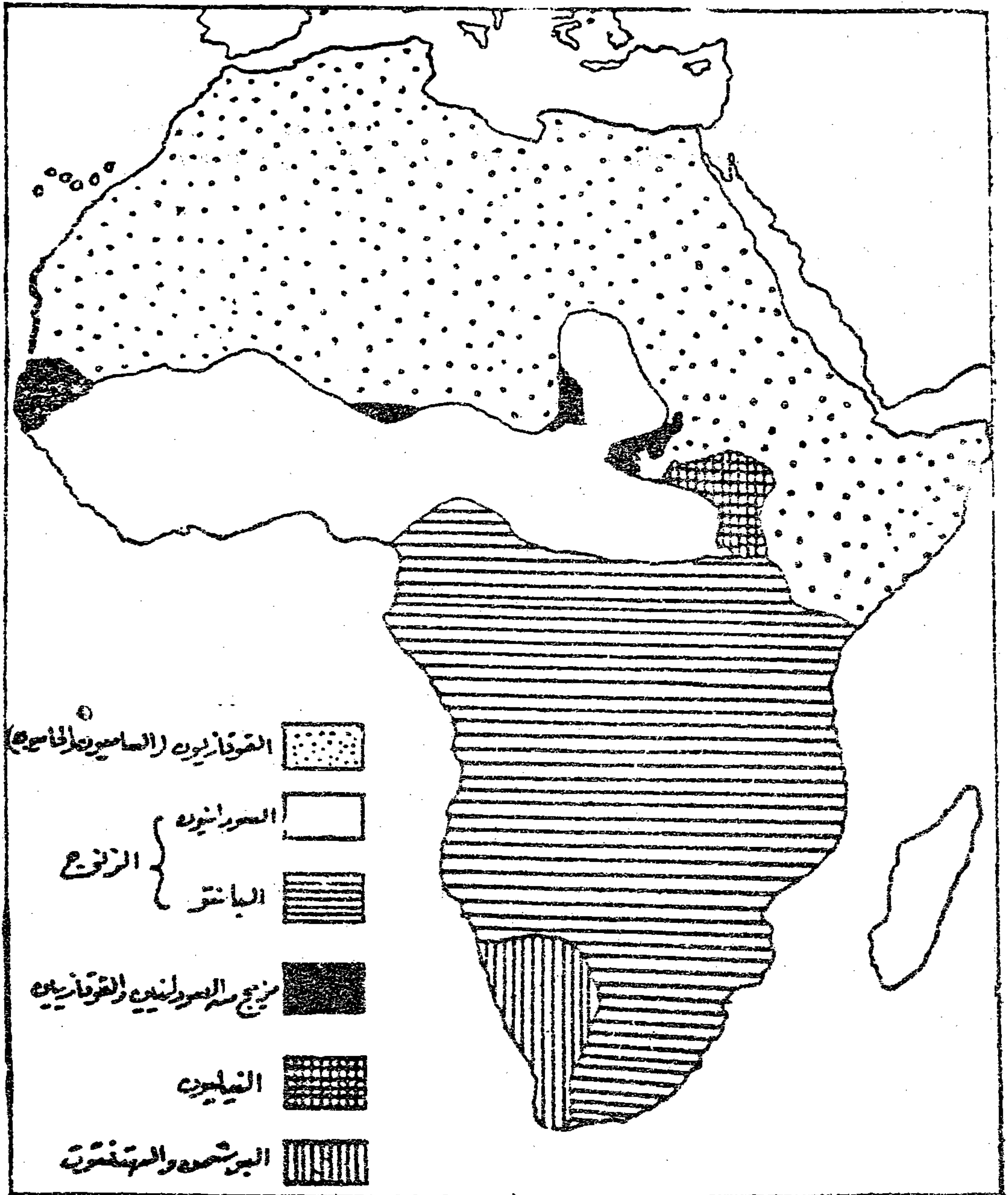
فيما عدا الأجناس التى تكلمنا عنها يتعُدُّ علماء الأجناس باقى سكان إفريقية زنوجا ، ويرون أن إفريقية خزانة الجنس الزنجى ، وبخاصة سكان غربى إفريقية الذين هم بحكم موقعهم على المحيط الأطلسى الفسيح لم يستقبلوا لمدى طويل جماعات وافدة كما استقبل سكان شرقى القارة . فاحتفظ هؤلاء إلى حد كبير بالطابع الزنجى حتى دخول الإسلام ، وأطلق عليهم السودان وعلى أرضهم أرض السودان . فلما جاء الإسلام ربط بين هؤلاء وبين المسلمين من الساميين والبربر فحدث اختلاط اتسع أحيانا نطاقه ، وأهم قبائل هذه الجماعة الولوف والتكولور والماندنجو والفانتى واليوروبا والصنغى والهوسا . وهؤلاء يسمون « السودانيين » أما الزنوج بالجنوب فيسمون « البانتو » ، والفرق بين القسمين يتضح فى نقطتين مهمتين :

النقطة الأولى : أن سلالات البانتو متشابهة اللغات ، أما السلالات السودانية متعددة اللغات .

---

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقية : الأرض والناس ص ٦٧ — ٦٨ نقلا عن Ardrey Butt (The Nilotes)

(٢) دكتور محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٢٧



الأجناس فى أفريقية

والنقطة الثانية : أن السودانيين – دون البانتو – اختلطوا اختلاطاً واسعاً بالساميين والحاميين بعد أن دخل الإسلام جنوب الصحراء ، فأصبحت بعض قبائل البربر تعيش فى هذه المنطقة ، وعُدّ « الموسا » و « اليوروبا » وغيرهم من سكان غربىّ إفريقية الآن فروعاً لمزيج سودانى من جانب ، وحامى من جانب آخر .

البوشمن والهتنتوت :

وهناك فى الجنوب الغربى من القارة سلالة لا تُعَدّ من الجنس الزنجى ، وتشمل هذه السلالة « البوشمن » و « الهتنتوت » وهم صفر الوجوه ، ولكن البوشمن أميل إلى القصر ، صغار الجماجم يشتغلون بالصيد ، والهتنتوت أطول قامة من البوشمن ويشتغلون بالرعى ، ويعرفون صناعة الحديد ، وهم أسمى ثقافة من البوشمن .

ولنتجه الآن للحديث عن القبائل فى إفريقية ، وينبغى أن نذكر أن الاختلاط الذى حدث بين الأجناس حدث مثله بين القبائل أو ربما حدث أكثر منه ، فهناك قبائل عربية عاشت فى مناطق البربر ، وقبائل بربرية عاشت فى مناطق الزنوج ، وتشعبت بطون القبائل وانتشرت هنا وهناك ، وعلى هذا نجد بعض القبائل تعيش فى دولتين أو أكثر من دولتين ، إذ لم تكن حدود الدول قد أقيمت عند ما كانت هذه القبائل تتحرك وتنتقل من مكان إلى آخر ، فلما أعلنت الدول ونظمت الحدود كانت بعض القبائل قد انتشرت فروعها هنا وهناك مما خلق روابط أحيانا بين دولة وأخرى ، أو خلق مشكلة الولاء المزدوج للدولة والقبيلة .

وهناك قبائل تُعْرَف بعدة أسماء كما سيأتى ، وقد يكون ذلك تبعا لأسماء العشائر التى تتفرع من القبيلة الواحدة فتُنْسَب العشيرة للجد القريب أو للجد الأعلى ، وقد يكون ذلك بسبب تسمية يطلقها الجيران على بطن من البطون ، فينسبونهم إلى رئيس لهم عرفوه أو إلى موطن نزلوا به .

وبعد هذا نعود القبائل لنربطها بالدول الإفريقية فى الوقت الحاضر ، ولنذكر كلمة عن القبائل التى لها شأن فى حمل مشعل الإسلام ونشر مبادئه :

الحساسنة والطروس : (تسمى أيضا تارازاه) وهم من العرب ويعيشون فى موريتانيا .

التجور : قبيلة عربية هاجرت من تونس تجاه الجنوب واخترقت برنو ووادای إلى دارفور حيث نجح زعيمهم ويدعى أحمد فى نشر الإسلام فى مملكة دارفور الوثنية ابتداء من القرن الرابع عشر .

لمتونة : لعلها أسبق القبائل فى حمل لواء الإسلام عبر الصحراء إلى منطقة موريتانيا ، وإلى غير موريتانيا من البقاع فى غربى القارة ، وكانت الحركة التى قامت بها لمتونة فى القرن الحادى عشر بقيادة عبد الله بن ياسين تسمى حركة المرابطين ، وقد تحدثنا عنها بكثير من التفصيل فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة[1] وسيأتى مزيد من الحديث عنها عند الكلام عن امبراطورية غانة فى الباب الثانى من هذا الجزء ، وتعيش لمتونة الآن فى موريتانيا .

جدالة : قبيلة بربرية تعيش فى موريتانيا ، ولمتونة وجدالة تنتميان إلى عشيرة صنهاجة .

طاشوشة : قبيلة بربرية تعيش فى موريتانيا كذلك .

وهناك قبائل ثلاثة تتسابق فى جهد احتضانها للإسلام ونشرها له وبخاصة فى غربى إفريقية ووسطها ، وهذه القبائل هى : الماندنجو ، والفوله ، والهوسا وسنتحدث عنها فيما يلى :

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جـ ٤ ص ١٨٠ وما بعدها .

للماننجو : (الماندية وتشمل اليمبارا والسوننكى) وتنتشر فى السنغال والنيجر وساحل العاج وغينيا وجامبيا وغانا وسيراليون وهم من أعظم أجناس إفريقية رقياً، وأشدهم ذكاء، وأكثرهم مهارة وأمانة، وهم كذلك من أنشط الدعاة إلى الإسلام وبواسطتهم انتشر هذا الدين بين الجماعات المحيطة بهم[1] حتى أصبحت كلمة سوننكى تساوى كلمة « داعية إسلامى » وموطنهم الأصلى مدينة مالى عاصمة دولة مالى الكبيرة وقد جاء فى تاريخ « كانو » (Kano Chronicle) أن قبائل ماندنجو هى التى عرّفت قبائل الهوسا بالإسلام[2] . وقد احتل الماندنجو مملكة غانة القديمة فى القرن الثالث عشر، وينسب أحمدصملمو (١٩٠٠م) إلى قبيلة الماندنجو، وقد قاد جموعَ قبيلته فى حرب إسلامية حقق فيها ألواناً من الانتصارات، ونشر الإسلام بين كثير من الوثنيين، وقد اعترف مجلس العموم البريطانى بفضل قبيلة الماندنجو على إفريقية وكيف أنهم نشروا الإسلام فى بلاد سيراليون وما حولها، وكيف انتشرت مع الإسلام أخلاق الإسلام وسماحته مما جعل هذه المنطقة منطقة نور وفضل، ينظر لها الجميع بالاجلال والتوقير[3]، وقد بقى أحد فروع الماندنجو المسمى « كنو » Konnohs على الوثنية حتى عهد قريب، فلم يدخل أفراده الإسلام إلا فى السنين الأخيرة، وأغلب فروع الماندنجو تعيش فى جمهورية مالى الحالية .

الفولة : (الفولى والفولانى والفولالى) وتنتشر فى النيجر والسنغال وغينيا ونيجيريا والكمرون وتشاد وموريتانيا ، وقد دخلت

---

(١) Spencer Trimingham : A History of Islam in West Africa p. 31

(٢) نقلا من الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ص ٣٥٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٨

هذه القبائل الإسلام منذ عهد مبكر ، وكثيرون منهم يتكلمون اللغة العربية مع لغتهم (لغة الفولى) ، وعُرِفت هذه القبائل بأنها قبائل مسالمة نشيطة ذات مزاج معتدل وأخلاق طيبة ، وقد دخل الفولانيون ولايات الهوسا تجاراً ، ولكنهم أخذوا معهم معارفهم الدينية واتجاهاتهم الخلقية ، ونجحوا خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر فى جذب جموع كثيرة من قبائل الهوسا إلى الإسلام ، وبعض الفولانيين أقام فى بلاد الهوسا ، وقد لاحظ ملك مملكة جوبر إحدى ممالك أو إمارات الهوسا أن نفوذ الفولانيين يتزايد فى بلاده ، فأراد أن يقضى عليهم ، ولكن زعيا إسلامياً من الفولانى أعلن الثورة عليه ، وذلك الزعيم هو عثمان دنفديو ، وقد انتصر عثمان على ولايات الحوصا السبعة فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٤) وثبت ملكه سنة ١٨١٠[١] واستطاع بذلك أن ينشر الإسلام بين الوثنيين وبين قبائل الهوسا ، وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع عشر فى أيدى الفولانى حتى قام الحكم البريطانى فى نيجيريا سنة ١٩٠٠ ، وفى خلال هذه المدة تم اختلاط الفولانى بقبائل الهوسا ، حتى أصبح من العسير التمييز بين الفولانى والهوسا بنيجيريا ، ولا يزال بعض الفولانى فى غينيا ومالى .

الهوسا : (الحوصة) وتنتشر فى نيجيريا بوجه خاص وفى النيجر والكرون وتوجو وغانا وجمهورية إفريقيا الوسطى ويقال إنهم تعلموا الإسلام من الماندنجو ومن الفولانى ، والهوسا أصحاب نشاط وذكاء بالغ ، ولهم مهارة فائقة فى التجارة ، أكسبتهم نفوذاً كبيراً بين القبائل ، وعاشت معهم حتى العهد الحاضر جاعلة من ا...هم عنواناً للتجارة

(١) عبد الله بن محمد : تزيين الورقات ص ٥١ وص ٥٥ .

والأمانة ، ولغتهم هى لغة التجارة فى غربى إفريقية ، وهم متحمسون للإسلام وينقلونه معهم حيثما ذهبوا ، وهم منتشرون من ساحل غينيا حتى حوض النيل ، وعندما قام الحكم البريطانى فى نيجيريا حمل الهوسا لواء الإسلام ونشروه تحت الحكم البريطانى ، وكان من صالح الاستعمار أن يترك الإسلام ينتشر كما سنرى(١) فقد كانت المناطق الإسلامية تمتاز بالنظام والأمن والاستقرار ، وقد نشر الهوسا الإسلام كذلك على ساحل غينيا وفى بلاد اليوروبا ، وانتسب كثير من أبناء الهوسا إلى الطريقة التيجانية ، وراحوا بها ينشرون الإسلام بين الوثنيين بسرعة فائقة ، وتعداد الهوسا فى نيجيريا وحدها حوالى اثنى عشر مليوناً(٢)

الولوف : وتنتشر فى السنغال وغمبيا وجابون .

الصنغى : (صنغاى = سنغى) وعددهم حوالى مليونين وتمتد أرضهم من تمبكتو حتى منحنى نهر النيجر ، وقد كون السنغاى إحدى الممالك الإفريقية القديمة غربى إفريقية بعد أن قهروا الماندنجو ، واستولوا على مملكتهم « مالى » .

النيجر : وتنتشر فى بلاد النيجر .

الطوارق : (الملثمون) وتنتشر فى النيجر وغينيا ونيجيريا وتشاد

الصوصو : وتنتشر فى غينيا

الأكان : وتنتشر فى غانا .

الأشانتى : وتعيش فى غانا .

---

(١) لم يعمل الإنجليز أو الفرنسيون قط على نشر الإسلام ، ولكنهم فى بعض الأحيان تركوه ينتشر رغبة فى الاستقرار والأمانة والنظام التى كانت طابع المسلمين .

(٢) Nigeria Handbook 1970 p. 92

اليوروبا : وتعيش فى غربى نيجيريا وفى غانا وهم أعلى ثقافة بين كل القبائل الزنجية .

الإيبو : من قبائل نيجيريا الجنوبية ، ويتكون منهم معظم سكان الإقليم الشرقى من نيجيريا الذى كان قد أعلن الانفصال سنة ١٩٦٧ تحت اسم جمهورية بيافرا ، ولم ينجح هذا الانفصال كما سنرى فيا بعد ، ويوجد الإيبو أيضا فى الإقليم الغربى الأوسط بنيجيريا مع اليوروبا ، وقبائل الإيبو متماسكة ، استطاعت أن تحتفظ بنظمها ومؤسساتها رغم كل المؤثرات[١] .

التوكولور : وتعيش فى السنغال وجابون .

إيوى : وتعيش فى توجو .

مينـا : وتعيش فى توجو .

البجة والأعفار والصومال والجلا : وتعيش هذه القبائل فى الساحل الشرقى .

الأقزام : ويعيش الأقزام فى الغابات الاستوائية الكثيفة .

البانتو : موطنهم الأصلى إقليم البحيرات بإفريقية الاستوائية ، ثم هاجر البانتو غرباً وشرقاً وجنوباً واندمجوا فى قبائل أخرى .

ويوجد البانتو الآن فى الجزء الجنوبى من القارة فى أوطان متلاصقة متجاورة فى مساحة تعادل ثلث القارة تقريبا ، ويعيش بين البانتو سلالة ضئيلة العدد من البوشمن والهتنتوت فى الجنوب الغربى كما تعيش بينهم عناصر دخيلة من الاستعماريين فى الأطراف الجنوبية ، وتبدأ أوطانهم فى

---

(١) جذور الثورة الإفريقية لجاك وودیس من تعليقات المترجم ص ٥٧٩ — ٥٨٠ .

الغرب على خليج يافرا عنـــد الحدود الشرقية لنيجيريا ، ويمتد الحد بعد ذلك فى اتجاه شرقى مع تعريجات عديدة حتى ينتهى إلى المحيط الهنـــدى بالقرب من خط الاستواء ويقسمهم الكتاب إلى بانتو شرقيين وغربيين وجنوبيين ، ويفوق البانتو الجنوبيون من ناحية العدد على جميع سكان الجزء الجنوبى من إفريقية[1] .

---

(١) انظر : Endre Sik · The History of Black Africa p. 56 ff

وانظر كذلك جذور الثورة الإفريقية لجاك ووديس تعليق المترجم ص ٢٧٠ بتصرف

حضارةٌ إفريقيةٌ أصيلةٌ

يتجه بعض الباحثين الغربيين إلى إنكار حضارة إفريقية أو الاستهانة بها ، وينسب هؤلاء إلى الاستعمار الغربي أنه وضع بذور الحضارة بالقارة السوداء ، وأن كل ما يدب بها من ديمقراطية وعلم ونظم اجتماعية إنما كان بفضل الدول المستعمرة ، وفى اعتقادى أن هؤلاء يبنون هذا الاتجاه على دعائم ثلاث ليستطيعوا أن يصلوا إلى تقرير هذه الفكرة ، وهذه الدعائم هى :

١ — محاولة عزل مصر عن إفريقية ، فإن حضارة مصر قد أذهلت العالم ، وليس هناك من طريق لإنكارها ، وإذاً فليلجأ الباحثون الغربيون إلى تجاهل مصر عند الحديث عن إفريقية واعتبارها كيانا ليس إفريقياً ، وقد استطاع الاتجاه الغربى أن يخلق له صدى فى نفوس بعض المصريين فإذا بالخديوى إسماعيل يجعل واجهة إصلاحاته أن تكون مصر قطعة من أوربا ، وأغلب الظن أن هذه الواجهة كانت من إيحاءات الأوربيين الذين حاولوا دائما أن يضعوا حاجزا بين مصر وبين باقى القارة . وليس من شك فى أن الخديوى إسماعيل لم يشأ هذا العزل بدليل أنه وجه عناية كبرى للتوسع داخل إفريقية كما سنرى فيما بعد ، مما يوضح أن مصر متمسكة بإفريقيتها وتستمد منها ماء الحياة وعناصر التاريخ .

٢ — والدعامة الثانية لتقليل شأن حضارة إفريقية أوسع مدى من الدعامة الأولى ، فالكتاب الغربيون فى هــذه المرة لا يكتفون بعزل مصر بل يعمدون إلى عزل الشمال الإفريقى كله عن إفريقية جنوب الصحراء ، وهم بهذا يتكلمون عن إفريقيتين لا إفريقية واحــدة ، وفى ذلك يقول Duffy « أنا ألاحظ أنه على خريطة إفريقية السياسية توجد قارتان لإفريقية ، ويفصل هاتين القارتين الإفريقيتين محيطٌ هائل من الرمال والفراغ هو

الصحراء ، ففى شمال الصحراء توجد إفريقية التى تعتبر جزءاً من الشرق الأوسط أكثر من كونها منطقة إفريقية ، وتلك هى إفريقية المسلمة ، التى تضرب فى أغوار التاريخ بحضارتها العريقة البارزة ، أما فى جنوب الصحراء فتقع إفريقية التى تسمى أحيانا إفريقية السوداء ، وهى جديدة على التاريخ والجغرافيا ، لم تتكشف لنا حدودها الخارجية إلا منذ عهد قريب ، وإفريقية السوداء هذه تختلف عن إفريقية الشمالية اختلافها عن بقية أنحاء العالم[١] .

وهكذا لم يكتف هذا الكاتب بالاتجاه الذى يعزل مصر عن إفريقية ، ويجعلها قطعة من أوربا ، بل راح يعزل الشمال الإفريقى كله ، ويجعله جزءاً من الشرق الأوسط ، ويفترض أن الصحراء حاجز منيع بين الأجزاء التى تقع إلى الشمال والأجزاء التى تقع إلى الجنوب منها ، وتلك نظرية خاطئة ، فلم تمثل الصحراء هذا الحاجز ، وكان هناك منافذ واسعة بين الشمال والجنوب لم تتوقف فيها الحركة على مر الزمن .

٣ — والدعامة الثالثة لتقليل شأن حضارة إفريقية بنيت كذلك على أساس خاطئ ذلك أن الكتاب الأوربيين نظروا إلى إفريقية فى القرن التاسع عشر عندما بدأ الاحتلال الأوربى يمتد إلى قلب القارة . أو نظروا إلى إفريقية عقب استقلالها عن الاحتلال سالف الذكر ، وقد كانت إفريقية قد تغيرت تغيراً تاماً منذ امتد لها الاستعمار ابتداء من القرن السادس عشر ، وغيرت هذه القرونُ حياة القارة تغيراً تاماً ، وعلى هذا فأية نظرة إلى إفريقية بعد ذلك لن تعطى إلا الصورة المشوهة التى خلقها الاستعمار ، وإلا الخراب والدمار الذى جرَّه المحتل الأوربى ، وينبغى هنا أن نلتقط لقطات سريعة عن مساوئ الاستعمار بالقارة ، وسنورد فيما بعد تفاصيل هذه المساوئ ، ولكنا هنا نشير إليها إشارات موجزة هى :

---

(١) James Duffy and R. Manners : Africa Speaks p. 107

(ا) الرق: عن الرق ونتائجه يقول W.F.Ward إنه بسبب تجارة الرقيق أخذ كثير من الفنون والحرف فى الاضمحلال والتلاشى ، فكم من العمال وأصحاب الحرف قتلوا فى الحروب أو أرسلوا عبر البحار ، وكان تهديد القرى بالحرق ، والمزارع بالدمار ، خلال الغارات لصيد العبيد ، من أسباب توقف العمران والزراعة ، فلم يكن فى استطاعة المرء أن يعرف مستقبله ومستقبل أسرته إلى الغــد[1] . ويصرح Derek Kartun بأن تدهور الشعوب السوداء كان نتيجة مباشرة لتجارة الأوربيين فى العبيد[2] .

(ب) الاستعمار: قطع الاستعمار كل صلة بين إفريقية بعد الاستعمار وإفريقية قبله ، وأنهى حضارة هؤلاء القوم ، ويقول Basil Davidson[3] إن البرتغاليين وجدوا شعوب شرق إفريقية تعيش فى ثقة ورخاء ثم وضع البرتغاليون بهمجيتهم نهاية لهذه الحياة .

(ج) المبشرون: كان المبشرون كما يقول W.E.Abraham مجرمين بما اقترفوه من أعمال التدمير للحضارة الإفريقية ، فقد خيل إليهم أن الأفارقة يعبدون تحفهم الفنية ، فجمعوا منها ما استطاعوا جمعــه وأوقدوا فيها النيران ، ولعل من معجزات القدر أن بعضها نجا من هذا المصير الأليم[4] .

(د) المستوطنون: إن الذين جاءوا من اوربا ليعيشوا فى إفريقية كانوا حثالة الناس ، ويقول السير كورونوول لويس فى عام ١٨٣٧ : إن حثالة بريطانيا قد تدفقت على المستعمرات . . . محامين فاشلين وتجارا مفلسين ، وأسوأ أنواع الناس[5] .

---

(١) History of Africa p. 101

(٢) Africa Africa p. 20

(٣) Rediscovery of Antient Africa p. 126

(٤) The Mind of Africa p. 117 ترجمة خيرى حماد

(٥) Derek : Africa Africa p. 27

تلك هى المؤثرات التى تجعل البعض يقلل من أهمية الحضارة الإفريقية ، وهى مؤثرات غير عادلة ، فمن الحق أن يتضح أن من الواجب أن نتعرف على الحضارة الإفريقية قبل أن تمشى أقدام الأوربيين على أرض إفريقية ، وأن يتضح لنا أن هناك إفريقية واحدة وأن مصر جزء لا يتجزأ منها ، وأن الحضارة المصرية لم تقف عند حدود الأرض المصرية بل سارت شوطا طويلا فى القارة مع المهاجرين ومع التجار وخلال الاتصالات المتعددة بين مصر وأجزاء مختلفة من القارة ، وأن مصر لم تكن المصدر الوحيد لحضارة إفريقية ، فهناك حضارات هنا وهناك استمدت جذورها من أمكنة أخرى أو نبتت حيث وُجدت ، وفى ضوء هـــذا التفكير السليم نتحدث عن حضارة إفريقية الأصيلة :

ولنبدأ حديثنا بأن نورد وصفا أورده Basil Davidson عن جانب من حضارة شرقى إفريقية عندما وصلها فاسكو دى جاما فى رحلته المشئومة قال :

بين سنة ١٤٨٨ و ١٤٨٩ وصلت سفن فاسكو دى جاما إلى الساحل الشرقى لإفريقية وقد أصابت الدهشة رجال هذه السفن ، إذ رأوا هناك مدناً ساحلية مزدهرة عامرة بالسكان ، وبحارة يعرفون جيداً طرق الملاحة إلى الهنـــد وما وراءها ، ممن اعتادوا القيام برحلاتهم مستخدمين الخرائط والبوصلات وأجهزة لقياس خطوط الطول والعرض مما يماثل ما كان فى حوزة الأوربيين وربما تفوقها دقة ، فهم بحارة كانوا على معرفة أكثر من الأوربيين بالعالم الخارجى ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه الاكتشافات الأوربية لا تزال فى بدايتها .

ألقت هذه السفن مراسيها فى خضم تجارة المحيطات ، ونزل بحارتها إلى المدن الموجودة آنذاك ، والتى كانت تماثل فى روعتها المدن القليلة التى وُجدت

بأوربا فى تلك الأيام ، ولقد كان واضحاً أن هؤلاء البحارة الأوربيين فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر لا يمكن أن يفوقوا فى مدنيتهم هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى سواحل شرقى إفريقية ، فهؤلاء كانوا على قدر كبير من المعرفة بالعالم ، وعلى قدر كبير من التمدين ، وكانت موانيهم ومدنهم مؤسسة على أحسن طراز ، حتى أن هؤلاء الأوربيين وجدوا أنفسهم أشبه بالغرباء عن هذا العالم الجديد .

ويقول مسجل سفينة فاسكو دى جاما « ساوجابرييل » : حضر إلينا اثنان من سادة هذه البـــلاد . . . كانا على جانب كبير من التعالى ، ونظروا إلى ما قدمناه لهما من الهدايا نظرة الترفع ، واعتبراها أشياء لا قيمة لها . وكان أحدهما يضع على رأسه قبعة حافتها مطرزة بالحرير ، ويضع الآخر قبعة من الحرير الأخضر — وبصحبتهم شاب صغير — وقد فهمنا من إشاراتهم أنهم قدموا من بلد بعيد . وأنهم رأوا من قبل سفنا كبيرة كسفننا(١) .

ويقتبس Derek Kortun ما ذكره Frobenius(٢) فى كتابه « الحضارة الإفريقية » عن دهشة تجار القرون الوسطى الأوربيين عندما وجدوا بإفريقية طرقا معتنى بها ، مظللة لمسافات طويلة بصفين من الأشجار ، ورأوا حقولا مزدهرة ، ومدنا يسكنها رجال يلبسون ملابس زاهية ، وجمعاً من الناس يلبسون الحرير والمخمل ، ودولا منظمة ، وملوكا أقوياء ، وحرفا مزدهرة وصلت إلى حد كبير من المدنية(٣) .

---

(١) Rediscovery of Antient Africa p. 79

(٢) ليو فروبنيوس (١٩٣٨) ألمانى من علماء الآثار ، يعتبر من أعظم المصادر فى فن ما قبل التاريخ ، قام باثنتى عشرة رحلة إلى إفريقية ، وكتب كتابه هذا الذى يعد أعظم وثيقة عن حضارة إفريقية فى العصور القديمة والوسيطة .

(٣) Africa Africa : A Continent Rises to its feet p. 28

ويسوق Basil Davidson مقارنة عن الأمن الداخلي بين إفريقية وأوربا آنذاك يقول فيها : إن الحياة في وسط إفريقية كانت أكثر أمنا وسلاما للمسافر بالنسبة للحروب وحوادث القتل عما كانت عليه الحال في أوروبا(١) »

أما عن حضارة مصر والدور الذي لعبه في إفريقية ، فإننا نوجز الأمر بأن نقرر أن حضارة مصر كانت فسيحة وعميقة ومتعددة الجوانب ، شملت النظم السياسية والاقتصادية والعقائدية والفنون والعلوم والحياة الاجتماعية ، وأن هذه الحضارة عرفت طريقها إلى نواح متعددة من القارة عن طريق الهجرات المصرية وعن طريق الحملات الحربية والتجارية ، وأن الحضارة المصرية ذهبت إلى مدى أبعد مما وصلت له هذه الحملات ، ولنعد لهذا الإيجاز بشيء من التفصيل :

عن الحضارة المصرية يقرر Roland Oliver (٢) أن الزراعة التي تمثل الحقبة الثالثة من تطورات البشر (بعد الأدوات الدمائية والنار) قد عرفت منذ عشرة آلاف سنة ، وظهرت في مصر في ذلك الوقت المبكر ، وكان لدى المصريين فائض كبير من الزراعة ، وتبع ذلك تزايدُ السكان وكثرة الأنعام ، ثم تطورت الزراعة بظهور أدوات جديدة أفادت في الزراعة والصيد ، وأحرزت مصر نجاحا في الميادين الاقتصادية والفنية في نهاية القرن الأربعين قبل الميلاد ، ثم استخرج المصريون الذهب من المناجم الواقعة بين الشلالين الأول والثالث ، ويبدو أن نظام الحكم في مصر قد انبثق من مصر ذاتها ، فأخذت هذه البلاد تخطو خطوات واسعة نحو تطور نظم الحكم ، فاتحدت الأقاليم في أثناء حكم الأسرة الأولى ثم أخذ فن العمارة في التقدم والازدهار ، ذلك الفن الذي وصل إلى الأهرامات والمعابد العظيمة ، وارتبطت به نهضة

---

(١) Rediscovery of Antient Africa p. 122

(٢) History of Africa pp. 7—11 Abridged

علمية واسعة النطاق فى الطب والكيمياء ، والجغرافيا ، كما ارتبطت به نظم دينية وعقائدية مهمة .

تلك لمحات سريعة عن اتجاهات الحضارة المصرية ، فلننظر الآن فى وسائل رحلة هذه الحضارة إلى نواح مختلفة بإفريقية ؛ وقد كانت هجرة المصريين إلى نواح شتى بإفريقية وسيلة مهمة لحمل الحضارة المصرية إلى المناطق التى يهاجر لها هؤلاء المصريون ، يقول Trimingham[1] إن الشعوب الإفريقية تأثرت تأثرا مباشرا بالثقافة المصرية بسبب الهجرات المصرية المستمرة التى كانت تتجه إلى الغرب وإلى الجنوب .

ولدينا بعض الدراسات التى تتبعت هذه الهجرات وحددت نسبة بعض الشعوب الإفريقية إلى الدم المصرى الذى هاجر إلى هذه البقاع منذ أزمنة سحيقة ، فشعب أوغندا مثلا يوصف بأنه شعب فرعونى ، لأن أسلافه هاجروا من مصر منذ آلاف السنين حينما كانت لا توجد حدود سياسية تفصل بين أجزاء القارة ، وهناك هجرات مصرية كذلك اتجهت إلى السودان وأثيوبيا والصومال ورواندا وبوروندى ، ويدلل علماء الأجناس على ذلك بالتشابه الكبير فى الملامح والتقارب فى اللون والتقاليد والعادات ونظم الحكم[2] .

ويقرر بعض الكتاب أن علماء الأجناس أجمعوا أخيرا على أن أصول شعب الفولانى ترجع إلى أرومة مصرية بدليل شبههم القريب من شبه المصريين[3] .

ولم تكن هجرة الحضارة المصرية إلى نواح مختلفة بإفريقية متوقفة على هجرة المصريين ، بل انتقلت هذه الحضارة بواسطة الحملات الحربية والقوافل

---

(١) A History of Islam in West Africa p. 13

(٢) محمد عبد العزيز إسحاق : نهضة إفريقية ص ٩٦ .

(٣) فجر التاريخ الإفريقى ص ٤٧ (تعليق المترجم) م

التجارية ، يقول Davidson[1] : إن هناك الكثير الذى يثبت أن الحملات المصرية اتجهت جنوبا فى النيل وعلى شواطئ البحر الأحمر ، والوثائق التاريخية حافلة بالتفصيلات الواضحة المنوعة فى هذا الصدد ، فكثيرا ما وصل التجار والجنود المصريون إلى بلاد بنت وبلاد كوش وأثيوبيا والصومال والسودان ، بل وصلوا إلى بحيرة تشاد وغابات الكونغو ومرتفعات أوغندة ، ويتحدث هذا المؤلف عن رحلات عديدة أثبتتها النقوش المصرية ، وعن حملات حربية حققت انتصارات عسكرية كبيرة ودفعت الجنود المصرية بعيداً إلى الجنوب[2] .

أما أثر هذه الهجرات وتلك الرحلات من الناحية الحضارية فقد حفلت به مراجع كثيرة تؤكد أن الحضارة المصرية باتجاهاتها المختلفة تخطت الحدود وانسابت هنا وهناك ، وقد اتضح هذا التأثير فى نظم الحكم ، فقد وجد الأوربيون فى روانده نظاما سياسيا دقيقا لا يختلف عن نظم الحكم فى عصر الفرعونية[3] ، فقد كان هناك صورة الملك المطلق السلطان الذى كان له الحكم ، وكانت له السيطرة على الدين والممتلكات وكانت سلطته وراثية ، وقد وجدت هذه الصورة فى إفريقية الزنجية ، واتجهت إلى الغرب ثم إلى الجنوب حتى مدغشقر . وقد قرر Wittfogel[4] أنه لا شك أن مصدر النظام واحد ، وأن إفريقية الزنجية قد نقلته عن مصر الفرعونية فى حقبات متلاحقة من التاريخ بعد قيام عصر الأسرات .

واتضح هذا التأثير كذلك فى العقائد ، فالقبائل التى كان لها السيادة فى

---

(١) Rediscovery of Antient Africa P. 22

(٢) Ibid p.p. 28—22

(٣) دكتور محمد محمود الصياد : صور إفريقية ص ٩٠

(٤) Oriental Despotism

نقلا عن إفريقية : الأرض والناس ص ٢٢٥ .

رواندا – أورندى تقدس البقرة ، كما قدس أسلافهم بمصر عجل أبيس ؛ ويتخذون منها معبودا كما فعل المصريون بالإلهة هاتور[١] . ويعطى M.H. Panikar[٢] تفاصيل أوسع لتأثير العقائد المصرية على الفكر الإفريقى فيذكر أن الكبش حيوان مقدس عند اليوروبا كما هو مقدس عند المصريين ، وديانة اليوروبا تجمعها عناصر شبه تسترعى الأنظار بديانة مصر القديمة ، ويوجد شبه مثير بين تابوت مقبرة أتا جلا Ata Galla فى الشكل الكهفى أو القوارب التى كانت تستعمل كتوابيت عند قبائل النوبى وبين الرسومات الموجودة على المقابر المصرية .

بل وصلت التأثيرات المصرية إلى اللغات الإفريقية فالباحثة Homburger التى كرست وقتها لدراسة اللغات الإفريقية الزنجية تقرر أن هذه اللغات مشتقة من اللغة المصرية القديمة وقد أوردت على ذلك أدلة لم يستطع أحـــد نقضها[٣] .

وهناك أشعة حضارية أخرى دخلت القارة من الشمال الإفريقى حيث أقام الفينيقيون سلطانهم فى القرن الثامن قبل الميلاد بتونس والجزائر وحيث سيطرت الدولة الرومانية على كل الساحل ابتداء من القرن الثانى والأول قبل الميلاد ، ومن الفينيقيين والرومان انسابت إلى داخل القارة ألوان من الحضارات والثقافات فى نواح مختلفة[٤] .

---

(١) دكتور محمد الصياد : صور إفريقية ص ٨٣ .

(٢) Serpent and Crescent ص ٣٢ من الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ أحمد فؤاد بلبع ولم تنشر بعد ، وقد تفضل فأطلعنى عليها .

(٣) نقلا عن المخطوط السابق ص ٣١ .

(٤) Roland Oliver : History of Africa pp. 17 ff

والآن بعد هذه العجالة عن الإشعاع الحضارى الذى اقتحم القارة قديما من الشرق ومن الشمال نتّجه إلى إبراز لون جديد من الحضارة يمكن القول إنها نَبْتُ الداخل ، فالحقيقة أننا لو درسنا القبائل وسكان الغابات لوجدنا لهؤلاء ولأولئك ألوانا زاهية من الحضارة فى اتجاهات مختلفة من الشئون :

ولنبدأ بالحديث عن القبائل ، ولعل النظام السياسى يفرض نفسه ليأخذ مطلع الحديث ، ولحسن الحظ توجد عندنا دراسات قام بها باحثون شيمتهم الصبر وهدفهم إحقاق الحق ، وإذا كانت دراسات كل واحد منهم اتجهت إلى قبيلة محددة ، فقد أعلنوا جميعا أن النظم كانت متقاربة فى إفريقية كلها[1] لأن الحدود المعروفة الآن لم يكن لها وجود ، وكان الفكر ينساب من مكان إلى مكان ، وقد عنى W.E. Abraham بدراسة أحوال الأكانيين وأفاض فى شرح نظرية الحكم عندهم ، فذكر أن نظريتهم فى الحكم تقضى بأن الحاكم يستمد سلطانه كله من الشعب ، وللشعب حق إقالته ، وأن رأى الشعب يتحتم أن يكون وراء كل الأعمال التى يقوم بها الحكام ، وكثيرا ما وُضِعت قرارات الحاكم بالفعل على لسان الشعب وباسمه ، وكان الخروج على إجماع الرأى يعد من أعمال الحماقة ، وكان إصرار الفرد على رأى يخالف ما تمّ الاتفاق عليه يعتبر شرا هداما يقاومه المجتمع[2] . وكانت موافقة الملك على القرارات غير لازمة نظريا ، ولم يكن من حق الملك أن يعقد الصلح أو يشن الحرب وحده أو طبقا لرأيه كما لم تكن صلاحياته تخوله الدخول فى مفاوضات أو توقيع معاهدات ذات صلة بمصالح شعبه أو سن القوانين بصورة استقلالية[3] ، ويمكن خلع الملك لعدة أسباب ؛ منها أن يصر

---

(١) Abraham The Mind of Africa PP. 48, 128

(٢) The Mind of Africa p. 81

(٣) Ibid p. 81.

باستمرار على تقديره الشخصي للأمور ، أو أن يكون ظالما أو مستبدا أو شريرا ، أو تثبت عليه تهمة الرشوة أو الإهمال لشئون الدولة ، أو الافتقار إلى الشرف ، أو أن يقف موقف المشاكسة من مستشاريه(١) .

وفى هذا الإطار يتحدث أندا بانجى ميتهول المتخصص فى تاريخ افريقية فيقرر أن الشعب كان هو الذى يختار زعيمه أو ملكه ، كان الشعب يطلب من الشيخ الذى يقوم بإجراء مراسيم التنصيب أن يبلغ رغبتهم إلى هذا الزعيم ، وهذه الرغبة تتلخص فيما تتضمنه هذه الوثيقة التقليدية :

بلّغ الزعيم نيـابةً عنا أننا نكره الطمع
وأننا لا نقبل منـه أن يسىء إلينـا
ولا نريد منه أن تكون أذناه صماء عن رغباتنا
ولا نريد أن يتصرف فى الأمور دون مشورتنا
ولا نحب أن ينشغل عنا إذا أردنا لقاءه(٢) .

وكان من التقاليد المعروفة عند قبيلة اليوروبا أنه إذا أرسل الملك حملة عسكرية ثم فشلت ، فإنه يقتل نفسه قبل أن تعود حملته المهزومة إلى أرض الوطن ، وإذا لم يقتل الملك نفسه فإن الشعب يرى أن تنفيذ القانون أمر لا مفر منه فيتولى بنفسه قتل الملك ، وهكذا كان حق إعلان الحرب ، يعنى الانتصار أو الموت بالنسبة للملك(٣) .

وتتحدث هذه المراجع عن الحكومة والنظام الإدارى المحكم ، كما تتحدث عن الحاشية وأزيائها الرائعة ، والمجوهرات الثمينة التى يستعملها الملك ورجال حاشيته ، وعن الرقابة الشعبية الحاسمة وغير ذلك مما يضمن سلامة الحكم وخير الدولة(٤) ، وقد كانت إمبراطورية غانة — وسنتحدث عنها فى الباب الثانى — أولى حلقاته

---

(١) Ibid p. 63

(٢) فجر التاريخ الإفريقى ترجمة عبد الواحد الإنبابى ص ٨٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٠ .

(٤) The Mind of Africa p. 94.

التاريخ القوى لغربى إفريقية ، وهى أول تجربة عرفها التاريخ بهذه المناطق ، وقد دل ازدهارها وطول بقائها (من القرن الأول حتى القرن الثالث عشر) على قدرة الإفريقيين على تدبير شئونهم بأنفسهم ، وقد اضطر بعض المنصفين من الكتاب الأوربيين إلى الاعتراف بأن حضارة إفريقية فى هذه العصور البعيدة فاقت حضارة بعض البلاد الأوربية الآن[1] .

وفى إفريقية نظام قضائى رائع يضمن الحق لصاحبه ، ويحتم تكافؤ الفرص للمتقاضيَيْن وإن تفاوت مكانهما الاجتماعى ، ويتيح هذا النظام الاستئناف لمن أحس أنه ظلم فى القضاء ، فإذا أحس أنه لم يُنْصَف فى الاستئناف رفع ظلامته إلى الزعيم أو الملك ليباشر بنفسه دراسة القضية[2] .

وللإفريقيين فكر حول الروح والمادة يوضع فى مستوى رفيع بين الأفكار العالمية .

ونأتى الآن للحديث عن الحياة الاجتماعية بإفريقية القديمة ، ويجدر بنا أن نفسح القول إلى حد ما حول هذه النقطة المهمة على نحو ما فعلنا مع نظرية الحكم ، وفى مطلع الحديث عن الحياة الاجتماعية تبرز قضية المرأة وتكوين الأسرة ، وقد اتجه الإفريقيون إلى الزواج من الأباعد وهى النظرية العلمية التى ترى أن اختلاط الدم يقوّى الطفل ، ولم يكن يجوز إلا للملوك أن يتزوجوا من الأقارب ، ربما لأن الملك يتحتم عليه أن يعيش لشعبه وأن يضحى من أجله ، وكانت هذه تضحية التزم بها الملك حتى لا يرتبط مع الأباعد خشية أن يكون فى هذا الارتباط خطر على مستقبل أمته ، ويتم عقد الزواج بدفع مهر للعروس كثيرا ما كان ميسورا وقليلا ، ولم تكن موافقة العروسين شرطا لازما ، إذ كان الزواج رابطة يتأثر بها المجتمع ، فهو فيها صاحب

---

(١) دكتور إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ص ١٣ .

(٢) فجر التاريخ الإفريقى ص ٨٥ .

الحق الأول . ووجد فى الحياة الإفريقية نوع يشير إلى الفروسية وخطف العريس لعروسه ، والحق أن ذلك كان عملا ظاهريا يسبقه اتفاق بين أهل العريس والعروس(١). وتعدد الزوجات كان كثيرا ، وكان مظهرا من مظاهر الغنى والجاه ، ولا يسمح بالطلاق إلا لأسباب قوية ، وربما لا يوجد مكان فى العالم يتمتع فيه الأطفال بالترحيب أكثر من إفريقية السوداء ، ولا توجد فى إفريقية السوداء أرامل وأيتام بدون حماية(٢) .

وقد قيل عن بعض ملوك الأشانتى أنه لم يشترك مطلقا فى حرب غير عادلة ، ولم ينقض معاهدة على الإطلاق ، ولم يقصر فى القيام بواجبات الاحترام مع سفير ، ولم ينتهك قط اتفاقية هدنة(٣) .

وعرفت إفريقية نظام الملكية الفردية والملكية العامة ، وكان لكل منهما ضمان واضح ، وكان إدراكهم لآثار الملكية الفردية ونتائجها كبيرا ، وكانت الأرض هى الشىء المهم الذى يمتلك مشاعا أو ملكية عامة ، ولا يمكن خروجها من هذه الملكية(٤) .

ويوجد فى دول إفريقية نظام البريد ، وقد روى أن بعض ملوك شعب داهومى كانوا يحتفظون بنظام نقل المراسلات بطريق العدائين ، الموجودين بمكاتب البريد المنتشرة على طول الطريق ، كما عرفوا جواز السفر من أرض شعب إلى أرض شعب آخر ، وكان جواز المرور عبارة عن عصاً نقش عليها شعار القبيلة التى ينتمى لها المسافر ، ووجدت فى بعض الممالك الإفريقية نظم دقيقة لتحصيل الضرائب والرسوم الجمركية ، وإحصاءات متقنة لعدد

---

(١) W.E. Abraham : The Mind of Africa pp. 72. 87

(٢) Ina Corinne Brown : The History of the Negro p.p. 42, 45.

(٣) Ibid p, 48.

(٤) The Mind of Africa P. 73

السكان[1] ؛ وتلك لعمرى مظاهر حضارية تدعو إلى الإعجاب والتقدير ، وتشرّف من يتبعها فى العهد الحاضر فما بالُك بها وقد وجدت فى إفريقية منذ مئات السنين ؟

وقبل أن نتجه إلى الغاية لنرى دورها فى ميدان الحضارة الإفريقية يجلر بنا أن نذكر فى لمحة سريعة أن الإسلام دخل جنوب الصحراء فأفاض عليها من فكره وحضارته ودفعها إلى الأمام مراحل واسعة ، ولسنا نستطيع أن نطيل الكلام واصفين ممالك هذه المناطق فى ظل الإسلام ، فالكتاب كله حافل بالمفاخر والمناقب التى جاء بها الإسلام إلى هذه المناطق ، وحافل كذلك بإبراز الاستجابة الطيبة التى أبانتها هذه الشعوب ، ولنكتف هنا بإشارة موجزة نرويها عن شاهد عيان هو الرحالة ابن بطوطة رآها فى مملكة مالى ؛ وهو يقول : فى بلاد مالى يقل الظلم أو ينمحى ، فالناس أبعد ما يكونون عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحداً فى شىء منه ، ومن مفاخر بلاد مالى شمول الأمن ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم للمال من يموت ببلادهم من البيضان ، ولو كان القناطير المقنطرة ، بل يتركونه بيد ثقة حتى يأتى مستحقه فيأخذه ، ومنها مواظبتهم على الصلاة ، والتزام الجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ، ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يُصلى لكثرة الزحام[2] .

وهكذا علا شأن الإفريقيين فى ناحية الدين وناحية الدنيا ، وستظهر لنا هذه الحقيقة من حين إلى حين ونحن نسير فى هذه الدراسة ، وبخاصة الباب الأخير حيث تحدثنا عن مظاهر الحضارة الإسلامية جنوب صحراء إفريقيـــة .

---

(1) The History of the Negro p. 42.

(2) رحلة ابن بطوطة : ج ٢ ص ٢٤٤ .

والآن نتجه إلى الغابة مؤكدين بادئ ذى بدء أن دورها فى ميدان الحضارة كان كبيرا ، وأنها خلقت من الإفريقى أستاذا للغرب فى فنون الرقص والموسيقى والنحت والتصوير ، فلنبدأ حديثنا عن الغابة من مطلعه :

تتمتع الغابة بنصيب كبير فى تكوين طبيعة الحياة بإفريقية الوسطى ، وتضفى على الحياة نوعا من المهابة والغموض ، فالحيوانات تغمرها ، والنهيرات وغدران الماء تجرى وسطها ، والشلالات تتدفق بها ، وألوان الأشجار والأزهار تزدهى فيها ، ومن هذه العناصر تأتلق الغابة بأصوات وألوان تكون أهم عناصر التشكيل الأدبى والفنى .

فالصوت يصدر عن حفيف الأشجار وخرير المياه وهدير الشلالات ، كما يصدر عن الحيوانات والزواحف والطيور فيكون زئيرا وعواء ومواء وفحيحا ونقيقا وزقزقة . . . ، وتتراوح درجات الصوت وتتدرج طبقاته بل تلتحم وتتحد أحيانا ، فيكون منها إيقاعات وأنغام منتظمة وتشكيلات لونية متناسقة(١) وكثيرا ما يبدأ الصوت وحيدا نابعا من مصدر واحد ، ثم تبدأ الاستجابة له ، من حيوانات أخرى ، ثم تسكت بعض أنواع الحيوانات ويستمر البعض ، وقد تهدأ بعد ذلك جميعا إلا صوتا ضئيلا كأنه خاتمة الأنغام ، وأشهد أننى طالما سمعت هـــذه الأصوات بجبال إندونيسيا ومن غاباتها ، فخيل لى أن « جوقة عزاف » تدير هذه الإيقاعات الضخمة لو اتجهتُ من ناحية أخرى إلى أن الملحنين تلقوا دراستهم فى الإيقاع عن الغابة أو عمن تلقى عنها .

فإذا جئنا إلى اللون وجدنا الغابة غنية به غنى عظيما ، فالطبيعة قد سخت

---

(١) عل شلش : من الأدب الإفريقى ص ٢٠ – ٢١ بتصرف واسع وانظر كذلك الثقافات الإفريقية للأستاذ محمد عبد الفتاح إبراهيم (فصل الموسيقى والرقص) .

سخاء" هائلا فى جانب الألوان على الغابة ، وتبرز هذه الألوان الرائعة فى الحيوانات والطيور والزهور ، وقد انفعل الإنسان الإفريقى بهذه الألوان الخلابة فراح يحاكيها فى ملابسه وأثاثه ومسكنه ، ومن هنا اتجه اهتمام كثير من القبائل فى الملابس إلى الألوان الزاهية والفاقعة والمزركشة ، فقد كان ذلك من آثار البيئة ، وانعكست ألوان الغابة على التصوير والنحت الإفريقى انعكاسا واضحا ، فالتصوير كان متمشيا مع الطبيعة ومحاكاة لها ، وفى النحت لم يقنع الإفريقى بلون واحد فعمد إلى التطعيم ليجعل تمثاله الخشبى متعدد الألوان .

وكانت الغابة أستاذا فى الرقص كما كانت أستاذا فى الموسيقى والرسم والنحت ، وكم فى الغابة من حيوانات وطيور تتراقص فى مشيتها أو قل إن مشيتها رقص طبيعى وحركاتها متعة حاكاها الإنسان ، فإذا به يرقص ، وإذا بالرقص فن رفيع .

وارتباط الرقص بالموسيقى هو كذلك درس من دروس الغابة ، فالهدوء يطوى الغابة أحيانا ، فلا يمشى حيوان ولا يطير طائر ، وفى نفس الوقت لا تسمع صوتا ينبعث ، فإذا دبت الحياة فى الغابة وتبخترت الحيوانات وتراقصت الطيور فإن الأصوات ترتفع كذلك مع دبيب الحياة ، وهكذا تدفع الموسيقى إلى الرقص ، أو يدفع الرقص إلى الموسيقى ، فهما متلازمان على كل حال .

وهكذا كان أثر الغابة عاليا على أنواع من الفنون بإفريقية ، وسنقتبس لمحات من الدراسات عن بعض هذه الفنون لنرى تقدير الباحثين لها وإعجابهم بها ؛ تقول الكاتبة الزنجية Pearl Primus (1) : لست أستطيع أن أفكر

---

(١) The African Dancing نقلا عن الثقافات الإفريقية للأستاذ محمد عبد الفتاح إبراهيم ص ١٨٦ – ١٨٧ .

إفريقية دون أن أسمع دقات الطبول العالية ودون أن تمر أمام عيني حشود الراقصين . ويقول الأستاذ محمد عبد الفتاح إبراهيم : إنه من المحتمل أننا لا نستطيع أن نجد مجتمعاً قبلياً إفريقيا لا تكون للرقص فيه مكانة بارزة في حياة الناس ، فالرقص أكثر من أن يكون مجرد متعة أو مظهراً للسرور ، إنه جزء غير منفصل عن طقوس ترتبط بالمناسبات الرئيسية في حياة الفرد أو حياة الجماعة ، ذلك لأن الرقص يكون تعبيراً عن إحساس الفرد وتعبيراً عن تضامن الجماعة . . . ودليلا على تشاركها في الفرح والحزن ؟

ففي كل مكان من القارة نجد على سبيل المثال لا الحصر . . . أن الميلاد . . التكريس . . البلوغ . . الزواج . . الموت . . . وما إلى هذا مما يمكن أن يؤثر في كيان الجماعة إنما تصحبه احتفالات قد تختلف في الطابع ولكن الرقص هو الجزء الرئيسي من برامجها كلها . . .(١)

وعن الفن الإفريقي تقول Ina Corinne Brown(٢) : اشتهر زنوج الساحل الغربي من القارة الإفريقية منذ القدم بمهاراتهم ومواهبهم في الفنون ، فأهالي داهومي أظهروا براعة عظيمة في الحفر على الخشب ، لا سيما في حفر مقاعدهم وعصيهم وتماثيلهم ، وشعب الأشانتي اشتهر في صناعة الحلي والجواهر الأنيقة المتقنة ، والموازين ومختلف المثاقيل النحاسية الدقيقة التي كانت تستعمل في وزن التبر . ولقد حازت الأشغال البرونزية المصنوعة في مملكة بنين القديمة شهرة عظيمة حتى أنها عرفت طريقها في القرن الخامس عشر والسادس عشر إلى المتاحف الأوربية ، كذلك لقد تميز شعب بنين بعماله المهرة في الحفر على الخشب والعاج والحديد ، بل يعتقد بعض الباحثين أن الأشغال الحديدية إنما نشأت في الأصل عند الزنوج .

---

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : الثقافات الإفريقية ص ١٨٦ وما بعدها .

(٢) The Story of the Negro p. 44

ويقول Panikar[1] إن النوك (فى نيجيريا الشمالية) قد أثبتوا أن التماثيل التى صنعوها بها من التشكيل والمرونة ما يجعل بينها وبين التماثيل الهندية أوجه شبه بارزة .

وعن الفن فى إفريقية كذلك هناك عبارة لشاعر إفريقى عظيم هو الرئيس سنجور رئيس جمهورية السنغال ، وهى تصف حساسية الرجل الإفريقى أدق وصف ، وتبرز عواطفه وانفعالاته ، وتلك العبارة هى « إن الرجل الأسود هو إنسان الطبيعة ، يعيش مع أرضه ؛ إنسان حسى متفتح الحواس ، لا يقبل الوساطة بين الذات والموضوع ، لكنه يقبل كل شىء أنغاما وروائح وإيقاعات وأشكالا وألوانا ، إنه يحس الأشياء أكثر مما يراها »

ويعتبر هذا القول إطارا يحوى أدق رسم للإفريقى الفنان ، وقد حفلت المراجع بتصوير الفن الإفريقى ، فزنوج غربى إفريقية امتازوا بالبراعة الفنية وبخاصة فى مسائل النحت والفن التشكيلى ، وقمة البراعة الفنية تتمثل فى إقليم « بنين Benin » وإيفى Eve وما حولهما من الجهات فى جنوب غربى نيجيريا ، ففى هذه البقاع برع السكان منذ قرون عديدة فى النحت الفنى للعاج ، وصناعة الأقنعة ، وتماثيل البرنز ، وعندما استولى الإنجليز على مدينة بنين سنة ١٨٩٧ وجدوا فيها مجموعات ثمينة من روائع الفن ، ونقلوا منها إلى المتحف البريطانى فى لندن أنياباً منحوتة كاملة من العاج ، وتماثيل من البرنز فى غاية الروعة والإتقان الفنى ، ولم تلبث التحف الافريقية أن ملأت كثيراً من المتاحف فى أوربا وأمريكا .

ومعظم جهات إفريقية الزنجية لا يخلو من آثار فنية على هذا النسق ، ولكن غربى إفريقية أكثرها عناية بإنتاج التحف الجميلة[2] .

---

(١) دكتور محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٤٩ .

(٢) Serpent and Crescent p. 8

واشتهرت إفريقية كذلك بتشكيل الأوانى النحاسية والنحت على الخشب ، وقد عرف كثير من قبائل إفريقية صهر الحديد وصناعة الآلات والأسلحة الحديدية وصناعة الحلى من العاج ومن المعادن والصدف ، وصناعة الخزف وصناعة السلال من أغصان الأشجار ، وصناعة الدباغة ، وأجادوا هذه الصناعات إجادات تامة ، وكانوا فى تشكيل البرونز فى القرن الخامس عشر أقدر من الفنانين الأوربيين ، كما أنهم فى صهر الحديد سبقوا أوربا بعدة قرون .

ولنختم هذا البحث عن حضارة إفريقية بعبارة شاملة كتبها Basil Davidson[1] ونصها : إن حضارة إفريقية التى ارتبطت بالعالم الخارجى حركتها عوامل إفريقية خلاقة خالصة من بدايتها ، كما تشهد بذلك ممالك السودان القديمة ومدن الساحل العظيمة وأسوار زمبابوى وأبراجها ، وهى حضارة تقرر انتصار شعوب غير معروفة قامت فى داخل إفريقية وحققت ذلك الانتصار . وقد كانت هذه الشعوب وحياتها حركة متصلة دائبة تضرب فى أعماق التاريخ وتواصل زحفها دائماً ، وكانت تمثل نمواً لا يختلف فى أساسه وجوهره عن نمو أى مجتمع فى أى مكان آخر من العالم . ولقد أسهمت هذه الشعوب بأفكارها وفنونها وآرائها فى الحكم والفن فى تراث الإنسانية المشترك[1] .

والآن مع إحساسى بأن الحضارة الإفريقية الأصيلة قد أخذت نصيبها هنا من البحث والدراسة لا يزال أمامى مؤلَّف واسع الشأن فى هذا المضمار ، كتبه اثنان من المستشرقين الروس ، وينبغى أن نفسح المجال للاقتباس منهما ، وبخاصة أنهما يتكلمان عن دور إفريقية فى حضارة العالم ، يقول سافيليف وفاسليف :

---

(١) Rediscovery of Ancient Africa p. 127

منذ آلاف السنين صنعت الشعوب الإفريقية ثقافتها الخاصة ، من حيث الملبس والمسكن والموسيقى والرقص والأغانى والأساطير ، واللغة المكتوبة وفن العمارة الخ . . . وكان الإفريقيون أنفسهم هم الذين صنعوا بعملهم وذكائهم التراث الثقافى فى القرون الماضية :

وتحتل الحضارة الإفريقية العظيمة التى نشأت فى العصور الغابرة فى الجزء الشمالى الشرقى من القارة مكاناً بارزاً فى هذا التراث . وقد شاهد وادى النيل لأسباب مختلفة ظهور حضارة من أقدم الحضارات الإنسانية فى العالم ، فنشأ فى هذا الوادى نظام حكومى ونظام اقتصادى راقٍ فى فجر التاريخ الإنسانى ، وهذا يؤكد لنا بقوة دور إفريقية البارز فى تاريخ العالم .

وظهر فى وادى النيل الخصيب وفى الواحات القريبة الواقعة فى شمال شرقى إفريقية نشاط اقتصادى قبل أن يعرف الإنسان استخدام المعادن بزمن طويل ، ففى هذه المناطق بنى الناس مساكنهم على التلال المتاخمة لوادى النهر ومارسوا القنص والصيد ، وانتظموا فى جماعات مشاعية (كومونات) بدائية . وبنمو عدد السكان وارتقاء أساليب العمل انتقل الإنسان إلى زراعة الأرض ورعى الحيوانات .

وبفضل جهود كثير من الأجيال أصبح وادى النيل مغطى بشبكة كثيفة من قنوات الرى مكنت الإنسان من تسخير قوة النهر ، وتعلم الإنسان الأول كيف يفلح الأرض بأطراف الأغصان الحادة ثم اخترع المحراث الخشبى واستخدم الثيران فيه ، مما ساعد كثيراً على تحسين زراعة الأرض ، فأصبحت الزراعة من الحرف الأساسية فى وادى النيل .

وظهرت إلى جانب الزراعة حرف مختلفة كأشغال الحجر والصلصال والخشب وسرعان ما ظهـرت حرفة النسيج والدباغة وغيرها . وكان

اكتشاف المعادن إيذانا ببداية عهد جديد ، وازدادت تجارة المقايضة ازدياداً كبيراً بظهور الحرف[١] .

وهكذا قامت الحضارة القديمة فى وادى النيل ، بدور تاريخى غاية فى الأهمية لأنها كانت من أطول الحضارات الإنسانية عمراً ، وأقواها أثراً ، إذ تمكن الشعب من إنشاء نظام عظيم للرى ، كما توصل إلى إيجاد لغة للكتابة ، وضرب بسهم وافر فى الأدب ، وأخضع الزراعة لفيضان النيل الموسمى ، مما لفت النظر إلى الظواهر الطبيعية ، فأخذ الشعب يهتم بدراسة الفلك ؛ وأدى ذلك إلى وضع تقويم سنوى . وعرف المصريون القدامى النظام العشرى فى الرياضيات وألموا بشىء من علم الجبر واهتموا بترقية فن العمارة ، فلذموا العمليات الحسابية المتصلة بالمربعات والمثلثات والدوائر وحجوم الأهرامات البسيطة والناقصة .

وبرعوا فى الطب كما تشهد بذلك دراسة المومياء ، وعالجوا العظام والأنسجة الجلدية المريضة بالآلات الجراحيـــة وعرفوا حشو الأسنان ، وصنعوا الأوانى الزجاجية والخزفية والأصباغ والمينا وعرفوا ورق البردى وكثيراً من المواد الأخرى ، وقد بقى حتى اليوم كثير من كتاباتهم وتحفهم الفنية .

وقد اقتبست مصر كثيرا من مظاهر الحضارة من جيرانها الأقربين وغيرهم خلال آلاف السنين ، ولكنها أثرت فيهم تأثيراً عظيماً .

ولمصر القديمة صلة وثيقة بتاريخ الشمال الشرقى لأفريقيا بمـــا فى ذلك الحبشة وغيرها من البلدان الإفريقية ، ويرجع اتصال مصر بالحبشة إلى الماضى السحيق ، وكانت إحدى الأسر المصرية ذات أصل حبشى ، كما نشطت التجارة بين البلدين ، وإن توقفت بين حين وآخر بسبب الحرب .

---

(١) موجز تاريخ إفريقية : تأليف ى . ساقلييف و ج . فلسليف ص ٤و٥ تعريب أمين الشريف .

وقد أقام الفينيقيون مستعمرات لهم على ساحل إفريقية الشمالي في العصور القديمة منها مستعمرة « أوتيكا » التي تأسست سنة ١١٠١ ق . م في حين قامت قرطاجة في سنة ٨١٤ ق . م (قرب مدينة تونس الحالية) ؛ وفي القرن الخامس ق . م أصبحت قرطاجة مملكة قوية ذات مراكز ومدن تجارية تنتشر في سلسلة طويلة على طول ساحل إفريقية الشمالي كله .

وكانت قرطاجة في زمنها أكبر منافس لروما القديمة ، وخاضت الدولتان حرباً عواناً من أجل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط والعالم القديم بوجه عام . ولا تزال حتى اليوم أنقاض المدن القرطاجية تبهر الأنظار بعظمتها وروعتها .

وشهدت هذه الفترة نفسها قيام دولتين كبيرتين للبربر في أفريقية الشمالية هما « نوميديا » و « موريتانيا » .

وكانت نوميديا تشمل الجزء الشرقي من دولة الجزائر الحاليـة ، وموريتانيا تشمل الجزء الغربي منها وجزءاً من دولة المغرب الحالية . وفي أخريات القرن الثالث ق . م اندمجت الدولتان في دولة واحدة على يد ماسينيسا . واحتفظت هذه الدولة باستقلالها على الرغم من مطامع قرطاجنة الاسبانية ، وفي أثناء حرب جوجورثا من ١١١ إلى ١٠٦ ق م أنزلت الفيالق الرومانية سلسلة من الضربات الأليمة بممالك البربر ثم غزتها روما فيما بعد ، فحولت ذلك الجزء من أفريقية إلى إحدى ولاياتها(١) .

وعن الحضارة جنوب الصحارى يقول هذان المؤلفان : إن الأقاليم المتاخمة لبحيرة تشاد كانت مراكز لحضارات عريقة في القدم . وقد كشف علماء الآثار عن حقائق هامة بالقرب من منطقة زاريا في نيجيريا الشمالية ،

---

(١) موجز تاريخ افريقية : ى . ساقلييف و ج . فاسلييف ص ٥ - ١٢ باختصار وتصرف .

إذ كانت آهلة بأقوام يشتغلون بالزراعة ثم عرفوا صناعة الأوانى الفخارية ، وتعلموا صهر الحديد ، واتخذوا منه آلات وأسلحة ، وصنعوا تماثيل من الطين المحروق اتسمت بأسلوبها الفنى الخاص .

وكذلك كان الإقليم الواقع بين نهرى السنغال والنيجر مقراً لحضارة وحكومة إفريقية قديمة ، ففى بداية التاريخ الميلادى قامت فى هذا الإقليم مملكة تدعى أوكر أو غانة ، وكانت تعبرها الطرق التجارية ، ويقطنها قوم يسمون السوننكى وعاصمتها القديمة هى مدينة كومبى التى تقع أطلالها على بعد ٢٠٥ أميال شمالى مدينة باماكو الحالية ، والحرف الرئيسية لسكانها كانت الزراعة والرعى ، كما كانت هذه المملكة تسيطر على الذهب والملح حتى لقد اشتهرت فى قديم الزمان بأنها بلاد الذهب(١) .

وكان لشعوب إفريقية الشرقية فى العصور الغابرة صلات تجارية وثقافية مع دولة أكسوم الممتدة على الساحل الإفريقى للبحر الأحمر ، وكذلك مع الهند وإندونيسيا وبلاد اليونان القديمة ، فتأثرت إفريقية بما كان لهذه البلاد من ثقافات ، وأثرت فيها ؛

وهناك نقوش كثيرة على صخور إفريقية ترسم مناظر طبيعية لبقاع فى إفريقية ، وتعطى صوراً دقيقة لهذه المناظر ؛

والتراث الشعبى من الأغانى والملابس المزركشة والقصص المثيرة غزير للغاية مما يضع إفريقية فى مطالع الدول الغنية بالفنون الشعبية ؛

وموسيقى الجاز إفريقية الأصل وإن تطورت خارج إفريقية ، كما أن إفريقية مصدر لألوان أخرى من الموسيقى والعزف ، وللإفريقيين ضربات

---

(١) المرجع السابق ص ١٣ - ١٤ وسنتحدث عن مملكة غانة فيما بعد .

خاصة على الدفوف والطبول حتى يقال إن للطبول لغات فى إفريقية .

والرقصات الإفريقية ذائعة الصيت وقد أخذ العالم ألوانا من الرقص عن إفريقية ، ويرجع تاريخ الرقص الإفريقى إلى الوراء عدة آلاف من السنين ، فقد ذكرت المراجع أنه فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، كان فرعون مصر يبعث البعوث للجنوب حتى وادى الكنغو ليحصلوا على الأقزام ليقوموا بالرقص أمامه ، وكان فرعون يقرر أن رقص هؤلاء يدخل السرور على قلبه ومن أجل هذا كان يُعنى بالراقصين ، ويمنحهم ألوانا من الخير والثراء .

والرقص فى إفريقية يُعد عبادة أحيانا فهم يتقدمون برقصاتهم إلى الآلهة وتجتمع حشودهم راقصة أمام المعبودات ، وهو بهذا رياضة روحية وجسمانية فى نفس الوقت ، ولم ينحرف الرقص الإفريقى إلى مجال الإثارة قط .

والإفريقى فى أكثر نواحى القارة طويل القامة ، نحيل الجسم ، يعيش أحيانا مع الحيوانات فى الغابات ، وهو لهذا رياضى بطبيعته ، يتسلق الأشجار ، ويسابق الطيور والحيوانات ، ويصيد منها ويقتنص ، ومن هنا جاءت براعته فى الرياضة وبخاصة براعته فى الجرى والملاكمة .

وهكذا كان الفن وسيلة تعبيرية لشعب قلت عنده الكتابة ، وهكذا وصلت الشعوب الإفريقية فى العصور القديمة إلى مستوى رفيع نسبياً من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كما ضربت بسهم وافر فى الحضارة الإنسانية ، إذ صنعت حضارات أثرت فى التقدم الإنسانى فى الماضى البعيد(١) .

---

(١) موجز تاريخ إفريقية ص ١٦ .

الباب الثانى

إفريقية قبل الإسلام

إفريقية قبل الإسلام

إن الحديث عن الإسلام وإفريقية حديث عن دين أمدّ القارة بمشاعل الضوء فى مختلف الشئون ؛ فالإسلام فى معناه السريع دين ودولة ، أو بعبارة أخرى هو حضارة ، أو بشىء من التفصيل هو الإيمان بإله واحد وبرسالة محمد ، وبما حوته هذه الرسالة من عبادات ومعاملات ، وتشمل المعاملات أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق ، ودين كهذا كانت إفريقية فى أمسّ الحاجة إليه ، لقد كانت الوثنية هى الاعتقاد السائد ، وكان مع الوثنية عبادة الأشجار والأنهار والكواكب والأبطال والأرواح ، وفى مناطق الغابات الاستوائية كان العرى هو الزى الغالب ، وتسلط القوى هو أسلوب الحياة ؛ ولم يكن هناك دستور للعمل أو المدنية ، فلما طرق الإسلام قلب إفريقية بدأ ضوء المعرفة يزيح ظلمات الجهل ، وأخذ الإسلام يضع قواعد حياة سليمة تليق بالبشر وتأخذ بيدهم إلى الطريق القويم ، ولهذا يقرر Gouilly أن العصر التاريخى لإفريقية السوداء لم يبدأ إلا منذ ظهور الإسلام ، وأن بالإسلام ولغته وحضارته تقدم السود وتطوروا ، وبلغوا شأنا كبيرا فى المدنية(1) .

وتصوير هذه القارة أو بتعبير أدق هذا الجزء الذى ندرسه من القارة قبل أن يطرقه الإسلام عمل صعب للغاية ، فالقبلية كانت موجودة فى أكثر نواحى المنطقة ، والقبلية عدوة التجمع والاستقرار ، لأنها كما قلنا من قبل تسعى للتفرق والتمزق لا للوحدة والتجمع ، ثم إن القبائل بإفريقية كانت كثيرة التحركات والتنقلات ، فلم توجد لها مواطن ثابتة يمكن أن تكون

---

(1) نقلا عن إمبراطورية غانة الإسلامية للدكتور إبراهيم طرخان ص ١٠ .

مصدراً للتاريخ ، ولم تكن الكتابة معروفة عند هذه القبائل . ومن هنا لم تدوّن الأحداث المتصلة بها ، فأصبح تاريخها مبهماً غير واضح ، وفى بعض الأحايين دُوّن تاريخ ثم قضى عليه لسبب من الأسباب ؛ كالأسباب الدينية التى جعلت بعض الملوك يعمدون إلى إخفاء تاريخهم قبل الإسلام اعتقاداً منهم أنه تاريخ لا يستحق الذكر وأن الإسلام جَبّ ما قبله . وعلى هذا فمحاولة تصوير القارة قبل الإسلام محاولة شاقة ، نقوم بها بقدر ما يسعنا الجهد وتمدنا المراجع .

ثم إن القارة بالنسبة للإسلام ليست وحدة واحدة ، بمعنى أن الإسلام لم يدخلها فى وقت واحد أو حتى فى أوقات متقاربة ، وعلى هذا فليس سهلاً أن نضع خطاً زمنيا فاصلاً بين إفريقية قبل الإسلام وإفريقية المسلمة ، ومثل هذا يقال عن كل دولة من دول إفريقية على حدة . فسودان وادى النيل يتكون الآن من ممالك كانت من قبل متفرقة هى دارفور وكردفان وسنار والبجة والجنوب ، ولم يدخل الإسلام هذه البقاع فى وقت واحد ولا فى قرن واحد ، فإسلام بعض جهات السودان تمّ مع انتشار الإسلام فى مصر ، وبعد عدة قرون طرق الإسلام أرض دارفور فسنار فكردفان فالبجة ، ولا يزال أكثر سكان الجنوب غير مسلمين حتى الآن .

من أجل هذا ليس حديثنا عن إفريقية قبل الإسلام حديثاً يضع حداً زمنياً دقيقاً ، وقد نتوقف عند حد واضح إذا ظهر لنا هذا الحد ، كأن تقوم دولة إسلامية على أنقاض دولة وثنية أو مسيحية ، ولكن حينما يكون الانتشار بالدعوة فإننا نصطنع الصبر والأناة لنصور بقعة ما قبل الإسلام ونصل بها رويدا رويدا إلى رحاب هذا الدين .

وبادئ ذى بدء نقوم برسم صورة سريعة تعتبر إطاراً نسير فى هَدْيه وموجزاً نستمر فى تفصيله ؛ فبوجه عام ينقسم جنوب الصحراء ثلاثة أقسام :

هى الغرب والوسط والشرق ؛ ففى غربى إفريقية هناك دول ثلاثة مشهورة قامت فى العصور القديمة والوسيطة هى غانة وصنغى ومالى ، ومالى إسلامية منذ نشأتها على أنقاض غانة فى القرن الثالث عشر ، ولهذا فإنها تستبعد عند الحديث عن إفريقية قبل الإسلام ، أما غانة فيرجع تاريخها للقرن الأول الميلادى ، وعبرت أكثر من عشرة قرون فى حياة الوثنية ، ولهذا فإنها تكوّن أبرز حلقة فى حديثنا عن هذه المنطقة قبل الإسلام ؛ وأما صنغى فقد بدأت فى القرن السابع الميلادى ودخلها الإسلام فى القرن الحادى عشر ، وسنتحدث فى هذا الباب عن صنغى قبل الإسلا ، ثم نستأنف — الباب الرابع — حديثنا عنها فى ظل الإسلام :

وفى وسط إفريقية قامت عدة دول وإمارات قبل الإسلام أهمها مملكة اليوروبا (غربى نيجيريا) ومملكة الإيبو (شرق نيجيريا) وإمارات الهوسا (شمالى نيجيريا) ومملكة برنو حول بحيرة تشاد ، ومملكة كانم إلى الشرق من بحيرة تشاد .

وفى شرقى إفريقية ظهرت مملكة مقرة وعلوة ودارفور وكردفان ، كما ظهرت بعض الإمارات على الساحل الإفريقى ، وإن كان الإسلام قد طبع هذه الإمارات الشرقية بطابعه منذ عهده المبكر ، إذ كان العرب يكوّنون بها عنصراً هاماً ، وسنبدأ فيما يلى بدراسة فيها شىء من التفصيل عن هذه الممالك ، متجهين من الغرب إلى الشرق :

غـــانة

(من القرن الأول الميلادى حتى سنة ١٢٤٠ م)

غانة أقدم دولة عُرفت فى غربى إفريقية ، ومعنى كلمة غانة فى لغة السوننكى « القيادة العسكرية » ، ومن هنا أطلقت هذه الكلمة على المدينة التى كانت بها هذه القيادة[١] . ويرى البكرى[٢] أن كلمة « غانة » كانت سمة لملوكهم ربما لأنها تحمل معنى « القائد العسكرى » ، ثم اتسع مدلول الكلمة فأطلقت على العاصمة التى يعيش فيها الملوك ، يقول ياقوت[٣] « غانة مدينة كبيرة فى جنوبى بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان » . واتسع مدلولها مرة أخرى فصارت علماً على المملكة كلها ، مع بقائها علماً على العاصمة ، كما تطلق كلمة مصر على العاصمة وعلى القطر ، وكلمة الشام عند السوريين على القطر وعلى دمشق ، ولهذا يتحدث القلقشندى[٤] والمقريزى[٥] عن هذه الكلمة بهذين المعنيين وعبارتهما واحدة تقريباً هى : « ومدينة غانة محل سلطان بلاد غانة . . . . »[٦] . ويقول على بن سعيد عنها : ومدينة غانة على ضفتى النيل (يقصد النيجر) وبها يحل سلطان بلاد غانة[٧] .

وتقع غانة القديمة جنوبى موريتانيا الحالية ، وكانت عاصمتها تسمى (كومبى) وقد عثر الفرنسيون على أطلال مدينة بالقرب من (كومبى صالح) يعتقد أنها هى (كومبى) عاصمة غانة القديمة ، وتقع كومبى صالح

(١) نعيم قداح : إفريقية الغربية فى ظل الإسلام ص ٢٨ .
(٢) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٧٤ .
(٣) معجم البلدان جـ ٣ ص ٧٧٠ .
(٤) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٨٤ .
(٥) الإلمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الإسلام ص ٢٢ .
(٦) انظر كذلك : Basil Davidson: The Lost Cities of Africa pp. 82 f
(٧) بسط الأرض فى الطول والعرض ص ٢٤ .

على بعد حوالى مائتى ميل شمال باماكو[1] ، ويذكر Panikar أنه يوجد يقين معقول قائم على حقيقة أن كومبى هى البلد الوحيد الذى ورد ذكره فى المراجع الوسيطة ، وأن الأساطير المحلية تربط ما بين كومبى صالح وغانة ، والخرائب التى عثر عليها فى كومبى ذات أهمية كبيرة ، وتعبر عن فن معمارى على جانب كبير من الإتقان ، وكل هذا يجعلنا نعتقد أن هذا بالعواصم أشبه[2] .

وقد بدأ ظهور دولة غانة فى القرن الأول الميلادى ، وكان ظهورها على يد جماعة من البيض وفدوا من الشمال ، كانوا أكثر ثقافة من المواطنين الأصليين الذين ينتمون إلى قبائل السوننكى ، ولكن الفقيه محمود كعت لا يقطع فى ذلك برأى ويرجح أنهم من الصباجة[3] . أما السعدى فقد حدد أنهم من البيضان ، ولكنه ذكر أنه لا يستطيع نسبتهم إلى أى طائفة من البيض[4] ، وسار أكثر المؤرخين الغربيين على عد حكام غانة من البيض[5] ، ويرى Wingfield أن أصولهم الأول جاءت من بلاد فارس[6] ، ويتجه بعضهم[7] إلى عدهم من اليهود الذين هاجروا إلى هذه المناطق عقب تدمير الإمبراطور تيطس للمعبد وطرد اليهود من فلسطين سنة ٧٠ م[8] ، ولكن Panikar بعد أن روى هـذا الزعم رد عليه بشدة ، ويقرر أنه لا يوجد شىء فى التاريخ يمكن أن يحمل المرء على الاعتقاد بأن اليهود

---

(١) See : B. Davidson : The Lost Cities of Africa p. 86.

(٢) Serpent and Crescent p. 67.

(٣) تاريخ الفتاش : ص ٤٢ . (٤) تاريخ السودان : ص ٩ .

(٥) Trimingham : The Story of Islam in West Africa p. 48

(٦) The Story of old Ghana p. 9.

(٧) انظر رأى Delafosse فى « إمبراطورية غانة الإسلامية » للدكتور طرخان ص ٢٢ .

(٨) عن تدمير الهيكل انظر كتاب اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ص ٧٣ وما بعدها .

قد تحركوا جنوباً فى الصحراء إلى ما هو أبعد من مصر والمغرب ، لأن الجيوش الرومانية نفسها لم تتجه للتغلغل فى هــذه الجهات ، ثم إن اليهود لو جاءوا إلى هذه المناطق لتركوا بها أى أثر لليهودية ، وهو شىء مقطوع بأنه لم يحصل[١] .

ونميل إلى ما قاله Fage[٢] من أن هذه الدولة قامت امتداداً لقوى مجاورة ، وأن الذين وفدوا لهـــا وأعانوا على قيامها سرعان ما امتزجوا بالسكان الأصليين ، واتضح ظهور هذه الدولة للتاريخ فى القرن الثالث الميلادى ، فقد نشطت التجارة بين شمال الصحراء وبين جنوبها ، أو بعبارة أخرى بين البربر سكان الساحل الجنوبى للبحر الأبيض ، وبين الزنوج الذين يعيشون جنوب الصحراء ، وكانت التجارة تســير عبر ممرات تخترق الصحراء ، وكان التجار يحملون من الشمال الأقمشة والحلى ، ويعودون من الجنوب بالذهب والعبيد والعاج[٣] ، ولكن الذهب كان السلعة التى اشتهرت بها غانة ، حتى ان ملوكها كانوا يسمون « كيمع » أى ملوك الذهب»[٤] .

غانة بين البربر والسوننكى :

وفى القرن الرابع وفد إلى الجنوب جماعات من البربر ، لعلهم كانوا يعرفون ما فى هذه المنطقة من ثراء ، وكان هؤلاء الوافدون أذكى من سكان الجنوب ، كما كانوا يحملون أسلحة لم يعرفها السكان الأصليون ،

---

(١) Serpent and Crescent p. 61—62. من الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ فؤاد بليع ولم تنشر بعد .

(٢) History of Africa pp. 14—15

(٣) W. Ward : History of Africa p. 43 اشتغل مؤلف هذا الكتاب بتدريس التاريخ بكليات غانة بضع سنوات ؛ وقد قام الأستاذ محمود كامل بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ولم تنشر الترجمة بعد .

(٤) الفقية محمود كعت : تاريخ الفتاش ص ٤١ .

وقد استطاع الوافدون بذلك أن يفرضوا أنفسهم حكاماً على الزنوج سكان هذه المناطق الذين ينتمون لقبائل السوننكي ، على أن امتزاجاً تم بطريق المصاهرة بين البربر والزنوج ، فانماعت القلة البربرية فى الأكثرية الزنجية ، ونشأ جيل جديد ينتسب إلى السوننكي وله دربة البربر ومهارتهم ، بل لونهم أو شيء منه فى كثير من الأحايين ، واستطاع هذا الجيل الجديد من السوننكي أن يستولى على زمام الحكم فى غانة سنة ٧٧٠ م[١] .

اتساع ملك غانة فى عهد السوننكي :

وقد اتسع ملك غانة ونفوذها فى عهد السوننكي فأصبحت تشمل المساحات الواقعة إلى الشمال من نهر السنغال ونهر النيجر حتى تخوم الصحراء : وفى سنة ٩٩٠ م استطاعت غانة أن تمد نفوذها إلى أودغست (محلها الآن مدينة تجكلوست فى موريتانيا) . وكانت أودغست عاصمة مملكة إسلامية تحكمها قبيلة لمتونة من البربر وهى وطن ابن يس ، وتقع على بعد حوالى مائتى ميل من كومبى عاصمة غانة ، وقد تحدث عنها أكثر المؤلفين العرب الذين كتبوا عن البلدان ؛ فاليعقوبى[٢] يقول إنها من أهم محطات القوافل فى هذه المنطقة . وياقوت[٣] يقول إن بها أسواقاً جليلة ، وبين مصر من الأمصار جليل ، والسفر إليها متصل من كل بلد ، وأهلها مسلمون ، يقرأون القرآن ويتفقهون ، ولهم مساجد واسعة ، وقد اقتبس أبو الفدا[٤] أكثر عبارات ياقوت . وقد وصلت هذه المملكة إلى درجة عالية من القوة فى القرن التاسع والعاشر ، مما أثار المنافسة بينها وبين غانة ، ولكن انتكاساً أصابها عقب وفاة الملك « آتنيوروتان » سنة ٩٦٠ م ؛ فاستعادت غانة من هذه النكسة ومدت نفوذها إلى هذه المملكة

---

(١) Ward : Ibid p. 48

(٢) صفة المغرب المأخوذة من كتاب البلدان ص ٣٢ .

(٣) معجم البلدان فى هذه المادة .

(٤) تقويم البلدان ص ١٦ .

وامتد نفوذ غانة كذلك فشمل عدة ولايات وإمارات يجملها المسعودى بقوله : وتحت يد ملك غانة عدة ملوك وممالك[1] ، وأصبحت تمتد من وجادو فى الشرق إلى ديارا فى الغرب وكانياجا بلاد الصوصو فى الجنوب

(١) أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان مخطوط) ورقة ٣٩ .

الشرق ، ومن تخوم الصحراء فى الشمال إلى أطراف المنطقة الاستوائية والبلاد المعروفة لدى العرب ببلاد Lem Lem فى الجنوب[١] .

المرابطون فى غانا :

يحكى لنا ابن خلدون[٢] مطلع قصة المرابطين ، فيقول إن يحيى بن إبراهيم زعيم قبائل الملثمين خرج للحج فى رؤساء من قومه سنة ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م فلقوا فى منصرفهم بالقيروان شيخ المذهب المالكى أبا عمران الفاسى ، فطلبوا منه أن يرسل معهم فقيهاً يعلمهم ويرشدهم ، فاختار لهم عبد الله بن يس الجزولى ، فرحل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين ، ثم مات يحيى بن إبراهيم وافترق أمر الملثمين ، واطرحوا عبد الله بن يس ، واستصعبوا عمله ، وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف ، فأعرض عنهم وترهب ، وتنسك معه يحيى بن عمر من رؤساء لمتونة وبعض المريدين وانتبذوا الناس فى ربوة أسموها « رباطاً » ، أى قاعدة يرابطون فيها للجهاد ضد الكفار ، أو يفرغون فيها للعبادة والتأملات الروحية والتعليم ، وكان هذا الرباط فى جزيرة يقع عليها الآن ميناء سان لويس بجمهورية السنغال ، وكانت دروس عبد الله بن يس للمرابطين معه تشمل إصـــلاح أخلاق الفرد ، كما كانت تهاجم نظم الحكم القائمة ، وإرهاق الرعية بالضرائب الفادحة ، وقضى على ذلك عشر سنوات تكاثر فيها مريدوه حتى صاروا ألفاً فهتف فيهم : إنكم لن تُغلبوا عن قلة ، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه ، وتحمّل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا

---

(١) الإدريسى : صفة المغرب وأهل السودان ص ١٤ (قطعة من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ، والدكتور إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ص ٣٠ بتصرف .

وانظر كذلك : Basil Davidson : The Lost Cities of Africa p. 83

(٢) العبر ج ٦ ص ١٨٢–١٨٣ ، وانظر الجزء الرابع من التاريخ الإسلامى للمؤلف .

لذلك ، فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وجدالة ومهموهة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة[١] .

وبواسطة الجيش الكبير الذى كوّنه ابن يس من لمتونة وجدالة تحرك ومعه يحيي بن عمر وكانت له زعامة فى لمتونة تجاه الشمال وسيطر على سجلماسة المركز العظيم لتجارة الصحراء ، ثم اتجه نحو الجنوب فغزا أودغست سنة ١٠٥٤ م لأنها المركز التجارى العظيم فى قلب الصحراء[٢] ، وهكذا كان هؤلاء الزاحفون يدركون أن السيطرة على طرق التجارة والاقتصاد أيسر وسيلة لنجاح محاولاتهم الدينية والسياسية .

ويرى الدكتور إبراهيم طرخان[٣] أن هجوم المرابطين على أودغست كان عقاباً لها على خضوعها لغانة الوثنية ، ومع أنه اقتبس هذا التعليل من المراجع المتعددة فإننا لا نوافق عليه لأن أودغست لم تخضع إلا كارهة ، وأولى بها أن تساعَد لا أن تعاقَب ، ويبدو أن هذا الرأى بُنىَ على موقف أودغست من الدفاع عن نفسها عندما هاجمها المرابطون ، ولكن هذا الموقف ينبغى تفسيره ، بأن أودغست لم تكن ترغب فى الانتقال من تبعية إلى تبعية ، وربما كان الهجوم عليها لأنه ظهر بين بعض سكانها انحراف عن أخلاق الإسلام حتى سماها المؤرخون بابل الصحراء الكبرى[٤] .

وتوفى يحيي بن عمر عقب ذلك (سنة ١٠٥٥) ، وخلفه أخوه أبو بكر وابن عمه يوسف بن تاشفين ، وبدأ بهما ملك المرابطين ، واتجه زحف المرابطين نحو الشمال ، ثم توفى ابن يس سنة ١٠٥٩ ، وبعد وفاة ابن يس قامت

---

(١) انظر كذلك : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى ص ١٦٤ وما بعدها .

(٢) Panikar : Serpent and Crescent p. 71

(٣) إمبراطورية غانة الإسلامية ص ٤٦ .

(٤) Panikar : Ibid.

حركات ثورية بالجنوب ضد المرابطين ، فعاد أبو بكر إلى الصحراء ليقضى على هذه الثورات ، وترك قيادة الشمال لابن عمه يوسف بن تاشفين ، ونجح كل منهما فى المنطقة التى اتجه لها ، فلما انتهى أبو بكر من مهمته بالجنوب عاد إلى الشمال فوجد يوسف قد استبد بالأمر ، وقدّم يوسف لأبى بكر مجموعة من متاع الصحراء وماعونها ، ففطن أبو بكر للأمر وتجافى عن المنازعة ، وسلم له الأمر ، ورجع إلى الجنوب ينشر دين الله بين السودانيين[1] . فاتجه إلى إمبراطورية غانة التى كانت الوثنية لا تزال بارزة فيها ، وأخذ يهاجمها بقوة وثبات .

ويلاحظ أن أبا بكر لم يهاجم غانة بجنود من لمتونة ، لأن أبرز الأبطال من هذه القبيلة كانوا قد ساروا مع يوسف نحو الشمال ، ولهذا اضطر أبو بكر بعد أن سلم الأمر لابن عمه أن يستقدم قبيلة الفولانى من بلاد التكرور ، وساعده على ذلك منافسة تجارية كانت بين الفولانى والسوننكى ، وكان الإسلام قد انتشر بين الفولانى فربطهم بقبيلة لمتونة ، وجمع شملهم ضد السوننكى الوثنيين ، وفى سنة ١٠٧٦ هزم أبو بكر غانة ، ودمّر كومبى عاصمتها ، وأصبحت مملكة غانة جزءاً من إمبراطورية المرابطين[2] ٥

السوننكى يستعيدون نفوذهم :

ولكن أبا بكر مات سنة ١٠٨٧ واختلف أتباعه فى هذه البقاع من بعده ، فأتيحت الفرصة للسوننكى أن يهبُّوا من جديد وأن يطردوا المحتلين وأن يستعيدوا عاصمتهم وحريتهم ، ولكن غانة الجديدة لم تكن كغانة السابقة فى ناحية دينها ولا فى ناحية نفوذها ، فإن الإسلام قد تفشى فيها

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

وانظر كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ٢ ص ١٧٢ - ١٧٣ ، واقرأ الجزء الرابع من هذه الموسوعة ، للمؤلف .

(٢) دكتور محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون ص ٥١ .

وانتشر وأصبح ملوكها مسلمين كما سنرى فيا بعد ، ثم إن الإمارات التى كانت خاضعة لها بدأت تتحرك وتستقل ، بل بدأت تهاجم الدولة التى كانت ذات سلطان عليها مما أدى إلى نهاية غانة ؛

شىء واحد بقى فى سلطة المرابطين ؛ هو القيادة الفكرية والثقافية التى ظلت لمدى طويل فى أيدى علماء المرابطين إلى أن تسلمها منهم علماء من السودان ؛

سقوط إمبراطورية غانة :

إن استيلاء المرابطين على غانة ثم خروجهم منها بسرعة قد سببا انحلالاً فى الدولة لم يلتئم بعودة السوننكى إلى السلطة ، إذ أن كثيراً من القبائل ومن الأجزاء التى كانت تابعة للإمبراطورية لم تعد لهذه التبعية مرة أخرى ، وعلى هذا فقد كان فتح المرابطين لغانة أساساً رئيسياً من أسس تدهور الإمبراطورية .

وكانت مقاطعة كانياچا التى تسكنها قبائل الصوصو وهم فرع من الفولانيين تابعة لإمبراطورية غانة ، وكانت تدفع لها الجزية ، وفى أثناء فتح المرابطين لغانة أعلن هؤلاء استقلالهم ، بل استطاعت هذه المملكة أن تضم لها مقاطعة أخرى من المقاطعات التى كانت تابعة لغانة ، وهى مقاطعة « ديارا » ، ثم راح ملوك الصوصو يحاولون الاستيلاء على عاصمة غانة ، وقد استطاع الملك سومانجورو أن يستولى على كومبى سنة ١٢٠٣[1] .

وغير بعيد من مملكة الصوصو كانت هناك مملكة أخرى آخذة فى النمو اسمها مملكة كانجابا « مالى فيا بعد » ، وكان أهلها جماعة من الماندنجو ، وكان الإسلام قد انتشر بينهم فقووا به وقوى بهم ، وتطلعوا بسبب إسلامهم أن يستعيدوا سلطان المرابطين فى مملكة غانة ، وأن يطردوا منها

---

(١) Roland Oliver and Fage : History of Africa p. 34

ملوك الصوصو الوثنيين ، وكان ملك كانجابا اسمه سنديانا ، ولم يضطرب بسبب السبق الذى أحرزه سومانجورو ، بل راح يصارعه صراعاً عنيفاً استطاع خلاله أن يقضى عليه فى موقعة كيرينا ، وأن يستولى على كومبى ، وأن يتوغل فى بلاد الصوصو[1] .

وهكذا استطاع الماندنجو أن يقضوا قضاء تاماً على إمبراطورية غانة ، وأن يقيموا على أنقاضها دولة جديدة أسموها إمبراطورية مالى وسنتحدث عنها فيما بعد[2] .

انتصارات غانة :

قلنا فيما سبق إن الذهب كان السلعة التى اشتهرت بها إمبراطورية غانة ، حتى أن ملوكها كانوا يسمون ملوك الذهب ، ونضيف هنا أن الذهب لم يكن موجوداً فى أراضيها ، وإنما فى الأراضى الواقعة إلى الجنوب منها ، وهى منطقة ونقارة ، ولكن تجار غانة كانوا يشترون الذهب من مناجمه ، ويبيعونه إلى تجار آخرين من شمالى إفريقية ، وكان ذلك يُدِر عليهم ثراء واسعاً من جانب ، ومن جانب آخر ارتبط الذهب ببلادهم ، كأنه كان مستخرجاً منها فنسب لهم ، يقول الإدريسى : وتتصل مملكة صاحب غانة بأرض ونقارة ، وهى بلاد التبر[3] ، ويقول المسعودى : وتحت يد ملك غانة عـــدة ملوك وممالك فيها الذهب يظهر على وجه الأرض يستخرجه أهله ويعملونه قوالب كاللَّبِن[4] ، ويقول ابن حوقل : وملك غانة أيسر

---

(١) B. Davidson : The Lost Cities of Africa p. 89

(٢) اقرأ قصة انتصارات الصوصو ثم هزيمتهم على يد أهل مالى فى ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٩٠ .

(٣) صفة المغرب وبلاد السودان ص ٦ . (قطعة من نزهة المشتاق) .

(٤) أخبار الزمان : ورقة ٣٩ ا .

حتىّ على وجه الأرض بما لديه من الأموال المدخرة من التبر(١) . ويتحدث اليعقوبي عن مملكة غانة فيقول : وملكها عظيم الشأن ، وفي بلاده معادن الذهب وتحت يده عدة ملوك(٢) ، ويذكر البكري أن الملك كان يستصفي لنفسه أجود الذهب ويدع ما سواه لشعبه حتى لا تهون قيمة ذلك المعدن ، ويقرر البكري أن ما يستصفيه الملك كان مرتبطاً بالحجم ابتداء من الأوقية إلى الرطل ، وأن عند بعض الملوك قطعاً كبيرة من الذهب تصل إلى حجم الحجر الضخم ، ويضيف البكري بيانا بمصادر الثراء الأخرى التي كان ينعم بها ملك غانة ، فقد كانت هناك ضرائب تجبى له ، فعلى حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد ، وديناران في إخراجه ، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل ، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل(٣) .

واحتوت الخزائن الملكية ألواح الذهب رمز العظمة ، وكان حجمها كبيراً إلى حد أن أصبحت شهيرة في جزء كبير من العالم المتمدين ، ووصل وزن الواحدة منها ثلاثين رطلا ، وكان الملك يقيد بها حصانه المفضل ، وقد رفعتها الأساطير الشعبية إلى أحجام خرافية(٤) .

ومن الثراء الذي سببه التبادل التجاري بوجه عام ، وتجارة الذهب بوجه خاص ، ما وصفه الفقيه محمود كعت عن ناحية من نواحي الترف والقوة بهذه الإمبراطورية ، وهو وصفه لخيل أحد الأباطرة ، وكانت الخيل عنوان القوة والعظمة ، يقول : إن له ألفاً من الخيل مربوطة في داره ، إن مات واحد منها وُضِعَ بديل له في نفس اليوم ، ولكل منها مكان خاص ينام به ،

---

(١) صورة الأرض : ص ٩٨ .

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٧ .

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٧٦ – ١٧٧ بتقديم وتأخير .

(٤) دكتور رياض زاهر : الممالك الإسلامية في غربي إفريقية ص ١٠٨ – ١٠٩ .

ولا يُربط إلا بحرير فى عنقه وفى رجله ، ولكل منها آنية من النحاس لبوله وروثه بحيث يظل مكانُه نظيفاً ؛ ويقوم على ذلك خادم خاص ، وهناك خادم آخر لكل حصان ليقـدم له العلف وخادم ثالث ليقدم له الشراب[١] .

ولنعد لتجارة الذهب لنقرر أن إمبراطورية غانة كانت تبيعه إلى أقطار مختلفة أهمها مصر والشمال الإفريقى وأوربا ، ويقال إن أحد التجار المصريين هو الذى اشترى كتلة الذهب الكبرى التى كان ملوك غانة يحتفظون بها فى قصورهم[٢] :

ويقرر Basil Davidson[٣] أنه ليس من المبالغة أن نقول إن غربى السودان كان أهم مكان لتصدير الذهب إلى دول البحر المتوسط خلال العصور الوسطى حتى كشف أمريكا ، وبسبب هذا الذهب ارتفع شأن إمبراطورية غانة وإمبراطورية الماندنجو . ويقرر كذلك أن مصدر الثراء لإمبراطورية غانة كان يتمثل فى التجارة وما يرتبط بها من أرباح وضرائب ، لأن غانة كانت تقع بين مناجم الملح فى الشمال ومناجم الذهب فى الجنوب ، واستفادت استفادة كبيرة من عملية التبادل بين المنتجين هنا وهناك ، إذ كانت حاجة الجنوب للملح شديدة لا تقل عن حاجة الشمال للذهب ، حتى كان الذهب يستبدل بالملح وزنا بوزن[٤] .

وهكذا كانت غانة غنية وكانت الحياة بها حياة رخاء وغنى .

---

(١) تاريخ الفتاش : ص ٤١ .

(٢) دكتور زاهر رياض : الممالك الإسلامية فى غربى إفريقية ص ١٠٩ . وانظر كذلك الأصل الإنجليزى The Golden Trade of the Moors by E.W. Bovill p. 82

(٣) The Lost Cities of Africa p. 82

(٤) Ibid. p. 87

الإسلام في إمبراطورية غانة :

أوردنا الحديث عن إمبراطورية غانة هنا مع أننا نتحدث عن إفريقية قبل الإسلام ، وليس معنى هذا أن الإسلام لم يدخل هذه الإمبراطورية ، وإنما لأن الحقبة الإسلامية بها كانت قصيرة إذا قيست بالقرون التي كانت الوثنية طابع البلاد خلالها ، على أن الإسلام قد وُجِد في هذه الإمبراطورية منذ عهد مبكر ، ولكن المسلمين كانوا أقلية فلم يصبح الإسلام طابع الدولة إلا منذ فتح المرابطين لها ، ومن أجل هذا كان وضع هذه الإمبراطورية هنا أنسب وأدق ، ولكن ينبغي أن نتتبع دخول الإسلام وانتشاره بغانة حتى تتضح لنا الصورة اتضاحا كاملا .

ولعل مطلع الإسلام في غانة يرجع إلى هذه البعثة أو الجيش الذي يذكر البكري[١] أن الأمويين قد أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام ، والبكري يقرر أن أحفاد هؤلاء صاروا على دين أهل غانة ، ولكنهم لا يتزاوجون مع السكان الأصليين ، وهذه الرواية تفيد أن قلة ليست كثيرة بقيت بالبلاد من هذا الجيش ، وأن ذريتها بعد عدة أجيال تأثرت بمعتقدات القوم ، وإن بقيت محافظة على بعض الامتيازات العنصرية ، ويوضح Panikar أمر هذه الحملة فيقول إن بني أمية عندما أحكموا قبضتهم على مراكش الغربية شنوا هجوما على غانة فيما بين عامي ٧٣٤ و ٧٥٠ م (١١٦ — ١٣٣ هـ) لأسباب سياسية ، وكانت هذه هي الحملة المراكشية الأولى ضد دولة من دول غربي إفريقية ، بيد أن الحملة لم تصادف نجاحا ، وكان أحفاد الجنود يعيشون في هذه الأرض ويعرفون بالمُتَنَبِّهين[٢] .

---

(١) المغرب ص ١٧٩ .

(٢) Serpent and Crescent p. 68

وجاء الإسلام بعد ذلك عن طريق التجار وهجرات العرب والبربر إلى هذه المناطق على نحو ما شرحنا من قبل ، حتى أصبح الإسلام موجوداً فى كل قرية وكل مدينة ، وظل يتكاثر من يوم إلى يوم .

وكانت مملكة أودغست التى تحدثنا عنها من قبل مسلمة ، تسكنها قبائل السوننكى وحكامها من البيض من قبيلة لمتونة . وكانت هذه المملكة مجاورة لإمبراطورية غانة ، وكان بين الدولتين صلات تجارية يشير لها ابن حوقل[١] ، وتذكر الباحثة F. Legard[٢] أن ملك أودغست تيبوتان كان شديد الحماس لنشر الإسلام ليس بين أهل أودغست فحسب بل بين الزنوج المجاورين لمملكته من ناحية الجنوب . ويمكننا أن نتصور أن الفترة التى كانت أودغست خاضعة خلالها للملوك غانة كانت فرصة لمزيد من انتشار الإسلام ، على نحو ما تكرر فى التاريخ من أن المغلوب إذا كان أعلى حضارة من الغالب أضفى عليه من حضارته ، فانتصر المغلوب فكرياً وإن كان قد هُزِمَ عسكرياً .

ونتيجة لكل هذه العوامل أصبح الإسلام واسع الانتشار فى إمبراطورية غانة ، وأصبح الإمبراطور يعتمد على المسلمين لأنهم أكثر كفاءة وأعلى مستوى من سواهم ، يقول البكرى : وكان تراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه[٣] . بل كان الملك وهو وثنى يؤثر المسلمين[٤] وكثر المسلمون بإمبراطورية غانة فأصبحت هناك بلاد خاصة بهم مثل مدينة يرسنى التى يتحدث عنها البكرى[٥] كما أصبحت العاصمة شطرين : شطر

---

(١) صورة الأرض ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) An outlines of the Ancient History of the Western Sudan p. 107

(٣) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٧٥ .

(٤) البكرى : المرجع السابق ١٧٤ . (٥) المرجع السابق ص ١٧٧ .

للمسلمين وشطر للملك وقومه من غير المسلمين ، ويرينا وصف المؤرخين حضارة الإسلام متمثلة فى الفرق الكبير بين شطرى المدينة أو بين مدينة المسلمين ومدينة الوثنيين ، يقول البكرى : ومدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التى يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحداها يجمعون فيه ،ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون،وفيها فقهاء وحملة العلم وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات ، ومدينة الملك على ستة أميال من هـــذه وتسمى بالغابة ، والمساكن بين المدينتين متصلة ، ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط ، وللملك قصر وقباب ، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك ، وحول مدينة الملك قباب وغابات يسكن فيها سحرتهم ، وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم ، ولتلك الغابات حرس ، ولا يمكن لأحد دخولها ولا معرفة ما فيها(١) .

وهكذا عاش الإسلام والوثنية جنباً إلى جنب فى غانة خلال ذلك العهد ، بيد أن الإسلام ضمن لأتباعه حياة أفضل ، فلقد كانت أكثر حاشية الملك — كما قلنا — من المسلمين ، وكان أكثر جنوده من المسلمين كذلك ، وهذا جعل القوة الإسلامية تسير قدماً نحو السيطرة على السلطة ، وقد كان من جلال الإسلام أن ترفع بأتباعه عن الركوع أمام الملك ؛ وهو ما كان يفعله غير المسلمين ، ويقول البكرى : إن أهل دين الملك كانوا إذا دنوا منه جثوا على ركبهم ، ونثروا التراب على رءوسهم ، فتلك تحيتهم له ، وأما المسلمون فإنمـــا كان سلامهم عليه تصفيقاً باليدين(٢) ، ولعل ذلك دفع

---

(١) المرجع السابق : ص ١٧٥ وانظر : Basil Davidson : The Lost Cities of Africa p.p. 84—85

(٢) البكرى : المغرب ص ١٧٦

بالكثير من صفوف الوثنيين إلى صفوف المسلمين لينعموا بهذه المكانة فى قصور الملك .

وهكذا كان الإسلام يزحف بخطى سريعة فى إمبراطورية غانة فلما جاء فتح المرابطين إندفعت الجموع نحو الإسلام ، وأصبح الإسلام طابع هذه الإمبراطورية ، ويقول القلقشندى فى ذلك « وكان أهلها أسلموا فى أول الفتح[١] » ، فلما استعاد السوننكى نفوذهم كان الملوك من المسلمين وأصبحت الإمبراطورية إمبراطورية إسلامية خالصة ، ويتحدث بعض المؤرخين عن ٤٤ ملكاً لغانة عاش نصفهم قبل زمن النبى محمد وعاش النصف الآخر بعد ذلك ، وقد بقّى بعض هؤلاء على الوثنية ، حتى اقتحم المرابطون إمبراطورية غانة ، فأصبح الملوك الأخيرون مسلمين[٢] .

ولم يكتف ملوك غانة المسلمون بإسلامهم ، بل راحوا يوثقون صلاتهم بالخلافة العباسية ببغداد ، وراح بعضهم يدعى أنه من نسل الحسن بن على عليه السلام[٣] . ويذكر الإدريسى أن ملك غانة ينتسب إلى صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ، ويُخْطَب له لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسى[٤] .

حضارة غانة :

نعود إلى البكرى أهم مصدر لتاريخ إمبراطورية غانة لنقتبس منه لمحات عن حضارة غانة ، نضيفها إلى ما سبق أن كتبناه عن حضارة هذه الإمبراطورية .

---

(١) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٨٤ .

(٢) عبد الرحمن السعدى : تاريخ السودان ص ٩ . (٣) المقريزى : الإلمام ص ٢٢ .

(٤) الإدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ص ٦ – ٧ . والإلمام للمقريزى

يحدث البكرى عن ملوك غانة فيرى أن ابن الأخت كان هو الذى يلى الملك بعد خاله ، وكان لا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره ، وغير ولى عهده ، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم ، وهم أجمع يحلقون لحاهم ، ونساؤهم يحلقن شعورهن ، وملكهم يتحلى بحلى النساء فى العنق والذراعين ، ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة ، عليها عمائم القطن الرفيعة ، وهو يجلس للناس فى المظالم فى قبة باهرة ، ويكون حول القبة أفراس بثياب مذهبة ، وغلمان يحملون السيوف المذهبة ، وعن يمين الملك أولاد ملوك الأقاليم ، وحوله الوزراء يجلسون على الأرض .

وكان إذا مات ملكهم (أى قبل الإسلام) عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ، ووضعوها فى موضع قبره ، وأدخلوا جثمان الملك فى تلك القبة ، ووضعوا معه حليه وسلاحه ، وآنيته التى كان يستعملها ، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربه ، وأدخلوا معه خدمه ، ثم يغلقون القبة على هذا كله .

ولملك غانه جيش عظيم يذكر البكرى أنه يصل إلى مائتى ألف ، منهم رماة أزيد من أربعين ألفاً(١) .

ويصف الإدريسى ملك غانة المسلم بأن من سيرته قربه من الناس وعدله فيهم ، وكان يفد له من يحس بالظلم ، فلا يعود إلا وقد أنصفه الملك(٢) .

تلك لمحة سريعة عن أولى إمبراطوريات إفريقية فيما يذكره التاريخ ، وقد بدأت وثنية وطال عهدها الوثنى ، ثم انبثق فيها الإسلام فتركت فى التاريخ ذكراً عطراً ومجداً خالداً .

---

(١) المغرب : ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) نزهة المشتاق : ص ٧ .

العلاقة بين غانة القديمة وغانا الحديثة[1] :

هل هناك علاقة بين غانة القديمة وغانا الحديثة التي كانت تسمى ساحل الذهب حتى جاء الاستقلال ؟ وما مدى هذه العلاقة ؟

من ناحية الأرض ليست هناك علاقة على الإطلاق ، فغانا الحديثة لم تكن قط جزءاً من غانة القديمة ، ومن ناحية السكان لا توجد علاقة كذلك لأن سكان غانة القديمة كانوا من السوننكى وهم الفرع الشمالى من الماندنجو ولم يسكن السوننكى ولا الماندنجو غانا الحديثة أبداً .

وإذاً فلماذا كان الاتحاد فى التسمية ؟

الجواب على ذلك أن الأكانيين الذين يسكنون غانا الحديثة قد تلقوا الكثير من حضارة غانة التى كانت قد انتشرت إلى بعيد خارج حدودها ، وقد جاء الأكانيون من منحنى النيجر بهذه الحضارة ، وعاشوا فى الأرض التى تقوم عليها غانا الحديثة ، وهذا هو السبب الذى من أجله غيرت حكومة ساحل الذهب اسمها فجعلته غانا ، وذلك لأنها نظرت إلى الوراء إلى غانة القديمة باعتبارها أصل حضارتهم الإفريقية[2] .

على أنا لا نستبعد أن يكون لهذه التسمية مغزى دينى فإن غانة القديمة لم تكن مسلمة عدة قرون مع انتشار الإسلام حولها ، كما أن الكثيرين من

---

(١) حرص البكرى وهو يتكلم عن إمبراطورية غانة على أن يكتب كلمة « غانة » بتاء مربوطة فى آخرها ، واتجهت غانا الحديثة فى منشوراتها العربية إلى كتابة كلمة غانا بألف لينة بعد النون ، ونسير هنا تابعين لهذا الاتجاه « انظر كتاب غانا الذى أصدرته مصلحة الاستعلامات بجمهورية غانا » .

(٢) W. Ward : History of Africa p.p. 46—47

Reindore : History of the Gold Coast and Asanti p.p. 1, 14

الزعماء الذين اقترحوا التسمية الجديدة لساحل الذهب لم يكونوا مسلمين مع أن الإسلام كان منتشراً حولهم ، فكأنهم أرادوا أن يعودوا بالتاريخ إلى الوراء ، وأن يجعلوا دولتهم امتداداً للدولة التي لم تستجب للإسلام فترة طويلة مع انتشاره حولها ، وانبثاقه فى بعض جوانبها ، وهذا هو التفسير النفسى للتاريخ ، فإن الانفعالات بنفوس هؤلاء الزعماء ترجمت فى هذا التصرف الذى نراه — بحق — التفسير الدقيق لتسمية دولة باسم دولة أخرى لا تربطها بها أرض أو سكان :

صنغي Songhay

من القرون الميلادية الأولى حتى دخول الإسلام بها سنة ١٠٠٩ م

لعل دولة صُنْغَيْ (سنغي = سُغَيْ) من أطول الدول عمرا ، فقد بدأت بذورها في القرون الميلادية الأولى ، وعاصرت امبراطورية غانة وامبراطورية مالي ، وانتهت غانة ومالي وبقيت صنغي حتى سنة ١٥٩٤ م ولكن تاريخها ينقسم قسمين فيما يتعلق بالإسلام فقد عاشت وثنية حتى سنة ١٠٠٩ ، ثم اعتنق ملكها الإسلام في هذا التاريخ ، وأصبحت لها حضارة الإسلام ومبادئه ، ومن أجل هذا ستتكلم عنها هنا قبل الإسلام : أما سنغي الإسلامية فسيأتي الحديث عنها في الباب الرابع .

وقبائل الصنغي كانت تعيش على شاطئ نهر النيجر في الجزء الممتد من الانحناء إلى قرب المصب تقريبا ، في أراضي الدندى شمال غربي بحيرية الحابة وشمالي داهومى ، وقد انقسمت هذه القبائل قسمين ، قسم اشتغل بالزراعة فاستقر بالأرض ، وقسم اشتغل بصيد السمك فراح ينتقل من مكان إلى مكان على طول منحنى النهر ، وكان هؤلاء يسمون (سُرْكو Sorko) ولكن الصيادين دأبوا على العدوان على الفلاحين ، ولعل ذلك كان استنكارا لجنوح إخوانهم للفلاحة ، فقد كانت الفلاحة عندهم عملا فيه استسلام وذلة لا تليق بالمغامرين ، وتعود الصيادون أن يجمعوا قواربهم ، وأن يهجموا على قرى الفلاحين من حين لآخر ويخطفوا من متاعهم ما يستطيعون الحصول عليه ، ويقتلوا من اعترضهم ، ثم يفروا قبل أن يتجمع ضدهم الفلاحون من هنا ومن هناك ، وفي حوالي سنة ٣٠٠ م تجمعت قرى الفلاحين في

لكل واحد واتخذوا لهم ملوكا منهم ، لعلهم يستطيعون التغلب على الصيادين ، ولكن هؤلاء الملوك لم يستطيعوا أن يضمنوا لرعاياهم كل الحماية ، وان أحرزوا بعض الانتصار فى هذا المجال ، وفى هذا العهد أخذت مملكة صنغى تدفع حدودها لتضم بعض المناطق الزنجية المجاورة :

وفى حوالى سنة ٧٠٠ م هاجرت قبائل لمطة(١) من البربر إلى مناطق الفلاحين من قبائل صنغى وكان قائد المهاجرين اسمه زا اليمن ، وقد استطاع هذا أن يهاجم الصيادين فى المكان الذى يختفون به ويطردهم بعيدا إلى الشمال ، وقد فرح فلاحو صنغى بهذا البطل الذى أنقذهم ، وجعلوه قائدا لهم ، وأصبح هذا الرجل أول ملك من أسرة كثر ملوكها(٢) وهكذا أصبح ملوك صنغى من البربر (البيض) وظلوا كذلك فترة طويلة حتى انتقل السلطان إلى السود(٣) .

ويتجه السعدى(٤) إلى اعتبار النظام الملكى فى صنغى ابتدأ من زا اليمن ويسميه زا الأيمن فهو بذلك ينظر إلى الحكومات السابقة لعام ٧٠٠ م على أنها حكومات قبائل وليست نظاما ملكيا ، ويقول السعدى فى ذكر ملوك صنغى : أول من تملك فيها زا الأيمن ثم زا زكى ثم . . . . . هؤلاء أربعة عشر ملكا ماتوا جميعاً فى جاهلية وما آمن أحدمنهم بالله ورسوله ، والذى أسلم هو الملك الخامس عشر واسمه زا كوسوى ويقال له فى لغتهم مسلم دَمْ ومعناه أسلم طوعا بلا إكراه ، رحمه الله تعالى ، وذلك فى سنة أربعمائة من هجرة النبى ﷺ وقد نقل هذا الملك عاصمته من « كوكيا » إلى « جاو »

---

(١) انظر حديثا عنها فى البكرى ص ٤٨ و ١٢٤ .

(٢) R. Wingfield : The Story of Old Ghana and Songhai p.p. 24-25

(٣) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٦ .

(٤) تاريخ السودان ص ٢ — ٣ .

ويعدد السعدى الملوك المسلمين الذين يلقب كل منهم بلقب زا حتى « على كلن Colen » الذى اتخذ لقب سنى بدل زا ، وذلك فى القرن الخامس عشر كما سيأتى فى الباب الرابع .

ويشرح السعدى[١] مطلع هذا النظام الملكى فيذكر أن الملك الأول زا الأيمن جاء من اليمن ، وكان هو وأخوه سائرين فى أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلد « كوكيا » على ساحل البحر فى أرض صنغى ، وقد بلغاه فى حال بائسة ، ولما سئلا من أين جاءا قال الأكبر : جئنا من اليمن ، فأصبح معروفا عندهم بأنه زا الأيمن بتحريف اقتضته اللغة ، وكان أهل صنغى وثنيين ، وتروى الأساطير أن الوافد من اليمن ذكر لهم أنهم على ضلال مبين ودمّر هذا الوثن ، وقتل حوتا كان يظهر الشيطان فى صورته ، فأقبل عليه الناس وبايعوه ملكا عليهم ، وجعل هذا مقره لمدة جوجو (كوكيا)

وتلتقى الروائيتان على كل حال فى أن النظام الملكى ابتداء من سنة ٧٠٠ م كان لبيض ، وافدين من الشمال أو من اليمن .

ويذكر القاضى محمود كعت السبب فى تحوّل مملكة صنغى إلى الإسلام ، فيقرر أن ذلك كان بتأثير تجار « جوا » الذين أتاح لهم وجودهم على طرق التجارة بالشمال مركزا تجاريا ممتازاً ، وقدرة على إجراء هذا التغيير فى عقائد شعوب صنغى[٢] .

ويذكر Basil Davidson[٣] أن الملك الأول الذى اعتنق الإسلام سُمّى ضياء كوسوى . سنة ١٠٠٩ ، وأن ذلك كان قبـــل غزوات

---

(١) تاريخ السودان ص ٤ .
(٢) تاريخ الفتاش : ص ١٧
(٣) Rediscovery of Africa p.p. 68-69

المرابطين ، ويقرر كذلك أنه قد سبق غزوات المرابطين لهذه المناطق فى غربى إفريقية قدوم بعض رجال المرابطين من الطلائع سواء أكانوا من التجار أو من الدعاة ، ويذكر أيضاً أنه قد تمّ العثور سنة ١٩٣٩ فى بلدة « سانى » على بعد حوالى أربعة أميال من مدينة « جوا » الحالية على شواهد لقبور ملكية يعود تاريخها إلى نهاية القرن الحادى عشر ، وقد كُتِب على إحدى هذه الشواهد ما يلى « هنا جثمان الملك الذى دافع عن دين الله ، ويرقد الآن فى رعايته أبو عبد الله محمد سنة ٤٩٤ هـ (سنة ١١٠٠ م) .

ومع أن ملوك صنغى دخلوا الإسلام فى مطلع القرن الحادى عشر ، فإن شعب صنغى لن ينتشر به الإسلام إلاّ إبان الحركة التى قام بها المرابطون فى منتصف هذا القرن وأواخره ، والمرابطون لم يدخلوا صنغى ، ولكن حركتهم دفعت الإسلام للتقدم حتى فى خارج حدودهم .

ومن هذه الأقوال يتضح أن تاريخ الإسلام بامبراطورية صنغى لم يدخل دفعة واحدة فإن هناك جموعا دخلت الإسلام قبل إسلام الملك زاكوسى ، وجموعاً أخرى دخلت الإسلام مع الملك ، ثم جاء انتشار الإسلام بصورته الواسعة إبان حركة المرابطين التى خدمت الإسلام ، فى البلاد التى اقتحمها المرابطون وفى البلاد المجاورة لها ، وهذا يفسر ما يبدو من خلاف بين الروايات التى تتحدث عن إسلام منطقة كوكو ، فياقوت يقول عن كوكو إنها من الإقليم الأول وملكهم يظاهر رعيته بالإسلام ، وأكثرهم يظاهر به ، وله مدينة على النيل (أى النيجر) من شرقيه بها أسواق ومتاجر ، ومدينة أخرى على غربى النيل يسكنها هو ورجاله ، وهناك مسجد للجماعة بين المدينتين[1] ، ويقول ابن سعيد المغربى عن بلاد كوكو أنها بلاد كفار

---

(١) معجم البلدان : جـ ٦ ص ١٠٥ .

السودان ، وجبل كوكو يضرب به المثل ، وهو يقابل مسلمى غانة من الغرب ومسلمى كانم من الشرق(١) ؛

وهكذا نظر ياقوت إلى المسلمين من هذه البلاد فتحدث عنها كأن الإسلام شملها ، ونظر ابن سعيد المغربى إلى الذين لم يدخلوا الإسلام فعدّها من مناطق الوثنيين بالسودان .

وعند ما سقطت غانة وقامت على أنقاضها دولة مالى الإسلامية بدأت حروب بين مالى وصنغى لعدة أسباب كان منها محاولة تكوين وحدة إسلامية ، وهذا يفسر لنا سبب شدة الصراع بين الدول الإسلامية أكثر مما كان بين دولة إسلامية ودولة وثنية .

ونقف الآن لنعود للحديث عن صنغى الإسلامية فى الباب الرابع إن شاء الله .

وبعد هذه الدراسة عن غانة ، وصنغى ، وهما أقدم الدول التى ظهرت قبل الإسلام فى هذا النطاق الذى ندرسه من إفريقية ، نستمر فى التعريف بدول وإمارات أخرى وثنيـة عاش بعضها بالقرب من هاتين الدولتين الكبيرتين ، وعاش بعضها وسط القارة فى المنطقة التى تشغلها الآن نيجيريا وتشاد والنيجر ، كما عاش بعضها فى الشرق ، فيما يسمى الآن بجمهورية السودان وسنسير فى دراستها متجهين من الغرب إلى الشرق .

---

(٢) بسط الأرض : ص ٢٥ – ٢٥ .

إمارة البمبارا (البامبارا البمبارة)

المنطقة التى قامت بها إمارة البمبارا تضمها الآن دولة موريتانيا ، وقد انتشر الإسلام فى موريتانيا فى القرن الحادى عشر بواسطة المرابطين ، ولكن منطقة البمبارا حافظت على وثنيتها حتى مطلع القرن العشرين ويقول سير توماس أرنولد[1] : إن النفوذ الإسلامى لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التى جعلت جماعة البمبارا الوثنية (Bambara) يحتفظون بوثنيتهم مع أنهم كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين ، وقد حاول مرابط يدعى عُمَرُ وكبا (Umaru kaba) أن يحول البمبارا إلى الإسلام فأخفق وكان ذلك فى أوائل القرن العشرين ، وقد أسس هذا الرجل جمعية دينية كانت على صلة بالقادرية ووجه اهتمامه إلى البمبارا الوثنيين محاولا أن يدخلهم الإسلام وأن يضمهم إلى جماعته ، وقد صادف بعض النجاح ، ولكن رئيس الإمارة تصدى له وطرده خارج الإمارة ، وأمر من دخلوا فى الإسلام من البمبارا أن يرجعوا إلى عقائدهم الدينية القديمة .

ولكن القرن العشرين شهد تحول البمبارا إلى الإسلام فى الحركة الوطنية التى جعلت الإسلام شعارها فى موريتانيا كلها ، ولم تدع فرصة لمواطن ليتخلف عن الركب الدينى الوطنى فى هذه البلاد ، وعدد البمبارا حوالى ١٥٠,٠٠٠ أصبحوا جميعا مسلمين .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٨ .

مملكة موشى (موسى – Mossi)

كانت مملكة موسى الوثنية واقعة فى منحنى نهر النيجر ، وكانت مملكة قوية ، مجاورة للممالك الكبرى التى عاشت فى هذه البقاع (غانا ومالى وصنغى) واستطاعت أن تحافظ على استقلالها وعلى وثنيتها فترة طويلة ، وظلت كذلك طيلة عهد مالى مع أن مالى استطاعت بقوتها أن تخضع سنغاى وكثيرا من الأراضى المجاورة ، فلما دار التاريخ واستردت صنغى حريتها كان ذلك إيذانا بحركة توسعية كبيرة تقوم بها سنغى فى مختلف الاتجاهات ، والذى يعنينا هنا من هذه الحركة هو امتدادها إلى مملكة موسى ، وكان ذلك فى عهد أسكيا محمد (مطلع القرن السادس عشر) ويقول السعدى[1] ان الدولة استكملت استعدادها العسكرى ، وقامت بحركة توسعية اتخذت الإسلام مظهرا لها واستطاع الفاتح العظيم السلطان اسكيا محمد أن يسيطر على سلطنة واسعة الطول والعرض ، حتى وصلت حدوده إلى إمارة موسى واتجه لها فى السنة الرابعة من حكمه ، وكان سلطانها اسمه « نعسر » وقد أرسل له أسكيا محمد أحد العلماء ، وهو السيد المبارك صالح يدعوه إلى الإسلام ، والدخول فى دين الله ، فلم يقبل ، فطلب منه أن يدفع الجزية ، ويعيش فى الذمة ، فرفض ، وأعلن الحرب على المسلمين ، وقد قاتله اسكيا محمد قتالاً عنيفاً وسبى من رجاله من سبى ، وكل من أتى فى هذا السبى من رجال ونساء صاروا مسلمين ، أما الكفرة فقد سقطوا فى الميادين أو هربوا من الأرض ، وأصبحت إمارة موسى بعض الأرض الإسلامية .

---

(١) تاريخ السودان ص ٧٤ بتصرف .

إمارات الهوسا (الحوس ـ الحوصة)

تقع بلاد الهوسا « نيجيريا الشمالية حالياً » بين صنغى فى الغرب وبرنو فى الشرق ، وهذه البلاد عبارة عن سهول خصبة كانت مطمع الامبراطوريتين المجاورتين ، ولكنها لم تقع فى قبضة النفوذ السياسى فى أى يوم من الأيام لأية واحدة منهما ، ولكنها تأثرت بالتنظيم المتبع فى الشرق والذى كان النظام الاقطاعى أبرز خصائصه كما سنرى .

وشعب الهوسا ليس قبيلة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، فهو شعب لا ينحدر من دم واحد كالقبيلة ، بل قد جاء هذا الشعب نتيجة امتزاج خلل يحدث خلال عدة قرون بين جماعات قبلية وجنسية كثيرة أخذت تنصهر فى شكل ما أقرب ما يكون إلى شكل دولة ، وذلك بفضل ما كان لهم من لغة مشتركة وبفضل اعتزازهم جميعا بحضارة واحدة مشتركة ، إلا أن هذه الجماعات لم تكن تمثل دولة بالمدلول الدقيق لهذه الكلمة ، فإن إحساسهم بالوحدة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يضع حدا للحروب الصغيرة المتكررة التى كانت تقع بين إماراتهم الصغيرة بعضها وبعض ، أو بحيث يستطيع أن يخلق بينهم وحدة تجعلهم قادرين على الوقوف أمام جيرانهم ممن كانوا أقوى منهم بأسا ونفوذا .

ويرجح أن الحكام الأوائل لهذه الإمارات كانوا من أصل بربرى ، لأن خلافة الحكم عندهم كانت تقوم على أساس الصلة من جانب الأم ، وهو الأسلوب الذى كانت تتبعه قبائل البربر ، ولأن لغــة الهوسا نفسها حين قام الباحثون بتصنيفها ظهر أنها أقرب إلى لغة البربر من أى لغة أخرى(1)

---

(1) D. H. Jones : شعوب ممالك السودان الأوسط من مجموعة فجر التاريخ الإفريقى ص ٤٦ بتقديم وتأخير .

وتروى الأساطير أن شعب الهوسا مزيج من جماعات من البربر أغاروا من الشمال ، واختلطوا بالزنوج على حافة الصحراء عند واحـة تسمى واحة « إير » ولكن عددهم كثر وضاقت بهم الواحة فانسابوا نحو الجنوب حيث احتلوا شمالى نيجيريا ، وتذكر هذه الأساطير أن زعيم البربر الوافدين من الشمال تزوج ملكة الزنوج فى الواحة التى اقتحمها برجاله ، وأنجب منها سبعة أبناء شيدوا إمارات الهوصة السبعة وهى : بيرم ، ودورا ، وجوبر ، وزاريا ، ورانو ، وكانو ، وكاتسينا وتستمر الأسطورة لتحكى أن هذا الزعيم تزوج امرأة أخرى وأنجب منها سبعة أبناء أيضا ، واستطاع هؤلاء الأبناء أن يشيدوا سبعة ولايات أخرى إلى الجنوب هى : كبى ، ونوب ، وجواري ، ويورى ، وكوارافا ، وإيلولين ، وزنفرة .

وقد تكون هذه أسطورة ، ولكن على العموم تكونت ولايات من الهوصة كانت أحيانا يربطها ما يمكن أن نسميه مجموعة واحدة ، وأحيانا تنتسب إلى مجموعتين ، وأصبح للهوصة لغة شائعة لها أصول بربرية ، وكما حمل البربر معهم أصول هذه اللغة ، فإنهم حملوا قسطا كبيراً من المدنية ، فكانوا يعرفون الزراعة ، والآلات الحديدية ، وصنعوا أشياء جميلة من البرونز ، وكانوا يجيدون التجارة ، واحتل الهوصة بذلك مكانا عظيماً فى هذه البقاع (١) .

ويذكر الإمام محمد بلو بن عثمان دان فديو أن الأقاليم الجنوبية اندرجت فى أقاليم الشمال ، وفيما يلى عبارته : وبقرب كاشنه (كاتسينا) وجوبر سبعة أقاليم كلها مندرجة فى الأقاليم السبعة المذكورة آنفا (أقاليم الشمال) التى هى بلاد الهوسا وهى زنفرة وكب (كبى) ويادر (يورى) . . . . .(٢)

---

(١) Ward : History of Africa p. 94

(٢) إنفاق الميسور ص ٤٦ .
(التاريخ الإسلامى ٦ : ٩)

وهناك اتجاه يرى أن غزو البربر لأرض الهوسا جاء فى موجتين كبيرتين ، وفى الموجة الأولى أسست إمارات الشمال ، وفى الموجة الثانية أسست امارات الجنوب ، وكانت الصلة وثيقة بين هذه وتلك(١) .

ويرى بعض الباحثين أن « دورا » هى أقدم إمارات الهوسا ، وأن الدماء الوافدة إليها كانت من مصر العليا ومن الحبشة ومن العرب(٢) أما أقوى هذه الولايات فولاية « جوبر » وكانت الولايات الأخرى تدين لحاكم جوبر بالولاء مع استقلال محدود لكل منها ، بل امتد نفوذ جوبر إلى بلاد يوروبا ، وكان اسم جوبر يطلق على بلاد الهوسا كلها فى كثير من الأحيان(٣) .

وكانت الزراعة هى العمل العادى لمعظم أفراد شعب الهوسا ، حتى أصبحوا يتمتعون بمستوى عال من المهارة فى هذا الميدان ، وكانت مدنهم أيضاً مراكز نشيطة للصناعات ، فبالقرب من أمارتى رانو وكانوكانت تتم صناعة الحديد فى سهولة عجيبة ، بل يقال أن مؤسسى كثير من مدن الهوصا كانوا من الحدادين ، كما أن نسج الأقمشة وصبغها كانت تعتبر من الصناعات الهامة فى هذه المدن ، وأصبحت صناعة الجلد الهوصوى مشهورة فى كل مناطق شمالى وغربى إفريقية .

وكان الهوصويون من أكثر الرحالة والتجار مغامرة ، فقد كانت مدنهم — وهى فى هذا أشبه بمدينة تمبكتو — تحتل موقعاً ممتازاً عند الطرف الجنوبى لواحد من طرق القوافل الصحراوية العظيمة ، وهو الطريق الذى كان يمتد من تونس ماراً بمدينة غات Ghat ، وغدامس وجبال إر Air حتى إذا ما انهارت مملكة صنغى أمام الغزو المراكشى فى نهاية القرن السادس عشر

---

(١) محمد عبد الفتاح ابراهيم : إفريقية من السنغال إلى نهر جوبا ص ١٢٧ .

(٢) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ٧٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٣ .

تحول المجرى الرئيسى للحركة التجارية مع شمالى إفريقية شرقا إلى بلاد الحوصا . وقفزت إمارة كاتسينا بصفة خاصة إلى مكان الصدارة والشهرة باعتبارها مركزاً مهما من مراكز التجارة والحضارة ، وسرعان ما أصبح التجار الحوصويون يسيطرون على النشاط التجارى فى جميع أنحاء السودان الأوسط ، وتضخمت جالياتهم فى كل المراكز التجارية المهمة ، بل وأصبحت لغة الحوسا هى لغة التخاطب العامة فى الأسواق كما ذكرنا من قبل[1] .

وقد جاء القرن الرابع عشر ، وإمارات الهوسا لا يزال أكثرها على الوثنية ، ثم بدأ الإسلام يدب فيها ، وكانت « كانو » وهى من أغنى الإمارات وأوسعها ، من أسبق إمارات الهوسا دخولاً فى الإسلام ، فقد دخلها الإسلام سنة ١٣٠٠ ميلادية على أيدى علماء « وانجارا » وتذكر الروايات أن هؤلاء حضروا إلى « كانو » وبشروا ملكها عثمان زمنقاوى بالإسلام ، فأسلم وأسلم معه كثيرون من قومه . ثم ازداد انتشار الإسلام فى « كانو » فى العهود التى تلت ذلك العهد ، وبخاصة فى عهد الملك عمر الذى أحب الإسلام وأحب العلماء وقربهم إليه ، وتعلم القرآن والحديث ، وعمل على نشر العلم ، وأغدق على أهله الرزق ، وشجعهم على طلبه والإقبال عليه والتبحر فيه[2] .

وبينما كان الإسلام يزدهر هكذا فى كانو كانت إمارات أخرى لا تزال على الوثنية ، وقد زارها ابن بطوطة سنة ١٣٥٣ م وأخذته الدهشة إذ رأى كثيرين من شعب الهوسا لا يزالون على الوثنية[3] .

ولكن سرعان ما أخذ الإسلام ينساب فى هذه الإمارات ، واشترك

---

(١) D. H. Jones : شعوب وممالك السودان الأوسط ص ٤٦ .

(٢) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا : ص ٨٢ – ٨٣ .

(٣) تحفة النظار جـ ٢ ص ٢٣٨ وما بعدها .

الماندنجو والفولانيون وأهل صنغى ، ومصر فى نشر الإسلام بإمارات الهوسا ، وعلى هذا فإن دخول الإسلام لها لم يكن فى وقت واحد ولا من جهة واحدة ، فالولايات الغربية تلقت الإسلام من صنغى ومن الدول الإسلامية بالغرب والولايات الشرقية تلقت الإسلام من مصر ومن السودان العربى ، وقد بدأ ذلك فى القرن الحادى عشر ، أما الولايات الوسطى فقد تأخر دخول الإسلام لها ، فولاية كاتسينا لم يدخلها الإسلام إلا فى أواخر القرن الخامس عشر ، وذلك بفضل بعثة تبشيرية من مصر سنة ١٤٩٣[١] ، وفى القرن السادس عشر استولى أسكيا محمد إمبراطور صنغى على أكثر إمارات الهوسا فساعد ذلك على انتشار الإسلام بها ، وأصبحت كانو وكاتسينا مراكز ثقافية بارزة ، وعندما تعرض علماء تمبكتو وجنى للاضطهاد هاجروا إلى بلاد الحوصا حيث باشروا دعوتهم فى أمن وطمأنينة .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود فقد بقيت الوثنية منتشرة بهذه الولايات ، وكانت مملكة جوبر التى بسطت سلطانها على أقصى الشمال من بلاد الحوصا مملكة ذات طابع وثنى حتى مطلع القرن التاسع عشر . وكانت قبائل الفولانى المسلمة تحاول نشر الإسلام بها . وقد أحس ملكها أن قوة الفولانى تتزايد ببلاده ، وتنشر الإسلام بين رعيته ، فأراد أن يتصدى لهذه القوة ، ويكبح سطوتها ، ولكن ثورة عارمة هبت فى وجهه بقيادة دنفديو الزعيم الدينى الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، وقد استطاع هذا الزعيم أن يسقط هذه الدولة ويضمها إلى الإسلام سنة ١٨٠٢ ، وسار دنفديو خطوة أخرى فهاجم المراكز الوثنية الباقية فى بلاد الحوصا بل تعداها إلى الهجوم على الولايات الإسلامية أيضا ، ليكون منها مملكة واحدة تابعة له وقد نجح فى ذلك سنة ١٨١٦ ، وسنتحدث فيما بعد عن حركة عثمان دان فديو .

وهكذا دخلت إمارات الهوسا دين الإسلام ، وأصبحت قوية الحماس لنشر هذا الدين والعمل تحت رايته .

Ward : History of Africa p. 88 (١)

مملكة يوروبا

مملكة يوروبا مملكة واسعة تمتد من جنوب نهر النيجر ، وتشمل بلاد بنين إلى المحيط الأطلسي ، كما شملت إبان قوتها بلاد الداهومى والأشانتى ، وكانت عاصمتها مدينة « أويولى » ويُلقب ملكها بلقب « صاحب القصر » :

ودولة اليوروبا – كدولة الهوسا – أقامها وافدون من البربر ، استطاعوا أن يتغلبوا على الزنوج السكان الأصليين ، وأن يقيموا لهم بها دولة .

وإذا كان الوافدون من البربر الذين كونوا إمارات الهوسا قد غرسوا فى هذه الإمارات أصول لغتهم البربرية ، فإن البربر الوافدين إلى اليوروبا لم يستطيعوا أن يطبعوا مقرهم الجديد بأصول لغتهم البربرية ، بل ذابت لغتهم فى لغة المغلوبين ، وظلت لغة اليوروبا لغة زنجية ، وسبب ذلك أن الوافدين على أراضى الهوسا كانوا كثرة ، أما الوافدون إلى بلاد اليوروبا فكانوا قلة بالنسبة للسكان الأصليين .

وهناك فرق آخر بين منطقة يوروبا وبين بلاد الهوسا ، فالبربر الذين جاءوا إلى بلاد الهوسا حملوا معهم مع لغتهم مدنيتهم ، إذ كانت مدنية البربر أسمى من مدنية المناطق التى أقيمت بها إمارات الهوسا ، أما البربر الذين جاءوا إلى بلاد يوروبا ، فلم يقيموا بها حضارة ذات بال لأن زنوج اليوروبا كانوا على قسط كبير من المدنية ، كانوا يجيدون الزراعة ، ويستعملون الحديد ويصنعون أشياء جميلة من البرونز ، ويُعتقد أن حضارة اليوروبا وافدة من الجزء الجنوبى من وادى النيل ، وبخاصة بلاد « كوش » التى كانت ذات سلطان من سنة ٨٠٠ إلى ٣٠٠ ق م ، وكان أهل « كوش » قد أخذوا هذه الحضارة بدورهم من مصر القديمة ، فهناك على ضفاف النيل حيث السلام والطعام والذكاء عاشت هذه الحضارات ، ومن مصر انتقلت إلى أوروبا وإلى إفريقية(١) .

---

(١) Ward : History of Africa p.p. 93-96 abridged

أما عن دخول الإسلام بلاد يوروبا فإن هناك أسطورة يرويها سير توماس ارنولد[1] وهي تشرح محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام في هذه البلاد في وقت مبكر يرجع إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي ؛ ولكن هذه المحاولة لم تنجح .

كان هذا الرجل من الهوسا جاء إلى مدينة إيف FE i حاضرة مملكة اليوروبا الوثنية ، وجعل يدعو الناس إلى الإسلام ، ويتلو عليهم آيات من القرآن ، وكان لا يستطيع أن يتكلم لغة اليوروبا بطلاقة ، فلم يكن بد من أن يردد على سامعيه في لهجة أجنبية قوله : « هلمّ نعبد الله الذى خلق الجبال والوهاد ، وخلق كل شيء ، وخلقنا » ، وكان يقوم بذلك من وقت لآخر دون أن ينجح في كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام ، وقد مات هذا الرجل بعد ذلك ببضعة أشهر ؛ وبعد موته وجدوا المصحف معلقاً على مشجب في حائط حجرته ، فصار أهل هذه البلاد يقدسون المصحف على أنه وثن . وحيث أخفق هذا الداعية ، نجد المحدثين من أبناء دينه ينجحون نجاحاً رائعاً ، وينشرون الإسلام بين كثيرين من سكان هذه البلاد .

على أن الدفعة الإسلامية القوية التي جاءت لهذه البلاد ترتبط بالغزو الذي قام به الفولانيون في القرن التاسع عشر ، ولم يستطع أهل يوروبا أن يقفوا في وجه الفولانيين ، فأصبحت هذه المنطقة جزءاً من الامبراطورية الفولانية[2] .

ولنعد إلى الوراء بضعة قرون لنقرر أن مملكة يوروبا تأثرت تأثراً كبيراً

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٢ .

(٢) آدم عبد الله الألوري : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٩ - ١٦٠ .

بهزيمة صنغى على يد مراكش وبتغلب الأتراك على شمالى إفريقية ، فإن ذلك قطع الصلة التجارية بين يوروبا وبلاد الشمال ، ولكن فى الوقت نفسه بدأت صلة جديدة ببلاد يوروبا ، وكانت هذه المرة بأوربا فإن البرتغال وصلت مدينة بنين وجنوبى يوروبا فى القرن الخامس عشر ، وبعد فترة مريرة كانت تجارة الرقيق فيها طابع الزحف الأوربى ، بدأ الاستعمار ، وآل أمر هذه البلاد إلى بريطانيا فى مطلع القرن العشرين ، وزحفت المسيحية مع الاستعمار إلى بلاد يوروبا لتقتسم الانتشار مع الإسلام بهذه البلاد :

إمبراطورية برنو

تقع برنو إلى الشرق من إمارات الهوسا ، وتتصل ببحيرة تشاد ، ويقول الإمام محمد بلو : وأرض برنو ذات أشجار وأنهار ، كثيرة الخصب ، عامرة بالسكان ، وليس فى المنطقة بلد أوسع منها وأكثر عمارة[1] وتصب أنهار برنو فى بحيرة تشاد ، وأكثر أرض برنو تقع الآن فى اتحاد نيجيريا وتشغل الشمال الشرقى لهذه البلاد .

وبحيرة تشاد كانت ملتقى خطوط تجارية تصل هـذه المنطقة بالشمال الشرقى والشمال ، وبالشمال الغربى والغرب ، وعلى هذا تلقت هذه المنطقة أفواجا من الوافدين من مصر ومن العرب ومن البربر ومن السودانيين :

وعن نشأة برنو وامتدادها يقول المؤرخ النيجيرى آدم عبد الله الألورى : إن هذه الدولة قامت حول بحيرة تشاد ، وقد أسسها سنة ٨٠٠ قوم من البرابرة ، ثم انتزعها منهم قوم من العرب الكانميين سنة ١٠٠٠ م ولم تلبث أن صارت إمبراطورية عظيمة امتدت إلى ضفاف نهر النيجر وإلى قلب الصحراء ، وقد قامت بهجمات على مالى أيام ضعفها[2] .

وسنتحدث — بعد برنو — عن إمبراطورية كانم المجاورة لبرنو من جهة الشرق ، وقد تعاصرت الدولتان وامتزج تاريخهما فى كثير من فترات التاريخ القديم والحديث ، فحكام كانم يهربون إلى برنو ويحتلون مكان الصدارة والحكم بها ، ثم يزحفون إلى كانم ليستردوا سلطانهم ، وإمبراطورية

---

(١) انظر إنفاق الميسور للإمام محمد بلو ص ٣٣ .

(٢) موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٨ .

الفولانى تزحف على برنو ولا ينجيها من الدمار إلا قوة من كانم تزحف لمساعدتها وترد عنها المغيرين ويذكر Basil Davidson[1] أن إمبراطورية كانم قامت فى القرن الثامن الميلادى واستمرت إلى القرن الثالث عشر ، وكانت تتبعها حكومات مركزية من أهمها برنو التى ازدهرت بعد أن هرب لها ملوك كانم ، واتخذوها قاعدة لهم ، ومدُّوا منها سلطانهم إلى كانم مرة أخرى ، وظلت إمبراطورية برنو حتى القرن السابع عشر .

ويورد D.H.Jones حديثا عن النظام السياسى والاقتصادى فى برنو فيذكر أن الملك كان يتمتع بألوان من التكريم تقرب من التقديس ، فقد كان يعيش فى عزلة تامة وسط جو من الرسميات الدقيقة ، وقلما يظهر بين أفراد شعبه ، ومع هذا فلم يكن ظالما ولا مستبدا لأنه كان خاضعا فى أمور الحكم لنصائح اثنى عشر رجلا هم كبار الموظفين ، وكانت كلمتهم مسموعة وبخاصة لأن الجهاز الفعال فى الجيش كان مكونا من أتباع هؤلاء . أما النظام الاقتصادى فكان إقطاعيا لأن الملك يوزع الإقطاعيات الكبيرة ويقسم أقاليم البلاد على وزرائه وقواد جيشه مكافأة لهم على ما يقومون به من خدمات للدولة[2] .

وقد عرف الإسلام طريقه إلى برنو منذ عهد مبكر لشدة اتصالها بكانم ومصر ، وعندما أعلن ملوك كانم دخولهم الإسلام فى القرن الحادى عشر — كما سنرى فيما بعد — اعتبر ذلك تاريخا لانتشار الإسلام فى برنو ، إذ كانت برنو آنذاك خاضعة لكانم ، وسنتحدث فى الباب الرابع عن برنو الإسلامية .

---

(١) Rediscovery of Africa p.p. 50-51

(٢) فجر التاريخ الإفريقى ص ٤٥ .

إمبراطورية كانم

إلى الشرق من برنو تقع الأرض التي قامت عليها إمبراطورية كانم ، وهي أكبر دولة نشأت في منطقة المراعي بين النيجر والنيل ، وتتصل حدودها الغربية ببحيرة تشاد ، وموقعها هذا ضمن لها مصدرا مهما من مصادر الثراء ، ويقول Basil Davidson إن أباطرة هـذه المنطقة لم يكونوا يملكون مناجم الذهب مثل غانة ومالى ، ولكنهم كانوا يسيطرون على طرق القوافل المتجهة شمالا إلى فزان والبحر المتوسط ، وشرقا إلى حوض النيل(١)، وهي الآن ضمن جمهورية تشاد .

وكان اتجاه كانم إلى الشرق وللشمال الشرقي ، فأكثر شعبها مهاجرون من الشرق في أعقاب الحروب التي هبت في وادي النيل من عهد الهكسوس إلى عهد الفتوحات العربية ، وقد عُرِف هذا الشعب بشعب « ساو » ومما يدل على ارتباط عنصره وحضارته بعنصر المصريين وحضارتهم ، إجادة هذا الشعب لصناعة الفخار والتماثيل البرنزية ذات الصلة الوثيقة بالحضارة المصرية .

وحتى عام ٨٠٠ ميلادية لم تكن مملكة كانم قد ظهرت للوجود ، وإنما كان ذلك الشعب المهاجر « سلو » يعيش في هذه المنطقة في حياة شبه قبلية ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت هجرات جديدة تنهال على هذه المنطقة ، ولعل أول هذه الهجرات هو هجرة « الزغاوة » وهو شعب جمع الخصائص الزنجية والخصائص الحامية ، وقد جاء هؤلاء من هضبة دار فور ، كما جاء لهذه البلاد مهاجرون ينتمون إلى الأسرة الأموية ، وقد وصلوا لها ليكونوا بمنأى عن سلطان العباسيين الذى كان يلاحقهم باضطهاده(٢) .

---

(١) Rediscovery of Africa p. 51

(٢) البكرى : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١١ .

وقيام دولة كانم إلى الشرق من بحيرة تشاد حوالى سنة ٨٠٠ م على أيدى أسرة حاكمة من أصل إفريقى أبيض ، كان يعنى ظهور نتيجة من النتائج غير المباشرة للفتح الإسلامى لشمالى إفريقية ، فلما تحولت الأسرة الحاكمة إلى الإسلام سنة ١٠٩٠ أصبحت نتائج الفتح الإسلامى مباشرة وباهرة سنتحدث عنها عن الكلام عن هذه المنطقة فى ظل الإسلام بالباب الرابع ، وأول ملك دخل الإسلام بعد الوثنية هو محمد بن جبل بن عبد الله ، وكان فى وثنيته يعرف باسم « حُمِى »(١) أو « هومبه جيلمة » وكان ملك كانم يتخذ لقب « ماو » وقد ظل اللقب مستعملا مع الملوك بعد إسلامهم ، وهذا التاريخ الذى ذكرناه عن دخول الإسلام دولة كانم يتفق مع ما أورده البكرى من أن سكان كانم كانوا إلى عهده مشركين(٢) . وقد اتخذت الأسرة المالكة لنفسها لقب « السيفية » نسبة إلى سيف بن ذى يزن ، مما يدل على ارتباطهم بالعرب القحطانيين .

()

(١) انظر مجلة التاريخ الإفريقى مقال H. R. Jones ص ٤٤ .

(٢) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١١ .

السودان

كلمة السودان أطلقها العرب – كما قلنا من قبل – على كل البلاد الواقعة جنوب مصر وجنوب الصحراء الكبرى بإفريقية والتي يسكنها السود ، فالسودان بهذا التقدير يضم كل البلاد التي ندرسها في هذا الكتاب ابتداء من مالي والسنغال غربا إلى اثيوبيا والسودان العربي شرقا[1] .

أما المصريون فقد أطلقوا كلمة السودان على جزء محدود من هذا الشريط وهو السودان العربي أو سودان وادي النيل الذي يقع جنوب مصر ، وكان هذا الجزء يسمى عند المصريين القدماء « نوبيا » أي بلاد الذهب ، ويميز المصريون بين أجزاء السودان ، فالجزء الشمالي يسمى النوبة وهو ما جاور حدود مصر وينقسم النوبيون إلى خمس مجموعات رئيسية هي الدناقلة في الجنوب ، والمحس والسكوت في إقليم الجنادل ؛ والفديجة بين وادي حلفا وكرسكو ، والكنوز في الجزء الشمالي من كرسكو إلى أسوان[2] ؛ وجنوب النوبة يقع إقليم سنار والجزيرة ، وما يقع غرب النيل الأبيض من تلال يسمى كردفان وإلى الغرب من كردفان تقع مملكة دارفور[3] ، أما شرق النيل الأزرق إلى البحر الأحمر فيسمى بلاد البجة أو البلميين[4] .

وهكذا يضم السودان العربي الحالي ممالك تاريخية هي من الغرب إلى الشرق : مملكة دارفور ، فكردفان ، فالممالك التي قامت في حوض النيل ، فالقبائل الزنجية إلى الجنوب منها ، فإقليم البجة ، وسنتناول كلا منها بكلمة

---

(١) انظر كتاب « الإسلام في السودان » للأستاذ محجوب زيادة ص ١٢ – ١٣ .

(٢) دكتور محمد عوض محمد : السودان الشمالي ص ٢٨٤ .

(٣) دكتور مكي شبيكة : الإسلام في قرن ص ١ .

(٤) Poul, A. : A History of the Beja Tribes p.p. 90 ff

حتى تلتقى كلها فى السودان العربى ، وسنأخذ طريقنا كعادتنا متجهين من الغرب إلى الشرق :

دارفور :

اشتق اسم هذه المملكة من اسم قبائل الفور التى سكنتها منذ أمد بعيد ، ومن سكانها أيضا قبائل عربية ونوبية وزنجية امتزجت سلالاتها وتأثرت باللغة العربية والفكر الإسلامى فيما بعد ، ومن أهم هذه القبائل بالإضافة إلى قبائل الفور الرزيقات والتعايشة والزغاوة والمساليت والكواهلة والمناصير . . .

وإقليم دارفور هضبة تتوسطها مرتفعات تسمى جبال مرة ، وتشترك دارفور فى حدودها مع جمهورية ليبيا شمالا وجمهورية تشاد غربا .

وكان زنوج الداجو يحكمون هذه المنطقة منذ أقدم العصور حتى القرن الرابع عشر ، حيث قدمت قبائل التنجور العرب مهاجرين من تونس ومخترقين برنو ووادى ، وقد لقىَ واحد من هذه القبائل واسمه أحمد حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثنى الذى تعلق به فجعله مشرفاً على شئون قصره واستشاره فى كل الأمور ، ولما كانت خبرته بأساليب الحكم أكثر رقياً من تلك التى كانت معروفة فى دارفور ، فإنه تمكّن من أن يُدْخِل عدة إصلاحات على شئون قصر الملك وحكومة الدولة . ويقال إنه أخضع لسياسته الحكيمة الزعماء المتمردين ، وقسم الأراضى بين فقراء السكان ليضع حداً للإغارات الداخلية . وبذلك أدخل على المملكة شعوراً بالطمأنينة والرضا لم يعرفه الناس من قبل . ولما لم يكن للملك وريث من الذكور زوّج ابنته من أحمد[١] ، فولدت له ولدا أسماه سليمان ، فشب كأبيه ثاقب الفكر سديد

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٥٩ .

للرأى حسن السياسة فلما توفى أبوه ثم توفى جده نادى به أهل الحل والعقد سلطانا عليهم ، وكان ذلك سنة ١٤٤٥ م فكان أول سلالة السلاطين العرب الذين تولوا الحكم بدارفور ، وبدأت به الدولة الإسلامية هناك ، وأهم سلاطين دافور السلاطين الآتية أسماؤهم .

السلطان أحمد بكر (بكور)	١٦٨٢ — ١٧٢٢
» عبد الرحمن	١٧٥١ — ١٧٨٩
» محمد الفضل	١٧٩٨ — ١٨٣٥
» محمد الحسن بن محمد الفضل	١٨٣٩ — ١٨٧٥
» على بن دينار	١٨٩٩ — ١٩١٦

ولنعد إلى ما قبل السلطان الأخير (على بن دينار) لنذكر أن الزبير باشا(١) استولى على دارفور باسم مصر سنة ١٨٧٥ ، ثم أخذها الدراويش سنة ١٨٨٣ وأسروا حاكمها ، وبعد الفتح الثانى للسودان (١٨٩٩) اعترفت حكومة السودان بعلى بن دينار حفيد سلاطين دافور سلطانا لهذه المنطقة امتدادا لأسرته ، ثم عادت فحاربته واستولت على دارفور بعد قتله سنة ١٩١٦ .

وكانت عاصمة سلطنة دارفور تسمى طره وتقع فى شمال جبال مرة ، وفى عهد السلطان عبد الرحمن انتقلت العاصمة إلى الفاشر ، ولا تزال الفاشر عاصمة الإقليم حتى العهد الحاضر .

وقد امتدت حدود دولة سلاطين دارفور إلى كردفان شرقاً ، وإلى بحر الغزال جنوباً ووصلت إلى عطبرة وكان ذلك فى أوائل القرن الثامن عشر .

---

(١) تاجر رفعه ذكاؤه إلى الزعامة والقيادة فاستكثر الثراء والجاه وصار يحالف بعض الملوك ليقاتل بهم آخرين ، استعملته الحكومة المصرية سفيراً لها وحاكماً باسمها فى هذه المناطق وسنتحدث عنه بشىء من التفصيل عند حديثنا عن السودان فى الباب الرابع .

ولكن هذا الاتساع أدخلها فى حروب طاحنة ضد الفونج ووادای ، فأدى ذلك إلى اضمحلالها ، وهيأ لسقوطها أو لتبعيتها للسودان أو لمصر سنة ١٨٧٤ على يد الزبير باشا كما ذكرنا آنفاً .

كردفان :

تُنسب هذه المنطقة إلى جبال كردفان التى تقع غرب النيل، ولكنها تشمل سهولا واسعة إلى الغرب من هذه الجبال ، وهى تتوسط جمهورية السودان الآن ، وكانت المنطقة تحكم من جبال كردفان التى كانت تمثل العاصمة ، أما الآن فعاصمتها الأبيّض .

والمنطقة عبارة عن سهول رملية فى الشمال ، ولهذا فراعيها فقيرة ، أما فى الوسط فهناك تربة حمراء تغطى السهول الرملية ، وهى لهذا أكثر خصوبة وتقوم بها أنواع من الزراعات كالذرة والسمسم والفول السودانى ، ومن أشهر حاصلات هذه المنطقة الصمغ العربى ، أما فى الجنوب فتقع جبال النوبا .

وسكان كردفان بدو وحضر ، ومن البدو قبيلة الكبابيش فى الشمال والبقارة فى الجنوب ، ومن الحضر الجوامعة ويعيشون بالقرب من الأبيض والمسلمية على ضفة النيل .

ويقرر توماس ارنولد[1] أن تجار كردفان ينحدرون من العرب الذين شقوا طريقهم إليها عقب سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر سنة ١١٧١ ، ويرى أنه من المحتمل أن النفوذ الإسلامى امتد إلى هذه البلاد من المناطق المجاورة أى من مصر وكانم فى فترات متعددة ، ومع أن الإسلام دبّ فى هذه المناطق فإن تاريخها لم يتضح إلا فى القرن التاسع عشر بظهور الحكم

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٥٧ .

المصرى بابتداء من سنة ١٨٢١ ، وكان الحكم المصرى يحمل الإسلام معه أنى سار بإفريقية ، ويعمل على نشره بين الإفريقيين لينقلهم من ظلام الوثنية إلى ضوء الوحدانية ؛ وقبيل منتصف القرن التاسع عشر وفد إلى كردفان أحد الدعاة المشهورين وهو محمد عثمان الميرغنى ، وقد نجح فى دعوته نجاحا كبيرا وتحول على يده عدد كبير من الوثنية إلى الإسلام ، ويقول توماس ارنولد(١) . إن الأبهة والمظاهر الخلابة التى كانت تحيط بهذا الداعية كان لها تأثير فعال وجذبت له عددا كبيراً من الأتباع ؛

وفى سنة ١٨٨١ ظهرت دعوة المهدى بهذه المنطقة وسرعان ما استولت على الأبيض (١٨٨٣) ولم يستطع السلطان الإنجليزى أن يقهره ، ثم تقدم المهدى إلى الخرطوم واستولى عليها (١٨٨٥) وبقى سلطان المهدى بهذه البقاع حتى سنة ١٨٩٩ حيث حل محله الحكم الثانى (المصرى الانجليزى) .

مقرة وعلوة :

ذكرنا فى الجزء الخامس من هذا الكتاب(٢) أن المسيحية انسابت من مصر فى العهد المسيحى إلى السودان ، وسرعان ما انتشرت هذه الديانة فى بلاد النوبة وسارت جنوبا حتى قبل التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، وتكونت فى هذه البقاع حوالى القرن السادس الميلادى ، دولتان مسيحيتان هما دولة مقرة فى الشمال فيما كان يعرف بالنوبة السفلى والوسطى وعاصمتها دنقلة ، ودولة علوة فى الجنوب فى النوبة العليا وعاصمتها سوبا على الضفة الشرقية للنيل الأزرق جنوب الخرطوم ، وقد قامت دولة علوة فى المكان الذى

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٤ .

(٢) ص ٢٠٢ وما بعدها .

قامت به دولة كوش فى القرن الثامن ق . م . وكانت عاصمتها نباتا أو نبتا ، ثم تحولت إلى مروى ، ولعل هذا التحول سببه موقع مروى الذى جعلها مركزاً مهماً للتجارة بين الجنوب والشمال بواسطة النيل ، وبين سهول كردفان غربا وموانى البحر الأحمر شرقاً[1] ، وقد أنشأ هـذه الدولة سلالة كهنة آمون ، وكان هؤلاء قد هجروا طيبة حوالى القرن العاشر ق . م على أثر توليه الملك شاشانق الليبى حكم مصر ، واتخذوا من مقرهم الجديد بالجنوب مركزاً لتخليص مصر من حكم الأجانب[2] ، وكانت دولة علوة أوسع وأخصب من دولة مقرة[3] .

وعند ما دخل الإسلام مصر بدأ ينساب نحو الجنوب ، ثم جاء دور الحملات العسكرية التى أسفرت عن صلح ومعاهدة تسمى معاهدة « البقط » ، وتعتبر معاهدة تبادل اقتصادى بين الشمال والجنوب ، وقد ظلت هذه المعاهدة أساس التعامل بين شمالى الوادى وجنوبيه حتى عهد المماليك ، وفى هذا الوقت بدأ ملوك مقرة يتمردون على هذه المعاهدة ، كما ساعدوا الصليبين أبناء دينهم فى حروبهم ضد مصر ، ولهـذا اقتحم الظاهر بيبرس مملكة مقرة وانتصر على ملوكها ، وأصبح له حق تعيين من يراه من الملوك[4] ، ونما سلطان المماليك فى عهد السلاطين بعد بيبرس .

وفى هذه الأثناء كانت موجات العرب قد تدفقت على هذه المنطقة كالسيل دون انقطاع وأخذ نفوذ العرب يقوى وعددهم يتكاثر وسقطت قلاع

---

(١) Trimingham : Islam in the Sudan p.p. 42-43

(٢) Arkill : A History of the Sudan to A.D. 1821 p. 112

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٩٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٢ وما بعدها وابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٤٠٠ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث .

الصليبيين فى الشرق ، وكل هذا مهد لتغيير كبير فى جنوبى الوادى ، فقد أصبح الدم العربى غالباً ، وانتشرت اللغة العربية ، وضاع الحليف المسيحى ، ومرت البلاد بفترة اضطراب وقلق من الناحية السياسية ، فإن أكثر الوافدين العرب كانوا من القبائل البدوية المتجولة التى يعمل أهلها فى الرعى ، وقد وجد هؤلاء فى سهول السودان الفسيحة ووديانه الخصبة حياة قريبة الشبه بحياتهم فى الجزيرة العربية ، كما وجدوا — بعد اضمحلال الحكم المسيحى — حريتهم مطلقة ، فأقاموا سلطان القبائل على نحو ما عرفوه فى الجزيرة العربية ، وانهارت بذلك دولة مقرة وحلّ محلها نظام قبلى يدين بالإسلام ، أما علوة فكان صدامها مع مصر قليلاً ، لأن مقرة تقف بين الدولتين ، وكذلك لم تكن الهجرات إليها بنفس الكثرة التى اتجهت إلى دولة الشمال ، وهذا هيأ لدولة علوة أن تعيش أطول ، وأن تحافظ على وحدتها على الرغم من كثرة العرب والمسلمين بها ، وأخيراً زحف الفونج والعبدلات فخربوا سوبا واستولوا على المملكة ومدوا سلطانهم إلى الشمال فأخضعوا القبائل التى كانت قد حلت محل دولة مقرة ، وأقاموا مكان الدولتين مملكة إسلامية سنة ١٥٠٥ ، وابتنوا مدينة سنار لتكون عاصمة لهذه الدولة ، وكانت الدولة تسمى دولة الفونج أو دولة سنار ، وسنتحدث عنها ضمن الدول الإسلامية بإفريقية فى الباب الرابع إن شاء الله .

البجة :

بلاد البجة تقع شرقى السودان ، وقد عاش سكانها زمنا طويلا قبل ظهور الإسلام على شاطىء البحر الأحمر ولا يزالون حتى اليوم ، ويرجع نسبهم إلى الشعوب السامية التى هاجرت من جزيرة العرب ، ولم يتأثر البجة كثيرا بالتعاليم المسيحية التى كانت سائدة فى الممالك المجاورة لهم : فى مصر ودنقلة وسوبا والحبشة ،وظلوا وثنيين يعبدون الظواهر الطبيعية والكواكب ،

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٩٩

ويتخذون الأصنام إلى أن جاء الإسلام[1] ، ويبدو أن قلة منهم اعتنقت المسيحية ، واتبع هؤلاء المذهب اليعقوبى ، ولذلك سموا « الخوارج »[2] .

وكان وادى العلاقى على بعد ١٠٩ كيلو مترات جنوب مدينة أسوان يجذب دائماً أنظار حكام مصر فى مختلف العهود ، كما جذب أنظار العرب والمسلمين فقد هاجروا فى جماعات كبيرة وسكنوا فى وادى العلاقى حول مناجم الذهب وكان من أشهر مهاجريهم عرب هوازن وجهينة .

وبدأ العرب يختلطون بالسكان كعادتهم ويتزاوجون منهم ، فنشأت علاقة متينة بين ربيعة وقبيلة الحدارب[3] الذين كانوا يسكنون قريباً من المناجم ، وعلا شأن ربيعة ، حتى إن أحد أمرائها كان إذا خرج فى موكبه يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة ومضر واليمن ، وثلاثين ألفاً من الحدارب .

ولما اقتحم عبد الله بن أبى السرح دنقلة فى إحدى حملاته العسكرية بالجنوب حاول أن يجهز جيشاً لفتح البجة ، ولكنه عدل عن ذلك لوعورة الطريق وقلة الماء ، ولأن البجة أبدوا استعدادهم لدفع الجزية للمسلمين ، فاستقر الرأى على ذلك ولم يتعرض لهم أحد من المسلمين ، ولكن البجة قطعوا الجزية بعد حين ، وكثر اعتداؤهم على المسلمين وغاراتهم عليهم فى أسوان ، وكان ذلك فى خلافة المأمون بن هارون الرشيد ؛ فأرسل إليهم أمير مصر آنذاك عبد الله بن الجهم عام ٨٣١ م . ودارت بين الفريقين وقائع طاحنة لعب فيها الخيالة دورا مهما ، وقد كثرت الضحايا من الجانبين

---

(١) انظر : اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣٦ .

(٢) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٢٧ وانظر كتاب المسيحية من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

(٣) يروى الدكتور مصطفى سعد فى كتابه « الإسلام والنوبة » أن الحدارب تحريف لكلمة حضارمة وذلك يشير لهجرة حضرمية قديمة .

وانجلت المعركة عن هزيمة البجة ، وكان ذلك فى عهد الملك كنون ملك البجة ، وكانت عاصمته آنذاك مدينة هجر ، ووضعت شروط للصلح هى :

١ — يتعهد المسلمون بإعطاء الأمان لكل سكان إقليم البجة على شرط أن يعلنوا أنهم تابعون لخليفة المسلمين .

٢ — يبقى ملك البجة حاكما على إقليمه .

٣ — يدفع أهل البجة الخراج كالمعتاد ، كما كان يفعل أسلافهم .

٤ — يقدم البجة كل التسهيلات اللازمة للمسلمين المقيمين أو المارين بأرض البجة ، ويظهرون الاحترام التام للعقيدة الجديدة وألا يسمحوا لأحد بالطعن فيها(١) .

وقد أقام البجة خمسة وعشرين عاماً على العهد الذى قطعوه على أنفسهم لعبد الله ، ثم نقضوه وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين فى وادى العلاقى حول المناجم وفى أسوان بصعيد مصر ، فأرسل الخليفة المتوكل بن المعتصم ابن هارون الرشيد قائده محمد بن عبد الله القمى والبه على الجنوب وأمره بحرب البجة ، وأمر عامله على شمالى مصر فى أن يمد له يد العون ، وقد تكوّن جيشه من ٢٠ ألف فارس وسبعة مراكب أرسلت بالبحر محملة بالمؤن لحرب البجة الخارجين عن الطاعة ، ودارت المعارك ، فانتصرت مصر ، وعاد أهل البجة لاحترام المعاهدة السابقة .

ورغم هذا فإن البجة لم تقم طويلا على العهد ، وبالرغم من كثرة هجرة العرب من ربيعة وجهينة ، فقد امتنعوا عن الجزية وأغاروا على صعيد مصر مرات ، وكان المسلمون يردونهم ويرغمونهم على دفع الجزية .

هذا ولم يكن إسلام البجة إثر فتح معلوم أو تاريخ معين كما كان الحال فى إسلام دنقلة أو سوبا بل كان نتيجة للهجرات العربية ، ثم الاختلاط

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص .

الطويل بين البجة والعرب المسلمين[1] . وأول قبيلة اعتنقت الإسلام هي قبيلة الحدارب التي اندمجت في البشارين ، وكان اختلاطها بعرب هوازن كما رأينا ، ومن الخليط البجاوي العربي ظهرت قبائل ضخمة دخلت كلها في دين الإسلام وهي :

العابدة — البشارين — الأمرار — الحلانقة — الحباب — بنو عامر . هذا وبقي البجة من غير أن تضمهم حكومة إسلامية موحدة إلى أن جاء الفتح المصري .

ومن أقدم مدنهم سواكن المعروفة ، وعيذاب وهي في المكان المعروف الآن برأس راوية ، وكانت عيذاب هذه ملتقى الحجاج من مصر والمغرب ، وكان بينها وبين قوص في مصر طريق بري تسلكه قوافل الحجاج في سبعة عشر يوماً . كما كانت ملتقى التجار من الحبشة والهند .

تلك هي الدول التي تكوَّن منها السودان فيما بعد ، وقد استطاعت دولة الفونج أن تمد نفوذها إلى البجة ، وإلى كردفان أحيانا ، ولكن تكوين دولة السودان من هذه الممالك كلها ظهر مع النفوذ المصري الذي أخذ طريقه للسودان سنة ١٨٢١ كما سيتضح فيما بعد .

تلك جولة سريعة عن الدول والإمارات التي قامت جنوب الصحراء قبل الإسلام إلى أن انبثق فيها هذا الدين ، وسنعود لهذه المنطقة في الباب التالي ، لنرى الإسلام وهو ينساب بها ولنرى الوسائط التي حملته تغدو به وتروح حتى تغمر به هذه المنطقة وتجعلها أرضا إسلامية إلى الأبد .

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٠ وما بعدها .

الباب الثالث

انتشار الإسلام بإفريقية

طرقه ووسائطه

إفريقية القارة المسلمة

تعتبر إفريقية القارة المسلمة بين قارات العالم كما ذكرنا من قبل ، فالغالبية العظمى من سكانها الأصليين يتبعون الإسلام ، وتذكر الإحصائيات أنهم يزيدون عن ٧٠٪ من سكان هذه القارة ، أما غير المسلمين بها فمنهم من لا يزال يتبع المعتقدات القديمة الساذجة ، ومنهم من لا يدين باعتقاد، ومنهم من جذبته المسيحية إليها ، ومنهم البيض الغاصبون الذين أقامهم الاستعمار وسلمهم النفوذ والسلطان في بعض المناطق :

ولم يقف حاجز ما بإفريقية أمام زحف الإسلام ، فقد انتشر بالشمال في وقت مبكر ، ثم تخطى الصحراء وزحف خلفها ، وعبر من الجزيرة العربية للساحل الشرقي منذ عصره الأول ، وتخطى هذا الساحل إلى المناطق الداخلية إلى كينيا وتنجانيقا ، واقتحم نطاق الغابات في قلب إفريقية ، وتقدم إلى هضبة البحيرات ، وتدفق إلى الهضبة الحبشية ، وانتشر على طول الساحل الغربي ، ودخل جنوب إفريقية مع المهاجرين المسلمين من سكان شبه القارة الهندية ومالنزيا ، ولا زال ينتشر حتى اليوم إلى آفاق جديدة[1] .

ويقرر Jocques Baulin أن خريطة إفريقية تغيرت تغيرا كبيرا بسبب الإسلام خلال القرون الماضية ، ولا تزال تتغير بسبب النشاط الحلي الذي اتخذ شكلا جديدا ، فإن العرب والمسلمين هضموا الجديد من التغيرات السياسية العالمية ، فأصبحوا — ببراعة — يحصلون على مزيد من النجاح ظل الاشتراكية والحياد، كما حصلوا على هذا النجاح في ظل الطرق الصوفية والتجارة من قبل[2] .

---

(١) هوبير ديشان ، الديانات في إفريقية السوداء ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) The Arab Role in Africa p. 30

انتشار الإسلام فى إفريقية بالدعوة

وانتشار الإسلام بإفريقية تمّ بواسطة الدعوة ، بدليل أن انتشاره استغرق وقتا طويلا يزيد على عشرة قرون ، وتزخر المراجع التى صنفت لها بتقرير هذه الحقيقة ، وقد قامت على مر التاريخ دول إسلامية بإفريقية بجوار دول وثنية أو مسيحية ولم يكن الدين قط داعيا لعدوان المسلمين على غير المسلمين ، بل إن المؤرخين يرون أن الحروب التى هبت بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر بإفريقية كانت أكثر وأشد مما حدث بين المسلمين وغير المسلمين ، وعندما تهب حركة إسلامية لتُسقط نظاما وثنيا أو مسيحيا فإن ذلك يكون بعد انتشار الإسلام وقوة أتباعه لدرجة تمكنهم من القيام بهذه الحركة الانقلابية ، أما كيف أصبح هؤلاء مسلمين ، فإن من المؤكد أن ذلك حدث بطريق الدعوة ، فلما رأى هؤلاء المسلمون أنفسهم قوة أحسوا بالتزامهم بالتغيير ليقيموا لأنفسهم النظام السياسى الذى يناسب معتقداتهم . وعن انتشار الإسلام بالدعوة فى إفريقية يتحدث الكاتب المسيحى هوبير ديشان الذى كان حاكما للمستعمرات الفرنسية بإفريقية سنوات طويلة وشاهد بنفسه تقدم الإسلام وانتشاره ، يقول هذا الكاتب :

إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم تقم على القسر ، وإنما قامت على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم ، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطىء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقه الأرستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة ، وقد يسّر انتشارَ الإسلام أمرٌ آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه ، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف ، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر ، إذ لا يُطلب

من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين . . . . . وقد حبّب الإسلامَ إلى الإفريقيين مظاهرُه الجميلة البعيدة عن التكلف ، مثل الثوب الفضفاض ، والمسبحة ، والكتابة العربية ، والوقار الدينى ، وشعائر الصلاة ، ممـا يضفى على المسلم مكانةً مرموقة وجاذبية ساحرة ، فالذى يدخل الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة ، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية(١) .

وإذا كان هوبير ديشان قد أوضح أن نشر الإسلام بإفريقية كان بالسلم فإن كاتبا غربيـا آخر يعطينا معلومات مهمة تفيد أن نشر المسيحية بهذه القارة تمّ فى أكثر الأحوال بواسطة القسر والعنف والإلزام ، فلنرجع إلى Sir Thomas Arnold لنقتبس منه بعض العبارات : فى سنة ١٨٧٨ عقد الملك چون مجمعاً يضم رجال الكنيسة الحبشية وقرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة ، وألزِم المسلمون بالتعميد خلال ثلاث سنوات والوثنيون خلال خمس سنوات ، بيد أن الملك سرعان ما استطال هذه المهلة ، فأذاع بعد أيام قليلة مرسوما أنذر فيه كل الموظفين المسلمين ، بأن المهلة الممنوحة لهم هى فقط ثلاثة أشهر ، ويعلق Massala الذى ينقل عنه T.Arnold أن كثيرين من الموظفين خضعوا لهذا التنصير الإجبارى ، ولكنه كان تنصيراً عديم الأثر ، ويَروِى أنه شاهد بعضاً من هؤلاء يخرجون من الكنيسة بعد التعميد قاصدين المسجد يلتمسون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أرغموا عليه(٢) .

---

(١) الديانات فى إفريقية السوداء ص ١٢٨ – ١٢٩ .
(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ١٤١ – ١٤٢ .

عوامل يسرت انتشار الإسلام بإفريقية

هناك عوامل مهمه يسَّرت انتشار الإسلام بإفريقية ، ومهدت له الطريق ، وفيما يلى أهم هذه العوامل :

١ — تفوق المسلمين الفكرى والخلقى

مما ساعد على نشر الإسلام بإفريقية ذلك التفوق الفكرى والخلقى الذى كان يتحلى به المسلمون، فيدفعهم ليكونوا نماذج يُقتَدى بها فى ناحية الثقافة وناحية الأخلاق ، وقد ارتبط الدين الإسلامى بذلك بإفريقية فأصبح اعتناق الإسلام مفخرة ، كما أصبح التزاما بالنظافة والصدق والأمانة وغير هذه من الصفات التى يُحتم الإسلامُ على متبعيه التحلى بها ، ويقول Rubbell إنه كثيرا ما لاحظ فى خلال رحلاته ببلاد الحبشة أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التى تتطلب أن يكون الشخص أمينا كل الأمانة ، موثوقا به تمام الثقة ، كان اختيارهم يقع دائماً على شخص مسلم[١] .

وهناك رحالة سار فى إفريقية فأدرك فى تجواله كيف حول الإسلام متبعيه من حال إلى حال ، فكتب يقول :

« بينما كانت الباخرة تسير بى صعداً فى مياه النهر (يعنى النيجر) ، لم أجد إلا قليلا من التغير فى الأميال المائتين الأولى، لأن الوثنية وأكل لحوم البشر وتجارة الخمور قد ظهرت كلها فى وحدة مؤتلفة ، ولكنى لما تركت ورائى المنطقة الساحلية المنخفضة ، وألفيتنى على مقربة من الحدود الجنوبية لما يسمونه السودان الأوسط ، لاحظت تحسناً مطرداً فى المظهر الأخلاقى عند الأهلين ، واختفت الوحشية ، وتبعتها الوثنية ، وزالت تجارة الخمور إلى حد

---

(١) نقلا عن توماس أرنولد ص ١٣٩ .

بعيد، على حين صارت ملابس الناس أكبر وأكثر احتشاماً، وأصبحت النظافة عندهم عادة، وقد دل مظهرهم الخارجي على وقار زائد وأدب جم . كما دل كل شيء على أن هناك نواة لمذهب أكثر رقياً إلى حد بعيد . ومن الواضح أن هذا المذهب كان يؤثر تأثيراً عميقاً فى طبيعة الزنجي ويجعل منه إنسانا جديداً . ولعلك تدهش لو علمت أن هذا المذهب هو الإسلام[1] ، ولما وصلت لوكوجا Lokoja عند ملتقى نهر بنوى Benue بالنيجر ، وتركت ورائى المراكز الأماميـــة لنشر الدعوة الإسلامية ، ثم دخلت السودان الأوسط نفسه وجدتنى فى دولة أحسن فى طريقة حكمها ، خاصة بجماعة نشيطة من التجار الأذكياء ، وأناس مهرة فى صناعة المنسوجات ، والنحاس ، والجلد ، والواقع أنهم شعب تقـــدم تقدماً عظيماً فى مراقى الحضارة والمدنية »[2] .

ومعنا نص آخر كبير الأهمية وهو من مطبوعات مجلس العموم البريطانى ، التي صدرت فى الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٠٢ م ، ويدل دلالة واضحة على ما حققه الإسلام لمعتنقيه بإفريقية من رقيي جذب الناس إليه وجمعهم حوله ، وفيما يلى هذا النص : « منذ مدة لا تزيد على سبعين عاماً ، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين فى بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلا ، اسمها بلاد الماندنجو . وكما هى العادة عند فقهاء هذا الدين (الإسلام) فتح هؤلاء مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التى جاء بها محمد ، وجروا على عادات المسلمين

---

(١) هذا الكاتب يدهش لأنه لا يعرف الإسلام ، أما الذين يعرفون حقيقة هذا الدين فيرون تطور هؤلاء شيئاً طبيعياً لأن الإسلام كما قلنا من قبل حضارة ونور ومدنية .

(٢) Joseph Thomson { 1 — Muhammadanism in Central Africa; 2 — Note on African Tribes of the British Empire }

وخاصة فى عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق . وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن ، واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان . وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية ، جلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبياً ، كما جلبوا إليها الاتحاد والطمأنينة . وكان من أثر ذلك ، أن ازداد السكان زيادة سريعة ، وانتقل إلى أيديهم شيئاً فشيئاً كل النفوذ فى تلك الجهة من البلاد التى يقيمون فيها . أما هؤلاء الذين تعلموا فى مدارسهم فإنهم يسيرون نحو الثراء والقوة فى البلاد المجاورة للماندنجو ، ويعودون ومعهم قسط وافر من الدين والشريعة . وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التى اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتوقير ، ويبدو أنه من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامى فى أمن وسلام انتشاراً سلمياً ، فى كل المنطقة التى تقع فيها مستعمرة الماندنجو ، حاملاً تلك المزايا التى تتغلب فيما يظهر دائماً على خرافات الزنوج[1] .

٥

٢ — موقف الإسلام من الرق :

وبمناسبة ما ورد عن بيع الرقيق فى النص السابق ينبغى أن نذكر أن الاتجاهات الفكرية نحو الرق كانت من أهم ما حبب أهل إفريقية فى الإسلام ، فإن البيض عندما اقتحموا إفريقية كانت تجارة الرقيق من أهم أهدافهم ، فراحوا يختطفون الأطفال والشبان دون رحمة ، ويحشرونهم حشراً على ظهر البواخر ويتجهون ببواخرهم إلى أمريكا ، ومن المعروف كذلك أن هؤلاء الإفريقيين المساكين لم توجه لهم أية عناية إنسانية أو صحية مما جعل الكثيرين منهم يسقطون فى الطريق ، وتلقى جثثهم طعاما لأسماك

Claude George : The Rise of British west Africa pp. 130—131 (٢)

البحار ، أما الذين وصلوا منهم إلى القارة الأمريكية فقد عرضوا فى سوق النخاسة وبيعوا كما تباع الدواب ، وهكذا ارتبطت مشكلة الرقيق بالبيض الأوربيين[١] . وربما يخطر ببال القارئ أن الإسلام أباح الرق ، وهنا يتحتم علينا أن نسرع ونقرر أن الإسلام لا يعرف هذا اللون من الرق على الإطلاق ولا يجيزه ، وأن الباب الذى يمكن أن يوجد عن طريقه رق فى الإسلام هو الحرب الشرعية بحيث يكون المسلمون مدافعين عن أنفسهم ، على أن أسرى هذه الحروب كانوا فى الغالب يُمَنّ عليهم بالإطلاق أو يُفْدُون أنفسهم بشىء تبعاً لنص الآية الكريمة « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء[٢] » ويقرر ابن القيم[٣] أن الرسول ﷺ لم يفرض الرق على حر قط ، وهناك حديث عن الرسول ﷺ يضع حداً حاسماً لهذا الموضوع هو قوله : « شر الناس من باع الناس »[٤] .

وهكذا كان الرق تجارة أوربية ، ولم يكن إسلامياً قط ، وإذا وجد مسلم يعمل فى هذه التجارة فهو منحرف جرفه تيار الغرب فلم يعرف نظم الإسلام وآدابه ، وطبيعى فى ضوء هذا التفكير أن يقبل الإفريقيون على الإسلام الذى يحترم إنسانية الشخص ويحافظ على حريته .

٣ — موقف الإسلام من التمييز العنصرى :

والحديث عن الرق يدفعنا إلى موضوع قريب الصلة به وهو التميز العنصرى بين البيض والسود ، أو بين البيض وبين من يسمّون الملونين بوجه عام

---

(١) سنوضح ذلك بمزيد من التفصيل فيما بعد بالباب الخامس .

(٢) سورة محمد الآية الرابعة .

(٣) زاد المعاد . جـ ٣ ص ٢٩٠ وانظر « الجهاد فى التفكير الإسلامى للمؤلف » .

(٤) انظر موضوع الرق وموقف الإسلام منه فى كتاب « الإسلام » للمؤلف . ص ٢٢١ وما بعدها .

(Discrimination) فإن البيض عند ما أكرهوا على إيقاف التجارة بالرقيق ، وعند ما توقفوا عن مزاولة هذا العمل المهين ، لم يستطيعوا أن يضعوا رقيق الأمس على قدم المساواة مع النخاسين ، فاصطنعوا التميز العنصرى ؛ وقد تسرب هذا التفكير السقيم إلى القسس أنفسهم مما جعل كثيرا من الإفريقيين يفرّون إلى الإسلام من هؤلاء القسس ومن المسيحية التى يدعون لها ، فالإسلام لا يعرف تفرقة عنصرية ، ويجعل الناس سواءً كأسنان المشط كما قال رسول الإسلام ، ولا يميز الواحدَ منهم عن الآخر إلا عملُه وتقواه ، ويقول سير توماس أرنولد[1] فى هذا الموضوع : ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم فى إفريقية الزنجية تقدما جوهريا بسبب عدم أى إحساس باحتقار الأسود ، وفى الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة كما كانت الحال لسوء الحظ فى العالم المسيحى .

وقد حدث أن تزوج مبشر مسيحى كان يباشر عمله فى إفريقية من إحدى الإفريقيات ، ولكن هـذا الزواج جعل المسيحيين البيض يضطهدونه ولا يتعاونون معه فاضطر إلى مغادرة إفريقية ، وأغلب الظن أنه ترك زوجته هناك وإن كانت الرواية لم تذكر ذلك ، وخوفاً من أن يتكرر عمل هذا القسيس لجأ البيض إلى اختيار القساوسة الذين يعملون بإفريقية من أتباع المذاهب المسيحية التى لا تبيح الزواج للقساوسة .

وهذه التصرفات قادت إلى نتيجة حتمية شاعت فى كثير من النواحى والأزمنة وهى أن الإسلام دين الجميع والمسيحية دين البيض ، وهذا الاعتقاد دفع الكثرة الإفريقية إلى اعتناق الإسلام .

وعند كتابة هذه السطور نشرت صحيفة الأخبار القاهرية الصادرة فى

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٩٤

(٢٧ / ٨ / ١٩٧٠) ، نقلا عن وكالات الأنباء الهندية ، أن الحكومة الهندية ، اكتشفت فضيحة عظمى تتصل ببعض الكنائس الكاثوليكية هى أنها تبيع الفتيات الهنديات للأديرة الأوربية ، وهذا يدل على أن فكرة الرق والتميز العنصرى لا تزال فى عقل البيض ، وأن الكنائس تُستَغَلّ لتنشيط هذا التصرف .

٤ — الإسلام يصبح فكرا محليا وثقافة قومية :

وهناك سبب آخر من الأسباب التى يسرت انتشار الإسلام بإفريقية ذلك هو أن هذا الدين سرعان ما أصبح فكراً محليا وثقافة قومية ، فلم يصبح كسواه من الأديان التى عاشت قرونا وهى غريبة عن البلدان التى اقتحمتها ، فإذا كنا نرى البيض يشغلون مناصب القسس فى آسيا وإفريقية ، ويظلون على ذلك قرونا وقروناً ، فإن الموقف مع الإسلام كان على العكس من ذلك ، إذ أن المواطنين سرعان ما أصبحوا قادة الفكر فى بلادهم وأصحابَ الدعوة بها ، وهكذا وجدنا الإسلام ديناً يمكن أن نسميه إفريقياً فى إفريقية وأسيوياً فى آسيا . . . . . ولم يعد الدخول فيه دخولا فى إطارٍ غريب على الداخل .

٥ — انحدار الحياة الروحية بالكنائس :

ومما ساعد على انتشار الإسلام بإفريقية ما يرويه الكتاب المسيحيون من أن الحياة الروحية فى أكثر الكنائس كانت قد انحدرت إلى أقصى دركات الانحطاط ، وأن كثيرا من المسيحيين الإفريقيين وقعوا فيما وقع فيه رجال الكنيسة من أخطاء ، وكانت الكنائس المسيحية المتنافسة مشغولا بعضها بالتنازع مع البعض انشغالا لم يمكنها من مواجهة الإسلام ، وانزلق بعض القسس فاشتغلوا بتجارة الرقيق ، أو أخذوا إتاوات من النخاسين ، كما سنرى عند الحديث عن الرق ؟

٦ — موقف الاستعمار من الإسلام :

وقف الاستعمار من الإسلام موقفا عدائيا حين التقيا بإفريقية ، فقد أدرك الاستعمار أن القوى الإســلامية أكبر عقبة فى سبيل استقراره ، ومن هنا أخذ الاستعمار يتحدث عن الخطر الإسلامى على نحو ما كان يتحدث عن الخطر الأصفر . . . .(١) . وأخذ بالتالى يقف فى ســبيل الإسلام ويحول دون انتشاره بمختلف الوسائل . ويذكر هوبير ديشان(٢) أن Breivié نادى فى كتاب له(٣) بأن من صالح فرنسا استغلال زعماء القبائل الوثنية لأن الاعتماد على الجماعات الإسلامية ينطوى على خطر أكيد على المستعمر .

ذلك هو الخط السياسى الاستعمارى تجــاه الإسلام بإفريقية ، ولكن الإسلام على الرغم من ذلك تجاوز هذه العقبة ،وحقق كثيرا من الانتصارات إبان العهد الاستعمارى ، بل يرى بعض الباحثين أن الاستعمار — بدون قصد منه — ساعد على انتشار الإسلام ، فمثلا نجد أن الكثيرين من الإفريقيين رأوا أن الإسلام هو وسيلتهم للصراع ضد الاستعمار ، فتدفقوا على الإسلام ليتجمعوا تحت لوائه ويقاوموا المستعمر الغاصب ، وهناك إحساس المستعمر بالنظام فى المجتمعات الإسلامية والفوضى بين الوثنيين وقد ترتب على ذلك أن أغضى الطرف عن انتشار الإسلام ليضمن الهدوء فى مستعمراته ، وقد انتهز الدعاة المسلمون هذه الفرصة فنشروا الاسلام ، ولكنهم عند ما أحسوا القوة زلزلوا أركان الاستعمار وقوضوا بنيانه ، وهناك الجهود العلمية التى أدخلها الاستعمار فى إفريقية ففتح بها أبواباً للدعاة المسلمين ، فإن الإسلام لم يكثر انتشاره فى المناطق الاستوائية إلا بعد جهود المستعمر فى قطع الغابات وإنشاء الطرق ، والقضاء على الأمراض المستوطنة .

---

(١) Westermann, D. : The African to day and tomorrow p. 220

(٢) الديانات فى إفريقية السوداء ص ١٣١ .

(٣) الإسلام والوثنية فى السودان الفرنسى .

٧ — انتشار الإسلام في إفريقية عند دخول الإسلام :

لم يكن الإسلام بإفريقية دينا بين الأديان ، بل عاش فترة طويلة وهو الدين الوحيد بين خرافات موروثة وفراغ شامل ، ولذلك كان انتشاره سهلا ، وعلماء مقارنة الأديان يقررون أن الذى يعتنق دينا يصعب تحويله إلى دين آخر ، أما الذى لا يعتنق دينا فيمكن بسهولة جذبه إلى الأديان[1] ، وهكذا دخل الإسلام هذا القطاع من إفريقية فى وقت لم يكن بها أى دين ينازع الإسلام ، بل كانت هناك الوثنية والخرافات واللادينية ، ومن هنا كانت دعوة الداعى المسلم شديدة الأثر ، سريعة النتائج .

صورة الداعى المسلم

كان للداعى المسلم سمت يدعو للإعجاب ويجذب له الناس ؛ ملابس فضفاضة نظيفة ، وأخلاق قوية سامية ، وشخصية مؤثرة جذابة وفيه كرم وإيثار ، يباشر دعوته مع تجارة يزاولها ، أو أحيانا يتفرغ للدعوة والتعليم ، فإن كان تاجرا كان الصدق ديدنه ، والأمانة دستوره ، وإن كان معلما جمع حوله مجموعة من الأطفال والشبان سرعان ما يظهر امتيازهم عن رفاقهم ممن لا يتبعونه ، وهذا يجذب له نفراً جديداً كل يوم للانضمام إلى حلقته ، وعندما يجن الليل ويتوقف التاجر عن البيع والشراء ، وينصرف عن المعلم مريدوه وتلاميذه ، تجد حول هذا وذاك جموعاً جديدة من الرفاق فيما يمكن أن نسميه « صالونا أدبيا » يتذاكر فيه الحاضرون ألوانا من الفكر ، فينجذب الناس إلى الدعوة الإسلامية ، ويتسع الصالون من يوم إلى يوم ، وتنبثق عنه صالونات جديدة ويزيد انتشار الدعوة مع ذلك .

---

(٢) انظر سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

وإذا استطاع التاجر أو المعلم إقناع شيخ القبيلة ، فإن القبيلة كلها تتبع شيخها فى دخول الإسلام ، وإقناع شيخ القبيلة لم يكن عسيراً ، فإن الإسلام يحتفظ له بمكانته ولا يأخذ منه شيئا ، والإسلام يعطيه حقوقا مقابل التزامات ليس من العسير الوفاء بها ، وينقل توماس أرنولد حديثا عن رحالة فى القرن الخامس عشر يوضح كيف جاهد العرب فى تعليم رؤساء الزنج شريعة محمد ، مبينين لهم أنه من العار عليهم أن يكونوا رؤساء ويعيشوا من غير أن تكون لهم شريعة من الشرائع الإلهية ، وأن يبقوا فى جاهلية يفعلون ما تفعله الجماعات المنحطة التى تعيش دون أن تكون لها شريعة على الإطلاق(١) ، ومثل هذا القول يجذب الرؤساء إلى الإسلام ، وبالتالى تتبع القبيلة رئيسها .

وطالما تعاون التاجر والمعلم معاً ، فيدفع التاجر من ماله ليهيئ للمعلم مكانا يلتقى فيه بالناس ، ويزوده فى نفس الوقت بما يحتاجه من نفقات شخصية ، ومقابل هذا يعطى المعلم من جهده وفكره لهدى الناس ، وطالما ارتبط بذلك إقبال الناس على التاجر ، فنمت تجارته ، مما يجعل خدمة التاجر للإسلام تعود عليه بالخير والنماء والشهرة .

وإذا كان الداعى من مشايخ الطرق الصوفية فإنه يجذب الجماهير حوله بما عرف عن رجال الطرق الصوفية من وسائل تجعل الناس يتهافتون عليهم ، ويتخذونهم ملاذاً فى ساعات الضيق العسر(٢) .

وإذا كان الداعى مصرياً أو مغربياً أو عائداً من رحاب الأزهر أو من معاهد الشمال ، فإنه يحاول أن يلبس زى البلاد التى عاد منها ، فالعمامة الناصعة البياض تعلو رأسه ، ويرتدى الجبة والقفطان أو الثوب الفضفاض . ويمسك بمسبحة طويلة ، ثم هو يحدث الناس حوله عما رأى بمصر وغيرها ، وما

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٨ .

(٢) دكتور عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٦٢ .

شاهد في جولاته ، وعن مظاهر الحضارة الإسلامية ، وعن المساجد الشاهقة ودور العلم الفسيحة ، وكل هذا يضفى على الرجل هالات من المجد ، ويجذب إليه مختلف الطبقات من الناس ، وفى يد الداعى المسلم عصا سحرية يُلوِّح بها للإفريقيين فيستجيبون إليه ، هى أنه يقرر لهم أن دخولهم الإسلام يجعلهم أعضاء فى المجتمع الإسلامى الكبير الذى يمتد من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى وإلى أسوار الصين وجزر اندونيسيا ، وإن أخوَّة شاملة تربط الجميع ، وأن أرض الإسلام أرض لكل مسلم ، وأن كل مسلم يجد الترحاب فى كل أرض إسلامية نزل بها .

أمّا مكانة المسلم فيصفها لنا الكتاب الغربيون أدق وصف ، ولنقتبس من D.J.East بعض ما قاله فى هذا الشأن[1] ، وفيما يلى كلماته : هؤلاء المعلمون الدينيون يحظون بأوفى نصيب من الإجلال . وفى بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية داراً لاستقبالهم ، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير ، ففى دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون أكبر مناصب الحكومة ، كما يحتلون بين الماندنجو مكانة أعظم شأناً ، وينالون احتراماً يلى احترام الملك ، ولذلك يعتبر الرؤساء أقل منهم هيبة . وفى الدول التى اتُّخِذَ فيها القرآن أساساً للحكم فى كل المسائل المدنية ، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجاً شديداً لكى يفسروا معانى القرآن ، وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين ، أنه لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال إمارات يُعادى بعضها بعضاً ، أو يباشر أصحابها مع بعضهم البعض حرباً فعلية . ويبجلهم الناس مثل هذا التبجيل ، لا فى البلاد الإسلامية وحدها ، بل فى القرى الوثنية ، التى يؤسسون فيها مدارسهم ، حيث يحترمهم النـــاس باعتبارهم معلمى أبنائهم ، ويعتبرونهم واسطة

---

(١) Western Africa pp. 112 ff

بينهم وبين الله ، سواء فى الحصول على حاجاتهم ، أو فى درء المصائب وصرفها عنهم[1] .

وفى ختام هذه الجولة عن روح الدعوة التى نشرت الإسلام بإفريقية نبرز نقطتين مهمتين :

١ ـ نَشْرُ الإسلام بإفريقية كان بهدف نشر الفكر والمدنية ، وهذا يختلف اختلافاً واضحاً عن نشر المسيحية بها ، لأن نشر المسيحية كان بهدف سياسى ، أى بمحاولة ربط إفريقية بأوربا ، فالداعى المسلم كان يعتنق الإسلام ويجله ، أما المبشر المسيحى فكان فى الغالب محترفاً ، والداعى المسلم ـ تبعاً لذلك ـ كان يعمل بنفسه وبوحى من ضميره ، أما المبشر المسيحى فكان غالباً يعمل لحساب مؤسسه تعلّمه ما يقول وترسم له الطريق ، وأنا أكتب هذه الكلمات عن تجربة شخصية وطويلة مع هؤلاء وأولئك ، وليس ذلك بخاف على من ارتبط بثقافته بهذا اللون من النشاط .

٢ ـ فى أكثر بقاع هذا القطاع من إفريقية الذى عقدنا له هذا الجزء ، كان انتشار الإسلام يسبق قيام الحكومات الإسلامية ويمهد لها ، وهذا بخلاف مصر وفارس مثلا : فإن الفتح العسكرى أقام حكومة إسلامية بهما قبل انتشار الإسلام بعدة قرون .

* * *

والآن نستطيع أن ننتقل إلى جولة جديدة واسعة نتحدث فيها عن الوسائط التى انبعثت خلالها أشعة الإسلام والفكر الإسلامى فى هذا القطاع من إفريقية ، فغمرته بالضوء ، وجعلته إلى الأبد جــزءاً من العالم الإسلامى الفسيح .

---

(١) See also : Christianity, Islam and the Negro Race by E. W. Blyden

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

من مراكز الشمال

دخل الإسلام مصر وشمالى إفريقية فى العصور الإسلامية المبكرة ، أى فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعهد الخلفاء من بعده ، وعاماً بعد عام ، وقرناً بعد قرن ، انتشر الإسلام بهذه البقاع واستقر ، وتخطى المضيق إلى أسبانيا ، وهنا وهناك قامت حضارات إسلامية عالية الشأن ، جعلت القاهرة والقيروان وفاس والزيتونة وقرطبة تنافس دمشق وبغداد ، وكان طبيعياً ألا تحول الصحراء الكبرى بين الحياة الجديدة بالشمال وبين بداثية الحياة بالجنوب ، فالعرب الذين ماجت بهم أقاليم الشمال لهم صلة وثيقة بالصحراء والجفاف ، فليس بدعاً أن يقتحموا الصحراء الكبرى ، وأن يتخطوا الفيافى ، وألا يقنعوا بما قنع به الرومان من قبل ، الذين نزلوا فى الشمال وأداروا ظهورهم إلى الجنوب ، ومن هنا يمكن للقارئ أن يتخيل قوافل التجارة ووفود الرحالة وجماعات الدعاة فى سلاسل لم تتوقف ، تروح وتجيء بين الشمال والجنوب عبر الصحراء ، ومراكز الشمال التى غذت جنوب الصحراء بالإسلام والفكر الإسلامى هى :

(ا) بلاد المغرب وبخاصة عن طريق هجرات البربر .

(ب) المراكز الثقافية الإسلامية على طول الساحل الشمالى لإفريقية .

(ج) مصر والأزهر .

وسنتكلم فيما يلى عن كل من هذه المراكز لنبين كيف أدت دورها فى خدمة الإسلام والحضارة الإسلامية :

(ا) بلاد المغرب :

كانت الصلة وثيقة للغاية بين بلاد المغرب وبين إفريقية الغربية ، وكان المحيط الأطلسى وطرق القوافل البرية تربط بين المنطقتين برباط وثيق ،

مما ضمن قيام علاقات برية وبحرية لم تتوقف فى أى عصر من العصور ، فلما جاء الإسلام إلى بلاد المغرب صار له صدى سريع فى مناطق الساحل الغربى التى تشغلها الآن موريتانيا والسنغال وغينيا ومالى ، وسرعان ما تبنى الملثمون الإسلام منذ عهد مبكر ، وبلغوا بأنفسهم فى ظله درجة الدولة الصحراوية المتجهة نحو السودان : كأنهم كانوا يواصلون حركة المد الإسلامى التى وصلت إليهم ، واستمرت النهضات تتتابع إلى أن كانت دولة ابن يس وابن تاشفين ، وهى أمجد النهضات على الإطلاق ، وكانت فى ترتيبها الزمنى النهضة الخامسة ، وأول دولة قامت هناك إنما وقعت زمن عبد الرحمن الداخل فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه تاهرت ، وكانت الدولة الثانية معاصرة للأدارسة (بين ٢٢٢ و ٣٠٦ هـ) ، وكانت الدولة الثالثة معاصرة لخلافة الناصر وخلافة الفاطميين بالمغرب ، ثم كانت النهضة الرابعة هى النهضة التى أقامها ابن تيفاوت ، والتى استأنفها من بعده خليفته يحيى بن إبراهيم الجدالى صاحب ابن يس[١] .

وكانت الهجرات من الشمال إلى الجنوب أهم وسيلة لانتشار الإسلام بين السودانيين . وقوام الهجرات هنا كان مصدره البربر سكان الشمال الذين تدفقوا على الإسلام منذ عهده المبكر ، والذين أسهموا بنصيب كبير فى جيش المسلمين الذى اقتحم أسبانيا فى نهاية القرن الأول الهجرى ، وقد كمل إسلام البربر فى عهد الأدارسة ، ولكن شيئاً زعزع البربر وحرمهم الاستقرار فى بلادهم ، ذلك هو أن الفاتحين الجدد (العرب) لم يكونوا كالرومان يعيشون فى المدن ويؤثرون الساحل على الداخل ، بل كان بين هؤلاء الفاتحين من ترك الساحل وفضّل الآفاق الفسيحة بالداخل ، ومن ثمّ أخلى كثير من البربر مكانهم للعرب واندفعوا للجنوب ، ثم جاءت غارات بنى سليم وبنى هلال فى عهد

---

(١) دكتور محمد عبد الهادى شعيرة . المرابطون ص ٢٦ .

المستنصر الفاطمى فى القرن الخامس الهجرى ، تلك التى اندفعت كالسيل يزحف على شمالى إفريقية(١) ؛ فاتجه مزيد من القبائل البربرية نحو الجنوب واقتحموا أرض الزنوج حيث نزلوا بلاد السنغال ، ثم اتجهوا شرقاً إلى النيجر وبرنو وكانم . ويقرر Palmer(٢) أن هوارة ولواتة ونفزاوة من قبائل البربر رحلت إلى الجنوب عقب غارات بنى هلال وأحلافهم ، ويبدو أن السكان الأصليين فى برنو فروا أمام زحف البربر ، كما فر هؤلاء أمام زحف العرب : ولعل هذا هو التفسير المناسب لقول Palmer إن شعب برنو بربرى الأصل . وكانت قبائل البربر تحيا حياة مستقلة أينما نزلت ، وتحافظ على استقلالها بقوة السلاح ، ولم يكن فى طاقة الزنوج أن يقاوموا البربر الوافدين عليهم ، فكانوا يستسلمون لهم وينقادون لسلطانهم ، ويتأثرون بثقافتهم وفى مقدمتها الدين : ومن هنا نشرت هذه الهجرات البربرية دين الإسلام فى بقاع واسعة على الساحل الغربى لإفريقية وجنوب الصحراء .

واستكمالا لهذه الصلة نقرر أن الاختلاط التدريجى تمّ بين الوافدين من البربر وبين الزنوج أصحاب الأرض ، وكان التزاوج من أهم دواعى الاختلاط ، وبمرور الزمن نشأ جيل جديد يغلب فيه الدم الزنجى من جانب ، وثقافة البربر من جانب آخر ويدين بالإسلام ، وقد استطاع هذا الجيل أن يقتبس من سادة الأمس فنونهم العسكرية وتقاليدهم الاجتماعية والثقافية ، فاستبد بالسلطة وأقام الإمبراطوريات الواسعة التى كان الإسلام دعامتها(٣) .

وليس هناك قطر آخر ينافس المغرب فيما دفعه للجنوب من جماعات وفيرة نشرت الإسلام وخدمت أفكاره منذ عهده الأول .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢ .

The Burno, Sahara and Sudan p. 9 f (٢)

Fage : West Africa pp. 16—18 (٣)

(ب) المراكز الثقافية بالشمال :

كان التأثير بالثقافة منبثقاً من بلاد المغرب ومن المناطق الواقعة إلى الشرق من بلاد المغرب ، وسنتحدث عن أهم المراكز الثقافية بالشمال ، تلك التى أسهمت بنصيب كبير فى نشر الإسلام جنوب الصحراء .

القيروان :

كان فتح الشمال الإفريقى يتخذ فى أول الأمر مصر مركزاً له ، وكان والى مصر يوجه البعوث ويمُدُّها بحاجتها من المال والسلاح ، وكانت الأجزاء المفتوحة تُعَدُّ تابعة لولاية مصر ، بيد أن المناطق المفتوحة اتسعت وأصبحت المسافة بينها وبين مصر بعيدة ، ولذلك تطلع القادة والفاتحون إلى تكوين ولاية خاصة بهذه المنطقة من إفريقية تستقل فى إدارتها عن مصر ، وكان من مظاهر ذلك أن أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتكون عاصمة لهذه المساحة الكبيرة ، وقد اختار لها مكاناً بعيداً عن البحر حتى لا تطرقها مراكب الروم ، وبناها فى أجمة عظيمة وغيضة تتشابك أشجارها وتقع هذه الأجمة فى موقع وسط بالنسبة للبلاد ، وفى هذا المكان اختط عقبة داراً للإمارة واختط الناس حوله[1] ، وكان ذلك إيذاناً باستقلال هذه البلاد عن مصر ، فلما تمّ هذا الاستقلال واعترفت به الخلافة الأموية ارتفع شأن القيروان وأصبح واليها يتخذ لنفسه لقب أمير القيروان[2] .

وأصبحت القيروان قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام بهذه البلاد ، ثم وفد لها كثير من الصحابة ، وأقاموا بها يفقهون الناس فى شئون

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ١٩٤ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ١٧٨ . والاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٤ .

بينهم كما دُفن بها كثيرون ممن استشهد منهم ، ولذلك نجد الرواة والكتاب يخلعون عنها ثوباً من الإجلال ويحيطون تاريخها بكثير من الأقاصيص ، ولم تعد القيروان مركزاً يخرج منه الغزاة والفاتحون فحسب ، بل أصبحت مركزاً ثقافياً يخرج منه الفقهاء والمعلمون لينشروا فى البلاد ، يعلّمون اللغة العربية وينشرون الاسلام[1] :

ولما أصبح الأغالبة زعماء إفريقية بذلوا جهوداً كبيرة لخدمة الثقافة والفنون الإسلامية ، كما اتجهوا بعنايتهم إلى القيروان فعُنوا بمساجدها وأنشأوا بها حلقات للتدريس ، كما أنشأوا مدارس جامعة أطلقوا عليها اسم « دور الحكمة » ، واستقدموا لها الأساتذة من الشرق ، فكانت هذه المدارس عاملاً هاماً فى رفع شأن اللغة العربية والثقافة الإسلامية[2] .

وأصبحت القيروان بذلك أول مركز ثقافى إسلامى بإفريقية ، إذ غلب الفكر والدرس على بعض مساجدها ، مما نقلها من طبيعة المسجد إلى طبيعة الجامعة ، على نحو ما حدث فى الأزهر بعد ذلك ، وظلت القيروان مفتوحة الأبواب حتى دبّ الإسلام خلف الصحراء . فأرسلت من خريجيها من علّم الإسلام على الجانب الآخر من هـذه الصحراء ، كما استقبلت بين طلابها أعداداً كبيرة من هذا الجانب ، ومما يدل على أهمية القيروان أن يحيى بن إبراهيم ، زعيم قبيلة جدالة ومنشئ دولة المرابطين ،عندما أحس بالتزامه بخدمة الإسلام وإنقاذ الزنوج والبربر من ظلام الوثنية والجهل ، ذهب إلى القيروان وهى المركز الإسلامى العام ، حيث قابل أحد علمائها الأفذاذ ، وهو أبو عمران الفاسى[3] وتلقى عنه ألواناً من الفكر والفقه ، ثم ذكر له أنه يريد أن ينقل

---

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٢) دكتور حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ص ١٦٧ .

(٣) ياقوت . معجم البلدان جـ ٦ ص ٢٣١ .

إلى قومه فى الجنوب ثقافة القيروان الدينية ، وطلب منه أن يرشح له أحد العلماء لذلك ، ليصحبه إلى قومه فى الصحراء ، ورأى أبو عمران أن يحيله إلى تلميذه فقيه السوس ، واسمه وجاج اللمتونى ، فاختار له وجاج تلميذه عبد الله بن ياسين الذى قام بدور كبير لإنشاء دولة المرابطين(١) ، وهكذا انبعث من القيروان شعاع إلى الجنوب أدّى دوره خير أداء(٢) .

ذلك كان دور القيروان فلنسر خطوة أخرى تجاه الغرب لنلتقى بأقدم جامعة عرفها التاريخ فى الشمال الإفريقى ، هى جامعة القرويين بمدينة فاس :

جامعة القرويين بفاس :

الحديث عن جامعة القرويين يُلزمنا أن نعود إلى الوراء فترة من الزمن وأن نجول حول مدينة فاس ، من جهة الشرق ومن جهة الشمال لنعرف أسس الثقافة بهذه الجامعة .

فمن جهة الشرق كان اكتساح الهلاليين للشمال الإفريقى من الشرق داعياً لكثير من العلماء أن يفروا أمام هذا الزحف من القيروان ، وأن يحلوا فى المغرب الأقصى موئلا لهم ، وهناك ألقوا عصا التسيار ، وحطوا الرحال فى مدينة فاس بوجه خاص ، ثم أسسوا جامعاً نسب لهم ، فسمى جامع القيروانيين ، ثم خفف الاسم إلى جامع القرويين ، وكان ذلك سنة ٨٥٩ م .

وقد شُيد جامع القرويين من أول يوم ليكون مركزاً للتعليم ، وقد ظل كذلك باستمرار مدة أحد عشر قرناً ، وهو لذلك يعتبر أقدم جامعة إسلامية .

ولم يكن جامع القرويين أول مركز علمى فى مدينة فاس ، لأنها كانت

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨٢ – ١٨٣ .

(٢) اقرأ كذلك المغرب للبكرى ص ٢٢ وما بعدها .

قبل ذلك تزدهر بالعلم والفكر ، ولعل ذلك هو الذى جذب علماء القيروان إليها لينضموا إلى مواكب المعرفة فى هذه العاصمة الخالدة(١) .

أما عن الشمال فمن المعروف أن الحضارة الإسلامية بلغت ذروتها بالأندلس ، وأن أمراء الأمويين وخلفاءهم بالأندلس حولوا — فى قرطبة — أن يستعيدوا مجد أجدادهم فى دمشق ، حتى أصبحت قرطبة تنافس بغداد والقاهرة ، وبعد سقوط الخلافة الأموية عنيت قصور ملوك الطوائف كما عنيت غرناطة فيما بعد بألوان الثقافة والفكر .

والذى يهمنا هنا أن ارتباطاً وثيقاً تم بين الأندلس وبين المغرب الأقصى وبخاصة فى عهد المرابطين ، فقد اندفع المرابطون يردون زحف الفرنجة على مسلمى الأندلس وحققوا بذلك نصراً مؤزراً ، ثم عاد المرابطون إلى إفريقية فعاد المسيحيون بالأندلس إلى الزحف والتوغل فى المناطق الإسلامية ، فهب المرابطون مرة أخرى لرد المعتدين ولكنهم اتجهوا إلى ألا يتركوا الأندلس بعد عملية الإنقاذ كما فعلوا من قبل ، ومن هنا قامت وحدة بين المغرب والأندلس ، وكان من أبرز نتائج هذه الوحدة أن نشطت وفود العلماء الأندلسيين متجهة إلى قصـــور حكام المرابطين بالمغرب الأقصى ، وفتح المرابطون قصورهم وصدورهم لهذا الغزو الثقافى الذى جاء لبلادهم من الأندلس ، كما فتح الأندلسيون أبوابهم للغزو العسكرى الصاعد من بلاد المغرب ، ويعلق الباحثون على هذه النتائج بأن المغرب قدم الجنود والأندلس قدمت العلم والفن الرفيع ، المغرب أخضع الأندلس سياسياً ، لكن الأندلس أخضع المغرب ثقافياً ، وكان للوافدين من الأندلس إلى فاس شطر المدينة ، أما الشطر الثانى فكان للمشارقة(٢) .

---

(١) انظر المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٢٠ .

وهناك جماعة آخرون من أفذاذ علماء الأندلس حملتهم مواهبهم إلى قصور خلفاء المغرب ، ومن هؤلاء ابن رشد الذى ولد بقرطبة ونشأ بها وظهرت فيها ثقافته وآراؤه ، ثم رحل إلى مراكش ليعيش بقية عمره فى رحاب الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ومنهم ابن طفيل الذى عمل وزيراً لهذا الخليفة وكبيراً لأطبائه ، وقد زكاه لهذه المكانة ابن رشد ، فأحضره أبو يعقوب من الأندلس وولاه هذه المكانة الرفيعة ، وكثيرون جداً غير هذين(١) .

وإذا كانت بلاد المغرب قد حظيت بهذه المكانة العلمية ، فإن مدينة فاس كانت أهم مركز علمى فى هـــذه البقاع ، تفتحت للثقافة منذ نشأتها ثم جذبت لها ثقافة الأندلس ، فأصبحت منارة علمية فائقة ، وترجع نشأة مدينة فاس إلى القرن الثامن الميلادى ، وكانت عاصمة للبلاد عدة قرون ، كما اشتهرت باستقبال اللاجئين من مسلمى قرطبة الذين فروا من وجه زحف النصارى ، وبلغت أوج عظمتها فى عهد بنى مرين خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقد شيدت بها الجوامع والمدارس السبع ، ومن أشهر دور العلم بها جامعة القرويين التى جلس بها خيرة العلماء ، والتى خرّجت للمجتمع الإسلامى وفوداً من صفوة الفكر والثقافة ، ولم تكتف جامعة القرويين بالاتجاه للشمال بل اتجهت للجنوب ترسل وفود العلماء وتستقبل جماعات الطلاب ، حتى أصبح لجامعة القرويين مكانة عظمى فى نشر الإسلام خلف الصحراء ، وعندما أنشئت مراكز علمية إسلامية جنوب الصحراء فى تنبكتو وجنى وغيرهما كانت جامعة القرويين تمدها بالمعلمين والأساتذة والكتب ، وكان الاتصال وثيقاً بين مراكز الجنوب وثقافة الشمال مركزة فى هذه الجامعة التى أثرت الفكر الإسلامى وخدمت الثقافة العربية ، وكان

---

(١) M.M. Sharif : Muslim Thought : Its Origin and Achievements p.p. 126—127.

لجامعة القرويين مكتبة مشهورة تشتمل على عـــدد كبير من المخطوطات النادرة . ولا يزال بعضها موجوداً بها حتى العهد الحاضر .

معاهد تلمسان :

• تلمسان مدينتان : إحداهما قديمة والأخرى حديثة ، وهذه اختطها الملثمون ملوك المغرب واسمها « تافرزت » ، ويسكنها أصحاب السلطان والجند ، واسم القديمة « أقادير » وتسكنها الرعية كالفسطاط والقاهرة[1] .

وتلمسان منارة أخرى من منارات الفكر الإسلامى ، لعبت فى العصور الوسطى دوراً هائلا فى خدمة الإسلام جنوب الصحراء ، ومن أشهر علمائها التلمسانى المغربى الذى رحل إلى السودان ونزل على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ، وكان له باع طويل فى العقائد ، فجذب إليه الطلاب والمريدين من أنحاء مملكة الفونج ، وقد كتب لأحد ملوكهم عهداً يعطيه فيه الإمارة ولذريته من بعده[2] ، وهذا يدل على أن مكانة الرجل تخطت الجماهير إلى السادة والملوك .

جامعة الزيتونة :

ونصل الآن للحديث عن مركز كبير الأهمية من المراكز العلمية الإسلامية بشمالى إفريقية إنه جامعة الزيتونة بتونس ، التى خدمت ولا تزال تخدم الفكر الإسلامى ، وقد شُيِّدَ جامع الزيتونة فى مطلع القرن الثانى الهجرى ، واهتم الأغالبة بتعميره وتجديده ، ثم أصبح جامعة للدراسات العربية والإسلامية فلعب دوراً كبيراً فى خدمة الفكر الإسلامى لا فى تونس وحدها ، بل شمال الصحراء

---

(١) ياقوت معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٢) دكتور عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقية جـ ١ ص ٢٤ .

وجنوبها ، وكانت قبلةَ كثيرين من طلاب العلم من البربر والزنوج ، كما تخرج منها علماء رحلوا إلى جنوب الصحراء فنشروا الإسلام وخدموا فكره وثقافته .

(جـ) مصر والأزهر :

وصلت الحضارة المصرية مدى بعيـداً من الرقى فى اتجاهات مختلفة ، كما ذكرنا من قبل ، وقد سارت الحضارة المصرية من مصر إلى غرب مصر فى الشمال الإفريقى ، وإلى جنوبها والجنوب الغربى فى بلاد النوبة وما جاورها غرباً حتى قلب إفريقية .

ومصر تمثل الباب الشرقى لإفريقية ، ومن هنـا تلقّت ألواناً من الحضارات الخارجية وفى مقدمتها الأديان ، وقد قامت مصر بحمل هذه الحضارات الوافدة إلى البلدان المجاورة ، فعن طريق مصر دخلت المسيحية بلاد النوبة ، وحملها مبشرون مصريون ، وعن طريق مصر دخلت المسيحيةُ الحبشيةَ ، وحملها أحد رجال الدين الإسكندريين ، ويدعى فرومنتيوس ، حوالى سنة ٣٣٠ ، أى فى حكم عيزانا ، الذى كان أول ملوك الأحباش الذين اعتنقوا المسيحية[1] ، وأصبحت كنيسة الحبشة تابعة للكنيسة المصرية .

وجاء الإسلام إلى مصر فى وقت مبكر ، ومنها قامت الجيوش الإسلامية تتابع الرومان فى الشمال الإفريقى وتقضى على نفوذهم ، ولما استقر الإسلام فى مصر وتمّ انتشاره وتقلصت المسيحية ، كان ذلك إيذاناً بانتشار الإسلام أيضاً فى كل الشمال الإفريقى ، وفى بلاد النوبة وإيذاناً بتدفق الإسلام إلى الحبشة ، ويقول هوبيرديشان[2] : ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر من أهم المراكز التى زحفت منها الدعوة الإسلامية إلى ربوع إفريقية ، ولكن

---

(١) Trimingham : Islam in the Sudan p. 49 ودكتور عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

(٢) الديانات فى إفريقية السوداء ص ١٣٢ .

المسيحية عاشت مدى أطول فى هذه البلاد على عكس ما حدث فى مصر وشمالى إفريقية ، لأن المسيحية ارتبطت بالاستعمار فى البلاد التى كانت خاضعة للرومان ، وكان زوال الاستعمار الرومانى خطوة قوّضت تمسك السكان بالدين المرتبط بالمستعمر ، ولم تكن المسيحية مرتبطة بالاستعمار فى بلاد النوبة وفى الهضبة الحبشية ، وهــذا كتب لها عمراً طويلا ، لأن الأهلين لم يقفوا منها موقف التحدى والخصومة ، ولم يعتبروها ثقافة المستعمر ، وهذا هيأ لها عمراً أطول حتى استقر الدين الإسلامى وانتشر ، فلم تقو المسيحية على المقاومة والصمود .

وتأسس الأزهر بمصر فى العهد الفاطمى ، وسرعان ما أصبح الجامعة الإسلامية الأولى ، وتطلعت له الأنظار من مختلف الأقطار ، ووفد له وفود الطلاب من كل صوب ، وخرجت منه أفواج العلماء والمدرسين إلى كل اتجاه ، ومن الطبيعى أن ينال السودان والبلاد المجاورة له مزيداً من الفكر الذى ينشره الأزهر ، لقرب المسافة بين مصر وهذه البقاع ، ويذكر العلامة ود ضيف الله[1] تفاصيل واسعة عن الطلاب السودانيين الذين نهلوا من الأزهر ، وعادوا ينشرون الإسلام فى السودان ، وعن علماء الأزهر الذين تخطوا حدود مصر إلى السودان يحملون دعوة الإسلام وحضارته وينشرونها فى الجنوب ؟

وهكذا انتشر مذهب الإمام الشافعى بالسودان منساباً من مصر ، ويعزى إلى الكيانى المصرى محمد بن قرم ، أنه هو الذى حمل هــذا المذهب إلى ربوع السودان .

وفى عهد دولة الفونج زاد اتصال مصر الثقافى بالسودان ، فقد رحل عدد كبير من السناريين لطلب العلم بالأزهر ، ومن هؤلاء إخوة أربعة هم

(١) انظر طبقات ود ضيف الله ص ٥ و ٦ و ٣١ و ٦٤ وغيرها .

أحفاد العالم الكبير غلام الله بن عيض ، كما قدم إلى سنار عدد كبير من علماء الأزهر المصريين ، كالشيخ محمد القناوى الذى استوطن بربر وشيد بها مسجداً جلس به ليعلم العقائد والنحو ، فتخرج على يديه عدد كبير من أبناء بربر وغيرهم ، وقد كان بيت هذا العلامة مركزاً للفكر والثقافة الإسلامية ، ولا زال أحفاده يبذلون أقصى الجهد لخدمة الإسلام بالسودان ، وقد أسعدنى الحظ أن التقيت بحفيده فضيلة الشيخ مجذوب مدثر ، وكان فضيلته نائباً لمدير جامعة أم درمان الإسلامية ، وكنت أستاذاً بها عام ١٩٦٦ — ١٩٦٧ ، وأشهد لقد كان مثال العلم والخلق وحسن التعاون ، وهو بالإضافة إلى علمه يشغل مكان شيخ الطريقة التيجانية بالسودان .

ولم يقف نشاط مصر ونشاط الأزهر عند البلاد المتاخمة لمصر بل تخطاها إلى مراكز مختلفة بإفريقية ، فقد انتشر عن طريق النوبة إلى إقليم دار فور وكردفان ، ودخل مملكة كانم المتصلة ببحيرة تشاد ، بل تخطى تشاد إلى بلاد الهوسا التي يذكر توماس أرنولد أنها تأثرت فى إسلامها بالموجة الكبيرة التى زحفت من مصر نحو الجنوب فى القرن الثانى عشر(١) ، وبهذا اتصل هذا التيار بالتيار الإسلامى القادم من غربى إفريقية والوافد من بلاد المغرب .

وعندما أصبح الأزهر موئل التفكير الإسلامى وكعبة الفكر ، قصده عدد كبير من الطلاب من جميع ربوع إفريقية ، وتطلع له أقصى الغرب كما تطلعت له الأقطار المجاورة لمصر فى شرق القارة ، وكان لأهل الكرور نصيب واضح فى هذا المجال ، فتدفقت منهم طوائف كثيرة لمصر ، وجلست بحلقات العلم فى الأزهر لتسمع من شيوخه الذين ذاع صيتهم فى كل البقاع .

وابتنى تجار التكرور بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ، وأصبحت مثابة لطلاب العلم من هذه البلاد(٢) .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٥٧ .

(٢) حامد عمار : علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية ص ٢٧ .

وقد سبق أن قلنا إن تنبكتو التى كانت أهم مركز إسلامى فى السودان الغربى كانت وثيقة الصلة بجامعة القرويين وبجامعة الزيتونة ، ونقول هنا إن تنبكتو كانت كذلك وثيقة الصلة بالأزهر ، وكثيراً ما رحل علماؤها إليه للاستزادة من العلم ولمقابلة العلماء ، وكانت لهم صلات بإمام مصر جلال الدين السيوطى ، ومن ناحية أخرى رحل كثير من علماء الأزهر إلى تنبكتو وقعدوا للتدريس بها[١] .

ومن غربى إفريقية جاءت وفود الطلاب كذلك من برنو ، والتحقوا بالأزهر ، ثم عادوا إلى بلادهم ينشرون الإسلام ويخدمون ثقافته[٢] .

وعن الأزهر يقول Jocques Baulin : تُعَدُّ مكة المكان المقدس عند المسلمين ، وتعد القاهرة مركز الثقافة الإسلامية ، ومكانةُ الأزهر فى العالم الإســـلامى لا تعدلها مكانة ، ومنذ قرون عديدة والأزهر مفتوح للمسلمين يجدون فيه العلم ومشعل النور ، بل يجدون فيـــه المأوى والزاد ، وكان الإفريقيون يتدفقون عليه ليتعلموا علوم القرآن والحديث وغيرها ، ولكن مصر كانت تستغل الأزهر لتغرس فى نفوس الوافدين إليه ألواناً من المعارف والثورات والاتجاهات القومية ، مما حدا بأحد قادة نيجيريا أن يصرّح أن مسلمى نيجيريا يعدون الأزهر مركز القيادة للعالم الإسلامى كله[٣] .

ويلاحظ بعض الباحثين أن الأزهرى المصرى يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمى وقلما يكون ذا طابع صوفى ، فإن علماء الأزهر ومَن أخذوا عنهم اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم الإسلامية والعربية ،

---

(١) عبد الرحمن السعدى : تاريخ السودان ص ٣٢ وما بعدها .

(٢) Palmer : Islam in the Western Sudan and on the West Coost of Africa p. 38

(٣) The Arab Roie in Africa p. 59

ولكن الاتجاه الصوفى أو الصوفى العلمى معاً ، كان طابع الثقافة الحجازية والمغربية والعراقية[1] .

وكانت مصر طريقاً للحجاج الوافدين من غربى إفريقية ووسطها ، وطالما انتهز هؤلاء فرصة الحج ليحطوا الرحال بمصر فترة طويلة أو قصيرة ، يغترفون خلالها العلم والمعرفة من الأزهر ، ويتعرفون على الحضارة الإسلامية التى كانت القاهرة تحمل دائماً أبرز معالمها .

وهكذا كان دور مصر ودور الأزهر واسعاً فى إفريقية ، بل كان واسعاً فى العالم كله ، كان العالم المصرى والكتاب المصرى والمعهد المصرى كلها فى خدمة الإسلام ، وكانت تتبارى فى شرحه وحمله إلى الناس فى كل صوب .

---

(١) دكتور عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية بالسودان ص ٥٦ – ٥٧ بتصرف .

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

بواسطة هجرات عربية

ضاقت الجزيرة العربية بسكانها بسبب الجفاف الذى أصابها ، وكانت اليمن قبل انهيار سد مأرب غنية التربة ، غنية الحضارة ، حافلة بالناس ، فلما انهار السد ضاقت اليمن كذلك بسكانها ، فاتجه العرب منذ عهد سحيق إلى الهجرة تجاه الشمال إلى بلاد الشام والعراق ، أو الشمال الغربى إلى مصر ، أو عبر البحر الأحمر إلى إفريقية .

فلما جاء الإسلام وهَزَمَت القوى الإسلامية جيوش الرومان فى الشام ومصر وشمالى إفريقية ، ثم ربط للدين بين هـــذه البلاد وبين الجزيرة العربية ، كان ذلك مما هيأ لموجة جديدة من موجات الهجرة العربية إلى إفريقية ، وكانت هذه الهجرات ترحل للاستقرار فى القارة الواسعة ، وتعيش هناك ترعى الماشية ، أو تخدم التجارة ، أو تبلغ الدعوة الجديدة وتعيش فى كنفها ، وبالإضافة إلى العامل الاقتصادى الذى دفع العرب للهجرة من جزيرتهم ، وُجِد بعد الإسلام عامل سياسى دفع إلى الهجرة كذلك كالأحزاب ، والفرق الإسلامية ، وكسقوط دولة وقيام أخرى ، فإن ذلك جعل بعض الفرق أو بعض القبائل تفر من اضطهاد واقعى أو محتمل وتتخذ طريقها إلى إفريقية .

وعلى الرغم من أن الهجرات جاءت من أمكنة متعددة من الجزيرة العربية ، وعلى الرغم من أن المهاجرين جميعاً خدموا الإسلام ونشروه ، فإن بلاد حضرموت جديرة بأن نقف عندها وقفة فيها إجلال وتقدير ، لما قام به بنوها فى هذا المجال ، فلقد تخطى هؤلاء الناس الصعاب ، وركبوا البر والبحر ، ونزلوا هنا وهناك ، ولم ينسوا قط دعوة هذا الدين فى حلهم وترحالهم ؛ فحملوا الإسلام إلى الناس ، وحملهم الإسلام إلى أسمى

الدرجات ، أعطوه من جهدهم ومن مالهم ، وأعطاهم من قلبه وحضارته ، وإن عدة ملايين من البشر فى مختلف البقاع فى آسيا وإفريقية يرتبط إسلامهم بهجرات حضرمية ، وقد اتصلتُ بهم ردحاً من الزمن بحكم عملى بالخارج ، فرأيت دُورهم وكلٌ منها منار يهدى الإسلام ، ورأيت حماستهم لا تفتر ، ورأيت مدارسهم واسعة الانتشار ، تستقبل أفواجاً من التلاميذ ، وتغرس فى نفوسهم حب الإسلام ، وفى عقولهم مبادئه ، ورأيت بجانب ذلك مجموعة من أساطين العلماء من السكان الأصليين اتسعت لهم بيوت الحضارمة أيام كان هؤلاء طلاباً فقراء ينشدون المعرفة . وقد يختلف الحضارمة فى مهجرهم فيما بينهم امتداداً لاختلافهم الطبقى قبل هجرتهم ، ولكنهم يتفقون ، أو قل يتنافسون فى خدمة الإسلام ونشره ، وقد كانوا عوناً كبيراً لى وأنا أؤدى رسالتى بإندونيسيا . وإذا كان بعض المهاجرين من العرب قد غرقوا فى تقاليد البلاد التى يهاجرون لها ونسوا عروبتهم وإسلامهم ، فإن الحضارمة . أو قل أكثرهم لم يفعلوا ذلك ، بل ظلوا — مع ولائهم الكامل للبلاد التى نزلوا بها ، ومع مشاركتهم الفعالة فى خدمة هذه البلاد — يرتبطون باللغة العربية وبالإسلام ويعملون على نشر هذا الدين ونشر لغة القرآن ، وهم بذلك يخدمون الوطن الذى هاجروا إليه ، والوطن الذى هاجروا منه . تحية تقدير للحضارمة يستحقون أن نسجلها لهم . على جهودهم فى نشر الإسلام فى آسيا وإفريقية .

ومن الطبيعى أن الهجرات العربية لإفريقية اتخذت طريقها عبر مصر أو عبر البحر الأحمر ، ولم يتوقف نشاطها عند الساحل بل تعمقت فى كثير من الأحوال حتى وصلت قلب القارة ، ويلاحظ أن المهاجرين العرب لإفريقية قلما صحبوا زوجاتهم فى هجراتهم ، فالمرأة العربية كانت التقاليد تحميها من المغامرات والأخطار ، ثم كان العربى قريب الشبه فى زيه وطعامه من أصحاب البلاد الأصليين ، أو قل إن له مقدرة ليصبح كذلك ، ونتج عن

هذا أن حدث تزاوج وارتباط واسع المدى بين الطرفين ، وهذا الارتباط قصّر المسافة بين الجانبين ، ويسّر انتشار الإسلام ، وبخاصة بين جماعات اللادينيين ، وما كان أكثر هذه الجماعات بإفريقية ، فتحققت بذلك نظرية علماء مقارنة الأديان التي تقرر أن الدين الأعلى ينسكب فى قلوب من لا دين لهم ، أو من يعتملون فى تدينهم على خرافات وأوهام ، وذلك كالسيل ينحدر من أعلى إلى أسفل(١) .

وقد أحس المسلمون من سكان البلاد الأصليين أن العرب جاءوا من أرض النبي ، وأن لهم أو للكثيرين منهم صلة نسب برسول الإسلام ، ومن هنا أسلموهم القيادة فى كثير من الأحوال ، وأصبح طبيعياً ما يقوله Mock(٢) من أنه قلّ أن ترى أسرة حاكمة فى غربى إفريقية لا تنتسب إلى أصل عربى ، ومنهم من يرتفع بنسبه إلى الأسر التى حكمت فى الشرق كالأمويين ، بل أحياناً إلى الأسر التى ترتبط بالرسول كالعلويين والعباسيين والفاطميين .

ولقى العلماء والمفكرون الذين هاجروا إلى إفريقية من الحجاز والعراق وغيرهما كتفاً ليناً وبسطة فى العيش فى المناطق التى رحلوا إليها ، فأغراهم ذلك ليستقروا بها لينشروا دين الله ويخدموا العلم والتصوف ، فاتخذوا من هذه المناطق مأوى جديداً واستوطنوها(٣) .

وبناء على وثيقة يشير لها Sir Thomas Arnold(٤) يُعتقد أن أول من هاجر من العرب إلى إفريقية هم جماعة من شيعة الشهيد زيد بن على زين العابدين بن الإمام الحسين ، وقد فروا إلى إفريقية عقب هزيمة الثورة التى

---

(١) M.M. Sharif : Muslim Thought, its Origin and Achievements p. 22.

(٢) The Northern Tribes of Nigeria Vol I p. 61

(٣) دكتور عبد العزيز عبد المجيد : التربية فى السودان : جـ ١ ص ٥٥

(٤) The Preaching of Islam p. 378

قام بها زيد وأعدم من أجلها سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) فى عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى[1] .

ويعلق Thomson على هذه الرواية بقوله إن هذه الجماعة عاشت فى مبدأ الأمر فى خوف بين السكان الأصليين الوثنيين ، ولكنها نجحت بالتدريج فى نشر الإسلام ثم فى بسط نفوذها على طول الساحل : بيد أن جماعة أخرى من العرب أقوى وأشد جاءت من الإحساء على الخليج العربى ، فارّة من الصراع الذى كان يدور هناك فى منتصف القرن التاسع بين الخلفاء والقرامطة ، ويقال إن هذه الجماعة عبرت البحر على ثلاث سفن ، ونزلت بالقرب من المكان الذى ينزل به الزيدية سالفو الذكر ، ولكن لما كان الزيدية من الشيعة والوافدون الجدد من أهل السنة ، فإن الزيدية ارتدوا إلى داخل إفريقية ، واندمجوا فى السكان الأصليين ، تاركين الساحل للوافدين الجدد الذين كانوا أكثر عدداً وأوفر قوة ؛ ويقال إن هؤلاء هم الذين أسسوا مدينة « مقدشو » عاصمة الصومال الآن ؛ وهناك رأى آخر يرى أن مقدشو أسست فى منتصف القرن العاشر ، وأن الذين أسسوها كانوا فرساً بدليل أن التسمية فارسية ، ويمكن التوفيق بين الرأيين باعتبار العرب أسسو المدينة فى القرن التاسع باسم آخر ، ثم زاد الفرس فى المدينة وأطلقوا عليها « مقدشو » أو أنهم أطلقوا هذا الاسم على الحى الذى نزلوا به من المدينة أو على المنطقة التى بنوها ، ثم غلب الاسم على المدينة كلها .

وبمناسبة الحديث عن الزيدية واندماجهم فى السكان الأصليين بإفريقية ، نذكر ملاحظة مهمة هى أن المذاهب المتعددة التى كانت تموج بها العراق وفارس والجزيرة العربية لم تجد فى إفريقية فرصة الازدهار ، فإن الوافدين سرعان ما كان يبتلعهم تيار الإسلام العام فى الغالب ، وهكذا كثرت الفرق

---

(١) اقرأ عنها فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

بالشرق وقلت قلة واضحة فى إفريقية والأندلس ، ولم يستطع التشيع أن يثبت جزوره بهما ، كما اختفى التعصب للمذاهب الفقهية الذى كان شديد الوضوح فى العراق ، لدرجة أن الحنابلة اعتدوا على الخطيب البغدادى بجامع المنصور ببغداد سنة ٤٥١[1] ؛ وقد انتشر مذهب مالك فى إفريقية ، ثم مذهب الإمام الشافعى وعاش المذهبان جنباً إلى جنب فى تعاون ظاهر .

ولنعد لوفود المهاجرين العرب إلى إفريقية لنذكر أنه فى القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة تتألف من أربعة وأربعين عربياً ، فنزلوا بربرة ، ثم انتشروا فى بلاد الصومال يدعون إلى الإسلام ، وقد شق أحد هؤلاء المهاجرين واسمه الشيخ إبراهيم أبو زرباى طريقه إلى هرر حوالى سنة ١٤٣٠ واستطاع أن يحوّل كثيرين إلى هذا الدين ، ولا يزال قبره موضع تعظيم وتبجيل فى هذه المدينة[2] .

وتتابعت الهجرات العربية إلى الساحل الشرقى لإفريقية ، وإلى الجزر المجاورة للساحل ، ويذكر المؤرخون هجرات من اليمن والحجاز وحضرموت انسابت إلى هذه البقاع وإلى ربوع السودان العربى ، واختلطت بالسكان ، وانتشر الإسلام فى ذلك الجو الجديد ، وبرزت سلطنات عديدة حاكمة أو قبائل ذات نفوذ كبير ، وقد تحولت أرض البجة إلى إقليم عربى بسبب الهجرات المتتالية التى نزلت بها ، وأول هذه الهجرات هجرة عرب ربيعة فى نهاية القرن السابع الميلادى ، ثم هجرة جماعات من الأمويين فى منتصف القرن الثامن عقب سقوط الدولة الأموية ، وقد فتحت هاتان الهجرتان الطريق لهجرات أخرى ، ولم يمض جيل وجيل حتى كانت اللغة العربية هى لغة أكثر السكان ، وكان النفوذ فى أيدى السلالات العربية[3] .

---

(١) ياقوت معجم الأدباء : ١ : ٢٤٧ .

(٢) دكتور عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم جـ ٢ ص ٥٢ .

(٣) انظر { Trimingham : Islam in the Sudan p. 10 ff
Paul :History of Beja Tribes p. 73 }

وقد تعرض سودان وادى النيل وبخاصة مناطق النوبة والبجة وسنار هجرات عربية أكثر كثافة بسبب موقعه بالنسبة لمصر ، وبالنسبة للبحر الأحمر ، وعلى هذا استقبل السودان وفود المهاجرين من الناحيتين ومن وقت مبكر للغاية ، وهذا هو السبب فى أن سودان وادى النيل أصبح بلداً عربى الدم واللغة ، بالإضافة إلى انتشار الإسلام به ، ويذكر يعقوب باشا أرتين أن العرب استقروا فى بلاد النوبة من عهد مبكر ، وكانوا منتشرين على ضفاف النيل الأزرق ، وفى القرن العاشر الميلادى كانت ثرواتهم قد زادت زيادة كبيرة ، وبدأ نفوذهم يظهر حتى أنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد فى سوبا عاصمة المملكة المسيحية آنذاك[1] .

وقد مهدت هذه الهجرات العربية للسودان لقبيلة جهينة أن تقتحم هذه البلاد ، وسرعان ما اندمجت هذه القبيلة فى الأهلين ، ونجحت فى كسر شوكة الأمراء النوبيين ممهدة بذلك لانتهاء العهد المسيحى ، وقيام دولة الفونج : وقيامُ هذه الدولة كان انتصاراً للعروبة وللإسلام بصفة رسمية ، فتوّج الانتصارات الشعبية التى سبقته .

والتاريخ يتحدث طويلاً عن هجرة المسلمين إلى الحبشة مرتين قبل هجرة إلى المدينة ، وعن محاولة قريش استعادة هؤلاء المهاجرين ، ويذكر التاريخ أن جعفر بن أبى طالب شرح للنجاشى باسم المسلمين دعوة الإسلام ، ورأى المسلمين فى مريم وفى المسيح . . . وأن النجاشى تأثر بكلام جعفر حتى يقال إنه اعتنق الإسلام . . . . . والمهم هنا أن جعفر لقى مقاماً طيباً ببلاد الحبشة ، وأن حياته هنالك طالت فلم يرجع للجزيرة العربية عقب الهجرة ، بل بقى بالحبشة حتى العام السابع للهجرة ، ويبدو لى أن ذلك الوضع هو الذى جعل جماعة من سلالة أخيه عقيل بن أبى طالب تهاجر إلى الحبشة .

---

(١) إنجلترا فى السودان : ص ١٤٤ .

وقد نزل بنو عقيل فى بقعة يقال لها جِبَرَة أو جَبَرت ، وقد نُسب هؤلاء ، المهاجرون إلى تلك المنطقة فأصبحوا يعرفون بالجبرتية ، وإليها ينسب الشيخ المؤرخ الجبرتى الذى ينحدر من هذه الأرومة . واستطاع أحفاد بنى عقيل أن ينشروا الإسلام فى هذه المنطقة ، وبمرور الزمن استطاعوا أن يكوّنوا أول دولة إسلامية فى الحبشة . وأخذ نفوذهم يمتد ، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر كان قد تم لهم تأليف سبع ممالك زاهرة سميت (الطراز الإسلامى) ، لأنها على جانب البحر كالطراز له[1] . وسنتحدث عنها فى الباب الرابع .

وهكذا أصبحت المنطقة الشرقية توصف بأنها سلطنات عربية إسلامية ، فبجوار ممالك الطراز الإسلامى كانت هناك سلطنات مشابهة فى مقدشو ، وعلى ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وفى الجزر المقابلة للساحل ، وقد نعمت الشعوب الأصلية فى هذه المناطق بالحكم الجديد ، وتعاونت معه فى ظل الإسلام . ٥

وفى القرن الحادى عشر حصلت هجرة بنى هلال وبنى سليم ، وهى هجرة أشبه بالطوفان ، دمَّرت من جانب وشيدت من جانب آخر ، كانت فى فَورتها عاتية ، حاربت وحرقت وخرَّبت ، فلما انتهت موجة الصخب بدأت نتائج لم تكن فى الحسبان ، فإن كثيرا من قبائل البربر — كما قلنا من قبل — فرّت إلى الجنوب واستقرت هناك ونشرت الإسلام ، واستقر بشمالى إفريقية كثير من الهلاليين فكتبوا بذلك رجحان الجنس العربى واللغة العربية والدين الإسلامى بهذه المنطقة ، ولم يقف الحال عند هذا الحد بل تسرب من الهلاليين ومن أعوانهم جماعات إلى الجنوب ، فكانوا من أهم العوامل لنشر الإسلام وازدهاره خلف الصحراء

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ج ٥ ص ٣٢٤ — ٣٢٦ .
والمقريزى : الإلمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الإسلام

وإذا كان الخليفة المستنصر الفاطمى هو الذى دفع الهلالية إلى الاندفاع نحو إفريقية فإن انتهاء دولة الفاطميين بمصر وقيام الدولة الأيوبية ، أو بالتالى حدوث التحول المذهبى من الشيعة إلى السنة دفع جماعة آخرين من العرب للهجرة من مصر إلى شرقى السودان وإلى كردفان ، وكان هؤلاء يفخرون بأنهم ينحدرون من العرب[١] .

وهكذا تدفقت الهجرات العربية عبر القرون إلى إفريقية وبوجه خاص إلى الشمال والشرق ، وكان لها أثر كبير فى نشر الإسلام ، بل امتد أثر هذه الهجرات إلى الجنس واللغة فأصبحت مناطق الشمال وكثير من مناطق الشرق عربية الدم واللسان . وهناك حقيقة تلفت النظر ، هى أن فيض المهاجرين العرب كان وفيرا فى الشمال والشرق ، فتعربت بلاد الشمال والسودان العربى ، أما المهاجرون العرب إلى الأماكن الأخرى جنوب الصحراء فكانوا قلة نسبيا ، وانتشر الإسلام بهذه الأماكن الأخرى : عن طريق التجار والبربر والطرق الصوفية . . . وبناء على هذه القاعدة كان ينبغى أن تصبح الحبشة بلاد عربية مسلمة ، وقد أوشكت أن تكون كذلك ؛ فقد قامت بها إمارات وممالك عربية اللسان ، مسلمة الدين ، ولكن الاستعمار الأوربى ابتداء من عهد البرتغال حتى العهد الحاضر بذل أقصى الجهد ليجعل منها قلعة مسيحية وسط القارة .

---

(١) Thomas Arnold : The Preaching of Islam p. 357

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

بواسطة هجرات غير عربية

يعتقد المسلمون أن الإسلام دين الناس جميعا ، وأن المسلم أيا كان جنسه يحس بأن الإسلام دينه ، يشفى اتجاهاته الروحية ، وينير له السبيل ، ويهديه لما فيه خير الدنيا والآخرة ، ولا يحس مسلم أيا كانت جنسيته أنه دخيل على جماعة المسلمين أو أن الإسلام مستورد إليه ، فالمسئولية تجاه نشر الإسلام والدعوة إليه يشترك فيها العربى وغير العربى ، وقد قام العرب بنصيبهم من المسئولية دون إهمال أو تقصير ، وقام غير العرب بنصيبهم كذلك دون إهمال أو تقصير ، وسنرى فيما يلى صورا من نشاط للمسلمين غير العرب لنشر الإسلام داخل إفريقية .

ولعل أقدم الهجرات التى قام بها مسلمون غير عرب، هى تلك الهجرة الفارسية التى قدمت من شيراز فى القرن العاشر الميلادى، وكانت بزعامة
٥ حسن بن على ، أو على بن حسن على اختلاف فى الروايات ، ويروى أن هذا الزعيم كان ابن سلطان شيراز ، ولكن أمه كانت حبشية ، فجفاه إخوته لذلك ، فقرر أن ينتقل إلى رض السود ، فركب مجموعة من السفن ومعه أهله وأتباعه ، ورست هذه السفن فى أماكن متعددة على الشاطئ الشرقى لإفريقية ، فرست إحداها فى ممباسا والثانية فى بمبا ، والثالثة فى مكان أنشأ فيه هؤلاء المهاجرون مدينة كلوا . . . . وكان الإسلام قد عرف فى هذه البقاع قبل ذلك ولكن هؤلاء المهاجرين زادوا نشره واختلطوا بالسكان، حتى أنهم لم يتمسكوا باتجاهاتهم الشيعية ، واندمجوا فى مذهب الشافعى الذى كان سائدا قبل حضورهم ، وبمرور الوقت أصبح لكلوا سيادة على مدن الساحل .

ويروى محي الدين الزنزبارى الذى لخص كتاب السلوى فى تاريخ

كلوا خبر هؤلاء الوافدين ، فيذكر أنه وصل إلى كلوة سفينة فيها أناس يزعمون أنهم من بلاد شيراز من أرض العجم ، وقيل إن هؤلاء جاءوا على سبعة مراكب نزلت فى مناطق متقاربة بالساحل منها كلوة وهنزوان ، وأن رؤساء المراكب الستة إخوة وصاحب المركب الذى دخل هنزوان هو أبوهم ، وكان هؤلاء فارين بأنفسهم[١] . من مؤامرات حسدهم ، وهناك رواية أخرى أن الفارين من شيراز كانوا جماعة من الشيعة هربت من وجه طغرل بك السلجوقى الذى فتح شيراز سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، وعلى هذا يكون تأسيس سلطانهم على الساحل الإفريقى يعود للقرن الحادى عشر ، لا للقرن العاشر كما يرى الرأى الأول .

وعلى كل حال فقد ازدهرت إمارة كلوا حوالى ذلك التاريخ ، وسرعان ما أصبحت أكثر هذه الأماكن رقيا وحضارة ، وتوطدت صلتها بزنجبار ، وأنشئ به مسجد وأبنية ظهر فيها الطابع الشيرازى الفارسى[٢].

وانتشر الإسلام فى جزيرة مدغشقر ، ويعزى انتشاره إلى مهاجرين من جزر الملايو فى حوالى القرن الخامس عشر[٣]

وعندما كان الاستعمار الإنجليزى جاثما على الهند شجع نشاط المذاهب المختلفة التى تنتمى للمسلمين وكان بذلك يقصد التفرقة بين المسلمين بل جعل من بعض الانحرافات مذاهب دافع عنها وبالتالى دافعت عنه ، وطال عمر المستعمر فى ظل هذه الخلافات ، والمهم هنا أن الإنجليز وجدوا أن المناطق الإسلامية بإفريقية أكثر نظاما وأسرع استجابة للقوانين ، ولكن الإنجليز بطبيعة الحال لا يحبون الإسلام ويخافونه ، لأنهم لا يريدونه وحدة قد تتجه ضدهم فتقوض

---

(١) السلوى فى تاريخ كلوا : مخطوط نشر فى J.R.A.S. سنة ١٨٩٥ ص ٤١١ .

(٢) المخطوط السابق ص ٤١٧ — ٤١٨ .

(٣) جبريين قراند : المسلمون فى مدغشقر .

حياتهم : ومن أجل هذا أدخل المستعمرون إلى إفريقية أفواجاً من المهاجرين الذين يتبعون المذاهب التي رباها الاستعمار فى الهند ، وعلى هذا حفلت المستعمرات الإنجليزية بجماعات من الإسماعيلية والأحمدية ، وراح هؤلاء وأولئك يدعون للإسلام كما يرونه ، فكان لهم نشاط واسع فى المستعمرات الإنجليزية بإفريقية الشرقية والجنوبية والوسطى كلل بنجاح كبير ، ولكن النتيجة التى لم يتوقعها الاستعمار كانت انتشار الإسلام فى هذه الربوع دون انحرافات تذكر ، لأن إفريقية — كما قلنا من قبل — لم تكن أرضا خصبة للخلافات والفرق والمذاهب ، وسيكمل انقشاع بقايا الانحرافات مع تطور الفكر عند هذه الشعوب ، ومع عمق صلتهم بالمراكز الإسلامية والحضارة الإسلامية .

وإذا تركنا قليلا نطاق المنطقة التى نتحدث عنها وذهبنا إلى جنوبى إفريقية ، وجدنا الإسلام منتشرا هناك عن طريق جماعات من أهل الملايو وإندونيسيا ومن سيلان وشبه القارة الهندية ، وتلك أيضاً حسنة غير مقصودة للاستعمار ، فقد نفى بجنوبى إفريقية بعض العناصر التى ثارت عليه فى البلاد السابقة، أوجاءبهم لينتفع بنشاطهم الاقتصادى وهو يستغل هذه المنطقة، أو هاجر هؤلاء بعد أن تعرّفوا على جنوبى إفريقية بواسطة الاستعمار الذى كان صاحب النفوذ فى بلادهم وفى هذا الجنوب ، ولكن هؤلاء وأولئك لم ينسوا الإسلام فى مقرهم الجديد ، وكأنهم كانوا دعاة رحلوا ليحملوا للناس دعوة الله ، فما إن حطت رحالهم فى جنوبى إفريقية حتى انطلقوا يدعون للإسلام ، واستجاب لهم الكثيرون ، وتألف من المهاجرين ومن الذين استجابوا لهم بالجنوب وحدةٌ إسلامية واحدة متناسيةٌ الوطن الأصلى الجنس واللون ، وهى الآن جالية يُحسب حسابها فى هذه البقاع .

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

بواسطة التجار

ينبغى فى مطلع هذا الحديث أن نوضح أن المقصود بالتجار هنا ، التجار غير المستوطنين فى هذا القطاع الذى نتحدث عنه ، أى التجار الذين يفدون بقصد التجارة ، ثم يعودون لمواطنهم الأصلية فى شمالى القارة أو خارجها ، أما التجار الذين هاجروا لهذه المنطقة واستوطنوها فقد شملهم حديثنا السابق عن نشاط الهجرات العربية وغير العربية وأثرها فى خدمة الإسلام ونشره ، لأن نشاط المهاجير يرجّحُ نشاطَ التاجر .

وكانت هناك بإفريقية مسالك عرفها التجار منذ أمد بعيد ؛ وكانت هذه المسالك تربط بين شمال الصحراء وجنوبها ، أو تصل بين شرقى القارة ووسطها ، أو بين الغرب والوسط ، وقد سار الرحالة العرب الذين تحدثنا عنهم بالباب الأول فى هذه المسالك ، ووصفوها أدق وصف ، وبينوا المراكز التجارية الكبرى التى تقع عليها ، والمراحل المختلفة بين كل مركز تجارى وآخر ، ولذلك سُمِّى كثير من كتب هؤلاء الرحالة « المسالك والممالك » وإذا تصفحنا الجزء الذى بين أيدينا من « المسالك والممالك » لأبى عبد الله البكرى وهو الخاص ببلاد إفريقية والمغرب وجدنا تفاصيل دقيقة تهدى السارى وترشد السالك ، وفيما يلى بعض عناوين أبحاثه :

...

- الطريق من سجلماسة إلى درعة ص ١٥٢
- الطريق من تامدنت إلى أودغست ص ١٥٦
- الطريق من وادى درعة إلى الصحراء فبلاد السودان ص ١٦٣
- بلاد السودان ، ومدنها الشهيرة ، واتصال بعضهابيعض ، والمسافات بينها ص ١٧٢

ويصف البكرى هذه الطرق وصفا دقيقا مبيّناً عددَ المراحل بها ، وذاكرا أهم ما يقع عليها من مدن وأسواق ، وأهم ما يُعرَض بالأسواق من سلع[1] .

ويسير ابن خرداذبة[2] على هذا المنوال ولكنه يكثر البحث والدراسة حول المسالك والممالك ببلاد المشرق ويجتزئ الحديث عن إفريقية ؛ ومن الطرق التي وصفها بإفريقية طريقان هما :

- الطريق من الفسطاط إلى المغرب ص ٨٤
- الطريق من برقة إلى المغرب ص ٨٥

ويذكر قدامة بن جعفر[3] وصفا مفصلا للطريق من الفسطاط إلى برقة وإفريقية والمغرب .

ويورد الإصطخرى تفاصيل دقيقة عن مراحل المسافات من بلد إلى بلد بإفريقية[4]

ويتحدث الدكتور شعيرة عن أهم طرق القوافل المغربية ذاكرا أنها لم تكد تتغير عما كانت عليه قديما ، وأنها لا تزال قائمة بين المغرب الشمالى وبين السنغال والنيجر وأهمها :

---

(١) انظر ص ١٥٢ و ١٥٥ كنموذج للأسواق والسلع .

(٢) المسالك والممالك .

(٣) نبذه من كتاب الخراج طبعت فى مجلد واحد بعد المسالك والممالك لابن خرداذبة ، ووصف هذا الطريق يقع فى صفحة ٢٢٠ وما بعدها . (٤) المسالك والممالك ص ٣٧ .

١ – الطريق الذى يبدأ من أغادير الواقعة على شاطئ الأطلسى عند مصب نهر السوس ، ويسير جنوبا إلى عاصمة موريتانيا (نواكشوت) ، ثم يستمر فى سيره حتى يصل إلى مصب السنغال .

٢ – طريق مالى وغانة ، وهو الطريق الأوسط الممتد من سجلماسة ثم ذرعة إلى أودغشت ثم النيجر ؛

٣ – طريق الصحراء من أرض السودان إلى جبل نفوسة وطرابلس(١)

ويوضح الأستاذ أحمدعطيةالله أن الإسلام سلك مع التجار إلى غربى إفريقية عدة طرق من ، أهمها الطريق الذى يبدأ من فاس أو تلمسان إلى سجلماسة فأدرار إلى تمبكتو ، والطريق من تلمسان إلى مكة الجديدة ، وطريق القيروان أو طرابلس إلى غدامس فتمبكتو . كما سلك الإسلام مع التجار إلى السودان الأوسط وبحيرة تشاد عـــدة طرق أهمها الطريق من المهدية وطرابلس إلى مرزوق فكوكا ، والطريق من طبرق إلى وادای مخترقا أوجيلة والكفرة ، والطريق من القاهرة إلى دارفور فكوكا ، وهذا جعل السودان الأوسط يتأثر بموجتين ؛ إحداهما قدمت إليه عن طريق تونس وطرابلس والثانية من وادى النيل(٢) .

وعلى هذه الطرق أو المسالك قامت مدن تجارية لعبت دورا مهما فى خدمة الإسلام ، وهذا يدل على صلة انتشار الإسلام بالتجارة ، فإذا برزت مدينة تجارية يؤمها البائع والمشترى ، سرعان ما تصبح مركزا ثقافيا يؤمها المعلم والمريد ، حتى أصبح من الشائع أن مراكز الاحتكاك تتبودلت فيها السلع والأفكار ، وقد تغلب الجانب الاقتصادى على بعض المراكز مثل جنى ، وتغلب جانب العلم على مراكز أخرى مثل كانو ، واشتهرت تمبكتو بالأمرين جميعا على حد سواء تقريبا ، ويقول Basil Davidson(٣) . إن

(١) دكتور محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون وتاريخهم السياسى ص١٦ – ٢٢ بإيجاز

(٢) القاموس الإسلامى جـ ٣ ص ٥٥٢ .

(٣) The Lost Cities of Africa p. 90

تمبكتو وجنى وولاتة وجاو وأجاديس كانت فى السودان تمثل ميلانو ونورمبرج بالعصور الوسطى ، كانت غنية وقوية ذات نفوذ تفرضه على المناطق المجاورة ، وكانت ترحب بالقوافل التى تأتى لها من الشمال عبر الصحراء ، تحمل الخيل والسيوف والأقمشة ، والسلع الصغيرة ، وتحمل الملح من مناجم الصحراء الكبرى ، وكانت القوافل تعود بالذهب والعبيد والأخشاب ومنتجات المناطق الاستوائية التى كانت تتجمع فى بلدة بيجو التى كانت مركزاً لتجميع الصادرات الاستوائية ، وإرسالها إلى جنى ومنها إلى الشمال[1] وفيما يلى كلمة قصيرة عن أهم المراكز التجارية التى أدت دوراً ثقافياً واسعاً .

تمبكتو :

مدينة تُمبُكتو تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ، بالمنطقة المعروفة بمنحنى النيجر ، عند دوران قوسه الشمالى ، وقد أسسها الطوارق (من البربر) فى القرن الخامس من الهجرة ، فكانوا ينزلون بها شهور الصيف ، وفى الخريف يرتحلون ، ومن أسباب اختيارهم لهذا المكان أن به كثيرا من الآبار ذات المياه العذبة ، كما تصل إليه قنوات متفرعة من نهر النيجر ، وعاماً بعد عام استقر بعض الطوارق فى هذا الموضع ، فظهرت هذه المدينة سنة ١٠٨٧ م وكان ذلك فى عهد المرابطين[2] .

وتذكر الروايات أن « تمبكتو » اسم امرأة عجوز كانت تسكن هذا المكان قبل إنشاء المدينة ، وكان الرحالة ينزلون حول بيتها فتساعدهم ويساعدونها ، وتحرس لهم بعض متاعهم ، فلما أنشئت المدينة كان اسم المرأة قد أصبح علماً على المكان فسميت المدينة باسمها[3] .

واستولى الصنغى على تمبكتو من البربر بعد تشييدها بوقت ليس بالطويل ، وتحت سلطان مملكة صنغى علا شأن تمبكتو وذاع صيتها ، ولما

---

(١) انظر كتاب المسالك والممالك للإصطخرى ص ٣٤ و ٣٧ .

(٢) السعدى : تاريخ السودان ص ٢٠ — ٢١ .

(٣) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا : ص ١٥٣

تغلب منسى موسى سلطان مالى (١٣٠٧ - ١٣٣٢ م) على مملكة صنغى امتد نفوذه إلى تمبكتو أيضا ، وقد حظيت تمبكتو بعناية منسى موسى الذى استقدم مهندساً معمارياً عربيامن أسبانيا الإسلامية ، هو أبو إسحاق الساحلى[١]. فشيد له فى تمبكتو قصراً عظيماً ومسجداً ضخماً .

وقد زار ابن بطوطة مدينة تمبكتو سنة ١٣٥٣ وذكر أنها تبعد عن النيل (يقصد النيجر) بأربعة أميال ، وأن سكانها من قبيلة مسوفة أهل اللثام[٢]

وعندما ضعفت مالى عاد الطوارق فاستولوا على تمبكتو سنة ١٤٣٣ وعينوا عليها حاكما منهم .

وفى سنة ١٤٦٨ عادت تمبكتو إلى أيدى الصنغى أيام سنى على ، وفى أيام أسكيا الحاج محمد وصلت ذروة مجدها التجارى والثقافى ، ثم زادت بهجة وبهاء فى عهد أسكيا داود .

وفى سنة ١٥٩٤ استولى المراكشيون على مدينة تمبكتو ضمن ما استولوا عليه من أملاك صنغى ، وأمر ملك مراكش جنوده بإرسال علماء تمبكتو وما بها من كتب عبر الصحراء إلى مراكش ، واضمحلت تمبكتو بعد ذلك، ثم تداولتها سلطات مختلفة سنتحدث عنها عقب حديثنا عن نهاية صنغى ، ووقعت أخيرا فى أيدى الفرنسيين سنة ١٨٩٤ ، وهى الآن إحدى مدن جمهورية مالى .

وقد سبق أن قلنا إن المدن التى كانت أسواقاً عامة ومراكز تجارية كبيرة لعبت فى نفس الوقت دوراً ثقافياً عظيماً ، لشدة ارتباط الثقافة الإسلامية بالمراكز التجارية فى إفريقية . وكانت تمبكتو قمة فى المجالين التجارى والثقافى ، وسنتحدث عنها هنا من جانبها الاقتصادى تاركين الجانب الثقافى لنتحدث عنه فيما بعد عند حديثنا عن دور المراكز الداخلية فى نشر الإسلام جنوب الصحراء .

ومركز تمبكتو التجارى كان واضحاً منذ نشأتها ، إذ أنها تقع على ملتقى

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠١ .

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٢ ص ٢٤٧ .

طرق القوافل البرية عبر الصحراء ، والقوافل النهرية التى تسير بنهر النيجر ، وأهم الطرق البرية التى كانت تتصل بتمبكتو أربعة هى :

١ ــ الطريق من مصر ماراً بكانم إلى تمبكتو .

٢ ــ الطريق من تونس ماراً بهجار إلى تمبكتو .

٣ ــ الطريق من المغرب الأقصى ماراً بسجلماسة وتوات إلى تمبكتو .

٤ ــ الطريق من تعازة ماراً بولاتة إلى تمبكتو .

وفى القرن الثانى عشر ذاع صيت تمبكتو كمركز لتجارة الملح والذهب بعد أن تحول لها النشاط التجارى الذى كانت ولاتة تقوم به ، (وسنتكلم عن و نة فيما بعد) وكان الملح يأتى تمبكتو من تعازة فى الشمال حيث كان يوجد الملح فى شكل ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض ، ولشدة ضخامتها لم يكن الجمل يحمل منها إلا لوحين ، وكانت البيوت والمساجد تبنى بهذه الألواح ، وكان ثمن الملح يختلف باختلاف المكان الذى يباع فيه ، فهو رخيص فى تعازة ، وكلما بعد عنها ارتفع ثمنه حتى يصبح الحمل بأربعين مثقالا من الذهب بمدينة مالى(١) .

وقد أعجب الحسن بن محمد الوزان Leo Africanis بتمبكتو ، وقال إنها كانت عامرة بحوانيت الصناع والتجار ، ولا سيما الحوانيت التى تباع بها المنسوجات القطنية والأقمشة المصنوعة فى أوربا التى يحملها تجار المغرب(٢) ، واشتهرت تمبكتو كذلك بالتجارة فى ريش النعام والعاج والذهب .

وذكر السعدى أن تمبكتو كانت مأوى العلماء والعابدين ، وملتقى التجار

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢) Tome II p. 38 note 307 ، نقلا عن انتشار الإسلام فى إفريقية للدكتور حسن إبراهيم ص ٢٢٠ .

والسيار الذين جعلوها خزانة لمتاعهم ، وزروعهم ، وكان يأتيها الناس من كل جهة وكل مكان حتى صارت سوقاً للتجارة ، وأمّها ذوو الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد ، فكان يفد لها تجار مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وفاس وسوس وغيرها[١] ، وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية[٢] .

ومما يدل على مكانة التجار بها أن حاكمها عمر بن محمد النَّدَّى زوج ابنتيه من أخوين من تجار تمبكتو عُرِفا بثرائهما العريض[٣] .

ولاتة :

تقع ولاتة إلى الشمال الغربي من تمبكتو ، ومعناها الأرض المرتفعة ، وكان أهل صنغى يسمونها « بيرو » ، وهي الآن إحدى مدن جمهورية موريتانيا الإسلامية ؛ وكانت مركزاً تجارياً وثقافياً عظيماً ، وإليها كان يفد التجار وأصحاب الأموال من الشمال والشمال الشرقى من كل قبيلة ومن كل بلد ، من أهل مصر وفزان وغدامس ، وتوات ودرعة وفاس وسوس وغيرها ، ثم تحوّل النشاط عنها قليلا قليلاً إلى تمبكتو ، فكانت عمارة تمبكتو خراب بيرو[٤] .

ولكن يبدو أن خراب ولاتة كان متأخراً ، فقد زارها ابن بطوطة فى مطلع النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى (حوالى سنة ١٣٥٢) وهو يسميها « أيوالاتن » فيقول وصلنا إلى مدينة « أيو الاتن » فى غرة شهر ربيع الأول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة ، وهى أول عمالة

---

(١) تاريخ السودان : ص ٢١ . (٢) ابن بطوطة . تحفة النظار جـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) الحسن الوزان : Tome I p. 46 نقلا عن انتشار الإسلام بإفريقية .

(٤) السعدى : تاريخ السودان ص ٢١ .

السودان ، ونائب السلطان بها اسمه حسين ، ولقبه فَرْبا « أى النائب » ، ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رحبة وتكفّل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الفَرْبا . . . . . . ، وكانت إقامتى فى « أيو الأنن » نحو خمسين يوماً وأكرمنى أهلها ، وأضافونى ، ومنهم القاضى محمد بن عبد الله وأخوه الفقيه المدرس يحي ، وهى بلدة شديدة الحر ، وثياب أهلها حسان مصرية ، وأكثر السكان بها من مسوفة ، ولنسائها الجمال الفائق ، وهن أعظم شأناً من الرجال ، وينسب الواحد منهم إلى أمه لا إلى أبيه ، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه .

وكما قلنا من قبل كان نشاط ولاته الاقتصادى يصحبه نشاط ثقافى يشير له ابن بطوطه بقوله : إن سكان ولاته محافظون على الصلوات ، وعلى تعلم الفقه وحفظ القرآن(١) . كما كثرت بها حلقات العلم والدروس ، ولكن يبدو أن الجانب الاقتصادى كان بولاته أرجح من الجانب الثقافى .

جنى :

مدينة جنى تُعَدّ منافسة لمدينة تمبكتو فى نشاطها التجارى والثقافى ، وإذا كانت لم تصل إلى مستواها فقد اقتربت منه . وسنورد فيما يلى لمحة عن تاريخها ، ثم نتحدث هنا عن نشاطها التجارى ، ونترك الحديث عن جانبها الثقافى لنتحدث عنه عند الكلام عن المراكز الداخلية التى خدمت الإسلام وعملت على نشره .

تقع مدينة جنى إلى الجنوب الغربى من مدينة تمبكتو ، على مرحلة من الضفة اليسرى لنهر « بَنِـى » أحد روابط النيجر ، وهى محاطة بسور عظيم به ثمانى بوابات ، وهى كثيرة الأشجار حتى أنك إذا كنت بعيداً عنها

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار جـ ٢ ص ٢٣٣ .

ونظرت لها لا تحسبها إلا غابة من كثرة الأشجار فيها(١) ، ولعل هذا هو الذى جذب لها قوافل التجار ، فاتجهت لها الطرق التجارية التى كانت تسير إلى تمبكتو ، وتختلف جنى عن تمبكتو فى نقطة مهمة هى أن تمبكتو ولدت مسلمة ، ولكن جنى ابتدأت كما يقول السعدى فى الكفر أواسط القرن الثانى من الهجرة النبوية ، وعقب ذلك أصبحت ملتقى للقوافل التجارية التى تسير بين شمال الصحراء وجنوبها ، ثم أصبحت مركزاً تجارياً مهماً ، وهذا جعل التجار يحملون لها الإسلام مع ما حملوا من سلع ، فأخذ الإسلام يدب فيها وينتشر رويداً رويداً ، وأقام بها كثير من العلماء ، يعلمون الإسلام وينشرون مبادئه ، وعند تمام القرن السادس أحس ملكها الوثنى (كنبر) أن الإسلام يحيط به من كل جانب ، كما أحس بما لهذا الدين من مبادئ راقية وفكر جليل ، فعزم على اعتناقه ، ويروى السعدى خبر إسلامه فيقول : لما عزم كنبر على الدخول فى الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا فى أرض المدينة فحضر منهم أربعة آلاف ومائتان ، فأسلم على أيديهم ، وطلب من رعيته الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد أن يدخلوا الإسلام ، ثم هدم الملك أحد قصوره ، وحوله مسجدا لله تعالى وهو المسجد الجامع(٢) .

وظلت المدينة مستقلة حتى عهد « سنى على » الذى استولى على تمبكتو ثم اتجه نحو جنى ليستولى عليها أيضاً ، وقد حاصر المدينة فترة طويلة ، يروى السعدى عن أهلها أن هذه الفترة امتدت إلى سبع سنوات ، وكانوا يتقاتلون ، ويتوقفون عن القتال فترة طويلة مكتفين بالحصار رجاء أن يستسلم أهلها لنقص فى الزاد ، أو يأس فى السلامة ، وقد ظل الحال على القتال تارة والاكتفاء بالحصار تارة أخرى ، حتى وقعت المجاعة فى أهلها

---

(١) السعدى : تاريخ السودان ص ١٢ .
(٢) تاريخ السودان ص ١٢ — ١٣ .

ونقص قوتهم ، ولكنهم ظلوا يكابرون ويحتملون ، وقد أوشك « سنى على » أن ييأس ويعود ، لولا أن أحد كبراء جيش چنى خان بلاده ، وبعث إلى سنى على بأخبار المجاعة ، وبأن چنى على وشك التسليم ، وبهذا صبر سنى على ، ثم جرت مفاوضات بين سلطان چنى وبين سنى على ، انتهت بالاتفاق على أن تصبح چنى تابعة لسنى على ولمملكة صنغى ، وقد كافأ سنى على أهل چنى على صمودهم ، وعلى بطولاتهم ، فعامل المدينة معاملة حسنة ، مع ما عُرِف عنه من خشونة وقسوة .

وفى عهد أسكيا محمد تقدمت چنى تقدماً عظيماً فى المجالين التجارى والثقافى ، وفى عهد أسكيا إسحق كانت المدينة من أعظم مدن السودان ، وقد زارها أسكيا إسحق ، وعقد فى مسجدها الكبير اجتماعاً حافلا لعلمائها وكبار الشأن فيها(١) .

وقد استولت مراكش على چنى مع ما استولت عليه من مدن صنغى ، ولما كان الزحف المراكشى لم يعمر طويلاً ، فقد خضعت چنى بعد ذلك للقبائل السودانية وتداولتها الأيدى حتى استولى عليها الفرنسيون فى أواخر القرن التاسع عشر .

ونشاط چنى التجارى كان بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر ، ويقرر السعدى(٢) أن مدينة چنى كانت مدينة عظيمة ميمونة مباركة ، ذات سعة وبركة ، جعل الله ذلك فى أرضها خلقاً وجبلة ، وطبيعة أهلها التراحم ، ولكن النشاط التجارى جعل المنافسة على الدنيا صفة واضحة من أخلاقهم ، ومدينة چنى سوق عظيم من أسواق المسلمين ، وفيها يلتقى أرباب الملح من تغازة ، وأرباب الذهب من بيط ، وكلا المعدنين المباركين ، ما كان

---

(٢) محمود كعت : تاريخ الفتاش ص ٨٨ .

(٢) السعدى : تاريخ السودان ص ١١ – ١٢ .

مثلهما فى الدنيا كلها ، فوجد الناس البركة فى التجارة فيها وجمعوا من الأموال ما لا يحصيه إلا الله ، ويأتى الرفاق إلى مدينة جنى من جميع الآفاق .

وهكذا كانت مدينة جنى مركزاً تجارياً عظيماً ، خدم التجارة والمال من جانب ، وجذب العلماء والمفكرين من جانب آخر ، وسنوضح مكانة جنى من العلم والعلماء فيما بعد .

وبعد أن تحدثنا عن الطرق التجارية ومراكز التجارة المهمة نعود فنتحدث عن الشعوب والقبائل التى نشرت الإسلام بإفريقية خلال التجارة ، وكان هؤلاء من البربر أولا ثم من العرب ، وبعد هذين الجنسين يجىء التجار من قبائل الهوسا والفولانى ، ثم تجار الهند وفارس .

وقد كانت هناك تجارة قبل الإسلام يقوم بها البربر عبر الصحراء ، وكذلك عرّف العرب — كما سنرى — التجارة مع إفريقية منذ أمد بعيد ، ولما ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلما ، زاد النشاط التجارى بين شمال الصحراء وجنوبها كما زاد النشاط التجارى الذى كان يقوم به العرب : فقد عنى المسلمون بالطرق والأمن ، وحددوا المكاييل والموازين والمقاييس السليمة ، وأشاع التاجر المسلم حوله جوّا من الثقة ، فلقى ترحابا أنّى حلّ ؛ وأصبح بيته منارة للفكر الإسلامى بما يحمله من مدنية وحضارة ، واختار مساعديه بالجنوب من خيرة الناس ، فهيأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار والذيوع مع التجارة والتجار .

وكان دور التجار البربر واسعا للغاية فى هذا المجال ، فقد كانت هناك حاصلات فى الشمال يحتاجها سكان الجنوب وفى مقدمتها الملح والمنسوجات

والحلى ، كما كانت هناك حاصلات سودانية يحتاجها سكان الشمال كالذهب والأخشاب وجلود الحيوانات ، ومن أجل هذا قامت حركة تجارية واسعة ، كان التجار المغاربة يديرونها بنشاط واضح ، فكانوا يرحلون إلى الجنوب بسلعهم ، ويعودون بالسلع الاستوائية لبلاد الشمال وإلى أوربا عبر البحر المتوسط(١) .

وكان التجار العرب يعرفون التجارة فى قلب إفريقية قبل الإسلام بزمن طويل ، فلما جاء الإسلام هيأ لهم فرصا أوسع لمزيد من النشاط التجارى ، بفضل ما خلق من التلاؤم ووحدة العقيدة ، وبفضل ما أشاع من أمن وما مهّد من طرق .

وقد برع العرب فى التجارة قبل الإسلام بأمد بعيد حتى قيل : إن كل عربى تاجر . وكانت بلاد اليمن ملتقى الرحلات البحرية التجارية التى تأتى من الهند ومن إندونيسيا والصين حيث تلتقى بالرحلات البرية وقوافل الجمال التى تسير بين اليمن وبين الشام وبلاد الشمال ، ويقرر المؤرخون اليونان أن اليمن كان لها أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانى اليمن وبين موانى الهند والصين وسومطرة والصومال ، بحيث كانت التجارة شبه احتكار فى يدها(٢) ، ويذكر فيليب حتى(٣) أن تجار اليمن كانوا من الذكاء لدرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم ، فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التى كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها ، حتى ظن بعض مؤرخى اليونان والرومان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن .

---

(١) Fage : West Africa pp. 9 — 10

(٢) Periplus of the Erythraean Sea

(٣) History of the Arabs Vol 1 p. 54

وتجار اليمن هم الذين انتشروا فى أنحاء الجزيرة العربية بعد وقوع اليمن فريسة للاستعمار الحبشى فالفارسى ، وكانت لهم من اليمن صلات تجارية عبر البحر الأحمر إلى إفريقية ، وبعد هجرتهم إلى الشمال استمروا فى هذه الصلات ، وزادوها اهتماما فى ظل الإسلام .

وبالإضافة إلى التجار البربر والعرب كان هناك نشاط تجارى واسع بهذه المناطق يزاوله تجار من الفولانى والهوسا ، ومن بلاد التكرور ، وكل هذه التجارات تمت فى ظل الإسلام ، فخدمها الإسلام وخدمته ، حتى إن Trimingham يقول إن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير(١)

ولبيان أثر التجار فى خدمة الإسلام ونشره بإفريقية ينبغى أن نسير مع قافلة تجارية للمسلمين تجتاز الحدود إلى بلاد الزنوج خلف الصحراء ، فالقافلة تتكون من عشرات الرجال معهم البضائع المتنوعة التى تحملها الجمال والبغال ، وبعض الرجال لهم خبرة بالتجارة ، وبعضهم يقومون بحراسة القافلة ، والبعض للخدمة ، وهم جميعا يمتازون بصحة جيدة ، ويرتدون ملابس نظيفة ، وكثيرون منهم يرتدون ملابس فخمة تلفت الأنظار ، وطبيعة التاجر أن يكون حسن التأتّى ، فيه جاذبية يستطيع بها أن يروّج تجارته ، وترتسم ابتسامة على شفتيه بسهولة عندما يبيع أو يشترى ، وهو يحاول أن يكسب الزبون وأن يجعله يحس بأنه صديقه الوفى .

وتحط القافلة أحمالها فى مركز من المراكز التجارية ، ويزاول التجار البيع والشراء للأهالى ، ولكن التجارة فى ظل الإسلام أصبحت تتّخذ من الشرف والثقة دعامة لها ، ولا غرو فالتاجر المسلم لا يستطيع أن ينسى وهو يعامل الآخرين قوله تعالى : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوْفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون

---

(١) Trimingham : A History of Islam in West Africa p. 31

ليوم عظيم[1] » ، وهذا وثّق العلاقة بين التاجر المسلم وبين المشترى ، وخلق لونا من الجاذبية والتقدير ، وفى هذا الجو يتم تبادل السلع وتبادل الأفكار ، ثم إن المركز التجارى ازدان بالأضواء والنظافة ، ولعب ثراءُ التجار دورا كبيرا ، إذ ساعد التاجر على بناء منزل جميل ، وعلى الظهور بمظهر الكرم والسخاء ، وكل هذا يجعل بيت الغنى موئلا للسادة والرؤساء ، وملاذا للمحتاجين ، ومكانا يتطلع له الأذكياء ، ومحبو الاستطلاع ، والطموحون .

وبعد أيام ترحل القافلة إلى مركز جديد تاركة بعض رجالها وبعض سلعها فى المركز السابق ، وفى المركز الجديد تتم عملية اتصال تجارى على هذا النمط ، وهكذا دواليك ، والتجار المسلمون يصلُّون ، وتضمهم صفوف جميلة فى صلاة الجمعة والجماعة ، وهم لا يشربون الخمر ، ولا يأتون المنكر ، ومستواهم الخلقى غالبا طيب للغاية ، وهذه الصفات كثيرا ما جذبت الأهلين إلى الانضمام إلى دين هذه الجماعة ، والتجار المسلمون المقيمون فى المراكز أو المتنقلون من مركز إلى مركز يتزوجون من الأهالى ، وهم فى الغالب يختارون زوجاتهم من بيوت رؤساء القبائل وأصحاب النفوذ ، وتصبح دورهم منارات ينتشر منها الإسلام ، وكثيرا ما يدخل رؤساء القبائل فى دين أصهارهم فتتبعهم باقى القبيلة ، وقد لعب تعدد الزوجات دورا مهما فى خدمة الإسلام ، فإن تعدد الزوجات كان معروفا فى هذه البقاع دون حد ودون شروط ، فجعله الإسلام مشروطا بالعدالة ، ولم يسمح بأن يتجاوز عدد الزوجات أربعا ، وكانت الضرورة تقضى فى هذه الظروف بتعدد الزوجات ، فالتاجر ترك زوجه فى وطنه ، ويصعب عليه أن يعيش عدة شهور دون زوجة ، ومن هنا يتخذ له زوجة فى المكان الذى يتّجر فيه ، ويصبح بيته مركزا إسلاميا يلعب درا كبيرا فى خدمة الإسلام .

---

(١) سورة المطففين : الآيات من ١ — ٥

وقليل من التجار المسلمين من يجيد الفقه والفكر الإسلامى ، وليس منهم من يستطيع التفرغ لذلك ، ولذلك نجد الكثيرين من هؤلاء يستقدمون الفقهاء والعلماء لهذه المناطق عندما يكثر عدد المسلمين بها ليتولى هؤلاء العلماء تعليم الناس أمور دينهم وشرح حضارته لهم ، وكان بعضهم يشيد المدارس ويبنى المساجد ، وكثيرا ما كانوا يختارون أفذاذ الطلاب من الوطنيين لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة فى مصر أو الشمال الإفريقى ليتلقوا مزيدا من العلم ، وليعودوا قادة للفكر فى هذه البقاع ، وعندما كثر إقبال الإفريقيين على السفر للتعلم فى المعاهد العلمية الشهيرة ، قام كثير من التجار ببناء بيوت لهم بالشمال يعيشون بها طيلة التحاقهم بهذه المعاهد ، كما قدم هؤلاء التجار ما احتاجه هؤلاء الطلاب من نفقات ومصروفات .

وهذا الوصف الموجز لنشاط التجار يوضح كيف أن المراكز التجارية بإفريقية أصبحت مسلمة قبل سواها من المدن والأنحاء .

والآن بعد هذا الوصف نستطيع أن نعطى بعض نماذج للنشاط التجارى الإسلامى جنوب الصحراء :

ذكر السلاوى أن تجار المغرب كانوا يجتمعون فى سجلماسة حاضرة بنى مدرار ثم يسيرون فى قوافلهم إلى غانة ، وكانوا يقطعون المسافة فى ثلاثة أشهر ذهابا وفى شهر ونصف إيابا ، وكانوا يبيعون ما معهم من الأمتعة والأثقال بالتبر(١) ، وكان انتشار الإسلام يسير مع قوافل التجار ويزدهر على طول الخطوط التجارية .

فإذا سرنا تجاه الشرق وجدنا تجارة العرب مزدهرة على الساحل الشرقى وفى قلب إفريقية عن طريق مصر أو عبر البحر الأحمر ، فقد كانت محاصيل إفريقية الوسطى والسودان الغربى وخاصة العاج ، مادة من مواد التجارة

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٩٩ — ١٠٠ .

التي اهتمت بها مصر ، وكان التجار المصريون فى عهد المماليك يقومون بدور الوسيط لنقل هذه السلع إلى تجار جنوة والبندقية حيث يبيعونها بأسعار مرتفعة تدر عليهم كثيرا من الربح ، وكان التجار المصريون يذهبون بمتاجرهم إلى بلاد كانم والتكرور[١] ، وكانت قوافل التجارة المصرية تحمل الإسلام معها وتبنى به صداقات تعتمد عليها فى حراسة تجارتها وترويجها .

واتجه التجار المصريون كذلك إلى بلاد الحبشة ، وهناك استقبلهم زعماء الحبشة خير استقبال ، ورحبوا بهم إذ وجدوهم وسيلة طيبة لشراء حاصلاتهم بأثمان مناسبة ، وكان هؤلاء التجار يقيمون فى الحبشة فى مواسم التجارة ويوطدون صلتهم بالزعماء ويعملون فى نفس الوقت على نشر الإسلام . وكانوا بذلك يحتكرون تجـارة الحبشة ، خصوصاً لأن الأحباش قوم محاربون أو زراعيون لا يعرفون التجارة ، ولا يشتغلون بها ، فتركوا هذا الميدان لتجار المسلمين فبرعوا فيه إلى أبعد الحدود ، واحتكروا هذه التجارة وركزوا الشئون الاقتصادية فى أيديهم[٢] .

ودخل الإسلام أوغنده فى النصف الأول من القرن التاسع عشر مع التجار العرب ، وقد سعى هؤلاء التجار إلى كسب ثقة الأهالى ، وعن طريق ذلك تم تحويل الكثيرين منهم إلى الإسلام ، وهم الآن يشغلون فى أوغندة مراكز هامة[٣] .

ودخل الإسلام الصومال وتنجانيقا مع التجار المسلمين من أهل عمان ، وكان لهؤلاء صلات قديمة تجارية بإفريقية ، ونشطت تجارتهم فى ظل الإسلام فى القرن التاسع والعاشر الميلاديين ، ونشطت معها الدعوة للإسلام حتى أصبح

---

(١) حامد عمار : علاقات الدول المملوكية بالدول الإفريقية (رسالة ماجستير) .

(٢) دكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ص ٥٩ .

(٣) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٨١ .

الساحل يدين كله بالإسلام تقريبا وينتشر منه الإسلام إلى بعض مسارب الداخل ، وكان تجار كردفان والسودان الشرقى يفخرون بأنهم من العرب ، ويباشرون مع التجارة الدعوة إلى الإسلام فى حماسة ظاهرة[١] .

وقد حقق بعض التجار أمجاداً عالية حتى أصبحوا يعدون من الزعماء والفاتحين ، ومن هؤلاء حميدى بن محمد بن جمعة المرجبى الذى ولد فى زنجبار سنة ١٨٣٢ وهو من أصل عمانى ، وكان كأبيه يشتغل بالتجارة وبخاصة بتجارة الملح ، فحقق نجاحا كبيراً فى تجارته ، وشجعه نجاحه على التوغل بعيداً عن الشريط الساحلى حتى وصلت قوافله التجارية إلى ساحل بحيرة تنجانيقا حيث التقى عام ١٨٦٧ بالرحالة الإنجليزى لفنجستون وأنقذ حياته من الجوع والمرض ، كما ساعد فى عام ١٨٧٢ الرحالة استانلى فى البحث عن لفنجستون بعد أن انقطعت أخباره . ومنذ هذا التاريخ أخذت الرحلات المرجبى تتجه صوب الكونغو حتى وصل إلى نهر لوالابا ، وأقام فى خلال ذلك عدة محطات تجارية عربية ومراكز عسكرية حصينة ، فأصبح بذلك الحاكم على هذا الإقليم ولُقِّب فاتح الكونغو ، وأدخل الإسلام معه هذه البقاع ، وكان فى حركاته السياسية والعسكرية يعمل باسم برغش سلطان زنجبار . ولم يقهره إلا الاستعمار ، فقد تعاون ضده البريطانيون والبلجيكيون قبيل نهاية القرن التاسع عشر[٢] .

وهكذا لعب التجار المسلمون دورا واسعا فى خدمة الإسلام ونشره ، دوراً عاد على الإسلام بالخير ، وعاد على التجار بالنماء والبركة ، فقد امتدت تجارتهم وازدهرت فى ظل الإسلام ، وتضاعفت أرباحها فى كنفه ،

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٧ .

(٢) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى ج ١ ص ٥١٩ — ٥٢٠ .

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

بواسطة الطرق الصوفية

تزدهر الطرق الصوفية وتنمو معها حلقات الذكر أو ما يسمى «الحضرة» في البيئات البسيطة ، حيث يوجد فراغ روحي ، وحيث لا تبتلع الأعمال أوقات الناس ، في مثل هذه البيئات يوجد المتصوفة ويوجد الدراويش الذين يصفهم الخوارزمي[1] بقوله : إن الواحد منهم خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق ، لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه عوائل النائبات ، ولا يستبطئه إخوانه ، ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تُنتظر منه في الفطر صدقة ، ولا في العيد أضحية ، فهو كالمسجد يُحمل إليه ولا يحمل عليه ، ويؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه فهو إما غانم أو سالم .

وقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار في مصر وفي سواها من البلاد الإسلامية حتى مطلع هذا القرن ، وكانت أكثر ازدهاراً في الأماكن التي ينطبق عليها الوصف السابق ، أي يوجد بها فراغ روحي ولا تبتلع الأعمال فيها أوقات الناس ، فمن الطبيعي أن تزدهر الطرق الصوفية في إفريقية ، حيث بساطة الحياة وفراغ الوقت ، وحيث انطلقت القارة من الوثنية ، ومن عبادة الأنهار والأشجار والأشخاص ، وانطلقت تتطلع إلى ما يملأ فراغها الروحي ، فوجد الناس في التجمع حول الشيخ وفي الانضمام لحلقات الذكر ، ما يشبع هذا الظمأ ويسدُّ هذه الحاجة .

وهكذا جذبت الطرق الصوفية إلى الإسلام جموعاً إفريقيّة ، فقد كان الشيخ ومريدوه ينزلون على القبيلة ، ويقيمون بها حلقات الذكر ، وينشدون الأناشيد والتراتيل الدينية ، والشيخ تكسوه حالة من وقار ، والمريدون يُبرزون له أسمى الولاء والطاعة ، يلتمسون منه البركة والدعوات الصالحات ،

(١) رسائل الخوارزمي ص ٩٠ .

وطالما شاع الاعتقاد بأن للشيخ كرامات واسعة يلعب الخيال بها فيصل إلى قلب العانى وشفاء المريض وإزالة العقم . . . . . وكان الناس يتناقلون هذه الشائعات ويضيفون إليها ، فتتوافد على الشيخ جموع الراغبين فى دخول الدين والانضمام للمريدين .

وهكذا كان للطرق الصوفية مجال غير المجالات السابقة التى رأيناها مع المهاجرين والتجار ، فإذا كان التجار ينزلون المدن ، فإن رجال الطرق الصوفية يميلون للقرى والنجوع ، وإذا كان التجار يسعون للربح فرجال الطرق الصوفية لا يكترثون بالمال ولا يسعون إلا للكفاف ، ومن هنا كان المريد يلقب بالفقير ؛ وإذا كان نشاط المهاجر ونشاط التاجر يغلب أن يكون بالنهار ، فإن نشاط الطرق الصوفية يرتبط بالليل ، ولهدوء الليل سحر وجلال ، وجمهور الليل أوفر ومريدوه أكثر ، و « حضرة » الذاكرين فيها جاذبية تشد لها الحاضر وتقرّب لها البعيد ، وفى هدأة الليل تغمر أصوات الذاكرين النجعَ كله فيهرع الجميع إلى حلقة الذكر من شيب وشبان ورجال ونساء ، بل ربما انتقلوا مع الشيخ من نجع إلى نجع ، ومن قرية إلى قرية .

وقبل أن نتحدث عن الطرق الصوفية بإفريقية نذكر أنها فى الغالب حافظت على النهج الإسلامى السليم ، ولم يكن فى أصولها بدع أو خرافات ، وقد سئل مؤسس التجانية سؤالا مهما هو : أيُكذَّب عليك ؟ فقال نعم ، إذا سمعتم عنى شيئا فزنوه بميزان الشرع ، فما وافق الشرع فاعملوا به ، وما لم يوافق فهو كذب علىّ يتحتم أن تتركوه .

وأشهر الطرق الصوفية التى نشرت الإسلام بإفريقية ثلاثة هى : القادرية والتجانية والسنوسية ، وقد انتشرت هذه الطرق فى هذا القطاع الإفريقى الذى نتكلم عنه ، وكانت القادرية والتجانية أوسع نشاطاً فى النصف الغربى

من القارة والسنوسية أوسع نشاطاً فى النصف الشرقى ، وسنتكلم عن كل من هذه الطرق كلمة فيما يلى :

الطريقة القادرية :

مؤسس هذه الطريقة هو الشيخ عبد القادر الجيلانى ، من أشهر رجال الصوفية ، ويعرف بالقطب الجيلانى ، وهو أحد الأقطاب الأربعة : الرفاعى والجيلانى والبدوى والدسوقى ، وُلِد بجيلان سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٧ م) ، وترعرع بها ، وانتقل إلى بغداد سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، وهناك تتلمذ على كبار الشيوخ ، وتفقه على أبى سعيد المخرمى وأجاد الفقه والأدب ، واشتغل بالوعظ والتعليم ، ثم مال للتصوف ولجأ للخلوة ومجاهدة النفس ، وعزف عن ضجيج المدن فاتجه إلى الصحراء ، وكان له مريدون كثيرون نهجوا نهجه وساروا سيرته .

وعُرِف الجيلانى بالتسامح الدينى وحب الجار ، وإغضاء الطرف عن الغنى ، وملذات الحياة ، ومن تسامحه الدينى أنه كان إذا ذكر أهل الكتاب لم يزد عن أن يعبر عن حسرته لانحرافهم عن طريق النور ، ويدعو الله أن يهديهم سواء السبيل ، ومن حبه للجار أنه كان لا ينعم بطعام أو مال دون جيرانه ، فكان يوزع عليهم كل ما يرد إليه من الهدايا والأموال ويدعوهم إلى مشاركته طعامه كلما لذ له هذا الطعام ، وكان عزوفه عن الغنى سبباً فى أن يعيش فقيراً على الرغم من أن الملوك والسلاطين كانوا يتقربون إليه بالهدايا والأموال ، ولكنه كان يوزعها فى الحال على الحاضرين وعلى الجيران والمريدين ، وأكثر أتباع عبد القادر الجيلانى ساروا على هذا النمط من خلق أستاذهم ، وكان هـــذا هو السبب فى انتشار القادرية وكثرة أتباعها .

وتوفى الجيلانى سنة ٥٦١ هـ (١١٦٦ م) ببغداد ، وله بها ضريح ومزار

يعتبر من أهم مشاهد المدينة ، وقد كتب فى التصوف كتباً كثيرة من أهمها « فتوح الغيب » و « الفيوضات الربانية[١] » . وقد انتشرت طريقته فى العراق واليمن والصومال والهند وتركيا ومصر والمغرب وغربى إفريقية ووسطها ، وسنتتبع القادرية وهى تهدى الناس للإسلام بإفريقية .

دخلت القادرية إفريقية الغربية فى القرن الخامس عشر على يد مهاجرين كانوا يتخذون من توات Tuat مركزاً لهم ، وهى واحة فى النصف الغربى من الصحراء ، ثم انتقل هؤلاء إلى ولاته Walata فجعلوا منها أول مركز لطريقتهم ، ومنها — بعد حين — انتقلوا إلى تمبكتو .

ولم يكتف القادرية بما عرف عن الطرق الصوفيـــة من حلقات ذكر وتراتيل ، بل اتجهوا وجهات مختلفة قربتهم من الجماهير ونشرت الدعوة الإسلامية ، فكثير منهم جلسوا معلمين للصبية ، وتفقه بعضهم فى الدين فأصبحوا علماء وخطباء وكتاباً ، واتجه بعضهم إلى كتابة التمائم والتعاويذ ، أما أغنياؤهم فاتجهوا إلى الشبان يختارون أذكاهم ويرسلونهم إلى مراكز الثقافة بالشمال ليتزود هؤلاء بالعلم وليعودوا قادة بين أهليهم ، وفتح الأغنياء كذلك المدارس للطلاب ، ولمـــا جاء القرن التاسع عشر كانت السيطرة الروحية والفكرية تامة لجماعات القادرية فى أكثر نواحى إفريقية الغربية ، وعلى يد رجال القادرية تحول الدخول للإسلام من حالات فردية إلى حالات جماعية .

ومن أشهر قادة القادرية فى إفريقية سيدى أحمد البكاى ، الذى عاش فى نهاية القرن الخامس عشر ، وقد عمل على نشر دعوته فى الجزء الغربى من الصحراء الكبرى ، وتعرف طريقته بالطريقة البكائية ، وقد ازدهرت فى إفريقية حتى سنة ١٨٥٠ ، ومنهم محمد بن عبد الكريم التلمسانى ، الذى اتجه بجهوده

---

(١) انظر الاربلى : تفريج الخاطر فى مناقب الشيخ عبد القادر ، ففيه دراسة واسعة من ترجمة حياة الشيخ ومبادئ طريقته وجهوده فى نشر الإسلام .

إلى الجزء الأوسط من الصحراء وإلى بلاد الهوسا ؛ والشيخ السيد التأرازى الذى عمل على نشر القادرية فى جمبيا وغينيا البرتغالية وليبريا وساحل الذهب ، والشيخ سيدى بابا فى مطلع القرن العشرين ، وكان عالماً وأديباً واسع الفكر ، عمل على القضاء على كثير من البدع والخرافات التى تفشت بين المسلمين ، وفى التاريخ المعاصر انتهى الإشراف على القادرية إلى يد الشيخ عبد الله بن الشيخ سيدى ، ويتخذ من موريتانيا مقراً له ، وله فى الحياة السياسية دور كبير بهذه البلاد(١) .

الطريقة التيجانية :

تُنسب الطريقة التيجانية (التجانية) إلى أبى العباس أحمد بن محمد بن المختار ، وهو فقيــه مغربى وُلد بقرية عين ماضى بالجزائر عام ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) ودرس العلوم الدينية بمدينة فاس ، ثم انتقل إلى تلمسان ، وفى عام ١١٨١ هـ (١٧٦٨ م) خرج إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعند عودته إلى بلاده أمضى فترة من الزمن بالقاهرة ، وقد غلب الاتجاه التصوفى على فكره ، فانضم للطريقة الخلوتية التى تُنسب إلى كريم الدين الخلوتى الصوفى المصرى المتوفى سنة ١٥٧٨ م ، ولكن التيجانى سرعان ما اتخذ لنفسه اتجاهاً جديداً ضمن الطريقة الخلوتية مما يجعل بعض الباحثين يرى أن الطريقة التيجانية فرع من الخلوتية ، وقد اتخذ التيجانى مدينة فاس مقراً ينشر منه طريقته الجديدة ، فتبعه عدد كبير من المريدين أطلق عليهم « الأحباب » ، وعندما ترفى سنة ١٨١٨ م كانت الطريقة التيجانية قد استقرت وعلا شأنها ببلاد المغرب(٢) .

---

(١) دكتور عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى غرب إفريقية جـ ١ ص ١١١ — ١١٢ بتصرف .

(٢) انظر كتاب « جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى فيض الشيخ التيجانى » ، وهو ينسب للشيخ ، ونرجح صحة ما به مما ينسب للشيخ من أذكار وأوراد ؛ ولكن بعض المريدين نظمه وأضاف إليه .

وبعد وفاة التيجانى قام ابناه محمد الكبير ومحمد الصغير بنشر دعوته بمعونة اثنين من أكبر مريدى الشيخ ، وهما الشيخ محمود بن على التونسى والحاج على بن عيسى . وانتقل مركز الدعوة إلى قرية عين ماضى مسقط رأس صاحب الطريقة ، وقد وجدت هذه الطريقة لها أنصاراً عديدين فى الصحراء الكبرى وغربى إفريقية ووسطها .

وفى سنة ١٨٣٦ م أراد الأمير عبد القادر الجزائرى الاستعانة بالتيجانية فى حربه ضد الفرنسيين الذين كانوا قد استولوا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، ولكن الاتفاق بين الطرفين لم يتم لسبب أو لآخر ، فقام الأمير عبد القادر بعدة حملات على مركز التيجانية فى « عين ماضى » ، بيد أن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم دفاعاً طويلا ، وأبدوا ألواناً من الحماسة والشجاعة والتضحية ، ويبدو أن هـذه الحروب بدأت تصبغ الطريقة التيجانية بصبغة القوة ، فارتبطت بالطريقة التيجانية مسألة اللجوء للسيف عند الضرورة ، وهم يعللون ذلك بأن من المحتم إنقاذ الوثنيين من الضلال ، وبهذا اختلفت التيجانية عن القادرية التى عرفت بالتسامح كما قلنا ، وكانت تكتفى بالدعاء لهم بالهداية ، وقبل أن نحكى قصة الصراع الذى خاضته التيجانية نذكر أن شئون التيجانية انتقلت بعد محمد الصغير الذى توفى سنة ١٨٤٤ إلى ابنه ، ولكن هذا الابن مات سنة ١٨٥٣ ، فخلفه محمد العائد حفيد الحاج على بن عيسى ، ومات هذا عن ولدين اتُّهما بمعارضة الاستعمار الفرنسى فقبض عليهما سنة ١٨٦٩ .

وأهم الحركات الحربية التى قام بها أفراد من التيجانية هي تلك الحركة التى قادها الحاج عمر ، وهو ابن شيخ من المرابطين من قبيلة توكولير ، ولد سنة ١٧٩٧ فى قرية ببلاد السنغال ، فرباه والده تربية إسلامية وعلّمه علوم الشريعة ، ثم تاقت نفسه — كما يقول مؤرخوه — للانتظام فى سلك أرباب الكمال ، وصرّف همته إلى تهذيب النفس ، فخالف المألوفات ، وعزف عن ملذات العادات ، ومنّ الله عليه بالاجتماع بصاحب الفتوة ،

والأنفاس الذكية الشيخ عبد الكريم بن أحمد من علماء فوتاجالون ، وهو تلميذ محمد الحافظ العلوى الشنقيطي ومحمد الغالى ، وكلاهما أخذ عن الشيخ الأكبر مؤسس التيجانية ، وأهم ما أخذه الشيخ عمر الفوتى عن شيخه عبد الكريم ، الأوراد اللازمة للطريقة(١) ، ثم ذهب الشيخ عمر للحج سنة ١٨٢٠ وأمضى مدة بين مكة والمدينة ، وتعرف وهو بمكة على أحد زعماء التيجانية ، فالتحق بهذه الطريقة وتحمس لها ، وأقامه أتباع الطريقة خليفة على السودان ، وعند عودته أمضى فترة يتعلم بحلقات الأزهر ، ثم عاد إلى برنو سنة ١٨٣٣ ، وذهب إلى بلاد الهوسا ، واخذ يعظ الناس للرجوع إلى عقيدة السلف ويطعن فى تساهل أتباع القادرية ، وانضم له أخوه أحمد ، ومضيا إلى بلاد فوتاجالون وإلى مناطق البمبارة ، وهناك واجه بعض المقاومة وهو يدعو للإسلام ، ولكن النصر حالفه ، وكثر أتباعه ومريدوه(٢) ، ويقول عنه توماس أرنولد(٣) : « إنه كان رجلاً كريم السجايا ، ذا نفوذ شخصى ومظاهر يوحى بالسيطرة والقوة ، اشتهر بعلمه وورعه حتى عد مهدياً جديداً » . وهكذا كان لشخصية عمر وللنجاح الذى صادفه أثر كبير فيما حقق من انتصارات واسعة ، فلقد سارت حملاته للواسعة تنشر الدعوة بين الوثنيين فى حوض النيجر والسنغال ، وحقق كثيراً من النجاح الدينى والسياسى ، وأصبح يحكم إمبراطورية واسعة ، تمتد من تمبكتو إلى المحيط الأطلسى ، وظلت تدين له بالولاء طيلة أربعين سنة ، وكانت الطريقة التيجانية هى الطريقة الرسمية فى كل هذه الإمبراطورية ، وقد قتل الحاج عمر فى إحدى غزواته سنة ١٨٦٥ ، وكان الحاج عمر متمسكاً بالشرع فى حربه وسلمه ، عالماً عاملا ذا بصيرة فى دينه ، لم يشغله الجهاد عن تدريس العلم لجيوشه

---

(١) محمد الحافظ التجانى : الحاج عمر الفوتى ص ٩ .

(٢) شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامى ، ص ٣٩٦ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٦٧ .

الغازية فى سبيل الله ، مع الوقوف عند الحدود والتقرب إلى الله بالنوافل(١) ، وخلفه ابن أخيه وأحمد شيخو بن الحاج عمر ، وحاول هذان توسيع فتوحات الحاج عمر ، ولكن الاستعمار الفرنسى كان قد بدأ فى هذه البلاد فقبض على أحمد وأسقط هذه الإمبراطورية الإسلامية الكبيرة(٢) .

السنوسية :

تنسب السنوسية إلى السنوسى بن العربى جدُّ مؤسسها محمد بن على بن السنوسى ، وينتهى بنسبه إلى الأدارسة(٣) . وقد ولد مؤسس السنوسية سنة ١٧٩٨ فى بلدة مستغانم بالجزائر ، وتلقى بها مبادئ الدراسة ، ثم رحل إلى فاس حيث التحق بجامعة القرويين ، ورحل بعد ذلك إلى الأزهر فتعلّم به وعلّم ، ثم سافر إلى الحجاز حيث التقى بكبار المشايخ واستفاد بعلمهم وأعجب بالكثيرين منهم ، وأدرك السنوسى حاجة الدعوة الإسلامية إلى الإصلاح ، فراح يعمل لذلك بحزم وإصرار .

٥

ووضع السنوسى مبادئ السنوسية التى ذكرناها فى الجزء الرابع من هذا الكتاب عند الكلام عن ليبيا(٤) ، ويتضح من مراجعة هذه المبادئ أن السنوسى رأى أن الحدود السياسية بالعالم الإسلامى حدود مصطنعة ، وأن حركة إصلاحية ينبغى أن تقوم بالعالم الإسلامى تتخطى الحدود وتتجه إلى محاربة الانحراف والبدع ، والعودة بالإسلام إلى اليسر والاعتماد على الكتاب والسنة ، ومحاربة الزهد والخمول والاستجداء التى كانت طابع أغلب الطرق الصوفية ، ومحاربة التضرع للأولياء والتبرك بقبورهم ، واعتمد السنوسى على نظام الزوايا التى شرحناه فى المرجع المذكور ليصل أتباعه إلى الأهداف

---

(١) محمد الحافظ التيجانى : غلاف كتاب « الحاج عمر الفوتى » .

(٢) المرجع السابق : ص ٤ — ٥ . (٣) الطيب الأشهل : السنوسى الكبير ، ص ٧

(٤) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٤ ص ٤٢٥ وما بعدها .

التى رسمها . وأنشأ الزاوية الأولى فى « أبى قبيس » بالقرب من مكة المكرمة ، ثم أتبعها بزوايا أخرى بالقرب من الطائف والمدينة المنورة وبدر وجدة وينبع .

ثم أحس مؤسس السنوسية أن إفريقية أولى بحركته ، فغادر الحجاز إلى مصر ثم إلى طرابلس ، وفى سنة ١٨٤٣ أنشأ الزاوية البيضاء فى الجبل الأخضر ، ثم نقل مركز الدعوة إلى واحة الجغبوب سنة ١٨٥٦ ، وقد استلزم انتقالُ الدعوة إلى إفريقية ان يضم إلى مبادئها مبدأ جديد كبير الصلة بموضوعنا هنا ، ذلك هو نشر الإسلام بين الوثنيين بإفريقية لهدايتهم إلى الخير من جهة ، ولمواجهة حركة التبشير المسيحية التى كانت آنذاك تغزو إفريقية من جهة أخرى .

وضمت الزوايا مئات أو آلافاً من الشخصيات التى تنتمى إلى أقطار وجنسيات مختلفة ، ويجمعها كلها دين الإسلام والحماسة لخدمته ونشره ؛ وهكذا انتقلت السنوسية من حركة إصلاح داخلية فى الإسلام نفسه لتضم إلى ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة ، وأصبحت عدة قبائل إفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة إسلاماً اسمياً ، أصبحت من أتباع الإسلام المتحمسين له منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية ، ومن هذا النوع من النشاط نذكر على سبيل المثال ما بذله دعاة السنوسية من جهد ليُدخلوا فى الإسلام فريقاً كبيراً من قبيلة بيلى Baele كان لا يزال على الوثنية ، كما أن دعاة السنوسية حينما نزلوا بين شعب التيدا فى بلاد تبستى جنوب واحة فزان نجحوا فى تعليم هذا الشعب مبادئ الإسلام وأخلاقه، وكان هؤلاء قبل ذلك مسلمين اسمياً فقط ، وللسنوسية كذلك نفوذ كبير فى بلاد واداى والجلا وحول بحيرة تشاد ؛ وفى بلاد كانم وباجرى ودارفور[1] على العموم كانت السنوسية تنتشر

---

(١) دكتور نقولا زيادة : ليبيا إلى الاستقلال ص ٦٨ .

المنطقة المحصورة بين ساحل البحر وحوض النيجر وينشرون زواياهم فى واحات هذه الأجزاء[١] .

وبعد وفاة مؤسس السنوسية سنة ١٨٥٩ تولى ابنه السيد المهدى قيادة الحركة بواسطة مجلس وصاية أولا ، ثم بنفسه بعد ذلك ، حتى توفى سنة ١٩٠٢ فتولاها السيد أحمد الشريف بن السيد محمد الشريف بن السنوسى الكبير ، الذى دخل فى حرب طاحنة ضد فرنسا وإيطاليا ، ولما اعتزل سنة ١٩١٨ تولى رياستها السيد محمد إدريس السنوسى الذى أصبح ملكاً لليبيا بعد ذلك ، وهو زعيم السنوسية الأخير .

ويبدو أن وصول زعيم السنوسية الأخير إلى الملك شغله عن الدعوة وألزمه بتقاليد الملوك ومظاهر حياتهم ،وكان أجداده يعيشون للدعوة ويندمجون فى الشعوب ، ومن هنا فإن الدعوة فترت وهدأ نشاطها فى عهد هذا الملك . ولكن الرجل الذى ضحى بزعامة الدعوة من أجل التاج فقد التاج أيضاً فى أول سبتمبر سنة ١٩٦٩ عقب قيام ثورة الجيش الليبى بقيادة العقيد معمر القذافى ؛ تلك الثورة التى عزلت الملك وأعلنت النظام الجمهورى . وكان ذلك نهاية لنشاط السنوسية .

وكلمة أخيرة عن السنوسية هى : هل تعتبر السنوسية من الطرق الصوفية ؟ إن أكثر الباحثين يعدونها من هذه الطرق ربما لأنها عملت على نشر الإسلام بإفريقية بوسائل مختلفة ، والذى أراه أنها ليست من الطرق الصوفية، فتخطيطها ومناهجها وأهدافها ليست كتلك التى ترتبط بهذه الطرق ، وحسبنا أننا أوضحنا خطوطها بإيجاز ، ولا حرج أن يضعها كل باحث حيث شاء له تفكيره .

• • •

---

(١) دكتور زاهر رياض : استعمار إفريقية ص ١٥٩ .

وفى ختام حديثنا عن الطرق الصوفية نذكر أنه من الشائع إسناد كثير من الفضل إلى الطرق الصوفية فى نشر الإسلام بإفريقية ، ولسنا نحاول أن تقلل من هذا الفضل أو نغض من شأن هذه الطرق ،فإن بعضها لا يزال يقوم بنفس الدور ، ولكنا نقرر حقيقة أوضحتها الأرقام والتواريخ التى أوردناها فى هذا البحث ، والتى تفيد أن نشاط هذه الطرق بإفريقية بدأ متأخراً جداً ، ولم يتضح إلا فى القرن التاسع عشر ، ولكن الدعاة المسلمين والمهاجرين والتجار بدأ نشاطهم قبل ذلك بحوالى عشرة قرون ، ومن هنا نقرر حقيقة مهمة هى أن دور الطرق الصوفية كان استمراراً ولم يكن تأسيساً ، ومع هذا فقد كانت لها جوانب نجاح واسعة المدى يوضحها ما سبق أن أوردناه من أن التحول للإسلام انتقل على يد الطرق الصوفية من حالات فردية إلى حالات جماعية ، وأن الطرق الصوفية لم ترتبط بالخطوط التجارية والمسالك المعروفة والمدن الكبيرة ، بل اندفعت إلى الناس فى القرى والنجوع هنا وهناك ، وهى مآثر لا ينافسها سواها فى مجالها .

انتشار الإسلام جنوب الصحراء
من مراكز داخلية

خلقت الوسائط التى سبق أن شرحناها جواً إسلامياً بإفريقية ، وتعاونت مراكز الشمال ، والهجرات العربية ، وغير العربية ، والتجار ، والدعاة ، والطرق الصوفية ، فى إرساء دعائم الإسلام فى هذه المنطقة التى نتكلم عنها ، وفى نشر الإسلام بين السكان الأصليين ، ثم جاءت الخطوة الجديدة وهى قيام نشاط داخلى ، نابع من المنطقة نفسها ، يخدم نفس الأهداف التى خدمها الوافدون ، والتى غذّتها المراكز الثقافية بالشمال ، نظهرت زعامات إسلامية من بين السكان الأصليين كما برزت مراكز إسلامية عظيمة فى هذا القطاع نفسه ، ويمكن القول أن هذا النشاط الداخلى كان أبعد أثراً فى خدمة الإسلام وأكثر نجاحاً ، إذ صوّر الإسلام بصورة ثقافة قومية وفكر إفريقى ، فلم يَعُدْ الدخول فى الإسلام تبعيةً لدولة غربية أو اعترافاً بدين جماعات من الخارج ، بل أصبح انضواء تحت رايات يحملها زعماءُ من الداخل ، وأصبح الدخول فى الإسلام يعنى الإسهام فى تكوين مجتمع إفريقى مسلم ، وهذا حقق ما يشبهه بعض المفكرين بسباق التتابع ؛ فزمام الدعوة للإسلام حمله العرب فى مطلع الإسلام إلى إفريقية ، وتسلمه منهم البربر ليندفعوا به جنوب الصحراء ، وهناك أسلموه إلى الزنوج ، وكل هـذه الجماعات تعاونت فى الهتاف بوحدانية الله وبأن محمداً رسول الله ، وسرعان ما دوّى هذا الهتاف فى أرجاء هذ القطاع ، وأصبح الانضواء تحت هذه الرايات ملا ضرورياً من الناحية القومية ومن الناحية الحضارية ، وفى هذا الفصل سنعيش مع الزعامات المسلمة الإفريقية ومع المراكز الإسلامية الإفريقية .

المرابطون :

أخذ البربر الإسلام عن العرب كما قلنا آنفا ، وسرعان ما تحمسوا له وعملوا على نشره ؛ ومن أشهر جماعات البربر الذين حملوا راية الإسلام من الشمال واندفعوا به نحو الجنوب جماعات المرابطين ، وقد سبق أن تحدثنا عنهم وأبرزنا أن الرباط الذى تربّوا فيه وربوا فيه عقائدهم ، وخرجوا منه معلنين الجهاد لإعلاء كلمة الله كان فى جزيرة عند مصب نهر السنغال ، وهو مكان فى أرض السودان رابط فيه جماعات من البربر والسودانيين ، فهو بهذا يمثل وسيلة للاندماج لخلق مزيج جديد يضع وحدة العقيدة فى مكان أسمى من وحدة الجنس والوطن .

ومن هذا الرباط خرج المرابطون ينشرون دين الله بين مختلف القبائل والجماعات بالمنطقة ، وإلى هذا الرباط ينتسب أبو بكر بن عمر الذى قاد فيلقا عسكريا واتجه نحو الجنوب — على ما ذكرنا — فأسقط به إمبراطورية غانة الوثنية واحتل عاصمتها ، والذى يهمنا هنا أنها أصبحت دولة إسلامية منذ ذلك التاريخ .

وقد سبق أن أوضحنا أن حكم المرابطين لدولة غانة الإسلامية كان قصير العمر ، وأن السوننكى استعادوا نفوذهم فى غانة ولكنهم كانوا قد أصبحوا مسلمين ، وذكرنا كذلك أن القيادة الروحية والثقافية بقيت فترة ما فى أيدى المرابطين بغانة بعد سقوط قيادتهم العسكرية ، ولكن سرعان ما تسلم السوننكى هذا الزمام أيضاً ، وأصبحوا دعاة مشهوداً لهم بالحماسة لخدمة الإسلام حتى أصبحت كلمة « سوننكى » تساوى كلمة « داعية إسلامى » ، وانتقل بذلك الزمام بمناطق الزنوج إلى الزنوج أنفسهم ، وسرعان ما كوّن هؤلاء مراكز ثقافية ببلادهم ، وسنسير فيما يلى موضحين أبرز صور نشاط السودانيين لخدمة الإسلام وموضحين أهم مراكزهم الثقافية .

الماندنجو وأحمد صمدو :

كان الماندنجو من أنشط الدعاة للإسلام ، وكانت الدعوة الإسلامية تسير بجهودهم قُدُماً بين مواطنيهم والجماعات المحيطة بهم ، وقد امتاز الماندنجو بصفات جسمانية وعقلية مكنتهم من النجاح ، وقد رآهم Winwood فكتب يقول عنهم : إنهم شعب طويل القامة ، حسن المنظر ، مشرق اللون ، وهم مسلمون متدينون ، يملكون الجياد وقطعان الغنم الكثيرة ، ولكنهم أيضا يزرعون القطن والفول السودانى ، وأنواعا مختلفة من الغلال ، وقد سررت كثيرا بلطفهم ، وسجاياهم الكريمة ، ومظهر نسائهم الجادّ المحتشم ، ونظافة قوامهم وهدوئها(1) .

ومن أشهر الزعماء المسلمين الذين ظهروا من قبيلة الماندنجو إمام الصمد وشهرته صملو ، وقد ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكان جنديا وثنيا اعتنق الإسلام وتحمس له ، وراح يدعو له بنشاط جم ، وتجمع حوله عدد من القبائل فى جنوب سنغامبيا ، واستطاع أن يسيطر على المنطقة التى يرويها الجزء الأعلى من نهر النيجر وروافده ، فألف بها حكومة إسلامية ، وقد بلغ أوج قوته فى العقد التاسع من هذا القرن ، ولكن الاستعمار الفرنسى تحداه وناضله ، وفى سنة ١٨٩٨ وقع أسـيرا فى يد الفرنسيين ، ومات سنة ١٩٠٠ .

الهوسا والفوريولى :

جماعتان مختلفتان من الجماعات الكبرى التى خدمت الإسلام بإفريقية ، ومع اختلافهما يتحتم فيما أرى أن يسير الحديث عنهما فى مكان واحد لشدة

---

(1) Winwood Reade : African Sketchbook : Vol I p. 303

الارتباط بينهما فيما يختص بالدعوة الإسلامية ، ولأنه تحقق فيهما ما تحقق بين روما وأثينا حيث انتصرت الأولى عسكريا ، ولكن الفكر اليونانى غزاها وانتصر عليها ، وهنا كذلك قامت حروب بين الهوسا من جانب والفولانى من جانب آخر ، وانتصر الفولانى المسلمون ، ولكن الهوسا سرعان ما اعتنقوا الإسلام ، ثم سرعان ما نافسوا أساتذتهم فى خدمته والدعوة له ، بل ذاب الفولانى فى الهوسا ، واندمج الغالب فى المغلوب ، ولنبدأ القصة من أولها :

تعيش قبائل الهوسا – كما ذكرنا من قبل – شمالى نيجيريا الحالية ، وعددهم حوالى خمسة عشر مليونا ، وقد سبق أن قلنا إن هذه القبائل كوّنت سبع ولايات ، أو ضعف هذا العدد فى رواية أخرى ، وقد دخل الإسلام ولايات الهوسا حوالى القرن التاسع الميلادى عن طريق البربر من جانب ، والتجارة مع مصر من جانب آخر كما ذكرنا من قبل ، ولكن الوثنية ظلت سائدة فى بعض الولايات حتى زيارة ابن بطوطة لها فى منتصف القرن الرابع عشر ، وعندما أطل القرن التاسع عشر كانت الوثنية قد انكمشت فى الولايات الغربية أمام الدعوة الإسلامية الوافدة من دول المغرب ومن غربى إفريقية ، وكانت الولايات الشرقية قد ازدهر فيها الإسلام عن طريق الدعوة الوافدة من مصر ومن السودان العربى ، أما الولايات الوسطى فكان أكثرها لا يزال على الوثنية ، ومنها هبت الحركة التى قادها الفولانى ، كما سيتضح من حديثنا عنهم فيما يلى :

الفولانى قبائل قليلة العدد يختلف الباحثون فى تحديد الأصل الذى انحدرت منه ، فيربطها بعضهم بالنوبة فى الشرق ويربطها آخرون بالبربر فى الشمال ، وأفراد هذه القبائل يشتغلون بالرعى وبعضهم يشتغل بالتجارة ، وقد وصل هؤلاء فى حلهم وترحالهم إلى غربى إفريقية فى حوالى القرن الثالث الميلادى ، وأصبحوا تابعين لإمبراطورية غانة ، وجاء زحف المرابطين على غانة

وهم بها. فاعتنق أكثرهم الإسلام مع الوفود التي اعتنقته آنذاك. وجاءت دولة مالي بعد غانة فأصبحوا جزءاً منها، وتمكن الإسلام منهم، وبخاصة من أولئك الذين كانوا يشتغلون بالتجارة، إذ اتصلوا بالمراكز التجارية التي كانت مشاعل ثقافية في نفس الوقت، وبخاصة لأن الإسلام ضمن لهم مزيداً من النجاح والثراء. وبعد سقوط دولة مالي خضعوا كذلك لإمبراطورية صنغي، وهذا أتاح لهم أن يندفعوا نحو الشرق في الإمبراطورية التي اتجهت هذا الاتجاه، وانلسوا كرعاة بماشيتهم بين القرى الزراعية، وتنشط التجار في البيع والشراء، وما إن جاء القرن السادس عشر حتى كانوا قد ازدادوا قوة في بعض إمارات الهوسا، واستقر بعضهم هناك(١)، فلما سقطت إمبراطورية صنغي عقب الزحف المراكشي كما سنرى فيما بعد تزادت مكانة الفولاني في هذه البقاع، لأن الاحتلال المراكشي لم يستطع أن يوطد سلطانه على جوانب الامبراطورية.

وجاء القرن الثامن عشر فنشاهد قبائل الفولاني وهي تستقر ويعلو شأنها، وقد زار Francis Moore مناطقهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١ فوصفهم بأنهم شعب له بشرة سمراء، معظمهم يتكلم اللغة العربية لأنها لغة القرآن، ويعيشون حياة قبلية لا يخضعون لأي ملك من ملوك البلاد التي يقيمون بها، إذ لهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم حكماً معتدلاً، إلى حد أن كل عمل تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب، أكثر من أن يكون عمل فرد من الأفراد، والفولاني أصحاب طبيعة هادئة، تعلموا جيداً ما هو عادل وما هو حق، حتى أن من يرتكب الشر منهم يكون موضعاً لكره الجميع، وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط الاقتصادي والاجتماعي، فهم يزرعون الكثير من القمح والقطن مما يزيد عن حاجتهم، ويبيعون الزائد بسعر معتدل،

Roland Oliver and Fage : History of Africa p. 71 (١)

ويشتهرون بالكرم إلى درجة أن الإفريقيين من سكان هذه المناطق يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن تكون بجانبهم جماعة من الفولانى ، وإذا كانت هذه علاقتهم بمجاوريهم ؛ فإن علاقتهم بعضهم ببعض تظهر فيها الرحمة إلى أبعد حد ، فإذا عرفوا أن أى فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقاً اتحدوا جميعاً وحرروه ، وهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ، ويساوون بينهم وبين الآخرين ،وقلما يغضبون ، مع شجاعة زائدة ،وهم يجيدون استعمال الأسلحة الحربية ويستخدمون البنادق . . . . . . وهم مسلمون متمسكون بدينهم ، وقلما يشرب أحدهم الخمر أو يخالف قواعد شريعة الإسلام(١) .

وهكذا كانت قبائل الفولانى متناثرة فى شتى أقاليم الهوسا ، منهم من نستقر فى إقليم من هذه الأقاليم أو ولاية من هذه الولايات ، ومنهم من كان يشتغل بالتجارة فيتخطى بتجارته حدود ولاية إلى أخرى من هذه الولايات ، وكانوا بصفاتهم السابقة يكوّنون ما يمكن أن يسمى دولة داخل الدولة ، لهم كثير من الاستقلال ولكن أخلاقهم الطيبة جعلتهم محبوبين فى البقاع التى ينزلون فيها ، بيد أن هذه العلاقة بدأت تتغير فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، لأن ملوك هذه الإمارات بدأوا يخافون نفوذ قبائل الفولانى ، وكان هذا التغير على يد زعيم كبير من زعماء الفولانى هو عثمان دنفديو (عثمان بن فودى) ، الذى آن لنا أن نتحدث عنه وعن الحركة الكبرى التى قادها :

عثمان دنفديو :

مصلح دينى من أشهر المصلحين بإفريقية ، ينحدر من عشيرة التُورودى وهى من أشهر عشائر الفولانى ، وقد استوطنت هذه العشيرة مملكة جوبر

---

(١) نقلا عن الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

إحدى ممالك الهوسا ، وقد ولد عثمان سنة ١٧٥٤ م . وعُنى أهله بتثقيفه ثقافة إسلامية ، ولما شبّ ذهب إلى السودان ليتعلم مزيداً من الدراسات الإسلامية ، ثم ذهب حاجاً إلى مكة ، واتصل هناك بالدعوة الوهابية وتأثر بها ، وعاد إلى بلاده فرأى فى جوبر ما لم يستطع أن يسكت عنه ، رأى وثنية صارخة ، ورأى مسلمين يتحولون إلى الوثنية ، ورأى مسلمين بعدوا بإسلامهم عن الدين الحق ، يعبد الجهلة منهم الأولياء ويرتكب من سواهم المعاصى والآثام ، ورأى بوجه خاص أن ملك جوبر يحرم على رعيته أن يدخلوا الإسلام ، ويعمل على أن يُعيد إلى الوثنية من أسلم منهم ، فبدء صراعه الذى سنوجزه فى السطور التالية ، وبين أيدينا مرجعان رئيسيان فى هذا السبيل أحدهما(١) . كتبه ابن هذا الزعيم واسمه محمد ، والثانى(٢) كتبه أخو الزعيم واسمه عبد الله ، وقد اعتمد الأول على الثانى واقتبس منه ، ثم إن الثانى يُعدّ حجة ومصدرا مباشرا ، فمؤلفه يقول فى ختامه ما يلى :

وليعلم الواقف على هذا المجموع أنى لم أقتد أحداً فيما كتبتُ فيه ، ولا نظرت إلى كتاب أحد ، ولا حكيتُ فيه ما سمعت من أحد ، وإنما كتبت فيه ما حضرنى مما شاهدته وعلمته(٣) وهو بهذا أجدر بأن يعتمد عليه فى تصوير حياة الزعيم عثمان بن فودى « عثمان دانفديو » ، وقد كتبه مؤلفه فى شوال سنة ١٢٢٨ هجرية (١٨١٣ ميلادية) .

وفيما يلى موجز حياة هذا الزعيم مقتبسة من عبارات أخيه .

بدأ الشيخ بعد عودته من الحجاز يدعو الناس إلى دين الله ، ويحثهم

---

(١) إنفاق الميسور : للإمام محمد بلو بن عثمان بن فودى .
(٢) تزيين الورقات : للإمام عبد الله بن محمد .
(٣) تزيين الورقات : ص ٨٣ .

على ترك عاداتهم المخالفة للشرع ، فيأتى إليه بعض الناس من الآفاق ، ويدخلون فى جماعته ، ونحن فى بلده الذى اشتهر به ونُسب إليه وهو « طفل » فاستجاب له كثيرون ، وفتح الله له القبول .

ثم أخذ يسرى إلى البلاد حتى كثرت الجماعة وشاعت ، وكان الشيخ لا يسير إلى الملوك ولا يعاملهم ، فلما كثرت الجماعة عنده واشتهر أمره عند الملوك رأى أن لا بد من المسير إليهم ، فسار إلى أمير جوبر وبيّن له الإسلام الصحيح وأمره بذلك وبإقامة العدل فى بلاده ، ثم انتقلنا لبلاد زَنْفَر لدعاء أهلها إلى الدين[1] ، وبعد ذلك بعام أو عامين أرسل سلطان جوبر إلى جميع علماء بلاده بأن يجتمعوا عنده فى عيد الأضحى ، فاجتمعنا لديه ، فقال كلاماً ثم تصدق على العلماء بأموال كثيرة ، فقام الشيخ عثمان بين يديه ، وقال له إنى وجماعتى لا حاجة لنا إلى أموالك ، ولكن أسألك إقامة الدين والعدل بين الرعية ، فأجاب السلطان قائلا : أعطيتك ما سألت ، ورضيت لك بجميع ما تحب أن تفعل فى بلادنا هذه ، فحمد الشيخ عثمان الله على ذلك[2] .

وأخذنا نجوب بلاد زَنْفر ، وكَبِّى ، نبلغ الدين[3] ، واشتهر أمر الشيخ ، ووفد إليه الناس من كل صوب ينتفعون بمواعظه ، ويتأدبون بآدابه ، ويدخلون فى جماعته أفواجاً[4] .

ثم إن شيخنا أدام الله عزة الإسلام به ، لما رأى كثرة الجماعة ، ومعارضة الكفار لها ، جعل يحض أتباعه على السلاح ، ويقول لهم إن

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٣٠ .

(٤) المرجع السابق : ص ٤١ .

استعداد السلاح سنة ، فجعلنا نستعد ، وأخذيدعو الله أن يريه مُلْك الإسلام فى هذه البلاد(١) ، ولما رأى الملوك وأعوانهم فى الولايات المختلفة جماعة الشيخ يستعلون بالسلاح ، خافوا ذلك مع أنهم قبل ذلك غاظهم كثرة الجماعة ، وتفردُها عن أحكامهم ، فجعلوا يمنعون زى الجماعة كالعمائم ، وكأمر النساء بالتستّر ، فخاف بعض الجماعة من هؤلاء الملوك فهاجروا إلينا ، فأرسل سلطان جوبر إليهم أن يرجعوا ، فأبوا ، ثم أرسل ذلك السلطان إلى الشيخ أن يسير إليه ، فسرنا ؛ الشيخ وأنا وصديقه عمر الكموى ، فأراد أن يحرقنا ، ولكن الله رده عنا ، وصرح لنا بأنه لا عدو له على الأرض مثانا ، ورده الله عنا فخرجنا من عنده إلى منزلنا ، وأرسل للشيخ أن يخرج من بين جماعته ويفارقهم هو وعياله فقط ، فأجابه الشيخ قائلا : إنى لا أفارق جماعتى ، ولكنى أفارق بلادك وأرض الله واسعة ، فتهيأنا للهجرة ، وكان ذلك فى فبراير سنة ١٨٠٤(٢) .

ويذكر مسلمو شمالى نيجيريا هذا اليوم ، على أنه يوم الهجرة ، ويعدونه من أعيادهم الوطنية والإسلامية .

ومن العجيب أن سلطان جوبر « ينفه » كان فى صباه تلميذاً للشيخ ، ولكن لما آل له الملك خاف من منافسة الشيخ له فى السلطة ، فلم يتمسك بالإسلام وضايق الشيخ حتى اضطر إلى الهجرة من بلاده .

وفى المهجر تجمّع حول الشيخ مريدوه وأهله من الفولانى ، وأطلقوا على عثمان « ساركين مسلمانى » ، أى أمير المسلمين ، ولما أنس فى نفسه القوة أعلن الجهاد ضد مملكة جوبر الوثنية ، وسرعان ما سقطت فى يديه ، ولم يكتف الزعيم المسلم بهذا الانتصار بل سار يضم إليه ممالك الهوسا مملكة إثر مملكة ، وتجمعت له عشائر الفولانى من كل صوب ، وأحسنوا استقباله فى

---

(١) المرجع السابق : ص ٥١ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ .

كل ولاية دخلها ، بل إن المسلمين من الهوسا أو الكثيرين منهم انضموا تحت لوائه ، وبذلك سار من نصر إلى نصر ، ولم تأت سنة ١٨١٠ حتى كان عثمان قد بلغ الذروة ، وكانت انتصاراته قد كللت بالنجاح فكوّن إمبراطورية فسيحة فى شمالى نيجيريا والسودان الغربى ، وسنتحدث عن هذه الإمبراطورية فيما بعد عند الكلام عن الممالك الإسلامية بإفريقية قبل الاستعمار الأوربى ، واتخذ عثمان مدينة « سكوتو » عاصمة له ، ثم قسّم مماكته قسمين ، وجعل القسم الشرقى تحت سيطرة ابنه بلّو ، وجعل القسم الغربى تحت سيطرة أخيه عبد الله ، واكتفى هو بالزعامة الروحية متخذاً سكوتو مركزا للدعوة إلى الإسلام ، كما عكف على تأليف الكتب التى تهدى المسلمين إلى الرشاد وتبعدهم عن الانحراف ، ومن كتبه نذكر ما يلى : إحياء السنة ــ الجهاد ــ نور الألباب ــ التصوف . . . . وتوفى عثمان سنة ١٨١٧ وهو فى قمة مجده . وأقيم له ضريح ومزار بمدينة سكوتو ، وبعد وفاته قام ابنه مقامه ، ولم يعتمد الفولانى على الجهاد وحده فى نشر الإسلام ، بل سلكوا طريق الدعوة فى أغلب الأحوال ولم يلجأوا للجهاد إلا عند الضرورة ، وقد زار الرحالة الأوربيون بعض المناطق التى دانت له ورأوا هناك المعلمين من الفولانى يعلمون الوثنيين مبادئ الإسلام ، كما أن السلاطين أنفسهم من أسرة عثمان ومعاونيه اضطلعوا بالدعوة للإسلام ونشرها فى المناطق الوثنية حولهم(١) .

أحمدو لوبو وابنه :

ينحدر أحمدو لوبو من عشيرة مسلمة من عشائر الفولانى هاجرت إلى منطقة ماسنة بين السنغال والنيجر ، وعاشت مع شعب البمبارا حيث كانت الوثنية منتشرة ، وتلقى أحمدو ثقافته الإسلامية من شيوخ أسرته ، ثم التحق

(١) تذكرة النسيان ص ٢٠٢ وما بعدها .

بمدينة جنى التى كانت مركزاً إسلامياً كبيراً كما سنرى فيما بعد ، فتعلم التفسير والفقه وعلوم الدين الأخرى ، ثم عاد إلى ماسنة وقد اعتزم الجهاد للقضاء على البدع بين المسلمين ولإنقاذ الوثنيين من عبادة الأحجار والأشجار وجذبهم إلى عبادة الله ، ولكن أحمدو لوبو لم يقنع بأن يكون داعية عادياً ، بل ادعى الانتساب إلى البيت النبوى(١) ، ثم ادعى المهدية ، وفى سنة ١٨١٣ أعلن الجهاد على الوثنيين حوله وانتصر عليهم ، ثم دخل مدينة تمبكتو وانتصر على المراكشيين الذين كانوا يحتلونها ، ودخل مدينة جنى وطهرها من البدع والمنكرات ، واتخذ له حاضرة على مقربة منها سماها (حمد الله) ، ونشأت بذلك إمارة إسلامية عظيمة الشأن فى منطقة ما سنة ، وتوفى أحمدو لوبو سنة ١٨٤٤(٢) ، فخلفه ابنه أحمدو شيخو الذى ظلت دولته حتى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد أثرت حركة أحمدو لوبو وابنه تأثيراً واسعاً فى المنطقة التى ازدهرت بها وبسببها استقر الإسلام بين شعوب هذه المنطقة .

وهكذا كان الفولانى والهوسا وعثمان دانفديو وأخوه وابنه وأحمدو لوبو وابنه قوى إفريقية هائلة نشرت الإسلام فى غربى إفريقية ووسطها وثبتت دعائمه .

دعاة من الفونج :

عندما قامت دولة الفونج سنار شجعت هذه الدولة الفقهاء والمعلمين على أن يباشروا بها نشاطهم ، كما شجعتهم على أن يتخطوا الحدود تجاه الغرب وأن يقوموا بالدعوة للإسلام فى مناطق واداى ، ومن الفقهاء الذين اشتهرت أسماؤهم فى هذا المجال : أبو زيد بن عبد القادر ، وأبو سرور الفاضلى ، وقد كانت الاستجابة واضحة للدعوة الإسلامية التى حملها هؤلاء الفقهاء . وسنعطى بعض التفاصيل عن الثقافة الإسلامية فى مملكة الفونج عند الكلام عن هذه الدولة فى الباب الرابع .

• • •

(١) Page : West Africa p. 146

(٢) Dubois p. 150

والآن بعد أن تحدثنا عن القبائل السودانية التى حملت لواء الإسلام وعملت على نشره ، وعن الزعامات السودانية التى بذلت جهوداً كبيرة لخدمة الإسلام ، ودافعت أعداءه وشرحت مبادئه ، بعد هذا نتجه إلى المراكز الثقافية التى قامت جنوب الصحراء فكانت منارات عالية الشأن تمدى للإسلام وتيسر السبيل إليه ، وتستقبل الطلاب وتوفد العلماء ، تلك المنارات التى نافست مراكز الشمال ، استمدت منها المعرفة ثم استوت واكتمل نضجها .

ويلاحظ أن المراكز الثقافية كثيرا ما كانت أسواقاً تجارية فى نفس الوقت ، لشدة ارتباط الدعوة الإسلامية بالتجارة كما قلنا من قبل ، ولكن هناك مراكز غلب عليها أحد الطابعين مع وجود الاثنين بها ، وقد سبق أن تكلمنا عن تمبكتو وجنى من ناحيتهما التجارية ، وسنتكلم عنهما هنا من الجانب الثقافى ، وبعدهما سنتحدث عن مراكز ثقافية أخرى ، وعن الدور الذى قامت به لخدمة الإسلام ونشره .

تمبكتو :

تحدثنا من قبل عن نشأة تمبكتو وتاريخها ومكانتها كمركز تجارى ، ونريد هنا أن نتحدث عنها كمركز ثقافى ، والحقيقة أن تمبكتو كانت عالية الشأن فى المجالين ، ولكن الجانب الثقافى كان أرجح ، وقد كسب لها كثيرا من الجلال والخلود ، حتى أننا نرى الكتاب السودانيين يتحدثون عنها كأنهم يتحدثون عن مكان مقدس ، فالسعدى يقول عنها : هذه البلدة الطيبة الطاهرة الذكية الفاخرة التى هى مسقط رأسى ، وبغية نفسى ، ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سُجد على أديمها قط لغير الرحمن ، مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء والزاهدين . . . (1) ، والإمام محمود كعت

---

(١) تاريخ السودان : السعدى ص ٢٠ - ٢١ .

يفخر بأن ينتسب لها فيقول في صدر كتابه : يقول محمود كعت الكرسني دارا ، التمبكتي مسكناً ، الوعكري أصلاً[١] .

وقد اتجهت تمبكتو هذا الاتجاه الثقافى منذ عهدها المبكر ، فإن تشييد المساكن بها صحبه تشييد المساجد والمدارس والمعابد ، وإقبالُ العلماء عليها ، وكثرة حلقات التدريس بمعاهدها ومساجدها ، وفى عهد منسى موسى حظيت بمزيد من الازدهار ، فلقد أقام بها مسجدا كبيراً أصبح بعد قليل جامعة إسلامية يؤمها الطلاب من كل فج ، كما جعل جامعها القديم معهداً علمياً تُلقى فيه المحاضرات الدروس ، ودعا منسى موسى للتدريس بجامعات تمبكتو أشهر فقهاء العصر من مختلف البلدان ، وأغدق على الطلاب الذين يفدون لها لتلقى العلم ، وفى عهد اسكيا محمد وصلت تمبكتو ذروة مجدها الثقافى ، كما خطت نحو مزيد من المجد فى عهد اسكيا داود . ويقول ليو الإفريقى « الحسن الوزان » : إنه كان بتمبكتو كثير من القضاة والأطباء والدعاة ، الذين كانوا يعيّنون بأمر ملكى ، وكان الملك يُجل العلماء والأدباء كما كان يشترى كثيراً من المخطوطات لمكتبات تمبكتو ، ولا يبخل بدفع أثمانها مهما غلت ، مما يدل على تقديره الشديد للعلم والأدب[٢] ولمع مسجد سنكورى فى الشمال الشرقى ، ومسجد سيدى يحيى فى وسط المدينة كجامعات عالية الشأن .

وهكذا تحولت تمكتو شيئاً فشيئاً لتصبح مركزاً ثقافياً عظيماً جنوب الصحراء ، وجلس علماؤها فى المساجد والمدارس يعلمونْ الطلاب الذين وفدوا لها من مختلف النواحى بإفريقية ، وسرعان ما جذبت لها علماء من مختلف الجنسيات ، من المغرب والأندلس ومصر والحجاز ، وبالتالى جذبت لها

---

(١) تاريخ الفتاش : المقدمة .

(٢) Leo Africanis : Tome II p. 468 note 47

مزيدا من الطلاب والراغبين فى تحصيل العلم من السنغال والنيجر ، وإمارات الهوسا ، والسودان ، فنافست بذلك مراكز الشمال فى خدمة الإسلام ، وأصبحت مكانتها تشبه مكانة القيروان وفاس وقرطبة والقاهرة :

ويذكر السعدى نماذج من الكتب التى كانت تُدرس فى جامعة تمبكتو ، ومنها صحيح البخارى وصحيح مسلم ، والشفاء للقاضى عياض ، والموطأ للإمام مالك ، والألفية لابن مالك والخزرجية فى العروض ، كما يورد باباً طويلا عن العلماء والصالحين الذين سكنوا تمبكتو وخدموا العلم والمعارف بها[١] ، مثل عمر الساكن وأبو عبد الله محمد ، وأبو جعفر عمر بن محمد ، ومخلوف ابن على ، وأحمد بابا لبكتى ويخصه السعدى بفيض من الثناء والتقدير ، فيصفه بأنه العالم العلامة فريد دهره ووحيد عصره البارع فى كل فن من فنون العلم ، الذى جدّ واجتهد حتى فاق معاصريه ، وشهد له أشياخهُ بالفضل ، وقد اشتهر أمره فى الغرب كله ، وانتشر ذكره ، وسلّم له علماء الأمصار فى الفتوى ، وكان وقّافاً عنـــد الحق لا يداهن فيه ولو للأمراء والسلاطين[٢] .

وقد كثرت المكتبات فى تمبكتو ، وكانت مفتوحة لاطلاع الطلاب والراغبين فى العلم ، واشتهرت تمبكتو بعدد كبير من المكتبات المملوكة لعلمائها ، ولكن عرف عن هؤلاء أنهم كانوا لا يبخلون بكتبهم على الراغبين فى الاستعارة مهما كانت الكتب قيمة ، وكانت تدور بها حركة نَسْخ نشيطة ليحصل عن طريقها بعض الناس على نُسَخ من الكتب التى يريدونها .

ويبدو أنه كانت هناك صلات ثقافية خاصة بين تمبكتو والقاهرة ، وبوجه خاص فى العهد المملوكى ، حيث أصبحت القاهرة مقر الخلافة

(١) تاريخ السودان : الباب التاسع ص ٢٧ – ٣٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٥ .

الإسلامية ، ومركز الثقافة التي يتطلع لها الناس من كل مكان ، وفى تاريخ السعدى ما يدل على أن الإمام السيوطى المصرى كان واسع الشهرة فى جامعة تمبكتو ، وكانت له مكانة مرموقة لدى سلاطين صنغى .

وهكذا كانت تمبكتو مركزاً إسلامياً عظيم الأثر فى نشر الإسلام ، وفى الرقى بالدراسات الإسلامية داخل إفريقية .

جنى :

تحدثنا من قبل عن تاريخ جنى ونشاطها التجارى ، ونريد أن نتحدث هنا عن النشاط الثقافى الذى قامت به جنى ، وقد عقد السعدى بابين طويلين للحديث عن جنى[1] ، وسنحاول أن نقتبس منهما اقتباسات سريعة توضح مركز جنى الثقافى ، وتوضح الدراسات حول جنى أن المساجد التى أقيمت بها سرعان ما أصبحت جامعات يؤمها الطلاب ، ويجلس بها العلماء ، وقد ساق الله لمدينة جنى — كما يقول السعدى — سكانا من العلماء والصالحين من غير أهلها ، من قبائل شتى وبلاد شتى منهم : يورمغ كنكى الذى رحل إلى بلاد كثيرة لتلقى العلم ، ثم جاء إلى جنى فى أواسط القرن التاسع وكان فقيهاً عالماً صالحاً جليل القدر ، فأسرع إليه الطلبة لاقتباس الفوائد منه ، وكان فى هدأة الليل يخرج من داره إلى الجامع لنشر العلم ، فيجلس الطلبة حوله يأخذون العلم حتى مطلع الفجر ، ثم يعودون بعد الصلاة فيجلسون إليه إلى الزوال تقريباً ، ويعود لهم مرة أخرى فى النصف الثانى من النهار .

ومن علماء جنى الفقيه محمد ساقوا الونكرى الذى كان فقيهاً عالماً عابداً ، جاء إلى جنى فى أواخر القرن التاسع من بلده بيط ، وقد ولاه أمير

(١) الباب الخامس والباب السادس من تاريخ السودان

المؤمنين أسكيا محمد قضاء مدينة جنى ، فأخذ يفصل بين الناس بالشرع ، وينشر دين الله بين أتباعه ومريديه .

ومنهم القاضى محمود أبو بكر وهو جنّوى (نسبة إلى جنى) بلداً وَنْكرى أصلا ، وكان فقيها ، عالماً جليلا تولى القضاء على يد أسكيا إسحق ، ومنهم القاضى أحمد ترف وهو جنوى الأصل والبلد ، وكان خطيباً وإمام الجامع وقاضياً ، فجمع المراتب الثلاثة .

ومنهم القاضى مودب بكر وهو ككَوِىٌّ أصلا ، من أولاد سلاطينها ، زهد فى السلطنة واتجه لخدمة العلم ، وهناك كثيرون سوى هؤلاء من القضاة والعلماء الذين نشأوا فى مدينة جنى أو رحلوا لها من علماء السودان وعلماء البيضان(١) .

كانو وكاتسينا :

امتدت مراكز الثقافة إلى الشرق فى المنطقة الواقعة شمالى نيجيريا فى إمارات الهوسا بعد أن دخلت هذه الإمارات فى الإسلام وخضعت لنفوذ صنغى ، فظهرت مدن كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة الإسلامية منذ القرن الخامس عشر ، وعندما أصيبت تمبكتو وجنى بالأحداث التى أشرنا لها ابتداء من احتلال المراكشيين لهما ، بدأ دور كانو وكاتسينا ينمو ، إذ استقبلتا كثيراً من علماء تمبكتو وجنى وأصبحتا ملجأ الطلاب والراغبين فى العلم بعد أن كان هؤلاء يتجهون إلى تمبكتو وجنى ، ويبدو أنه كانت هناك علاقة وثيقة بين كاتسينا ومصر ، فالتاريخ يحدثنا عن صلة طيبة بين أمير كرتسينا وجلال الدين السيوطى ، بل هناك ما يدل على أن السيوطى

---

(١) المرجع السابق : ص ١٦ و ١٨ و ١٢ و ٢٠ و ٢١٢ .

رحل إلى شمالى نيجيريا وأقام فى كوتسينا زمناً يعلم الناس وعاد إلى مصر سنة ١٤٧١ م[١]. ويذكر Trimingham[٢] أن كاتسينا فى النصف الأول من القرن السابع عشر كانت أهم مركز تجارى فى مناطق الهوسا ، وكذلك كانت ذات شهرة واسعة فى مجال الفكر والعلم ، وبخاصة خلال عهد جان هازو بكىّ (١٦١٨ – ١٦٤٨) .

• • •

والآن بعد أن تحدثنا عن المراكز الثقافية غربىّ إفريقية ووسطها يخطر بالبال سـؤال مهم هو : لماذا لم تقم مراكزُ ثقافيةٌ شرقىّ إفريقية تنافس تلك التى قامت بالغرب والوسط ؟

والجواب الذى نعتقده هو أن وجود الأزهر بتاريخه ومكانته جعل سكان الشرق لا يفكرون فى سواه ملجأ لثقافتهم ولا يستطيعون منافسته أو الاستغناء عنه .

• • •

وهكذا تجمعت عناصر عظيمة الشأن ، قوية الأساس فحملت الإسلام إلى أجزاء هذه المنطقة التى نتحدث عنها ، وكانت هذه العناصر من الخارج أو من الداخل ، وكانت خدمة الإسلام هدفها الرئيسى أو نشاطاً إضافياً تقوم به بجانب التجارة والسياسة ، وقد كانت النتائج ناجحة للغاية ، فعلا شأن الإسلام فى هذه البقاع وأصبح المسلمون أغلبية ساحقة ، وتلا ذلك أن قامت ممالك إسلامية ستكون موضوع حديثنا فى الباب التالى .

---

(١) آدم عبد الله الألورى – الإسلام فى نيجيريا ص ١٠ .

الباب الرابع

الدول الإسلامية جنوب الصحراء الإفريقية قبل الاستعمار الأوربى

قيام الدول الإسلامية جنوب الصحراء

انتشر الإسلام جنوب الصحراء بالوسائط التى أوردناها آنفا ، وقد سبق أن اقتبسنا رأى Goullly عن أن العصر التاريخى لإفريقية السوداء لم يبدأ إلا مع الإسلام ، وأن بالإسلام ولغته وحضارته تقدم السود وبلغوا شأوا كبيرا فى المدنية[1] .

وقد كان دخول شعوب هذا النطاق دين الإسلام يعنى الصلة الوثيقة بالأقطار العربية ، ويقول Thomas Hodgkin[2] إن انتشار الإسلام جنوب الصحراء كان يعنى — من بين ما يعنيه — وجود ارتباط أكثر قوة بين العالمين العربى والزنجى عبر الصحراء ، وكان يعنى كذلك نمـــو تعاليم الإسلام وعلومه .

ونمو علوم الإسلام قاد الشعوب الإسلامية جنوب الصحراء إلى تكوين الدول ، فالفكر الإسلامى فى السياسة يحث على التجمع ويضع نظما دقيقة للسياسة والحكم[3] . كما قادتهم لنفس الغاية صلتهم بالدول العربية ، وبخاصة فى مواسم الحج ، وتعرفهم على نظام الحكم بها ، ثم إن العناصر المهاجرة أدخلت معها فكرة الدولة بدل القبيلة ، وهذا وسواه أدى إلى قيام الدول الإسلامية على طول هذا القطاع .

وسنقوم فيما يلى بدراسة تاريخ هذه الإمبراطوريات وتلك الدول ، وسنسير فى دراستنا كعادتنا من الغرب إلى الشرق :

---

(١) نقلا عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » للدكتور طرخان ص ١٠ .
See Also : Trimingham : Islam in West Africa p. 34.

(٢) فجر التاريخ الإفريقى ص ٢٦ .

(٣) انظر كتاب « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

الإمبراطوريات والسلطنات الإسلامية
جنوب صحراء إفريقية قبل الاستعمار الأوربي

الصحراء الكبرى
مرتفعات تبستي
نهر النيل
البحر الأحمر
أغاديس
مالي
تمبكتو
غانه
التكرور
صوصو
صنغاي
برنو
كانم
الفاشر
أم درمان
الفونج
سنار
تقلي
دارفور
باجرمي
كانو
كوكو
البحر
ويا
خليج غانه
السنغال
المحيط الأطلسي
مقديشو

إمبراطورية مالى (١٢٤٠ م – ١٤٨٨ م)

قلنا فى الباب الثانى عند الحديث عن دولة غانة[١] : إن المرابطين بقيادة أبى بكر بن عمر هاجموا دولة غانة الوثنية ، واستطوها سنة ١٠٧٦ م ، وجعلوها جزءاً من إمبراطوريتهم ، وأشاعوا الإسلام فى ربوعها ، وبعد موت أبى بكر سنة ١٠٨٧ اختلف أتباعه فى هذه البقاع ، ففتح هذا الخلاف الباب للسوننكى حكام غانة السابقين ليستعيدوا نفوذهم ، ولكن صراعاً دبّ بين المقاطعات التى كانت خاضعة لإمبراطورية غانة ، وكان النصر فى هذا الصراع لقبائل الماندنجو المسلمة الذين كانوا سادة مقاطعة كانجابا ، إحدى هذه الدويلات ، وكان يقودهم ملكهم سندياتا ، وقد أتاح لهم ذلك النصرُ أن يستولوا على أكثر الأجزاء التى كانت تابعة لدولة غانة ، وأن يقيموا على أنقاض غانة دولةً جديدة إسلامية عُرِفت بدولة مالى أو ملّى ، وكان ذلك سنة ١٢٤٠ م ، وقد رأى الملك سندياتا زعيم الماندنجو أن يبنى عاصمة جديدة فى نفس السنة لتتوسط هذا الملك الكبير بدل عاصمته القديمة « جرية » ، التى يسميها الإمام محمود كعت « جكاريبَ »[٢] ، ويكتبها Panikar « دياليبا Dialiba »[٣] ، فاختار مكانا غير بعيد من نهر النيجر وشيَّد فيه عاصمته الجديدة وسماها Niamey ، ويذكر القلقشندى نقلا عن مسالك الأبصار للعمرى أن العاصمة كانت بَنْبى[٤] ، ويوافقه على ذلك ابن خلدون ، [٥] ، ولعل تسمية مالى كانت تبعاً لأقدم مدينة عرفت بهذه المنطقة ، وهى مدينة Malel[٦] .

---

(١) انظر ص ١٠٩ – ١١١ . (٢) تاريخ الفتاش ص ٣٨ .

(٣) Serpent and Crescent p. 73

(٤) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٨٣ . (٥) العبر جـ ٦ ص ٢٠٣ .

(٦) Trimingham : The History of Islam in West Africa p. 81

وإذا تذكرنا أن دولة الموحدين سقطت سنة ١٢٦٩ م ، وأن الانحلال والتفكك كانا طابع الحياة بعد الموحدين فى الشمال الإفريقى ، إذا تذكرنا ذلك فإن هذا يساعدنا على إدراك سبب من أهم الأسباب لنمو دولة مالى الإسلامية الجديدة ، فإن أفول دولة الموحدين ، والصراع الذى دار بين الدول التى قامت على أنقاضها شغل الشمال الإفريقى عن الدولة الجديدة ، هذا بالإضافة إلى أن النشاط الإسلامى كان يمتد حول الدولة الجديدة ، ويمهد الطريق لها لمزيد من الانتصار والتوسع ، ولذلك نشهد استمرار حركة التوسع فى عهد الملك سنديانا نفسه ، وفى عهد الملوك الذين جاءوا بعده ، وبذلك صار الذين يتولون السلطة يلقبون « مَنْسَى » أى الملك الأكبر[1] ، وملوك مالى هم :

سندياتا ولقبه (مارى جاطة) ومارى معناها أمير وجاطة معناها الأسد ، ومعنى اللقب الأمير الأسد أو الشجاع	١٢٣٠ — ١٢٤٠ ملك مملكة كانجابا ١٢٤٠ — ١٢٥٥ إمبراطور مالى	
ملسى على بن سندياتا	١٢٥٥ — ١٢٧٠	
فترة اضطراب تولى فيها بعض الملوك الضعاف والحمقى ومنهم الملك والى والملك خليفة	١٢٧٠ — ١٢٨٥	
ساكورة (مولى اغتصب الملك ، عرف بالقوة ، وحقق كثيرا من الانتصارات)	١٢٨٥ — ١٣٠٠	

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٥ .

عودة الملك إلى الأسرة الحاكمة ، ولكن تولاه ملوك ضعاف منهم محمد بن قو	١٣٠٠ — ١٣٠٧

منسى موسى (أعظم ملوك مالى) (من أحفاد أبي بكر شقيق سنديانا)	١٣٠٧ — ١٣٣٢
مغا بن موسى	١٣٣٢ — ١٣٣٦
سليمان شقيق منسى موسى	١٣٣٦ — ١٣٥٠
قنقبا بن منه سليمان	١٣٥٠ — ١٣٥٣
فترة اضطراب	١٣٥٣ — ١٣٥٩
مارى جاطة الثانى بن مغا	١٣٥٩ — ١٣٧٥
موسى الثانى بن مارى جاطة الثا	١٣٧٣ — ١٣٨٧(١)

وبعد ذلك تجيء فترة انحلال وضعف لمدة قرن تولى خلاله ملوك لا قيمة لم أو ملوك غلبتهم الأحداث ، وانتعشت خلال ذلك مملكة صنغى ثم قضت على إمبراطورية مالى مع نهاية القرن الخامس عشر ، وعاد حكام مالى بعد هذا الانكماش إلى دولتهم الصغيرة فى كنجابا حتى دهمهم الاستعمار الأوربى ، وسنعود بشيء من التفصيل لهذا الإيجاز :

مالى بين الارتفاع والانكماش :

أشرنا إشارات سريعة إلى أحوال مالى ونحن نعدد ملوكها ، ونريد أن نعطى هنا بعض التفاصيل لأحوال الانتصارات والهزائم التى تتصل بهذه الدولة ، وأغلب الدول تبدأ نشيطة قوية ، ثم تستمر حتى تصل إلى قمة

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠٠ — ٢٠٣ .

بالنصر ، ثم تبدأ فى الانحدار حتى تسقط أو تضعف ، ومالى سلكت نفس الطريق ، وتشبه حياتها قوساً يجلس منسى موسى على قمته ، فكل الملوك الذين سبقوه وضعوا أسس المجد الذى أتمه ، ثم بدأت الدولة بعده فى الانحدار بسبب الترف والاعتماد على ما خلفه الآباء والأجداد حتى كانت النهاية ، وسنسير هنا خطوة خطوة ، نصف الدولة وهى ترتفع وتنهض ، ونصفها وهى فى أوج عظمتها ، ثم نعطى لمحات عنها حتى تنهار ، ولولا ما ذكره ابن خلدون الذى عاصر فترة الانهيار وتحدث عنها حديث معاصر ، لولا هذا لما وجدنا عن هذه الفترة مادة تذكر لأن الانهيار السياسى يتبعه غالبا انهيار فكرى وعلمى يوقف أقلام الكتاب ورحلات الرحالة ، فلا يصل لنا ما نحتاجه من تاريخ ، أو بلغة أخرى أن الدول وهى تنهار ليس لها تاريخ يستحق التدوين ، فلنبدأ سيرة مالى من أولها :

كان الملك سندياتا مؤسس إمبراطورية مالى يقود جيوشه بنفسه فى المرحلة الأولى لتكوين الإمبراطورية ، حتى تم له الانتصار على غانة ، وبنى عاصمته الجديدة ، ثم توقف عن حمل السلاح وترك ذلك لقواد جيشه الذين لم يقنعوا بهذا الانتصار ، وتخطوا باسمه حدود بلادهم ، يحاربون وينتصرون فى كل الاتجاهات[1] ، حتى أدخلوا ضمن مملكتهم بلاداً وراء السنغال لم يسبق أن هزمتها دولة غانة ، كما وصلوا إلى نهر جامبيا ، واندفعوا إلى مسافات بعيدة جنوب السنغال حتى حدود (تكرور) ، وبدأت مالى تمارس نشاطها فى السودان الغربى كله ، وحققت آمالها فى ميادين السياسة وميادين الاقتصاد ، وامتدت الإمبراطورية من جبال الأطلس غرباً إلى بلاد الموسا شرقاً ، ومن المحيط الأطلسى جنوباً حتى الصحراء الكبرى شمالاً . وحج « مارى جاطة » شكراً لله على هذا الانتصار

---

(1) J.D. Fage : West Africa p. 26

المظلم ، والتوفيق الذى حالفه وحالف جيشه ، وأعان العلماء فى ظل الدولة الجديدة على نشر العلم والإسلام(١) .

ويضيف ابن خلدون أنه بذلك اعتز سلطان مالى ، وهابتهم أمم السودان، وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وإفريقية(٢) .

وحمل منسى على الراية بعد أبيه ، فسار سيرته وأتم بعض انتصاراته ، وقد ظهرت فى عهده بعض اتجاهات الوهن ، وامتدت بعده ، ولكن ذلك لم يؤثر فى سير الدولة لأنها كانت فى فترة القوة والمد والشباب ، فتغلبت على الضعف والوهن إلى حد كبير .

وجاء عهد منسى موسى أزهى عهود الدولة ، فوصل قمة التوسع ، إذ استولت جيوشه على مملكة صنغى الواقعة على نهر النيجر ، وضمت عاصمتها « جوا » ومدينة تمبكتو التى كانت مركزاً ثقافياً عظيماً تحدثنا عنه من قبل ، وضمت بلاد التكرور فى الغرب ، وامتدت شمالا فى قلب الصحراء وجنوباً حتى فوتاجالون ، وحدود نيجيريا الحديثة ، فكان أول من ملك صنغى من سلاطين مالى(٣) . وقد ذكر القلقشندى(٤) الأقاليم التى انضوت تحت لواء منسى موسى ، فقال : إنها كانت ملى ، وصوصو ، وغانة ، وكوكو ، وتكرور ، ويضيف القلقشندى قصة تدل على أن أطماع منسى موسى كانت واسعة ، فإنه لم يقنع بسيطرته على البر ، بل أراد أن يسيطر على المحيط وأن يكتشف ما خلفه من أرض ، فأرسل مجموعة من السفن شحنها بالزاد والرجال ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفشل(٥) ، ولعل أعظم المناطق التى

---

(١) Trimingham : A History of Islam in West Africa pp. 64—65

(٢) العبر ج ٦ ص ٢٠٠ . (٣) السعدى : تاريخ السودان ص ٧ .

(٤) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٢ .

(٥) أورد الدكتور عبد الرحمن زكى هذه القصة على أنها من صنع الملك السابق لمنسى موسى : الإسلام والمسلمون فى غرب إفريقية ص ٣٤

قهرها منسى موسى كانت دولة صنغى التى أشرنا لها ، والتى تقع على النيجر الأوسط ، وكانت صنغى دولة مسلمة منذ أن أسلم ملكها (زا) سنة ١٠٠٩ قبل عهد المرابطين بنحو خمسين سنة كما سبق .

وامتدت مالى كذلك فى أثناء حكم منسى موسى داخل الصحراء فاستولت على مناجم الملح فى تيغزّة ، ومناجم النحاس فى تكيدا ، ووصلت إلى المحيط الأطلسى ولم يكن هناك مكان فى الأراضى الواقعة بين النيجر والغابات والسنغال غيرّ داخل فى إمبراطورية مالى سوى بلدة جنى الواقعة على ممرات النيجر ، وسوى مملكة موشى التى كانت آخذة فى النمو ، والتى تقع فى جنوب منعطف نهر النيجر[1] . وهكذا بلغ الاتساع مداه ، وفى عهده اتجهت عناية مالى لنشر الإسلام حتى عمر أكثر بلاد نيجيريا ، وأصبح أهل يوروبا يدعون الإسلام بدين مالى وظلوا على ذلك حتى العهد الحاضر[2] ، ويقرر Trimingham أن منسى موسى صبغ مالى بصبغة إسلامية واضحة بما شيده بها من مساجد ، وبالاحتفالات الباهرة فى المناسبات الإسلامية المختلفة ، وبرعايته للعلم والعلماء[3] .

وبقيت الدولة فترة فى هذه القمة ، ونشط منسى سليمان شقيق منسى موسى لإصلاح الخلل اليسير الذى أصاب الدولة بعد موت أخيه ، كما أنشأ كثيرا من المساجد والمدارس .

وبوفاة منسى سليمان ، بدأ الانحدار الذى لم يمكن جبره ، فقد كان ماري جاطة الثانى سيئ السيرة ، مسرفا فى خبل ، مترددا فى ضعف ، ويقول عنه ابن خلدون إنه كان أشدّ والٍ على قومه ، بما سامهم من

---

(١) J. D Fage : An Introduction to the History of West Africa p 26

(٢) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٦ .

(٣) Islam in West Africa p. 70

النكال والعنف وإفساد الحُرَم ، فأتلف ملكهم وأفسد ذخيرتهم ، وقد انتهى به الحال فى سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذى كان فى جملة الذخيرة عن أبيهم وهو حجر يزن عشرين قنطارا منقولا من المعدن من غير علاج بالصناعة ولا تصفية بالنار ، كانوا يرونه من أنفس الذخائر والغرائب لندور مثله فى المعدن ، فعرضه جاطة هذا على تجار مصر المترددين إلى بلده فابتاعوه منه بأبخس ثمن[1] ؛

وجاء بعد مارى جاطة الثانى ابنه موسى وقد عاصره ابن خلدون ، ولذلك فهو يكتب عنه حديث معاصر ويقول إنه الآن مرجو الهداية . . . ولكن الأمر كان قد أفلت ، والدولة كانت قد اتجهت للانحدار ، فآذن ذلك بالزوال[2] ؛

ونتيجة لهذا الاضطراب تفكك جيش مالى وتمزق ، وأصبح أداة سوء وخلل ، ولم يعد أداة دفاع وقوة ، ومن هنا فتح الباب لاستقلال الدول والإمارات التى كانت أجزاءً من الإمبراطورية ، وتمزقت أوصالها ، وجاءتها الضربات من كل جانب ، ففى الشمال هب الطوارق فى حركة استقلالية واسعة شملت ولاتة وتمبكتو ومعظم الأقاليم الشمالية ، وفى الجنوب الغربى وجه التوكولور والولوف ضربات قوية إلى الإمبراطورية واستقلوا بأجزاء منها ، وفى الجنوب ضمت قبائل موشى جزءا كبيرا من أملاك الإمبراطورية المتداعية ، وفى الشرق تعرضت الإمبراطورية لهجمات دولتى صنغى وكانم .

على أن أكبر الضربات التى وجهت لإمبراطورية مالى كانت من صنغى التى تحررت من سلطان مالى ، ثم قويت قوة عظيمة جعلتها تثأر لكبريائها وتمد نفوذها إلى الدولة التى كانت يوما صاحبة النفوذ فيها ، وفى النصف

---

(١) العبر جـ ٦ ص ٢٠١ – ٢٠٢ . (٢) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

الثانى من القرن الخامس عشر كان جلال مالى قد آذن بالزوال ، ولم يبق لحكامها إلا الإمارة الضئيلة التى نشأوا فيها « كنجابا » ، وقد دهمهم الاستعمار الأوربى وهم فى هذه الإمارة الصغيرة[1] .

انتصارات مالى :

تجمعت لإمبراطورية مالى مصادر هامة للثراء أشاعت الغنى والرخاء فى دوائر الحكومة ولدى أفراد الشعب ، فقد استولت مالى كما قلنا على مناجم الملح فى تغزة ، وكان الملح عظيم القيمة يستبدل به الذهب ، واستولت على مناجم الذهب فى ونقارة ، ومناجم النحاس فى الشرق ، وتدفقت إلى خزانة الدولة الضرائب من مختلف النواحى بهذه الإمبراطورية الفسيحة ، وفيما يتصل بالذهب حاول ملوك مالى أن يحولوا أهل ونقارة من الوثنية الى الإسلام ، ولكن هؤلاء هددوا بالكف عن استخراج الذهب من مناجمه إن أرغمتهم الدولة على اعتناق الإسلام ، فكف ملوك مالى عن هـــذه الحالة وتركوهم للزمن وللمؤثرات البطيئة مما جعل أهل ونقارة يتأخرون فى اعتناق الإسلام[2] .

واهتم ملوك مالى بالزراعة ، وكانت الأرض الفسيحة التى تتكون منها الإمبراطورية تشمل مناطق عظيمة الخصوبة ، فتدفقت الثروات من الحاصلات الزراعية المختلفة التى ازدهرت بمناطق الإمبراطورية .

وسيطرةُ مالى على هذه المناطق الواسعة يسّر أعمال التجارة ، فأخذت الأسواق المختلفة من الشمال ومن الشرق تتصل بمالى ، ولعل شأن تمبكتو

---

(١) يورد Panikar تفاصيل الانهيار والضعف انظر ص ١٠٨ – ١٠٩ وانظر كذلك : Fage : West Africa p. 26 .

(٢) Ward : History of Africa p. 64

التجارى ، وكانت الطرق ماثجة بالقوافل التجارية التى تروح وتجىء بنشاط واسع فى ظل الاستقرار والأمن .

وهكذا انتشر الغنى والرخاء فى مالى ، وقد قلنا من قبل إن التوسع كان من أسباب جلب الرخاء ، ونقول الآن إن الرخاء كان من أسباب المحافظة على التوسع وأسباب المحافظة على الأمن والسكينة[1] .

وتمدنا المراجع التى بين أيدينا بنماذج لهذا الغنى نختار نموذجا منها يتمثل فى رحلة منسى موسى إلى الحج عن طريق مصر سنة ١٣٢٤ م ، فلقد كان موكبه من أروع المواكب التى شهدتها مصر لحاج من الحجاج ، حتى ليبدو وصفه مبالغا فيه ، وحتى أن أكثر المؤرخين المحدثين حين يروون أحداث هذا الموكب يعلقون عليها بأن الخيال والمبالغة لعبا دورهما فى هذا الوصف ، ولعل مثار الدهشة أن المؤرخين المحدثين لم يتح لهم أن يروا فى حياتهم الواقعية مثل هذا الموكب أو ما يقرب منـــه ، فقاسوا أحداث الماضى بالحاضر فاستنكروه ، وسنقتبس فيما يلى مقتطفات مما أثر عن هذا الركب دون تعليق سوى ما قدمناه :

كان هذا الركب يضم عدداً كبيراً يصل السعدى فى تقديره إلى ستين ألفاً[2] ، وكانت قافلة الملك تتألف من ثمانين جملا يحمل كل منها ثلاثة قناطير من التبر ، بخلاف الهدايا النفيسية التى أحضرها الملك ليقدمها إلى العظماء والملوك[3] ، وأمام موكبه كان يسير ٥٠٠ عبد يحمل كل منهم عصاً من ذهب ، وقد قدرت أثمان هذه العصى بملايين الجنيهات[4] ، وكان له وصائف يبلغ عددهن اثنى عشر ألفاً لابسات أقبية الديباج والحرير اليمانى[5] ،

---

(١) انظر : Basil Davidson : Rediscovery of Africa pp. 45—46

(٢) تاريخ السودان : ص ٧ .   (٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠١ .

(٤) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠١ .

ويقول الإمام محمود كعت : إنه فى الطريق بين تعازة وتوات أحست الإمبراطورة برغبة فى الاستحمام ، وكان المكان قفراً ، ولكن الأوامر صدرت فأقيمت بحيرة صناعية لاستحمام الملكة ، ويعطى كعت وصفاً دقيقاً لهذا العمل(١) .

وقد ندب السلطان الناصر محمد سلطانُ مصر أحدَ أمراء المماليك ليكون فى صحبة الضيف الكبير ، وقد روى هذا المملوك ما عرفه من معلومات وتلقاها عنه العمرى صاحب مسالك الأبصار ، واستقبل السلطان الناصر ضيفه فى القصر السلطانى بكثير من الترحيب والتقدير ، وقدم إمبراطور مالى للسلطان أروع الهدايا من بينها حمل جمل من الذهب الخالص ، كما قدّم لحاشية السلطان وللأمراء والموظفين هدايا عظيمة كان الذهب فى قمتها .

أما سلطان مصر فقد بعث بالخلع للإمبراطور ولحاشيته ، كما كفل له جميع وسائل الراحة خلال رحلته ، فزوده بالمئونة والحراسة وقدّم له ما يحتاجه الركب من جمال وهجن ، ويقول Davidson إن سكان القاهرة ظلوا يتحدثون عن هذا الموكب الفخم طيلة مائة عام بعد مروره بها ، فكانوا يتحدثون عن خدم الملك وزوجاته وهداياه وفرسانه ، وكل مظاهر العظمة التى تمتع بها ملك يمتد سلطانه ليشمل بلاداً تعادل فى مساحتها مساحة غرب أوربا كلها مجتمعة(٢) .

ولما وصل منسى موسى الحجاز ، فاضت خيراته وهداياه على سكان الأراضى المقدسة حتى لهج الجميع بشكره والدعاء له ، ولم تكن خيرات الإمبراطور وهداياه مقصورة على مصر والحجاز ، بل نعم بها الناس والقبائل على طول الطريق من مالى إلى مكة المكرمة .

واشترى السلطان من مصر ومن الحجاز هدايا لآله فى مالى ، وكان

---

(١) تاريخ الفتاش : ص ٣٤ وما بعدها .

(٢) إفريقية القديمة تكتشف من جديد : ص ٤٦ .

يدفع أضعاف ثمنها للبائعين ، ويروى أنه أنفق كل ما كان معه من مال حتى اضطر فى النهاية إلى الاستدانة من التجار الذين لهم علاقات تجارية ببلاده ، وسرعان ما سدد هذه الديون[١] .

ويقول Trimingham إن رحلة الحج التى قام بها منسى موسى كانت شديدة الأهمية فى تاريخ مالى ، وبسببها ارتفت سمعة مالى رقياً عظيماً ، وطبقت شهرتها الآفاق من الأندلس إلى خراسان ، وأصبح منسى موسى من أشهر أسماء ملوك عصره ، واتخذت مالى مكانها الواسع فى خرائط هذا العصر[٢] ، واتجه المؤرخون الذين عاصروا منسى سليمان أن ينجذبوا للكتابة عن تاريخ منسى موسى أكثر مما فعلوا تجاه معاصرهم وإمبراطور مالى فى زمانهم[٣] .

ومن الآثار الكبيرة التى تتصل برحلة الحج التى قام بها منسى موسى أن السلطان التقى فى مكة بمهندس عربى شاعر من عرب إسبانيا اسمه « أبو إسحق الساحلى » وصحبه إلى بلاده ، وفى تمبكتو أراد السلطان أن يشيد قصراً جميلا يليق بهذا الملك الكبير ، ويقول ابن خلدون إن أبا إسحق أطرفه ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته ، وكان صناع اليدين ، وأضفى عليها من الكلس ، ووالى عليها بالأصباغ ، فجاءت من أتقن المبانى ، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب ، وبنى له كذلك مسجدا عظيما فى تمبكتو أيضا ، وقد وصل منسى موسى أبا إسحق باثنى عشر ألفا من مثاقيل التبر مثوبة عليها بالإضافة لما جعل له من الأثرة والصلات السنية[٤] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٥ ص ٢٧٩ — ٣٠٠ نقلا عن مسالك الأبصار للعمرى وتاريخ السودان للسعدى ص ٨ .

(٢) A History of Islam in West Africa pp. 65—67

(٣) Ibid p. 65

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠١

مالي من الناحية الاجتماعية :

لعل ابن بطوطة هو أهم مرجع يصف لنا حالة مالي الاجتماعية ، وقد زارها ابن بطوطة خلال مدة الإمبراطور منسى سليمان ، وقابل ابن بطوطة السلطان وتنقل بين المدن والتقى بالعلماء ، ورحلة ابن بطوطة في مالي وفي سواها دراسة اجتماعية قبل كل شيء ، فهو يصف ما رآه وما شاهده وما سمعه ، وهو يعيش بين الجماهير ويتصل بالعظماء ، ويدون تجاربه وملاحظاته ، فلا عجب أن نعتمد عليه في مجال بيان الحالة الاجتماعية لمالي ؛ يقول ابن بطوطة(1) :

من الأفعال الحسنة لأهل مالي قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ولو كان القناطير المقنطرة ، وإنما يتركونه بيد ثقة حتى يأخذه مستحقه ، ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم بها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ، ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد ، ومن عاداتهم لبس الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص غسله ونظفه وشهد به الجمعة ، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن الكريم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر منهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه .

ويذكر ابن بطوطة أن من مساوئ عاداتهم أن الخدم والجواري والبنات

---

(1) تحفة النظار جـ ٢ ص ٢٣٧ وما بعدها بتقديم وتأخير ، وقد سبق أن اقتبسنا بعض ذلك في مناسبة سابقة .

الصغار يظهرن للناس عرايا ، ويعجب ابن بطوطة كيف لم يقض الإسلام على هذا التصرف البغيض .

ويورد ابن بطوطة قصة وفاء حدثت لمنسى موسى ، فإن رجلا من تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن ، كان قد أحسن للسلطان فى صغره بسبعة مثاقيل ، فلما آل الملك إلى منسى موسى تذكر ذلك فقرب الشيخ وأجلسه بجواره ، وسأل الأمراء عن المكافأة التى تليق لفعله فقالوا : الحسنة بعشر أمثالها ولكن السلطان أعطاه سبعمائة وأعطاه كسوة وعبيدا وخدما ، وأمره ألا ينقطع عنه .

ويذكر ابن بطوطة أن أهل السودان أعظم الناس تواضعا لملكهم ، وأشدهم تذللا له ، وهم يحلفون باسمه ، ويصف ابن بطوطة ملابس السلطان وملابس القضاة والفقهاء ومن أهمها الطيلسان ، كما يصف أسلحتهم وألعابهم التى فيها كثير من المهارة والفروسية ، وكذلك ألعاب الصبيان فى الاحتفالات الكبرى ، وكيف أنهم يتقلبون فى الهواء ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويؤدون ذلك فى رشاقة وخفة بديعة .

ويصف ابن بطوطة مجالس السلطان وقبته وما يفعله أصحاب الرماح والخيالة فى موكبه ، وإنشاد الشعر أمامه ومكافآته للشعراء ...

وهكذا يدور حديث ابن بطوطة فى كل صوب ويصف كل اتجاه .

النظام الإدارى فى مالى :

يتحدث القلقشندى[١] عن النظام الإدارى فى مملكة مالى فيقول : وكان بهذه المملكة الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين ، والسلطان لا يكتب

---

(١) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

شيئا فى الغالب بل يكل كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء ، وكتابتهم بالخط العربى على طريقة المغاربة .

وكان عسكر السلطان مائة ألف ، منهم عشرة آلاف من الخيالة والباقى مشاة ، وكانت إقطاعات السلطان تشمل الأمراء وكبار الموظفين والجند ، وكانت إنعاماته عليهم متواصلة ، ومن أكابرهم من يبلغ جملة ما يأخذه من السلطان فى العام خمسين ألف مثقال سوى القماش والهدايا العينية .

صلات مالى بالخارج :

اتسعت صلات مالى فشملت الدول الإسلامية المهمة آنذاك شملت مصر التى كانت بها الخلافة العباسية آنذاك ، والتى كانت تعتبر مركز الثقافة الإسلامية ، وشملت المغرب وثيق الصلة بالمناطق التى شغلتها مالى ، وشملت الأندلس الإسلامية التى كانت غرناطة تمثلها فى ذلك الحين .

وكانت علاقة مصر ببعض المناطق التى تكونت منها مالى علاقة قديمة تسبق قيام إمبراطورية مالى ، ومن أشهر هذه المناطق منطقة تكرور التى كانت تعيش منها جالية كبيرة فى بولاق بالقاهرة حتى عرفت ببولاق التكرور ، وكان ضمن هذه الجالية رجل من الصلحاء اسمه الشيخ أبو محمد يوسف ابن عبد الله التكرورى ، وقد توفى فى بولاق وبنى له مسجد وقبة وعرف مسجده باسم جامع التكرورى(١) .

وفى ظل إمبراطورية مالى نمت هذه العلاقات نموا واسعا وشملت اتجاهات متعددة ، ولعل الصلات الثقافية كانت أوسع هذه الصلات ، فقد

---

(١) دكتور عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية ص. ٤٣ .

كان لطلاب مالى رواق عظيم فى الأزهر عرف أيضاً برواق التكاررة ، ورحل كثير من علماء مصر إلى تمبكتو ليعلموا بها ، ورحل من تمبكتو بعض العلماء ليتصلوا بعلماء مصر ويتدارسوا معهم بعض المسائل ، وقد جلس بعضهم يعلم فى الأزهر ، ومن الصلات الثقافية كذلك اهتمام أهل مالى بالكتب الإسلامية التى تنشر فى القاهرة ، ويروى أنه عند زيارة منسى موسى لمصر وهو فى طريق الحج اشترى مجموعة كبيرة من الكتب الإسلامية ليودعها فى مكتبات مالى خدمة للعلم وطلابه .

وهناك صلات إدارية بين مصر ومالى تظهر من الألقاب المسجلة فى الدواوين المملوكية لمكاتبة ملوك مالى(١) ، ومن التكاررة من خدم فى الجيش المملوكى ، وترقى حتى وصل إلى الرتب العالية مثل عنبر التكرورى الذى رقاه قايتباى سنة ١٤٩٥ إلى نائب مقدم المماليك ثم صار مقدما سنة ١٤٩٩ ، وقد خدم بعض المماليك المصريين كذلك فى حاشية سلاطين مالى ؛ ويقال إن عددهم وصل الأربعين(٢) .

وكانت هناك صلات تجارية بين مصر ومالى ، ورحل التجار المصريون إلى مالى ، ورحل تجار مالى إلى مصر ، وكانت القوافل التجارية لا تكاد تنقطع بين البلدين ، تحمل من مالى الذهب والنحاس ، وتحمل من مصر الأقمشة والحبوب ، وقد اتسعت هذه التجارة عقب رحلة منسى موسى إلى مصر فى طريقه إلى مكة(٣) .

وكانت هناك صلات واسعة بين مالى وبين المغرب ، وذلك شيء طبيعى لعمق الصلة بين المنطقتين ، وقد زادت هذه الصلة نمواً فى عهد السلطان

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ١١٥
(٢) دكتور عبد الرحمن زكى : المرجع السابق
(٣) Serpent and Crescent p. 99

أبي الحسن علي المريني ، وانتهز منسى موسى فرصة استيلاء الأخير على تلمسان وبعث إليه بالتهنئة ، كما كان هناك ممثلون دائمون لمالي في مدينة فاس ،

وامتدت علاقات مالي كذلك إلى الأندلس ، وقد سبق أن ذكرنا أن منسى موسى صحب مهندسا عربيا من أبناء الأندلس ليبني له قصراً ومسجداً في تمبكتو ، وقد أصبح هذان البناءان طرازاً يحتذى في مالي مما أشاع الفن الأندلسي في هذه البلاد ، هذا وقد وفد إلى مالي بعض العلماء الذين فروا من الأندلس تحت ضغط الزحف المسيحي وحملوا معهم إلى إفريقية صوراً من حضارات المسلمين بأسبانيا :

صنغى

(١٤٦٤ - ١٥٩١)

قلنا فى الباب الثانى عن صنغى إنها كانت دولة وثنية ، وإن الملك الخامس عشر من الأسرة المالكة بها اعتنق الإسلام سنة ١٠٠٩ ، وأصبحت بذلك صنغى دولة مسلمة(١) ، وكانت صنغى جارة لإمارة كانجابا التى كان الماندنجو المسلمون سادتها ، وقد حصل احتكاك ومنافسة بين صنغى وكانجابا ، وكانت كفة صنغى أرجح آنذاك ، فاستطاع ملكها زايمكورى أن يمدّ نفوذه إلى كانجابا وأن يقتل أبناء السلطان جميعاً .

ثم دار الزمان دورته واستعادت كانجابا مكانتها وتطورت حتى أصبحت دولة مالى العظيمة ، وعندما كان منسى موسى فى طريق عودته من مكة سنة ١٣٣٢ م رأى أن يثأر من صنغى فعرج على عاصمتها جاو ، وكان ملكها قد مات حديثاً وخلف ولدين صغيرين هما على كولن وسليمان نار(٢) ، فأخذهما منسى موسى معه إلى عاصمته ؛ ويعلل السعدى للملك بقوله إن منسى موسى أخذهما للخدمة على عادتهم بالنسبة لأولاد الملوك الذين فى طاعتهم ، وتلك العادة جارية عند سلاطين السودان كلهم . والمعتقد أن أخذ أولاد الملوك إنما كان كرهينة وليس فقط للخدمة ، فقد ذكر السعدى رحلات الأميرين وغيبتهما الطويلة من حين إلى حين ، ولو كانا للخدمة للازما الملك(٣) ، وعلى كل فإن نفوذ مالى امتد فشمل صنغى ، ويقول السعدى إن منسى موسى هو أول من ملك صنغى من سلاطين مالى(٤) .

---

(١) ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) هما ابنا زاياسيى فى رواية السعدى (تاريخ السودان ص ٣) .

(٣) اقرأ تاريخ السودان ص ٦ .   (٤) تاريخ السودان ص ٧ .

(التاريخ الإسلامى ٦ : ١٧)

ودار الزمان دورته مرة أخرى وأخذت دولة مالى فى الانحدار بعد منسى موسى ، فاستطاع الولدان — وكانا قد وصلا سن الرجولة — أن يهربا من عاصمة مالى وأن يتجها إلى عاصمة صنغى بعد سلسلة طويلة من الحيل والتدبير ذكرها السعدى[1] ، وهناك استقبلهما المواطنون بكثير من الفرح والتأييد ، وهبت ثورة ضد جنود مالى المقيمين فى صنغى ، ونجحت هذه الثورة وطردت هؤلاء الجنود واستردت صنغى بذلك حريتها من جديد . وأصبح على كولن سلطاناً لها باسم « سنّى على » ، وكان ذلك حوالى سنة ١٣٧٥ ، وأصبحت هذه الكلمة «سنى» لقبا يستعمله ملوك مالى بدلا من لقب « زا » الذى كان مستعملا من قبل ، وبعد سنى على تولى أخوه سليمان . . . .

على أن مالى لم تستسلم لذلك الوضع بل عادت تكافح لتعيد صنغى إلى دائرة نفوذها ، وقامت بذلك عدة حروب بين الجانبين ، فلما بدأ نجم إمبراطورية مالى فى الأفول فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، كان ذلك إيذاناً بتألق صنغى ، ونالت صنغى هذه المرة نصراً حاسماً على مالى ، وبدأت خطواتها نحو تكوين إمبراطورية عظيمة سنة ١٤٦٤ ، وكان ذلك بقيادة ملك اسمه على أيضاً ، عرف فى التاريخ باسم سنى على الكبير ، وبه بدأت إمبراطورية صنغى ، وبينه وبين سلفه سنى على كولن عدة سلاطين ذكرهم السعدى ، وأباطرة مالى ابتداء من سنى على الكبير هم :

سنّى على الكبير	١٤٦٤ — ١٤٩٢	
سنى بارو بن على	١٤٩٢ — ١٤٩٣	
أسكيا الحاج محمد	١٤٩٣ — ١٥٢٩	بعد فترة صراع ضد أولاد سنى على الكبير
أسكيا موسى	١٥٢٩ — ١٥٣١	

(١) المرجع السابق ص ٦ .

أسكيا محمد بنكن	١٥٣١ – ١٥٣٧
أسكيا إسماعيل بن محمد	١٥٣٧ – ١٥٣٩
أسكيا إسحق بن محمد	١٥٣٩ – ١٥٤٨
أسكيا داود بن محمد	١٥٤٨ – ١٥٨٢
أسكيا محمد الثانى بن داود	١٥٨٢ – ١٥٨٦
أسكيا محمد بانى بن داود	١٥٨٦ – ١٥٨٨
أسكيا إسحق الثانى بن داود	١٥٨٨ – ١٥٩١
فترة اضطراب حكم فيها ابن زرقون نائباً عن سلطان المغرب	١٥٩١ – ١٥٩٢
أسكيا نوح	١٥٩٢ – ١٥٩٤

قتل فى معركه ضد مراكش وبنهايته انتهت إمبراطورية صنغى .

كلمة عن ألقاب ملوك صنغى :

رأينا أن أول ملك لصنغى اعتنق الإسلام كان يلقب « زا » ومعناها الملك ، وكان يُكتَفَى بهذا اللقب أحياناً دون ذكر اسم معه ، كما يتحدث المواطنون عن الملك أو الإمبراطور أو الرئيس دون ذكر اسمه ، وقد ظلت الأسرة التى يحمل ملوكها لقب « زا » عـدة قرون تحكم صنغى ، وكان آخر من حمل هذا اللقب هو زا ياسبى الذى مات وخلَّف ولدين صغيرين أخذهما منسى موسى لقصره عقب احتلال مالى لصنغى .

وفرّ الولدان – كما سبق القول – وجاهد شعب صنغى لاسترداد حريته بقيادة أحدهما وهو على كولن ، وانتصر على كولن فى نضاله ضد مالى ، وأصبح ملكاً على صنغى ، فاتخذ هذا لنفسه لقب « سنّى » ، أى المحرر ، بدلا

من لقب زا الذى اختفى خلال فترة احتلال صنغى ، وظل لقب « سنى » يستعمله الملوك من سنة ١٣٧٥ إلى ١٤٩٢ وهو تاريخ نهاية سنى على الكبير مؤسس إمبراطورية صنغى .

وكان سنى على الكبير محارباً عظيماً ولكن فيه طيش ونزق ، وكان مسلماً ولكنه لم يكن متحمسا للدين ولا شديد الاكتراث بشعائره ، وكان أهوج فى طبية وتردد، فكان إذا غضب على أحد أتباعه أمر به أن يُقتل ، ثم يحزن لقتله ويتمنى لو أنه لم يفعل ، وكان له وزير عظيم الشأن ، مسلم قوى الإيمان ، واسع الثقافة والرواية والعقل ، عادل شفوق ، وكانت له بجوار الملك سيطرة واسعة على أمور البلاد ، واسمه محمد أبو بكر ، وقد درس محمد طباع الملك فأخذ يُكمل نقصه ويسد ثغرات خلقه ، فكان الملك يأمر بأحد أتباعه أن يُقتل عقب غضبة عليه ، فيتظاهر الوزير بالاستجابة إليه ، ولكنه يكتفى بإخفاء المغضوب عليه ريثما تهدأ ثورة الملك ويعود كعادته يتمنى لو أنه لم يقتله ، وحينئذ يظهره الوزير ، ويذكر للملك أنه احتفظ به حيا فإن غيّر الملك رأيه فيه أخرجه ، وإن استمر الملك على غضبه نفذ أمر الملك ، وكان الملك يفرح لذلك ، وهذا مكّن لمحمد فى نفوس الناس ، كما مكنت له شجاعته وقيادته الجيوش لتكوين الإمبراطورية .

والمهم هنا أن الملك عندما مات سنة ١٤٩٢ رأى وزيره أن الوقت قد حان ليتولى هو الملك ، وعلى هذا لم يبايع لسنّى بارو بن سنى على الكبير ، وحاربه حتى انتصر عليه ، وأعلن نفسه ملكا على صنغى ، ولما علمت بنات سنى على بذلك صرخت إحداهن وقالت « أسكيا » أى غاصب وقاهر ، وعلم الوزير بذلك فابتسم وقال سأسمى نفسى « أسكيا » رجاء أن أقهر كل الأعداء ، وأصبح « أسكيا » لقب الملوك حتى سقوط الإمبراطورية(١) .

---

(١) السعدى تاريخ السودان ص ٧٢ بتصرف .

بقيت كلمة عن هذا الإمبراطور العظيم الذى ارتضى لنفسه لقب « القاهر » ، وهذه الكلمة ترينا كيف تقهر الأحداثُ الرجالَ ، فقد أمضى هذا الرجل حوالى ستين سنة بين الوزارة والملك حقق فيها ألوانا من النجاح ، ثم تقدمت به السن ، بل تقدمت السن بأولاده وأولاد أخيه ، وكأنهم أحسوا أن الرجل شغل جيله وجيلهم ، ولم يترك لهم فرصةً للحكم والملك ، فثار عليه ابن أخيه موسى وعزله ، وننقل فى هذا الموضوع عبارة القاضى محمود كعت[1] ، وفيها يقول : مكث أسكى محمد فى السلطنة أربعين سنة إلا واحدة ، وقيل ثلاثة وأربعين ، ثم عزله أسكيا موسى ابن أخيه فى يوم عيد الأضحى سنة ١٥٢٨ وتسلطن اسكيا موسى ولكن الله لم يبارك له فعزله أخوه أسكيا محمد بنجان، وجاء بعده أسكيا إسماعيل بن محمد، وفى عهده مات أسكيا محمد، بعد أن انهدَّ جسم الرجل وعانى شيخوخة مريرة ، وكان موته سنة ١٥٤٢ وهو فى السابعة والتسعين .

إمبراطورية صنغى من البداية إلى النهاية :

تكاد تكون أحوال صنغى قريبة الشبه بأحوال مالى ؛ قوة ، تحرر ، توسع ، وصول إلى القمة ، ثم بدء فى الانحدار والانكماش ، وقد سبق أن وصفنا أحوال مالى بأنها تشبه القوس قمته إلى أعلى ، وهكذا كانت حياة صنغى أيضا ويجلس أسكيا محمد فى الذروة من تاريخ صنغى واتساعها ، فكثير من الملوك الذين سبقوه وضعوا أسس الانتصارات التى أكملها هذا الإمبراطور العظيم ، ولنسر مع القصة من أولها .

سبق أن تحدثنا عن « على كولن » الذى استقل بصنغى عن دولة مالى حوالى سنة ١٣٧٥ وسُمِّى لذلك « سُنى على » أى المحرر ، وقد استمرت بلاده بعد ذلك فترة طويلة تكدح لتثبيت هذا الاستقلال الذى عارضته

---

(١) تاريخ الفتاش ص ٧٨ .

مالى بكل قوة ، فسارت المعارك بين انتصارات وهزائم حتى جاء سُنى على الكبير سنة ١٤٦٤ ، ذلك الملك الذى يعد مؤسس إمبراطورية صنغى ، فقد استولى على تمبكتو سنة ١٤٦٨ وطرد منها الطوارق ، وامتد سلطانه فشمل كل الأراضى التى تحيط بمنحنى النيجر ، وبسط نفوذه فى سهول غربى إفريقية فشملها جميعاً ، ثم احتل مدينة جنى ١٤٧٠ وهى لم تخضع قط لإمبراطورية مالى ، ثم اتجه هذا الفاتح إلى مملكة موشى الزنجية ، وكانت أيضاً قد استعصت على سلطان مالى ففتحها وضمها إلى سلطانه وتقدم شرقاً فهاجم بعض إمارات الهوسا فخضعت له كاتسينا وجوبر وكانو ، وزنقره وزاريا ، وراح غرباً حيث استولى على بلاد الماندنجو والفولانى ، وشمالاً حتى مراطن الطوارق ، وبهذا نقل دولته من مملكة إلى إمبراطورية ، وكان هو أول إمبراطور لها .

وهكذا نجد هذه الدولة لم تقنع بما كان تحت سلطان مالى ، وإنما امتدت إلى أكثر منه ، وبخاصة فى الناحية الشرقية والجنوبية ، فدخلت هذه الإمبراطورية مناطق وسط إفريقية(١) ، ويقول Trimingham عن سُنى على الكبير أنه لم يعرف الاستقرار ، كأن لم تكن له عاصمة يحاول فيها الراحة ، بل كان دائماً غازياً متنقلاً بجيشه من معركة إلى معركة ، ومن نصر إلى نصر(٢) .

وقد تحوّل الملك بعد سنى على من أسرته إلى أسرة أسكيا الحاج محمد كما سبق القول ، وكان هذا التحول بعيد الأثر فى كتابة تاريخ هذه الحقبة ، فإن مؤرخيها عاشوا فى كنف الأسرة الحاكمة الجديدة ، أو تلقوا الروايات ممن عاشوا فى كنفها ، ومن هنا كتبوا عن سنى على بكثير من التحامل

---

(١) Trimingham : A History of Islam in West Africa p. 83

(٢) Ibid p. 94

والهجوم ، ولطخوا اسمه بالعار ، ومن أهم هؤلاء السعدى الذى وصفه بأنه الظالم الأكبر ، والفاجر الأشهر ، وأنه كان ظالماً فاسقاً متسلطاً ، سفاكاً للدماء ، مُذِلاً للعلماء والصالحين(١) ، كما وصفه بالتلاعب فى دينه وتركه للصلوات(٢) ، ويتحدث الإمام محمود كعت عن انتصارات سُنى على على أنها تدمير وتخويف وإذلال(٣) .

ولكن هذه الأوصاف ينبغى ألاّ تقبل دون تحفظ ، فالرجل قد طال عمره ، وكثرت فتوحاته وانتصاراته ، وكان له نشاط إدارى ممتاز ، ولكن المؤرخين يفضلون أن يتحدثوا عنه كحاكم جبار ، وأن ينسبوا كل الفضل فى فتوحاته ونظمه الإدارية إلى أسكيا محمد ، ولكن محمداً لم يكن سوى واحد من قادة سنى على(٤) . ولعل من الأدلة على حصافة الرجل موقفه من تمبكتو التى كانت خاضعة للطوارق الذين كانوا قد انتزعوها من مالى سنة ١٤٣٣ ، وعينوا عليها حاكماً تابعاً لهم ، وكان الحاكم ذكيا ، أراد أن ينجو من زحف سنى على ، فكتب له خطاباً رقيقا بالسلام والدعاء ، وذكر فيه ألاّ ضرورة لسنّى على أن يزحف على تمبكتو لأن حاكمها يعترف بالولاء له ، وبأنه من جُملة « عياله » وقنع سنى على بذلك ، فلما توفى هذا الحاكم وتولى ابنه كتب هذا لسنى على بعكس ما كتبه أبوه ، وهدّد بأن القوة متوافرة عنده ، ومن تعرّض له رأى ما لديه من القوة ، فقال سنى على لأصحابه شتان ما بين عقل هـذا الفتى وبين عقل أبيه ، وهاجم تمبكتو سنة ١٤٦٨ ، وكان ذلك من أسباب ما أنزله بالمدينة الإسلامية من قسوة عيبت عليه ، وكان من الأجدر أن تُعاب على الحاكم الغر الذى تذكر الروايات

---

(١) تاريخ السودان : ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٧ . (٣) تاريخ الفتاش ص ٤٣ .

(٤) Panikar : Serpent and Crescent Chap. 4

أنه اضطرب عندما سمع بزحف سنى على عليه بين اللجوء إلى الطوارق ، أو الاستسلام للزاحف الكبير[١] .

ومات سنى على الكبير فجأة سنة ١٤٩٢ م ، وقد اختلف فى سببه موته ، واتهم فيه أسكيا محمد ، إذ كان أسكيا محمد ضمن الذين حكم عليهم سنى على الكبير بالموت عدة مرات وأخفاه القادة حتى حزن عليه سنى على فأظهروه[٢] . ولكن اتهام أسكيا محمد لم يدم طويلاً ، لأن السلطان آل إلى أسكيا محمد ، فذابت سيئاته ، وبرزت حسناته ، ويكتفى Trimingham بأن يذكر أن سنى على مات فى ظروف غامضة[٣] .

وعندما أطاح أسكيا محمد بسنى بارو وضع حداً بذلك لأسرة ظلت تحكم البلاد مدة ثمانية قرون .

الحاج أسكيا محمد :

عقد السعدى باباً طويلا عن الحاج أسكيا محمد[٤] ، ووصفه فيه بأنه الأسعد الأرشد أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، الذى فرّج الله به عن المسلمين الكروب ، وأزال به عنهم البلاء والخطوب ، واجتهد بإقامة ملة الإسلام وإصلاح أمور الأنام ،وصاحب العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد . . . ويذكر Trimingham أن أسكيا محمد انتفع بالإسلام أروع انتفاع لتوطيد سلطانه وتثبيت ملكه[٥] .

ويتحدث السعدى عن غزوات أسكيا محمد الكثيرة الناجحة ، وعن

---

(١) السعدى : تاريخ السودان ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢) الإمام محمود كعت : تاريخ الفتاش : ص ٤٤ .

(٣) West Africa p. 95

(٤) تاريخ السودان : الباب الثالث عشر .

(٥) Islam in West Africa p. 93

أنها غزوات شرعية (جهاد فى سبيل الله) ، ويتحدث عن اتساع ملكه الذى ضمّ مدينة جنى كما امتد من بلاد الماندنجو والفولة فى الغرب إلى أغاديس وحدود إمارات الهوسا فى الشرق(١) ، ومن بلاد الموشى فى الجنوب إلى تعازه فى الشمال ، وبهذا وصلت الدولة فى عهده إلى قمة التوسع والمجد .

وفى عهد أسكيا محمد حوالى سنة ١٥١٣ أو بعدها بقليل بدأت قصة « ليو » الإفريقى وارتبطت بالأسكيا ، وقصة ذلك أن شابا عربيا اسمه الحسن بن محمد الوزان ، الفاسى النشأة ، زار منطقة السودان الغربى فى رفقة عمه الذى كان موفداً فى مهمة ديبلوماسية من قبل سلطان مراكش إلى أسكيا الكبير ، وكان هذا الشاب فى أوائل العقد الثالث من عمره ، ولكن قراصنة صقلية أسروه وسلموه للبابا « ليو » العاشر فحوله البابا إلى المسيحية ، وخلع عليه اسمه المسيحى « ليو » فأصبح الحسن بن محمد يُعرف باسم « ليو الإفريقى » وشجعه البابا على الكتابة عن إفريقية ، فأصبح ما كتبه ليو الإفريقى من أهم مصادر هذا العصر ، ويقول ليو الإفريقى : إن نفوذ التجار والمثقفين فى إمبراطورية جاو أيام أسكيا محمد كان يدعو للدهشة ، وكان سكان مدينة تمبكتو على جانب كبير من الثراء ، وكان يوجد بها عدد كبير من القضاة والأطباء ، وكانت هـذه المدينة هى المركز الثقافى المعترف به لإمبراطورية أسكيا ، وكان بها طلب متزايد للكتب المخطوطة التى تستورد من بلاد البربر ، وكانت تجارة الكتب بها تجلب الربح الوفير(٢) .

ولم يقنع أسكيا محمد بأن ينال الملك بسيفه ومواهبه ، بل اتجه إلى أن يؤيد سلطانه باعتراف شرعى من الخليفة العباسى ، فحج إلى بيت الله الحرام سنة ١٤٩٤ م ، وكان هذا الهدف من أسباب حجه ، ويذكر السعدى أنه فى الأرض المباركة (لعله يقصد مصر موطن الخلافة العباسية آنذاك)

---

(١) لم ينجح أسكيا محمد فى فرض سلطانه على بلاد الهوسا (آدم الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ٤٩) .

(٢) نقلا عن ممالك السودان الغربى تأليف Thom: 'odgkin .

لقى الخليفة العباسى ، وطلب منه أن يجعله خليفته فى أرض سنغى ، ففعل ، وألبسه قلنسوة وعمامة من عنده ، فكان خليفة صحيحا فى الإسلام .

ويبدو أنه أراد أن يزيل من أذهان الناس ، ما تركته رحلة منسى موسى من خيال وعظمة ، فبالغ فى عطاياه وكرمه ، ويذكر السعدى أنه تصدق فى الحرمين بمائة ألف مثقال من الذهب ، واشترى بساتين فى المدينة المنورة حبسها على أهل تكرور ، واشترى هدايا وسلعا بمائة ألف ، وكان يصحبه فى هذه الرحلة قاضيه وإمامه ومؤرخه محمود كعت ، ولقى كثيراً من العلماء والصالحين بمصر والحجاز ، ومن هؤلاء الجلال السيوطى ،وسألهم عن أمور فأفتوه فيها ، وطلب منهم الدعاء ، فنال من بركاتهم كثيراً(١) .

ولأسكيا محمد مواقف إسلامية شهيرة ، فقد كان أول حاكم فى غربى إفريقية يرغم النساء على اتباع قواعد الإسلام فى ناحية الزى والاختلاط ، وكان أول من حكم بحرية ابن الرجل الحر من زوجة رقيقة ؛ وكان هذا الابن قبل أسكيا محمد يعتبر عبداً تبعا لأمه ، وأنعم على العلماء بعطايا كبيرة وعيّن شيخا للإسلام يقيم فى تمبكتو وتكون له السلطة العليا فى أمور الدين .

وفى مطلع القرن السادس الميلادى قام أسكيا محمد بعدة غزوات ضد مالى ، ونجح فيها جميعا ، وضمت إلى صنغى أكثر الأقاليم التى كانت تابعة لكانجابا .

ثم جاءت نهاية المطاف ؛ فقد تقدمت بالرجل السن وطالت مدة حكمه ، وضعف جسمه وفقد بصره سنة ١٥١٩ ، ولكنه لم يفقد فطنته فظل يحكم حوالى عشرة سنوات وهو على هذه الحال ، واتخذ له أعوانا حكموا باسمه، أو حكم باسمهم(٢) ، بيد أن الطامعين فى السلطة من أولاده وأولاد أخيه رأوا

---

(١) السعدى تاريخ السودان : ص ٧٣ .

(٢) السعدى : تاريخ السودان ص ٨٠ .

أن الرجل شغل وقته ووقتهم ، وشاع السخط بين الأمراء ، وكان فى قمة هؤلاء موسى بن أخيه الذى جمع حوله الجموع ، ودخل العاصمة « جاو » سنة ١٥٢٩ ، وأعلن نفسه إمبراطوراً وخلع أسكيا محمد ، ويعلق Panikar على هذا الوضع بأن أسكيا محمد الذى يقال إنه اغتال سُنى على وأخذ السلطة لنفسه تثأر منه الأقدار فتخلعه وتسجنه على يد ابن أخيه ، ولله فى خلقه شئون ، وظلّ أسكيا محمد يُعانى شيخوخة مريرة حتى مات سنة ١٥٤٢ كما قلنا من قبل .

بعد أسكيا محمد :

كان عهد أسكيا موسى مملوءاً بالدماء بسبب الصراع الذى دار بينه وبين منافسيه فى السلطة ، وسقط موسى قتيلا فى هذا الصراع وتلاه محمد بنكن ، ثم عادت السلطة إلى أولاد أسكيا الحاج محمد على نحو ما أوردنا فى قائمة الملوك ، ولكن الخلافات الداخلية التى بدأت منذ أخريات عهد أسكيا محمد أعطت الفرصة للأقاليم التابعة لصنغى أن تحاول أن تتحرر ، وقد استدعى هذا صراعا طويلا خاض الملوكُ غمارَه ، ذكره السعدى بخير من التفصيل ، ولسنا نورد هنا تلك التفاصيل ويكفى أن نشير إلى أنها لا تخرج عن الإطار الذى أوضحناه .

كلمة عن أسكيا داود :

ومع رغبتنا فى الاختصار فإن كلمة عن أسكيا داود تبدو ضرورية(١) ، فالرجل كان واسع الهمة عظيم الشأن ، وقد قام بغزوات واسعة شملت بلاد التكرور وقبائل الموشى ؛ وبعض دويلات الهوسا لمقاومة الحركات

---

(١) يرى ترمنجهام أن داود هو وحده الذى يستحق الذكر من بين خلفاء اسكيا محمد (Ibid p. 99)

الاستقلالية التي ظهرت في هذه البقاع ، وانتصر عليها انتصاراً باهراً ، ويتحدث عنه القاضي محمود كعت[1] ، حديثاً فيه تقدير وإجلال وفيما يلي عبارته :

كان اسكيا اسحق قد جعل ابنه عبد الملك ولياً لعهده ، ولكن أهل صنغي لم يرضوا به وبايعوا اسكيا داود بن اسكيا محمد الكبير ، وقد مكث هذا في السلطة أربعاً وثلاثين سنة وبضعة أشهر ، وساعدته الدنيا فنال ما شاء من دولة ورياسة ، وقد جنى نتائج صراع أبيه وأخيه فكانت المملكة كلها خاضعة له ، وكان أهلها سامعين طائعين ، وكان أسكيا داود سلطاناً مهيباً فصيحاً خليقاً للرياسة ، كريماً جواداً ، وهو أول من اتخذ خزائن المال وخزائن الكتب ، وكان له نساخ ينسخون له الكتب ، وكانت الكتب هديته المفضلة التي يقدمها للعلماء والعارفين .

وبمناسبة الحديث عن العلماء نوجز قصة أوردها القاضي محمود كعت تقرر أن عبداً اعترض أسكيا داود وصافحه ، ولم يكن من حق العبيد أن يصافحوا الملوك خشية أن يكونوا أداة تآمر عليهم ، فحكم أسكيا داود على العبد بقطع يده ، ولكن القاضي محمود كعت اعترض على هذا القرار ، وقال إن يد المسلم لا تقطع إلا بحقها ، فرجع أسكيا داود عن قراره وقال : لولا العلماء لكنا من الهالكين ، وقدم عطايا واسعة لهذا العبد ، ولقومه تعويضاً عما أصابه من ذعر بقرار الملك[2] .

وكان أسكيا داود يجل مدينة تمبكتو لأنها مركز العلم والعلماء ، فكان إذا مر عليها في غزواته لا يقتحمها بجنده ، بل يبقى الجند بعيداً ، ويدخلها في خاصة رجاله في إجلال وتعظيم ، وينزل في ضيافة القضاة والعلماء ،

---

(١) تاريخ الفتاش : ص ٩٣ — ٩٤ بتصرف .

(٢) تاريخ الفتاش : ص ١١٠ — ١١٣ .

وبعد ذلك يستأنف سيره ، وقد أقام لمساكين تمبكتو حدائق واسعة كانت تسمى جنان المساكين .

ومن إجلاله العلماء أنه لما مرض الفقيه أحمد بن عمر كان يأتيه بليل ويسمر عنده حتى برئ[1] .

جاو العاصمة :

جاو هي عاصمة صنغي ، وكانت أيضاً تُعرَف بكوكو وكوكيا وكاغ وجاغ ، وكانت أحيانا هذه الأسماء تطلق على المملكة كلها ، ويتحدث اليعقوبي[2] عن مملكة الكوكو ، ويذكر أنها أعظم ممالك السودان ، وأجلها قدراً ، وأعظمها أمراً ، وكل الممالك تعطى لملكها الطاعة ، ويقرون له بالرياسة ، على أنهم ملوك بلدانهم ، ومنهم مملكة . . . . ، وهي كلها تنتسب إلى مملكة الكوكو .

وتقع جاو على الضفة اليسرى لنهر النيجر ، على بعد حوالى ٤٤٠ كيلو متراً من تمبكتو ، وهي الآن إحدى مدن جمهورية مالي ، وقد بنى فيها منسى موسى مسجداً كبيراً ، عندما استولى على صنغي ، وهو في طريق عودته من الحج[3] ، وقد زارها ابن بطوطة وكتب عنها يقول : ثم سرت إلى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل « يقصد النيجر » ، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها . وأقام بها ابن بطوطة حوالى شهر في ضيافة محمد بن عمر والحاج محمد الوجدى[4] ، وكتب عنها المهلبي حوالى سنة

(١) المرجع السابق : ص ١٠٩ - ١١٠

(٢) تاريخ اليعقوبي : ج ١ ص ١٥٧ .

(٣) السعدى : تاريخ السودان ص ٧

(٤) رحلة ابن بطوطة ص ٢٤٨ .

٩٩٦ م ، ونقل ياقوت عنه فقال : إن ملك جاو كان مسلماً وإنه كان يعيش هو ونبلائه على الضفة الغربية للنهر ، أما الضفة الشرقية فتوجد بها الأحياء التجارية ، ويتردد عليها التجار من كل بلاد العالم(١) ، ويذكر Panikar أن جاو كان لها مساجدها ومدارسها وكان الملك ونبلائه بها يلبسون العباءة والعمامة ، ويمتطون الجياد دون سروج(٢) .

وقد بلغت جاو قمة مجدها فى عهد أسكيا محمد ، وظلت المركز السياسى للسودان الغربى فترة طويلة ، ثم تدهورت مكانتها مع تدهور سلطة صنغى بالغزو المراكشى .

نهاية صنغى :

إن الصراع الطويل الذى حدث بين الطامعين فى الحكم أثار القلاقل فى إمبراطورية صنغى ، وهيأ الفرص للتمرد على السلطة المركزية ، ولكن الأباطرة كان فى طاقتهم أن يصارعوا من أجل تمكين نفوذهم كلما تزعزع هذا النفوذ ، ولكن عندما بدأ الصراع بين المغرب وصنغى ، كان ذلك نذير النهاية ، وقد أضعف هذا الصراع الدولتين جميعاً ، وهو لم يحقق أطماع المغرب ، ولا حافظ على صنغى من التفكك ، وكان من أبرز نتائجه أن الأقاليم المختلفة انتهزت فرصة انشغال صنغى بالصراع ضد المغرب ، فأعلنت استقلالها ، وخروجها عن الطاعة ، وتمزقت بذلك صنغى ، ولنبدأ قصة هذا الصراع من أولها .

كانت تغزة منجم الملح الذى تتطلع له كل البقاع فى إفريقية الغربية ، وكان الملح عالى القيمة وغالى الثمن ، حتى أنه كان يقارن بالذهب ، ونقاره ،

---

(١) معجم البلاد : مادة كوكو . (٢) Serpent and Crescent

بل إن الناس يستطيعون الاستغناء عن الذهب ، ولا يستطيعون الاستغناء عن الملح ، وكانت صنغى قد استولت على هذه المناجم وتلك ، بالإضافة إلى ما كان يمكن أن تشتريه أو تستولى عليه من العبيد الوثنيين ، والذهب والملح والعبيد هى مصادر الثروة وعناصر التجارة آنذاك فى تلك البقاع ، وكان استيلاء صنغى عليها جميعاً يثير مخاوف مراكش وقلقها ، فقد كانت مراكش تحرص على أن تبقى منطقة الجنوب أقل منها حجما وقوة وثروة .

وكانت تعزة أقرب إلى مراكش منها إلى النيجر ، وهى منطقة فقيرة إلا من عنصر الملح ، وعمال مناجمها ينتظرون غذاءهم وشرابهم من خارج البلاد مع القوافل التى تغدو وتروح ، تأخذ منهم وتعطيهم ، وعندما استولت صنغى على تعزة وجد ملك مراكش أن هذا أمر غير مرضٍ ، وبخاصة أن صنغى كانت تحكم الطرق الرئيسية التى تمر بها التجارة ، وكان لها وحدها تحديد الأسعار كما تشاء ، والتحكم فى التجارة ومسالكها حسب رأيها ، وإذا كان ملوك مراكش قد قبلوا هذا الوضع فى عهد الأباطرة الأقوياء لصنغى ، فإن حكام صنغى الذين جاءوا بعد أسكيا محمد لم تكن لهم هيبة تمنع مراكش من التصدى لهم ومقاومة نفوذهم ، ففى عهد أسكيا إسحق طلب منه مولاى حامد ملك مراكش تسليم مناجم الملح فى تعزة ، ورفض إسحق هذا الطلب ، وقال مهدداً : إن الذى يطلب هذا الطلب لا يمكن أن يصير ملك مراكش ، وعلى كل حال فإنى لست الذى يصغى لذلك ، فلما جاء أسكيا داود للحكم طلب منه ملك مراكش أن يعطيه مناجم تعزة لمدة سنة واحدة ، على أن يدفع عنها إيجاراً فوافق داود ، ويبدو أن مراكش تركت المناجم فى نهاية المدة وفاء بوعدها ولأنها — فيما يبدو — كانت خلال هذا العام تعد العدة لجولة جديدة عسكرية لم يأت أوانها بعد ، ولذلك نجد أنه بعد فترة من إخلاء تعزة بعث ملك مراكش جنوداً للاستيلاء عليها بالقوة ، بيد أن الأخبار وصلت بسرعة إلى تعزة فسحبت صنغى جيوشها

وعمالها من هذه المنطقة مما جعل الاستيلاء عليها عديم القيمة ، إذ لا يمكن استغلال هذه المناجم بدون عمالها ، وهـذا جعل المراكشين يعودون دون جنوى .

وفى سنة ١٥٧٨ تولى مُلك مراكش الملك أحمد المنصور، أعظم ملوك الأشراف الحسنيين ، وقد جاء إلى الحكم بعد موقعة القصر الكبير التى تسمى موقعة الملوك الثلاثة حيث التقى محمد الثانى ملك مراكش يؤيده ملك البرتغال بعبد الملك عم السلطان يؤيده العثمانيون، وقد سقط الملوك الثلاثة فى المعركة وانسحر جيش البرتغال ، وتولى أحمد المنصور فجنى ثمار هذا النصر وكان لديه عدد وفير من الأسرى الأسبان استبقى بعضهم وأخذ فدية من الذهب من البعض الآخر كما أن إنجلترا كانت تبيع للسلطان الأخشاب لبناء المراكب ، وتبيع له القنابل والمدافع ، واستطاع أحمد المنصور بذلك أن يكوّن جيشاً حديث التنظيم، ولم يعد قانعاً بأهداف أسلافه التى كانت تقف عند تغزة بل أصبح يطمع فى غزو صنغى كلها ، والاستيلاء على أرض الذهب ، وساعده على ذلك هذا السلاح الجديد الذى توافر لجنده فى حين يحارب به جنود صنغى بالسيوف والرماح والأقواس[1] .

ويذكر Trimingham[2] أن المنصور انتهز فرصة الخلافات الداخلية التى أضعفت حكام صنغى ، وأثارت لعابه أخبارُ الثراء فى هذه الإمبراطورية ، فهاجمها بجيش من الأوربيين بعضهم أسرى وبعضهم مرتزقة ، ولم ينجح هذا الجيش فى الاستيلاء عليها وإنما نجح فى إسقاطها ، فكان الغرم على الجميع ولا فائدة لأحد .

وقد تجاوز هذا الجيش مراكش فى أكتوبر سنة ١٥٩٠ متجها إلى صنغى

---

(١) J.D. Page : West Africa pp. 20—30

(٢) Islam in West Africa p. 100

بقيادة ضابط اسمه جودر باشا أسبانى الأصل ، ولكن الصحراء أكلت بعض الجيش ، كما عانى أفراده العطش والمتاعب فى الطريق الذى استغرق عشرين أسبوعاً ، وكانت صنغى مهملة ، اعتقدت أن الهجوم عليها سيكون من ناحية الغرب عبر التكرور ، وليس من الشمال عبر الصحراء ، ولذلك لم تقابل الجيش الزاحف فى الوقت المناسب ، ثم حدثت موقعة بين الجيشين فى أبريل سنة ١٥٩١ بالقرب من نهر النيجر تسمى موقعة « تونديبى » وهى تقع بالقرب من جاو ، وقد هزم فيها جيش صنغى ، وسرعان ما عبر الجيش المهزوم النهر إلى الجنوب ، واستقر فى دندى الوطن الرئيسى لحكام صنغى ، ولكن هذا الحدث أبرز أعداء جدداً للجيش المراكشى الزاحف ، فإن المقاطعات التى تخلت عنها صنغى هبت تدافع عن نفسها وتستعيد استقلالها ، فلم تكن ثورة الموشى ومالى والبربر والفولانى ضد صنغى فقط آنذاك ، وإنما كانت ضد أى تحكم من الخارج ، وأدرك جودر باشا أن خسارة جيشه فادحة سواء منها ما ألم بهذا الجيش فى طريقه إلى السودان ، أو ما يُخبئه المجهول بالنسبة للمستقبل ، كما أدرك كذلك أن ثراء إمبراطورية صنغى لم يكن بسبب امتلاكها لمناجم الملح أو الذهب أو غيرها من المنتجات ، بل بسبب سيطرتها على الطرق التجارية ، وبسبب إتاحة الفرصة للتجارة لتزدهر فى ظل الأمن والنظام ، وبخاصة فى عهد الأباطرة الأقوياء[1] ، وإذ كان القلق والاضطراب قد حلاّ محل الأمن والنظام ، فقد توقفت التجارة ، وبالتالى ضاع أهم مصدر من مصادر الثراء بهذه البلاد .

وبينما كان جودر باشا يحس بهذه الأحاسيس ، عرض أسكيا إسحق بعض الأموال كجزية تكتفى بها مراكش ، ويبدو أن جودر باشا مال إلى قبول هذا العرض ، وكتب بذلك إلى ملك مراكش ، ولكن هذا كان ضد هذه الحملة فكره الذى لم يُرد أن يتخلى عنه ، فأرسل قائداً جديداً اسمه ابن زرقون أسبانى الأصل أيضا ليتسلم القيادة العسكرية من جودر باشا ،

(1) Trimingham : Islam in West Africa p. 165

وأعد ابن زرقون زولرق عبر بها النيجر ، والتقى بإسحق فى موقعة « بامبا » وهزمه وقتله ، وتولى أسكيا نوح الذى ظل يحارب حتى قتل أيضاً سنة ١٥٩٤ ، وبنهايته انتهت إمبراطورية صنغى ؟

ولكن نهاية إمبراطورية صنغى لم يكن نهاية الحملات المغربية إلى السودان لأن الجيش المراكشى لم يستطع أن يسيطر على المناطق الواسعة التى كانت تخضع إلى صنغى ، ولا أن يعيد الأمن فى المناطق التى يسيطر عليها ، ولم يمتد نفوذه لأكثر من المدن الرئيسية الثلاث جاو ، وتمبكتو ، وجنى ، التى اتخذها قواعده يشن منها بعض الغارات من حين إلى حين ، وواصلت المغرب إرسال القادة والجنود إلى السودان رجاء أن تحقق نصراً حقيقياً على هذه المناطق وبناء على ما ذكر Fage(1) أرسلت مراكش ٢٣٫٠٠٠ جندى إلى السودان فى المدة بين ١٥٩٠ و ١٦١٨ ، ويقرر Fage أنه ندر من عاد من هؤلاء إلى المغرب بعد ذلك ، وفى خلال هذه الفترة كانت الحروب مشتعلة فى كل مكان بين الدويلات التى انفصلت عن صنغى بعضها ضد البعض الآخر ، وبينها وبين القوة الغازية من الشمال ، ولم يعد لباشوات مراكش هيبة فى تلك البقاع مما جعل مولاى زيدان بن المنصور يتخلى نهائيا عن صنغى سنة ١٦١٨ ، ولكن أكثر قواته كان قد استوطن هذه البلاد ، ولم يعد إلى المغرب إلا قلة ضئيلة ، وهكذا كانت أطماع المنصور سبباً فى القضاء على عشرات الألوف من جنود المغرب ، ومن رجال صنغى ، كما كانت سبباً فى توقف النشاط التجارى والاقتصادى ، وإحلال القلق محل الأمن ، والفقر محل الرخاء(2) ، وقد عادت بعض النتائج الاقتصادية على مراكش ، فقد كتب لورانس مادوك سنة ١٥٩٤ يقول : منذ عشرة أيام قدم من الجنوب قائد

---

(١) An Introduction to the History of West Africa p. 31

(٢) خلاصة موجزة لما كتبه السعدى فى تاريخ السودان عن حملات مراكش ضد السودان : ص ١٣٧ وما بعدها . انظر كذلك Fage فى المرجع السابق ص ٣٠ – ٣١ .

أندلسى المولد ومعه زعيم مراكشى كان الملك قد أرسلهما قبل ذلك مع القائد حود وأحضرا معهما ثلاثين بغلة محملة بالذهب ، وقد رأيت ذلك بعينى رأسى وسُرّ به الملك(١) .

نهاية حضارة السودان :

يقول Ward إن الحضارة فى السودان كانت أرقى من حضارة غرب أوربا ، ثم بدأت حضارة السودان تتضاءل بسبب الحروب والخلافات ، ولكن أوربا أخذت تتقدم بفضل ما تعلمته من العرب ، وهذا أفسح الطريق لأوربا الغربية أن تستعمر غربى إفريقية ضمن ما استعمرته من مناطق العالم(٢) .

ومن مساوئ هذا الفتح أن الحاكم ظلم العلم والعلماء ؛ فقد أصدر أمره بالقبض على العالم الكبير أحمد بابا التمبكتى الذى تحدثنا عنه عند الحديث عن تمبكتو ، واقتيد إلى مراكش سنة ١٥٩٤ ، وفقد التمبكتى كتبه خلال هذه المأساة وكسرت ساقه ، ولكنه ظل ثابت الجأش وانتهز أقرب فرصة ليستأنف نشاطه العلمى فى مراكش نفسها ، ولم يسمح له بالعودة إلى تمبكتو إلا سنة ١٦٠٥ فى عهد مولاى زيدان ، وخلد التاريخ له فضله وجهده ، كما خلد العار على ظالميه .

نهاية باشوات مراكش :

بقيت كلمة عن باشوات مراكش الذين بقوا فى السودان ، ولم يعودوا إلى مراكش بعد أن أعلنت مراكش أنها تتخلى عن هذا الغزو ، وقد حاول هؤلاء أن يقيموا لهم دولة تعترف بسلطان المغرب وتربطها به روابط هذا الاعتراف ، وأخذت هذه الجماعة تختار رئيسها بنفسها ، كما سمحت بأن يدخل فى سلك الجندية أبناء السودان ، ولكن على أن يشغلوا المناصب الصغيرة ، أما مناصب الضباط فقد بقيت وقفا على المراكشيين ، ثم على أبنائهم من الزوجات السودانيات بعد ذلك ، وقد ظل اعتراف هؤلاء بتبعيتهم لسلطان مراكش حتى سنة ١٦٦٠ ، ثم قطعت السلالات الجديدة هذه الصلة .

(١) Panikar : Serpent and Crescent Chap. 5

(٢) History of Africa p. 89

وكانت تمبكتو عاصمة هذا الحكم ، وبها تقيم الحامية الرئيسية ، ويوجد بالمدن الأخرى ممثلون لهذه الحامية ، وكانت هذه المدن تدفع جزية سنوية لحكام تمبكتو ، ولكن سرعان ما ضعف هذا النظام الذى يتخذ من الحياة العسكرية قوة له ، وكثرت الخلافات والاضطرابات التى تصحب الحكم العسكرى دائما ، ويقرر المؤرخون أنه بين سنة ١٦٦٠ ، و ١٧٥٠ وصل عدد الباشوات ١٢٨ ، وهذا يدل على انفجار الاضطراب وكثرة الانقلابات والاغتيالات .

ونتيجة لهذا الضعف أصبح الباشوات فى تمبكتو يدفعون الجزية لبعض الحكام الوثنيين ، وتبعا لذلك استقلت عن تمبكتو المدن التى كانت تابعة لها من قبل وقطعت عنها الجزية ، وعاشت هذه المناطق فى ضعف وتمزق استغله الاستعمار الأوربى ليمد نفوذه إلى هذه الأرجاء[١] ؟

انتصارات صنغى :

قلنا فيما سبق إن صنغى سيطرت على مصادر الثروة فى هذه البقاع وهى الذهب والملح ، كما سيطرت على طرق التجارة الرئيسية بين الشمال والجنوب بما تدره من ضرائب ، وما تستلزمه من رخاء ، وهى بهذا تعد أغنى من مالى التى تحدثنا عن رخائها من قبل ، وفى ظل الأمن الذى نعمت به صنغى فى عهودها الأولى كانت التجارة ناجحة ، وكانت تدر الرخاء والثراء على الحكومة والشعب جميعا ، ويقول Ward[٢] ، كانت التجارة عبر الصحراء قد بلغت درجة عظيمة أسمى مما بلغته فى أيام مالى ، إذ كانت مملكة الصنغى أكبر وأعظم ، وكانت تضم مناطق ذات أجواء ومحاصيل أكثر تعدداً مما

---

(١) J.D. Fage : Ibid p. 82

(٢) Ward : History of Africa p. 81

كانت مالى ، وكان فيها نحاس وذهب كما كانت مناجم الملح خاضعة لها ، وهكذا تدفقت الأرباح على حكومة صنغى وشعبها نابعة من المناجم وخصب الأرض أو وافدة مع التجارة الصاعدة والهابطة ، ومما يدل على ما وصلت له صنغى من غنى رحلة أسكيا محمد إلى الحج سنة ١٤٩٤ ، التى نافست أبهتها وجلالها رحلة منسى موسى ، وقد تحدثنا عنها من قبل .

صنغى من الناحية الاجتماعية والثقافية :

كان الأمن سائداً فى فترات الاستقرار التى مرّت بها صنغى ، وبخاصة فى عهد أسكيا محمد ، وكان الناس أمناء شرفاء ، وكان القضاة عدولاً ، ولا أثر للرشوة فى مملكة أسكيا محمد ، وكانت الشرطة ذات أثر فعال حتى كان الطفل يذهب إلى السوق فلا يغشه أحد ولا يسرقه سارق ، ولم يكن يُسمح للنساء بالخروج غير مقنعات ، وكانت حكومة أسكيا محمد أكثر تمسكاً بالشدة من حكومة مالى(١) ، ويمكننا هنا أن نقرر أن أكثر العادات الاجتماعية التى ذكرها ابن بطوطة وهو يصف مالى ، كالمثابرة على الصلاة ، واستعمال الثياب البيض ، والعناية بحفظ القرآن ، وشدة اجلال الرعيــة للملك ، كل هذه ظلت فى دولة صنغى كما كانت فى دولة مالى ، فالعادات الاجتماعية وثيقة الصلة بالإنسان والتحول عنها عسير ، وهذه العادات يرتبط أكثرها بالدين وآدابه ، وقد اهتم أسكيا محمد وأكثر من جاءوا بعده بتعاليم الإسلام وسلوكه .

أما الناحية الثقافية والإسلامية منها بوجه خاص فقد نالت عناية ملوك صنغى وبخاصة أسكيا محمد الذى وضع الأساس لهذه العناية ، ويروى أنه كان صديقا للعلماء كلهم ، وقد وفد كثير منهم على « تمبكتو ، وجنى »

---

(١) السعدى : تاريخ السودان (الباب الثالث عشر) .

للدراسة والقيام بالتعليم ، وكان عظيم التقدير لهم ، فإذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم ، وقد أمر ألا يقف أحد إلا للعلماء ، وألا يأكل معه سواهم[١] ، وشيد كثيرا من معاهد العلم وجذب لها العلماء من المغرب والبلدان المجاورة ، وعمل على نشر الإسلام بين الوثنيين من قبائل الهوسا ، والفولة والموشى ، وظهرت فى ظله مدن إسلامية شمالى نيجيريا ، مثل كانو وكاتسينا وجذبت هذه المدن طبقات العلماء مثل أحمد التنبكتى الذى عرج على كانو عند عودته من الحج وجلس بها يعلم الناس ، ووصل انتشار الإسلام فى ظله إلى منطقة بحيرة تشاد ، ولهذا يطنب السعدى ومحمود كعت التمبكتى فى ذكر محاسنه وأفضاله ، ويرقون به إلى درجة الأولياء أصحاب الكرامات والخوارق .

وسار كثير من ملوك صنغى سيرة أسكيا محمد فى هذا المضمار ، فشجعوا العلماء وأكرموهم ، وبذلوا أقصى الجهد لخدمة الإسلام ونشره : والعناية بالكتب والمكتبات ، وكان بعضهم يحفظ القرآن ويجلس أمام الشيوخ يتلوه عليهم ويستمع إلى شرحهم وتفسيرهم[٢] .

النظام الإدارى فى صنغى :

تكاد كل المراجع التى بين أيدينا تجمع على أن صنغى فى أوج عظمتها كانت تحظى بنظام إدارى رائع ، وأن أسكيا محمد أعاد تنظيم الدولة ، وأن النظم الدقيقة التى وضعها شملت الناحية المالية والناحية العسكرية والعلاقات القبلية ، وكانت كلها ترمى لخلق وحدة قوية من الأجزاء المختلفة للدولة ، والقضاء على السلطة القبلية ، وكان عماد التنظيم الجديد هو المركزية فى مجال

---

(١) تاريخ الفتاش ص ٥٦ .

(٢) السعدى ومحمود كعت فى أمكنة متعددة وقد أشرنا لذلك من قبل .

الشئون الرئيسية والتشريع ، واللامركزية أو الحكم المحلى فى الأمور الثانوية والتنفيذية ، وفيما يلى تصوير هذا النظام :

يقول Basil Davidson إن من أعظم ما قام به أسكيا الحاج محمد من أعمال أنه طوّر النظام الإدارى فى صنغى بحيث دفع الدولة دفعة قوية نحو الحكم المركزى القوى[1] ، ويعطى Thomas Hodghin بعض التفاصيل عن هذا النظام فيقول : إن عبقرية أسكيا محمد لم تتجل فيما قامت به من أعمال عسكرية مثلما تجلت فى التنظيم الإدارى الممتاز ، الذى وضعه هذا الرجل بتأييد الزعماء المسلمين ، وبتأييد التجار ، كوسيلة من وسائل توحيد هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف وربطها ، وقد تضمن هذا التنظيم إنشاء نظام حكام الأقاليم ، وإنشاء عدد من الوزارات المركزية للشئون المالية وشئون الجيش ، وشئون القضاء ، والشئون الداخلية ، وشئون الزراعة والغابات ، وكذلك إنشاء وزارة خاصة لشعب الأبيض أى المغاربة والطوارق الذين كانوا يعيشون على الحدود الصحراوية للامبرطورية :

ويحدد المؤرخ الإفريقى آدم عبد الله الآلورى أقسام الولايات فى هذه الإمبراطورية ، فيقول : أنها كانت أربعة أقسام يمتد الأول من بلاد دندى حتى بلاد الهوسا ، والثانى من مدينة جاو حتى تمبكتو ، والثالث من شمال جاو حتى بلاد الطوارق ، والرابع ما يشمل بلاد السودان ، وكان حاكم الولايات يلقب (فارى أوفربا) ، وكان لهولاء الحكام سلطة واسعة فى ولاياتهم فى حدود سلطات الوزارات المركزية التى يمتد نفوذها إلى كل الأقاليم[2] :

---

(١) Rediscovery of Ancient Africa p. 50

(٢) ممالك السودان الغربى من مجموعة أبحاث عن فجر التاريخ الإفريقى ص ٣٠ .

(٣) موجز تاريخ نيجيريا ص ١٤٧ وعن لقب الأمراء اقرأ ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٢٣

ويقول Trimingham[1] إن أسكيا محمد كان يفنى فى قمة هذا النظام ، وكانت جاو تخضع خضوعا مباشرا له ، وكان أغلب سكانها معاونين لاسكيا وحاشية له وجنود حراسة ، وكان يعين حكام الأقاليم من أسرته أو من خلصائه ، ويراقبهم مراقبة دقيقة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء ، ولم يكن الحكام إقطاعيين وبهذا لم تتعمق جذورهم فى مناطقهم ، وظلت السلطة الحقيقية فى يد أسكيا ، ولكن ولاية العهد لم يوضع لها نظام ، ولم يكن هناك مجلس ليختار الإمبراطور الجديد إذا خلا منصبه ، ومن أجل هـــذا كانت وفاة الإمبراطور تستتبع حركات ثورية يقوم بها الطامعون .

بقيت كلمة عن جيش سنغى الذى حقق هذه الانتصارات الواسعة وقد نالته فى هذا العهد عناية الإمبراطور ، فنظمه تنظيما دقيقاً ، ودربه تدريباً كاملاً ، وأصبح به فرق من الفرسان وفرق من المشاة ، وطوّر أسلحته حتى أصبح من أقوى جيوش ذلك العهد ، ووضع بمكان القيادة فيه خيرة العسكريين الذين اتجهوا فى اهتمامهم إلى الدولة ، دون أنانية تصرفهم عن الإخلاص لها أو تدفعهم إلى إثارة القلاقل ، ومحاولة الانقلابات[2] .

وهكذا شهد العالم الإسلامى دولة عظيمة الشأن عالية السلطان وللأسف الشديد جاءت نهايتها على أيدى جماعات تنتمى لنفس الدين ، ولو تعاون هؤلاء بدل الصراع والخصام لأمكن أن يكون تاريخ هذه المنطقة غير ما دونه عنها التاريخ فيما بعد .

---

(١) Islam in West Africa pp. 100-101

(٢) Ibid p. 102

إمبراطوريات الهوسا

يكاد يجمع المؤرخون على أن تاريخ إمارات الهوسا كثير الغموض ، ويكتنفه ستار يعمّي حقائقه إلى حد كبير(1) . ولكن على الرغم من ذلك فقد استطعنا في الباب الثاني من هذه الدراسة(2) ، أن نبرز أهم معالم تاريخ هذه الإمارات ، وأن نتتبع هذا التاريخ حلقة بعد حلقة حتى انتشار الإسلام بينها ، وقد ذكرنا هناك أن شعب الهوسا ليس قبيلة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وأن جماعات الهوسا لم تكن تمثل دولة بهذا المعنى كذلك ، إذ لم تنقطع الحروب بين هـــذه الإمارات بعضها والبعض الآخر ، ولم تستطع جماعات الهوسا أن تكوّن من بينها وحدة تمكنها من حماية أبنائها أمام جيرانهم ، ولكن في ظل الإسلام برزت بين هذه الإمارات فترات تجمّع قوية ، تحت قيادة واحدة منها ، واستطاعت الدولة الرائدة أحياناً أن تضم لنفوذها مناطق أخرى غير مناطق إمارات الهوسا ، وتكوّنت بذلك إمبراطوريات هوسوية هي التي سنروى هنا خبرها .

وأولى إمبراطوريات الهوسا هي إمبراطورية « كبيّ » ، وأصل أهلها مزيج من أم كشناوية وأب من صنغى ، وقد بدأت إمبراطورية كبيّ مع بداية القرن السادس عشر ، وكان ملكها يلقّب (كانتا) وقد استطاع كانتا الأول أن يقهر البلاد حوله ، وأن يملك منها الأقاصي والدواني كما يقول الإمام محمد بلو ، فشمل سلطانه كاشنا وكانو وجوبر وزكزك (زاريا) ، كما غزا برنو ، وغيرها من الأقاليم المجاورة(3) ، وقد استطاعت دولة كبي

---

(1) انظر { Trimingham : A History of Islam in West Africa p. 134 ; J. D. Fage The History of West Africa p. 87 }

(2) ص ١٢٨ وما بعدها . (3) إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ص ٤٦ .

أن تصمد أمام الحاج أسكيا محمد ، حتى بعد أن استولت جيوش صنغى على كانم ، وبهذا لم تسترد إمارات الهوسا استقلالها الذى فقدته فى عهد سنى على فحسب ، بل راحت تنازع أسكيا الحاج محمد وتطاول سلطانه ، وقد هزمت جيوش كبىّ قوات أسكيا محمد ، وتوقف أمل أسكيا فى حكم إمارات الهوسا[1] .

وامتد نفوذ إمبراطورية كبي عقب ذلك ، فسيطرت على جورما ، وعلى شرقى صنغى حتى تبرا ، وسارت فى نفس الطريق الذى تسلكه دول السودان ، فتركت حكم الإمارات إلى قادتها ، فيما عدا بعض الأجزاء حكمها الكانتا بطريق مباشر وكان ذلك فى زنفرة وونقارة[2] :

وكانت عاصمة كبىّ اسمها «سورامى» ومركزها العسكرى فى «جونجو» ، حيث الحصون والقلاع الضخمة ، لتحمى الجانب الغربى من الولايات من ممالك الغرب التى كانت تتطلع للسيطرة على إمارات الهوسا :

وقد طال الصراع بين إمارات الهوسا وحكام صنغى ، فقد هاجم أسكيا محمد بنجان هذه الإمبراطورية ، ولكنه هزم هزيمة منكرة أمام جيوش الكانتا فى موضع يقال له ونشّرماس وهرب مع عسكره بصعوبة[3] ، ومع هذا فقد قتل الكانتا سنة ١٥٤٥ ، فى طريق عودته إلى بلاده بعد انتصار حاسم حصل عليه محمد على بن إدريس ملك بورنو[4] ، وتولى كانتا الثانى الذى عاصر أسكيا داود ، وجرت بينهما مناوشات حربية سنة ١٥٥٢ انتهت بمعاهدة صلح فى العام التالى[5] ، واستطاع الملوك الذين جاءوا بعد كانتا

---

(١) إنفاق الميسور ص ٤٩ و Basil Davidson : Ancient Africa p. 50

(٢) Trimingham : ibid. p. 135

(٣) السعدى : تاريخ السودان ص ٨٨ .

(٤) الإمام محمد بلو : إنفاق الميسور ص ٣٧ .

(٥) Trimingham : West Africa p. 136

الأول أن يحافظوا على هذه الإمبراطورية مدة نصف قرن ، ولكن صراعهم ضد ملوك برنو ، وأباطرة صنغي أثر فيهم ، فأخذت الإمبراطورية في الانحلال والضعف :

وكان لإمبراطورية كبي حياة يصفها المؤرخون بالرخاء والثراء بسبب موقعها الممتاز ، ونشاط أهلها في مجالات الزراعة والتجارة والصناعات اليدوية ، ومن هنا استطاعت إمارة كبي أن تحافظ على نفسها بعد أن فقدت كثيراً من أجزائها التي تبعتها في عصر القوة ، وعاشت إمارة كبي حتى دعمها الاستعمار البريطاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد تحولت العاصمة من « سوراي » إلى « برنين » سنة ١٧١٥ بعد حركة الانكماش التي أصيبت بها الإمبراطورية[1] .

وإذا كانت إمبراطورية كبي قد ضعفت بسبب الصراع في الشرق ضد حكام برنو ، وفي الغرب ضد أباطرة صنغي فإن هاتين الدولتين قد ضعفتا أيضاً ، فالغزو المراكشي قضى على إمبراطورية صنغي ، كما لم يستطع ملوك برنو أن يحتفظوا بعظمة هذه المملكة ، وهنا هيأ لإمارات الهوسا أن تأخذ الزعام التجارى والثقافى والسياسى فى هذه المنطقة[2] . وكان بروزها هذه المرة تحت قيادة إمارة كاتسينا ، إذ أن المجرى الرئيسى للحركة التجارية مع شمالى إفريقية تحول شرقاً إلى بلاد الهوسا ، وقفزت إمارة كاتسينا بصفة خاصة إلى مكان الصدارة والشهرة فى عالم التجارة والحضارة ، وسرعان ما أخذت القيادة فى عالم السياسة أيضاً تحت قيادة حاكمها « جان هانو بكسى » (١٦١٨ — ١٦٤٨) فمدت نفوذها إلى ما رادى فى الشمال وزنفرة فى الغرب ، وبرنين وجوارى فى الجنوب[3] ، ولكن إمارة كاتسينا لم تكن طويلة العمر ،

---

(١) Loc Cit

(٢) J. D. West Africa p. 30

(٣) Trimingham : ibid 180

ولم تصل إلى درجة الإمبراطوريات ؛ ومثلها إمارة زنفرة التى حاولت بعد كبى أن تخط طريقها بالقوة خلال القرن الثامن عشر فاستولى سلطانها يعقوب بن بَبْ على كثير من الولايات التى كانت خاضعة لكبى وخربْ ديارها كما هاجم كاشنة واستولى على بعضها(١) .

ولكن جوبر تُعد فى الحقيقة الإمبراطورية التى خلفت كبى ، فإن سلطان جوبر محمد بن شروم ، استطاع أن يستولى على زنفرة وما أخذته من كبى ، كما استولى على كثير من الإمارات الأخرى(٢) ، ويقول Trimingham إنه فى خلال عهد الملك باباری (١٧٤٣ — ١٧٦٢) اقتحمت جوبر الإمارات التى كانت لا تزال تابعة لكبى ، كما استولت على زنفرة ، وما تبعها من بلاد ، وقد أنشأ هذا الملك عاصمة جديدة اسمها « القلوة » ، واستمرت جوبر فى تقدمها فقضت على ما تبقى للطوارق من نفوذ فى إمارات الهوسا ، واحتلت نفوذاً كاملاً فى كل هذه الإمارات ، وعند منتصف القرن الثامن عشر كانت جوبر مركز التجمع لإمارات الهوسا كلها(٣)

وامتد نفوذ جوبر إلى مناطق أخرى غير بلاد الهوسا ، فشمل كثيراً من أرض يوروبا ، وأصبح اسم جوبر علماً على مناطق الهوسا كلها حتى أن سكان يوروبا كانوا لا يعرفون للهوسا اسماً سوى جوبر ، ويطلقون على أى واحد من إمارات الهوسا اسم جوبری ، وقد بلغ ملوك جوبر ثلاثة عشر ملكاً ، وجوبر بذلك يمكن أن تكون الإمبراطورية الثانية بعد كبى فى تاريخ إمبراطوريات الهوسا(٤) .

وفى نهاية القرن الثامن عشر كانت تسود العالم الإسلامى حركة واسعة

---

(١) إنفاق الميسور : ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٧ . (٣) West Africa p. 137

(٤) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا : ص ٨٣ .

ترمى إلى بعث الفكر الإسلامى ، وإعادته إلى ما كان عليه من مجد سابق ، وسرعان ما تبع ذلك ظهور الحركة الوهابية ، والحركة السنوسية وحركات إصلاحية متعددة هنا وهناك فى بلاد المشرق ، وامتدت هذه الحركة الإصلاحية إلى جنوب الصحراء ، وكانت هنا على يد الإمام عثمان دانفديو الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وقد قام بحركته أولا فى إمارة جوبر ، وساعده الفولانيون والمسلمون من قبائل الهوسا ، ولكن ملك جوبر تصدى له ، فدافع الإمام عن نفسه فى حركة جهادٍ واسعة النطاق أُريد بها إنقاذ الوثنيين من الوثنية ، وإبعاد المسلمين عن الانحراف ، والاستفادة بالحركات الإصلاحية التى ظهرت أشعتها فى كل بلاد المسلمين ، وكان الإمام مخلصاً فى دعوته كل الإخلاص ، فلم تقف أمامه إدعاءات أعدائه ، وأنهارت كالهشيم ، ولم تستطع دولة من دول المنطقة أن تقف أمام إمبراطورية الفولانى فى ذلك الوقت ، بل دفعت الإمبراطوريةُ بحدودها فى كل اتجاه ، كما حملت لغة الهوسا والدين الإسلامى إلى المناطق المجاورة مثل توجو والكمرون[1] ، واندفع الفولانى إلى الجنوب تجاه شعب اليوروبا ، وحملوا الإسلام إلى هذا الشعب ، كما شغلوا كثيراً من الوظائف الهامة بهذه الدولة ، وقد أحس ملك اليوروبا بازدياد قوة المسلمين فى بلاده فأراد أن يدبّر مؤامرة يتخلص بها منهم ، ولما عرف هؤلاء ذلك ثاروا على الملك واستطاعوا القضاء عليه ، وأجلسوا أحد الدعاة أميراً على اليوروبا ، وأصبحت هذه المنطقة تدين بالطاعة لإمبراطور سكوتو[2] .

وهكذا استطاع الإمام عثمان دانفديو أن يكوّن إمبراطورية فسيحة فى نيجيريا والسودان الغربى ، وكان ذلك سنة ١٨١٠ ، واتخذ الإمام مدينة

---

(١) D. J. Jones ممالك السودان الأوسط من مجموعة فجر التاريخ الإفريقى ص ٤٨
(٢) دكتور حسن إبراهيم : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ١٢٠ .

سكوتو عاصمة له ، ثم رتب نواباً له على الأقاليم التى ضمتها إمبراطوريته، وهؤلاء هم :

— سليمان حاكماً على كانو .	— عمر دلاج حاكماً على كاشنة .
— يعقوب حاكماً على بوشى .	— بوبارو حاكماً على غامبى
— موسى حاكماً على زكزك .	— إسحق حاكماً على دوره
— عبد الله حاكماً على كبى .	— إبراهيم زاك حاكماً على برنو وكتاغم (١)

ولكن برنو سرعان ما استعادت استقلالها بجهود محمد الأمين الكانمى كما سنرى فيما بعد ، ثم مال الإمام للتفرغ للدعوة ، وترك الحكم لابنه وأخيه ، نقسّم مملكته قسمين ، وكان هذا التقسيم أساساً لنوع من الاستقلال لكل منهما ، فالقسم الشرقى كانت سوكوتو عاصمته ، ويشمل إمارات الهوسا الكبيرة ، وقد عُيِّن بللو بن عثمان أميراً على هـــذا القسم ، وقد تداول على سلطنة سوكوتو ستة عشر سلطاناً ، كان من بينهم تسع فقط من نسله ، ذلك لأن اختيار الملوك فى هذا القسم سار تبعاً للفكر الاسلامى الذى يحتم الشورى عندما يخلو منصب السلطان ، فكان « مجلس اختيار الملك » يجتمع حينذاك ويختار أصلح المرشحين سواء كان من أسرة السلطان أو من سواها .

أما القسم الغربى فكانت عاصمته مدينة « جواندا » على بعد مائة ميل من سوكوتو ، وقد عين الامام عثمان أخاه عبد الله أميراً على هذا القسم ، ويبدو أن التوارث سار بانتظام فى هذا القسم ، وقد شمل هذا القسم مملكة نيوبى وألورين .

وعندما دخل الإستعمار البلاد أصبح نفوذ كل من إمارة سوكوتو وجواندا مقصوراً على منطقتها ، ولا يتعداه للإمارات الأخرى التى كان يحكمها من قبل ، وأبرز شخصية فى إمارة سوكوتو فى مطلع العقد السابع من هذا

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٦٠ .

القرن كان أحمدو بللو الذى كان رئيس وزراء نيجيريا الشمالية وفى إمارة جواندا الحاج هارونا ، وكان أميراً لهذه المقاطعة(١) .

وقد قامت هذه الإمبراطورية من مطلع القرن التاسع عشر حتى الربع الأخير من هذا القرن ، وفى هذه المدة فتر للأسف الحماس الدينى لبعض زعمائها وكان هذا الحماس عماد قوتها ، وبسبب هذا الفتور ضعف نفوذ العاصمتين على الأقاليم التابعة لكل منهما ، ولم يعد لسكوتو نفوذها الكامل على مناطق الإمبراطورية(٢) .

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وطئ الاستعمار هذه البلاد فأزال استقلالها ، واختصم الإنجليز والفرنسيون حول اقتسام هذه البلاد وكانت الغلبة للإنجليز ، فوقعت هذه البلاد بأمرها تحت السيادة البريطانية بناء على المعاهدة الإنجليزية الفرنسية المعقودة فى أغسطس سنة ١٨٩٠ والمكملة باتفاقيتى ١٢ يوليو سنة ١٨٩٣ ، و ١٤ يونيو سنة ١٨٩٨ ، والاتفاق الإنجليزى الألمانى المؤرخ فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٣ .

النظم الإسلامية لهذه الإمبراطورية :

تمتاز هذه الإمبراطورية بأن منشئها لم يكن فقط بطلا ورجل سياسة ، بل كان عالماً ورجلاً من كبار المفكرين المسلمين ، وقد سبق أن ذكرنا أن له مؤلفات واسعة فيها عمق وبحث ودراسة ، وقد غلبه هذا الاتجاه فلم يحفل بالعرش الذى كونه ، ولا بالمجد السياسى الذى أحرزه ، بل ترك هذا لابنه وأخيه ، وعكف هو على البحث والدرس ، ووضع قاعدة الفكر السياسى موضع التنفيذ فدان بها أبناؤه من بعده ، وهى أن الملك لمستحقه لا لوارثه ، وأن الأمر شورى .

---

(١) عبد الرحمن صالح : أحمدو بللو زعيم من نيجيريا ص ٣٧ — ٣٨ .
(٢) فجر التاريخ الإفريقى ص ٤٨ .

وبالإضافة إلى هذا كان القضاء مستقلاً عن السلطة التنفيذية ، ولم يكن للحكومة تدخل فى أمور القضاء ، وكان القضاة ينفذون الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك ، وقد عرف عن قضاة هذه الإمبراطورية الدقة والتبحر فى العلم وفهم القوانين الإسلامية .

ومن الناحية الاقتصادية كان هناك بيت المال وله موارده ومصارفه التى تتبع الفكر الإسلامى ، فالزكاة على التجارة ، والحاصلات الزراعية والأنعام تدفع لبيت المال ، وكانت هناك جزية على غير المسلمين نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ، ونظير استمتاعهم بالمرافق العامة التى يدفع المسلمون تكاليفها من بيت المال ؛ ويتولى بيت المال الإنفاق على مطالب الدولة بكثير من الدقة وبخاصة عندما يكون الأمير قوياً عميق التعرف على الفكر الإسلامى .

برنو وكانم

١٠٨٥ – ١٨٩٣

تقع برنو إلى الشرق من إمارات الهوسا ، وتقع كانم إلى الشرق من برنو ، وهما تحيطان ببحيرة تشاد ، وقد سبق أن تحدثنا عن كل منهما على حدة قبل أن يغمرهما الإسلام[1] ، فلما انتشر الإسلام فى برنو وكانم ارتبط تاريخهما ارتباطا طويلا ومهمًّا بحيث أصبح ضروريا أن يجرى الحديث عنهما فى نطاق واحد ، وذلك هو ما سلكه أكثر المؤرخين ، فقد تحدث Trimingham[2] و Fage[3] . عن دولة « بورنو – كانم » وأكثر برنو الآن يدخل ضمن اتحاد نيجيريا ، أما كانم فجزء من جمهورية تشاد .

وقد انتشر الإسلام فى كانم قبل أن ينتشر فى برنو ، وتكونت بها دولة إسلامية منذ سنة ١٠٩٠ ميلادية ، عندما أعلن ملكها دخوله الإسلام هو وحاشيته ، وحث رعاياه على اعتناق هذا الدين ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك ، وذكرنا أن اسمه كان « هوميه جيلمه » ، وأن الأسرة المالكة كانت تلقب بالأسرة السيفية نسبة إلى سيف بن ذى يزن ، ويقرر أحد ملوكها وهو عثمان بن إدريس هذه الحقيقة فى خطاب له للسلطان برقوق (١٣٨٢ – ١٣٩٨ م) فيقول له : نحن بنو سيف بن ذى يزن العربى القرشى ، كذا ضبطناه عن شيوخنا[4] ، وكان ملك كانم يتخذ لنفسه لقب « ماو » . وكانت عاصمته « جيمى » .

وقد دام حكم جيلمة اثنتى عشرة سنة (١٠٨٥ – ١٠٩٧) . وكان

---

(١) ص ١٣٦ – ١٣٩ .

(٢) Islam in west Africa pp. 110 ff

(٣) History of west Africa pp. 35 ff

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٧ .

لتحوله إلى الإسلام صدى كبير ونتائج عظيمة ، ويذكر D.H. Jones أنه عندما تحولت الأسرة الحاكمة فى كانم إلى الدين الإسلامى استطاع الإسلام أن يكسب لنفسه جبهة ثابتة فى منطقة السودان الأوسط ، ويقول Jones إننا لا نستطيع أن نتجاهل مدى ما كان لدخول الإسلام إلى هذه المناطق من أهمية تاريخية كبرى ، فقد جاءت مع هذا الدين الجديد معرفة الكتابة التى جعلت من الممكن قيام دولة ضخمة أكثر تنظيما وكفاية فى أساليب الحكم ، كما رفع هذا الدين مستويات شعوب هذه البلاد من الناحية الأخلاقية والإنسانية ، وخلق علاقات حضارية وفكرية بين هذه المناطق وجيرانها المسلمين(١) .

وأهم ملوك كانم المسلمين فى « جيمى » هم :

هوميه جيلمة	١٠٨٥ — ١٠٩٧
دوناما بن جيلمة	١٠٩٧ — ١١٥٠
برى الأول	١١٥٠ — ١١٧٦
عبد الله بوكورو	١١٧٦ — ١١٩٣
عبد الجليل	١١٩٣ — ١٢١٠
دوناما ديا ليمى	١٢١٠ — ١٢٢٤
الحاج إبراهيم	١٢٩٠ — ١٣١١
الحاج إدريس بن إبراهيم	١٣٤٣ — ١٣٦٦
داود بن إبراهيم	١٣٦٦ — ١٣٧٠
عمر بن إدريس	١٣٨٤ — ١٣٨٨
عثمان بن إدريس	١٣٩٠ — ١٤٢٢(٢)

(١) شعوب وممالك السودان الأوسط من مجموعة فجر التاريخ الإفريقى ص ٤٤ .

(٢) Trimingham : Islam in wets Africa p. 120

وقد وصلت كانم إلى فترة النضج فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فبسطت سلطانها على بعض قبائل السودان الشرقى ، واحتلت برنو ، ووصل نفوذها إلى فزان ، وأصبح لها علاقات تجارية وثقافية مع طرابلس ومصر ، وبهذا اتسعت حدودها فى كل اتجاه تقريباً[1] .

ويذكر Basil Davidson[2] أن إمبراطورية كانم كانت تتبعها حكومات مركزية ظلت قائمة حتى القرن السابع عشر ، وأن حكام كانم استحدثوا نظما جديدة فى الحكم المركزى وفى أساليب الحرب والغزو ، وهنا تكمن العوامل التى ربطت بين النمو الحضارى المتصل ، واستخدام الحديد ، والاستفادة من التجارة الدولية .

وفى القرن الرابع عشر تعرضت كانم إلى ألوان من الصراع الداخلى بسبب ثورات بعض القبائل ، وبسبب خلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وقد ضعفت كانم نتيجة لذلك ، على أن أهم شىء أثر فى حياة كانم هو ذلك الزحف العاتى الذى قامت به جماعات البولالا من الشمال الشرقى قبيل نهاية القرن الرابع عشر ، وقد استطاعت هذه الجماعات أن تحتل العاصمة « جيمى » وأن تستولى على السلطة الحقيقية ، ومن ثم فرت الأسرة الحاكمة من كانم إلى برنو التى لم يمتد لها نفوذ البولالا .

وقبل أن نتتبع ملوك الأسرة السيفية فى برنو نذكر أن جماعات البولالا ، قنعت بالسيادة التى حصلت عليها ، ولم تطمع فى ألقاب الملك ، بل اختارت بعض أفراد الأسرة السيفية الذين لم يغادروا كانم ، وعينتهم ملوكاً ، على أن يقنعوا بالاسم ، وألا يكون لهم فى السلطان الفعلى نصيب .

---

(١) Fage : History of west Africa p. 36

(٢) إفريقية القديمة تكتشف من جديد ص ٥١ من الترجمة العربية .

ولنتبع الآن ملوك كانم فى برنو ، وقد أحسنت برنو استقبال الأسرة المالكة الفارة إليها من عاصمة الإمبراطورية فى كانم ، فقد كان لكثيرين من هؤلاء الملوك سير حميدة ، ولم تستطع جماعات البولالا أن تساوقهم أمجادهم ، وبخاصة أنها اعترفت بملوك الأسرة السيفية ، ولو من الناحية الاسمية ، وبهذا استطاعت الأسرة السيفية أن تواصل حكمها على شطر المملكة وأن تأخذ منه مركزاً لتناضل عن حقها ، وتستعيد سلطانها فى كانم أيضاً ، وهكذا شهد القرن الخامس عشر صراعاً مريراً ، قام به ملوك الأسرة السيفية فى برنو ليثبتوا أقدامهم من جديد وليقضوا على خصومهم ، ويُعد على غازى بن دوناما (١٤٧٦ – ١٥٠٣) المؤسس الحقيقى للدولة الجديدة ، فقد استطاع أن يقضى على الحروب الداخلية ، وأن ينشئ نظاماً إدارياً مستقلا ، وقد شيّد له عاصمة جديدة على نهر « يو » ، واستطاع –بعد هذا الاستقرار– أن يمد نفوذه إلى بعض دول الهوسا[1] ، واضطرت « كانو » أن تدفع الجزية إليه .

وجاء دور إدريس ابنه (١٥٠٣ – ١٥٢٦) ، وقد زحف هذا الملك على كانم من جديد ، ولم تستطع جماعات البولالا أن تقف فى وجهه ، فاستعاد بها سلطانه ، واندفع البولالا إلى الشرق ، وقبلوا أن يدفعوا الجزية إليه ، وقنع إدريس بذلك دون أن يتابع الهجوم عليهم ٥

وهناك نقطة ذات بال ترتبط بالفترة التى أقامها ملوك الأسرة السيفية فى برنو ، وتلك النقطة هى أن الإسلام زاد بهذه البلاد انتشاراً وتمكناً[2] .

وكان حكم إدريس بن على المشهور بإدريس علومه (١٥٧٠ – ١٦٠٢)[3] قمة المجد لهذه الأسرة ، وسبب شهرة إدريس علومه يرجع فى

---

(١) الإمام محمد بلو : إنفاق الميسور ص ٤٦ .

(٢) Trimingham : Islam in west Africa p. 121

(٣) يذكر Jones أن حكمه كان بين سنتى ١٥٨٠ و ١٦١٧ .

الحقيقة إلى المعلومات الخصبة التى وصلتنا عنه عن طريق إمام الأئمة أحمد ابن فرتوا الذى كتب تاريخه ودوّن حروبه فى شرق بحيرة تشاد وغربها ، ولم نعرف إلاّ القليل عن سواه من الحكام ، وقد وصف الإمام نجاحه الباهر ، وفتوحاته الناجحة كما وصفه أيضاً بأنه عادل وحكيم ، وقد ذهب « إدريس علومه » للحج ، وعرف خلال هذه الرحلة قيمة الأسلحة النارية الجديدة ، فاشترى كثيراً منها من الأتراك ، واستطاع بذلك أن يغير طبيعة الحرب فى هذه المناطق ، كما استخدم كثيراً من العرب فى جيشه(١) .

واستطاع بذلك أن يحقق انتصارات كبيرة حول برنو ، وأن يهزم قبائل الطوارق وأن يدخل بعض القرى التابعة لكانو ، ولكنه لم يستطع أن يأخذ المدينة نفسها(٢) .

على أن أعظم ما حققه من نصر كان فى الاتجاه السياسى ، إذ استطاع أن يوحد بين القبائل المختلفة التى تسكن مملكته .

وكان إدريس علومه مهماً من ناحية اتجاهاته الإسلامية ، أكثر منه كمؤسس للإمبراطورية ، ففى مملكة كانم القديمة كانت طبقة الحكام والفقهاء هى التى تدين فقط بالإسلام الحقيقى ، وقد بذل إدريس جهداً كبيراً ليجعل الإسلام دين الدولة ، ولينشره فى جميع ربوعها ، ويقرر الإمام أحمد أن عهد إدريس حفل بانتشار الإسلام ، وأن الطبقة العليا أصبحت جميعها مسلمة ، كما اتجه الاهتمام إلى اقتباس التشريع الإسلامى والعمل به .

وقد نظم إدريس السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، وفصل بينها ، وبنى مساجد ضخمة من الحجارة ، كما بنى فى مكة مقراً لحجاج برنو .

---

(١) Trimingham : Islam in west Africa p. 122

(٢) Ibid p. 123

واتجه إدريس إلى تنظيم حروبه لتتمشى مع نظم الجهاد الإسلامية ، كما اتبع الفكر الإسلامى فى نظام أسرى الحرب ، وأصبحت حروبه لنشر الإسلام تابعة للفكر الإسلامى ، ولم يعد هناك إكراه لأى شخص ليدخل الإسلام وأصبح الدخول فى الإسلام طواعية ، وعن اقتناع ، وهكذا انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً خلال عهــد إدريس عن طريق الدعوة وبدون أى إكراه[1] .

ولما توفى إدريس حكم أبناؤه الثلاثة بعده الواحد تلو الآخر ، وهم محمد فإبراهيم فعمر ، وكانت المملكة خلال حكم هؤلاء تسير بدافع التاريخ الذى خلفه إدريس ، إذلم يكن فى هؤلاء نبوغ يضارع نبوغ إدريس ، ولكن إدريس خلف دولة قوية فعاشت باسمه فى أيام أولاده وبعد هؤلاء الثلاثة جاء على بن عمر ، وكان كجده بطولة وكفاءة ، ولذلك أعاد مكانة جده وهيبته ودام حكمه أربعين عاماً (١٦٤٥ ـ ١٦٨٥) ومن بعده جاء خلفاؤه إدريس ابن على ودونمة بن على وحمدون بن دونمة ودونمة بن حمدون وأحمد بن على ، وفى أيام هؤلاء ظهر الضعف على إمبراطورية برنو وأعاد البولالا هجومهم على البلاد ، فلما جاء القرن التاسع عشر هب فى مطلعه الزعيم عثمان دانفديو يقود ثورة الفولانى ويوسع سلطانه هنا وهناك ، وقد زحف هذا بجيشه على برنو ، كما ذكرنا من قبل[2] ، وكان الضعف قد أخذ منها كل مأخذ ، ولم يكن فى حولها أن ترد هذا الزحف ، وظهر أنه لا بد من دم جديد ينقذ برنو من المآل الذى أوشكت أن تتردى فيه ، وتمثل هذا الدم فى الزعيم الكبير الشيخ محمد الأمين الكانمى ، وسنتحدث عنه فيما يلى :

---

(١) Trimingham : Op Cit 123—124, Fage : west Africa p. 86

(٢) عند الكلام عن إمبراطورية الهوسا . وانظر كذلك :
Eminent Nigerians of 19 th Century p 62

الكانمى فى برنو:

كانت بعض أقاليم الهوسا خاضعة لبرنو أو تدفع لها جزية سنوية كما ذكرنا من قبل ، فلما قام الزعيم عثمان دان فديو بثورته سنة ١٨٠٤ حرّر هذه الولايات ، وزاد على ذلك أن هاجم برنو نفسها سنة ١٨٠٨ ، وكانت تمر بفترة ضعف أشرنا إليها آنفاً ، ففر ملكها أمام الجيش الزاحف متجهاً نحو كانم ، وامتد نفوذ عثمان دان فديو إلى برنو ، وأصبح واضحاً أن جيش برنو لا يقوى على رد الزاحفين .

بيد أن قوة جديدة برزت آنذاك لتنقذ إمبراطورية برنو ، وكان محور هذه القوة بطلا أبوه عربى من فزان وأمه من كانم ، واسمه محمد الأمين ، وقد نسب نفسه إلى كانم لتوثيق الاتصال بها فعُرف بالكانمى ، وكان يلقب بالشيخ ، وكان هذا الزعيم عالما واسع المعرفة ، له جاه عريض فى مجال العلوم العقلية والنقلية[1] ، وقد كوّن هذا الرجل فرقة للمقاومة أكثر أفرادها من كانم وهاجم الغزاة فى حرب انتحارية ، ولكن سرعان ما كثر أتباعه واستطاعوا أن يردوا الجيش الزاحف إلى الوراء[2] .

وعقب هذا الانتصار هبت منافسة بينه وبين سلاطين برنو ، إذ خاف هؤلاء أن يثبت نفوذ الكانمى ، فحاول سلطان برنو أن يقود الجيش بنفسه ليتابع مقاومة الفولانى ولكنه عجز عن تحقيق النصر ، فاستدعى الكانمى ليواصل نضاله ، وقد حقق الكانمى ألوانا من الانتصارات فأصبح السلطانُ الحقيقى له ، ولم يبق للسلاطين إلا الاسم ، وكشف السلاطين عن حقدهم عليه ، وحاولوا التمرد ، فأقدم الكانمى على الخطوة الضرورية ، وهى حكم البلاد بنفسه من العاصمة « كوكا » التى كان قد بناها سنة ١٨١٤ ، وأسس

---

(١) آدم عبد الله الألورى : المرجع السابق ص ٦٨ .

(٢) Robin Hallett : Elkanemi of Bornu من مجموعة : Eminent Nigerians of the 19 th Century pp. 65—70

الكانمي بذلك أسرة حاكمة جديدة ظلت تحكم البلاد حتى جاء الاستعمار ، وفى عهد الكانمى اتسع نفوذ برنو شرقا وغربا واستعادت أغلب البقاع التى كانت تسيطر عليها فى عهد إدريس علومة ، ومات الكانمى سنة ١٨٣٩ ، وكان قبل موته قد اعتزل الحكم وولى ابنه الشيخ عمر (١٨٣٥ — ١٨٨٠) :

أسرة الكانمى فى برنو :

يمكن القول أن أسرة الكانمى لم تنفرد بالسلطان إلا فى عهد عمر بن الأمين الكانمى ، لأن الشيخ الأمين ظل فى أغلب الأحوال يقنع بالسلطة الدينية والعملية مع ترك الاسم للأسرة السيفية ، وكذلك حاول ابنه عمر من بعده ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وبدا أنه من الضرورى وضع نهاية للأسرة الحاكمة التى كان نفوذها قد انهار منذ عهد الشيخ الأمين ، وقامت أسرة حاكمة جديدة بصفة رسمية وإن كانت قد قامت بصفة عملية من قبل ، ومن سنة ١٨٤٦ أصبح لقب « الشيخ » هو اللقب المختار لرؤساء هذه الإمبراطورية تيمنا باتجاه الشيخ الأمين .

وبعد عمر آل الأمر إلى ابنه بوبكر (١٨٨٠ — ١٨٨٤) ، وبعده تولى أخوه إبراهيم مدة عام واحد، فالشيخ هاشم (١٨٨٥— ١٨٩٣) ، وفى عهده دب الضعف فى برنو لأن الشيخ شغل بالقصر والحريم ولم يوجه همة عالية للإدارة والسلطة .

وهذا الضعف هيأ الفرصة لثائر جديد ليزعزع أسرة الكانمى ويحكم برنو وهذا هو الثائر السودانى رابح الزبيرى ، وفيما يلى كلمة عنه :

رابح الزبيرى فى برنو :

سنتكلم فيما بعد عند الحديث عن السودان عن الزبير باشا ، الذى كان

تاجراً ، واشتد نفوذه ، فنال مكانة سياسية عن طريق ثروته وقوته ، وفتح دارفور باسم الحكومة المصرية ، وكان من قواد الزبير قائد بطل اسمه رابح ، وكانت تربطه بالزبير روابط سمحت له أن ينتسب إليه ، فعرف برابح الزبيرى ، وسنرى أن غوردون باشا الذى تولى حكم السودان إبان عهد الخديوى إسماعيل غدر بالزبير وبابنه سليمان ، وأن هذا هيّج رابحا الزبيرى وأثار خوفه ، فقاد فيلقه الضخم ، وتخطى حدود السودان غرباً إلى واداى ، وفى سنة ١٨٩٢ استولى على سلطنة باجرمى (وسنتكلم عن واداى وباجرمى بعد قليل) ، ثم واصل زحفه فلدخل كانم ، وفى سنة ١٨٩٣ قضى على سلطنة برنو ، وأسقط هاشم بن عمر آخر السلاطين من أسرة الكانمى ، وأصبح رابح حاكم هذه الإمبراطورية الفسيحة مدة تتراوح بين ست سنوات وعشر سنوات .

وفى هذه الأثناء كان الاستعمار الفرنسى قد بدأ ينساب تجاه إفريقية ، وتحالف الاستعمار الفرنسى مع سلطان باجرمى الذى كان رابح قد أوقع به ، ودار صراع بين رابح من جانب ، وبين الفرنسيين وأعوانهم من جانب آخر هزم فيه رابح وقُتل سنة ١٩٠٠ فى معركة كسورى بعد صراع مجيد ، كما قُتل القائد الفرنسى الكونت لامى Lamy فى المعركة أيضاً ، وحاول فضل الله بن رابح استعادة مكانة أبيه فى برنو ، ولكنه خرّ شهيداً فى المعركة بعد عام من استشهاد أبيه ، وأصبحت برنو خاضعة للاستعمار الفرنسى ، أما الأقاليم التى كانت خاضعة لبرنو إبان عهد الإمبراطورية ، فقد استولت إنجلترا على بعضها وألمانيا على البعض الآخر بجانب فرنسا التى استولت على الكثير منها :

الفكر الإسلامى فى برنو :

عنى أكثر حكام إمبراطورية برنو بالنظم الإسلامية ، واتخذوا الدين الإسلامى دستوراً لحياتهم ، وأشاعوا العدل والإنصاف بين الجماهير ، وحاولوا

أن ينفذوا نظام الاقتصاد الإسلامى ، فاتجهت العناية إلى جمع الزكاة وحسن توزيعها ، كما عُنى الحكام بتعليم القرآن واتباع آدابه ، وشيدوا مدرسة للمالكية كانت فى هذه المنطقة مركزا مهما للثقافة الإسلامية(١)

علاقات برنو بالخارج :

اتجهت برنو إلى مصر اتجاهاً واضحاً ، فقد كانت العلاقات وثيقة بين الدولتين ، وكانت الطرق الصحراوية تربط واحات مصر بإمبراطورية برنو ، مما يسر التبادل التجارى ، وتبادل الزيارات بين البلدين ، وفى الوثائق التى دونها القلقشندى نماذج لنصوص رسائل من سلطان برنو إلى سلطان مصر برقوق ، ونص الرسالة يفيد اعتداد سلطان برنو بنفسه ومملكته ، ثم يصف مصر بأنها أم الدنيا وأرض الله المباركة ، مما يوضح مكانة مصر وتطلع هذه الشعوب إليها ، وفيما يلى مطلع هذه الرسالة(٢) :

من المتوكل على الله تعالى الملك الأجل سيف الإسلام ، وربيع الأيتام ، الملك المقدام ، القائم بأمر الرحمن ، المستنصر بالله ، المنصور فى كل حين وأوان ، ودهر وزمان ، الملك العادل الزاهد. أبى عمرو عثمان الملك ، بن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم ، كرم الله ضريحه . . . .

إلى ملك مصر الجليل ، أرض الله المباركة ، أم الدنيا

. . . .

وبجانب هذه الاتصالات الرسمية ، كانت هناك اتصالات فكرية عميقة المدى ، فالطلاب من برنو عبروا الصحارى إلى الأزهر ، وكان سيلهم يتدفق دون انقطاع ، يرتشفون من منابع الفكر الإسلامى فى مصر ، وينضمون إلى

---

(١) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٨ ص ١١٦ - ١١٨ .

حلقات العلم بها ، ويتزودون من كتبها ، ومن حضارتها ، ولهم رواق فسيح بالأزهر يعرف برواق برنو[1] .

وإذا كانت مصر مقصودة لذاتها فى هذه الاتصالات ، فهناك اتصالات أخرى حدثت عرضاً : إذ أن وفود الحجاج ، كانوا يمرون بمصر فى طريقهم إلى الأرض المقدسة ، وكانت قوافلهم تُمضى فترات قصيرة أو طويلة بأرض النيل ، وتوضح لنا مراجع التاريخ رحلات حج قام بها سلاطين برنو مارين بمصر ، وما أنفقوه عن سعة بأرض الحجاز وأرض النيل .

ومن المعروف أن العثمانيين بسطوا سلطانهم على مصر والشام فى مطلع القرن السادس عشر ، وأصبحوا يحاولون العالم الإسلامى ، وقد اتصل سلاطين برنو بالعثمانيين ، وأمدهم العثمانيون بالأسلحة النارية التى كان لها شأن كبير فى اتساع برنو ، وسقوط الوثنيين أمام هذه الأسلحة الجديدة .

---

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص

باجرمى

تقع باجرمى فى الجنوب الشرقى من كانم ، وسكانها ينتمون إلى أصول متعددة ، فمنهم الكانورى والعرب والفولة والزنوج ، ومنهم مزيج من هؤلاء جميعا ، وهى الآن ضمن جمهورية تشاد ، ولم يستطع مايات كانم ولا قبائل البولالا التى خلفت هؤلاء المايات ، أن يسيطروا على باجرمى وإن أخذوا منها الجزية أحيانا ، ولم يكن لمناطق الباجرمى تاريخ يذكر قبل الإسلام ، فقد كانت الحياة قبليّة ، وعند ما تجمّعت القبائل فى كيان واحد يرأسه ملك ، سرعان ما اعتنق الملوك الإسلام ، ولذلك فالحديث عن باجرمى ينبغى أن يتصل قبل الإسلام وبعده ، حتى الاحتلال الفرنسى .

وباجرمى عاصمتها ماسينيا ، وأول سلطان لها اسمه (برنى بسى) ، وقد كوّن هذه السلطنة حوالى سنة ١٥١٣ م ، وفيما يلى أسماء أشهر ملوكها بعد « برنى بسى » .

مالو	١٥٤٨ — ١٥٦٨
عبد الله أخو مالو	١٥٦٨ — ١٦٠٨
بورجو ماندا	١٦٣٥ — ١٦٤١
علوى	١٧٣٩ — ١٧٤١
محمد الأمين	١٧٥١ — ١٧٨٥
عبد الرحمن جوارنج الأول	١٧٨٥ — ١٨٠٦

بورجوماندا بن عبد الرحمن
محمد بن بورجوماندا
عبد الرحمن جوارنج الثانى

} فى القرن التاسع عشر حتى الاستعمار الفرنسى

وقد قبل جوارنج الثانى الحماية الفرنسية سنة ١٨٩٧ ليقوى بالفرنسيين ضد رابح الزبيرى الذى أشرنا له من قبل والذى استطاع أن يقحم البلاد فى زحفه السريع الذى سنفصل القول عنه عند حديثنا عن السودان .

وكان « مالو » آخر الملوك الوثنيين ، وفى عهده ظهر الاسلام بالمملكة وبدأ ينتشر ، وقد أتاح ذلك فرصة لأخيه عبد الله ليثور عليه باسم الإسلام وقد انتصر عبد الله ، وتولى الملك (١٥٦٨ — ١٦٠٨) ، وسرعان ما أدخل عبد الله النظم الإسلامية ، وبنى المؤسسات الإسلامية للعبادة والدراسة ونشر الدعوة الإسلامية ، فاستجاب لها كثيرون من أتباعه ، واتخذ لنفسه لقب « مبانج » أى ملك ، وكوّن جيشاً عظيماً ، ونظم الإدارة تنظيماً دقيقاً على نمط التنظيم الذى كان متبعاً فى برنو ، وكان هذا الملك يستوحى من برنو أكثر اتجاهاته ، وفى عهده امتد نفوذ باجرمى إلى كثير من المناطق المجاورة ، فتبعته أو دفعت الجزية له ، وكانت باجرمى تدفع الجزية لإدريس علومة ملك برنو (١٥٧٠ — ١٦٠٣) ، ولكن بعد وفاته تخلص حكام باجرمى من هذه التبعية وقطعوا الجزية ، وكان الملك « بورجوماندا » أول من فعل ذلك ، ولم يكتف به ، بل قام بغزوات واسعة حقق فيها انتصارات بادرة ، فقد هاجم سكورو ومندارا ، وكثيراً من المناطق والقبائل حوله ، كما وجه إحدى حملاته إلى واداى عن طريق بحيرة « فيترى[1] Feiri » .

وقد امتدت باجرمى فى كل المناطق حولها ، واتصلت حدودها بحدود برنو ، فقام صراع بينهما ، كما قام صراع مماثل بين باجرمى وواداى فأصبح تاريخ باجرمى سلسلة من الحروب ، وأبرز ملوك باجرمى الذين قادوا هذه الحروب هو محمد الأمين ، ويعتبر عهده العصر الذهبى لباجرمى ، وقد

Trimingham : Islam in West Africa p. 137 (١)

حجّ هذا الملك إلى مكة المكرمة ، وقام بنشر الإسلام فى بلاده إلى درجة كبيرة[١] ، وجاء بعده عبد الرحمن جوارنج ، وقد بدا عليه انحراف فى الناحية الإسلامية ، فاتخذ عبد الكريم صابون ملك واداى (١٨٠٣ — ١٨١٣) هذا التصرف سبباً لمهاجمة باجرمى ، واستطاع هذا أن يفتح باجرمى ويضمها إلى واداى[٢] ، وأصبح ملوك باجرمى ملوكا بالاسم فقط وليس لهم نفوذ ، وانتقلت السلطة الحقيقية إلى سلاطين واداى واستمر السلطان على باجرمى لملوك واداى طيلة أغلب القرن التاسع عشر ، فلما ضعف ملوك وادى وبخاصة الملك يوسف (١٨٧٤ — ١٨٩٧) استعادت باجرمى استقلالها كما سنرى عند الحديث عن واداى ، ولكن رابحا الزبيرى استولى عليها فتحالف ملوكها المعزلون مع الاحتلال الفرنسى ضده ، وعند ما انتصر الفرنسيون على رابح كان ذلك إيذانا بالاحتلال الفرنسى لهذه البلاد .

وقد ظهر فى باجرمى مجموعة كبيرة من المفكرين والعلماء البارزين منهم محمد الوالى ، الذى يقول عنه الإمام محمد بلو إنه أعجوبة الزمان ، وطرفة الأوان ، العالم العلامة ، الزاهد الورع ، وله مؤلفات تدل على وفور علمه ، وكثرة إحاطته[٣] ، ومن شيوخ باجرمى كذلك الشيخ « ولولو » وقد تلقى العلم فى تمبكتو ، وكان له فيه باع واسع[٤] ، ومنهم سليمان بن محمد المتوفى بالقاهرة سنة ١٨٠٦ وهو يعرف بالبيجرمى نسبة لهذه البلاد ، وقد ولد سنة ١٧١٩ وقدم إلى القاهرة ودرس بالأزهر وتوفر على فقه الشافعية وألف مجموعة من الكتب الشهيرة فى الفقه[٥] .

---

(١) Ibid p. 188
(٢) إنفاق الميسور ص ٢٩ .
(٣) المرجع السابق : ص ٣٠ .
(٤) إنفاق الميسور ص ٣١ .
(٥) أشهرها التجريد ، وتحفة الحبيب .

واداى

تقع واداى فى جنوب جبال تبستى إلى الشرق من باجرمى ، وقد دخلها لإسلام فى فترة متأخرة ، مع زحف قبائل الزغاوة التى انتشرت فى جنوب هذه المنطقة ، وسكان واداى مزيج من قبائل متعددة ، وقد اقتحم التنجور مناطق واداى فى مطلع القرن السادس عشر ، وأقام هؤلاء لهم سلطاناً بها ، واتخذوا « كاداما » عاصمة لهم ، والتنجور ينحدرون من أصل نوبى فى الغالب ، ولكن ارتباطهم بالعرب كان وثيقاً ، فأصبحت العربية لغتهم ، وأصبحت أسماؤهم عربية كذلك[1] .

ويذكر Barth أنهم قدموا من دنقلة ، واتجهوا إلى دارفور فأقاموا بها فى القرن الخامس عشر ، وأخذوا السلطة من قبائل الداجو ، ومن دارفور انتشروا فى واداى إلى حدود باجرمى[2] .

وكان التنجور مسلمين ، ولكنهم لم يعتنوا بنشر الدعوة الإسلامية ، وتُبْرِز المراجع اسماً اهتم بنشر الدعوة وهو « الجامعى » وفى بعض الروايات اسمه صالح ، وكان له صلة بقبائل الجعليين وقبائل شنادى ، وقد قام ابنه (وفى بعض الروايات ابن أخيه) واسمه عبد الكريم الصالح بنشاط واسع لخدمة الدعوة الإسلامية ، وأعلن الجهاد على التنجور ، فهزمهم ، وأنشأ أسرة حاكمة فى واداى اتخذت لها لقب « العباسى » دليلا على انحدارها من العرب أو من الأسرة العباسية[3] ، وأشهر ملوك هذه الأسرة عبد الكريم صابون (١٨٠٣ – ١٨١٣) وهو الذى هاجم باجرمى واستولى عليها كما

---

(١) Trimingham : Op. Cit, p. 138, Barth : Travels III : 430

(٢) Trimingham : Op. Cit, p. 139

(٤) طبقات ودضيف الله ص ٣٢ وما بعدها .

سبق ، وقد ضعفت هذه الأسرة الحاكمة أحيانا ، فدفعت الجزية لدارفور وبرنو ، حتى تأمن أن تناصر هذه أو تلك قبائل التنجور ، وتعيدها إلى السلطة ، وفى عهد الملك يوسف (١٨٧٤ — ١٨٩٧) استقلت باجرمى عن واداى ، ثم اقتحمها رابح الزبيرى مع ما اقتحم من هذه المناطق ، ولكن الزحف الفرنسى غلب رابحا وأحال البلاد إلى الاحتلال الفرنسى وقد تمَّ ذلك سنة ١٩٠٩ ، ومنطقة واداى جزء من جمهورية تشاد الآن .

وتذكر المراجع التى بين أيدينا نشاطاً إسلامياً واسعاً فى واداى قام به فقهاء من مملكة الفونج ، ومن بين هؤلاء أبو زيد بن عبد القادر ، وأبو سرور الفضلى ، كما ذهب كثير من طلاب واداى إلى المراكز الإسلامية بحوض النيل ، فتلقوا بها علوم الإسلام ، ومن هؤلاء الشيخ الزين بن صغيرون(١) .

---

(١) طبقات وضيف الله ص ٣٢ وما بعدها .

مملكة الفونج (سنار)

١٥٠٥ — ١٨٢١ م

تحدثنا فى الباب الثانى[1] عن الممالك القديمة التى تكوّن منها السودان الحديث (مقرة — علوة — البجة — كردفان — دارفور) وسرنا معها حتى قامت دولة الفونج الإسلامية فضمت أكثر هذه الممالك وهنا فى هذا الباب الذى خصصناه للحديث عن الممالك الإسلامية جنوب الصحراء قبل الاستعمار الأوربى، ينبغى أن نخصص فراغاً أوسع لدولة الفونج، أول دولة إسلامية فى السودان العربى، فالسودان ومصر فكر واحد وواد واحد، فما أجدرنا أن نهتم بتاريخ السودان، وببيان الدور الحضارى الذى لعبه فى تاريخ هذه المنطقة، وسنستمر بعد الفونج فى تكوين السودان الحالى، حتى نصل إلى مرحلة الاستعمار التى ستكون موضوع الحديث فى الباب التالى .

من هم الفونج ؟

ليس هناك تاريخ محقق عن أصل الفونج، ويرى الأستاذ محجوب زيادة[2]، أنهم من بقايا الأمويين الذين فروا عقب سقوط دولتهم وقيام دولة بنى العباس، واختفوا هنا وهناك حتى وصلت أفواج منهم إلى الحبشة والسودان فى القرن الخامس عشر الميلادى، وموطن الشك فى هذه الرواية هو الفترة الطويلة بين سقوط الأمويين سنة ٧٥٠ م وقيام دولة الفونج سنة ١٥٠٥ م .

وإذا صح ان هناك صلة نسب بين الفونج وبين الأمويين، فإنى أرى أن

---

(١) ص وما بعدها .

(٢) محجوب زيادة : الإسلام فى السودان ص ٣٩ .

هؤلاء الذين وفدوا على السودان من بقايا الأمويين كانوا قد رحلوا أولاً إلى الأندلس وشاركوا فى قيام الحكم الأموى هناك ، فلما تدهورت دولة الإسلام بالأندلس بدأ هؤلاء رحلة جديدة إلى إفريقية فى القرن الثالث عشر حتى انتهى بهم المطاف إلى السودان فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، ومروا بفترة سيطروا خلالها على باقى القبائل العربية بالسودان ، ثم أعلنوا سلطانهم عليها .

ولكن هناك سبباً آخر يدعو للشك فى هذا النسب ، وقد سبق أن أشرنا إليه فى هذا الكتاب أكثر من مرة ، ويذكره الأستاذ نعوم شقير مرتبطاً بالفونج ، هو أنه ما من أسرة حاكمة ظهرت فى السودان إلا ادعت لنفسها نسباً عربياً أو نسباً يتصل بآل البيت(1) .

قيام دولة الفونج :

ومملكة الفونج أسسها عمارة دُونْقس من قبيلة الفونج التى ترد نسبها للأمويين كما سبق ؛ وترعم أن اسم جبال الفونج قد غلب عليها لطول ما عاشت فى هذه الجبال ، واشترك مع عمارة فى تأسيس هذه المملكة زعيم عربى آخر هو عبد الله جمّاع من قبيلة القواسمة الجهنية ، وكان تأسيس هذه المملكة عام ١٥٠٥ بعد أن أغارا بجيشيهما على سوبه وكانت تعانى انشقاقاً داخلياً واسعا ، وكان لهذا الانشقاق جذور دينية ، فإن عدداً كبيراً من القبائل العربية المسلمة كان قد زحف إلى دولة مقرة وأسقطها وكون شبه إمارات مستقلة تدين بالإسلام ، وتسرب الإسلام بعد ذلك إلى أكثر أجزاء مملكة علوة المسيحية ، وكل هذا مهّد لحلف إسلامى يضع نهاية لهذه الدولة أيضا فى هذه البقاع .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٢ ص ٩٢ .

ويقول الشيخ أحمد كاتب الشونة ، وهو أهم مصدر كتب عن الفونج تبدأ قصة الفونج من جبل مويه حيث تجمع بعض الناس حول عمارة دونقس وحضر عبد الله جمّاع من عربان القواسمة ، وتمّت الكلمة على محاربة الفنج ملوك سوبه ، فتوجه الاثنان بجيوشهما وحاربا ملوك سوبه وانتصرا[1] ، واستولى عليها جيش عمارة وجماع ، كما زحفت جيوشهما إلى الشمال حتى الشلال الثالث تاركة منطقة تحكمها القبائل بينها وبين مصر ،وفى بعض الروايات أن مملكة الفونج وصلت حدود مصر ، وجعل عمارة كل الأراضى الواقعة بين النيلين إلى حدود الحبشة والبجة تابعة له ، وبنى مدينة « سنار » سنة ٩١٠ هـ لتكون عاصمة له ، وسميت الدولة كلها باسم العاصمة[2] ، وكان عمارة يشرف على سنار وما حولها بطريق مباشر ويشرف على مشيخات فازوغلى والحمدة وخشم البحر وبنى عامر فى خور بركه حتى البحر الأحمر بطريق شيوخها ، فقد كان لهذه المشيخات استقلالها الداخلى بزعامة شيوخها الذين يدينون بالولاء للملك سنار .

أما عبد الله جماع فاتخذ قرّى عاصمة لمشيخته،وبقى وكيلاً عن عمارة على كل السودان الشمالى من رأس الجزيرة إلى حدود الشمال ، فحلّ العبدلاب محل دولة مقرة وحل الفونج محل دولة علوة ، وكانت مشيخات الشمال تتبع عبد الله جماع بطريق شيوخها كالحال بالنسبة لصلة مشيخات الجنوب بالملك عمارة .

وانقضاء دولة علوة وتملك الفونج والعبدلاب لها ولأراضى دولة مقرة التى أسقطها النظام القبلى قبل ذلك ، يعتبر إعلاناً رسميا للدين الإسلامى وللسيطرة العربية فى بلاد السودان ، لأن تسرب الإسلام والعرب سبق انقضاء الدولة

---

(١) تاريخ ملوك السودان ص ١ . (٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

المسيحية بأكثر من قرنين ، وبهذا الانتصار للعربي الإسلامي بصفة رسمية بدأ اتصال السودان ببقية الأقطار الإسلامية العربية يأخذ مظهراً جديداً ، وبدأ رواد الإسلام الأوائل يجوبون أنحاء السودان تارة من مصر ، وأخرى من بلاد المغرب ، وأحيانا من الحجاز ، وبلاد الرافدين ، وكانوا يلقون كل إكبار وإجلال من الملوك والسلاطين[١] .

وقد شملت مملكة الفونج كل أراضي علوة وأكثر أراضي مقرة أو كلها ، كما شملت أرض للبجة بين النيل والبحر الأحمر ، وضمت كردفان في عهد محمد أبي لكيلك قبيل انهيار الدولة كما سنرى .

وملوك الفونج هم حسب رواية الشيخ عبد الدافع وكاتب الشونة مع تعليقات مقتبسة منهما[٢] :

عمارة دونقس	١٥٠٥	
عبد القادر ابنه	١٥٣٤	
نايل أخو عمارة	١٥٤٤	
عمارة أبو سكاكين	١٥٥٥	وفي أيامه توفي عبد الله جماع وتولى ابنه عجيب
دكين بن نايل	١٥٦٣	من الملوك العظماء
طبل بن عبد القادر	١٥٧٨	
أونسه الأول	١٥٨٩	
عبد القادر الثاني	١٥٩٩	

---

(١) دكتور مكي شبيكة : الاسلام في قرن ص ٣ – ٤ .

See also : Arkell, A. J. : A History of the Sudan from the earliest time to 1821.

(١) تاريخ ملوك السودان ص ٢ وإبراهيم عبد الدافع اشترك مع الشيخ أحمد كاتب الشونة في تأليف الكتاب وتنقيحه وقد اشترك معها كذلك الشيخ الزبير ود ضوه والشيخ الأمين الضرير والتعليقات من ص ٢ و ٣ و ٥ . (ص ٣ و ١٥ من مقدمة الناشر) .

عدلان الأول	١٦٠٥	صراع بينه وبين الشيخ عجيب ونهاية عجيب
بادى الأول (سيد القوم)	١٦١٢	
رباط	١٦١٥	
بادى الثانى (أبو دقن)	١٦٤٣	اشتهر بالشجاعة والتقوى وتشجيع العلم وكان على صلة بعلماء مصر
أونسة الثانى	١٦٧٨	
بادى الثالث (الأحمر)	١٦٨٩	
أونسة الثالث	١٧١٥	لاهٍ فاجر ، عُزِل وكان آخر أحفاد دونقس
نول	١٧١٨	تربطه بعائلة دونقس صلة نسب
بادى الرابع (أبو شاوخ)	١٧٢٤	آخر الملوك ذوى السلطة ، من أعظم الملوك
ناصر	١٧٦٢	بَدْء نفوذ الهمج ، وكان ناصر من أهل العلم
إسماعيل	١٧٦٩	
عدلان الثانى	١٧٧٨	ملوك بالاسم فقط ، واكتمال النفوذ للهمج الذين كانت لهم الوزارة والحكم كله ، وكان ذلك بعد صراع بين عدلان الثانى وبين جماعات الهمج انتصر فيه هؤلاء (نعوم شقير ٢ : ٨٦)
طبل الثانى	١٧٨٩	
بادى الخامس	١٧٨٩	
حسب ربه	١٧٩٠	
نوار	١٧٩٠	
بادى اكساوس	١٧٩١	

الزحف المصرى سنة ١٨٢١

مشايخ العبدلاب هم :

عبد الله جماع	دام ملكه حتى عمارة رابع ملوك الفونج
الشيخ عجيب المنجلك	من أعظم شيوخ العبدلاب حارب الملك التاسع من ملوك الفونج وانهزم
العجيل	
حمد السميح	
عثمان	
عبد الله بن العجيل	
مسمار بن عبد الله	
دياب	
الأمين ود مسمار	
عجيب بن عبد الله	
عبد الله ود عجيب	
عمر	
محمد الأمين بن مسمار	
بادى بن مسمار	
عبد الله الرابع	
ناصر ود الأمين	
أمين الثانى ود ناصر	
ناصر ود عجيب	عزله إسماعيل بن محمد على عقب الزحف المصرى سنة ١٨٢١

العلاقة بين الفونج والعبدلاب :

يذكر الشيخ أحمد كاتب الشونة(١) أن الاتفاق تمّ بين عمارة وعبد الله جماع على أن يكون عمارة ملكا فى مكان ملك علوة المسيحى لكونه الكبير ، وأن عبد الله جماع ينوب عنه فى الشمال مع سلطة الملك كاملةً فى بقاعه ، وكان عمارة وعبد الله كالأخوين إلا أن رتبة عمارة أعلى وأعظم من رتبة عبد الله إذا اجتمعا فى مكان ، وأما إذا غاب عمارة فيعامل عبد الله كما يعامل عمارة .

وكان إذا توفى شيخ العبدلاب اختار زعماؤهم شيخا آخر وأخذوه إلى ملك سنار فيؤيده(٢) .

وكان على شيخ العبدلاب أن يحضر إلى سنار كل عام ليقدم جزية للملك ، ويصف شاهد عيان موكب الشيخ عجيب المانجلك وقد حضر إلى سنار فى موكب عظيم ، ومعه مئات من العبيد والجمال والخيل ومبلغ من المال كجزية يدفعها للملك ، وبدأت مراسم الاستقبال بأن خرج الملك فى موكب يتألف من نحو مائة من الحاشية بعضهم من المشايخ وبعضهم من الفرسان ، يتلوهم عدد مماثل من المشاة يحملون الرماح ، وعند ما تقابل الموكبان خارج المدينة ترجل الشيخ عجيب عن فرسه ولثم رجل الملك وهو على فرسه ، وعندئذ أشار عليه الملك بالركوب ، ودخل الموكب المشترك المدينة تتقدمه نحو ٣٠٠ من خادمات الملك وهن يحملن المباخر ويضعن عليها من وقت لآخر الصندل

(١) أحمد كاتب الشونة ورفاقه : تاريخ ملوك السودان ص ١ (اقتبسنا عدة اقتباسات من الصفحة الأولى لأنها فى الحقيقة حافلة بالأفكار) .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٢ ص ١٠٠ .

واللبان وغيرهما من العطور حيث يفوح عبيرها فى الجو ، وتتعالى أصواتهن بالغناء والزغاريد[١] .

ذلك كان أساس العلاقة بين الفونج والعبادلة ، وقد ساعد عليه مكانة الزعيمين فكل منهما يعرف مكانه بالنسبة للثانى ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، ففى الجيل التالى للأسرتين الحاكمتين بدأت الأوضاع تتغير ، فقد تولى بعد عمارة ثلاثة ملوك لم يكونوا فى جلاله وسطوته ، وتولى بعد عبد الله جماع ابنه الشيخ عجيب المنجلك ، وهو كأبيه عظمة وجلالا ، وبهذا بدأت ترجح كفة العبادلة ، وقد عمل عجيب المنجلك على تقوية سلطانه بالاهتمام بالناحية الدينية ، فقرب العلماء وبنى المساجد ودور العلم ، وأحاط نفسه بهالة من النور والمجد ، وهذا أوحى له بمنافسة ملوك الفونج ، بيد أن ملكا جديدا آل له عرش الفونج وهو دكين بن نايل ، وكان كجده الأعلى عمارة جلالا وقدرا وكفاءة ومقدرة ، وبهذا اصطدمت قوتان كبيرتان ، تدفع الأطماعُ عجيب المنجلك ، ويقف دكين يدافع عن مكانة الأسرة ، وبعد دكين جاء ملوك آخرون فشهدوا هذه المنافسة وقد خُلع أكثرهم لأنهم لم يكونوا يستطيعون مواصلة كفاح دكين ، حتى آل الأمر إلى الملك عدلان ، وفى عهده أصبح الصدام مسلحا ، والتقت القوتان الكبيرتان عند مكان يقال له كركوج بين العيلفون والخرطوم ، حيث دارت معركة حامية قتل فيها الشيخ عجيب وفر أولاده إلى دنقلا .

وكان يمكن أن يستأنف القتال ولكن أحد العلماء الأفاضل واسمه الشيخ إدريس محمد الأرباب (العربى) تدخل بالحسنى بين الطرفين ، وطلب من ملوك الفونج العفو عن أبناء العبادلة فقبلوا وساطته واستجابوا له ، فعاد

(١) دكتور مكى شبيكة : مملكة الفونج الإسلامية ص ٧٨ .

أولاد العبادلة من دنقلا إلى مقر مشيختهم ، وأجلس العجيل على كرسى مشيخته العبدلاب بدلا من أبيه(١) .

الفونج والحبشة :

كانت الحبشة تمثل حصن المسيحية فى شرقى إفريقية ، وكانت مصر قلعة الإسلام فى هذه المنطقة منذ دخلها الإسلام ، ولعبت الحبشة دوراً كبيرا ضد الإسلام فى هذه البقاع ، وأشعلت حروبا يسميها الباحثون « الحروب الصليبية فى شرقى إفريقية » ولكن امتداد الإسلام للسودان وقيام دولة الفونج الإسلامية زاد الأمر تعقيداً بالنسبة للحبشة ، فقد أصبحت لها جارة مسلمة قوية تعد امتدادا لمصر الإسلامية وشوكةً فى ظهر دعاة الصليبية ، وكان هذا هو السبب الحقيقى – فيما نرى – للغيوم التى سادت العلاقات بين الفونج وبين الحبشة منذ قامت الفونج واخذت مكانَ الدولتين المسيحيتين مقرة وعلوة ، ولكن تصدى الحبشة لدولة الفونج لم يكن سهلا لقوتها من جانب ولصلتها بمصر من جانب آخر ، وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر حدثت حادثة أشعلت الحقد فى نفوس الأحباش ، فإن سفير فرنسا لدى الحبشة قتل فى سنار ، واعتقد الأحباش أن هذا العمل مدبر ضدهم ، وأن تدبيره كان بالتعاون بين ملوك سنار وسلاطين مصر ، فأرسل إمبراطور الحبشة يهدد مصر بتحويل مجرى النيل ، وأخذ يستعد لمهاجمة السودان .

وفى ٨ مارس سنة ١٧٤٤ زحف الإمبرطور ياسو الثانى بجيشه على سنار ، وأحرز فى الجولة الأولى بعض الانتصارات ، ولكن جيش الفونج والعبدلاب سرعان ما استعد وتقدم للمعركة وأنزل بالمعتدين خسارة فادحة ، فسقط

---

(١) الشيخ أحمد كاتب الشونة : المرجع السابق ص ٢ .

من سقط من جيش الأحباش وولّى الملكُ والباقون فارّين تاركين خلفهم كثيراً من الأسلحة والذخائر والأموال ، واعتبر سكان المملكة المسلمة هذا الانتصار منحة من الله وعونا منه للمسلمين ، فزينوا المساجد وشكروا الله على هذه النعمة(١) .

ضم كردفان لدولة سنار :

كان الانتصار الذى حققته دولة الفونج ضد الأحباش حدثا يدعو للزهو والإعجاب ، ومن هنا طمعت الفونج فى دفع حدودها تجاه الغرب لتضم منطقة كردفان ، وكانت كردفان آنذاك يحكمها الشيخ هاشم من قبيلة المسبعات ، وأصل هذه القبيلة من دارفور ، انحدرت إلى الجنوب الشرقى واستطاعت أن تستولى على السلطان فى كردفان .

هل كان زحف ملوك سنار إلى كردفان يمثل محض الرغبة فى التوسع ؟ أو كان بدفع قائد اسمه خميس من دارفور أبلى بلاء حسنا فى حرب سنار ضد الحبشة وبينه وبين قبيلة المسبعات منافسة فكلاهما وافد من دارفور ؟ ربما ! وعلى كل حال فقد زحفت جيوش سنار فى منتصف القرن الثامن عشر فى عهد الملك بادى أبو شلوخ ، وكان الجيش بقيادة أمراء من الفونج والعبادلة ومعهم قائد آخر اسمه محمد أبو لكيلك ، ودارت المعارك ضد المسبعات ، ولكن هؤلاء دافعوا عن كردفان بحماسة رائعة فاستطاعوا أن ينزلوا الهزائم بجيش الفونج فى معركتين كبيرتين ، وسقط مع القتلى فى هاتين المعركتين أكثر أمراء الفونج والعبادلة ، وأصبح محمد أبو لكيلك أبرز قائد فى جيش سنار ، فعهد إليه الملك بادى أبو شلوخ بقيادة الجيوش ، واستطاع

(١) الشيخ أحمد كاتب الشونة ورفاقه : المرجع السابق ص ٦ . وانظر كذلك :
Crawford, O.S. : The Fung Kirgdom of Sennar p. 188 ff

هذا أن يحسن الخطة، وأن يصمد صمودا جبارا حتى كسب النصر فى المعركة ، وطرد قبيلة المسبعات من كردفان ، وأصبحت هذه المنطقة جزءا من مملكة سنار ، وأصبح السلطان فيها للشيخ محمد أبى لكيلك ليحكمها باسم الملك بادى أبو شلوخ(١) .

تغلب الهمج على ملك سنار :

ينبغى هنا أن نشرح المقصود بكلمة « همج » فى سياق الأحداث التاريخية بدولة سنار ابتداء من زوال سلطة الملك بادى أبو شلوخ ، وأن نشرح كذلك الظروف التى هيأت للهمج أن يستأثروا بالسلطة ابتداء من عهد هذا الملك .

و « الهمج » هم بيت حكم دولة سنار عقب عزل بادى أبو شلوخ ، وقد سموا همجا لكثرة انقسامهم على أنفسهم واستعانة كل فريق منهم ضد الآخر بأعداء يكرهون فى الحقيقة هذا البيت كله ، ولأنهم حكموا البلاد بطابع الاستبداد والقوة دون شورى حقيقية فى تولى الحكم أو فى إدارة الدولة ، وجدير بمثل هؤلاء أن يسموا همجا ، وأول هؤلاء الهمج هو الشيخ محمد أبو لكيلك الذى حقق النصر ضد المسبعات وضم كردفان للدولة وحكمها باسم ملك سنار حتى استبد فيما بعد بالسلطان ، وقد يكون الرجل ناجحا فى بعض أو حتى فى كثير من المشكلات التى خاضها ولكن التاريخ يحدثنا أن حكم الفرد مهما كان عادلا ومستنيرا من غير أن تكون له قاعدة من الشورى ويخلفه غيره بطريق دستورى معتمدا على هذه القاعدة ، يُدخل البلادَ فى فوضى كهذه بعد زوال عهده(٢) ، وهذه قاعدة لا تتخلف : فكم عرف

---

(١) الشيخ أحمد كاتب الشونة ورفاقه : تاريخ ملوك السودان ص ٦-٧ .

(٢) دكتور مكى شبيكة : مملكة الفونج الإسلامية ص ١٠٢ .

التاريخ ملوكا عظاما انهارت بعدهم الدولة لأنهم استطابوا الحكم الفردى فأسلموا الدولة إلى صراع يغلب أن ينتهى بانهيار إن لم يتداركها الله بمصلح ينسى الأنانية ويقضى على حكم الفرد ، ويعيد حكم الجماعة ، وربما جاز لنا أن نستطرد هنا قليلا لنذكر أن ابن تيمية[١] يقرر أن هناك عصمة للدولة ولكن ليست هناك عصمة للفرد ، فالدولة التى تحكم بالشورى لا تنزلق لأن عصمة المجموع تحميها ، ولكن التى يحكمها الفرد لا بد أن تكون نهايتها للخراب والدمار فى عهده إن زلّ ، أو فى عهد أتباعه إن كان هو عظيم القوة شامل العدالة والاستنارة .

أما الظروف التى هيأت للهمج أن يستأثروا بالسلطة فرجعها أن الشيخ محمد أبو لكيلك كان فى كردفان حاكما بأمره منذ فتحها سنة ١٧٤٧ حتى سنة ١٧٦٢ ، وكان الجند يحبونه لعزمه وقيادته الرشيدة فانطبعت عليه قلوب العساكر ، وألفته النفوس ، وخضعت له كل الرءوس ،وكان الملك فى ذلك الوقت ينحدر إلى اتّباع الهوى والظلم ، فقتل وسجن وقسا فى جباية الضرائب ، ولم ينج من عسفه أهل بيته وأصدقاء الأمس ، وشاع سلوك الملك فى أعوانه ، فأسرف هؤلاء فيما أسرف فيه سيدهم ، وتعطلت بنود الشورى التى كانت طابع الحكم فى سنار ، وكلٌ هذا هيأ للثورة على الملك ، وكان الشيخ محمد أبو لكيلك أمل الثائرين ، فتحتَ يده فى كردفان جيش يدين له بكامل الولاء ، ومعه بعض أبناء أسرة الفونج الذين أيدوه فى أية حركة يقوم بها ضد الملك ، وسار محمد بالجيش إلى سنار ، وفى الطريق أرسل إلى ناصر بن الملك يعده بالملك بعد خلع أبيه ، فاستجاب هذا وهرب ولحق بجيش الشيخ محمد ، وحاصر هذا الجيش الملك الذى انفض أتباعه عنه فاستسلم ، وخلعه محمد وولى ابنه ناصرا مكانه[٢] ، ولكن السلطة

(١) ابن تيمية : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٤١٠ .
(٢) الشيخ أحمد كاتب الشونة ورفاقه : الكتاب السابق ص ٦ — ٧ .

الحقيقية اكتملت للشيخ محمد أبو لكيلك فى دولة سنار كلها ، وصارت تولية الملوك رسما لا حقيقة ، وصار الحل والعقد بيد الهمج[1] ، وبعد وفاة محمد أبو لكيلك دار صراع على السلطة اشترك فيـه الطامعون من الهمج والطامعون من بقايا الفونج ، وآذن ذلك بانهيار الدولة ومهد للحكم المصرى الذى اجتاح البلاد فى مطلع القرن التاسع عشر[2] :

الحضارة الإسلامية فى عهد الفونج :

دولة الفونج كما قلنا فى مطلع الحديث عنها أول دولة إسلامية فى السودان العربى ، وقد ذكرنا كذلك من قبل أن الإسلام كان قد انتشر فى ربوع السودان قبل قيام دولة الفونج ، وكان انتشاره تمهيدا لإسقاط الممالك والإمارات المسيحية وإقامة دولة إسلامية .

والإسلام يرادف فيما نرى كلمة « حضارة » بأوسع معانيها ، فعند ما يحل الإسلام بأرض تنتشر حضارته التى تشمل العقيدة والأخلاق والتشريع ، وعند ما تقوم له دولة تصبح هذه الحضارة دستور هذه الدولة وأهم دعامة فى دعائمها ، والتشريع الإسلامى يمتـد ليشمل السياسة والاقتصاد والنظم الاجتماعية وغيرها ، وقد عنى الأقدمون بدراسـة الفقه الإسلامى وأخلاق الإسلام ، وعلى أية دولة إسلامية تنبثق فى المحيط العالمى أن تعمل على نشر هذا الفقه وذلك الفكر ، وتتخذ الوسائل المتعددة لتحقيق ذلك ، فليس الإسلام بمعزل عن الحياة ، بل إنه يرسم حياة المسلم فى مختلف اتجاهاتها ، ويوضح له ما يأخذ به وما يدعه ، ومن هنا كان لزاما علينا أن نتحدث عن الحضارة الإسلامية فى عهد الفونج وعن وسائل نشرها :

---

(١) الشيخ أحمد كاتب الشونة ورفاقه ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩ — ١٠ و ٢٢ .

كان للحكم فى سنار نظامه الشورى الذى يأخذ جذوره من الفكر الإسلامى والفكر العربى ، وكان هناك مجلس شورى يرفع المرشح من بيت الملك إلى العرش ، ويخلعه إن اقتضت الحال ذلك ، وقد ظل ذلك الوضع معمولا به حتى قضى عليه الشيخ محمد أبو لكيلك وأقام حكم الفرد ، فعرض البلاد للفوضى وعدم الاستقرار .

وكانت اللامركزية طابع الحكم بالنسبة لأقاليم مملكة سنار ، وكان شيخ القبيلة أو حاكم الإقليم يُختار بواسطة زعماء القبيلة ، ثم يتمّ تعيينه بواسطة ملك الفونج أو أمير العبدلاب كل فى دائرة نفوذه ، ويصبح له بالتعيين ، نفوذ كبير فى حدود مقاطعته ، مع الاعتراف بالولاء للملك أو لأمير العبدلاب ، وتبعا لذلك كانت موارد القبيلة الاقتصادية ملكا لها ، وإن كان شيخ القبيلة ينعم بأوفى نصيب .

ويمكن أن نقول إن القوة كانت مركز الحياة فى دولة سنار ، فمع وجود الشورى كان لا بد أن توجد قوة تحمى هذا النظام ، فإذا ضعفت السلطة المركزية كثر التمرد ، وبالتالى كثر استقلال الأقاليم ، وكانت الخيول وسيلة القوة ، فحيث توجد الخيول الفارهة يوجد المحارب الفذ والفارس المقدام ، فالقوة الحربية تعتمد فى أساسها على الخيل وعلى ما للحاكم من أتباع ، وهذا ما ساعد الفونج على إنشاء دولتهم وعلى احتفاظهم بها مدة طويلة ، لأنهم كانوا يقطنون أرضا بها إمكانيات ضخمة من موارد الخيل وتوفير العلف لها ، كما كان عندهم منبع لا ينضب من الرجال الأشداء .

ومما يرتبط بالقوة تلك الأغانى والفنون الشعبية التى تستمد أصولها من قصص البطولة ومن صور المبارزة ، ولكل قبيلة أغانيها وفنونها التى تحكى

لمحات من التاريخ وترسم للجيل الحاضر صورة الأجداد لينتفعوا بها وهم يبنون المستقبل ، ويشيدون للأبناء والأحفاد(١) .

وكان لمملكة سنار نظام إدارى دقيق ينسب للملك دكين بن نايل ، ويقول عنه الشيخ أحمد كاتب الشونة إنه كان من أفخر ملوك الفونج ، رتب الدواوين أحسن ترتيب ، وجعل لها قوانين مربوطة لا يتعداها أحد من جميع أهل مملكته ، وجعل لكل جهة من جهات المملكة رئيسا معاوما ، وقنّن لمن عادته الجلوس بحضرته رتباً ، الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه(٢) .

ولنترك الآن النظم السياسية والاقتصادية والعسكرية لنتحول للحديث عن التربية والتعليم فى مملكة سنار ، وقد كانت الحاجة ملحة ليهتم ملوك الفونج وأمراء العبدلاب بنشر الفكر الإسلامى والتشريع الإسلامى ، لأن المسلمين فى بلاد السودان قبيل تأسيس الدولة كانوا يجهلون أمور دينهم حسب ما وصفهم الشيخ أحمد كاتب الشونة ، لأنهم كانوا يتزوجون المرأة قبيل إكمال عدتها من زوجها السابق(٣) ، والآن وقد قامت للدولة الإسلامية كان لا بد من معالجة هذا النقص بجذب العلماء ورجال الدين من الأقطار الإسلامية الأخرى لهذه الدولة الناشئة فى قلب إفريقية لإرشاد الناس فى أمور دينهم ، وهناك شخصيتان مهمتان كان لهما أكبر الأثر فى تطور الحيــاة الدينية بالسودان ، أولهما شخصية الشيخ إبراهيم بن جابر البولادى المصرى الأصل الذى كوّن مدرسة اتجهت نحو العلوم الظاهرية ، فعلمت علوم الشريعة والفقه ، وأخرجت الفقهاء والقضاة ورجال الفتوى(٤) . والشخصية الثانية هى شخصية الشيخ تاج الدين البهارى الذى

---

(١) انظر « مملكة الفونج الإسلامية » للدكتور مكى شبيكة ص ١١٧ ونعوم شقير جـ ٢ ص ١٠٠ — ١٠١ .

(٢) تاريخ ملوك السودان ص ٢ .

(٣) تاريخ ملوك السودان ص ١ .

(٤) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٢ ص ٧٦ .

نجه بمدرسته تجاه الحياة الباطنية والنظم الصوفية . فأدخل إلى السودان طريقة الشيخ عبد القادر الجيلانى سنة ١٥٤٥ وكانت الشاذلية قد سبقتها بنحو قرن ، واشتد النزاع أحيانا بين المدرستين ، وعلى الرغم من أن علماء الشريعة كانوا يعاملون بكل تجلة واحترام ، فإن التأثير الأكبر فى المجتمع السودانى كان للصوفية ، لشدة ارتباط الشيخ بمريديه وارتباطهم به وهو حى ، وبضريحه وخليفته بعد موته[1] ، على أن هناك طبقة من العلماء ورجال الدين أخذت من التصوف نصيبا كبيرا فنالت الحسنيين ، وكان تأثيرها واسعا فى المجتمع السودانى .

وسنذكر فيما يلى لمحة عن مدارس الاتجاه الأول ومدارس الاتجاه الثانى .

ولعل أهم ما تبدأ به هو العناية الكبيرة التى وجهها ملوك الفونج وشيوخ العبدلاب للذين كانوا لا يزالون على وثنيتهم ، والوثنية انحطاط فكرى لا يُغْتَفر للعقل البشرى ، وإذا كان التسامح الدينى محمودا فإن الوثنيين لا يدخلون ضمن نطاق هذا التسامح ، بل يلزم أن تقدم لهم المعارف حتى يثوبوا إلى الرشد ، وفى مملكة سنار انتبه أولو الأمر لهذه القضية وأولوها عناية كبرى ، فأرسلوا المعلمين والدعاة إلى مناطق الوثنيين وبنوا بها المساجد ليجذبوا الناس إلى نور الحق .

ومسألة أخرى اتجهت لها الأنظار فى عهد مملكة الفونج كذلك هى الارتباط الثقافى بالخارج وبخاصة بمصر ، فقد جذب الملوك والشيوخ مجموعة كبيرة من العلماء ، من مصر والمغرب والعراق ، كما أوفدوا الطلاب إلى الأزهر وإلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وبنوا لهم الأروقة هنا وهناك ، وكان رواق السنارى بالأزهر من أفسح الأروقة وأهمها .

---

(١) دكتور مكى شبيكة : مملكة الفونج الإسلامية ص ٤٦ — ٥٠

ومن أهم المدارس التى عنيت بالتشريع الإسلامى واللغة العربية مدرسة لعركيين بالأبيض، وتنسب للشيخ محمود العركى، ومدرسة أولاد جابر، وهم إخوة أربعة: إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم، وأبوهم جابر ابن عوف الذى يصل نسبه بسيدنا الحسين، وقد هاجر أسلافهم عن طريق البحر الأحمر وسكنوا دنقلا العجوز، ونزح بعضهم فى طلب العلم إلى مصر، وتولى منهم عدد كبير منصب القضاء، وإليهم يعزى أكبر الفضل فى نشر الدين الإسلامى فى جنوب كردفان(١).

ومن أشهر المدارس مدرسة سوار الذهب فى دنقلا العجوز، وكانت لها عدة فروع فى نواح مختلفة بالسودان، وزعيم أسرة سوار الذهب هو الشيخ محمد ابن عيسى بن صالح، وهو شريف النسب، لأن أباه عيسى بن صالح تزوج بنت الشريف حمد أبو دنانة الحسينى الذى قدم السودان من مراكش فى أيام دولة سوبة المسيحية، وتزوج الشيخ عبد الله جماع أحد مؤسسى دولة الفونج من الابنة الثانية للشريف حمد فأنجب منها الشيخ عجيب المانجلك، وبهذا كان عجيب المانجلك ابن خالة الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب، ولعل هذه القرابة أضافت مكانة عظمى للشيخ سوار الذهب لتنضمّ إلى علمه وفضله. وكان سوار الذهب واسع المعرفة فى علوم القرآن وعلوم التصوف جميعاً، ولهذا أمّه الطلاب والمريدون من كل صوب(٢).

وكان الشيخ محمد يتمتع باحترام عظيم لدى ملوك الفونج ولدى أخواله مشايخ العبدلاب، وقد كتب له الملك بادى الأول عهداً أعطاه فيه الأمان له ولجميع طلبته على أهليهم وأنفسهم وديارهم، وأن الملك يجير كل من يجيرونه أو يلجأ إليهم، ولن يمسهم أحد بمكروه، وكان هذا الامتياز

---

(١) محمد ضيف الله: طبقات ود ضيف الله ص ٥ - ٦.

(٢) الشيخ أحمد كاتب الشونة: المرجع السابق ص ٣.

يعرف فى دولة الفونج بلقب « الجاه »، ولا يتمتع بهذا « الجاه » إلا كبار العلماء من المقربين إلى ملوك الفونج ، وكانت جميع أراضى سوار الذهب وملحقات مدرسته معفاة من الضرائب ، بل كانت تجرى عليهم العطايا من حين لآخر ، وكان الملوك يرسلون لأبناء سوار الذهب يطلبون الدعاء والمشورة كلما ألمت بهم الأحداث(١) .

وكانت البنت فى مملكة سنار تأخذ نصيبها من العلم والمعرفة حتى نبغ من بين النساء عدد غير قليل مثل فاطمة بنت جابر وهى أخت أولاد جابر الأربعة الذين سبق ذكرهم ، وكانت تضارعهم فى العلم والمعرفة ، وقد تخرج على يدها كثيرون من العلماء والمشاهير ، ومن النساء الشهيرات كذلك عائشة بنت القدال التى كانت تدرس القرآن فى « توتى » ، وقد أخذ عليها القراءة فى أيامه الأولى الشيخ خوجلى أبو الجاز الذى كانت له فيما بعد شهرة واسعة(٢) .

وتمتع العلماء فى مملكة سنار بنفوذ واسع كذلك الذى حظيت به أسرة سوار الذهب ، فكان للعلماء مكان رفيع عند الملوك والحكام بحيث كانوا لا يُرَدُّ لهم طلب ، ومن استجار بهم أصبح آمناً ، كما منحوا الإقطاعات الواسعة ، وهذا شجع هؤلاء المشايخ على نشر الدين والثقافة الإسلامية بالبلاد(٣) .

وإذا جئنا إلى مدارس التصوف أو الطرق الصوفية كما اصطلح على تسميتها ، وجدنا أن أول طريقة صوفية عرفها السودان كانت الشاذلية التى تنسب إلى أبى الحسن الشاذلى من « شاذلة » بتونس ، وقد أدخلها إلى

---

(١) محجوب زيادة : الإسلام فى السودان ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٣) دكتور عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٥٨ .

السودان الشريف حمد أبو دنانة عام ١٤٤٥ م قبل قيام دولة الفونج وقد سبق ذكره ، وكان قدومه من مراكش ، والطريقة الصوفية الثانية كانت القادرية التي تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني العراق ، وقد أدخلها إلى السودان الشيخ تاج الدين البهاري سنة ١٥٤٤ م وعنه أخذ الشيخ محمد الأمين عبد الصادق وبانقا الضرير وعبد الله العركي وعجيب المانجلك ؛ والطريقة الثالثة هي الطريقة الختمية وقد أدخلها إلى السودان في أواخر عهد الفونج (سنة ١٨١٧) السيد محمد عثمان الميرغني ، وكان قد خرج من مكة وعبر البحر الأحمر إلى صعيد مصر ثم بلاد النوبة فدنقلا فكردفان وسنار[1] . وأصبحت الطريقة الختمية ذات مكانة عظمى في البلاد فيما بعد .

---

(١) محجوب زيادة ص ٦٢ — ٦٣ .

السودان بعد دولة الفونج

محمد علي باشا وزحفه للسودان :

ربط النيل بين مصر والسودان برباط مقدس ، وعلى مر التاريخ حرص حكام مصر من وطنيين أو فاتحين أن يسيروا مع النيل جنوباً لاعتقادهم أن حوض النهر يكوّن وحدة ذات عناصر مشتركة اقتصادياً وجغرافياً ، وهناك كذلك عناصر تاريخية بين سكان الوادى شماله وجنوبه ، جاءت نتيجة للروابط التى تمت بين هؤلاء السكان فى عهد الفراعنة والفرس والرومان والبطالسة والعرب ، وبخاصة العرب المسلمون ، ولعل هذا كان السبب فى زحف محمد على إلى السودان ، هذا بالإضافة إلى رغبته فى القضاء على المماليك الذين فروا إلى بلاد النوبة ، ورغبته فى القضاء على من بقى بجيشه من الجنود الألبانيين كثيرى الشغب وإحلال السودانيين فى الجيش محلهم ، ومن أطماعه فى السودان كذلك البحث عن الذهب لينفذ به مشروعاته الواسعة(1) .

هذه فى الحقيقة هى أهداف محمد على فى زحفه إلى السودان ، ولكن وجهة نظر السودانيين تختلف عن ذلك ، فقد كانوا يرون أن الزحف المصرى حلقة من التوسع العثمانى ، بل كانوا يرون أن الحكم القائم فى مصر نفسها آنذاك حكم عثمانى ، وأن محمد على كان أداة فى يد العثمانيين يرسلونه تارة ليحارب ضد الوهابيين ، وأخرى ليزحف على السودان ، وطوراً لإخماد ثورة اليونان ، وأشاع الأوربيون ذلك بين السودانيين عندما اتصلت أوربا بإفريقية وبالسودان ، فاتجه السودانيون إلى اعتبار زحف محمد على

---

(1) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٥ للمؤلف ص ٢٨٠ .

السودان زحفا تركيا ، وأطلقوا على حكم مصر للسودان قبل الفتح الثانى « التركية السابقة » وعلى الحكم الثانى « التركية » ، وتلك غمزة أريد بها التأثير على الروابط الحقيقية بين مصر والسودان،ولعلنا لا نوافق على ذلك، فصلات مصر بالسودان ، والرغبة العميقة فى الشمال والجنوب للتوحيد بين الشطرين لا توضع فى إطار واحد مع الخدمات التى قدمها محمد على للدولة العثمانية فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية .

وحديثنا هنا عن الرغبة العميقة فى الشمال والجنوب للوحدة يؤيده ما يذكره المؤرخون من أن أهل السودان طالبوا بإنشاء حكومة قوية على يد مصر تقضى على أسباب الفوضى المنتشرة بالجنوب ليستبدل بهذه الفوضى عهد أمن ونظام وطمأنينة ورخاء(١) . والذى يقرأ كتاب تاريخ ملوك السودان للشيخ محمد كاتب الشونة وزملائه يصل إلى هذه النتيجة بوضوح ، فإن هذا الكتاب يفصّل القول عن الحفاوة والترحيب اللذين لاقاهما الزحف المصرى من الملوك والأمراء والعلماء والقبائل بالسودان ، كما يذكر أن إسماعيل بن محمد على قابل العلماء والأعيان بالبشرى والانشراح وكساهم جميعاً وأكرمهم غاية الإكرام فى المخاطبة ، وأظهر الحلم وحسن الأخلاق وسهولة الحجاب(٢) . . . .

وسنرى فيما بعـد أن الأهداف الاستغلالية لمحمد على لم تتحقق ، فلا الذهب فاض من السودان ، ولا الجنود السودانيون ناسبهم الجو بمصر ، . . . ومع هذا ظل التوسع فى مسيرته ، بل زاد زيادة باهرة فى عهد إسماعيل ، ويمكن القول أن إسماعيل اتجه للتوسع فى إفريقية ليصد الأوربيين عنها ، ولينشر بها المدنية ، وليحقق روابط الود بين شعوب يربطها النيل والجوار والانتماء لقارة واحدة ، وقد رحبت أكثر الأماكن

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٧ – ٨ .

(٢) تاريخ ملوك السودان ص ٢٢ .

أو كلها بالزحف المصرى فيما عدا أفراد قايلين كان الزحف المصرى يهدد استغلالهم لشعوب المنطقة ، وأدرك السكان أن مصر جاءت لتعطى لا لتأخذ ، تعطى من حضارتها ونظمها وتضمن الأمن والنظام .

ولنسر مع الزحف المصرى من مطلعه ؛ فقد أعد محمد على حملة ضخمة سارت إلى السودان براً وبحراً سنة ١٨٢٠ بقيادة إسماعيل بن محمد على ، وكان مع الحملة عدد من علماء الشريعة الإسلامية ليدعوا المسلمين بالسودان إلى الوحدة والمؤاخاة ؛ وليدعوا غير المسلمين إلى الدخول فى الإسلام ، وكان من هؤلاء القاضى محمد الأسيوطى الحنفى ، والسيد أحمد البقلى الشافعى ، والشيخ أحمد السلاوى المالكى ، وقد قصد محمد على بذلك أن يقدم شيوخاً يتبعون المذاهب الفقهية السائدة بالسودان ليدعم هذه المذاهب ويقوى الأبحاث الفكرية الإسلامية .

وقد حاولت بعض الفلول أن تتصدى للجيش الزاحف ، ولكنها فشلت فى ذلك ، فملك الفونج لم يكن – كما ذكرنا من قبل – إلا دمية تحركها أصابع الهمج ، وكان آخر مشايخ الهمج هو محمد ود عدلان ، وقد حاول أن يلاقى الجيش الزاحف فاتصل بأمير العبدلاب والأمراء المجاورين ليتجمعوا وليلاقوا جيش محمد على ، ولكن الذين استجابوا إليه كانوا قلة ، وقد اعتدى عليه بعض منافسيه وقتله فى هذه الأثناء ؛ وجمع أخوه رجب بعض الناس حوله ، ولكنه اتجه بهم نحو قاتلى أخيه للأخذ بالثأر ، وهيأ ذلك لانتصار جيش محمد على ، واستسلمت بذلك بربر وشندى وسنار(١) .

ولكن حدث عند عودة إسماعيل بن محمد على إلى مصر أن مر هذا بشندى فطلب من الملك نمر الذى كان إسماعيل قد ثبته على ملكه بعض

(١) دكتور مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٥ و ٢٧ – ٢٨ ونعوم شقير ج ٣ ص ٨ .

المال والماشية ، ويبدو أنه كان شديد اللهجة فى مخاطبته لملك الجعليين[1] ، فأسرّها هذا فى نفسه ، ونظم مكيدة أحرق فيها إسماعيل وبعض خاصته فى أثناء وليمة أقامها لهم[2] .

ويقول الشيخ أحمد كاتب الشونة إنه لما بلغ محمد بك الدفتردار وهو بكردفان قتل إسماعيل توجه إلى جهة الأبواب للثأر ، ولما وصل إلى المتمة وجد جماعة مجتمعين فطلب بعضهم الأمان فأمنهم ، ولكن واحداً منهم اسمه سعد وثب إليه وطعنه بحربة ، فخافهم الدفتردار وعاقبهم ، وظهرت القسوة فى المعاملة بعد أن كان الود والترحاب طابع اللقاء بين السودانيين والزحف المصرى[3] ، وهرب الملك نمر وأصحابه إلى الحبشة واتخذوها مركزاً ضد مصر ، وكان أحفاد نمر من أخلص أنصار المهدى فيما بعد[4] .

والشيخ أحمد كاتب الشونة يوضح لنا بذلك حقيقة مهمة ويصحح خطأ مشهوراً ، فالسودان أحسن استقبال الزحف المصرى ، ولم تكن حملة الدفتردار انتقامية ولكنها كانت رد فعل لبعض العدوان الفردى الغاشم .

والشيخ أحمد يثنى ثناء مكرراً على بعض الأعمال المصرية بالسودان كبناء المساجد وحسن السيرة ونشر العلم وتقريب العلماء وزيادة العمارة وحسن السياسة وانتشار الأمن، والمشورة ، وإزالة الفتن[5] . وسار الدفتردار بعد ذلك يكمل فتح بلاد السودان ، وكانت كردفان آنئذ تدين بالطاعة لملوك دارفور . فحاول أميرها أن يتصدى للمصريين ولكن لم تستطع قواته

---

(١) ملوك الجعليين فى شندى هم سعداب دبوس فسليمان العداد فإدريس بن سليمان فعبد السلام فالفحل بن عبد السلام فإدريس الثانى فدياب ..... ونمر هو الملك السادس عشر فى هذه السلسلة ، ومدة حكم ملوك الجعليين فى شندى ٢٤٥ سنة .

(٢) الشيخ أحمد كاتب الشونة : المرجع السابق ص ٢٣ .

(٣) تاريخ ملوك السودان ص ٢٤ .

(٤) نعوم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ١٠٩ .

(٥) تاريخ ملوك السودان ص ٢٨ — ٣١ .

أن تقف فى وجه الأسلحة الجديدة التى كانت مع جيش الدفتردار فانهزمت واستولى جيش مصر على كردفان .

وتأزمت الأمور بين الحملة المصرية وبين دارفور بسبب فتح كردفان ، وفكر الدفتردار أن يستمر فى زحفه ليضم دارفور ،ولكن بسبب الرغبة فى إقرار النظام فيما تم فتحه،تأجل فتح دارفور،ثم انشغلت الأذهان عن هذه المنطقة حتى عهد إسماعيل باشا حفيد محمد على ، حيث تم فتح دارفور على يد القائد السودانى الشهير الزبير رحمة الذى أشرنا إليه من قبل ، وقد ارتبطت بالزبير أحداث خطيرة تمثل حلقة مهمة فى تاريخ هذه الحقبة ، فيجدر بنا أن نخصه بحديث يوضح معالم تاريخ هذه المنطقة خلال هذه الأعوام .

الزبير :

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت تجارة سن الفيل وريش النعام من أروج السلع فى أسواق مصر والشرق ، مما شجع كثيراً من المغامرين من تجار مصر والسودان على التوغل فى غابات الجنوب طلباً لصيد النعام والأفيال والجواميس والخرتيت ، وكانوا يذهبون فى جماعات مسلحة بالبنادق ومدربة على ركوب الخيل وعلى صيد الحيوانات ، وكان لكل تاجر (زريبة) تعرف باسمه يجمع فيها تجارته ويقيم حصونه للدفاع عن نفسه ورجاله وماله ، ولما نشطت تجارة الرقيق أصبح العبيد سلعة مهمة فى حياة هؤلاء التجار .

ومع أحد هؤلاء التجار المصريين كان يعمل شاب من الجعليين ، عُرف بالذكاء والمغامرة هو الزبير رحمة العباسى ، وفى سنة ١٨٥٧ ثارت بعض قبائل الجنوب على التجار المسلمين وهاجمت زرائبهم ، ولكن الزبير تصدى لم بشجاعة فائقة ، واستطاع أن يضمن السلامة للتجار الذين عاونهم ، ولمع نجمه منذ ذلك الحين ، وأصبح التجار يلجأون إليه يطلبون منه الحماية ،

كما استقل بتجارة واسعة فى هذه المناطق ، وراح يتصل بالقبائل المحيطة به وبرؤسائها وتزوج من بنات عدد من الرؤساء ، وأصبح واسع الجاه فى المنطقة كلها ، يحترمه السكان الأصليون ويحيطون به ، ويحتمى به الوافدون ، وحصل خلاف بينه وبين قبائل نيام نيام وسلاطين بلاد قولو فى بحر الغزال ، وانتهى ذلك الخلاف بانتصار الزبير سنة ١٨٦٥ ، فتم استيلاؤه على منطقة بحر الغزال وأعلن نفسه ملكاً عليها ، ولما كان الزبير قد تربى تربية دينية فحفظ القرآن أيام صباه فى كتاتيب الخرطوم ، ودرس الفقه على شيوخها ، فقد كان لهذه التربية الإسلامية أثرها فى حكمه ، فساس مملكته بالكتاب والسنة ، واتخذ له مجلس شورى من العلماء[١] .

وقد ذكرنا من قبل[٢] أن دارفور كانت مملكة دخلها الإسلام فى القرن الخامس عشر ، وتكونت بها أسرة إسلامية مالكة آخرها على بن دينار (١٨٩٩ — ١٩١٦) فكانت بذلك معاصرة لدولة الفونج فى سنار ، وفى خلال حكم هذه الأسرة اتسعت سلطة مملكة دارفور وضمت لها عدداً من الممالك والإمارات حولها .

وحدث خلاف بين مملكة بحر الغزال ومملكة دارفور ، وفى نفس الوقت كان إسماعيل باشا حفيد محمد على يتطلع لفتح دارفور ، كما كانت العلاقة غامضة بين الزبير وبين الإدارة المصرية بالسودان ، ولكن الزبير قضى على كل هذا الغموض وحقق أحلام إسماعيل باشا ، فسار بجيشه وخاض معارك طاحنة ضد ملوك دارفور ، كان آخرها موقعة منواشى سنة ١٨٧٤ ، وقد تحقق فيها النصر الكامل للزبير ، وزحف بعدها إلى الفاشر العاصمة فدخلها ، وأعلن أن مملكة بحر الغزال ومملكة دارفور جزء من السودان

---

(١) محجوب زيادة : الإسلام فى السودان ص ١٠٢ — ١٠٤ بتصرف .

(٢) ص ١٤٢ .

للمصرى ، وأعلن ولاءه للحكومة المصرية ، وقد كافأه إسماعيل باشا بأن منحه رتبة اللواء والباشوية ، واستدعاه لمصر وأكرمه أيما إكرام[١]. وكان اتجاه الزبير الإسلامى هو الذى دعاه لوضع كل سلطاناته تحت راية مصر ، وقد خلف الزبير ابنه سليمان نائباً عنه يحكم منطقته بالسودان ، وسنرى فيما بعد ماذا سيحصل له .

وبينما كان الزبير فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، كان الاستعمار الأوربى قد بدأ يدب وسط القارة الإفريقية وينفث سمومه ، وقد أفلح الاستعمار الأوربى فى أن يسىء لسمعة الزبير ، مما جعل الخديوى إسماعيل يستبقيه بمصر ثم يرسله فى حرب العثمانيين ضد الروس ، وعاد من هذه الحرب فبقى فى مصر إلى أن قامت الثورة المهدية فوشى به غوردون عند الخديوى توفيق واتهمه بالتآمر مع المهدى ، فأمر الخديوى باعتقاله ونفيه إلى جبل طارق ،وبقى هنالك مدة ثلاثين شهراً ، ثم أخلى سبيله وعاد إلى مصر ، وعندما انتهت المهدية ودخل السودان تحت الحكم الثنائى لم تعُدْ تُخْشىَ شوكته ، فأذِن للزبير بالعودة إلىالسودان حيث عاش حتى مات سنة ١٩١٤ ، وسنرى بعد قليل موقف غوردون من سليمان بن الزبير ورجاله[٢] .

التوسع المصرى فى منطقة خط الاستواء :

بعد ضم منطقة بحر الغزال وفتح سلطنة دارفور تطلع إسماعيل إلى مرحلة أخرى من الفتح فى قلب إفريقية حول خط الاستواء ، وإذا كانت عملية ضمّ بحر الغزال ودارفور ارتبطت بشخصية الزبير باشا ؛ فإن فتح منطقة خط الاستواء ارتبطت بشخصين إنجليزيين هما : صموئيل بيكر وجوردون ، ومن الواضح أن الحديث عن فتح هذه المنطقة ليس كالحديث عن أنواع

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ١ ص ١٣٠ .

(٢) موجز سريع لما كتبه سعد الدين بن الزبير عن : الزبير باشا وجل السودان .

الفتوحات فى المناطق المختلفة ، فلم يكن فى منطقة خط الاستواء ممالك ولا سلطنات ، وإنما قبائل متناثرة هنا وهناك يكاد كل منها أن يكون مستقلا ، وبعضها خاضع بشكل أو بآخر لقبيلة أعظم قوة وأعز منعة ، كما كانت هناك بقاع شاسعة لا يمتد لها نفوذ ، وكان معنى الفتح أن تقبل قبيلة ما راضية أو كارهة تبعيتها للقوة الفاتحة ، وأن ترفع علم هذه القوة ، أما المناطق التى ليست بها سلطات ذات بال فإن فتحها لم يكن سوى رفع العلم المصرى بها .

والفتح بهذا المعنى ارتبط بالرحالة الذين كانوا يعرفون المسالك ولهم صلة ما ببعض القبائل النازلة فى هذه المنطقة ، وإذا كان الرحالة هو أداة توسع فى هذه المناطق والحاجة إلى جهوده ماسة ، فإن حاجته هو ماسة كذلك إلى قوة قرية منه تتولى الإنفاق على تحركاته وتأييده بالسلاح والرجال ، ومن هنا وُجِدت المنفعة المشتركة بين إسماعيل من جانب الذى كان نفوذه قد بلغ حدود هذه المنطقة ، وبين هذين الرحالتين اللذين ارتبط بهما كشف هذه المنطقة .

وبيكر (١٨٢١ — ١٨٩٣) ارتبط اسمه بكشف بحيرة ألبرت(١)، وهذا رشحه ليكون ضابطاً فى الجيش المصرى يعمل على ضم أعالى النيل للممالك المصرية ، ولذلك جاء فى قرار الخديوى عن تعيينه ما يلى : « تقرر تعيين صموئيل بك الذى سبق له اكتشاف منبع النيل ، ولديه المعلومات الكافية عن تلك الجهات مأموراً لإلحاق أعالى النيل الأبيض بالممالك المصرية » ، وقد بقى بيكر يعمل فى هذه المناطق حوالى أربع سنوات كانت نهايتها سنة ١٨٧٣ ، وقد استطاع فى خلال هذه المدة أن يرفع العلم المصرى فى غندوكرو(٢)، وأن يعلن ضمها إلى الأملاك الخديوية بمصر ، كما أسس محطتين أخريين فى

---

(١) اقرأ عن تاريخ بيكر : Middleton, Dorothy : Baker of the Nile

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ج ١ ص ١٢٣ .

"ماتيكو وفويرا » ورفرف عليهما العلم المصرى كذلك ، وكان لبيكر خصم لدود فى هذه البقاع اسمه أبو السعود ، وكان ينوب عن شركات التجارة التى احتكرت الاقتصاد فى هذه المناطق ، والتى كانت ترى فى قوة مصر عائقاً فى طريقها ، ولذلك أغرت الأهالى بالجنود المصريين ، فلم يبيعوا لجنود الحملة ما يحتاجون إليه من طعام بل ربما هاجموهم ليلاً ونهاراً ، وينبغى أن نذكر أن عداء هؤلاء التجار للحملة المصرية لم يكن واضحاً ولا علنياً ، إذ لم يكن فى مقدور التجار أن يضارعوا الجيوش المصرية الزاحفة(١) .

وعندما استقال بيكر تطلع الخديوى إلى رحالة إنجليزى آخر يقوم مقامه، فاقترح نوبار باشا على الخديوى تعيين الجنرال جوردن ، ووافق الخديوى على ذلك ، ثم خطا بسلطات جوردون خطوة أخرى، إذ جعله حاكماً لمديرية خط الاستواء ، فلم يعد تابعاً لحكمدار السودان العام (إسماعيل باشا أيوب آنذاك)، وأصبحت العلاقة بينه وبين الحكمدار العام علاقة تعاون ، لا علاقة تبعية ، وسرعان ما تحولت إلى علاقة منافسة ، فقد ظهرت أطماع جوردون الذى حاول أن يضم إلى منطقته بعض المناطق التابعة للحكمدار العام ، ولكنه لم ينجح فى ذلك ، وأخذ جوردون يقيم محطات جديدة يرفع عليها العلم المصرى ، فأقام محطة على نهر سوباط ، وأقام بعض المحطات العسكرية بالقرب من البحيرات ، كما حاول أن يصل بين منطقة خط الاستواء وبين مصر عن طريق البحر الأحمر ، واتصل بملك أوغندا فتقبل هذا الملك أن يرفع علم مصر على مملكته وأن يعلن تبعيته لمصر ، كما أبدى رغبته فى تعلم الدين الإسلامى(٢)

---

(١) تفاصيل الفتوحات فى منطقة خط الاستواء أوردها الأمير عمر طوسون فى كتابه الحافل « تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها إلى ضياعها » (١٨٦٩ - ١٨٨٩) ج ١ ص ١٧ - ١٠٥ .

(٢) عبد الرحمن : عصر إسماعيل ج ١ ص ١١٤ و ١١٦ و ١٢٠ .

وقد جاء فى التبليغ الرسمى للقاهرة عن هذه الفتوح ما يلى :

« وبذلك تم لمصر ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحيرتى فكتوريا وألبرت نيانزا إلى أملاكها ، وهاتان البحيرتان الكبيرتان تفتحان مع روافدهما ونهر سومرست ميداناً رحباً للريادة البحرية يقوم الآن جوردون باشا بإعداده[1] » . وقد أرسل شريف باشا مذكرة للدول تفيد ضم منطقة البحيرات لأملاك مصر[2] .

التوسع المصرى على ساحل البحر الأحمر وجنوبه :

كان العثمانيون قد استولوا على سواكن حوالى سنة ١٥٢٧ ، أى فى نفس التاريخ الذى دخل فيه العثمانيون مصر ، وأصبحت سواكن تابعة فى إدارتها لجدة ، كما استولى العثمانيون على المنطقة المقابلة لليمن على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر (أرتيريا وعاصمتها مصوع) إذ كانت هذه المنطقة تابعة لليمن ، فانتقلت إلى العثمانيين ، واستولوا كذلك على ميناء چيبوتى وزيلع وبربرة وتاجورة ، وكانت تابعة لليمن كذلك ، وانحصرت أهمية هذه المناطق لدى العثمانيين فى مراقبة الأسطول البرتغالى بالبحر الأحمر وبمداخله .

وعندما تقدمت فتوحات محمد على باشا فى السودان ، استأجر سواكن ومصوع من السلطان العثمانى ليتخذهما وسائل لربط مصر بفتوحاته بالسودان عن طريق البحر الأحمر .

وفى عهد إسماعيل لم يكتف هنا بعملية الاستئجار ، كما لم يكتف بسواكن ومصوع ، بل توسع فى ذلك من ناحية المساحة ومن ناحية طبيعة الصلة بين مصر وبين هذه المناطق ، ففى سنة ١٨٦٥ تنازل الباب العالى لمصر نهائياً عن سواكن ومصوع ، وفى سنة ١٨٦٦ تم لمصر امتلاك جميع الشاطئ

---

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ج ٣ ص ٢٨٧ و ٢٨٩ .

(٢) اقرأ هذه المذكرة فى « عصر إسماعيل » للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ج ٤ ص ١٢٢ .

الواقع على خليج عدن الجنوبى من بربرة إلى رأس غوردافوى ، وفى سنة ١٨٧٠ استولى الأسطول المصرى على ساحل البحر الأحمر حتى مضيق باب المندب ، وعلى بلاد الصومال(١) حتى مصب نهر جوبا ، وكان جمال باشا أميراً لهذا الأسطول ، وعين ممتاز باشا فى الوقت نفسه على جميع الشاطئ الإفريقى من السويس إلى رأس غوردافوى بما فى ذلك بربره وبلهار ، وفى سنة ١٨٧٤ كلفت الحكومة المصرية مونزنجر باشا قنصل فرنسا فى مصوع بالقيام برحلة تفتيشية على الساحل الصومالى ، وقد قام بهذه الرحلة وأعد تقريراً وافياً عنها ، جاء فيه أن من الضرورى للقضاء على تجارة الرقيق أن يتم الاستيلاء على الطريق الداخلى من الشاطئ الصومالى إلى هرر .

وفى سنة ١٨٧٥ حصلت مصر على زيلع من الباب العالى ودفعت مصر للباب العالى جزية تساوى دخل الباب العالى من هذه الموانى ، وأسندت إرادة هذه المنطقة إلى محمد رءوف باشا ، وكانت تاجورا ملحقة بميناء زيلع وتسلمها رءوف باشا كذلك ، وهكذا امتد النفوذ المصرى إلى الساحل الجنوبى فشمل منطقة مقدشو حتى نهر جوبا كما سبق . واعترفت نجلترا بذلك(٢) .

مصر تضم إقليم هرر :

ستحدث عن تاريخ هذا الإقليم فيما بعد ، ولكنا هنا نتحدث عن ضمه لمصر مرتبطاً بالتوسع المصرى فى عهد إسماعيل ، وقد ذكرنا آنفاً أن مصر استولت على كل الموانى التى كانت منافذ لإقليم هرر ، وبدأت مصر تفكر فى فتح هذا الإقليم الذى كان الاستيلاء عليه يحتاج لسياسة جديدة غير تلك التى اتبعتها مصر فى الاستيلاء على الشاطئ الإفريقى ، وتلك السياسة هى الفتح العسكرى .

---

(١) سنتحدث عن تاريخ الصومال فيما بعد .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ١ ص ١٣٧ - ١٣٩ .

ومما ساعد مصر لتحقيق هدفها بيسر أن هذا الإقليم أصبح معزولا عن الساحل ، وأن تجارته كسدت ، وأن قبائل الجالا تهدده ، وكان حاكمه معروفاً بالقسوة والاستبداد .

وقد صدرت الأوامر لمحمد رءوف باشا أن يقود حملة يضم بها هذه المنطقة ، وقد سارت الحملة بعد أن سبقتها دعاية ضخمة ، تعلن الرغبة فى المسالمة من جهة ، وتهدد بالوعيد مَنْ يعارض من جهة أخرى ، واتُّخِذ الإسلام وسيلة لجذب قلوب السكان الذين أعلنت مصر التزامها بحمايته من تهديد المسيحيين والوثنيين ، وقد استجابت أكثر القبائل لهذه الدعاية ورحبت بالجيش المصرى الزاحف ، ووقفت قبائل أخرى تعارض جيش مصر ، ولكن محمد رءوف استطاع أن يكتسحها بعد بعض المعارك ، فقتل وأسر ، ولكنه سرعان ما أطلق الأسرى وأحسن لمن عاد إلى الرشد ، واجتمعت الكلمة على تبعية هذه المنطقة لمصر(١) .

وهكذا امتد النفوذ المصرى امتداداً واسعاً شمل الشاطئ الغربى للبحر الأحمر وامتد إلى الشرق والجنوب على ساحل المحيط الهندى ، كما اتجه فى توسعه للداخل فضم إقليم هرر الخصيب .

ووصلت إمبراطورية إسماعيل بذلك إلى قمتها فشملت حكمدارية هرر ومنطقة خط الاستواء ومنطقة بحر الغزال وضربت فى قلب إفريقية حتى قريباً من بحيرة تشاد ، كما شملت ساحل البحر الأحمر كله ، وهيمنت على مداخله وعلى الجزء الواقع إلى الشرق منه وإلى الجنوب ضامّة بلاد الصومال حتى مصب نهر جوبا ، وكان التوسع المصرى بإفريقية يصحب معه كل أساليب الحضارة والمدنية ، وكل جوانب الود والتعارف ، ولذلك ازدهرت كل البقاع التى امتد لها الحكم المصرى ،وانتشر بها الإسلام وروح الإسلام .

بل اتجهت مصر إلى السيطرة على الساحل الشرقى لإفريقية حتى كلوة وسفالة ، ولو تمّ لها ذلك لصدت الاستعمار الأوربى عن القارة ولتعمقت بحضارتها إلى

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ١ ص ١٣٣ .

القارة كلها أو أعظمها ، ويقول المؤرخ إسماعيل سرهنك[1] إن إحدى فرق الجيش المصرى تسللت من أوغندا إلى زنجبار سنة ١٨٧٢ واستُقبلت هناك استقبالا حسناً من السكان ، وعرض قائدها على بُرغش مشروع معاهدة تنص على وضع بلاده تحت الحماية المصرية ، ولكن غوردون — وكان آنذاك حاكماً على مديرية خط الاستواء — عرقل هذه المساعى ، فكتب إلى برغش يحذره من وقوع سلطنته تحت الحماية المصرية ، وفى نفس الوقت أوعز إلى إسماعيل بأن سلطان زنجبار يسىء معاملة المصريين ، فقضى غوردون بهذه الخيانة على محاولة كان من الخير أن يكتب لها النجاح .

الاستعمار الأوربى وموقفه من الامبراطورية المصرية :

إن دراستى بصلة أوربا بإفريقية ابتداء من القرن الخامس عشر قادتنى إلى فكرة أعتقد صوابها ، هى أن أوربا اتجهت بضراوة نحو إفريقية عقب انتصار المسيحيين على المسلمين فى أسبانيا ، وقد لاحق المتصرون المهزومين بإفريقية بعد أن سلمّتْ أوربا للمسيحية ، ولكن كشف أمريكا حدث حوالى ذلك التاريخ ، وجذب الفراغُ الأمريكى والثراء الأمريكى هؤلاء المغامرين إلى رحابه ، فاكتفى الأوربيون من إفريقية بأن يسرقوا رجالها ليبيعوهم عبيداً بأمريكا . . . . ثم استقلت أمريكا وحورب الاتجار بالرقيق لسبب أو لآخر ، كما سنشرح ذلك فيما بعد ، فاتجه الأوربيون إلى إفريقية لاستعمارها بعد أن انحسرت أطماعهم عن أمريكا ، وكان ذلك حوالى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

بيد أن الأوربيين واجهوا بإفريقية عملاقاً ضخماً هو النفوذ المصرى والإمبراطورية المصرية ، والمصريون ليسوا غرباء فى إفريقية ، ولهم حضارة واسعة وأطماعهم ضئيلة إن كانت لهم أطماع ، وتربطهم روابط عميقة بالنواحى

---

(١) حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٣١٩ .

التى نزلوا بها فى القارة ، وكان لا بد لأوربا أن تدمر هذه الإمبراطورية ليتسنى لها أن تمد رجلها فى هـذه البقاع ، فاتجهت إلى الخديوى إسماعيل تصارعه وتناوئه، وتتفق مع تركيا ضده ، وتيسر له القروض ، ثم تخلق أزمة حول القروض ، ولعبت الدعاية دوراً كبيراً حتى خيل للناس أنه مسرف متلاف ، وأنه لا بد من أن يعزل ».

ولم يكن عزل إسماعيل فى الحقيقة بسبب الديون ، فإنها كانت ضئيلة إذا قيست بسواها من ديون الدول ،وإذا قيست بإمكانيات مصر الاقتصادية، وليس عزل إسماعيل ضماناً لسداد الديون ، وقد لاحظ الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أن الديون اتخذت وسيلة لأهداف استعمارية فكتب يقول : «صحيح أن هذه القروض لو استدانتها دولة أوربية لما كانت فى نظر الدول مسوغاً للتدخل فى شئونها، وإنما كان تدخل الدول فى شئون مصر اضطهاداً مقصوداً منه تحقيق أطماع استعمارية قديمة[1] ».

ولعل « فارمان » ممثل بريطانيا فى مصر آنذاك يُعَدُّ أوثق مصدر عندما يتحدث عن أسباب عزل إسماعيل فى تقرير رسمى يبعث به إلى حكومته من القاهرة فى ٨ يوليو سنة ١٨٧٩ ، وفيما يلى مقتطفات من هذا التقرير :

– لو أرادت فرنسا وإنجلترا أن تخلعا أمير الأفغان أو شاه العجم أو سلطان الأتراك ، لما صعب عليهما أن ينتحلا سوء الحكم كعذر لما يريدان ، ولما وجدتا صعوبة فى جعل هذا الادعاء يرسخ فى أذهان العالم المسيحى كله .

– وما أريد ذكره هو أن من بين كل هذه الحكومات كانت حكومة الخديوى (إسماعيل) إجمالا هى أفضلها ، وذلك حسب أكمل ما لدىّ من معلومات استطعت الحصول عليها ، فهى الحكومة الشرقية الوحيدة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل الجزء الأول (قضية الديون) .

التى انفردت دون نظيراتها بمحاولة التقدم والرقى فى كل ما يتصل بأسباب الحضارة الحديثة ، والآن وقد بدأ الناس يستعرضون ما تمّ فى عهد سموه ، فإن ممـــا لا شك فيه أن التقدم الذى أحرزه كان عظيماً جداً .

ـ والمسألة المالية وشعور الاستياء العام بسببها فى أوربا ، ليس إلاّ مجرد أعذار لتجعل من الممكن تنفيذ خطط سياسية معينة ، ولم يسبق أن اعتبر عجز الدولة عن دفع ديونها سبباً يخول الدول الأجنبية الحق فى أن تخلع حاكمها أو أن تغير حكومته .

ـ والمسيو فرديناند ديليسبس رجل عظيم وفاضل ، ولكنه فيما يتعلق بمصر وبالخديوى كان بمثابة الروح الشريرة[1] .

* * *

وهكذا كان عزل إسماعيل ليس سبب الديون ، بل كان فى الحقيقة خطوة أوربية نحو الزحف على القارة .

لقد كان إسماعيل عملاقاً ، ولكنه جاء فى وقت اتجه فيه السُّعار الأوربى إلى إفريقية ، ولو جاء إسماعيل فى غير هذا الوقت لتغير وجه التاريخ ، ولأصبحت القارة أو أكثرها مصرية عربية إسلامية .

أما الخديوى توفيق فكان حاكماً ضئيلا ، وكان صنيعة الإنجليز من أول يوم ، والفرق كبير بينه وبين أبيه ، فكان عزل إسماعيل تمهيداً دقيقاً لتصفية الإمبراطورية التى كونها هذا الخديوى الطموح . وكان موقف الاحتلال البريطانى من الثورة المهدية الذى اتجه لعدم التدخل أولا ، وللإصرار على إخلاء مصر للسودان ثانياً ، استمراراً لهذه الســياسة ، سياسة تصفية الإمبراطورية المصرية ، ليخلو الجو للمستعمر الأوربى .

(١) اقرأ التقرير كله فى كتاب : « مصر والسودان » للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٦٠ وما بعدها .

وبعد زوال إسماعيل دبرت الحيل لاحتلال مصر، ودبرت الحيل لتنتصر الثورة المهدية على النفوذ المصرى بالسودان ؛ ثم اتجهت أوربا لتجنى ثمار هذه الحيل ، ولتقتسم أشلاء الإمبراطورية ، ومن الطبيعى أن تترك لبريطانيا نصيب الأسد لأنها لعبت الدور الرئيسى فى القضاء على إسماعيل ، فكانت القسمة كالآتى :

الحبشة : هرر .

إيطاليا : اريتريا ، والإقليم الشرقى من الصومال ، وسمى الصومال الإيطالى

فرنسا : منطقة جيبوتى وميناء أوبوك وسميت الصومال الفرنسى

بلجيكا : عدلت حدود الكونغو فأخـذت بعض أملاك مصر على هذه الحدود .

إنجلترا : زيلع وملحقاتها ، والإقليم الشمالى من الصومال ، وسمى الصومال البريطانى ، ومحمية أوغندة ، ثم استولت على السودان نفسه فيما يسمى باستعادة السودان ، فإن نصيب مصر كان الاسم وليس سواه، ومما يدل على أن استعادة السودان كانت عبارة عن عملية احتلال مقنعة أن إنجلترا أعدت العدة للزحف على السودان دون أخذ رأى مصر ، وأن خبر الاستعداد للزحف كان مفاجأة للخديوى (عباس حلمى) ، وكان مثار دهشة وإنكار من الجميع ، ولم يقبل الخديوى ذلك إلا تحت ضغط شديد مما جعل كرومر يبرق إلى سولسبرى بأن أحداً لا يرضى عن سياسة الزحف لوضوح أن الذى أملى هذه السياسة لم يكن النظر فى مصلحة مصر[1] .

جوردون والإمبراطورية المصرية بإفريقية :

من الواضح أن جوردون لم يكن مخلصاً فى العمل الذى وكيل إليه ،

---

(١) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن . القسم الأول ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

وكان يعمل لحساب بلده قبل كل شيء ، وكان نفوذ إنجلترا قد بدأ يمتد تجاه هذه البقاع ، ولعله بسبب ذلك لم تتم صلة مصر بأوغندة ، ولم يتم فتح الطريق بين منطقة خط الاستواء والبحر الأحمر ، ولم يتم إسلام الملك امتيسه بل جذبه المبشرون المسيحيون إلى المسيحية . ولم يتم دخول زنجبار تحت الحماية المصرية وكان ذلك على وشك الحدوث كما ذكرنا من قبل .

والعجيب أن الخديوى لم يدرك اتجاه جوردون فى الوقت المناسب ، ولذلك راح يعزز قوة جوردون بموظفين آخرين من الإنجليز ، بل نجده فى فبراير سنة ١٨٧٧ يُعين جوردون حاكماً عاماً للسودان كله ، ويمنحه سلطات واسعة لم تمنح من قبل لمن تولوا هذا المنصب(١) ، وجوردون بهذا يقف وجهاً لوجه أمام سليمان بن الزبير ، ويلقى فى روع الخديوى أنه عديم الولاء له ، بل يلقى فى روعه كذلك أن الزبير نفسه ضالع مع ابنه فى هذا التمرد كما ذكرنا من قبل ، وقد كان من آثار ذلك أن عوقب الزبير بالنفى كما رأينا ، وظل مبعداً عن بلاده فترة طويلة ، أما نهاية ابنه سليمان فكانت مريرة وقاسية وسنتكلم عنها فيما يلى :

سليمان بن الزبير :

لقد كانت الفتنة التى أثارها جوردون ضد الزبير مزدوجة ، اتجه بجانب منها ضد الزبير نفسه ، واتجه بالجانب الآخر ضد سليمان بن الزبير ، وكان الزبير فى القاهرة لا يستطيع أن يدافع عن نفسه إلا بالكلمة ، ولم تسمع كلمته فى كثير من الأحوال ، فعوقب بالنفى والتشريد كما سبق القول ، أما سليمان فقد كان معه الرجال والسلاح ، فكان الصراع معه أطول وأقسى ، واحتاج من غوردون إلى صور من الغدر والخيانة ، وسنسير فيما يلى نصور الصراع بين غوردون وسليمان .

---

(١) Buchan John : Gordon at Kartoum p. 78 f

كان سليمان فى الحادية والعشرين من عمره عندما بدأ يواجه مؤامرات غوردون ، الذى كان قد عيّن حاكماً عاماً للسودان (خلفاً لإسماعيل أيوب) والذى لم يأل جهداً منذ اليوم الأول لتعيينه فى التمهيد للاستعمار الإنجليزى(١) .

وقد بدأ غوردون فى تنفيذ مؤامراته بتفريق جيش سليمان ، وإخضاعه لقيادات متعددة جعل عليها أعوانه وخواصه ، من الأتراك والخونة ، تاركاً سليمان بلا جيش ولا رجال ، وعينه حاكماً على مديرية بحر الغزال ، وقابل سليمان كل هذا بالسكوت فقد كان أبوه بالقاهرة ، وكان سليمان يحس أن معارضته لغوردون ستكلف أباه حرجاً وعنتاً ، ولكن غوردون عندما اطمأن إلى تجريد سليمان من كل قوة أقدم على الخطوة التالية ، فعزله وعيّن إدريس أبتر حاكماً على بحر الغزال بدلا من سليمان ، وإدريس هذا كان وكيلا للزبير فى منطقة بحر الغزال ، ولكنه استبد بالأمر وتمرد منتهزاً فرصة بُعد الزبير ، فلما ذهب سليمان إلى بحر الغزال أراد معاقبته ، ولكن إدريس فر وأغرى جوردون بسليمان ، فعزل جوردون سليمان ، ولكن سليمان لم يخضع لهذا العزل ، وراح يقاومه بحد السلاح ، ولم يمكّن إدريس من السلطة فى بحر الغزال ، وكان كثير من رجال سليمان أوفياء له ، فتركوا قادتهم الجدد وانضووا تحت لواء سليمان من جديد(٢) .

وقاد الأفّاق الإيطالى « روميلو جيسى » الجيوش ضد سليمان ، ودار صراع مرير بين الرجلين ، استغله غوردون ليعلن أن سليمان متمرد على طاعة الخديوى ، بل ليعلن أكثر من ذلك أن هذا التمرد بإيعاز من الزبير إلى سليمان ، ولم يكن من المعقول أن يوعز الزبير لابنه بالثورة ضد مصر ، وهو مقيم بمصر تحت رحمة حكامها ، ولم تكن ثورة سليمان تحتاج إلى إيعاز

---

(١) سعد الدين الزبير : إمبراطورية رابح الزبير ص ٣٦ .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ٩٦ .

من الزبير ، لأنها كانت رداً على خيانة غوردون وتطاوله ، ويقرر لورد كرومر أن الزبير نفى نفياً باتاً إيعازه لابنه ، وأما غوردون فقد أكد ذلك ، وقال إن معه خطاباً من الزبير لابنه بهذا الخصوص ، ولكن كرومر يقرر أنه لم يتيسر له إحضار ذلك الخطاب(١) .

وهكذا يتضح أن اتهام الزبير لم يكن له أساس صحيح ، ولعل ذلك الاتهام أخيذ ذريعة لإرغام الزبير أن يكتب لابنه رسالة ينصحه فيها بالكف عن الحرب ، مذكراً إياه بواجب الخضوع لحكومة الخديوى السنية(٢) .

وتسلم سليمان رسالة أبيه بخطه ، وأحس أن من البر أن يُطيع أباه لعله بذلك يحميه من أزمة يمر بها ، ولكن أحد قادة الزبير الأبطال وهو رابح الزبيرى نهى سليمان عن التسليم وقال له : « لقد ناوأت جيسى فلا تتوقعن منه عفواً إذا صرت فى قبضته . أما أنا فيؤسفنى الانفصال عنكم بعد أن شاركتكم فى السراء والضراء هذه السنين الطوال ، ولكنى لا أسلم نفسى لجيسى لأن الدناقلة محيطون به ، وهو مطواع لهم ، وأنت تعلم ما بيننا وبين الدناقلة من عداوة قديمة ، وإنى لأشير عليك بالذهاب غرباً وفتح بلدان جديدة . . . . »(٣) .

ولكن حرص سليمان على طاعة أبيه من جانب ، وتخلقه بأخلاقه من الولاء لمصر من جانب آخر دفعاه ليسلم سلاحه لعدوه ظاناً أن هذا العدو يعرف الوفاء ، ولكن سرعان ما غدر به عدوه وعدو الإسلام ، فقد صدرت الأوامر لجيسى الإيطالى بأن يوثق سليمان وكبار رجاله بالحبال وهم

(١) لورد كرومر : بريطانيا فى السودان ص ٨٧ — ٨٨ .

(٢) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٣١ ، واقرأ هذا الخطاب البليغ المؤثر المخلص فى نعوم شقير ج ٣ ص ٩٩ - ١٠١

(٣) إسماعيل سرهنك باشا : حقائق الأخبار من دول البحار ج ٢ ص ٣٢ .

ضيوف عنده ؛ وأطلق عليهم الرصاص جميعاً فى يوليو سنة ١٨٧٩[١]

رابح الزبير :

لم تنته جهود الزبير باعتقاله وإبعاده عن السودان حصنه الحصين ، ولم تنته كذلك بقتل ابنه غدراً بين رجاله وفرسانه ، بل امتدت جهود الزبير عن طريق فارس بطل من أتباعه اسمه رابح تحدثنا عنه من قبل عند الكلام عن برنو وكانم وباجرمى ، وكان رابح قائداً أميناً للزبير ، وجزءاً من فلسفته وأفكاره ، حتى تسمى باسمه تيمناً للعرف الذى يقضى بأن نسب الفكر لا يقل عن نسب الدم .

وكان رابح أكبر سناً من سليمان إذ كانت سنه أقل من الزبير بخمسة عشر عاماً ، وكان يرى أنه ملتزم بأن يحل محل الزبير فى غيبته ، فلم تخدعه وعود غوردون ورجاله ، وأحس بأن هذه الوعود تُخفى وراءها الغدر والضعف فرفض الاستسلام ، واتجه برجاله غرباً لينفذ الخطة التى كان يراها خطة الزبير نفسه ، وخلاصتها مصارعة الاستعمار الذى كان قد أخذ يدب فى هذه المناطق ، وتكوين إمبراطورية إسلامية بها تستطيع أن تثبت أمام الاستعمار ، فقد أدرك بفطرته وخبرته أنه ما لم توحَّد تلك القبائل المتفرقة فى حوض نهر شارى وعلى ضفاف بحيرة تشاد ، فلن يُقيَّض لهذه المناطق الوقوف أمام الغزو الفرنسى الذى كان قد أخذ يتسلل نحوها ، واستطاع رابح أن يحتل مناطق قبائل الملتوس والبواس ، وغيرها على نهر شارى ، وقد استسلمت له هذه القبائل دون جهد يذكر ، وكان أكثرها لا يزال على الوثنية ، فاتجه رابح لنشر الإسلام بينها وسرعان ما استجابت له والتفت حوله .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٣ ص ١٠١

وتطورت الأحوال فى السودان عقب ذلك، فقد بدأت انتصارات المهدية وجاءت نهاية غوردون ، فعاد رابح إلى دارفور واحتلها وضمها إلى ما كان بيده من المناطق التى تقع للغرب منها ، وقد كتب له المهدى يطلب إليه أن ينضم بقواته إلى قوات الثورة ، وقد رحّب رابح بالانضمام للمهدى ليصارع معه النفوذ الأجنبى الذى يعد عدواً مشتركاً لهما ، ويقول مؤرخ رابح الزبيرى : أن رابحاً وجد فى المهدى بديلا عن قائده الأول الزبير ، أو ربما رحّب بذلك الانضمام ليغسل بدم غوردون ذكرى مقتل سليمان[١] .

وسار رابح تجاه المهدى ، ولكن أخبار وفاة المهدى أوقفته عن متابعة السير ، لأنه لم يكن على صلة طيبة بالخليفة عبد الله التعايشى زعيم المهدية الجديد لخلاف قديم بين هذا وبين الزبير[٢] ، ولكنه اختار راية المهدية راية لجيشه :

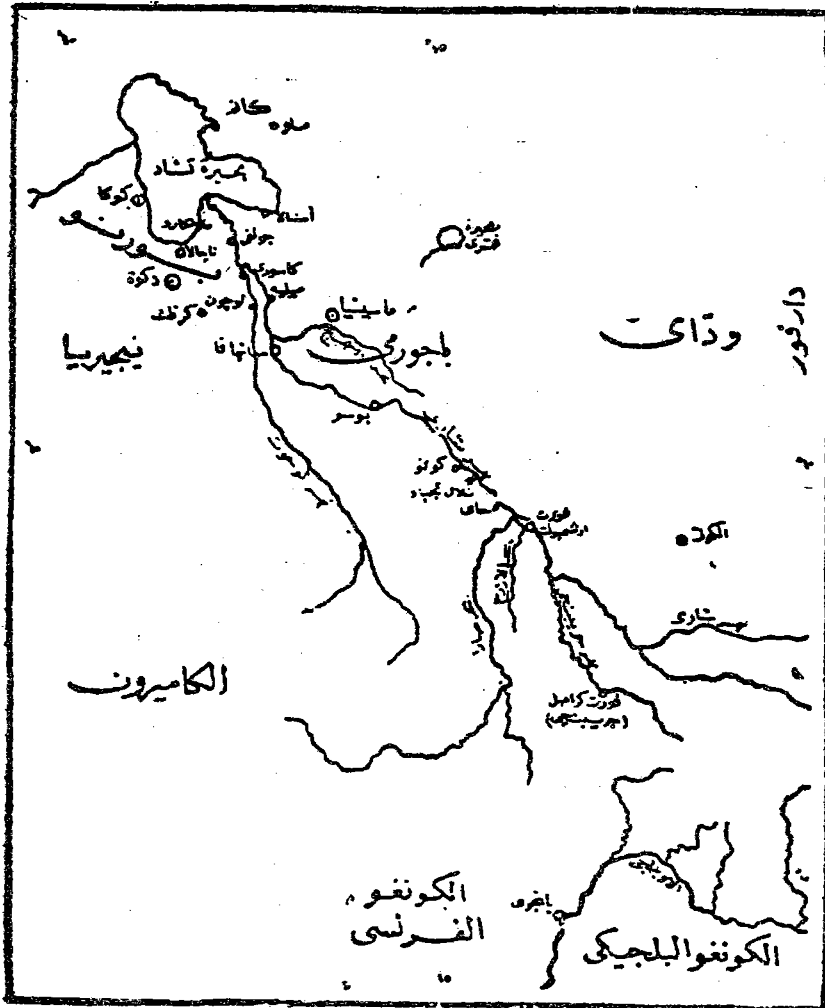
رابح يتجه إلى الغرب :

قفل رابح إلى الغرب ليكمل تكوين إمبراطورية إسلامية مستقلة بهذه البقاع فكوّن لنفسه فى واداى ثم اندفع إلى باجرمى ، وكان ذلك سنة ١٨٩٣ ففتح لنفسه بها طريقاً إلى برنو حول بحيرة تشاد ، واستلزم ذلك أن يحتل بلدة « مانهافا » ، واكتفى رابح بهذه المنطقة من باجرمى ليواصل عن طريقها سيره إلى برنو ، وكان يحكمها سلطان يُدعى هاشم ، وقد دار صراع عنيف بين جيش برنو يقوده « خيارى » ابن أخت السلطان ، وبين جيش رابح ، وبعد نضال عنيف تمكن رابح من إحراز النصر ، وأصبح لرابح بذلك إمبراطورية واسعة تمتد من دارفور التى احتلها قبيل سقوط الخرطوم ، ومشتملة واداى وبعض

---

(١) سعد الدين الزبير : إمبراطورية رابح الزبير ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢) اقرأ أسباب هذا الخلاف فى كتاب « تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل » للأستاذ إلياس الأيوبى ج ٢ ص ٤٩ .



إمبراطورية رابح الزبير

باجرمى حتى منطقة برنو ، واتخذ رابح مدينة «دكوة» عاصمة لهذا الملك الكبير :

وكانت فرنسا قد بدأت زحفها تجـاه واداى وباجرمى ، ولكنها أدركت أنها لا تسـتطيع أن تحقق خطتها فى استعمار هذه الأمكنة مع وجود رابح ، فدارت بينها وبينه معارك اتضح فيها بُعد غوره ، ففكرت فى الحصول على طريقة رخيصة للتغلب عليه ، فعمدت إلى الزبير ترجوه أن يتوسط لعقد صلح بين فرنسا ورابح ، وأدرك الزبير أن الصلح خدعة يعقبها القضاء على رابح على نحو ما فعل غوردون بسليمان ، فرفض أن يكرر غلطته، وبقى الأمر لتحكم فيه القوة ، ويحكى الزبير ذلك فى مذكراته عن حوادث عام ١٨٩٦ بقوله : « . . . حدث فى هذا العام أن زارنى سراً وفى بهيم الليل بعض كبار الفرنسيين من أصحاب النفوذ فى بلادهم ، وبقوا معى إلى ما بعد منتصف الليل بساعتين ، يحاولون إقناعى بأن أسعى لعقد اتفاق بينهم وبين رابح قائدى القديم الذى كان قد أبى التسليم لجيسى مع ابنى سليمان ، ومضى نحو الغرب بألف من الرجال المسلحين إلى أن وصل برنو ففتحها ، وأسس فيها ملكاً عظيماً جعل عاصمته « دكوة » جنوبى بحيرة تشاد ، إلى أن دخلت برنو هذه فى نطاق نفوذ الفرنسيين فجردوا عليه جيوشهم ، ولكنه كان ما يزال القائد الذى سار تحت لوائى من نصر إلى نصر ، فهزم هذه الجيوش فى أكثر من معركة دامية . ولهذا التجأوا إلىّ طالبين أن أستعمل نفوذى لدى رابح لإيقاف هذه الحرب ولأطلب منه الانسحاب من برنو وعرضوا علىّ فى مقابل هـذا ، المبالغ الطائلة مع استعدادهم لتنفيذ كل ما أطلبه منهم . . . ، غير أننى رفضت عروضهم هذه[1] » .

وخاف سلطان باجرمى من نفوذ رابح ، فعقد معاهدة مع فرنسا سنة ١٨٩٧ ، فأحسّ رابح بأن هذه المعاهدة ترمى إلى مقاومته ، فاقتحم باجرمى

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٤٥ — ١٤٦ .

واحتلها ، واتسع بذلك ملك رابح ، ولكن هذا الاتساع أوقفه وجهاً لوجه أمام الفرنسيين الذين كانوا يطمعون فى هذه المناطق ، والذين كانوا قد تحالفوا مع الرؤساء الذين قضى عليهم رابح ، ووقع الصدام بين رابح من جهة وبين الفرنسيين وأعوانهم من جهة أخرى سنة ١٨٩٩ ، وفى نفس الوقت كانت إنجلترا قد زحفت إلى دارفور عقب استعادة السودان ، مما أوقع رابح بين فكى الأسد ، ودار صراع عنيف بين رابح من جهة والفرنسيين من جهة أخرى فى إبريل سنة ١٩٠٠ وكانت القوات الفرنسية تحت قيادة لامى الذى كان يُنظم قواته بالقرب من مدينة « كاسورى » ، وفى هذه المعركة الفاصلة سقط لامى ورابح معاً ، وانهزم جيش رابح بعد صراع مرير ، وقد حاول فضلُ الله بن رابح أن يحمل اللواء بعد أبيه ، ولكن أسلحة الغرب كانت أقوى منه فخرَّ فى الميدان(١) .

مصر فى السودان :

كان الحصول على الشبان السودانيين للجيش ولأنواع العمل المختلفة أهم مطلب دفع إلى غزو السودان ، وقد كتب محمد على بذلك لقادة جيشه أكثر من مرة ، وننقل فيما يلى نصاً واحداً من النصوص الكثيرة التى تحمل هذا المعنى ، وفيه يقول : « وإن المقصود الأصلى من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا إليكم ذلك مرة بعد أخرى ، بل الحصول على عدد من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا(٢) » ، ولكن هذا الهدف لم يتحقق كما كان يرجى لاختلاف الجو والطبيعة البشرية ، فخاب أمل محمد على فى هذا الاتجاه .

---

(١) خلاصة دقيقة لما أورده سعد الدين الزبير فى كتابه السابق .
وانظر كذلك Cyril Clayden : The Rise of French Imperialism
(٢) مكاتبة رقم ٣٢٥ فى غرة ذى القعدة سنة ١٢٣٧ هـ .

وفرضت الإدارة المصرية الضرائب على سكان السودان ، وكثيرون من السكان لم يكونوا مستعدين لدفع الضرائب ، فاستعملت الإدارة أحياناً أساليب فيها قسوة لتحصيل الضرائب التى تلزم لنفقات الجند وأوجه الإصلاح ، ولكن الأهالى ثاروا على المحصلين وعلى الإدارة بسبب الضرائب التى لم يألفوها والتى كانوا يرون فيها صورة من الابتزاز ، وهكذا خاب الأمل كذلك فى الأهداف الاقتصادية ، فلا الضرائب كان تحصيلها سهلا ، ولا أرض السودان جادت بالذهب الذى كان أيضاً من أهداف الحملة .

وكان من أهداف الحملة كذلك الحصول على المواشى السودانية ، ولكن هذا الهدف لم يتحقق بشكل مُرْضٍ ، لأن ما كان يصل منها إلى مصر سالماً كان لا يستأهل الجهد الذى يبذل فى سبيلها ، ولذلك نجد أن عباس باشا ألغى مصلحة المواشى السودانية التى كان مقرها أسوان ، وأوقف جلب المواشى إلى مصر .

وهكذا فشلت كل الأمانى التى تمناها محمد على بفتح السودان، ولكنه استمر واستمر أولاده من بعده فى التوسع ،ويبدو لى أن الأهداف تغيرت بمرور الزمن، وأصبح التوسع استجابة للعوامل الطبيعية والتاريخية التى تربط بين الشمال والجنوب ، وأعطى الشمال كثيراً ، ولكنه لم يحسب ما قدمه فقد أصبح الجنوب جزءاً من الوطن الواحد ، ويتضح هذا جلياً من مراجعة القرارات الصادرة بالزحف للجنوب فى عهد إسماعيل ، فإن هذه القرارات توضح أن الهدف خدمة الجنوب لا استغلاله ، وفيما يلى سطور من قرار تعيين بيكر :

نحن إسماعيل خديوى مصر قد أمرنا بما هو آت :

نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة فى حوض نهر النيل

ونظراً لأن النواحى المذكورة ليس فيها حكومة ولا قوانين ولا أمن،

ولأن شرائع الإنسانية تفرض منع النخاسة والقضاء على القائمين بها

ولأن تلبس تجارة شرعية فى النواحى المشار إليها يعتبر خطوة واسعة فى نشر المدنية . . . . أمرنا بما هو آت :

تؤلف حملة . . . . . .(١) .

وطبيعى أن غدر الملك نمر بإسماعيل بن محمد على كان عملا مشينا ، وكان مشينا كذلك أن بعض من أمنهم الدفتردار راح يطعن مؤمنيه من الخلف ويخون الأمان ، ولكن الانتقام لهذا الغدر الذى قام به محمد بك الدفتردار كان قاسياً فيما يبدو فأضعف الثقة بين الجانبين .

ومن ولاه محمد على على السودان عثمان بك ، واتسم الرجل بالكبر والظلم ، فأسهم فى توسيع الشقة بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب من ذلك العهد .

ولكن مع القسوة والظلم اللذين اتسم بهما حكم بعض الحكام نذكر أن من الإنصاف أن نقرر أنه كان هناك مصريون يعدون مثالا فى العدالة والنزاهة والكفاءة ، ومن هؤلاء خورشيد باشا ، وأحمد باشا أبو وذان .

وقد اهتم محمد على بالسودان اهتماماً كبيراً ، حتى إنه سافر بنفسه ليتفقد الأحوال هناك ، وقام بعدة إصلاحات كانت بعيدة المدى فى تحسين أحوال السودان والسودانيين(٢) ، كما زار سعيد باشا السودان ، وحدد الغرض من زيارته فى أمر أصدره إلى ناظر الجهادية جاء فيه « إن عدم دخول بلاد السودان التى هى من أجزاء ممتلكاتنا تحت الإتقان والانتظام حتى الآن ، مع أن مقصدنا ومطلوبنا هو تقدمها وعمرانها ، لأمر مؤسف جداً ، والحق يقال ، وليس بقاؤها على ما هى عليه من الأمور التى يجوز

---

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ج ١ ص ١٣ .

(٢) انظر رحلة محمد على إلى السودان ١٥ / ١٠ / ١٨٣٨ – ١٥ / ٣ / ١٨٣٩ تأليف انجلو ساماركو ، ترجمة طه فوزى .

تحملها ، وبما أنني صممت العزيمة منذ مدة على أن أرى تلك البلاد ، وأتبين أحوالها وأوضاعها ، وأقف على ما يجرى فيها . . . . لكى نضع لها النظم التى تكفل عمرانها ، وتكون بها الرفاهية للرعايا والأهالى(1) ؛ والمقارنة بين رسالة محمد على التى أوردناها من قبل ، وبين اتجاهات سعيد وإسماعيل التى أوضحتها الوثائق التى ذكرناها ، تؤكد لنا أن تحولا مهما حدث فى علاقة مصر بالسودان ، وأن أهداف الزحف قد تغيرت تماماً ، وسيزيد ذلك وضوحاً فى عهد إسماعيل .

« وهكذا نجد محاسن ذات بال تتصل بفتح مصر للسودان ، ولعل فى قمة هذه المحاسن تكوين السودان الحالى الذى يشمل إدارفور ومنطقة بحر الغزال ومنطقة خط الاستواء ، ولم يكن السودان قبل مصر يشمل هذه المناطق ، ومن محاسن الفتح أنه أزال الفوارق التى كانت قائمة بين الممتلكات الصغيرة فى السودان وأوقف الغارات والحروب التى كانت سائدة بين كل قبيلة وأخرى ، وأمّن المواصلات بين أجزاء القطر بأكمله وقد كانت مضطربة ، ووحّد إدارة البلاد فقضى على التحاجز والانفصالية التى كانت متحكمة فى عهود الفونج ، فأصبح أهل السودان يحسون بأنهم جميعاً أهل بلد واحد ، ورعايا حكومة واحدة تهيمن على البلاد بأجمعها ، وليسوا يعيشون فى ظل ملك صغير أو شيخ قبيلة .

« وفتحُ السودان أتاح له الاتصال بالعالم الخارجى فأصبح يتأثر بالمدنية القائمة آنذاك ، وقد هرع السائحون له لمعرفته وتقصّى أحواله ، وفوق هذا اتبع محمد على سياسة عمرانية رشيدة بالسودان ترمى إلى تحسين الزراعة وطرق الرى ، وزيادة الإنتاج الحيوانى ، فجَلَبَ العمال المهرة وحفر الترع والسواقى الجديدة وأدخل للبلاد السلالات الحيوانية الممتازة والأشجار المثمرة وتقاوى المزروعات الجيدة » .

---

(1) وثيقة رقم ٥٠ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٧٣ (محفظة رقم ٦ أوامر للديوان الجهادية) » .

« ويمتاز عهد إسماعيل بإصلاحاته الإنسانية وفى مقدمتها العمل على إبطال الرق ، وإصلاحاته العمرانية كربط أجزاء السـودان بشبكة من الأسلاك التلغرافية ، وكالبدء فى مد خط السكة الحديدية السودانية ، وإصلاحاته الثقافية كإنشاء المدارس المدنية والإنفاق على المساجد التى كانت تمثل دور العلم والقرآن ، وكرعاية الكتاتيب ؟

« ولكن لهذه المزايا مقابل من المساوئ ليست بالجديدة على أجزاء المملكة العثمانية ، ولكنها جديدة على السودان . فجشع الحكام والعمل لإثراء أنفسهم أشاع الرشوة والاختلاس وترك مثلا سيئاً للسكان يقتدون به . والضرائب التى مهما خففت أعباؤها فهى ثقيلة على كاهل السودانى الذى لم يألف ما يماثلها من قبل ، وبخاصة سكان البادية الذين لا يقتنعون حتى الآن لماذا يدفعونها ، وكانت طريقة جبايتها بواسطة الجند تزيد فى سيئاتها[1] » .

---

(١) السودان فى قرن للدكتور مكى شبيكة صفحة ٥٣ – ٥٤ و ١٣٦ .

الثورة المهدية(*)

فى التقديم للحديث عن هذه الثورة ينبغى أن أوضح أن منهاجى فيها لن يكون على النهج الذى يتبعه أكثر المؤرخين ، وإنما سيكون دراسات فيها أقصى ما يمكن من العمق والبحث والتقصى ، لنعرف أغوارها وفلسفاتها حتى يتناسب ذلك مع ما لوادى النيل من حق علينا ، وذلك هو هدفى وبالله التوفيق لتحقيق هذا الهدف .

والثورة المهدية حدث يلابسه كثير من الغموض ، فعلى الرغم من كثرة الوثائق المتصلة به ، والتى توحى بأن مراجعه كثيرة ومتوافرة ، فإن هذه الوثائق لا تكشف تاريخ هذه الحقبة بدقة ، لأنه أريد بها فى كثير من الأحوال التمويه والتضليل لا كشف الأستار وإيضاح المطلوب ، وطالما كتب الإنجليز شيئاً وأوعزوا بسواه ، وأعلنوا شيئاً وهم يخفون غيره .

ثم إن موقف الخديوى توفيق كان مضطرباً ، فهو رجل صغير يعيش فى حماية الإنجليز ، عدواً لشعبه فى مصر ، ومع هذا يتطلع لحكم السودان ، وهو رجل أصدر قرارا عقب الاحتلال البريطانى لمصر بحل الجيش المصرى لأنه الهيئة التى أعلنت عليه العداء والتى حاولت عزله ، ومع هذا فهو يعيد جمع أشتات هذا الجيش ليمد به سلطانه إلى الجنوب ، وهو رجل يبدى تمسكه بالسودان وحوله حماته يشيرون عليه بالتخلى عنه .

والمصريون ، هل عدّوا الثورة المهدية ضدهم أو عدّوها لهم ؟ ، لقد كانت تحارب أبناءهم وتحاصرهم وتحاول القضاء عليهم ؛ وكانت تعتنق مذهب المهدية وهو مذهب لم يكن العلماء والفقهاء يرتضونه أو يؤمنون به ،

(*) اقرأ بحفر ما كتب Margoliath بعنوان : On Mahdi and Mahdism

ولكنها كانت عند الكثيرين مناط الأمل ضد المستعمر الذى كان يضرب الحريات ويستعمر البلاد .

ولكن هل كان من الممكن لمثل هذه الثورة أن تنتصر على الإنجليز وتحقق أحلام الطامعين فى طرد الاستعمار من مصر ؟ وإذا كان الجيش المصرى مع معداته الأفضل ، وتدريبه الأمثل ، قد هوى أمام التكتل الأوربى فكيف كان يطمع أعداء الإنجليز فى زحف المهدية من الجنوب لطرد الإنجليز من الشمال ، ومواجهة الأسطول الذى كان يمثل المارد فى مختلف البحار ؟

وهكذا نجد ألواناً من المفارقات حول هذه الثورة تجعل دراستها ليست بالشىء اليسير .

والثورة المهدية من ناحية أخرى حلقة مهمة من تاريخ وادينا ، ولهذا ليس من الممكن أن نمر عليها سريعاً ، بل لابدّ أن نقف عندها ، وأن نحاول أن نتعرف أغوارها وأياً ما كانت أهدافها ، فإن هذه الثورة وضعت الأساس للفرقة بين شقى الوادى ، وإذا كانت مصر قد منحت السودان التكتل والتجمع وضمت إليه ما لم يكن قط منه ، فإن هذه الثورة ــ أرادت أو لم ترد ــ فرقت هذا التجمع ، وأحدثت الانقسام الذى نعمل على رتقه وليتنا نستطيع .

أسباب الثورة المهدية :

فى تقديرى أن هناك أسباباً حقيقية عميقة للثورة المهدية ، كما أن هناك أسباباً ظاهرية قليلة الغور ، ويقف فى قمة الأسباب الحقيقية موقفُ أوربا من الإمبراطورية المصرية ، فإن ذلك الموقف هيأ الفرصة لنمو حركة المهدى حتى أصبحت ثورة ، ولولا التخطيط الاستعمارى الأوربى لما وصلت حركة المهدى إلى ثورة ، فانتصار ، فدولة ، وقد سبق أن أوضحنا أنه فى عهد

إسماعيل كانت الإمبراطورية المصرية قد امتدت حدودها امتداداً طويلا ، وسيطرت على منطقة واسعة بالبحر المتوسط ، وعلى البحر الأحمر كله ، وضربت فى قلب إفريقية حتى خط الاستواء ، وفى هذه الفترة كان الاستعمار الأوربى قد بدأ ينشط ويتطلع إلى إفريقية لتكون مركزاً له ومطمعاً لتحركاته ، ولكن الإمبراطورية المصرية كانت تمثل صخرة فى طريق الاستعمار الأوربى لإفريقية ، ومن هنا اتجه الأوربيون لتصفية هذه الإمبراطورية حتى يخلو لهم الجو ، ولو لم يفعلوا لكان من الممكن أن تقف الإمبراطورية المصرية عقبة فى طريق الاستعمار الأوربى لإفريقية ، لأن الإمبراطورية المصرية إفريقية الجنس والدم والفكر ، تنشر النظام والمدنية ، وتأخذ بقدر ما تعطى ، أو فى الحق تعطى أكثر مما تأخذ .

ويرتبط بهذا أنه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن أنظار أوربا تتجه لخطر الإمبراطورية المصرية على الاستعمار الإفريقى ، لأن أوربا آنذاك لم تكن قد مدت أطماعها إلى حيث يمتد النفوذ المصرى بإفريقية ، ولذلك نرى الدول الأوربية تحتم سنة ١٨٤٠ على محمد على أن يخلى السعودية وسوريا وكريت ، ولا تهتم بالسودان ، فلما تطلعت هذه الدول إلى إفريقية ، وجدت الإمبراطورية المصرية تقف أمامها ، وقفت هذه الدول من مصر فى الربع الأخير من هذا القرن بالنسبة لإفريقية ، نفس الموقف الذى وقفته منها بالنسبة لسوريا والسعودية وكريت فى النصف الأول منه .

وكان الإسلام من أهم عوامل الربط بين شطرى الوادى ، ولكن استخدام مصر لموظفين من الأجانب وبخاصة غوردون الذى أصبح حاكما عاماً السودان أضعف هذه الصلة ، فلقد كان جوردون معروفاً بتمرده على كل القيم الإنسانية(1) ، وقد وضع جوردون الأساس للقضاء على العلاقات

---

(١) See : Hake, Egmont : Gordon in China and the Sudan, Passim

بين الشمال والجنوب ، وعندما سقطت مصر تحت أقدام الاحتلال ، وأصبحت السلطة الفعلية فيها فى أيدى الأجانب المسيحيين ، أنفت السودان أن تلق بنفسها تحت هذا النير وتخضع لسلطان الأجنبي دماً وديناً ، وهبت الثورة باسم الإسلام ضد أعداء الإسلام .

وكان من أهم أسباب ثورة عرابى على الخديوى التمييز فى الترقيات والمرتبات بالنسبة للضباط الأجانب ، حتى لو لم يكن الأجانب أعلى كفاءة من المصريين ، وهذا السبب نفسه أثار ثائرة السودانيين على الخديوى ، فإن القيادات والسلطات العالية بالسودان وُضعت فى أيد إنجليزية وأوربية ، ليست لها كفاءة المصريين والسودانيين ولا إخلاصهم ، وحرم هؤلاء من حقوقهم فى بلادهم ، فثاروا على هذا الوضع .

وفى السودان الذى يمتد إلى خط الاستواء وبحر الغزال التقت الحضارة المصرية التى كانت قد وصلت إلى مدى رفيع من المدنية والتقدم ، بالحضارة السودانية التى كانت فى بعض الأمكنة لا تزال تحبهما ولم يستطع بعض السودانيين تقبُّل الحضارة التى تحتم الضرائب ، وتلغى الرق ، وتلزم الخدمة فى الجيش . . . وبخاصة عندما تولى الأجانب بكثير من التعالى فرض هذه الحضارة بأسلوب تعسفى بعيد كل البعد عن الأخلاق والمدنية مما خلق اضطراباً فى النفوس ، وثورة بين السكان .

تلك فيما أرى هى الأسباب الحقيقية للثورة ، ولكنْ هناك أسباباً يبرزها بعض ممثلى الفكر السودانى وتلك الأسباب هى :

١ — الحكم المصرى فى السودان كان مبنياً على الاستغلال .

٢ — نَظَرَ المصريون إلى الخدمة فى السودان كعقوبة يوقعونها على الذين يُراد إبعادهم .

٣ ـ اهتم الحكم المصرى فى السودان بالفتح والتوسع أكثر من اهتمامه بالتنظيم والإدارة[1] .

ولكن إذا نظرنا للسبب الأول نجد الواقع لا يؤيده ، فمصر أعطت السودان أكثر مما أخذت كما ذكرنا من قبل ، ويبدو أن جمع الضرائب فُهِم على أنه استغلال ، ولكن الضرائب تُجمع من السودانيين لمصلحة السودانيين ، وربما أريد بالاستغلال الإشارة إلى من اغتنوا عن طريق الانحراف ، وقد وُجد هؤلاء كما يوجدون فى كل زمان ومكان . ولكنهم بلا شك كانوا قلة .

وأما عن السبب الثانى فإن الواقع يثبت أن كثيرين من الموظفين كانوا ذوى كفاءة ممتازة ، وكان إرسالهم للثقة فيهم ،

ولا يصمد السبب الثالث أمام ما قدمته مصر للسودان من وسائل المدنية التى اقتبسناها آنفاً من مرجع سودانى كالأمن والبريد والبرق والمواصلات والتعليم ، على أن مصر نفسها أصابها الانتكاس فى بعض عهود الحكام من أسرة محمد على كعهد عباس مثلا .

عوامل نجاح الثورة المهدية :

ذكرنا آنفاً الأسباب التى دفعت لقيام الثورة المهدية وقد كان من الممكن أن تفشل هذه الثورة عقب قيامها . فإنها عند مطلعها لم تكن ثورة عاتية ولا شديدة البأس ، ولكنها أخذت قوتها من ظروف مواتية ، ولعل فى قمة هذه الظروف الأسباب الأربعة الآتية : —

(ا) موقف أوربا من مصر والسودان ،

(ب) موقف الأجانب الذين استخدمتهم مصر بالسودان .

(جـ) احتلال مصر .

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .

(د) عدم الثقة بين الخديوى والمصريين .

وسنشرح هذه الأسباب فيما يلى :

— موقف أوربا من مصر والسودان :

أشرنا من قبل إلى أن الاستعمار الأوربى الذى بدأ يمتد إلى إفريقية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وجد فى الإمبراطورية المصرية خطراً عليه ، فبدأ يصارع هذه الإمبراطورية ويعمل على تصفيتها وأطلق لانجلترا عنان القيام بهذا الدور ، ولهذا أعلنت بريطانيا من أول لحظة أن سياستها تقوم على ضرورة أن تسحب مصر كل جنودها من السودان وأعلنت أنها لا تحمل أية مسئولية لا تتمشى مع ذلك ، ولم تستجب انجلترا لرغبة الحاكم العام المصرى الذى طلب بعض الجند والمال للقضاء على هذه الثورة فى أولها ، ولكن الخديوى أخذ موقفاً لا يتمشى مع رغبة سادته ، واتجه شريف باشا رئيس الوزارة إلى التمسك بالسودان ، لأن ترك السودان والتراجع إلى حلفا سيقتطع من مصر مناطق تعد جزءاً منها ، ويحرم مصر من حدود طبيعية ، ويلزمها أن تدافع عن نفسها عند الحدود الجديدة دفاعاً يحتاج إلى جيش كبير ونفقات باهظة ، ولذلك فإن الحكومة المصرية ترفض إخلاء الأراضى التى تعتبرها ضرورية جداً لأمنها ولوجود مصر نفسها[1] .

وقد جاء الرد البريطانى على هذا الاتجاه صريحاً وحاسماً يوضحه خطاب جرانفيل إلى بارنج فى ٤ يناير سنة ١٨٨٤ وفيه يقرر أنه يجب إفهام الوزراء المصريين وحكام الأقاليم بوضوح أن المسئولية الملقاة حالياً على كاهل انجلترا تضطر حكومة صاحبة الجلالة إلى الإصرار على تنفيذ السياسة التى أوصت بها وهى سياسة إخلاء السودان ، وأنه سيكون من اللازم أن يُوقَف

(١) مذكرة شريف إلى بارنج فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ .

الوزراء والحكام الذى لا يتبعون هذا التوجيه عن القيام بأعمالهم(١) » . وهكذا أعلنت بريطانيا تمسكها بانسحاب مصر من السودان ، وحددت لمن يعارضها طريقه وهو البعد عن كراسى الحكم .

ب – موقف الأجانب الذين استخدمتهم مصر بالسودان :

الأجانب الذين تولوا مناصبهم بالسودان تابعين لحكومة مصر لم يكونوا مخلصين لهذه الحكومة ، وكانوا يخدعونها ويمكنون لرغبات انجلترا بوجه خاص ، والرغبات الأوربية على العموم ، ونقدم هنا قاموساً قصيراً بأشهر هؤلاء ، وما قاموا به من ألوان الخداع والتضليل والخيانات :

بيكر : كان كشافاً ورحالة ، ولا تؤهله هذه الصفات للإدارة والسياسة ، وقد أساء السيرة عندما استخدمته حكومة الخديوى فى السودان ، وقد اعترف بيكر أنه وهو موظف مصرى فى عهد إسماعيل كان يعمل على تقوية النفوذ البريطانى فى المناطق التى عهدت إليه مصرُ بإدارتها ، وكان فخوراً بأن يخلفه غوردون فى هذا العمل ، وكان يعمل جاهداً ليتساب للنفوذ البريطانى فى مصر ، ويتوغل فيما وراءها(٢) .

مالكولم : كانت له السلطة على ممتلكات مصر بسواحل البحر الأحمر ، وهناك عمل على بث النفوذ البريطانى فى شرق إفريقية .

ماكيلوب باشا : قائد فى البحرية المصرية ، كان بعيداً كل البعد عن الإخلاص لمن أولوه هذه الثقة .

---

(١) جرانفيل إلى باونج فى ٤ يناير سنة ١٨٨٤ .

(٢) Middleton Dorothy : Baker of the Nile p. 168

هكس : عين هكس على رأس حملة لمقاومة الثورة ويقول عنه أحمد حمدى ياور الخديوى الذى أرسل للسودان لدراسة الحالة : إن هكس لم يكن مرغوباً فيه ، وقد قام بتصرفات ضد واجبه الوظيفى ، وضد رغبات الحكومة المصرية ، وكان معه ثمانية من الضباط الإنجليز واثنان من الخدم الأوربيين ، وقد أخذوا لأنفسهم كل الامتيازات . ولم تكن الرحلة بالنسبة لهم إلا أشبه برحلة صيد ونزهة على حساب الحكومة المصرية ، وأما الأعباء والأعمال فكانت متروكة على كاهل الضباط المصريين. الذين أحسوا بالخيانة وسوء التصرف من القائد ومعاونيه ، وكان هكس يظهر علناً عدم احترامه لمصر وللمصريين ، ولكن أحمد حمدى ياور الخديوى الذى أوفد لدراسة الحالة بالسودان عمل على تخفيف الحدة بين هكس وبين المصريين ، ولولا ذلك لثار المصريون ضد هكس وضد من أرسله قائداً عليهم .

وقد ذكر أحمد حمدى(١) فى تقريره عن هكس أنه عندما عرف وهو فى الطريق إلى الخرطوم أن الحالة بالسودان آخذة فى التحسن ، ضاق وظهر عليه الغضب فلم يكن يريد هدوءاً ، وإنما يتمنى الثورات والقلق ، وتحدث أحمد حمدى كذلك عن بلاغ أصدره هكس للسودانين تحدث فيه عن العدالة التى عُرفت بها انجلترا ، وأنه كواحد من أبناء انجلترا ، يعلن أنه جاء إلى السودان لينشر العدالة والإنصاف بين الناس ، وهو بهذا يثير السودانيين على مصر ويقف ضد الدولة التى أرسلته .

غوردون : وإذا وصلنا إلى غوردون فإننا نصل إلى الشخصية الغامضة التى لعبت أكبر أدوار الخيانة فى السودان ، وقد عين غوردون أول الأمر لتوسيع

---

(١) انظر التقرير فى المحفوظات التاريخية بعابدين : السودان ١ / ١ — ٧ .

السلطان للمصرى فى منطقة خط الاستواء ، ووضع فى هذه الأثناء الأساس لسوء العلاقة بين مصر والسودان بقسوته وسوء معاملته للسودانين ، ثم عُين بعد ذلك حاكماً على هذه المنطقة فحاكماً عاماً للسودان كله ، وهنا بلغ القمة فى سوء المعاملة ، ومن أبرز ما رتكبه من خيانات موقفه بالنسبة للمواطن المخلص الزبير باشا رحمت الذى قدم كل جهده لخدمة الدولة والذى كان مثالا طيباً للجندى الممتاز ، ولكن غوردن كان يكره هذه الصفات فوشى بالزبير وبأسرته وابنه ، فاستبعد الزبير ونفى ، وقتل ابنه سليمان وصودرت أملاك أسرته ، وحكم عليهم بالتشريد وكانت هذه إساءة للشعب السودانى كله ، وفرض جوردون على الشعب السودانى الضرائب الباهظة واستعمل فى جبايتها العصى والكرابيج ، والسجون والتشريد .

وفى عهد غوردون أكثر هذا تعيين الأوربيين حكاماً لأقاليم السودان ، فأصبح شينتزر الألمانى حاكماً لخط الاستواء ، وروموليو الإيطالى حاكما فى بحر الغزال وچيجلر الألمانى مفتشاً عاماً للتلغرافات بالخرطوم (وقد صار حاكماً عاماً بالنيابة بعد سفر محمد رءوف الذى عُين حاكماً عاماً بعد غوردون) ، وأصبح سلاطين النمساوى حاكماً على دارفور ، ويبرز كتابه « السيف والنار فى السودان » مدى الخيالة التى انغمس فيها[1] .

وعندما رأى جوردون تضارب المصالح المصرية والإنجليزية فى إقليم هضبة البحيرات لم يتردد فى أخذ جانب الإنجليز ، وأصدر إلى شينتزر الألما أمراً بإخلاء هذه المنطقة ، ففعل ، ولكن رءوف باشا استطاع أن يُلغى هذا الأمر وأن يُعيد الحدود إلى ما كانت عليه عندما عين حاكماً عاماً للسودان بعد غوردون[2] :

---

(١) انظر كتاب السيف والنار فى كل صفحاته تقريباً .

(٢) الأمير عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية جـ ٢ ص ٢٨٠-٢٨١

ومرحلة ثالثة من مراحل حياة غوردون بالسودان أنه ذهب لتنفيذ سياسة الإخلاء ، وهو فى هذه المرحلة يُظهر اضطرابه ، فهو يدعى أنه جاء للإخلاء ، وإعادة سلطان الأسر السودانية إليها[1] ، ولكنه فى الوقت نفسه يمنح الأمانى لمن يعمل على توطيد سلطانه بالسودان ، وهو يطالب بإلحاح بأن يعاد الزبير للسودان ، ويرى فيه الأمل الوحيد للإنقاذ ، مع أن جراح الزبير وأسرته من غوردون لم تكن قد اندملت بعد[2] ، وهو يعلن العودة لتجارة الرقيق ، وذلك يغضب مصر وانجلترا ، والعالم المتمدين كله ، وهو يلتقى بشيوخ القبائل الموالية لمصر ويطلعها على قرار يحمله من الخديوى بإخلاء السودان ، فتحس هذه القبائل بضرورة الانضمام للمهديين فوراً حتى لا تفقد هؤلاء وأولئك ، وهو يفرج عن الذين سجنهم من قبل فيخرجون وكلهم ثورة عليه ، ويحرق علناً سجلات الضرائب ويحرق الكرابيج التى كانت تستعمل فى جمعها ، ولكن هذا يذكّر الناس بمساوئه وأيامه السوداء .

بل وصل غوردون إلى أعظم حالات الخيانة عند ماكتب فى نوبة من نوبات العصبية التى كانت تعتريه أنه سيكتب استقالته من خدمة الخديوى ، ويأخذ البواخر والمخازن إلى مديريات خط الاستواء وبحر الغزال ، ويعتبرها تابعة الملك البلچيك ، وأنه يمثله فيها .

وموقف الاضطراب الذى وقفه جوردون فى هذه الفترة يعبر عنه هو بنفسه أصدق تعبير حين يقول « لا يوجد فى العالم رجل أكثر منى تغيراً »[3] ويقول عنه نور تبروك « يا لشذوذ جوردون ، ويا لسرعة تقلبه فى آرائه[4] » .

---

(١) لورد كرومر : بريطانيا فى السودان ص ١٦١ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٥ و ١٠٦ و ١٠٩ و ١٢٥ .
(٣) لورد كرومر : بريطانيا فى السودان . ص ١٦٩
(٤) المرجع السابق ص ١٧٥ .

وكان غوردون يعيش آخر أيامه فى بؤس جعله يكاتب المهدى ويطلب منه رعاية الأهالى ، ومع هذا فهو لا يقبل التسليم ويعرض جنوده الجائعين إلى حروب لا أمل فيها ، وقد دفع جوردون دمه ضحية مع الضحايا الذين كتب عليهم الموت بسوء سياسته وحمقه .

وقد ذكرنا آنفاً أن جيجلر الألمانى أصبح حاكماً عاماً بالنيابة بعد إقالة رءوف باشا ، وقد حلت بذلك الخيانة محل الأمانة والغدر مكان الثقة ، وكان من أبرز خيانات جيجلر أن أسرع حين ذاك بالإبراق إلى مصر أن الحالة فى فى السودان لا تستدعى إرسال إمدادات جديدة ، وصدقته القاهرة للأسف ، فحقق ذلك ما أراده من تأجيل الاستعدادات حتى لا تصل فى الوقت المناسب :

وهناك شخصيات إنجليزية لم تكن تابعة للحكومة المصرية ، ولكن انجلترا جندتها بمصر لصالحها ولرسم المخطط الذى تريده ، ومن أهم هؤلاء الميجر هنتر والكولونيل ستيوارت ، وكان الميجر هنتر مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن ، وقد ذكر فى برقياته للقاهرة سنة ١٨٨٣ أن قبائل الجالا تستعد للاستيلاء على هرر ، وأن قبائل الصومال أعلنت أنها ستخرج المصريين من بربرة وزيلع ، بل راح يجمع التوقيعات من الأهالى ضد مصر ، وأخذ يرتب تصفية النفوذ المصرى على ساحل البحر الأحمر .

أما الكولونيل ستيوارت فقد أرسلته بريطانيا لدراسة الحالة بالسودان وتقديم تقرير ونصائح من موطن الأحداث ، ويمكن القول إن التقرير والنصائح كان متفقا عليها قبل سفر ستيوارت للسودان ، ولم تكن الرحلة إلا مظهراً لصبغ هذه التصرفات بصبغة المنطق ، ولذلك جاء تقرير ستيوارت متمشياً مع السياسة التى أعلنتها الحكومة البريطانية من أول يوم ، فقد ذكر ستيورات أن سبب الثورة هو التعصب الدينى لدى القبائل ، وحقد الأهالى

على الموظفين المصريين لقسوتهم وعدم كفاءتهم ، وإلغاء تجارة الرقيق التى كانت تدر ربحاً كبيراً على بعض أتباع المهدى ، وسحب بعض القوات المصرية بالسودان ، ولكنه لم ينس أن يذكر أن القوات المصرية الباقية بالسودان كفيلة بالسيطرة عليه لو وضعت تحت قيادة حازمة وهو فى هذه الجملة يصطاد عصفورين بحجر واحد كما يقولون ، فهو أولا لا يطالب بمزيد من الجند لأن المزيد من الجند قد يحقق الاستقرار المصرى بالسودان وهو ما لا يريده ، وهو ثانيا يوصى بوضع القوات الموجودة بالسودان تحت قيادة حازمة أى إنجليزية وبالتالى فإن هذه القيادة ستحقق أمل الإنجليز ، وأثنى ستيوارت على السفاح سلاطين باشا ، والتشار الهدوء فى مديرية دارفور التى يحكمها ، وذكر أن مصر لا تستطيع أن تمنح الرفاهية لهؤلاء السكان ، ولذلك ينبغى أن نعيد معظم هذه الأقاليم لمشايخ القبائل والزعماء المحليين قبل دار فور وكردفان ومديرتى خط الاستواء وبحر الغزال .

وقد كان هؤلاء الأجانب أهم صرخة دوّى بها صوت المهدى ، فقد أعلن أن ما نزل بالسودان من مظالم ومصائب تقع تبعاته على عاتق الحكومة المصرية ؛ لأنها استخدمت الأجانب والدخلاء وولتهم أمور العباد[1] .

ويحس عمر طوسون بهذا الإحساس ، فهو إذ يثنى على الخديوى إسماعيل لأنه ضم منابع النيل إلى الإمبراطورية المصرية يعلن أن الخديوى لو عهد بهذا الفتح إلى قائد مصرى لكان ذلك أسلم . . .[2] .

جـ – احتلال الإنجليز لمصر :

احتلال الإنجليز لمصر سهّل للثورة المهدية طريقها ، ويبدو للدارس أنه

---

(١) الشيخ محمد القبانى : السودان المصرى الإنجليزى ص ١٧ .
(٢) تاريخ مديرية خط الاستواء : فاتحة الجزء الأول

ما كان يمكن لهذه الثورة أن تنجح لو لم تسقط مصر تحت الاحتلال البريطانى ؛ ففى خلال الصراع بين عرابى والإنجليز اضطر عرابى أن يسحب بعض الفرق المصرية من السودان ليواجه بهم الإنجليز ، وبهذا أضعف الحامية المصرية هناك ، وبعد الاحتلال كان رأى المصريين أنه ليس من المستحب ولا من المعقول أن تُقَاوَم ثورة المهدى ، لأن القضاء عليها معناه مدُّ سلطة الاحتلال إلى السودان ومد سلطة الخديوى الخائن إلى جنوب الوادى ، ولذلك نجد كثيراً من الجنود والضباط الذين جُمِعوا ليُبْعَث بهم إلى السودان يهربون من المعسكرات وتضطر القيادة إلى قيدهم بالسلاسل حتى لا يهربوا .

وراح الإنجليز يثيرون الإشاعات بأن أنصار المهدى انفضوا عنه ، وأن من بقى معه انهارت روحهم المعنوية ، وأن حركته على وشك الانتهاء ، وقد حصل هذا فى نفس الوقت الذى كان المهدى يحقق فيه انتصاراً واسعاً فى الأبيض ويستولى عليها ، وكان المقصود من هذه الإشاعات أن تجعل الحكومة المصرية متفائلة فلا ترسل قوات لمواجهة قوات المهدى[1] .

وقد أجمعت الأدلة على أن الزبير كان وسيلة مؤكدة لتأكيد سلطان مصر بالسودان ، ولكن الحكومة الإنجليزية اعترضت على تعيينه لسبب يدعو للسخرية هو اعتراض جمعية منع الرقيق فى لندن عليه[2] .

ووقف شريف موقفه الوطنى من السودان وقال قولته المشهورة « إذا تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا » وتبعه فى ذلك رياض فخاف اللورد كرومر من نزعة إعراض المصريين عن تأليف الوزارة التى توافق على إخلاء السودان ، وقرر مواجهة ذلك بأن يشرف على إدارة الشئون الحكومية بنفسه ، أى أن يصبح هو الحكومة بأسرها ويتخذ ما يراه من قرارات ، وقد خاف

---

(١) د. مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٧٠ .

(٢) لورد كرومر : بريطانيا فى السودان ص ١٠٥ .

الخديوى من ذلك واستدعى الخائن نوبار الأرمنى الذى تبنى سياسة سادته الإنجليز وقبل الوزارة على أساسها ، ووضعت انجلترا برنامجاً لضياع الممتلكات المصرية على البحر الأحمر ، فطلبت من السلطان أن يوافق على منح ميناء مصوع لملك الحبشة ، واستولت هى على باقى الموانى .

وهكذا كان الاحـــتلال البريطانى لمصر أقوى الأسباب لنجاح الثورة المهدية بالسودان .

و — عدم الثقة بين الخديوى والمصريين :

لم يكن بمصر إلا قلة قليلة تتعاون مع الخديوى عقب عودته إلى القاهرة على أسنة الحراب الإنجليزية ، وكان بعض الذين يتعاونون كشريف باشا يعملون على إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، حتى لا يبتلع النفوذ الإنجليزى كل شىء ، وكان عبد القادر حلمى القائد العام بالسودان عقب الاحتلال من الأشخاص الذين تعاونوا مع الخديوى عقب الاحتلال ، ولكن الخديوى لم يكن يثق فيه ولذلك استمع إلى وشايات ضده تصـــوره بأنه يريد الاستقلال بالسودان ولذلك أرسل برقية فى يناير ١٨٨٣ يأمره فيها بوقف جميع العمليات الحربية .

ولقد أجاب عبد القادر بأنه لا يمكن تنفيذ هذا الأمر لأنه سيؤدى إلى انتشار الثورة . ويؤكد ضياع كردفان ودار فور ، ولقد حقق عبد القادر بعد ذلك انتصارات مهمة ، ولكن سرعانما تلقى إقالته من منصبه ، وتولى القواد الإنجليز ماكان يقوم به من مهام ، وقد كانت الجفوة واضحة بين القواد الإنجليز الذين يثق فيهم الخديوى وبين الجنود والضباط المصريين ، وماكان يمكن لقائد إنجليزى مثل هيكس أن ينجح فى حملة لا يدين له رجالها بالولاء ، ومن أجل هذا أبيدت حملة هيكس فى أول لقاء ، وعقب إبادتها

هللت الصحافة المصرية الحرة لانتصارات المهدى وهلل الزعماء المصريون للملك ، بل فكر بعضهم فى اللحاق بالسودان ليكونوا فى ركب المهدى مؤيدين لثورة الجنوب التى تسعى لتخليص الشمال من الخديوى وسادته الإنجليز .

وقد سبق أن ذكرنا أن بعض الضباط والجنود كانوا يساقون سوقا من مصر للحرب بالسودان ، وكانوا يقيدون بالسلاسل حتى لا يهربون من خدمة الخديوى ، وما كان يمكن لمثل هذا الجيش أن يحقق أى انتصار[١] ه

---

(١) دكتور مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ١٧٣ .

الثورة المهدية فى سطور

إن الدراسة التحليلية التى قدمناها هى أهم ما يعنينا فى دراسة التاريخ الإسلامى ، وهى الدراسة التى توضح لنا أخطاءنا ، وتعلمنا أن نتحاشى هذه الأخطاء فى حياتنا ، بقى بعد ذلك أن نورد الأحداث التاريخية للثورة المهدية بإيجاز :

– ترتبط هذه الثورة بالإمام محمد أحمد ، وقد ولد سنة ١٢٥٠هـ (١٨٤٤م) بجزيرة لبب التى تبعد نحو ١٥ ك جنوب دنقلة[1] ، وتعلم العلوم الدينية فى بربر والخرطوم واشتهر بالورع والزهد ، ثم تصدى للتدريس فالتف حوله التلاميذ فأنشأ مدرسة بالخرطوم سنة ١٨٦٣ ، ثم انتقل إلى جزيرة أبا على بعد ٢٥٠ ميلا جنوب الخرطوم ، وعكف على العبادة والتأمل ، ودرس الطرق الصوفية فاتصل بالشيخ محمد شريف ثم بالشيخ القرشى[2] وحملت الأنباء عنه فيضاً من الكرامات ، وقد هيأ هذا لخروجه وإعلانه أنه المهدى الذى أختارته العناية الإلهية لإنقاذ العالم الإسلامى كله مما لحق به من ضعف وانهيار[3] .

وكان الاستعمار بدأ ينشب مخالبه فى إفريقية ، ويتجه بضراوة نحو مصر وامتداداتها بالجنوب ، وقد انتهز محمد أحمد هذه الظروف فدرس مشكلات بلاده وأعلن خروجه لإصلاح الأحوال متخذاً العامل الدينى وسيلة فى ثورته ، وكان عبد الله التعايشى أول الذين صدقوه وآمنوا بمهديته ونصروه ، ويقال إن التعايشى عندما رأى المهدى لأول مرة انكب على

---

(١) إبراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردن وكتشنر جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٣ ص ١١٥ وما بعدها .

(٣) Darmesteter James : Mahdi past and present pp. 7—15 abridged

وجهه كأنه مغشى عليه ، فلما أفاق سئل عن سبب إغمائه ، فقال : نظرت أنوار المهدية على وجهه فصُعِقْت . . .[1] وأصبح التعايشى بذلك الصّديق والخليفة الأول للإمام.

وقد بدأ الإمام المهدى دعوته العلنية ببيان شامل تحدث فيه عن نسبه وأنه من ذرية رسول الله ، كما تحدث عن دعوته وأنها تكليف من الله ، وأن الرسول أخبره أنه المهدى المنتظر ، وأنه أمره بالهجرة إلى جبل قدير ، وأن من شك فى مهديته كفر . . . .[2] .

ـ حاول محمد رءوف حاكم السودان أن يستدعى المهدى للخرطوم فرفض ، فأرسل إليه قوة صغيرة اعتقاداً منه أنه لن تحدث مقاومه ، ولكن المريدين تصدوا لها وهزموها .

وتوقع المهدى صداماً بالحكومة على نطاق واسع فى جزيرة أبا فقرر الهجرة إلى مكان أحصن ، فاختار جبل قدير غرب النيل فى كردفان ، وهاجر إليه مع أهله وأصحابه ، وأصبح هذا المكان مركزاً هاماً لدعوة المهدى ، ثم أخذ المهدى يرسل لزعماء القبائل يطلب منهم الانضمام إليه والجهاد معه فى سبيل الله وكان هذا مطلع الاتجاه الثورى للمهدية .

ـ وكان سحب قطع كبيرة من الجيش المصرى بالسودان وانشغال القاهرة بمشكلات الدفاع من أهم العوامل التى ساعدت على نمو قوة المهدى ، وبخاصة أن حاكم السودان لم يكن يستطيع التصرف بوضوح مع اضطراب الأحوال فى مصر .

---

(١) إبراهيم فوزى : السودان بين يدى جوردون وكتشنر جـ ١ ص ٧٥ ونعوم شقير جـ ٣ ص ١٢٠ .

(٢) اقرأ هذا البيان فى تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير جـ ٣ ص ١٢٢ – ١٢٤ .

– جرت بعض المعارك الحربية ، ولكن كثيرين من الجنود كانوا يفرون من الخدمة للانضمام للمهدى ضد الإنجليز وأتباعهم[١] .

– استطاع الثوار محاصرة الأبيض وبارة فى أغسطس سنة ١٨٨٢ ، وجرت معارك خسروا فيها كثيراً ، ولكن الحصار استمر ، وكان نزول الجنود البريطانيين بالإسكندرية قد تمّ فى ١٣ يوليو وتلا ذلك الاحتلال البريطانى لمصر عن طريق قناة السويس ، ووصلت أنباء هذا الاحتلال للسودان والثوار يحاصرون عاصمة كردفان فهيأ ذلك طريق النصر للثوار ، فسقطت الأبيض فى مطلع عام ١٨٨٣ وبسقوطها أصبحت كردفان تابعة للثورة ، وهى أغنى مديريات السودان ، وبسقوطها قطع الطريق بين الخرطوم ودارفور التى كانت تحت قيادة سلاطين باشا ، وقطع الطريق كذلك بين الخرطوم وحامية بحر الغزال التى كان يقودها لبتون بك[٢] .

٥ – وانضم السودان الشرقى إلى المهدى عقب سقوط الأبيض ، وعيّن المهدى عثمان دقنة حاكماً عاماً على جميع بلاد البجة التى بين الأتبرة والبحر الأحمر ، أى بلاد سواكن وطوكر وكسلا ، وسلمه كتباً إلى مشايخ تلك البلاد يدعوهم بها لنصرة الدين ، والقيام مع عامله (عثمان دقنة) لمحاربة الترك والجهاد فى سبيل الله ، وتمّ النصر لعثمان دقنة فى هذه المناطق وكانت كثيرة الوفاء للمهدى ولتعاليمه وسياسته .

وكان عثمان دقنة من أهم من قاوم حركة استعادة السودان ، وله وقائع شهيرة ضد جيش الاستعادة ، ولم تستطع هذه الجيوش أن تقضى عليه إلا سنة ١٩٠٠ حين وقع فى قبضتها ، ويتحدث عنه نعوم شقير حديث

---

(١) سلاطين باشا : السيف والنار فى السودان ص ٥٦ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

عارف به رآه وحادثه ، فهو يقول عنه : رأيته فى محطة مصر ثم فى سجن رشيد ، ثم فى سجن دمياط حيث هو الآن ، فإذا هو رجل أسمر اللون براق العينين معتدل الأنف ، تدل ملامحه على الدهاء وصدق العزيمة ، سريع الحركة قليل الكلام ، له صبر غريب على المشى والجوع ، وهو ينتمى إلى أكراد ديار بكر ، جاء أجداده إلى سواكن مع السلطان سليم الفاتح فاستوطنوها واختلطوا بالمدنلوة بالزواج(١) .

– أرسلت القاهرة هكس ومعاونيه فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، وسرعان ما انهار هذا الجيش وسقط قائده وأسباب هزيمة هكس يصورها الدكتور مكى شبيكة(٢) بقوله : جيش يكوَّن من فلول جنود وُصِموا بالثورة على الحكم الشرعى ، زعماؤهم فى سجون القاهرة رهن المحاكمة ، وهؤلاء الجنود ينقلون بحالة سيئة إلى السويس ثم يُلقَوْن فى البواخر وبعضهم مقيدة أرجلهم ، وعلى رأسهم قائدهم (هكس) رجل غريب عنهم ، يجهل طباعهم وأخلاقهم ، ويخالفهم فى الدين والعقيدة ، ومهمته القضاء على ثورة دينية تعتنق نفس الدين الذى يعتنقه الجند ولا يدين به القائد . . . . هذا الجيش بهذه الروح المعنوية ، يتوغل فى أرض السودان فيلقى المصير الذى لا بد منه . ويكسب المهدى ثروة هائلة من الأسلحة والأموال بالإضافة إلى القوة المعنوية التى وصلت قمتها لدى المهدى ولدى أتباعه(٣) .

– وبالقضاء على هكس وحملته أعلنت إنجلترا أنها تصر على ضرورة انسحاب القوات المصرية من السودان ، وضغطت على الخديوى فأصبح يرى بعينها ، واتجهت الأنظار البريطانية إلى رجل ينفِّذ سياسة الإخلاء

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٣ ص ٢٠٠ .

(٢) السودان فى قرن ص ١٧٣ .

(٣) انظر كذلك { السيف والنار فى السودان لسلاطين باشا النمساوى ص ٧ وص ٩٥
Colbornel J.: With Hicks Pach in the Sudan, Passim }

البريطانية ، فوقعت العين على جوردون وهو شخص كريه للسودانيين ترك هناك أسوأ الذكريات ، ومع هذا فقد كان يرى أن الثورة المهدية كانت ضد الذين خلّفوه من الشراكسة فى حكم السودان ، وكانت بمثابة نداء بعودته لهذا القطر الذى حكمه ثلاث سنوات ونشر به لواء الحرية كما يدّعى ! ! !

وتحت ضغط من بريطانيا اختير جوردون لهذا الغرض ، فبدأ رحلته للسودان ، وما إن وصل حتى كانت هزيمة أخرى قد وقعت للقوات المصرية التى كان يقودها بريطانى آخر هو فلنتين بيكر وكانت هذه المرة فى الميدان الشرقى ، وهذه الحملة كانت فى تكوينها وعيوبها كتلك التى قادها هكس ولاقت الهزيمة فى الميدان الغربى ، وقد ضعضعت هذه الهزيمة من نفس جوردون وهو يخطو خطواته الأولى بربوع السودان ، ولكنه ظل فى سيره حتى وصل الخرطوم وهناك أراد أن يلعب على جبل السياسة فساوم المهدى ليصبح ملكاً على كردفان ظاناً بذلك أنه يرضى طموح الرجل ، وهو فيكر خاطئ ، فلقد كان المهدى ينعم بسلطان واسع حصل عليه بسيفه ، فما أجدره أن يرفض هذا العرض الضئيل ، وهكذا فعل المهدى ، بل راح يطلب من جوردون أن يعتنق الإسلام ويلبس جبة الأنصار .

واتجه جوردون إلى التفكير فى إعاده الاستقلال لأحفاد السلاطين والرؤساء السابقين ، ولكنه رأى أن ذلك سيعيد الفوضى الكاملة للسودان ، فاتجه إلى إخضاع السودان لسيادة إنجلترا . ونسى جوردون أن الثورة المهدية كانت تهدر ولا تنتظر قراره .

وفكر جوردون فى الانتفاع بالزبير ، وفكر أنه الوحيد الذى يمكن أن يلتف السودانيون حوله فى مواجهة المهدى ، وأغدق صفات المدح للزبير

وقتل بنفس الإسراف الذى استعمله عندما أغلق عليه صفات النم من قبل[١] .

وقد استطاعت قوى الثورة أن تحاصر الخرطوم ، وأن تقطع الصلة بين مصر والخرطوم بواسطة الشيخ محمد الخير الذى كان أستاذاً للمهدى إبان صباه واللذى له نفوذ كبير فى بربر ، وسقطت بربر فى أيدى المهدية ، وقطعت الصلة كذلك بين الخرطوم وسواكن بفضل عثمان دقنة قائد الجبهة الشرقية ، وحاولت قوات جوردون رفع الحصار عن الخرطوم وعاشت فترة بين النجاح والفشل وانتهى الأمر بفشلها التام فى هذا المضمار ، وفى خلال فترة الحصار حققت المهدية ألواناً من الانتصارات هنا وهناك .

— وأدركت إنجلترا أن جوردون فى خطر فأعدّت لإنقاذه حملة ضخمة بقيادة اللورد ولسلى ، واتخذت هذه الحملة طريق النيل للإنقاذ ، وبلغت أخبار هذه الحملة للمهدى ، فحدث سباق تجاه الخرطوم بين قوات المهدى من جانب وقوات ولسلى من جانب آخر ، وكتب عبد الرحمن النجومى قائد جيوش المهدى لجوردون يطلب منه التسليم ليأمن على نفسه وعلى من معه ، وكتب له بذلك المهدى الذى حضر آنذاك لأم درمان ، ولكن جوردون ردّ رداً فيه كل التحدى والوعيد ، ناسياً أن الروح المعنوية لرجاله كانت ضعيفة ، وأن كثيرين منهم كانوا على صلة بالمهدى ، ويؤيدون دعوته ، وتوالت كتب المهدى لجوردون وتوالت منشوراته لأهل الخرطوم[٢] ، وكل هذا مهد الطريق للنصر .

— وزحف جيش المهدية فجر ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ فاقتحم الخرطوم

---

(١) اقرأ رسائل جوردون عن الزبير فى « بريطانيا فى السودان » لورد كرومر ص ٨٥ و ١٠٦ و ١٠٩ .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

جوردون وأصبحت العاصمة السودانية تحت سلطات المهدى[١] ، وقد عانت الخرطوم ساعات رهيبة للغاية أن صحت رواية سلاطين باشا[٢]

أما عن موت جوردون فلعل كرومر[٣] أصدق من عبر عنها بقوله « أن غوردون كان أكثر الناس ابتهاجاً بفرصة الموت » وهذا القول المجمل صدرت له إيضاحات حاسمة من بعض المفكرين الإنجليز أبانوا فيها عن شذوذ الرجل وإحساسه بأن الموت وحده هو الذى يمكن أن ينقذه من هذا الشذوذ ، وقد اقتبسنا هذا الرأى فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة[٤] .

ـ وربما خطر ببال البعض أن الحكومة الإنجليزية أرادت أن تجعل من حملة ولسلى حملة قضاء على المهدية بعد أن فشلت فى إنقاذ جوردون ، ولكن ذلك غير صحيح ، لأن الفكر الإنجليزى كان يتجه لفصل السودان عن مصر ، وفصل عملية استعادة السودان فيما بعد عن عملية استبقاء السودان ، فعملية استعادة السودان فيما بعد ستجعل للإنجليز الحق الواسع فيه أو ستجعل لهم كل الحق فيه ، وعلى هذا صدرت الأوامر فى إبريل سنة ١٨٨٥ لولسلى بالانسحاب والإخلاء ، فأخذ يخلى المناطق التى كان يحتلها وسارع جنود المهدى باحتلال هذه المناطق ، كما أسرعوا فى القضاء على « الجيوب » الباقية التى كانت لم تعلن الولاء للمهدى بعد ، ودان السودان كله للإمام المهدى . فأخذ ينظم شئون دولته على غرار التفكير الإسلامى الأول ، فكون مجلساً من الأمناء برياسة الخليفة عبد الله ، وعين لكل إقليم أميراً لا يرجع للسلطة المركزية إلا عند الضرورة ويتبع فى أسلوب حكمه بإقليمه الشريعة الإسلامية ، وضرب النقود ، وأخذ

---

(١) سلاطين باشا : المرجع السابق ص ١١٩ . (٢) المرجع السابق ص ١٦١ .

(٣) بريطانيا فى السودان ص ٢٠١ .

(٤) كتاب « شهيد فى غير محله » لأنتونى ناتنج وانظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٣٢٠ من الطبعة الثانية .

يرسل الكتب والدعاة لمختلف البلاد الإسلامية ، وأمر بجمع الزكاة وتوريدها لبيت المال الذى كان يتولى توزيعها حسب التفكير الإسلامى ، ووضع نظاماً للغنائم وتوزيعها[1] .

– ولم تطل حياة المهدى بعد ما أحرزه من نصر ، فسرعان ما حل شهر رمضان ، وتفرغ المهدى للعبادة والمناجاة ، وفى اليوم التاسع منه (٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥) أسلم روحه لخالقها .

– ويتحدث النقاد عن تعاليم المهدى وكيف اختلفت عن الدعوة الوهابية فالوهابية أسسها رجل علم ودين ، واعتنقها أمير حمل راية جهادها ، وقدر لابن عبد الوهاب أن يتوالى على مذهبه من يتوفرون على شرحه وتفسيره ، وتأليف الكتب عنه ، وهو ما لم يتيسر للمهدى[2] ، وقد اتجه المهدى إلى أن تعدد المذاهب وأكداس الكتب التى تشرحها هو أساس الضرر الذى لحق بالفكر الإســـلامى لأنه حجب نور الحق وباعد بين المسلم وبين مصدرى الضياء وهما القرآن والسنة ، ولهذا أحرق الكتب إلا الأصول منها كالقرآن والصحيحين وإحياء علوم الدين للغزالى وغيرها مما سماها لأنصاره ، كما اتجه المهدى إلى تعليم شعب السودان أن يعود للدين ويخضع لأوامره ونواهيه بحيث يمارس الناس تعليماته ، ويصبح المسلم مسلماً حقيقة قولا وفعلا .

وألغى المهدى الطرق الصوفية باعتبار المهدية بحراً زاخراً شمل كل هذه الفروع فليس للطرق الصوفية حياة مستقلة مع المهدية ،

ومن الاصلاحات الاجتماعية التى أحياها المهدى تيسير الزواج بتخفيف

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٢ ص ٣٥٥ – ٣٥٧ مع تقديم وتأخير .

(٢) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٣٥ .

المهور وبساطة والولائم ، وإبطال بدعة البكاء والنواح على الميت ومحاربة السحر وأعمال الشعوذة ، وإبطال الرتب ولباس الجبة المرقعة للجميع ، وتحريم السجاير والتدخين على العموم(١) .

• • •

وبعد ، لقد كان الإمام المهدى بطلا عربياً مسلماً ، وكان صراعه موجهاً ضد أعداء العرب وأعداء الإسلام ، وقد أعطى المهدى أكثر جداً مما زال فى حياته ، ولو كان حول المهدى نخبة من المفكرين المسلمين لكان عمله أدعى للنجاح ، وعلى العموم فإن جهده يجعله يستحق بعد أن أوى إلى ربه أن نستنزل عليه الرحمات ، وندعو له بأصدق الدعوات .

المهدى وعرابى :

هناك سؤال يثور دائماً عن العلاقة بين عرابى والمهدى ، وهل كان هناك اتفاق نظرى بين الاثنين أو أن المهدى كان ثائراً على مصر بما فى ذلك عرابى ؟

يتجه الرأى الذى نراه سديداً إلى أن ثورة المهدى كانت ضد الأتراك وضد التدخل الأجنبى فى مصر والسودان ، والدارس لخطابات المهدى ومنشوراته يراه يهاجم الأتراك ويتعاطف مع الشعب المصرى ، كما يراه يهدد الخديوى الذى كان بعيداً عن الشعب ، وهناك حقيقة واضحة هى أن عرابى وهو وزير الجهادية فى مصر رفض أن يرسل جيشاً إلى السودان عند بدء حركة المهدى لمقاومة هذه الحركة ، وليس بعيداً إذا عللنا ذلك بأنه لا يريد صداماً مع المهدى لأن هدف الاثنين كان واحداً ، وإن كان

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٣ ص ٣٦٤ – ٣٦٦ وتاريخ مصر الحديث لجورجى زيدان جـ ٢ ص ٢٨٥ – ٢٨٧ .

بعض المفكرين يرى أن عرابي أراد أن يستبقي الجيش معه فى صراعه ضد الخديوى وضد الإنجليز(١) .

ويورد الدكتور جلال يحيى أفكاراً تعزز اتجاهنا فى أنه كان هناك على الأقل تعاطف بين الثائرين ، يقول :

— والحقيقة أن العامل الدينى قد لعب دوراً خطيراً فى كل من الثورتين(٢) .

— كان العرابيون يفكرون فى التحالف مع المهدى الذى كان يعمل فى ذلك الوقت على إثارة أهالى دارفور وكردفان(٣) .

— وكانت سياسة عرابى تسعى إلى إقامة جبهة موحدة ضد التدخل العسكرى البريطانى فى مصر ، ذلك التدخل الذى لم يرحب به أحد سوى الأسرة الخديوية التى رأت فيه الوسيلة الوحيدة للمحافظة على كيانها(٤) .

— أعلن بعض عناصر المهديين تأييدهم لعرابى مثل عثمان دقنة الذى كان يحقد بشدة على الإدارة التركية والإنجليزية ، فلما فشلت ثورة عرابى انضم عثمان للمهدى لعله يحقق تحت رايته ما عجز عن تحقيقه تحت راية عرابى(٥) .

— ويذكر Crewe أن عرابى لم يُخْفِ وهو فى منفاه تأييده وميله للمهدى ، وأعلن أنه كان ينوى تعيينه حاكماً عاماً على السودان(٦)

---

(١) دكتور مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ١٦٣ .

(٢) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان ص ٣٨ .

(٣) نقلا عن Bievés Achelle : Francais et Anglais en Eggpt p. 247

(٤) دكتور يحيى جلال : المرجع السابق ص ٣٩ .

(٥) انظر كذلك Jackson, H: C, Osman. Digna p. 23

(٦) The Marquess of Lord Rosebery Vol I p. 191

المهدية بعـــد المهدى

بدأت المهدية فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ وانتهت فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ وهى فترة قصيرة ، أدار الثورة فيها قائدان ، أولهما الإمام المهدى صاحب الدعوة ، ورافع لوائها ، ومحقق انتصاراتها ، وقد ذكرنا من قبل أنه فارق الحياة فى يونيو سنة ١٨٨٥ بعد أن حقق بعض أهدافه وقبل أن يجنى ثمار انتصاراته ، وقد كان موته المفاجئ غير المتوقع ضربة شديدة للمهدية ، ففتر الحماس الدينى إلى حد كبير ، لأن الادعاءات المهدية لم تتحقق فى حياة المهدى كما وعد بذلك ، فلا هو فتح مصر ، ولا فتح مكة ، ثم لأنه ترك جيوشاً جرارة أصبحت عبئاً على النظام ومصدر شغب فى السودان ، كما ترك صراعاً عنيفاً فى قمة عنفه[1] .

أما القائد الثانى أو خليفة الإمام فهو الخليفة عبد الله بن السيد محمد من قبيلة التعايشة ، وقد ظل يقود الدعوة حتى سقط فى الميدان فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ كما سبق .

وإذا كان الإمام المهدى قد بذل الجهد خلال سنى حكمه للاستقلال بالسودان وتنظيم الدعوة ، فإن الخليفة عبد الله بذل أكثر جهده فى الصراع الداخلى ، بينه ومعه أهل الغرب من جانب ، وبين الأشراف أهل الإمام المهدى ومعهم أهل النيل من جانب آخر ، وقد طال هذا الخلاف وامتد حتى هز الدولة ، وعندما انتصر الخليفة نوعاً ما تطلع إلى أهداف عريضة ينوء بها وضعه ، فقد أرسل المنشورات والكتب ينذر ويهدد ، وشمل ذلك أهل مصر ، والخديوى ، والملكة فيكتوريا ، والسلطان عبد الحميد ، وغيرهم . فكأن

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٣٧٢

اعتقد أن المنشورات والكتب تجلب النصر فاعتمد عليها ، ولكنها لم تجلب له إلا النهاية الأليمة ، ولنعد لما أوجزنا بشيء من التفصيل .

كان المهدى روح المهدية وعقلها المفكر ، ولكن حركتها وقيادتها العملية كانت متروكة للخليفة عبد الله التعايشى ، فلقد كان لهذا قدرات إدارية ومواهب عسكرية جعلت الإمام يكِلُ له شئون العمل ، وقد ساعد على ذلك أن الإمام المهدى لم يُعرَف عنه إيثاره لذوى قرباه ، بل إنه كان يرى السبق فى اعتناق المهدية والإخلاص لها صلةً تفوق كل نسب ، وقد كان عبد الله التعايشى أسبق الناس إليه وأول من صدق دعوته ، حتى قبل أن يعلنها المهدى ، ومن هنا عينه المهدى خليفته الأول ، وعيّن علىّ وَدْ حلو خليفة ثانياً وظل المكان الثالث شاغراً للسنوسى ، واحتل محمد شريف أحد أقارب المهدى المكان الرابع(١) ، وقد بدأ النزاع يدب فى حياة الإمام بين الخليفة عبد الله وبين محمد شريف ، ولكن الإمام أيّد الخليفة عبد الله ضد بنى قومه(٢) .

ويذكر نعوم شقير أن المهدى وقف بالمسجد فى آخر جمعة أدّاها بعد الصلاة فقال : أيها الناس ، إنى مللت من النصح والمذاكرة لأقاربى الأشراف الذين تمادوا فى الطيش وظنوا أن المهدية لهم وحدهم ، ثم نفض ثوبه وصاح : أنا برئ من كل من طغى منهم . . . .(٣) .

وبعد وفاة المهدى بدأت الأمور تزداد سوءاً ، فقد تجمع أهل الغرب

---

(١) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٤٤ .

(٢) انظر رسالة المهدى الذى أشاد فيها بمكان الخليفة فى : « السودان بين يدى غوردون وكتشنر » ص ١٦٩ – ١٧١ .

وانظر كذلك نعوم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ١٧٢ – ١٧٣ .

(٣) تاريخ السودان ج ٣ ص ٣٥٤ .

حول الخليفة ، وتجمع أهل النيل حول أهل المهدى ، وعندما تفرغ الخليفة عبد الله للدعوة ترك القيادة والإدارة لأخيه يعقوب ، ومن هنا تركزت السلطات فى يد أهل الغرب ، وحرص هؤلاء على أمنهم فاستدعوا قبائل البقارة بفروعها (تعايشة ورزيقات ومسيريه . . . .) إلى النزوح لأم درمان ليعيشوا بها ، فأصبح العدوان يعيشان وجهاً لوجه .

وزادت الأمور حدة ، ووصل التوتر غايته ، حتى وصلت الحالة إلى حمل السلاح بين أتباع المهدية من هنا ومن هناك ، وانتهى الأمر بإعدام بعض الثائرين ضد الخليفة وسجن محمد شريف ، ولم يطلق من السجن إلا عند هجوم الجيش المصرى على السودان .

هذا جانب من الاضطراب الذى حدث بالسودان عقب وفاة المهدى ، وهناك جانب آخر يعد صدمة نفسيه لأتباع المهدى ، لأن الإمام كان قد وعدهم بأنواع من الفتوح والانتصارات ، ولكن موته السريع وما أعقبه من خلافات قضى على هذا الأمل ، وترتب على ذلك أن الجيوش الجرارة وأكثرها من الأعراب والبدو التى كانت تكسب ثرواتها عن طريق الجهاد اتجهت لكسب قوتها عن طريق الغصب والعدوان . ثم إن الهجرات سببت زحاماً فى مكان وفراغاً فى مكان آخر تبعه بوار الأرض وضياع الماشية ، وكل هذا أثر على كيان الدولة الاجتماعى وعلى ميزانها الاقتصادى ، هذا بالإضافة إلى جموع الثائرين والساخطين .

ويذكر نعوم شقير أن من سياسة الخليفة الداخلية محاولة جعل السلطة وراثية ، والإيقاع بكل من وفرت نعمته خوف أن ينقلب عليه ولو كان من أعز أصدقائه . . . .(١) .

واتجه الخليفة عبد الله فى سياسته الخارجية اتجاهاً قصد به شغل الناس

---

(١) تاريخ السودان جـ ٣ ص ٦١٠ و ٦٢٧ و ٦٢٩ .

عمّا هم فيه من عوز واضطراب ، فراح يوزع إنذاراته هنا وهناك ، ويهدد الملوك والسلاطين إن لم يخضعوا له ، بل راح الخليفة ينفذ ما توعد به فأمر عبد الرحمن النجومى بالزحف على مصر[1] ، ولم تكن حال جيش النجومى تسمح بذلك ولكنه أطاع الأمر وبدأ يتحرك فى مايو سنة ١٨٨٩ وصدرت تعليمات الإنجليز بالاستعداد للمقاومة ، وكان جرانفيل سرداراً للجيش المصرى ، فأعد عدة واسعة وخطط تخطيطاً دقيقاً للقاء ، وعندما أيقن ضعف النجومى وجيشه كتب له جرانفيل يطلب منه التسليم اتقاء الموت والأسر ، ولكن النجومى رفض وآثر الاستشهاد ، وفى موقعة توشكى فى أغسطس سنة ١٨٨٩ تمّ القضاء على هذا الجيش المزيل ، وكان ذلك بدء نهاية للمهدية .

استعادة السودان :

فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر كانت الأمور قد تغيرت تماماً فى مصر والسودان ، فى مصر تكوّن الجيش الجديد الذى تمّ إعداده عقب حل جيش عرابى ، وانتظمت الميزانية ، كما تطلع الإنجليز إلى احتلال السودان باسم مصر ليكون احتلال السودان حلقة من حلقات تغلغلهم الاستعمارى فى إفريقية ، وكان السلاح والتدريب والتخطيط فى مصر فى درجة عالية ، أما السودان فكان على العكس من ذلك ؛ اضطراب سياسى ، وانهيار اقتصادى ، وفوضى اجتماعية ، وعلى هذا لم يكن من الممكن أن تقف قوة جيوش الخليفة أمام الزحف الهادر من الشمال .

ومما ساعد على التعجيل بالزحف انحدار الجيوش الإيطالية أمام الأحباش سنة ١٨٩٦ فطلب الطليان مساعدة الإنجليز بالزحف على السودان حتى

---

(١) كان المهدى قد كتب خطابين طويلين أحدهما للخديوى توفيق يهدده ويتوعده إن خالفه ، والثانى للشعب المصرى يدعوه لنصرته . اقرأهما فى نعوم شقير جـ ٣ ص ٣٤٧ — ٣٥١ فكانت تحركات الخليفة استمراراً لموقف المهدى .

لا ينضم السودان للأحباش فى محاولة لتجميع الإفريقيين ضد الغزو الأوربى ، وقد استجابت بريطانيا لذلك وبدأ العمل لهذا الزحف الكبير بقيادة كتشنر الذى أصبح سردار الجيش المصرى عقب اعتزال جرانفيل سنة ١٨٩٢ ، وكان شهر مارس سنة ١٨٩٦ هو نقطة البدء فى هذا الزحف ، وأهم معارك استعادة السودان هى[١] :

موقعة فركة :

كانت معركة فركة أولى المعارك بين الجيش المصرى بقيادته الإنجليزية وبين الأنصار ، وكانت أسلحة الجيش المصرى أمضى وأقوى ، ثم كان فى الخاطر أن يكون البدء قويا ، وكان جيش الأنصار أقل عدداً وأقل عُدّة ، بالإضافة إلى ما أصابه من ضعف نتيجة الخلافات بين القادة ، ولهذا كانت هزيمته طبيعية على الرغم من البسالة التى أظهرها بعض هذه القوات ، وقد سقط أكثر هذا الجيش بين قتيل وأسير وجريح ، وانسحب الباقون إلى الجنوب ، وقد حدثت معركة فركة فى ٧ يونيو سنة ١٨٩٦[٢] .

وبعد فركة زحف الجيش المصرى إلى دنقلة وأحاط بها من الجانب الغربى وسار لها الأسطول يضربها من الجهة الشرقية فانسحب جيش الأنصار منها واحتلها الجيش المصرى ، أما جيش الأنصار فقد عبر الصحراء إلى المتمة وهو بهذا يخلى مساحة كبيرة ومواقع استراتيجية هامة للجيش الزاحف .

موقعة أبى حمد :

تمثل أبو حمد نقطة مهمة فى أرض السودان ولم يكن بها إلا حامية

---

(١) See : Henty. G. A. : Wils Kitchener in the Sudan

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٣ ص ٥٧٩ ودكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤٦٥ .

صغيرة لم تستطع مع بسالتها أن تقف طويلا أمام الجيش الهادر فانهزمت واستولى المصريون على أبى حمد ، وكان من دواعى انتصار الزاحفين أن خطا حديديا أقيم بين حلفا وأبى حمد بسرعة للربط بين هذين المكانين المهمين عبر الصحراء(١) .

وبعد احتلال أبى حمد اتجه الأنصار إلى الجنوب لتركيز قواهم فى المتمة ، وبهذا زحف الجيش المصرى فاحتل بربر دون مقاومة ، كما ذهبت قوة مصرية من سواكن واحتلت كسلا من الإيطاليين الذين سلموها للجيش الزاحف بناء على اتفاق سابق .

وفى بربر طلب كتشنر بعض الجنود الإنجليز لينضموا للجيش المصرى فى الموقعة الفاصلة التى توقعها فى المتمة ، وليكون لإنجلترا الحق بعد ذلك فى ادعاء المشاركة فى فتح السودان الذى بات أكيداً ، والذى تحقق النصر فيه بقوات مصرية ، وسرعان ما تجمعت فى المتمة جيوش كثيرة تحت قيادة كتشنر تضم أغلبية مصرية وبعض السودانيين وبعض الإنجليز .

معركة المتمة :

حدث خلاف بين أتباع الخليفة الذين أنيط بهم الدفاع عن المتمة وملاقاة الجيش الزاحف عندها ، ويقال إن الجعليين سكان هذه المنطقة كانوا متصلين بالجيش الزاحف ويتجرون معه ، وقد أضعف هذا الخلاف قوة السودانيين ، ويسّر الطريق لانتصار تام حصل عليه الجيش الزاحف ، وكان وجود العناصر الإنجليزية فى هذا الزحف مما سبب قسوة مريرة بسكان المتمة فقضى على الرجال وأسر النساء والأطفال ودمرت المدينة كلها ، وبالاستيلاء على المتمة استولى الجيش كذلك على شندى .

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٥٩٨ .

موقعة عطبرة :

كانت هذه الموقعة فى إبريل سنة ١٨٩٨ وتعتبر موقعة هائلة أظهر فيها الفريقان كل شجاعة ، لأنها الباب الذى يحمى العاصمة أو يوصل لها ، وقد انتصر الجيش الزاحف وسقط من الأنصار عدد من القتلى فيهم القائد ، وفر من استطاع الفرار إلى أم درمان ومنهم عثمان دقنه القائد الشهير الذى حقق للمهدية كثيراً من الانتصارات فى الغرب إبان عهد المهدية (١) .

موقعة كررى (أم درمان) :

كررى هى مفتاح أم درمان ، وقد استعد لها الجيشان استعداداً عظيماً ، وأشرف الخليفة نفسه على استعدادات رجاله ، كما أعد الجيش الزاحف عدته لهذا اللقاء الفاصل ، وفى الثانى من سبتمبر بدأت المعركة العنيفة التى استعمل فيها كل من الفريقين ما أتيح له من قوى ومحاولات استراتيجية ، وانتهت المعركة بانتصار الجيش الزاحف ، ودخوله أم درمان التى مرت بها فترة عصيبة لأن القائد لم يكبح جماح جنده بل أطلق لهم العنان للعبث والفساد(٢) .

وبعد ذلك دخل الفاتحون الخرطوم ، وسرعان ما اتجه القائد الانجليزى إلى المكان الذى لاقى فيه جوردون حتفه ليقيم صلاة على روحه كأنما يثبت بذلك أن للإنجليز ضحايا من كبار الرجال بالسودان ، ثم أمر كتشنر أن يرتفع فوق السراى العلمان الإنجليزى والمصرى ، مع أن العلم المصرى وحده كان هو الذى يرتفع على البقاع والحصون التى سبق فتحها قبل الخرطوم ، وكان

---

(١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤٤٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٦٧ .

رفع العلم المصرى وحده من قبل خديعة للمصريين والسوادنيين لأنه أظهر الأمر كأنه عودة للوحدة بين مصر والسودان ، ولكن بعد انهيار قوة الأنصار أسفر كتشنر وهو موظف مصرى عن نواياه الحقيقية فرفع العلمين ، وقد قوبل هـذا التصرف بالاستياء والاستنكار ، ولكن القوة كانت هى كل شىء .

فرنسا تحاول أن تأخذ نصيبا :

أدركت فرنسا أن الزحف على السودان ليس مصرياً ، وإن لبس ثوب المصريين ، ولذلك أرادت أن تأخذ من الفريسة نصيباً فزحفت فرقة من الجيش الفرنسى فى إفريقية الإستوائية الفرنسية إلى فاشودة واحتلتها ورفعت العلم الفرنسى عليها ، وقد أوشك هذا أن يهدد بصراع بين الدولتين الكبيرتين ولكن كتشنر اكتفى بالوقوف فى مقابلة هذه القوة ورفع الأمر لحكومته ، واتفقت الحكومتان على انسحاب الفرقة الفرنسية بحجة أن انجلترا تستعيد السودان لمصر ، ولكن الحق أن اقتسام الغنائم أخذ طريقاً آخر(١) .

نهاية الخليفة :

لم يبق على الخليفة بعد سقوط أم درمان إلا ان يتجه إلى الغرب حيث كانت تعيش قبيلته ، فتسلل مع أهله ورفاته فى هذا الطريق ، ولكن قيادة الجيش الزاحف أرادت أن تحول دون وصوله للغرب ، فكاتبت القبائل هناك، وساعدها على ذلك أن أسرع على دينار وهو من سلالة ملوك دارفور ليستعيد سلطان آبائه ، وحط الخليفة رحاله فى أبو ركبة ، وتجمع حوله بعض الأنصار من القضارف والأبيض وبخاصة القائد أحمد فضيل ، ثم شق

---

(١) مصطفى فهمى هداية : واقعة فاشودة ، انظر أيضاً :
Giffen Morrison : Fashoda. the Incident and its Diplomatic setting

الخليفة طريقه فى جبال النوبة حتى وصل إلى قدير التى كانت مكانا مفضلا لدى المهـــدى فى مطلع دعوته ، ومنها حاول الهجوم على أم درمان من الشمال ولكن محاولته فشلت ، وأخيراً قامت معركة فى أم دويكرات فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ قادها الخليفة بنفســـه ضد الجيش الذى يتبع تحركاته ، وانهزم الخليفة فى هـــذه المعركة وقُتِل فيها ، وكانت نهايته نهاية حـــكم المهدية .

أسرة المهدى :

بعد سقوط أم درمان خرج محمد شريف وأبناء المهدى منها مع الخليفة ولكنهم لم يواصـــلوا السير معه ، بل اتجهو إلى جزيرة أبا واستسلموا لقوات الفتح(١) ، وهناك أذنت لهم فى الحياة فى الشكابة بين مدنى وسنار على النيل الأزرق ، ولكنهم سرعان ما اتُّهموا بالاستعداد لمقاومة قوات الفتح ، فقُبِض عليهم وأعدموا جميعاً رمياً بالرصاص .

وينبغى ونحن نتحدث عن أبناء المهدى أن نواصل كلامنا عن أشهر قادتهم الذين ظهروا فى الميدان السياسى بعد ذلك ، وأول من نتحدث عنه هو الزعيم عبد الرحمن المهدى الذى أعاد للأسرة كيانها ، وأعاد الزعامة الروحية للأنصار أتباع أبيه ، وكان عبد الرحمن المهدى طفلا فى السنة الأولى من عمره عندما مات أبوه ، ولـــا شب كان الحكم الثانى قد سيطر على السودان ، فتزعم جماعة كبيرة سُمّيت الأنصارَ ، وصـــار له نفوذ كبير بالسودان ، وأصبح المنافسُ الوحيد له هو السيد على الميرغنى الذى قاد الختمية التى تحدثنا عنها من قبل ، أما أسرة الخليفة التعايشى فلم تدخل دائرة النفوذ والمنافسة .

---

(١) دكتور مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٣٧ .

وتوفى عبد الرحمن المهدى سنة ١٩٥٩ ، وخلفه ابنه السيد صديق المهدى وكان له نشاط سياسى واسع فى حياة أبيه ، فكأنه حل اتجاه أبيه السياسى ، وآثر الإمام عبد الرحمن أن يبدو فى حلل الجانب الروحى ، وكان السيد صديق واسع العلم والمعرفة ، تلقى علومه بكلية غوردون بالخرطوم وعقب الحرب العالمية الثانية أسس حزب الأمة وأصبح رئيساً له ، وقد ظل رئيساً لهذا الحزب فى حياة أبيه الذى كان راعياً للحزب ، ولكن الانقلاب العسكرى الذى حدث بالسودان سنة ١٩٥٨ بقيادة اللواء إبراهيم عبود حلّ حزب الأمة مع غيره من الأحزاب ، وفى نوفمبر سنة ١٩٦٠ ، انقضى العهد العسكرى بالسودان وعاد حزب الأمة للظهور وتوفى السيد صديق المهدى سنة ١٩٦١ .

وآلت رئاسة حزب الأمة للابن الثانى للإمام عبدالرحمن وهو الزعيم الهادى ، وفى عهده ظهر شاب لامع ، واسع المعرفة حاد الذكاء من أسرة المهدى هو السيد الصادق المهدى وهو ابن صديق المهدى سالف الذكر ، وكان النقاد السودانيون يعلقون أملا كبيراً على السيد الصادق المهدى ، ويرون له نظرية خاصة فى اتجاهاته للسياسة الخارجية وصلته بمصر وبالقومية العربية وبالوحدة الإفريقية ، وبآرائه تجاه الطائفية بالسودان وتجاه الحركة العمالية ودستور السودان[1] ، وقد أصبح الهادى المهدى راعياً لحزب الأمة ، وأصبح الصادق المهدى رئيساً للحزب والمشرف على الحركة الإدارية والتنفيذية فيه ، ولأول مرة أصبح رئيس الوزراء من أسرة المهدى وكان حزب الأمة يوصى من قبل بأحد أتباعه من غير أسرة المهدى ليتولى هذا المنصب مثل عبد الله خليل ومحمد محجوب ، وقد أبدى الصادق المهدى نشاطاً ضخماً فى الوزارة ، ولكن النقاد يأخذون عليه شيئاً مهما هو أنه تعجل تحقيق آماله ليكون قطب الرحى فى الحياة السودانية ، فنشأ

(١) بحث عن النظرية السياسية للصادق المهدى نشرته جريدة الرأى العام السودانية تبو وتنقل فى ٢/١٢/٦٦

شقاق بينه وبين عمه الهادى ، وانقسم بذلك حزب الأمة قسمين واعتبر الهادى المهدى تصرف ابن أخيه نوعاً من التمرد على الزعامة الروحية وعلى تقاليد الأنصار ، وفى حركة الجيش التى قادها اللواء جعفر نميرى حلت الأحزاب ثم قام صراع بين الأنصار وبين الحكومة العسكرية وتزعمت جزيرة أبا هذه الحركة ، وفى هذا الصراع سقط الهادى المهدى قتيلا ، ويقال أنه مات وهو فى طريقه فاراً إلى الحبشة .

• • •

والآن وصلنا بالسودان الشقيق إلى الحكم الثانى ، وهى فترة استعمارية كانت السيطرة الكاملة فيها للإنجليز وليس لمصر فيها إلاّ الاسم ، ومن هنا فالحديث عن هذه الفترة يدخل فى نطاق الباب الخامس والسادس من هذا الكتاب حيث ندرس فى الباب الخامس الاستعمار الأوربى فى إفريقية(١) . وفى الباب السادس ندرس ما قام به السودان من نضال وهو يرزح تحت الاستعمار ، ثم ما حققه من أهداف فى ظل الحرية .

---

(١) يقرأ عن هذا الموضوع :

Theobald, A. B. The Mahdiya, a history of the Anglo-Egyptian Sudan

إمارات وممالك إسلامية

بالساحل الشرقى

تحدثنا عن الإسلام جنوب الصحراء ، وسرنا فى حديثنا متجهين من الغرب إلى الشرق حتى وصلنا البحر الأحمر ، وشرحنا — ونحن نتكلم عن الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل — أن هذه الإمبراطورية امتدت إلى الجنوب من هذا البحر ، فشملت الصومال ، وأن الاستعمار الغربى اقتسم هذه الإمبراطورية بعد أن أبعد عنها الخديوى إسماعيل ، وكان الصومال من نصيب إنجلترا وفرنسا وإيطاليا جميعا ، ونريد هنا — استكمالاً لدراسة الإسلام فى إفريقية — أن ندرس تاريخ الصومال قبل هذه الفترة ، وأن ندرس كذلك تاريخ المناطق الواقعة إلى الجنوب من الصومال ؛ منذ دخلها الإسلام حتى استولى عليها هذا الاستعمار البغيض ، فقد كان للإسلام فى هذه البقاع صولة ودولة لا يمكن إغفالهما .

وأهم الإمارات التى ينبغى أن نتحدث عنها هى إمارات الصومال وإمبراطورية الزنج فى الجنوب منها وهاك الحديث عن ذلك :

الصومال الشمالى

(زيلع وهرر أو مملكة عَدَل Adal)

زيلع ميناء على خليج عدن وكانت قبل الإسلام تابعة للحبشة[1] ، ويذكر ابن حوقل أنها فرضة للعبور إلى الحجاز واليمن[2] ، ويسميها الإدريسى « زالع »[3] وقد انتشر فيها الإسلام منذ عهد مبكر ، ربما يرجع إلى عهد الرسول عليه السلام ، فقد كانت هجرات المسلمين إلى الحبشة تتصل بها ، ومن أشهر الذين هاجروا إليها ونشروا الإسلام بها بنو عقيل .

ومن تتبع المراجع العربية يتضح لنا خطوات تكاثر المسلمين فى هـــذه المنطقة حتى أصبحوا الغالبية العظمى بها ، فالمسعودى يتحدث عن زيلع والدهلك وناصع ، ذاكراً أنها مدن فيها خلق كثير من المسلمين ، إلا أنهم فى ذمة الحبشة[4] ، ويقول أبو الفدا[5] : ويجاور الحبشة من الجنوب « الزيلع » والغالب على سكانها دين الإسلام ، عرب فقيه فيذكر عن زيلع أنها أصبحت عاصمة السلاطين المسلمين[6] .

وهكذا يمكننا أن نقرر أن زيلع كانت منطقة حبشية ، ثم انتشر بها الإسلام منذ مطلعه ، وظل ينتشر بها رويداً رويداً ، حتى غلب على أهلها ، ثم تكونت بها سلطنة إسلامية سرعان ما امتد نفوذها ، فلما جاء القرن الرابع عشر كان قد تمّ للمسلمين تأليف سبع ممالك زاهرة فى هذه المنطقة سميت الطراز الإسلامى لأن بعضها يقع على جانب البحر كالطراز له ، كما ذكرنا من قبل[7] ، ويعدد المقريزى هذه الممالك السبع فيقول أنها : أوفات ، ودوارو وأرابينى ، وهدية ، وشرخا ، وبالى ، وداره وأعظمها « أوفات »

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٤٢٥

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٦١

(٣) صفة المغرب وأرض السودان ص ٣٥ (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق)

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ١٨ – ١٩

(٥) المختصر فى تاريخ البشر ج ١ ص ٦٩ (٦) فتوح الحبشة : ص ٥

(٧) ص : ١٨٧

ويُقال لها « جبرت»[1] ، وهى المجاورة لخليج عدن وتتبعها ميناء زيلع ، وتتبعها كذلك إمارتان إسلاميتان صغيرتان هما مورا وميناء عدال إلى الغرب من ميناء زيلع ، وقد تحول إلى ميناء زيلع كثير من النشاط التجارى الذى كان من قبل يتركز فى منطقة مقلشو.

أما باقى ممالك الطراز الإسلامى فتتعمق بداخل القارة فى أرض الحبشة الحالية ، وأكثرها تعمقاً مملكتا هدية وأرابينى وتقربان من نهر سوباط .

وبسبب موقع أوفات على البحر ، وبعدها عن مركز القوة فى الحبشة وامتلاكها ميناء زيلع ، أصبحت أقوى الممالك الإسلامية الأخرى المجاورة لها ، وأصبح سلطانها أقوى السلاطين ، ولهذا كان هؤلاء يدينون له بالاحترام والتقدير ، وكانوا جميعاً متقادين إليه[2] . ومن هنا غلب اسم أوفات على المنطقة كلها ، فيقال أوفات أو جبرت أو عدال ، ويُقصد بذلك جميع هذه الممالك بما فيها ميناء زيلع .

وكانت منطقة هرر تقع بين هذه الممالك . وكانت تابعة للحبشة ، ثم انتشر بها الإسلام ، وانتهزت أوفات فرصة ضعف فى الحبشة ، فاستولت على منطقة هرر ، وكانت الصلة وثيقة قبل ذلك بين هرر وزيلع لأن زيلع كنت المنفذ البحرى لتجارة هرر ، فلما انتشر الإسلام فى هرر قويت العلاقة الدينية والتجارية بين زيلع وهرر فتهيأت الفرصة لاستيلاء زيلع على هرر.

ولما تمّ الاستيلاء على هرر انتقل لها مركز القوة ، وأصبحت تقود الصراع بين المسلمين وبلاد الحبشة .

ويصف Gervare Mathew[3] مملكة "عدل بقوله : إلى أقصى الشمال وراء رأس « جوردافيو » قامت مملكة عَدَل الإسلامية المزدهرة فى القرن الخامس عشر كنتيجة للصلات التجارية التى امتدت غرباً حتى الممالك

(١) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٦

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٢

(٣) بلاد الزنج من مجموعة « فجر التاريخ الإفريقى » ص ٣٣

الإسلامية جنوب الصحراء الكبرى ، وكان ميناء زيلع هو منفذ هذه المملكة (عَدَل) التي كانت السلع التجارية والإفريقية وكذلك بعض الحجاج تصل من خلاله إلى الجزيرة العربية ، وكان يوجد على طول الساحل الشرقي لإفريقية نفوذ للإسلام في المدن التجارية القائمة هناك .

وفي خلال ازدهار مملكة عدل كانت الحبشة محصورة بين الممالك الإسلامية ، فعدل تحيط بها من الجنوب والشرق ، والسودان تحيط بها من الشمال والغرب ، ولم يكن للحبشة موانٍ على البحر الأحمر بعد استيلاء المسلمين على موانى عدل ومصوع وزيلع ، وقد أدى هذا إلى تدهور الحبشة وعزلتها عن العالم الخارجي ، فرقدت في سبات عميق عدة قرون نسيت خلالها العالم ونسيها العالم كما يقول John Buchholzer[1] .

ورأى المسيحيون بالحبشة في إمارة عدل خطراً عليهم ، لاتساعها وقوتها ، ولأن اتساعها كان على حساب ضم بعض الأجزاء الحبشية إليها ، ومن هنا فإن حروباً عنيفة نشبت بين الأمراء المسلمين وبين الأحباش ، وطالما حقق المسلمون النصر ، وضموا مناطق جديدة من بلاد الأحباش لدولتهم ، وقد استمرت هذه الحروب طيلة القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، وقد ذكر المقريزى بعض التفاصيل الدقيقة عن هذه الحروب [٢]، وفي القرن السادس عشر أخذت الحروب وجهاً جديداً ، فقد ظهر في الميدان قوتان كبيرتان إحداهما مسلمة هي تركيا ، والأخرى مسيحية هي البرتغال ، وانضم الأتراك للإمارة المسلمة ، وانضم البرتغاليون للأحباش ، وقد استطاع السلطان أحمد بن إبراهيم بمساعدة الأتراك أن يحقق كثيراً من الانتصارات على الأحباش ، وأن يضم كثيراً من أرضهم ، ويروى أحمد عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة ايجو المسيحيين ، وكان قد ترك موطنه ودخل في الإسلام في عدل واستطاع أن يصل إلى السلطة لقوته وتحمسه للإسلام ، ثم أخذ يغزو الحبشة من سنة ١٥٢٨ إلى

---

(١) The Land of Burnt Faces p. 115

(٢) الإلمام بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٩ — ٢٠

سنة ١٥٤٣ ، وانضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأحباش مع أتباعهم وأصبحوا مسلمين(١) .

ولكن أحمد بعد أن حقق هذه الانتصارات على الأحباش ، بدأ يتوقع غدر الأتراك ، فلم يدم ولاؤه لهم ، وفى نفس الوقت كان البرتغاليون يدفعون بقوتهم لمساعدة الأحباش ، وقد أدى ذلك إلى تراجع السلطان أحمد وإضعاف شوكته ، وكان الأتراك قبل ذلك قد استولوا على ميناء زيلع من سلطان عدل سنة ١٥٢٢ نظير مساعداتهم له ، ولما ضعف أحمد أمام الأحباش والبرتغاليين مد الأتراك نفوذهم إلى الساحل واستولوا على موانيه . زيلع وبراوة وتاجورة ، وكانت بعض مناطقه تابعة لليمن فآل للعثمانيين السلطان على هذه المناطق عند ما آل لهم السلطان على اليمن نفسها ، وأصبح للعثمانيين السيادة الاسمية على الأقل على الصومال الشمالى ، أما منطقة هرر فقد حكمها أمراء من أسرة أحمد بن إبراهيم ، وأهم هؤلاء :

نور بن مجاهد	١٥٥٨	ويعتبر مؤسس مدينة هرر
عثمان الحبشى	١٥٦٧	عبد استولى على السلطة بالقوة
طلحة بن عباس	١٥٦٨	بعد فترة قصيرة من حكم عثمان وهو ابن أخ الأمير نور بن مجاهد
الأمير نصير بن عثمان الحبشى	١٥٧١	
محمد بن نصير	١٥٧٣	
الأمير إبراهيم جاوزة	١٥٧٧	
فترة اضطرابات		
الأمير على بن داود	١٦٤٧	وهو من أسرة الأمير نور

وتولى بعده أمراء من أسرته هم هاشم وعبد الله وطلحة وأبوبكر . . . وآخرهم الأمير عبد الشكور الذى حكم من سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٧٥ وكان معروفا بالعنف والظلم ، وفى عهده تقلصت إمارة هرر وأصبحت

---

(١) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٧

تتمثل فى مدينة هرر وحدها ، أما باقى المناطق فقد اقتطعتها قبائل الجالا أو استعادتها الحبشة ، وفى عهد إسماعيل باشا حلت مصر محل القوتين اللتين كانتا تحكمان الصومال الشمالى وهرر ، فاستولت مصر على ساحل الصومال من العثمانيين ، وأرسلت جيوشها فاستولت على منطقة هرر دون مقاومة تذكر كما ذكرنا من قبل ، واستعادت مصر كثيرا مما اقتطعته قبائل الجالا أو استولى عليه الأحباش .

أما تاريخ هذه المنطقة بعد الحكم المصرى فلسنا فى حاجة إلى أن نعود إليه فقد ذكرناه ضمن حديثنا عن الإمبراطورية المصرية ونهايتها كما أشرنا فى مطلع هذا الكلام ، وعلى كل حال فقد استولى البريطانيون على أملاك مصر بالساحل وسمحوا لفرنسا بالاستيلاء على منطقة جيبوتى ، وسلم رضوان باشا قائد الجيش المصرى فى هرر تلك الولاية إلى عبد الله بن الأمير عبد الشكور الذى سبق أن سلم المدينة لرؤف باشا منذ عشر سنوات ، وأراد عبد الله أن يكون مستقلا استقلالا تاما ، ولكن بريطانيا أرادت أن يكون السلطان الحقيقى لها ، وأنف الأمير أن يقبل ذلك ، فأوعزت بريطانيا لملك الحبشة أن يستولى على هرر ففعل ، وكانت مدة استقلال هرر حوالى عامين .

ويوجز John Buchholzer تاريخ هرر وما دار بأرضها من صراع صليبى بقوله : لمدينة هرر تاريخ ملطخ بالدماء ، وتفاصيل أحداثها القديمة تائهة فى ظلمات التاريخ ، ولكن إمبراطورية « زيلع » العربية امتدت فى القرن الرابع عشر إلى المرتفعات ، وعلى طول الساحل إلى ما يعرف فى الوقت الحاضر بالصومال ، وزيلع هى المدينة الساحلية الواقعة جنوب جيبوتى ومنها كانت تقلع السفن العربية عبر الخليج إلى بلاد العرب حاملة ما تخصص فيه تجار هرر من سلع .

The Land of Burnt Faces pp 155-156 (١)

وفى نهاية القرن الماضى كان العلم المصرى مرفوعاً على هرر ، وظل هناك عشر سنوات قبل انتهاء حكم مصر ، ولكن تلك المدينة الصغيرة الغنية التى لا تزال نقطة البداية لطرق التجارة المؤدية إلى إثيوبيا قد اجتذبت غزاة آخرين ، ولقد أتيح لعلم أمير هرر الأخضر أن يخفق فوقها ولكن لمدة عامين فقط ، وقد أبيدت حملة إيطالية ، زعمت أنها بعثة علمية على الرغم من وضوح نواياها للعيان فى أثناء زحفها على المدينة ، وحينئذ جاء دور منليك ، ونهاية عهد استقلال هرر .

علماء زيلع:

نبغ فى زيلع مجموعة من العلماء والمفكرين ، أقاموا بها ينشرون الإسلام ويتولون كثيراً من المناصب القضائية والإدارية ، وفى قمتهم الفقيه عبد الله الزيلعى ، وهو الذى رأس سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد حوالى سنة ١٣٣٨ م ليساعد أهل زيلع فى صراعهم ضد الأحباش ، وليعمل لحماية المسلمين فى هذه البقاع[1] .

ومن علماء زيلع مَنْ وَفَدَ إلى القاهرة وأقام بها ، ومن هؤلاء فخر الدين الزيلعى الذى وفد إلى مصر سنة ١٣٠٥ وجلس بها للتدريس والإفتاء على مذهب أبى حنيفة ، وله كتاب عنوانه (تبيين الحقائق فى فقه الحنفية) وهو شرح على كنز الدقائق للنسفى ، وقد توفى فخر الدين سنة ١٣١٣ .

ومنهم جمال الدين الزيلعى ، وقد وجه اهتمامه لدراسة الأحاديث ، واهتم اهتماماً خاصاً بتخريج الأحاديث الواردة فى تفسير الكشاف للزمخشرى ، وأحاديث الهداية فى ذكر الشافعية ، وألف فى ذلك كتاباً عنوانه (نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية) وتوفى فى القاهرة سنة ١٣٦٠ .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٢

الصومال الجنوبى (مقدشو)

يرى المؤرخون الصوماليون أن كلمة مقدشو مركبة من كلمتين الأولى مقد وهى اختصار لكلمة مقعد ، والثانية شو وهى تحريف لكلمة شاه ، وإن إضافة ياء فى الكتابة بعد الدال أو بعد الشين خطأ كبير[1] ، وعلى هذا فكلمة مقدشو بها مقطعان أحدهما عربى والثانى فارسى ، ولا تدل هذه التسمية على ارتباط إنشاء المدينة بالفرس لأن بعض الكلمات الفارسية كانت شائعة فى الجزيرة العربية ، وعلى الساحل منذ أمد طويل ، ولأن هجرات الفرس كانت فى الغالب إلى الجنوب من مقدشو ، فى المنطقة التى قامت بها دولة الزنج كما سنرى فيما بعد .

وقد أنشئت مدينة مقدشو فى القرن العاشر الميلادى ، وكان إنشاؤها على يد مهاجرين من العرب ، نزحوا من الخليج العربى ، بعضهم من أزد عمان هاجروا فى أيام عبد الملك بن مروان بسبب صراع القبائل بعضها ضد بعض ، وكان هؤلاء بقيادة سليمان وسعيد الجاندين[2] ، وبعضهم من الزيدية الذين فروا إلى هذا الساحل عقب القضاء على ثورة زيد بن على زين العابدين فى عهد هشام بن عبد الملك وقد اندمج هؤلاء وأولئك فى السكان الأصليين ، وبنى أحفاد هؤلاء مدينة مقدشو ومدينة براوة[3] ، وحول مقدشو أنشئت مدن متعددة ولكن مقدشو كانت تفوقها جميعاً ، إذ تركزت فيها أعظم الحركات التجارية فى شرق إفريقية ، وكان لها السيادة السياسية على المدن التى تحيط بها ، إلى أن أنشئت مدينة كلوة فبدأت تنافسها فى

---

(١) جامع عمر الصومالى : تاريخ الصومال ص ٤١

(٢) سنورد عند الحديث عن الصومال رأياً آخر يرى أن عبد الملك أرسل حملة توسعية على نمط فتوحاته

(٣) الدكتور صلاح العقاد وجمال ذكريا : زنجبار ص ٦

مكانتها ، وتجذب الأنظار إليها ولكن لم تستطع كلوة فى أوج عظمتها أن تتسلط على مقدشو ، ولم يستطع سليمان أعظم حكام دولة الزنج الذى مد سلطانه على أكثر بقاع الساحل أن يتسلط على مقدشو ؛ وكان حكام مقدشو يخافون عليها من المؤامرات التى تختفى خلف التجارة ، ولهذا لم يسمحوا للتجار الأجانب أن يبيتوا بها ، وكان عليهم أن يغادروها مع غروب الشمس ، وقد نمت تجارة مقدشو فى هذا العهد نموا واسعاً ، وكانت تحكمها ارستقراطية تجارية لا تتوارث الحكم فيها ، مما جعل الباحثين يشبهونها بجمهورية البندقية[١] .

وقد استطاعت قبيلة الأجعل الصومالية أن تستولى على السلطة فى مدينة مقدشو فى القرن الثالث عشر ، وأول من حكم مقدشو من قبيلة الأجعل هو الشيخ عمر جلوله ، ورسم نظام التوارث فى حكم مقدشو بين أولاده ، وفى عهد ابنه أبى بكر زار ابن بطوطة مدينة مقدشو ، وتحدث حديثا طويلا عن سلطانها وعن مجالسه ووزرائه ، وطعامه ولباسه وفرشه ، وتكلم بإسهاب عن كرمه وتقديره للفقهاء والعلماء ، وعن نظام الشورى الذى كان متبعاً فى مملكته ، وعن الأبنية العظيمة بالمدينة ، مما يفيد أن مقدشو آنذاك كانت تنعم بحياة الرفاهية والازدهار[٢] .

وكانت مقدشو قوية الحصون فاستطاعت أن ترد الغارات ، وأن تعيش عزيزة الجانب فترة طويلة ، ولم يستطع البرتغاليون أن يسيطروا عليها عندما سيطروا على الساحل الجنوبى فى القرن السادس عشر ، والسبب فى ذلك هو ما ذكره بعض المؤرخين من أن بعض الحكام فى ساحل الصومال كانوا يدينون بالولاء لدولة المماليك بمصر[٣] . وبعد المماليك عاون العثمانيون مدينة مقدشو على الاحتفاظ باستقلالها .

---

(١) الدكتور صلاح العقاد وجمال ذكريا : زنجبار ص ٨

(٢) تحفة النظار جـ ١ ص ١٩٠ – ١٩٢

(٣) Guillain : Documents vol 1 b 353

وحدث خلاف داخلى بين زعماء مقدشو ، انتقل إلى صراع مرير فى القرن التاسع عشر ، وفى نفس الوقت كان الاستعمار الأوربى يدق أبواب مقدشو ، فكتب بعض الزعماء الوطنيين رسالة إلى سلطان زنجبار (سيد برغش) يطلبون حمايته من غارات الفرنجة فاستجاب سلطان زنجبار لهذه الرغبة ومد نفوذه من زنجبار إلى المناطق المجاورة لها جنوبى الصومال سنة ١٨٧١ و نفس الوقت كان نفوذ مصر ينساب إلى الجزء الشمالى من هذه المنطقة فيشمل مقدشو وكيسمايو(١) .

جهود مصر فى الصومال وهرر :

يقول المؤلف الصومالى سالف الذكر إن الأمة الصومالية كانت تعتقد أن الدول الإسلامية لها الحق فى دخول كل بلد إسلامى لمساعدته ضد أى عدوان يهدده ، ولنشر دين الإسلام فى كل البقاع ، ومن أجل هذا فرح الصوماليون بدخول مصر بلادهم ، ورحبوا بهم وساعدوهم ، حتى استقر حكمهم فيها ، وقد جعل المصريون بربرة وزيلع وتاجورة محافظات تابعة لهرر .

وكان حكم المصريين فى هذه الجهات حكما مستنيراً ، قائماً على أسس عادلة ، وقد اهتم المصريون بالتعرف على حال السكان ، وحاجاتهم المختلفة ، وعملوا على قضاء هذه الحاجات ، كما قاموا بنشر العدل والمساواة بين طبقات الشعب وبذلوا جهدهم لتأمين سلامة البلاد ، ولتحقيق الأمن الداخلى .

وأرسل المصريون مهندسين لوضع الخرائط للبلاد ، ومعلمين لنشر

---

(١) جامع عمر الصومالى ص ٤٣ ودكتور المنعم : هرر والصومال ص ١٠١

التعليم وفتحوا عدة مدارس لتثقيف الشعب . وتعليمه أحكام الشريعة الإسلامية .

وشجع المصريون الشباب الصومالى على دراسة فنون الحرب ، وحثوا الأهالى على الاستقرار والزراعة ، وقدموا لهم أنواعاً شتى من البذور وآلات الحرث .

وفى ضوء الأمن الداخلى والخارجى استطاع الأهالى والمسافرون أن يخترقوا البلاد دون خوف ، وكانت القوافل تخترق الطرق من زيلع وبربره إلى هرر وبالعكس تحمل مختلف البضائع فى أمن وسلام ، وعملت مصر على توفير وسائل المواصلات المختلفة .

وأصبحت هرر بذلك عاصمة عظيمة الشأن متصلة بالساحل اتصالا قوياً(١) .

الصومال عقب انهيار الإمبراطورية المصرية :

عند ما انهارت الإمبراطورية المصرية بإفريقية عقب عزل الخديوى إسماعيل والاحتلال البريطانى لمصر ، اتجهت أوربا لاقتسام مناطق الصومال التى كانت تابعة لمصر ، وقد وضعت لذلك حيلة أشبه بالمسرحيات ، فإيطاليا تذكرت أنها كانت قد ابتاعت منطقة خليج عصب سنة ١٨٦٩ من أحد الحكام المحليين ، فأرسلت قوة لاحتلال هذه المنطقة بالاتفاق مع بريطانيا ، وقد وقعت مقديشو بذلك تحت حكم الطليان الذى استمر زهاء نصف قرن حتى سقطت إيطاليا تحت أقدام بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية (سنة ١٩٤٢ م) وتذكرت فرنسا كذلك أنها كانت قد ابتاعت منطقة أوبوك من أحد الحكام المحليين ، وانتهزت فرصة انحلال الإمبراطورية المصرية فأسرعت إلى هذه المنطقة واحتلتها ولا تزال تحتلها حتى اليوم باسم الصومال

(١) عمر الصومالى : تاريخ الصومال ص ١٩٧ — ١٩٨ بتصرف

الفرنسى ، أما بريطانيا فقد كانت تعد نفسها الوارث الشرعى لأملاك مصر بإسم احتلالها لمصر ، ومن هنا مدت سلطانها على منطقة زيلع وبربرة وسميت هذه المنطقة الصومال الإنجليزى ، وتقدمت الحبشة كما سنرى فاحتلت إقليم هرر(١)

وكان جهد مصر من الناحية الثقافية بالغ المدى فى الصومال وهرر والسودان وجمع الأرض التى نزلت بها مصر ، ويجمع المؤرخون على أن دور مصر كان عظيماً للغاية فقد كتب « هنتر » قنصل بريطانيا فى زيلع يقول :

لو استمر نظام الإدارة المصرية بضع سنوات أخرى على هذه الأقاليم من شرقى إفريقية لانضمت مجموعة كبيرة من القبائل الإفريقية تحت راية الإسلام ، ولأصبحت هذه البلاد مركزاً هاماً من مراكز الثقافة والحضار فى إفريقية .

وكتب العالم الألمانى « فيليب باولتشكة » يقول : إن نظام التعليم الذى اختط سياسته المصريون فى السودان ، وفى أجزاء أخرى من إفريقية نظام سليم يعتمد على الواقع ويقوم على أساس فكرة التطور التدريجى حسب الاحتياجات والإمكانيات ، وقد نجح المصريون فى ذلك رغم قصر عهدهم ، وخلقوا وعياً تعليمياً بين شعوب هذه الجهات كان من الممكن استغلاله لولا دخول الاستعمار الأوربى الذى أطاح بهذه المكاسب وأخر سير النهضة الفكرية .

ويقول الدكتور محمد المعتصم إن الحكام المصريين أدوا واجبهم كاملاً فى النهوض بالتعليم والعناية بالصحة وشجعوا الزراعة ونشطوا التجارة وكشفوا عن المعادن وأدخلوا الصناعات المختلفة وعمروا المدن ، وأقاموا كثيراً من المنشآت الإصلاحية التى سببت الاستقرار والرخاء(٢) .

---

(١) انظر الجغرافية السياسية لإفريقية للدكتور فيليب رفله ص ٣٤٨ وجامع عمر الصومالى : تاريخ الصومال ص ٤٣

(٢) هذه الاقتباسات من مجلة نهضة إفريقية عدد يناير سنة ١٩٦٣

هرر بعد المصريين :

ضغط الاستعمار البريطانى على مصر كما ذكرنا من قبل لتتخلى عن امتداداتها بإفريقية ، وتسحب جيوشها من كل البقاع التى ارتبطت بها ؛ وتحت هذا الضغط أصدر مجلس النظار المصرى أمراً بإجلاء القوات المصرية عن هرر وملحقاتها ، وتسليم السلطة إلى الوارث الشرعى للأسرة التى كانت حاكمة قبل قدوم المصريين ، والعجيب أن بعض المسيحيين فى الجيش المصرى أرسلوا رسالة سرية إلى ملك الحبشة يخبرونه فيها أن الحاميات المصرية ستخرج من هرر بعد فترة وجيزة ، وينصحونه بالزحف عليها قبل أن تدخلها قوة أخرى ، ولكن مصر سلّمت الإمارة إلى عبد الله بن عبد الشكور من أسرة السلاطين كما ذكرنا آنفا وسرعان ما أرادت بريطانيا أن تمد نفوذها إلى هذه الإمارة ، فطلبت من الأمير عبد الله أن يرفع العلم الإنجليزى باسم أن بريطانيا تحل محلّ مصر فى مصر نفسها وفى البلاد التى كانت تابعة لها ، ولكن الأمير رفض ذلك ، فشجعت بريطانيا الأحباش ليزحفوا على هرر ، إذ أن التعاون بين الحبشة المسيحية والإنجليز كان أيسر من تعاون المسلمين فى هرر مع الإنجليز ؛ وزحفت الحبشة سنة ١٨٨٦ بجيش كبير على إمارة هرر الإسلامية التى لم تكن قد استعدت بعد لمقابلة جيوش الـ[illegible] ، فاستولت على هرر وراحت تدفعها أطماعها ، وتدفعها أوربا المسيحية لمزيد من الزحف ، وفى خلال السنوات التالية حتى نهاية القرن التاسع عشر كان حكم الحبشة قد امتد إلى مناطق أخرى من الصومال هى مناطق الجالا وعروسة والأغادين نتيجة للزحف من جانب ، وللاتفاقات الدولية التى عقدتها الحبشة مع الدول الأوربية من جانب آخر[1] .

---

(١) دكتور جلال يحيى « العلاقات المصرية الصومالية ص ٢٦٢

مساوىء الأحباش فى الصومال وهرر :

لما استولت الحبشة على هذه الإمارات فى نهاية القرن التاسع عشر ، أغلق ملك الحبشة المدارس ، ومراكز العلم ، وهدم المساجد ، وأحرق المصاحف ، ومنع إقامة شعائر الإسلام ، وألقى القبض على أكثر العلماء ، واعتقل بعضهم ، وقتل أكثرهم بالحبس وبالطرق الخبيثة ، وفتح باب الهجرة للمبشرين المسيحيين ، وأعطى لهم الأموال والأراضى التى انتزعها من أيدى المسلمين ، ومنحهم كل المساعدات المادية ، والمعونات المعنوية ، وعهد إليهم أن يكفروا الشعب المسلم وبخاصة المزارعون ، وحينما أراد الفلاحون أن يقاوموا أو يقوموا بالدعاوى والاحتجاجات كان الجواب الوحيد الضرب بالرصاص والسجن والحكم بالإعدام ، وأرغم كثيراً منهم على بيع أراضيهم ، وكان المبشرون يختطفون الأطفال الأيتام ، وتارة يأتون رب العائلة ويقتلونه ويسلمون الأولاد إلى المبشرين ، وكان الصليبيون الفرنسيون يشجعون على هذه المعاملة الوحشية ، ويعاونون على الظلم والاعتداء ، ولكن كل ذلك لم يلق أى نجاح ولم يأت بنتيجة فى تكفير المسلمين[1] .

ولا تزال هذه المناطق التى يسكنها مسلمون صوماليون ، موضع صراع مرير بين الصومال والحبشة ، وكانت القوى الأوربية هى التى هيأت للحبشة أن تستولى عليها كما هيأت لها فيما بعد (سنة ١٩٥٠) الاستيلاء على منطقة إسلامية خطيرة هى منطقة أريتريا باسم تكوين اتحاد فيدرالى بينها وبين الحبشة ، وهذا جعل الحبشة تمثل قلعة أوربية مسيحية فى قلب إفريقية ، ينتفع بها الاستعمار وينفعها .

---

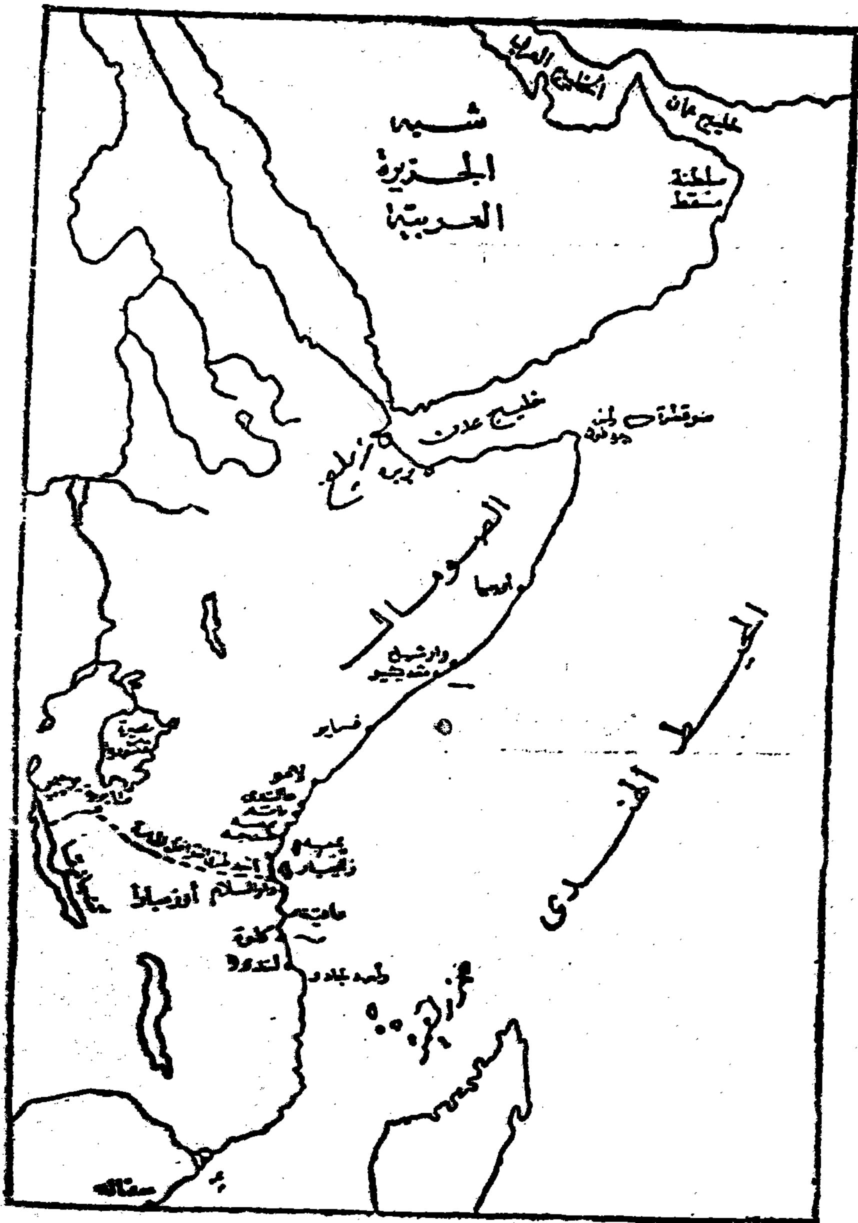
(١) جامع عمر : تاريخ الصومال ص ٢٠٠

إمبراطورية الزنج

من القرن العاشر إلى القرن العشرين

إن تاريخ إمبراطورية الزنج أو « زنجبار » تاريخ طويل حافل ، به صور من النجاح والفشل ، ولكن خاتمته مريرة ، وزنجبار معناها ساحل الزنج ، وهذه التسمية تدل على نسبة هذه الدولة لزنوج إفريقية ، اى أن الوافدين لها الذين سنتحدث عنهم من فرس وعرب ذابوا فى المجموع الإسلامى الذى كان أكثره من الزنوج فنسبت الدولة للأغلبية .

ونحن الآن أمام ظاهرة عجيبة من ظواهر الاستعمار الأوربى والضغط المسيحى ، فإن إمبراطورية زنجبار الإسلامية التى امتد تاريخها عدة قرون ، واتسعت رقعتها اتساعا كبيراً ، وكثر عدد سكانها ، واحتلت مكانا استراتيجيا مهماً . هذه الإمبراطورية قضى عليها الاستعمار تماما ، مزقها إلى أشلاء ، ووزع هذه الأشلاء على ممالك يتسم الحكم فيها بالمسيحية المتعصبة ، والمسيحية — كما يقرر التاريخ والواقع — متعصبة دائماً إذا كانت أكثرية ، وسلم الحكمُ المسيحى بتلك الدول هذه الأقليات من الاستعمار ، فصب عليها جام غضبه حتى ردها إلى المسيحية أو على الأقل كبت الإسلام فى صدور المسلمين . فأكمل هذا الحكم المهمة التى بدأها الاستعمار بالنسبة لسكان زنجبار ، واختفت هذه المملكة من الوجود ، ومن هنا لن نتحدث عن زنجبار فى الباب السادس الذى خصصناه للدول الإسلامية جنوب الصحراء الآن ، وهذا يستلزم أن نسير مع زنجبار هنا أطول مما سرنا مع سواها من الدول الاسلامية ، فإن الدول الإسلامية الأخرى ظللنا مع تاريخها حتى بدأ الاستعمار ، ووصفناها فى الباب الخامس وهى تصارع الاستعمار ، واستأنفنا حديثنا عنها فى الباب السادس وهى مستقلة ، ولكن زنجبار قُدِّر لها غير هذا الطريق ، فإن الاستعمار لم يكتف فيها بأن يلتهم ثرواتها أو يؤذى أهلها ،



زنجبار ودول الساحل الشرقى

بل دمرّها تماما وأسلمها إلى الضياع ، ومن هنا سنظل فى هذا الباب نتحدث عن زنجبار حتى نصل بالحديث إلى نهاية هذه الدولة .

ولنبدأ القصة من أولها :

الساحل الشرقى لإفريقية قريب بالنسبة للعرب فى جنوب الجزيرة العربية ، وهو كذلك قريب بالنسبة لمنطقة الخليج العربى الذى تقع بلاد الفرس إلى الشرق منه ، ومن هنا اندفعت هجرات عربية كثيرة من الجزيرة العربية ومن البحرين وساحل عمان إلى شرقى إفريقية ، وكونوا لأنفسهم عدة إمارات بالجزء الشمالى من الساحل ، ونشروا الإسلام فى هذه البقاع ،ولكن هناك هجرة تُعَدُّ من أبعد الهجرات أثرا فى تاريخ الإسلام بالجزء الجنوبى من الساحل ، وهذه هى الهجرة التى وفدت من شيراز بزعامة على بن الحسن الشيرازى والتى تحدثنا عنها من قبل[1] وقد استطاع هؤلاء المهاجرون أن يصلوا إلى مكان السيادة بهذه المنطقة ، وأسسوا مدينة كلوة وجعلوها عاصمة لهم ، وكونوا نواة دولة الزنج ، وكانت بجوارها إمارات عربية متعددة على الساحل ، وقد استطاع سليمان بن على أن يوحِّد معظم الإمارات العربية فى شرقى إفريقية ابتداء من جنوب مدينة مقدشو حتى سفالة وأن يضم جزيرتى زنجبار وبمة ، وأن يعقد صلات تجارية مع جزيرة مدغشقر ، وجزر القمر ، وبهذا أصبحت مملكة الزنج واسعة الرقعة عظيمة الشأن وكان ذلك فى القرن العاشر والحادى عشر[1] .

---

(١) ص ١٨٩ - ١٩٠

(٢) دكتور صلاح العقاد وجمال قاسم : زنجبار ص ٨

وخلال القرون التالية ازدهرت دولة الزنج وامتد نفوذها بالداخل ، ونشطت الدعوة الإسلامية حيث امتد هذا النفوذ ، حتى أصبحت هذه الدولة عزيزة الجانب قوية السلطان ، وقد وقف الإسلام فى هذه البقاع وجها لوجه أمام الوثنية واللادينية ، ومن هنا عنى حكام هذه الدولة بتقوية دولتهم لتستطيع أن تواجه أى أنواع التحدى ، وبالإضافة إلى القوة ، كان طابع الازدهار والرخاء ظاهراً فى دولة الزنج لأنها كانت الدولة الوحيدة فى هذه البقاع التى لها نظام وتخطيط وتجارة، تحرسها نظم دقيقة ووسائل دفاع قوية ، وقد ازدهرت فى هذه الإمبراطورية بوجه خاص تجارة العاج والرقيق والذهب ، ونشطت نشاطاً واسعاً بين الشاطىء الإفريقى والشاطىء الأسيوى ، وكانت حضارة كلوة ذات صبغة فارسية فى مبانيها ، فقد أدخل الشيرازيون أساليبهم فى طرق البناء بالحجارة واستخدام الجير والنقش على الخشب ، كما استخدموا العقود فى المبانى .

وقد زار ابن بطوطة هذه المناطق ، وقال عن مدينة كلوة إنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزنوج ، ولهم شرطات فى وجوههم ، وبينها وبين مدينة سفالة مسيرة نصف شهر ، وكلوة مدينة من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وبيوتها من الخشب ، والأمطار بها كثيرة ، وأهلها أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب .

وتحدث ابن بطوطة عن سلطان كلوة الذى رآه ابن بطوطة ، وهو أبو المظفر حسن وكنيته أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه ، ويقول ابن بطوطة عنه إنه كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج لينشر الإسلام، وإذا حصل على غنائم صرفها فى مصارفها المبينة فى كتاب الله ، واحتفظ بنصيب ذوى القربى ليدفعه للشرفاء عندما يزورونه (١) .

---

(١) تحفة النظار . ج ١ ص ١٩٣

وزار ابن بطوطة كذلك جزيرة ممبسي « ممبسة » وذكر عنها أنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض الساحل مسيرة طويلة ز» وبها أشجار الموز والليمون والأترج وبها فاكهة تسمى الجامون أشبه بالزيتون ، ولها نوى كنواه إلا أنها شديدة الحلاوة(١) .

والمطلع على حوليات كلوة يدرك أن صراعاً طويلا نشب فى هذه المدينة بين الطامعين فى السلطة ، وأن المدينة لم تعرف الاستقرار ، ولم يطل بها عهد سلطة الشيرازيين ، بل انتقل السلطان منهم إلى المتمندلين ، فإلى أبى المذهب وأبى المواهب ، واستولى الوزراء فى فترات متقطعة على السلطة ، وأحيانا حكموا البلاد عن طريق ما يسمى بحكومة الصبيان ، إذ وضعوا فى السلطة صبياً وحكموا المملكة عن طريقه ، وتسبب عن هذا اضطراب متصل يورد محيى الدين الزنزبارى(٢) تفصيلا له .

على أنه من أهم أسباب الاضطراب فى هذه الدولة أنها شريط مستطيل على البحر ، وأن كل مدينة بها كانت تعتبر نفسها دولة قائمة بذاتها مرتبطة بالبحر ، وبما خلف البحر من عالم فسيح . ولعل ذلك كان مصدره الاهتمام بالتجارة أكثر من الاهتمام بالسياسة وتكوين الدول ، وكان مصدره كذلك اختلاف العناصر التى تكوّن منها خليط السكان فى هذه المناطق ، فقد كان منهم الفرس ومنهم العرب ومنهم جماعات الإفريقيين الذين كانوا أصلا يعيشون فى هذه المناطق أو الذين وفدوا إليها من الداخل واعتنقوا الإسلام وتعاونوا مع النظام الجديد ، ويبدو لى أيضا أن الحياة على الساحل خلقت فكرة لم توجد عند أولئك الذين هاجروا إلى أماكن داخل

---

(١) المرجع السابق : ص ١٩٢

(٢) السلوى فى تاريخ كلوى : مخطوط نشر فى J.R.A.S. سنة ١٨٩٥ ص ٤١١ وما بعدها .

القارة ، فالحياة على الساحل توحى بالارتحال لا بالاستقرار ، فكان المهاجرون يتجهون للبحر بوجوههم ويولون ظهورهم للقارة ، ومن هنا كان اندماج المهاجرين بالسكان الأصليين قليلا ، واتجهت أغلب العناية إلى التجارة والربح ، وهذا هو الذى مهد للنهاية المريرة التى انتهت لها هذه الدولة ، ولم يخطر ببال هؤلاء المهاجرين أن قوى أخرى ستقف فى سبيلهم يوما ما ، وتقضى على تجارتهم بل على حكمهم ، والأنانية دائما تضعف الجميع فى المدى القريب أو البعيد .

نفوذ البرتغاليين فى زنجبار :

وبينما كانت زنجبار تعانى من هذه الاضطرابات دخل القرن السادس عشر ، ودخل معه الزحف البرتغالى على القارة ، وكان البرتغاليون يحقدون على المسلمين أشد الحقد ، كما كانوا يبحثون عن الذهب والثراء ، وقد وجدوا فى دولة زنجبار هدفهم الذى يسعون إليه ، ووجدوا مسلمين يحكمون دولة فسيحة ، كما وجدوا مظاهر الثراء والغنى ، فراحوا يهاجمون الساحل ويحتاونه حوالى سنة ١٥٠٩ ، وقد ساعدهم على ذلك بعض انحرافات من القادة الذين أرادوا أن يستعينوا بهم فى صراعهم ضد سلطان كلوة ، وانتهى الأمر بأن خضعت أكثر الإمارات الإسلامية إلى البرتغاليين ، واعترفت بسيادتهم ، ودفعت لهم الجزية ، ولكن ظروفاً أخرى هددت سلطان البرتغال ، وذلك بسبب منافسات الدول البحرية لها ، ثم بسبب أن البرتغال نفسها فقدت استقلالها حين ضمها « فيليب الثانى » إلى عرش أسبانيا سنة ١٥٨٠ ؛ وكانت هناك إمارات إسلامية لم تستسلم للبرتغال بل صارعته من يوم إلى يوم ، وقد تسبب عن هذا الصراع تدمير الحضارة التى عرفها الساحل فى عهود ازدهار دولة الزنج[1] ؛

---

(١) Gervase Mathew : بلاد الزنج من مجموعة فجر التاريخ الإفريقى ص ٣٥

أئمة عمان فى زنجبار :

ربط المحيط بين منطقة عمان بآسيا ، وبين ساحل إفريقية الشرق منذ فجر التاريخ ، وكانت حركة الصلات البحرية لا تنقطع ، ولا عجب إذن أن يتطلع سكان الساحل الإفريقى إلى أولاد عمومتهم بمنطقة عمان ومسقط لينقذوهم من سطوة البرتغال ، وقد استجاب أئمة عمان لهذا الرجاء ، ودار صراع طويل بينهم وبين البرتغاليين كان النصر فيه لأئمة عمان الذين استولوا على أغلب الجزر وأكثر المناطق الساحلية من البرتغاليين ، وعينوا عليها أمراء يحكمونها باسمهم ، فعينوا أسرة الحارث لجزيرة زنجبار ، وأسرة النبهانيين لحكم باتا ، وأسرة المعمورى لحكم ممبسة ، وتلتها فى هذه الجزيرة أسرة المزروعى ، وكانت هذه الأسر خاضعة خضوعاً اسمياً لأئمة عمان ، وعندما سقطت أسرة اليعاربة فى عمان وقامت على إثرها أسرة بنى سعيد « البوسعيديين » اكتمل سلطان أئمة عمان على الساحل الإفريقى وعلى الجزر ، ولم يقبل البوسعيديون منافسات بين الأمراء ، وبخاصة أمراء المزروعين الذين حاولوا الاستقلال بجزيرة ممبسة .

بنو سعيد فى زنجبار :

ومنذ منتصف القرن الثامن عشر أصبحت زنجبار تابعة لحكم البوسعيديين وبلغت الدولة الأسيوية الإفريقية ذروة مجدها إبان حكم السلطان سعيد بن سلطان ، الذى خلف والده سنة ١٨٠٦ ، وقد دام حكمه للدولة الأسيوية الإفريقية حتى سنة ١٨٥٦ ، ونقل عاصمة المملكة من مسقط إلى زنجبار سنة ١٨٣٢ كأنما أراد أن يُقوِّىَ نفوذه على الساحل الإفريقى ، وقد استطاع أن يضم إليه جميع الموانى الهامة والجزر الساحلية ، كما أنه استطاع أن يفرض العشور على التجارة الداخلة والخارجة ، بل أصبح له وكلاء فى بومباى

وكلكتا وغيرها من موانى المحيط الهندى ، وبهذا أصبحت زنجبار مستودعاً هائلا للتجارة ، تخزن فيها البضائع التى تأتى من أنحاء إفريقية ومنها توزع على التجار العرب الذين يحملونها إلى سواحل شبه الجزيرة أو الهند ، وعلى التجار الأوربيين والأمريكيين الذين يحملونها إلى بلادهم(١) .

وبالإضافة إلى الحركة التجارية والنشاط الاقتصادى ، اتسع نفوذ زنجبار السياسى فى عهد السلطان سعيد ، فشمل مسافة على الساحل تقدر بأكثر من ألف وستمائة كيلومتر ، ممتدة من جنوب مقدشو شمالا إلى سفالة وتونجى جنوباً ، كما امتد نفوذه أيضا داخل القارة حتى وصل إلى حدود الكونغو وأوغندا وروديسيا ، وانتشرت فى هذه الأجزاء كلها شبكة من خطوط القوافل تربط بين الساحل ، وبين شواطئ فيكتوريا وتنجانيقا ونياسا ، وتابع توغله فى الأجزاء الشرقية من الكونغو ، وعلا صيته حول البحيرات العظمى حتى كان يقال « إن الناس على شواطئ البحيرات يرقصون على أنغام زنجبار(٢) » .

وعلى هذا فقد صادف السلطان سعيد نجاحاً كبيراً ، على الرغم من أن عصر الاستعمار الأوربى كان قد بدأ ، واتجهت القوى الأوربية لمصارعة السلطان المسلم فى هذه المنطقة(٣) .

انفصال زنجبار عن عمان :

عقب وفاة السلطان سعيد انقسمت دولته إلى سلطنتين مستقلتين الأولى أسيوية فى عمان ومسقط ، والثانية إفريقية تشمل الساحل الإفريقى والجزر

---

(١) دكتور صلاح العقاد . . . . المرجع السابق ص ٧٤

(٢) See: Ruete' R. : Said Bin Sultan, Roler of Omon and East Africa

(٣) دكتور عبد العزيز كامل : قضية كينيا ص ٢٢

المواجهة له ، وكان يحكم مملكة زنجبار أبناء السلطان سعيد الذين ظلوا فى الحكم حتى سنة ١٩٦٤ ، وفيما يلى أسماء هؤلاء السلاطين

ماجد (أو مجيد) بن سعيد	١٨٥٦ — ١٨٧٠
برغش بن سعيد	١٨٧٠ — ١٨٨٨
خليفة بن سعيد	١٨٨٨ — ١٨٩٠
على بن سعيد	١٨٩٠ — ١٨٩٣
حامد بن ثوينى بن سعيد	١٨٩٣ — ١٨٩٦
حمود بن محمد بن سعيد	١٨٩٦ — ١٩٠٥
على بن حمود	١٩٠٥ — ١٩١١
خليفة بن خروب بن برغش	١٩١١ — ١٩٦٤

وفى خلال عهد برغش برز اسم تاجر عربى إفريقى هو حميدى بن محمد ابن جمعة المرجبى الذى يسميه الأوربيون « تيبوتيب » وقد ولد هذا البطل فى زنجبار سنة ١٨٣٢ وهو من أصل عمانى واشتغل بالتجارة ، فنجح فيها نجاحاً كبيراً ، وعرف بالشجاعة وحب المغامرة ، واستلزمت التجارة الواسعة التى كان يزاولها أن يكون له حرس وأعوان على نحو حالة الزبير رحمت، الذى تحدثنا عنه من قبل ، وسارت تجارة المرجبى شوطاً واسعاً داخل إفريقية ، وتوغلت قواته مع تجارته لتحميها وتدافع عنها ، واستطاع أن يصل إلى الكونغو وأن يقيم به وبالمناطق الأخرى التى دخلها محطات تجارية ومراكز عسكرية حصينة ، واستطاع بالمصالحة حيناً وبالحرب حيناً أن يرفع علم برغش سلطان زنجبار على مساحات شاسعة بالداخل اعترفت بتبعيتها لزنجبار وكان المرجبى يلقب « فاتح الكونغو » وقد التقى سنة ١٨٦٧ بالرحالة الإنجليزى لفنجستون وأنقذ حياته من الجوع والمرض كما ساعد

سنة ١٨٧٢ الرحالة استانلى فى البحث عن لفنجستون بعد أن انقطعت أخباره(١) .

وجاء الربع الرابع من القرن التاسع عشر ، وهو الفترة التى اتجه فيها الاستعمار إلى الاحتلال ، وكان من قبل يكتفى بالسيطرة الخارجية والاستغلال الاقتصادى ، فتعاونت قوات إنجلترا وبلجيكا للتخلص من المرجبى ، فافتعلت هاتان الدولتان الوسائل للصدام به والقضاء على سلطانه بالكونغو وبداخل القارة ، وقد تمّ للاستعمار ذلك فى معركة حدثت سنة ١٨٩٢ ومات المرجبى عقب ذلك فى زنجبار سنة ١٩٠٥ .

واتجهت قوى الاستعمار كذلك لساحل زنجبار ، وقام صراع بين ألمانيا وبريطانيا فى السيطرة على هذا الساحل ، فتكونت لجنة من هاتين الدولتين للتوفيق بين مطالبهما ، وصدر تقريرها فى يونيو سنة ١٨٨٦ وخلاصته أن للسلطان حقوق سيادة على جزيرتى زنجبار وبمبا ، وعلى شريط ساحلى عرضه عشرة أميال بين مقدشو شمالا ، وإفريقية الشرقية البرتغالية جنوباً، ووقعت معاهدة بذلك فى نفس العام ، وقسمت الأرض الداخلية خلف هذا الشريط إلى منطقتى نفوذ ، الشمالية بريطانية « كينيا » والجنوبية ألمانيا « تنجانيقا » وقد آلت السلطة فيها أيضا لبريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ووافق السلطان على ذلك ، تحت ضغط الوعد والوعيد(٢) ، وأصبح مسلمو مملكة زنجبار بذلك يكوّنون أقليات فى المستعمرات التى شملتهم .

وهكذا تقلصت سلطنة زنجبار ، فأصبحت عبارة عن جزيرتى زنجبار وبمبا وشريط ضيق على الساحل وسرعان ما تطلعت بريطانيا لهذا الشريط

---

(١) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى ج ١ ص ٢٠

(٢) دكتور عبد العزيز كامل : قضية كينيا ص ٣٢ - ٣٣

فأرغمت السلطان على أن يمنحها به امتيازات نظير مبلغ مالى ، ثم استولت عليه نهائياً ولم تعد سلطة السلطان تتمثل إلا فى جزيرتى زنجبار وبمبا ، بل إن بريطانيا لم تدع هاتين الجزيرتين فى حكم مستقل ، ففرضت عليهما الحماية سنة ١٨٩٠[1] .

نهاية زنجبار :

خلال سنة ١٩٦٣ و ١٩٦٤ تلاحقت أحداث خطيرة تتصل بسلطنة زنجبار على النحو التالى :

– فى ٢٤ يونيو سنة ١٩٦٣ منحت بريطانيا زنجبار استقلالاً فى الأمور الداخلية وبقيت شئونها الخارجية تابعة لبريطانيا .

– فى ٩ ديسمبر من العام نفسه أعلنت زنجبار انفصالها عن التبعية البريطانية والاستقلال التام .

– فى ١٢ يناير سنة ١٩٦٤ أعلن الحزب الإفريقى الشيرازى الثورة ، وعزل آخر السلاطين البوسعيديين خليفة بن خروب ، وأعلن زنجبار جمهورية شعبية ، وعين الشيخ عبيد كروى رئيس مجلس الثورة رئيساً للجمهورية .

– فى ٢٧ إبريل من العام نفسه أعلن الحزب انضمام جمهورية زنجبار إلى جمهورية تنجانيقا لتتكون منهما جمهورية واحدة اسمها جمهورية تنزانيا يرأسها رئيس جمهورية تنجانيقا (جوليوس نيريرى ، وأصبح عبيد كرومى نائباً أول لرئيس الجمهورية .

– فى السابع من إبريل سنة ١٩٧٢ اغتيل الشيخ عبيد كرومى وهو

---

(١) هنا وهناك Charles Eliot : East Africa Protectorate

يجلس في مقر الحزب الأفرو شيرازى ، وقد استطاع المهاجمون أن يصيبوا بعض الحاضرين بإصابات مختلفة بعضها خطير ، وفى نفس اليوم والأيام التالية قضى على أربعة ممن اتهموا بهذا العدوان ، وذكرت المصادر أن اغتيال الشيخ عبيد كان عملية سياسية ، ولم ترد تفاصيل أخرى حتى كتابة هذه السطور ، ولم يتم اختيار خلف لرئيس مجلس الثورة فى زنجبار .

مسلمو زنجبار :

كانت زنجبار دولة ذات جاه وصولة ، وكان من الممكن أن ينزل بها ما نزل بالدول الإسلامية من ضر من جراء الاحتلال الأوربى ، ثم تفيق من كبوتها كما فعلت أكثر الدول الإسلامية ، ولكن نصيب زنجبار كان قاسيا ، فقد أناخ الاستعمار عليها بكلكله ، ولم يدعها تصحو من جديد ، بل مزّقها إلى أشلاء ووزع هذه الأشلاء على ممالك يتسم الحكم فيها بالمسيحية المتعصبة كما قلنا من قبل ، وحاول الحكام الجدد أن يقضوا على الإسلام فأصبح المسلم يوارى إسلامه ويتظاهر بتغيير اسمه وبخاصة فى تنزانيا ، وفقد العالم الإسلامى بذلك قطرا إسلاميا له فى التاريخ مكان وسلطان .



والآن بعد هذه الجولة الطويلة مع الإسلام جنوب صحراء إفريقية يتضح لنا أن الإسلام خلق فى هـــذا النطاق مجموعة كبيرة من الإمبراطوريات والممالك ، وقد عشنا معها وهى تعبر القرون فى هذه القارة ، وتنشر الحضارات والازدهار والعدالة ، حتى اقتحمها ذلك الوحش الأوربى الكاسر ، فدكّ الممالك ، وأوقف الرقىّ ، وسلب الحقوق ، وألقى بالقارة فى دياجير الظلام ، وقد آن لنا أن ننتقل إلى هذه الفترة الكالحة من تاريخ القارة لنرى ما فعله المستعمر الأوربى بأرض القارة وبشعوبها وخيراتها .

الباب الخامس

الاستعمار الأوربي لافريقية

وموقفه من الإسلام

مقــدمات

— الاستعمار بين التعمير والتخريب :

من الواضح أن كلمة الاستعمار من أسماء الأضداد ، فإذا كان اللفظ العربى يفيد أن الاستعمار انتقال إلى العمران ، فإن واقع الأمر يجعل الاستعمار أداةً للتدمير والتخريب الذى يمسّ الإنسان والأرض، والحاضر والمستقبل .

فإذا جئنا إلى معنى الاســتعمار فى القانون الدولى ، فإن أقرب ما يقال عن الاستعمار هو أن تضم دولةٌ قوية لأراضيها أرضاً تسكنها شعوب متأخرة، وتباشر الدولة القوية على هــذه الشعوب صوراً من السيادة والنفوذ ، واستغلال الأرض والسكان لصالحها .

وقد كان نصيب إفريقية من الاستعمار واسعاً وكريها ، فقد وفدت لها كل الدول الاستعمارية دون استثناء ؛ وفدت لها بريطانيا أم الاســتعمار ، وفرنسا ، وبلجيكا ، والبرتغال ، وأسبانيا ، وألمانيا ، وحتى إيطاليا التى كانت محدودة الجهد ضعيفة البناء ، اتجهت إلى الاستعمار فى إفريقية .

— مراحل استعمار إفريقية:

وقد بدأت الحركة الاستعمارية فى القرن الخامس عشر ، مرتبطة بحركة الكشف عن هذه القارة ، وكانت البرتغال زعيمة فى هذا الشأن، وقد اتخذت حركة الكشف مراحل ثلاثة : امتدت الأولى من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر وتزعمتها البرتغال التى اتجهت إلى الساحل الغربى ثم الساحل الشرقى لإفريقية : أما المرحلة الثانية فقد اشترك فيها عدد من الرحالة اتجهوا

نحو اثيوبيا وغربى إفريقية وشمالها وظلت حتى مطلع الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أما هذا الربع الأخير فتمثل فيه المرحلة الثالثة ، وفيه اندفعت دول الاستعمار إلى قلب القارة وتغلغلت فيها .

وقد كانت الجزر التى توجد فى غرب القارة وشرقها محطات أولى نزل بها الاستعمار ، وربما بقصد التجارة والاستغلال ، ولكنه سرعان ما اتخذها أماكن يقفز منها إلى الساحل ، ومن هذا الساحل خطا الاستعمار خطوته الثانية ، فوثب إلى قلب القارة ، ففى الغرب استولت البرتغال على جزيرة ماديرا وقفزت منها إلى الساحل الغربى ، واستولت أسبانيا على جزر كناريا ووثبت منها إلى سواحل ريودورو ، وفى الشرق استولى البرتغاليون على جزيرة زنجبار لتقفز منها إلى شرق القارة وهكذا .

وكانت بلجيكا أسرع الدول فى التحول إلى قلب القارة ، فقد أدخل ليوبولد ملك بلجيكا الرحالة ستانلى فى خدمته سنة ١٨٧٩ ووجه ليوبولد عنايته نحو الساحل الغربى ، وأقنع دول أوربا بأن تبقى الكونغو خاضعة لنفوذه ، فوافقت هذه الدول على ذلك ، وكان الصوت الأمريكى ذا أهمية كبرى فى مساعدة ليوبولد ليضع هذه المستعمرة فى جيبه ، ثم اندفعت ألمانيا بعد ذلك فاستولت على جنوب غربى إفريقية وتوجولاند والكمرون وشرقى إفريقية ، وتدافعت دول أوربا لاقتسام القارة ، ولقيت أوربا فى زحفها كل صنوف العون والمساعدة من الأمريكيين المتشبعين بالحرص على المصالح المالية والتجارية(١) .

— ظروف داخلية تهيئ للاستعمار :

وكانت إفريقية تعانى أشد المعاناة من مشكلات سياسية واجتماعية وثقافية ،

---

(١) A. E. Abroham : The Mind of Africa p 160

وقد يسّر هــذا الوضع للأوربيين أن يتسللوا للقارة ويكونوا بها مراكز نفوذ وسلطة ، فمن الناحية السياسية كان بعض الزعماء يقبضون فى أيديهم بزمام سلطة لا منازع لهم فيها ، وكان هؤلاء يرون أنهم حكام مطلقو اليد ، وقد استطاع الاستعمار أن يلوح لأولئك بالرفاهية والترف وضمان الحقوق فتعاونوا معه وعقدوا معه بعض المعاهدات ، أو اشترى منهم الاستعمار بعض الموانى والمواقع .

ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية لم تكن هناك ملكية فردية تدفع الفرد ليدافع عن ممتلكاته ، وهذا جعل الصراع ضد الاستعمار — فى مراحله الأولى — قليلا ، وبالإضافة إلى ذلك لم يكن هناك للفرد وطن معين يرتبط به ويحس بالتزامه بالدفاع عنه ، وذلك بسبب حياة التنقل والرعى ، فكان الاستعمار إذا اقتحم أرضاً اتجه الإفريقيون إلى أرض سواها ، فى القارة الشاسعة .

ومن الناحية الثقافية كانت إفريقية متخلفة علمياً وعسكرياً ، فلم تستطع أن تنتفع بما فى القارة من ثروات طبيعية ، واكتفى الإفريقيون بالجهد البسيط الذى يضمن لهم لقمة العيش الجاف عن طريق الرعى أو صيد الحيوانات وما شاكل ذلك ، ولم تستطع الوسائل الحربية البدائية أن تقف فى وجه أسلحة الغرب الفتاكة(١) ،

وكانت مأساة الرق التى بدأت من القرن الخامس عشر ، قد أضعفت الإفريقيين وقللت مقدرتهم على المقاومة فساعد ذلك على سقوط القارة ضحية للاستعمار .

---

(١) انظر استعمار إفريقية للدكتور زاهر رياض ص ١٣٢ — ١٣٣ .

— معاهدات تنظيم السلب والعدوان :

فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أصبحت إفريقية كلها فريسة للاستعمار الأوربى ، وراح الأوربيون يقتسمون القارة كالفريسة تتقاسمها السباع الضارية ، وسرعان ما وصل التنافس بين المستعمرين إلى حافة الصراع ، ثم رأى المستعمرون أن ينعموا بالفريسة بدل أن يتصارعوا عليها ، فلم تكن الفريسة عندهم موضع عطف ، ولا كان التهام إفريقية موضع تردد ، ولكن الوثيقة التى وقعوها كانت لتنظيم التهام هذه الفريسة ، ومن هنا شهدت أوربا سلسلة من المعاهدات والاتفاقات من أشهرها وأهمها معاهدة برلين (١٨٨٤ — ١٨٨٥) وهى تعتبر عملا دولياً لتنظيم عملية السلب والنهب فى القارة الإفريقية ، فإنه لما أدّى استعمار إفريقية وتقسيمها بين الدول الأوربية إلى منازعات مستمرة بين هذه الدول ، دعا بسمارك لهذا المؤتمر واشتركت فيه إنجلترا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال وأسبانيا وإيطاليا ، ومن أهم ما جاء فيه المادة الرابعة والثلاثون وهى تدل على روح المؤتمر ، وأن المقصود منه حماية الدول المستعمرة وليس رعاية الفريسة ، ونص هذه المادة هو : « تلتزم كل دولة من الدول الأطراف فى هذه الاتفاقية فى حالة قيامها بوضع يدها ، أو تقرير حمايتها على أى إقليم من إفريقية بإبلاغ ذلك إلى الدول الأخرى الموقعة على هذه الاتفاقية » وواضح من هذا النص أنه يفتح الباب على مصراعيه لسلب أية بقعة من إفريقية ، وليس على السالب من حرج ، وكل ما عليه أن يبلغ ذلك إلى الدول الأخرى حتى لا ينافسه سالب آخر .

وقد علّق باحث على هذه المعاهدة بقوله : لقد كان معنى مؤتمر برلين إضفاء الشرعية والأحقية الدولية على التهام قارة من قارات العالم ، وكان معنى نصوص المعاهدة أن التملك بوضع اليد جائز فى الأراضى غير التابعة

لدولة أخرى من الدول الموقعة على الاتفاقية ، سواء أكانت مسكونة بقبائل رحالة أو بأمة من الأمم ، ولم يكن يدرك رؤساء القبائل معنى العهود التى تضعهم تحت الحماية الاستعمارية ، ومعنى هذا أن الاتفاقية لم تفكر فى حرية الشعوب الإفريقية ، ولا فى إدارتها ولم تلاحظ مشيئة الشعب فى مصير وطنه على الإطلاق ، وتجاهلت الدول الأوربية هـذه الشعوب على اعتبار أنهم لا وجود لهم فى نظر القانون الدولى العام(١) .

وتدفق البيض المستعمرون على إفريقية من كل صوب ، واقتحموا أعماقها ، وفوجىء بهم المواطن الإفريقى ، ولكن المستعمر الأبيض كان يريد أن ينال هذه الفريسة دون أية تضحية ، ولذلك راح يخـدع الإفريقيين ويوهمهم بأنه جاء بقصد التجارة ومساعدة المواطن الإفريقى فى مجالات الحضارة والصحة والتعليم والاقتصاد ، وخُدع المواطن الإفريقى بهذا القول المعسول ، وأحسن استقبال سارقة فى كثير من الأحوال ، أو وقف أمامه يصارعه حتى هزمته أسلحة الغرب ، وفى كلا الحالتين عُقِدت اتفاقيات بين المستعمر الأبيض وقبائل إفريقية ، حتى أن بريطانيا وحدها عقدت ثلاث سنوات (١٨٨٤ ـ ١٨٨٦) نحو ثلاثمائة معاهدة واتفاقية مع زعماء القبائل فى غربى إفريقية وحدها(٢) .

وينبغى أن نقف وقفة قصيرة أمام المعاهدات الخداعة وغـير المتكافئة التى عقدت فى أنحاء كثيرة من إفريقية بين المستعمرين وبعض السـلاطين والزعماء والقادة ، تلك المعاهدات التى سلّم فيها هؤلاء الزعماء للمستعمر بكثير أو قليل من الحقوق فى أرض القارة ، والحق أنه لم يكن من سلطة هؤلاء الزعماء أن يتنازلوا عن حقوق شعوبهم فى الأرض للغـير : ولكن

---

(١) دكتور فيليب رفله : الجغرافية السياسية لأفريقية ص ٤٨ .

(٢) Statesma n's Yearbook 1894 p 1890

نفوسهم كانت قد دُمِّرت بسبب ما رأوه من رق الإفريقيين فأصبحوا يخافون البيض ، وبعض هؤلاء الزعماء اشتركوا بطريق أو بآخر فى جريمة استرقاق الإفريقيين فأصبحوا يخافون السود كذلك ، ومن هنا كان تعاونهم مع الأوربين ، ومن هنا جاءت هذه المعاهدات التى فسرها الاستعمار على أنها تنازل لهم فى احتلال الأرض، مع أن نسبة التنازل لم تكن فى الحقيقة واضحة فيها ولا مستترة(1) .

وعقب معاهدة برلين الجماعية عقدت معاهدات أخرى بين الأوربين لتنظيم الحدود وتقسيم الأسلاب ، وعلى هذا لم يخل عام من الأعوام التالية تقريباً من معاهدات من هذا النوع ، وفيما يلى نماذج من هذه المعاهدات :

سنة ١٨٨٥ : معاهدة بإنشاء ولاية الكونغو

اتفاق بين بلجيكا والبرتغال بشأن الحدود .

» » بلجيكا وفرنسا » »

سنة ١٨٨٦ : اتفاق ألمانيا وإنجلترا بشأن شرقى إفريقية ؛

سنة ١٨٨٧ : اتفاق بين بلجيكا وفرنسا بشأن الحدود فى منطقة الكونغو .

سنة ١٨٨٨ : اتفاق بين فرنسا وانجلترا بشأن الصومال الشمالى ؛

سنة ١٨٨٩ : اتفاق بين إيطاليا وانجلترا بشأن الصومال الجنوبى ؛

سنة ١٨٩٠ : اتفاق بين فرنسا وانجلترا بشأن الصحراء .

اتفاق بين انجلترا والبرتغال بشأن نياسالاند ؛

سنة ١٨٩١ : معاهدة انجلترا مع ملك أوغندا .

اتفاق انجليزى إيطالى جديد بشأن الصومال .

---

(1) W. E. Abrahaa : The Miand of Africo p 126

سنة ١٨٩٤ : اتفاق بين انجلترا وإيطاليا بشأن أريتريا :
معاهدة بين البرتغال وبلجيكا وانجلترا بشأن حدود الكونغو
اتفاق بين ألمانيا وفرنسا بشأن الصحراء الكبرى[1].

— إزالة الأسماء والحدود :

إذا كنا نشهد الآن محاولة ملحة من إسرائيل لتخفى اسم فلسطين كأنها تحس أن هذا الاسم يقلق مضجعها ، ويحدث الاضطراب فى حياتها ، فإن هذه السياسة مستوحاة من الاستعمار الأوربى لإفريقية ، فإن هذا الاستعمار جعل من أبرز أسسه أن يزيل الأسماء القديمة للدول والمناطق الإفريقيه ، وأن يزيل الحدود بينها ، ويعيد تقسيم القارة وتسمية أجزائها ، كأنه بذلك يحاول أن يخفى معالم الحق والماضى ، ويصبغ القارة بصبغة جديدة لا تصلها بالتاريخ ، وعلى هذا أصبحت مناطق إفريقية مسماة بالأسماء الآتية :

إفريقية الغربية الفرنسية .
إفريقية الغربية البريطانية .
إفريقية الفرنسية الاستوائية .
إفريقية الشرقية الألمانية .
إفريقية الجنوبية الغربية .
إفريقية البرتغالية وهكذا .

بل راح الاستعمار يسمى بعض المناطق بأسماء الفاتحين والملوك الأوربيين مثل سيشل ، ليوبولد فيل ، استانلى فيل ، بحيرة فيكتوريا ، بحيرة ألبرت ، رودس ، روديسيا ... .

(١) دكتور زاهر رياض : الاستعمار الأوربى لإفريقية ص ٢٤ .



الاستعمار فى افريقية
سنة ١٩١٤

وفى بعض مناطق إفريقية عمد المستعمر إلى ما يسمى استعمار الإبادة ، فدفع السكان الأصليين إلى الهجرة من مكان إلى مكان ، وطاردهم حتى هاموا على وجوههم ولم يبق منهم إلا من يحتاجه المستعمر كيد عاملة أو آلة منتجة لصالحه ، ولم يجعل المستعمر لهؤلاء أية حقوق سياسية أو اقتصادية ، وذلك ما حدث فى روديسيا وجنوبى إفريقية ، مما جعل المواطن غريباً فى وطنه وجعل الغريب مالكاً للدار .

وكانت الأرض ذات المناخ الجميل ضحية هـذا الاتجاه ، فقد اختار الأوربيون المناطق المرتفعـة لتـكون وطنا لهم ، وفى ذلك يقول A. J. Hughes[1] لو أن أرض شرقى إفريقية لم تكن مرتفعة هذا الارتفاع الشاهق الذى يتراوح بين ٤,٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ قدم ، لتغير تاريخ هـذه المنطقة ، فإن أكثر أرض القارة مسطحة تحيط بها الشواطىء ، ولكن مساحات واسعة فى ليبيا وتنجانيقا مرتفعة ، وهذا جعلها أرضاً صالحة لإقامة الأوربيين ، لجمال جوها ومناسبتها للقادمين من الشمال . ومثل كينيا وتنجانيقا فى ذلك روديسيا وجنوبى إفريقية .

— الملاك الجدد لإفريقية :

وبناء على ذلك شمل الاستعمار إفريقية كلها ، ولم ينج منه إلا دولتان اثنتان فقط ، لشىء واحد حماهما من الاستعمار ، ذلك هو المسيحية ، وهاتان الدولتان هما اثيوبيا وليبريا

أما القارة كلها فقد اقتسمها الاستعمار الأوربى ، لا فرق بين المناطق الإسلامية أو الوثنية أو اللادينية ، وكان نصيب انجلترا وفرنسا نصيب الأسد فى هذا السلب ، فانجلترا احتلت مصر والسودان وكينيا وأوغندا والصومال

Africa p. 9 (١)

البريطانى ونيجيريا وغانا وسيراليون وبتشوانالاند واتحاد وسط إفريقية وجنوبى إفريقية ، وبهذا خضع لها أكبر عدد من السكان الإفريقيين ويقدر عددهم بحوالى ٦٥ مليون نسمة ؛ واحتلت فرنسا تونس والجزائر ومراكش وإفريقية الغربية الفرنسية ، وإفريقية الفرنسية الاستوائية والكمرون ومدغشقر والصومال الفرنسى ،وكانت بذلك أكبر دولة أوربية مستعمرة بإفريقية من حيث المساحة ، واحتلت بلجيكا الكونغو وأوراندى ، واحتلت البرتغال مناطق على الساحل الشرقى والغربى وأنجولا وغينيا البرتغالية ، واحتلت أسبانيا بعض الجزر بغربى إفريقية وبعض المناطق فى شمالى إفريقية وغربها ، واحتلت إيطاليا ليبيا والصومال الإيطالى ثم احتلت أثيوبيا فترة قصيرة إبان عهد موسولينى ، واحتلت ألمانيا إفريقية الشرقية الألمانية ، كما احتلت إفريقية الجنوبية الغربية وتوجولاند والكمرون .

وكان اتجاه بريطانيا فى استعمارها لإفريقية يميل إلى محاولة شق القارة بممتلكاتها من الشمال إلى الجنوب ويتحدث البريطانيون عن حلم كان يساورهم ، وهو إقامة خط يجرى فى ممتلكات التاج ويشق القارة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ولكن هذا الحلم كان يعارضه حلم فرنسى آخر ، فقد اتجهت فرنسا إلى رسم حزام إفريقى يسير فى ممتلكات فرنسا التى تشق القارة من الشرق إلى الغرب ، وقد سارت كلتا الدولتين خطوات واسعة لتحقيق أحلامها ، واتجهت بمستعمراتها هذا الاتجاه ، ولكن نقطة الالتقاء بين الحزامين أو الخطين حالت دون تحقيق الهدفين .

وقد ذكرنا آنفاً مستعمرات ألمانيا ، ولكن ألمانيا عندما هزمت فى الحرب العالمية الأولى ، وُضعت مستعمراتها تحت انتداب الدول المنتصرة ، أو قل إن هذه المستعمرات ضمت إلى ممتلكات المنتصرين ، فأشرفت بريطانيا على تنجانيقا وزنجبار ، وبريطانيا وفرنسا على توجولاند والكمرون ،

واتحاد جنوب إفريقية على افريقية الجنوبية الغربية .

وقد سبق أن قلنا أن أثيوبيا وليبيريا نجتا من الاستعمار بكل صوره ، ولم يكن ذلك لرقى الدولتين ، وإنما كان لشيء واحد هو أنهما كانتا تدينان بالمسيحية دين المستعمر الأوربى ، فإثيوبيا يمثلها المفكرون بسفينة مسيحية وسط محيط من المسلمين ، ولذلك حماها الاستعمار الأوربى ، بل منحها كل تأييده وأضاف لها بعض مساحات من أرض المسلمين ، كأرتيريا وبعض مناطق الصومال وهذا مكنّ لها أن يكون لها منفذ على البحر ، ولم تكن من قبل تستمتع بمثل هذا المنفذ إذ كان يحيط بها من الجنوب والشرق ما يسمى بممالك الطراز الإسلامى(١) .

أما ليبيريا فقد أعيد لها بعض الأرقاء الذين كانوا قد بعث بهم إلى أمريكا ثم — بعد تحرير الرقيق — أعادتهم أمريكا ، واتخذت لهم موطناً فى إفريقية هو ليبيريا ، وكان هؤلاء قد اعتنقوا المسيحية فى جولتهم بين الوطن الأم وبين الدنيا الجديدة ، وبسبب اعتناقهم المسيحية لم تمتد لهم يد المستعمر ، الذى امتدت يده إلى كل البقاع الأخرى .

عود إلى النطاق الإسلامى جنوب الصحراء :

وبعد هذه الجولة عن الاستعمار الأوربى بإفريقية ، نعود لندخل بدراستنا ضمن الإطار الذى يشمله هذا الكتاب وهو الدول الإسلامية جنوب الصحراء الإفريقية ، فإن هذه المنطقة هى التى يعنينا بحثها الآن ونحن نتكلم هنا عن التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بها ، والناظر إلى خريطة إفريقية يجد

---

(١) انظر ص ٣٩٠ .

هذه المناطق تحت سلطان فرنسا وانجلترا وإيطاليا ، وربما كان لفرنسا النصيب الأكبر فى هذه المنطقة ، فقد خضعت لها موريتانيا والسنغال ومالى (السودان الفرنسى) وغينيا والنيجر والصومال الفرنسى ، وكان لبريطانيا السلطان على نيجيريا وسودان وادى النيل والصومال البريطانى وزنجبار ، وكان لإيطاليا السلطان على الصومال الإيطالى ، وأما البرتغال فقد امتد نفوذها فترة ما إلى جزر الساحل الشرقى وبعض مناطق الساحل الغربى ، ولا يزال نفوذها فى غينيا البرتغالية .

وسنورد فيما يلى بعض الدراسات عن هذه المناطق الإسلامية بوجه خاص وعن القارة كلها بوجه عام إبان حياتها تحت نير الاستعمار الأوربى البغيض :

الاستعمار واقتصاد إفريقية

كان بإفريقية ثروة ضخمة من المواد الخام لم تجد اليد التى تستغلها ، كما كانت هناك مناطق شاسعة تصلح للزراعة ، وكانت أوربا تحتاج للجانبين ؛ تحتاج للمواد الخام لتموين المصانع فى عهد النهضة الصناعية بأوربا وتحتاج للأرض الزراعية التى تَمُدُّ المستهلك الأوربى بحاجته من الطعام بعد أن تعطلت المزارع الأوربية بسبب هجرة عمال الزراعة إلى المناطق الصناعية التى جذب بريقها أكثر الأيدى التى كانت تعمل فى الحقول .

هذا جانب اقتصادى : وهناك جانب اقتصادى آخر هو أن تتولى الدول المستعمرة دور الوسيط التجارى للمنتجات الإفريقية كالعاج وزيت النخيل والماس والذهب والقطن . . . . . وهو جانب يُدِرُّ ربحاً طائلا لأن المستعمر كان يشترى بالثمن الذى يحدده دون منافسة ، ويبيع فى السوق العالمية لمن يدفع ثمناً أعلى .

وجانب اقتصادى ثالث اتجه له الاستعمار هو أن يجعل إفريقية تمتص الأيدى الزائدة والبطالة بأوربا ، ومن هنا شجعت الدول المستعمرة الهجرة للعمل أو الاستيطان بإفريقية .

وجانب اقتصادى رابع هو أن المستعمر رفع شأن بعض الزعماء ورؤساء القبائل ومنحهم بعض المال ليساعدوا على استقراره ، كما خلق بعض العناصر من الوطنيين لبعض الأعمال الإدارية بإفريقية ، وقد تكوّن من هؤلاء وأولئك مجموعة من المستهلكين يبيع لها المستعمر منتجاته ويصرّف حاصلاته الصناعية .

وقد مارس الاستعمار الأوربى كل هذه الأنواع بالقطاع الإسلامى بإفريقية

الذى نتحدث عنه ؛ فقد يسرت القوانين الفرنسية وسائل استيلاء الفرنسيين على الأرض فى إفريقية الغربية والاستوائية . فقضت هـذه القوانين بأن الاعتراف بالملكية الفردية السابقة للاحتلال يستلزم وجود مستندات ثابتة ، ومن الطبيعى أنه لم تكن هناك مستندات للملكية ؛ وبهـذا آلت أكثر الأرض إلى الدولة ، وهناك أراض أخرى صـدرت قوانين مباشرة بمصادراتها وهى أراضى السلاطين الذين قاوموا الفتح ، وأراضى أسرهم وأراضى الذين فروا أمام قوات الفتح ، أو ماتوا خلال عمليات الزحف ، وكذلك أراضى الغابات والجبال ، وبهذا ندرك أن هذه القوانين جعلت أكثر الأراضى ، إن لم يكن كلها ملكاً للمستعمر ؛

وبعد هذا جاء دور استغلال هذه المساحات الشاسعة ، فقد أعطيت هذه المساحات لشركات استثمار فرنسية ، وقد بلغت مساحة الأراضى التى أعطيت للشركات بصفة الملكية الدائمة ٥٧,٤١٩ هيكتاراً (الهيكتار ١٠,٠٠٠ متر مربع وذلك يساوى فدانين وثلثاً تقريباً) والتى أعطيت بصفة الملكية المؤقتة ٩٣,٢٨٤ هيكتاراً ، وكانت معظم هذه المساحات فى ساحل العاج وغينيا ، وخصص أكثرها لإنتاج الموز والأرز والبن ، وقد أعطيت تجارة الصادر والوارد فى هذه الممتلكات الفرنسية احتكاراً لعدة شركات ، كما جُعِل التعدين وقفاً على بعض الشركات الفرنسية الأخرى ، وقد بلغ ما استُخرج من الذهب فى إفريقية الغربية ستون كيلو جراماً سنة ١٩٢٩ ، ثم ارتفع إلى ٢٠٣٩ كيلو سنة ١٩٣٤ ، ومثل الذهب معادن الفوسفات فى السنغال ، وغيرهما من المعادن(١) .

ويختلف الحال انجلترا عن فرنسا ، فإن الاستيطان البريطانى اتجه إلى المناطق التى تناسب الأوربيين من ناحية الجو ، كجنوبى إفريقية ،

---

(١) دكتور زاهر رياض : استعمار إفريقية ص ٢٥١ - ٢٥٢ بتصرف .

وروديسيا ، أما المناطق الإسلامية التي نتحدث عنها كنيجيريا والسودان فقد عاش فيها الموظفون الرسميون الإنجليز الذين عنوا بتوجيه الاقتصاد والإنتاج الزراعي لخدمة بلادهم ، فاتجهت صادرات نيجيريا من الكاكاو وزيت النخيل والفول السوداني إلى بريطانيا ، كما أن بريطانيا باعت من المحصول ما يزيد عن حاجتها إلى الدول الأخرى ، وفي السودان استُغلت جميع الإمكانيات الزراعية لخدمة الاقتصاد البريطاني ، فقد زُرع إقليم الجزيرة قطناً وتولت الإشراف عليه شركةُ زراع القطن البريطانية ، وكانت هي التي تتولى الإنفاق عليه من أجل الحصول في النهاية على جميع إنتاجه بالأسعار التي تحددها ، وقد كانت هذه الأسعار خلال الحرب العالمية الثانية ، أقل بكثير جداً من الأسعار العالمية ، أما في المناطق التي يناسب مناخها ظروف المستعمر فقد ضمنت القوانين سهولة الاستيلاء على الأراضي وتسليمها للمستوطنين الإنجليز ، فقد أباح قانون الأراضي استيلاء الدولة على كل الأراضي الخالية في شرقي إفريقية ، أو التي ليس لها ملاك ، أو على أي أرض شاءت لأي غرض شاءت ، دون أن تعوض أهلها أو مالكيها ، وتنفيذاً لذلك طُردت قبائل إفريقية بأكملها من أراضيها واستولت عليها الحكومة ، وأعطتها إلى مستغلين من البيض ، وجُعل متوسط الأرض التي يملكها الرجل الأبيض عشرة آلاف فدان ، اتخذت شكل إيجار اسمي لمدة ٩٩ سنة ، بل العجيب أن هذه المدة لم تقنع المستعمر البريطاني ، فطالب بإطالتها ، فاستجابت الدولة له ، وأضافت رقم (٩) إلى التسعتين السابقتين لتصبح المدة ٩٩٩ سنة وهو تاريخ خيالي[1] ، وأكد السير تشارلز ايليوت سنة ١٩٠٥ أن من السخف والنفاق عدم الاعتراف بأن مصالح البيض هي التي يجب أن تسود في إفريقية البريطانية[2] .

---

(١) دكتور رياض زاهر : الاستعمار الأوربي لإفريقية ٢٢٩ بتصرف .

A. E. Abraham : The Mind of Africa p. 126 (٢)

أما إيطاليا فقــد راحت تقلد فرنسا وبريطانيا فى هذه الاتجاهات الاستعمارية ، بل بالغت أحياناً فأرادت القضاء على العنصر الوطنى لتدفع بالإيطاليين إلى مساكنهم وأراضيهم ، ولكن سياسة إيطاليا فشلت فشلاً تاماً ، فلم تستطع أن تتغلب على المواطنين فى الصومال وأريتريا والحبشة ، ولم تفلح سياستها فى استعمال بعض القبائل ضد بعض ، كما لم تنجح المزارع الإيطالية التى استغلها الإيطاليون ، وظلت إيطاليا تستورد للإيطاليين بشرقى إفريقية كثيراً من السلع الضرورية للحياة كالدقيق والأرز والأقمشة والبترول والشاى ، مما جعل الاستعمار الإيطالى عبئاً على الخزانة الإيطالية ، وهكذا لم تستثمر إيطاليا الأرض ، ولم تدع الأهلين يستثمرونها ، وإذا كانت قد اســتوردت حاجات المهاجرين الإيطاليين ، فإن المواطنين بالمستعمرات الإيطالية قاسوا الجوع والحاجة ، خلال هــذا الاستعمار البغيض ، وحرصت إيطاليا بطبيعة الحال على احتكار الأسواق التجارية والاستيلاء على كل ما أنتجته الأرض التى كانت خاضــعة لها كالصمغ والقطن والبن والأسماك ، وبعض الحيوانات الحية كالجمال :

وتدل الاحصاءات على بشاعة الشره الأوربى فى إفريقية ، فقد أصبحت الشركات الفرنسية تملك فى إفريقية الإستوائية ما يقرب من مليونى هكتار ، أما فى السنغال فلم يكن ما تملكه الشركات الفرنسية أقل من ٩٠,٠٠٠ هكتار من أجود الأراضى .

وحققت شركة إفريقية البريطانية ربحاً قدره ٢٩ مليون جنيه عام ١٩٥٠ ، وحققت الاحتكارات البريطانية فى غربى إفريقية وأوغنده ربحاً صافياً قدره ١٣٣ مليون دولار من الكاكاو وزيت النخيل فقط ، فى الفترة بين عامى ١٩٤٥ و١٩٥٢ ، واستخرجت الشركات البريطانية فى السنغال قرابة ٣,٧٦٠,٠٠٠ أوقية من الذهب[١] .

---

(١) صبرى أبو المجد : ثورة إفريقية ص ٦١ — ٦٢ .

وبالإضافة إلى وسائل السلب الخفية ، كانت دول أوربا تعمد إلى الثروات التى لا تستطيع سلبها وإخفاءها فتودعها فى بنوكها ، ولا تسمح لها بأن تعود إلى افريقية لتُنفق فى أوجه الإصلاح أو لترفع مستوى الشعب ، وقد بلغ الرصيد الاسترليني للمستعمرات البريطانية سنة ١٩٤٩ مبلغ ٦٧٠ مليوناً من الجنيهات ، وارتفع هذا الرقم سنة ١٩٥٢ فبلغ ١٢٢٢ مليوناً(١).

وهكذا استغل الاستعمار اقتصاد المناطق الإسلامية لصالحه من ناحية الإنتاج ، ومن ناحية الاحتكار ، ومن ناحية امتصاص الأيدى الزائدة وخلق أسواق استهلاكية يبيع بها المستعمرُ منتجاته الصناعية ، فكل تطور تم فى اقتصاد المستعمرات كان لصالح المستعمر ، أما الاستعمار الإيطالى والبرتغالى فقد دمّرا الاقتصاد بالمستعمرات تماماً ، فلم يستفد منه المستعمر ، ولم تبق ثماره للمواطن الإفريقى .

٥

(١) Derek Kartun : Africa Africa p 38

الاستعمار والرق بإفريقية

من المهم أن نتذكر ما ذكرناه من قبل من أن المستعمرين الأوربيين اكتفوا فى المرحلة الأولى من الاستعمار بإقامة محطات على الساحل ، يشترون فيها حاصلات إفريقية من الإفريقيين أو من العرب الذين يجلبون هذه الحاصلات من قلب القارة ، ولكن المستعمرين سرعان ، ما اكتشفوا سلعة أكثر رواجاً وأوفر ربحاً ؛ هى سلعة البشر والتجارة بين الإنسان ، ويحضرنا هنا الحديث الشريف الذى يصرخ « شرُّ الناس من باع الناس » ولكن المستعمر الأوربى كان شر الناس فى كل شىء ، كان يسرق جهد الناس وأرضهم وحاصلاتهم ، ثم اتجه لسرقة أشخاصهم .

وبمناسبة هذا الحديث الشريف ينبغى لنا أن نشير إلى أن الإسلام عارض الرق معارضة شديدة ؛ حرّر عقل الرقيق وقلبه تحريراً تاماً من أول لحظة ، ووقف من عبودية الجسم موقفاً حاسماً ضيّق المدخل للرق ، وأفسح المخرج منه ، وحث على إقرار نظام يطابق الحديث السابق ليُقضى على الرق قضاء تاماً ، كما حدد للرقيق حقوقاً عظيمة إلى أن يختفى الرق اختفاء نهائياً[1] .

وفى مطلع الاستعمار الأوربى لإفريقية كانت صورة السيد والعبد موجودة فى العالم كله ، ولم تكن أوربا قد نسيت بعد حياة الإقطاع حيث سيد الإقطاع ورقيق الأرض ، ووجدت أوربا أن الإفريقيين يعرفون هذا النوع من الرق لحراسة السادة أو خدمة البيوت ، ولكن البرتغاليين الذين كانوا يبحثون عن الربح فى أى مكان وبأية صورة ، أحسوا أن تجارة الرقيق ستضفى عليهم

---

(١) اقرأ ما كتبه المؤلف عن الرق وموقف الإسلام منه فى كتابه (الإسلام) من سلسلة مقارنة الأديان ص ٢٢١ – ٢٤١ من الطبعة الثالثة .

ما يسعون له من مال ، فمارست البرتغال تجارة الرقيق بإفريقية منذ منتصف القرن الخامس عشر ، فانتقلت هذه التجارة من حال إلى حال ، من رقيق كان يستعمل بإفريقية فى مكان من العزة والكرامة ، كفرد من الأسرة يخدمها وينعم بما تنعم به ، أو كحارس للسيد يهيء له السيد ما يجعله موضع ثقة ، إلى رقيق أصبح يُباع ويشترى ليجلب المال لمن يتاجر فيه ، وهذا الوضع كان لوناً جديداً خلقه الاستعمار فى تاريخ الرق ، وكان البرتغاليون — كما قلنا — أول من ابتدع هذه التجارة ، وينسب إلى ألونزو غونزالبز البرتغالى أنه كان أول من بيّن لأبناء جلدته فى عام ١٤٣٤ أن فى إمكانهم أن يجعلوا من الأفارقة سلعه يتاجرون بها ، ولقد اختطف فى عام ١٤٤٠ اثنى عشر إفريقياً ثم اختطف امرأة إفريقية أملا أن يراها بنو قومها فيسارعوا لإنقاذها ، وبهذا يقعون مثلها فى الشرك ، ثم نقل الهولنديون عن البرتغاليين ممارستهم لهذه التجارة ، وأخيراً أخذ التجار الفرنسيون والإنجليز والدانمركيون والأمريكيون يتنافسون فى سرقة الرجال والنساء والأطفال ، وإخراجهم من إفريقية وبيعهم فى العالم الجديد ، ولمدة ثلاثمائة عام ظلت القارة الإفريقية تُنْتَهك حرمتُها وتدمَّر مقدساتها ، وتُفْسَد أخلاق حكامها وأهلها ، وتُشوَّه حياتها الاجتماعية ، وتنهار صناعاتها حتى غرق جزء كبير من القارة فى غياهب الظلمات والجهل ، ولم تفق منها تماماً حتى الآن(١) .

وقد أراد المستعمر الأوربى — وهو يمارس هذه التجارة اللعينة — أن يجد قوة ذات بال يعتمد عليها ، ورأى فى الكنيسة هذه القوة ، فأغراها بالمال ، وقبلت الكنيسة هذا الإغراء مكتفية بنصيب من الأسلاب ، وسرعان ما أعلنت الكنيسة أنها ستعمد العبيد المرسلين إلى أمريكا ، وهى فرصة لتنقذ

---

(1) Ina Corinne Broun : The Story of the Negro p.p. 17—18

أرواح هؤلاء العبيد ، وعن طريق هذه الخدعة أخذت الكنيسة تباشر تعميد العبيد ، وراح مندوبها يجلس على مقعده الرخامى على الشاطىء فيعمد العبيد ، ويقبض نصيبه من رسوم التصدير التى أصبحت مورداً هاماً من موارد الكنيسة(١) ويذكر Derek Kartun أن الكنيسة كسبت من هذه العملية مبالغ طائلة لأنها كانت تتقاضى ضريبة تعميد كبيرة على كل فرد(٢) .

وكان هذا الاتجاه من الكنيسة يساير رأى بولس الرسول عن العبيد ، فقد جاء فى رسالته إلى أهل إفسيس(٣) :

« أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس ، بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً » .

وكان من مظاهر التمسح بالمسيحية التى مارسها جون هوكنز أحد تجار الرقيق المشهورين، أن أطلق على سفنه أسماء مثل « المسيح » ، « الملاك » « نعمة الرب » ، كما أن أوامره اليومية بشأن إبحار السفن كانت دائماً تنتهى بكلمات مقتبسة من الكتاب المقدس مثل : اخدموا الرب ، ليحب بعضكم بعضاً(٤) .

ولم تكن المسيحية الأوربية فقط هى مصدر الإلهام للأوربى ليمارس تجارة الرقيق ، وإنما كانت هناك اتجاهات الفلاسفة الأوربيين التى ترى ذلك الرأى أيضاً ، فقد قسم الفلاسفة اليونان الجنس البشرى قسمين : حر بالطبع

---

(١) دكتور زاهر رياض : الاستعمار الأوربى لإفريقية ص ١٣٨ .
(٢) Africa Africa p 24
(٣) الإصحاح السادس : ٥ — ٩ .
(٤) Ina Corinne Brown op. Cit p 25

ورقيق بالطبع ، وذكر أفلاطون فى الجمهورية الفاضلة طبقات المجتمع ، وقرر حرمان العبيد حق المواطنة ، وإجبارهم على الطاعة والخضوع لسادتهم ، ووافقه أرسطو على ذلك وقرر أيضاً أن وظيفة العبيد تحصيل الثروة للسادة[1].

وقفزت هذه الأفكار إلى العصر الحديث فقال بها مونتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٥٥) وهو من أكبر فلاسفة الفكر الفرنسى ، ومن قوله فى ذلك : إن لنا حقاً مكتسباً فى اتخاذ الزنوج عبيداً . . . إن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يعد أمامها إلا أن تستعبد شعوب إفريقية لكى تستخدمها فى استغلال هذه الأقطار الفسيحة ، فما هذه الشعوب إلا عناصر سوداء البشرة من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، ولا يمكن أن نتصور أن الله جلت قدرته ، وهو ذو الحكمة السابغة ، يضع روحاً طيبة فى مثل هذا الجسم الحالك السواد[2] .

وعلى هذا بدأ البرتغاليون هذه التجارة الشرهة ، وأهملوا التجارة فى السلع الأخرى لأن البرتغاليين سرعان ما وصلوا فى اكتشافاتهم إلى الجانب الشرقى من إفريقية ، ومنه واصلوا سيرهم حتى شبه الجزيرة الهندية التى ركزوا فيها اهتمامهم ووجدوا بها ما يطمعون فيه من ثروات ، ولم تعد إفريقية فى نظرهم إلا محطة وصول إلى الهند ، وإلا مزرعة للرقيق ، وكان الأسبان آنذاك قد وصلوا إلى الدنيا الجديدة ، وبدأوا هناك يزرعون قصب السكر والدخان ، ولكنهم شعروا أنهم فى احتياج إلى الأيدى العاملة ، وفى نفس الوقت أبدى البرتغاليون استعدادهم لتقديم الأيدى العاملة إلى الأسبان بأمريكا ، وسرعان ما عقد الطرفان اتفاقاً بذلك ، وبدأت شحنات العبيد الإفريقية تسير إلى المزارع الأسبانية بأمريكا منذ مطلع القرن السادس عشر .

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى حديثنا عن الرق وموقف الإسلام منه فى كتابنا الاسلام من سلسلة مقارنة الأديان .

(٢) روح القوانين

وسرعان ما اكتشفت الدول الأوربية الأخرى ما فى هذه التجارة من ربح وفير ، فراحت تنافس البرتغاليين فى هذا الشأن ، وعلى هذا تقدمت هولندا وفرنسا وانجلترا إلى هذا الميدان ، ثم تندمت الدانمرك ، وأخذت بريطانيا مكان القمة فى هذه التجارة ، ومما ساعد على ذلك أن البرتغال ضعفت سلطاتها فى الميدان الإفريقى لأن المستعمرات الهندية استولت على كل نشاطها ، وفى نفس الوقت زاد الطلب على الرقيق الإفريقى بسبب المزارع الواسعة التى اكتشفها الأسبان أو التى اكتشفها البريطانيون فيما بعد ، وهكذا أصبحت بريطانيا عماد هذه التجارة ، لأنها تحتاج إلى الرقيق لمزارعها بالدنيا الجديدة ، وهى سيدة البحار ورائدة الاستعمار ، فاتجهت لجلب الأرقاء من إفريقية لمزارعها بأمريكا حتى وصل إلى ممتلكاتها فى المدة بين سنة ١٦٨٠ وسنة ١٧٨٦ أكثر من مليونين من الأرقاء الإفريقيين ، كما وصلت أعداد ضخمة إلى المستعمرات الأخرى عن طريق تجار الرقيق الآخرين ، ومن الواضح أن ما وصل كان لا يزيد عادة عن نصف ما يشحن من شواطىء إفريقية ، أما النصف الآخر فكان يموت فى الطريق ، وهذا يبين لنا العدد الضخم الذى استنزف من القارة ، ويقدره بعض الباحثين بحوالى ثمانين مليوناً من الأفراد [١] .

وكان التنافس بين الشركات الأوربية فى هذه التجارة يدفعها إلى أن تضع كل شركة علامة خاصة على رقيقها كما توسم الماشية ، وكانت هذه السمة حرقاً فى مكان خاص من أجساد الرقيق .

والآن ينبغى لنا أن نتعرف على بعض مظاهر هذه التجارة بأن نورد أوصافاً لبعض مراحلها المختلفة ، حتى يتم لنا تصور قسوة الإنسان على الإنسان :

صيد الرقيق :

ذكرنا من قبل أن الرق كان معروفاً فى إفريقية وفى العالم كله ، فى الخدمة

---

(١) دكتور رياض زاهر : الاستعمار الأوربى لإفريقية ص ٧٠ .

المنزلية وفى أعمال الحراسة وغيرها ، وكان الرقيق يعد فى البلاد العربية جزءاً من الأسرة فى كثير من الأحوال ، وقد عبر الشاعر العربى عن ذلك بقوله :

ما هو عبد لكنه ولد خوّلنيه المفرد الصمد(١)

وقد ارتبط السادة بالعبيد ارتباطاً قوياً ، وتسلسل أولاد العبيد يقومون بنفس الدور فى بيوت السادة ، وقد كان السيد يأنف أن يبيع عبده ، وكان هؤلاء العبيد يعاملون معاملة طيبة كأنهم أعضاء فى الأسرة ، وكثيراً ماتبوءوا مناصب هامة(٢) .

ثم جاء الاستعمار الأوربى فأغرى الأوربيون بعض السلاطين بما قدموه لهم من سلاح وخمور ولذائذ نظير أسرى حرب يكونون لدى السلاطين ، أو نظير عبيد يكونون قد ارتكبوا جريمة يستحقون عليها العقاب فيباعون عقاباً لهم على ذلك .

ولكن ذلك لم يكف المستعمر الأوربى ، فراحوا يخلقون الوسائل لينالوا عن طريقها مزيداً من العبيد ، فأشعلوا نيران الحقد والحرب الأهلية بين القبائل حتى يتسنى لهم الحصول على الأسرى ، وقدم الاستعمار آلات الفتك لهؤلاء ، وأولئك لتشتد الحروب ، وكان رئيس القبيلة أو بعض المغامرين يتعاقدون على تسليم عدد من الأسرى نظير سلاح وآلات ترف ، فإذا عجز هؤلاء عن الحصول على العدد المطلوب عن طريق الحرب ، بدأوا خطوة جديدة لصيد الرقيق ، هى الغارة لاختطاف النساء والأطفال الذين يقومون ببعض الأعمال الزراعية ، أو يحتطبون فى الغابة ، أو يباشرون بعض المرح فى ملاعب الصبا ، وقد قدم المستعمر وسائل الغارات ووسائل الإغراء ، وفى مرحلة أخرى دخل المستعمر قلب القارة وراح يغرى بالمزيد من الخطف

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٩١ .

(٢) Ina Corinne Brown : The Story of the Negro p. 40

والعدوان أو يشترك فيه بنفسه حتى أصبحت القارة وكأنها صائد وصيد ، وكان كثير من الإفريقيين يقاومون الأسْرَ بكل عناد وقوة ، فإذا وقعوا أسرى تمردوا على آسريهم ما وسعتهم الحيلة ، فإذا فشلوا فى تمردهم نجد منهم من يفضلون الانتحار على الرق فيلقون بأنفسهم فى الماء ليغرقوا أو يضربون عن الطعام حتى الموت(١) .

سوق الرقيق :

كان الرقيق يعرض فى سوق عام فى هيئة دائرة ، وكان الرجال يقفون وحلهم ووجوهم نحو مركز الدائرة ، وكان بعضهم يعجز أحياناً عن الوقوف من قسوة ما عاناه من جوع وعنف على طول المسافة ، بين مقرة فى القارة ومكان السوق على الساحل ، وفى وسط الدائرة كان يقف تجار الرقيق الذين جاءوا لشراء هذه المعروضات ، ويتقدم مندوبوهم ليتحسسوا السلع البشرية المعروضة ، أما البنات والسيدات فكن يقفن صفوفاً ويتقدم تجار الرقيق منهن فيتحسسونهن ، وكان ذلك يعرّض الفتيات لألوان من المهانة تقشعر لها جلودهن ، ولكن النخاسين كانوا يعتدون بقسوة على كل امرأة تعارض من يريد أن يتعرف عليها ، ويتحسس جسمها ، وطالما شهدت زنجبار وبلاد السنغال مثل هذه الأسواق التى ليس بها من سلع إلا السلع البشرية .

رحلة الرقيق :

بعد شراء الرقيق فى حلبة السوق تبدأ مرحلة أخرى من مراحل هذه المذلة ، وهى نقل الرقيق من سواحل إفريقية إلى الأرض الجديدة ، وكانت الشركات المتاجرة فى الرقيق تبذل جهدها لتنال ربحاً أوفر ، ومن هنا فإن العبيد كانوا يحشرون حشراً فى السفن بحيث لا يجد الواحد منهم مكاناً لنومه

---

(١) Ina Corinne Brown : The Story of the Negro pp 18 ff

إلا فى صفوف متراصة بجوار بعضهم البعض ، وقد تبلغ شدة الازدحام درجة لا يتوفر لهم معها متسع لكى يستلقوا على ظهورهم ، وكثيراً ما سبب هذا الازدحام موت عدد من الرقيق فى خلال الرحلة ، وقد قدر هذا العدد بحوالى ½ المسافرين .

وكان الرجال يقيدون بقيود حديدية مثبتة فى السفينة ، ويتركون فى هذه الحالة إلى أن تبدأ السفينة رحلتها ، وقد يظلون كذلك طيلة الرحلة ، وإذا اكتشف ربان السفينة بعد قيامها أن عدد أفراد الشحنة يزيد عن طاقة سفينته ، فإنه لا يجـد مانعاً أن يتخلص من بعضهم بإلقائه فى البحر ، وكان الطعام الذى يقدم لهم ضئيلاً ورديئاً ، كما كانت المعاملة خشنة ، وقد يتمرد بعضهم على ذلك وكثيراً ما يعاقب بالجلد علناً ، أو بإطلاق الرصاص عليه نظير احتجاجه .

وهناك فى الأرض الجديدة ، كان أصحاب المزارع يتسلمون عبيدهم لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تعذيب الإنسان للإنسان .

معاملة الرقيق :

تقول Ina Corinne Brown إن مما لا شك فيه أن كثيراً من العبيد كانوا يعاملون معاملة قاسية ، إذ أن نظام الرق كان يدل على أن العبد إنما هو سلعة أكثر منه إنساناً ، وقد اختلفت القوانين التى وضعت لتنظيم الرق ، ولكنها كانت متشابهة فى مبادئها الأساسية ، فقد حرمت هذه القوانين بصفة عامة امتلاك الرقيق للعقارات أو الحيوانات الأليفة ، وكان من حق السيد أن يبيع عبيده أو يورثهم كمتاع ، وفى بعض الولايات لم يكتف السيد بجلد عبيده إذا أخطأوا ، بل كان يدمغهم بالنار ، ويشوه أجسادهم ؛ وإذا هرب أحد العبيد كان القانون يعتبره طريد العدالة ، وكانت هناك قوانين تمنع العبد من مغادرة مزارع سيده دون تصريح ، أو الاجتماع بزملائه لأى

سبب دون حضور رجل أبيض ، وفى بعض الحالات كان يحرم عليه تلقى الدراسات الدينية ، وتعلم القراءة والكتابة ، وكان للسيد أن يأمر بقتل عبده إذا رأى ذلك ، وظل هذا معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر(١) .

ويذكر الباحثون قصصاً أليمة من هذا النوع فسير دندس من رجال السلك السياسى البريطانى يذكر أن هناك بريطانيا من أسرة عريقة مزّق جسم خادمه الإفريقى بالرصاص وقال فى سبب ذلك (إن الشقىّ الأسود قدّم إلى قشدة رديئة مع الكعك) وهناك بريطانى آخر ظل يضرب بالسوط إفريقياً يعمل عنده حتى فقد وعيه ثم مات بعد قليل ، وكان السبب أن البريطانى كلّف العبد أن يصحب فرساً إلى محطة السكة الحديد على بعد ثلاثين كيلو متراً ، ولكن الإفريقى المسكين ركب الفرس فكان جزاؤه الموت ، وأمثال هذه القصص كثيرة متكررة .

وهناك نوع آخر من العقوبة ربما كان أشد من الموت ، ففى غرناطة عندما رأى السادة أن عبيدهم الإفريقيين يمتصون قصب السكر ، راحوا يعالجون المسألة من جذورها فاقتلعوا أسنانهم(٢) .

الرقيق فى المزرعة :

تقتبس الكاتبة Ina Corinne(٣) صوراً ترينا حالة الرقيق فى المزرعة ، ولعل هذه الصور متشابهة فى أكثر الحالات ، فهى تروى أن سيدة انجليزية متزوجة من مُزارع من جورجيا يعمل فى زراعة الأرز والقطن ، قامت بزيارة مزرعة زوجها ، وهناك وجدت منزلا صغيراً صاخباً فى حالة

---

(١) Ina Corinne Brown : The Story of the Negro p 60

(٢) Sit : The Story of Black Africa p. 118

(٣) Ina Corinne : Ibid p. 80

سيئة ، ومشرفاً زراعياً ضجراً بجانب زوجته الطيبة الخجولة عديمة التأثير ، ووجدت بضع مئات من العبيد البدائيين الجهلة الأفظاظ مجتمعين فى أماكن متفرقة من المزرعة الشاسعة ، وكان الأطفال يعانون من الاتساخ والإهمال بالغى المدى ، كما كانت مساكنهم قذرة وغير مفروشة ، وكان المرضى منهم ينامون على الأرض ، وليس عليهم من أغطية وافية سوى بطاطين مهلهلة ، ولم يكن لدى هؤلاء العبيد ملابس مناسبة ، ولا مواد غذائية كافية ، وكان النساء يُضربن بالسياط ، والروابط العائلية غير محترمة ، والخسة والقذارة والغباوة منتشرة بينهم ، وقلّما كان السيد يزور هذه المزرعة ، ولم تستطع هذه الزوجة أن تعود لهذه المزرعة ، بعد أن رأت هذا الهوان لبنى الإنسان .

ويمكن أن نقرر أن هذه الصورة كانت واسعة الانتشار ، وأن حسن معاملة العبيد إن وجدت أحياناً كانت تعد نوعاً من الشذوذ غير المتوقع .

من آثار تجارة الرقيق :

٥

إن آثار الرق كانت فوق ما يتصور الإنسان ، فالحروب التى اشتعلت بين القبائل فى كل مكان بالقارة دمرت كل شىء ، وأوقفت كل نشاط ، فقد عرّضت أوربا كل صناعاتها مقابل العبيد ، ومن هنا لم تكن هناك حاجة لإقامة صناعات بإفريقية ، وأخذ كثير من الفنون والحرف فى الاضمحلال والتلاشى ، مثل الأعمال البرونزية ، والحفر على الخشب ، ومن يدرى كم من حفارى الخشب ، والنساجين ، وعمال المعادن قُتلوا فى الحروب ، أو أرسلوا عبر البحار ، ليعملوا فى تقطيع قصب السكر فى جزر الهند الغربية ، ليس هذا فقط ، ولكنه لم يكن فى استطاعة أحد أن يجزم بما إذا كانت قريته سوف تبقى قائمة غداً ، فلقد كانت الغارات من أجل العبيد تحدث ليلاً ، فتحرق البيوت ، ويُؤخذ الناس عبيداً ، بعيداً عن ديارهم ؛ فماذا كانت فائدة التخطيط للمستقبل أو للزراعة أو بذل المجهود من أجل

أعمال جيدة إذا لم يكن هناك أى أمل لتحقيق ذلك ؟ كل ما كان يستطيع المرء أن يعمله هو أن يعيش من يوم إلى يوم دون أى تفكير أو تخطيط للمستقبل .

وتجارة الرقيق لم تترك آثرها فى تفسخ المجتمعات الإفريقية فقط ، بل إنها تركت آثاراً نفسية عميقة تبدو فى الشك والريبة والحذر بل العداء الذى يكنه الإفريقى الزنجى للأوربى ، والذى يطبع علاقاته بكل أبيض يقابله .

وكثير من الإفريقيين المتعلمين يعتقدون أن هذه التجارة هى السبب فى هذا التأخر الشديد الذى انحدر إليه قومهم بعد أن كانت لهم ممالك مزدهرة ذات حضارة متقدمة مثل الممالك الإسلامية التى ذكرناها ، ومثل ممالك اليوروبا وبنين فى القرون الحادى والثانى والثالث عشر[١] .

تحرير الرقيق :

٥ إن القرون التى شهدت الرق ، جعلت سيرته بشعة ورائحته كريهة ، وحركت كثيراً من الكتاب والمفكرين للقضاء على هذا العسف والطغيان ، ولكن ذلك فى الحقيقة لم يكن كافياً للقضاء على الرق ، حتى حدث شىء لم يكن فى الحسبان فوضع الخطوة الأولى للقضاء على هذه الجريمة البشعة ، ذلك أن أمريكا كانت أكبر المستعمرات البريطانية ، وكانت حقل إنتاج بريطانى يستوعب الغالبية العظمى من رقيق إفريقية ، ثم حصلت أمريكا على استقلالها فى يوليو سنة ١٧٧٦ ، وكانت زراعة القطن فيها قائمة على أكتاف الزنوج ، وأراد الإنجليزية ضرب الاقتصاد الأمريكى ، فأعلنوا مقاومتهم لتجارة الرقيق ، حتى يمنعوا اليد العاملة الرخيصة عن أمريكا عقاباً لها على تمردها من جانب ، وحرصاً على الكيان الاقتصادى البريطانى من جانب

(٢) أحدو بلو زعيم من نيجيريا للأستاذ عبد الرحمن صالح ص ١٩ .

آخر ، لأن وجود الرقيق بأمريكا كان يساعدها على أن تنتج إنتاجاً رخيصاً لا يقوى الإنتاج الإنجليزى على منافسته ، ثم إن بريطانيا بعد أن فقدت أمريكا اتجهت إلى إفريقية ، وأرادت أن تحتفظ باليد العاملة بها ، لتكون هذه اليد فى خدمة الاستعمار البريطانى بإفريقية .

ذلك هو السبب الحقيقى لصرخة بريطانيا ضد تجارة الرقيق ، ولكن بريطانيا لم تعلن عن هذا السبب بطبيعة الحال ، وإنما لبست ثوب المُسوح ، وراحت تتحدث عن جرائم الرق ومنافاته للإنسانية ، وهكذا بدأت الصيحات الأولى لإيقاف تجارة الرقيق .

وهناك سبب آخر خفى أضمرته بريطانيا وهى تتظاهر بالدفاع عن الإنسانية ، ومحاربة تجارة الرقيق ، ذلك السبب هو أن تتسلط بريطانيا على مقدّرات إفريقية باسم مقاومة تجارة الرقيق ، فقد راحت تعقد المعاهدات مع السلاطين والزعماء لتقضى على هذه التجارة ، وتولت جيوشها مكافحة هذا الداء ، واتخذت ذلك وسيلة لتتسلط على القارة ولتمد لها نفوذها الاستعمارى ، وأصبح لبريطانيا السلطان داخل البلاد ، فحكمت بالرق على الإفريقى فى بلاده ، وكان من قبل رقيقاً خارج هذه البلاد .

هذه هى الدوافع الحقيقية لموقف بريطانيا من تجارة الرقيق ، ثم جاءت الثورة الفرنسية فتأثرت بظاهر الحركة البريطانية وبالحس الإنسانى الذى كان يهدر مقاوما بيع الإنسان للإنسان ، فأصدرت هذه الثورة قراراتها سنة ١٧٨٩ بالمساواة ومنع تجارة الرقيق ، وأصدرت الدانمرك مرسوماً سنة ١٧٩٢ بإبطال تجارة الرقيق على رعاياها ، وأعطت فرصة أقصاها عشر سنوات ليقوم التجار الدانمركيون بتصفية أعمالهم فى هذه التجارة ، وحرّمت الولايات المتحدة الأمريكية استيراد الأرقاء سنة ١٧٩٤ ، ثم منعت الاتجار بالرقيق سنة ١٨٠٧ ، وأصدرت بريطانيا قراراً بتحريم تجارة الرقيق سنة

١٨٠٧ وحرّمت البرتغال تجارة الرقيق سنة ١٨١٥ ، وحددت سنة ١٨٢٣ موعداً لرعاياها لتصفية أعمالهم ، ولكنها مدت هذا الموعد إلى سنة ١٨٥٠ ، ونشطت انجلترا وفرنسا لتحريم صيد الرقيق ، واتفقت الدول على معاقبة من يخرج على هذا القرار ، بل خطت الدول خطوة أخرى لتحرير الأرقاء ومنحهم الحرية فى كل البقاع ، ثم خطت انجلترا وأمريكا خطوة أخرى فأعادوا بعض الأرقاء بعد تحريرهم إلى إفريقية حيث الجو الذى يناسبهم ليكونوا بها مستعمرات تلائمهم فى الوطن الأم ، فأعادت بريطانيا بعض الرقيق إلى منطقة سيراليون ، وأعادت أمريكا بعض الرقيق إلى منطقة ليبريا . وكان ذلك بعد اختراع الآلات التى حملت كثيراً من عبء العمل عن الإنسان .

بعد التحرر :

تركت فترة العبودية آثاراً عميقة فى نفس الرجل الأسود وسلوكه ، فقد رباه السادة البيض طيلة قرون العبودية فى جو من القذارة والجوع والتبعية والخوف ، فلم يكن يعرف الإبداع أو يحتاج لبعد النظر ، فلما تحرر الإفريقى وترك بلا تجارب وبدون تعليم كان طبيعياً أن يظهر منه أحياناً العجز أو الإهمال ، ولما كان قد اعتاد عدم الملكية فإننا نراه بعد التحرر لا يعبأ بالملكية ويبدد ما بيديه ، ولم يكن له تحت نير العبودية أسرة وأولاد فأصبح بعد التحرر يضيق بمسئوليات الأسرة والأولاد .

ذلك هو الطابع العام لكثير من الإفريقيين الذين استعادوا حريتهم ، والعجيب أن الرجل الأبيض أصبح يعد هذه الصفات طابع الزنجى ويحسبها عاراً فيه ، ونسى أنه هو الذى غرس هذه الصفات فى الزنجى ، وأنه الذى حرمه سبيل الحياة الشريفة والفكر السليم .

وهناك نقطة خطيرة عن الإفريقيين المسلمين الذين سيقوا عبيداً إلى الدنيا الجديدة ، فإن هؤلاء تحت ضغط السيد الأبيض نسوا تراثهم الإسلامى ، وجاء

بعدم أولادهم وأحفادهم فلم يعرفوا من الإسلام ولا اسمه، فإذا قُدِّم للرقيق أى زاد روحى فذلك عن طريق المسيحية كما يراها الرجل الأبيض ، وهكذا كانت الخسارة مضاعفة بالنسبة للإسلام ، فقد كان استرقاق المسلم يعنى حسبانه من الوثنيين ومعاملته على هذا الأساس ، وعندما أعيدت الحرية لحفيد هذا الإفريقى لم يعد له دين أجداده وعقيدة قومه فى شرقى القارة أو غربيها ، لأنه كان قد أصبح شديد البعد عن هذا الدين وعن تراثه واتجاهاته . ولعل مما أكد ذلك أن المستعمر كان حريصاً أن يخلع الإفريقى عن ماضيه ، فكان لا يجمع فى مكان واحد بالأرض الجديدة رقيقين يتكلمان لغة واحدة أو يربطهما دين واحد أو أرومة واحدة لأن عزل الإفريقى عن ماضيه كان أساساً لحياة الرق التى أرادها الرجل الأبيض للرجل الأسود .

الاستعمار والأديان

أدرك أكثر الخبراء وعلماء مقارنة الأديان المسيحيون أن الغريزة الدينية موجودة دائماً ، وأنها أكثر قوة ويقظة عند من يواجهون قوى الطبيعة فى آسيا وإفريقية لأن تعرضهم للأعاصير والجفاف والسيول والأعداء . . . يجعلهم دائماً يهرعون إلى الله ولا يجدون ملاذاً سواه ، وهنا يقوى الغريزة الدينية عندهم ، كما أدرك هؤلاء الخبراء أن الغريزة الدينية رباط أقوى فى تماسكه وتعاونه من رباط الدم والجنس والوطن[1] .

كانت هذه المعارف أساساً لنشر المسيحية بإفريقية ، ففى إفريقية كان الناس غالبا يواجهون قوى الطبيعة ، ومن هنا كانت غرائزهم الدينية قوية يمكن توجيهها إلى اعتناق دين معين ، وكان الأوربيون يقصدون خلق روابط يستغلونها فى عقد صلات المنفعة بالإفريقيين ، ومن هنا اتجهوا لنشر المسيحية ، فلم يكن نشر المسيحية مقصوداً لذاته ، وإنما كان المقصود أن يتخذوا الدين وسيلة لاستغلال الأرض وسكان الأرض ، لأن المبشر نفسه — كما سنرى فيما بعد — لم يكن يتمسك بالدين ولا يدين به ، حالُهُ فى ذلك حال من أرسله ومن أنفق عليه .

وهناك جانب آخر يتصل بالأديان ذلك هو محاولة الأوربيين الوقوف فى وجه الإسلام ، فالإسلام منذ مطلعه اقتحم كثيراً من المستعمرات الأوربية وحررها وانتشر بها ، كما فعل بالنسبة لمصر وسوريا وشمالى إفريقية ، ثم اقتحم أوربا واجتاح الأندلس وتخطى حدودها إلى فرنسا ، فلما أفاقت أوربا من غفوتها قامت تصارع الإسلام ورأت حضارته دماراً لها ، فردته عن القارة الأوربية ، واقتحمت عليه إفريقية ومن هنا كان نشر المسيحية

---

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى للمؤلف ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ من الطبعة الخامسة .

ضروريا عند الأوربيين ، لا من أجل المسيحية نفسها ، ولكن لإضعاف الإسلام ، وشغله فى دياره بمعارضين من بيئته ، ومن أجل هذا يرى الباحثون المسلمون أن نضال الدول المسيحية بإفريقية للدول الإسلامية هو فى الحقيقة حروب صليبية وإن لم تتخذ الصليب شارة بارزة لها .

واتجهت أوربا كذلك إلى أن تحاول السير بإفريقية فى مدارها من ناحية اللغة ، فلم تكن فى إفريقية لغات ذات بال غير العربية ، فعملت أوربا على القضاء على هذه اللغات واللهجات الإفريقية ، وأصبحت لغة المستعمر هى لغةَ القوم ، ولغةَ الثقافة ، بل لغةَ الحاجات اليومية فى كثير من الأمكنة ، وكانت معرفة اللغة الأوربية وشىء من الحضارة الأوربية ، واعتناق الدين المسيحى وسائل تقفز بالإفريقى وتجعله موضع ثقة المستعمر ، ومكان اهتمامه .

واتجهت الدول المستعمرة إلى انتزاع المواطن الإفريقى من ماضيه ومن حضارة قومه ، فإذا قدمت له شيئا من العلم فهو تاريخ البلد المستعمِر ، وجغرافيته ومبادئه وقوانينه ، وتاريخ أبطاله وقادته ، حتى يحس الإفريقى فى المستعمرة الفرنسية بأنه جزء من فرنسا ، وفى المستعمرة الإنجليزية بأنه رضيع الفكر الإنجليزى وهكذا .

بيد أن إحساس الأوربى تجاه الإفريقى كان إحساس الإنسان بالنسبة للآلة ، فالإفريقى وإن تعلم لغة القوم وحضارتهم واعتنق دينهم لم يكن لديهم إلا أداة تنفذ أغراضهم ، وتكون لسانا لهم بين مجموعات السود ، فقد أدرك الأوربى أن الأسود قد يكون أيسر قيادة لقومه من الأوربيين .

ذلك هو الأساس الذى اتبعه الأوربيون فى المجال الروحى والفكرى وقدموا به المسيحية للرجل الإفريقى ، ولنعد بعد إيضاح هذا الأساس لنذكر بعض التفاصيل عن سير التبشير بالمسيحية فى القارة الإفريقية وفى المنطقة

التى نتحدث عنها بوجه خاص ، ولنعتمد فى هذه الدراسة على مقتبسات مما كتبه Hubert Deschamps الذى كان حاكماً للمستعمرات الفرنسية حتى نهاية هذه المستعمرات .

يقول هوبير ديشان(١) : إن البرتغاليين عندما أتموا استكشاف سواحل إفريقية أسسوا مستعمرة على الساحل المعروف اليوم بساحل الذهب كما أسسوا مراكز للتبشير فيها ، وأما على الساحل الشرقى فقد وقف الإسلام حائلا دون نشر المسيحية ، وقد حاول الآباء اليسوعيون محاولات فى هذا الشأن ، ولكنها باءت بالفشل ، ودخل الأسبان ميدان التبشير فأرسلوا عدة بعثات تبشيرية ، ولكن ملك داهومى طرد هذه البعثات من بلاده ، وقام الفرنسيون بجهود تبشيرية كبيرة ، ولكن لم يبق منها إلا نواة صغيرة فى مدينة سان لويس ، وعندما جاء القرن التاسع عشر لم يكن للمسيحية قدم ثابتة فى مكان ما بإفريقية ، إذا استثنينا نقطاً ضئيلة على الساحل ، وإذا استثنينا كذلك جنوبى إفريقية التى كانت هدفاً لنشاط تبشيرى متعدد الجهات اشتركت فيه أمريكا وفرنسا وهولندا وإنجلترا .

وفى سنة ١٨٤٠ سمحت إنجلترا لأحد المبشرين الألمان بأن يؤسس فرعاً لجمعية التبشير الكنائسى فى مدينة ممبا ، وفى سنة ١٨٦٠ أسست بعثة كاثوليكية للتبشير مركزاً لها فى مدينة بوجا مايو على الساحل المواجه لجزيرة زنجبار ، ولكن جميع هذه الجهود لزمت الساحل ، ولم تستطع التوغل فى الداخل إذ كان بالداخل محيط إسلامى قوى ، وعندما امتد النفوذ الاستعمارى إلى منطقة البحيرات ومنابع النيل ، يسر المستعمرون للبعوث التبشيرية النفاذ إلى داخل البلاد ، وينبغى أن نذكر المبشر الفرنسى القد الدكتور شيفايتزر Shweitzer فقد كان هذا الطيب موسيقياً بارعاً ،

---

(١) هوبير ديشان : الديانات فى إفريقية السوداء ص ١٥٥ وما بعدها .

وفيلسوفاً حكيماً ، اعتزل العالم بقرية فى جابون ، وأسس بها مستشفى لمعالجة السكان هناك ، وكان نواة للتبشير المسيحى فى هذه المناطق .

وفى غربى إفريقية نزلت بعثة سويسرية للتبشير فى ساحل الذهب ، كما أسست كنيسة مستقلة محلية فى ساحل العاج ، وفى سنة ١٨٤٤ أسس بنيجيريا فرع لجمعية التبشير الكنسية ، كما عملت عدة بعثات لنشر المسيحية على ساحل جنوبى نيجيريا وفى شمالها ، واشترك الألمان فى إرسال بعثات تبشيرية إلى إفريقية فى منطقة توجو قبل الحرب العالمية الأولى ، واشترك عدة مبشرين من الإنجليز والأمريكيين بشىء من النشاط فى المنطقة الفرنسية مع البعثة التبشيرية الفرنسـية ، وكان لجماعات روح القدس مراكز فى السنغال .

وإلى جانب بعثات المبشرين كانت هناك بعثات تبشير نسوية حاولت نشر المسيحية بين النساء بإفريقية ، ومنها « إرساليات الراهبات البيضاوات » و « راهبات سيدة الرسل » و « الراهبات الزرقاوات » و « راهبات روح القدس » ، وقد اتخذت هذه البعثات من بلاد السنغال مركزاً لها .

وهكذا اشترك فى نشر المسيحية بإفريقية أكثر الأمم المسيحية ، فالكاثوليك وعلى رأسهم بلجيكا وفرنسا والبرتغال وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا ، والبروتستانت وأهمهم الإنجليز والسويسريون والأمريكان والألمان ، اشتركوا جميعاً فى هذا الزحف ، ولكنهم أخذوا معهم التعصب الدينى الذى لا يتفق وعادات التسامح عند الوثنيين ، وخاصة على ساحل غينيا ، وهذا التعصب كان من أسباب تثاقل نشر المسيحية كما ترك بذوره بين الإفريقيين الذين اعتنقوا المسيحية .

وقد عمدت المسيحية إلى دراسة العقائد الوثنية بإفريقية لتستغل بذورها

وتجعل عاداتهم القديمة عادات مسيحية ، وهذا — مرة أخرى — يبين لنا أن نشر المسيحية لم يكن هدفا لذاته ، بمقدار ما كان وسيلة للارتباط السياسى بالإفريقيين .

ويمكن القول إن البعثات التبشيرية من هذا المذهب أو ذاك رجالا كانت أو نساء لم تحقق أى نجاح طالما كان اهتمامها متجهاً للتبشير الدينى فقط ، ولذلك اتخذت خطوة مهمة بالتعاون مع السلطات الاستعمارية ، وهى أن تُترك لهذه البعثات مجال التعليم والخدمات الطبية ، ومن هنا فتحت هذه البعثات المدارس والمستشفيات ، وبذلك استولت على مادة من البشر أصبح من السهل التحكم فيها ، فالطفل فى المدرسة ملتزم بقبول توجيه أساتذته ، وقد وجد نفسه يمارس بعض الطقوس الدينية التى انغرست فيه من يوم إلى يوم ، وكان رفض الانصياع للطقوس الدينية معناه الفصل من الدراسة ، والمريض ضعيف المقاومة ، محتاج إلى العطف والابتسامة والدواء مع الزاد والأمل ، وكل هذا قدمته البعثات التبشيرية ممزوجاً بالمسيحية . فإذا أضيف إلى ذلك نفوذ المستعمر ، وما قدمه للمسيحيين الإفريقيين من وظائف ووسائل التشجيع أدركنا الأسباب الحقيقية التى حملت المسيحية لبعض الإفريقيين .

المسيحية بجنوب السودان :

ولعلنا هنا ينبغى أن نعطى بعض التفاصيل عن أمر التبشير بجزء من بلادنا ومن المسلم به أن اتصال مصر بالسودان ربطهما على مر الأجيال ثقافياً وحضارياً ، فلقد دخلت المسيحية إلى السودان عن طريق مصر قبل الإسلام ، ثم دخل الإسلام للسودان عن طريق مصر كذلك ، على أن هناك جولة أخرى لمصر فى السودان من الناحية الإسلامية ، تلك هى العناية الكبرى التى وجهتها السلطات المسلمة للسودان فى القرن التاسع عشر ابتداء من العلماء

الذين صحبوا جيش مصر فى عهد محمد على وما تلا ذلك من مواقف مماثلة ، على أن التبشير المسيحى بدأ يخطو نحو ممتلكات مصر فى جنوب الوادى عندما كان النفوذ السياسى بهذه البقاع فى يد الموظفين الإنجليز الذين استخدمهم إسماعيل ، ولكن الثورة المهدية وضعت نهاية للتبشير المسيحى بهذه المناطق وساد الفكر الإسلامى فى كل هذه الربوع ، بيد أن الثورة المهدية لم تمتد للجنوب ، ثم إنها كانت قصيرة العمر . وسرعان ما أعقبها ما سمى بالفتح المصرى الإنجليزى الذى كان فى الواقع استعماراً إنجليزياً ، وفى خلاله نفّذت إنجلترا بجنوب السودان المخطط الاستعمارى الذى أشرنا إليه آنفا ، فأوفدت بعثات التبشير إلى الجنوب ، وتركت لها شئون التعليم وشئون الصحة ، وأيدتها بما تحتاجه من مال ونفوذ ، وقد استطاعت هذه البعثات أن تخلع الجنوب من الشمال فى اللغة والدين والحضارة ، وأشاعت بين سكان الجنوب أن صلة شمالى السودان له ليست إلا صلةً استعمارية . فلما انتهى الاستعمار البريطانى من كل هذه البقاع ، ورحل الجندى الإنجليزى عنها ، ترك بالجنوب المبشِّرَ المسيحى بكل سلطانه ونفوذه ، وأدركت حكومة السودان خطر اتجاهات هذه البعثات التبشيرية ، فأصدرت سنة ١٩٦٤ قراراً بتأميم التعليم والمستشفيات ، ومعنى هذا قطع الصلة بين البعثات التبشيرية وكنائسها من جانب ، وبين المؤسسات العلمية والصحية من جانب آخر ، وأخذت حكومة السودان تدير هذه المؤسسات بما يحقق مصلحة السودانيين جميعا ، ولكن هذا القرار كان ضربة قاصمة للنفوذ التبشيرى ، فقد سبق أن ذكرنا أن التبشير المسيحى لم ينجح إلا عن طريق المدرسة والمستشفى ، فإذا عُزِل فى الكنيسة فإنه لن يجد من يطرق بابه من المواطنين .

وقرر الاستعمار ممثلا فى التبشير بالسودان أن يثور على هذا القرار الذى اتخذته الحكومة الشرعية ، وأن يتخذ الكنائسَ مراكز لهذه الثورة

والدين وسيلة للصراع ، فخطت حكومة السودان خطوة أخرى بأن أممت الكنائس أى جعلت الإشراف عليها للهيئات المسيحية السودانية ، فزادت ثورة المبشرين اشتعالا وتوهجا ، وقاد المبشرون جموع الثائرين من أتباعهم إلى الغابات ، فظهروا بذلك على حقيقتهم من موقفهم العدائى ضد الشعوب الإفريقية ، وطال الصراع بين المبشرين وبين الحكومة السودانية الشرعية وجلب المبشرون بعض القادة الأوربيين الذين يجيدون حرب العصابات « للمرتزقة » ، وفى يونيو سنة ١٩٧١ استطاعت الحكومة السودانية أن تقبض على قائد ألمانى من قواد هذه الحركة واسمه « شتاينر » وحاكمته أمام القضاء فاعترف فى شهر أغسطس أنه يتزعم الحركات الانفصالية بجنوب السودان ، وأن إسرائيل تدرب المتمردين وتمدهم بالأسلحة ، وأن الفاتيكان يدفع بعض تكاليف عمليات العصيان ، وكان هذا وصمة صارخة تطبع جبين التبشير المسيحى فى قارة إفريقية .

واستكمالا لهذه الدراسة أقرر أن لى تجربة خاصة بهذا الموضوع ، فقد ذهبت معاراً من جامعة القاهرة لجامعة أم درمان الإسلامية التى قُصِد بها أن تكون فى الجنوب مركزاً إسلامياً ضخماً يماثل الأزهر من شمالى القارة ، وكنت أطمع أن أقابل بين طلاب الجامعة عدداً من جنوبى السودان ، ولكن هذا الأمل كان بعيد التحقيق فسكان الجنوب لا يعرفون اللغة العربية غالباً ، ولا يصل مستوى المسلمين منهم إلى أن يؤهلهم للالتحاق بالجامعة ، وعند كتابة هذه السطور كانت الكلية الإسلامية بأم درمان تباشر النشاط التى باشرته جامعة أم درمان حينا ، وأرجو أن يعرف بعض طلاب الجنوب طريقهم إليها ليكونوا خير دعاة بين أهليهم عندما يعودون إلى الجنوب .

أسباب فشل التبشير المسيحى بإفريقية :

هناك أسباب مهمة جعلت التبشير المسيحى بإفريقية قليل الجدوى وبخاصة

فى المناطق التى كان الإسلام قد سبق إليها ، وقد سبق أن ذكرنا بعض هذه الأسباب وهنا نعود فنبرز أهمها فى النقاط التالية :

١ ـ وفد المبشرون بالمسيحية فى أعقاب المستعمرين ، وتدخلوا فى السياسة ، ورأى الإفريقيون هؤلاء الأوربيين يمارسون التفرقة العنصرية ، وتجارة الرقيق ، والسخرة ، وأبشع أنواع الاستغلال ، فى الوقت الذى يبشرون فيه بدين يحض على التسامح والمحبة والسلام ، تلك المسيحية التى بشر بها السيد المسيح بين الطبقات الفقيرة الكادحة والتى لا تعرف تميزاً عنصريا[١] .

٢ ـ جاءت المسيحية إلى إفريقية على أنها دين السادة ، فالمبشر المسيحى كان يعد نفسه فى منزلة أرقى من منزلة تلميذه ومريده ، فخلق ذلك جفوة بين الداعى والمدعو ، ولم يجذب لحلقة المعلم جموع المريدين .

٣ ـ عرف الإفريقيون بطريق أو بآخر فكرة الأدب المسيحى عن الزنوج ، ذلك الأدب الذى يهاجم الزنوج ويحطّ من أقدارهم[٢] .

٤ ـ كان المبشر الأوربى بعيداً عن الإفريقيين فى كل شىء ، فى عاداته وتقاليده وزيه وطعامه واتجاهاته الاجتماعية ، فلما استطاع بطريق أو بآخر تقديم المسيحية لبعض الإفريقيين انسلخ هؤلاء بالمسيحية عن مجتمعهم ، ووضعت المسيحية حداً فاصلا بين ماضيهم وحاضرهم ، فأصبحوا طبقة غريبة عن المجتمع لم تشجع الآخرين على الانضمام لهم ، وهذا ما يسميه بعض الباحثين بالطفرة المفاجئة ، وليس التطور التدريجى البطىء .

---

(١) دكتور فيليب رفله : الجغرافية السياسية لإفريقية ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(٢) Blyden : Christianity. Islam and the Negro Race p. 15

٥ ــ اتجه أغلب المبشرين إلى تملك الأرض واستغلالها بوساطة الرقيق ، وانصرفوا عن التبشير ، وفى كثير من الأحايين دخلوا فى سلسلة من المؤامرات فى سبيل الحصول على هذا الثراء ، وقد حدث أن دخل ملك الكونغو المسيحية ، وأمر شعبه باعتناقها ، ولكنه عندما رأى مؤامرات المبشرين البرتغاليين رفع شكاية إلى زميله ملك البرتغال ، ولكن هذا أصمّ أذنيه عن ذلك النداء ، وتخطى ملكُ الكونغو ملكَ البرتغال ، فأرسل بشكواه إلى البابا ، ولكن نداءاته ذهبت هباء فأعلن ملك الكونغو عداءه للرجل الأبيض ، وتخلّى عن المسيحية(١) .

٦ ــ اتخذت حركات التبشير الكاثوليكى جانب الاستعمار غالباً فى الصراع الذى قاده الوطنيون مطالبين بالحقوق الوطنية والاستقلال .

٧ ــ وعندما كان التبشير المسيحى يصطدم بالإسلام ، فإن نتيجة التبشير كانت معلومة تماماً ، فإذا كانت المسيحية بين الوثنيين أو اللادينيين قد استطاعت أن تجذب عدداً منهم لسبب أو لآخر ، فإنها وقفت أمام المسلمين عاجزة عجزاً كاملا ، وهذا هو السبب الذى ترتب عليه انتشار المسيحية الآن فى جنوبى إفريقية وليبريا وجابون ، وعجزها تماماً فى المناطق التى كان الإسلام واسع الانتشار بها ، وهناك محاولة تبشيرية حدثت فى الصومال إبان الاحتلال الإنجليزى إذ نزل عدد من المبشرين المسيحيين إلى البلاد واتخذوا لهم مركزين فى بربرة وديعولى ، ولكنهم أخفقوا تماماً فى نشر المسيحية ، ولم يستطيعوا أن يحملوا إليها أكثر من خمسين طفلا من اللقطاء والأيتام الذين لا عائل لهم ، ومع هذا فقد هاجمهم مسلمو الصومال لأنهم قادوا إلى الضلال هؤلاء الأطفال الأبرياء ، وكانت ثورةٌ نَقَلَ الاستعمار على أثرها هؤلاء المبشرين من الصومال إلى عدن(٢) .

---

(١) زاهر رياض : استعمار إفريقية ص ٣٥ و ٤٧ .

(٢) عبد الله المشد ومحمود خليفة : تقرير عن أحوال المسلمين فى بلاد الصومال وأريتريا وعدن ص ٨٨ ــ ٨٩ .

وهكذا فشل التبشير السيحى بإفريقية فشلا كبيراً ، فلم يكن المبشر فى الغالب أهلاً لهذه المكانة ، ولا كان الإفريقيون مستعدين للاستسلام لعقيدة الرجل الأبيض ، ثم إن المسيحية التى حملها السادة لم تكن المسيحية التى دعا لها عيسى عليه السلام بل كانت أشتاتاً من الأفكار والاتجاهات انتحلت هذا الاسم ، وأخيراً فإن السكان فى المنطقة التى نعنى بها كانوا مسلمين فى الغالب فحرسوا أنفسهم وحرسوا مواطنيهم من غير المسلمين من الانزلاق فى الخديعة التى حملها لهم الرجل الأبيض باسم الدين .

الاستعمار والتفرقة العنصرية

التفرقة العنصرية هي قوانين مختلفة يضعها المستعمر تقرر تفوقه الجنسي والحضارى على المواطنين الذين احتل بلادهم ، كما تقرر له — بناء هـذا التفوق — امتيازات لا يستمتع بها السكان الأصليون ، وربما كان فى وسع المستعمر أن ينال هذه الامتيازات بحكم سلطانه وقوته ، ولكنه أرادها حقوقاً ظناً منه أنه بذلك يخرجها من دائرة الغصب والسلب إلى دائرة الحق والشرع ، ولكن ذلك لم يتحقق له ، وراح الضمير الحر ينسب له أنه لم يكتف بأخذ ما ليس له بحق ، بل وَضَعَ التشريعات ليجعل الظلم قانوناً .

وقد أيدت الكنائس هذا الاتجاه بصراحة أو على الأقل بالسكوت عن معارضة هذه التفرقة ، والعجيب أن الزمن تقدم ، وخطت إفريقية خطوات واسعة تجاه الاستقلال ، وهبت أصوات متعددة تكافح المستعمر ، وهوجمت التفرقة العنصرية فى كل الميادين مما شدَّ الكنائس للسير فى هذا الركب حتى لا تفقد مكانتها ، ولكن الكنيسة الهولندية لم تستطع حتى سنة ١٩٢٥ أن ترفض التفرقة العنصرية ، وظلت على سابق العهد بالكنائس تقف فى صف التفرقة(١) .

وقد مارس المستعمرُ التفرقة العنصرية مدعياً أنه يمثل الطبقة الأسمى بالقياس لسكان إفريقية ، ولكن التاريخ يثبت للإفريقى ألواناً من النضج والرقى فى الميادين المختلفة إذا أتيحت له الفرصة ، والمؤرخون الغربيون يثبتون جوانب متعددة لعظمة الرجل الإفريقى ، ومعنا الآن صوت من هذه الأصوات يصف أسكيا الأكبر الملك الزنجى المسلم أنه جعل من تمبكتو

---

(١) انظر استعمار إفريقية للدكتور زاهر رياض ص ٤٤٠ .

مركزاً ثقافياً وأدبياً يشع نوره ، وأنه وفد لهذا المركز طلاب العلم من البيض والسود لإتمام دراستهم ، ويتكلم كذلك عن السجلات المتناثرة التى بدأت تسترعى انتباه العالم الغربى وهى تكشف عن حضارة غنية ومتنوعة ، ازدهرت فى المناطق التى تكوّن القطاع الإفريقى الذى يقع جنوب الصحراء، وكان حكام هـذه المناطق يحاولون دائماً توسيع سلطاتهم تجاه الجنوب ، ويضمون إلى ممالكهم مساحات شاسعة من أرض الوثنيين، وكانت عاداتهم أن يمدوا حضاراتهم إلى هـذه المناطق فى سرعة مذهلة ، بحيث لم تظهر فوارق ذات بال فى الإمبراطورية الواحدة ، ويستمر هذا الصوت الغربى فى الحديث عن الممالك الإسلامية التى اقتحمها المستعمرون الغربيون فيقرر أن ملوك هذه الممالك لم يشتركوا قط فى حروب غير عادلة ، ولم ينتهكوا قط معاهدة ، ولم يقصّروا قط فى القيام بواجبات الاحترام مع السفراء ، ولم ينتهكوا اتفاقية هـدنة ، وأن روعة البلاط ومظاهر الثراء فيها كانت تدعو للدهشة ، وأن المرأة الإفريقية كانت تستمتع بحياة دونها حياة المرأة الأوربية . . . . . .»(1)

ليت شعرى كيف جاز للمستعمر الأوربى أن يعد هؤلاء أقل قدراً منه، وأن يباشر التفرقة العنصرية بالنسبة لهم .

الجواب على ذلك هو أن المستعمر الأوربى حينما اقتحم هـذه البقاع كان يجهل تاريخها ولا يريد أن يعرفه ، ثم إنه كان ينوى أن يسلب خيراتها ويسترق أهلها ، فاتخذ كل الوسائل التى توصله لهذه الغاية مهما كان فيها من اتجاهات الشطط .

وقد شملت التفرقة كل اتجاهات الحياة ، شملت الاتجاهات السياسية ونظم

---

(1) Ina Corinne Brown: The Story of the Negro p. p. 31—44 abridged

الحكم ، والناحية الاقتصادية ، والناحية الاجتماعية ، فالحكام من الأوربين، ولا يستعمل الإفريقى إلا فى المراكز الدنيا ، أو إذا كان المستعمر يريده سلاحاً ضد بنى قومه ، وعندما وُضعت الدساتير وأنشئت الهيئات النيابية كان نصيب الإفريقيين فيها صفراً ، وأحياناً كان هناك ممثلون للإفريقيين ولكنهم أوربيون ، وفى مراحل متأخرة أصبح للإفريقيين عدد ضئيل جداً .

أما التفرقة فى المجال الاقتصادى فقد اتضحت فى ملكية الأرض التى جعلت كلها بدون استثناء للرجل الأبيض ، وكذلك جعلت المصانع من حق الرجل الأبيض وحده ، وكانت التجارة كذلك نصيب المستعمر ، فهو الذى يحدد الأسعار لما يشتريه من سلع وطنية ، وليس أمام المنتج الإفريقى إلا أن يخضع لهذا النظام ، أما العمال فإن أجورهم اختلفت اختلافاً واضحاً ، فالعامل الأوربى كان متوسط مرتبه فى السنة فى أعمال التعدين ٧١٢ جنيهاً ، ولكن أجر العامل الوطنى الذى يؤدى نفس العمل كان مرتبه ٥١ جنيها فى السنة طبقاً لإحصاء سنة ١٩٥٣ . ومرتبات العمال فى حرفة التعدين هى الأساس الذى كانت تسوّى على نسقه أجور الحرف الأخرى .

وكانت التفرقة فى المجال الاجتماعى أبرز وأخطر ، فالأوربى فى شرق إفريقية كان يتوقع أن يُقابَل بمظاهر احترام وتبجيل أينما ذهب ، وإذا لم يقم الإفريقى بهذه المظاهر اعتبر الأوربى هذا العمل نوعاً من الإهانة ، وأمعن بعض الأوربيين فى تحدى الشعور الإفريقى إلى حد أن يطلب من الوطنيين أن يكون سلوكهم تجاه البيض سلوك العبيد ، وإذا وُجِد أوربى خلت نفسه من التعصب وعاملَ الإفريقى على قدم المساواة فإنه يعرِّض نفسه لانتقاد زملائه ، ثم ليعتزلوه ، وكان من مظاهر التفرقة قيام مجتمعين منفصلين تمام الانفصال ، فبعض المناطق مغلقة تماماً فى وجوه الإفريقيين ، والأندية

خاصة بهم ، ولهم فنادق خاصة ، ودور خاصة للسينما ، وقد سمحت بعض النوادى بعضوية الإفريقيين بشروط خاصة ، فانضم إليها بعض المتعلمين فى الجامعات الأوربية ، وكانوا يحسون بشىء من المساواة داخل هذه الأندية ، ولكنهم لا يكادون يخرجون من أبوابها حتى تقوم التفرقة بينهم وبين زملائهم الأوربيين الذين يتجاهلونهم إلى أقصى حدود التجاهل[١] .

وتصل التفرقة أيضاً إلى السجون ، فالمجرمون الأوربيون يعاملون معاملة ممتازة بالنسبة للمجرمين الوطنيين .

والتفرقة العنصرية فى المستعمرات الفرنسية كانت بارزة للغاية ، مع أن الدستور الفرنسى به عبارة خداعة تنص على المساواة بين الفرنسيين وسكان المستعمرات الفرنسية ، ولكن التطبيق يوضح الفوارق الجمة ، إذ قسم القانونُ سكان المستعمرات أقساماً ثلاثة هى :

١ ــ الذين يقبلون أن يتعاملوا وفقاً للقوانين الفرنسية بما فيها نظام الأحوال الشخصية فى العلاقات الزوجية والميراث والوصية إلى آخره .

٢ ــ الذين يقبلون أن يتعاملوا وفقاً للقوانين الفرنسية فيما عدا الأحوال الشخصية .

٣ ــ الذين لا يقبلون أن يتعاملوا وفقاً للقوانين الفرنسية ويفضلون أن يتبعوا قوانينهم الوطنية وعُرْفهم فى كل معاملاتهم .

والنوع الأول فقط هو الذى يأخذ حقوق الفرنسيين بشرط أن يجيد اللغة الفرنسية ، وأن يقدم طلباً لذلك ، وهؤلاء يكوِّنون نسبة ضئيلة جداً بين سكان المستعمرات الفرنسية ، لأن أكثر من ٩٠٪ من مستعمرات فرنسا الإفريقية من المسلمين الذين رفضوا رفضاً باتاً أن يتخلوا عن قوانين الأحوال

---

(١) دكتورزاهر رياض : الاستعمار الأوربى لإفريقية ص ٢٩٨ .

الشخصية الإسلامية فدخلوا فى النوع الثانى . وهؤلاء لا يتساوون بالمستعمر الفرنسى ، ولكن يباح لهم حق الانتخاب ، على أن ينتخبوا نوابهم من الفرنسيين ولا بد لحصول على حق الانتخاب لهؤلاء أن يجيدوا اللغة الفرنسية كذلك ، أما الطبقة الثالثة وهم الذين ظلوا محتفظين بقوانينهم الوطنية فى كل معاملاتهم ، مضافاً لهم الذين لا يعرفون الفرنسية من الطبقتين الأولى والثانية، فهؤلاء جميعاً لا يشتركون فى الانتخاب إطلاقاً وليس لهم ممثلون فى المجالس النيابية .

وكانت التفرقة الاجتماعية فى القانون الإيطالى أقسى وأشد ، فقد منع هذا القانون التزاوج بين الإيطاليين والمواطنين ، وحدد عقوبة لذلك تصل إلى السجن مدة خمس سنوات ، كما أن القانون حرّم على الوطنيين ركوب الدرجة الأولى بالقطارات ، وجعل لهم سيارات خاصة ، كما حُرِموا من الاشتراك فى الأندية ، ومن الالتحاق بالمدارس ، وحدد القانون الإيطالى عقوبة الحبس مدة ستة أشهر بالإضافة إلى غرامة مالية لمن يحاول من الوطنين أن يستمتع بامتيازات الإيطاليين .

وهكذا لم يقبل المغتصب أن يعيش على قدم المساواة مع صاحب الدار وإنما قرر لنفسه امتيازات فى كل شىء ، وكانت هذه الامتيازات الجائرة هى النواة التى أزكت فى نفوس الوطنيين لهيب الإحساس بالظلم فهبوا يدفعون عن أرضهم أقدام المغتصبين .

قسوة الاستعمار بإفريقية

تحدثنا آنفاً عن الاستعمار واقتصاد إفريقية ، وعن الاستعمار والرق بإفريقية ، وعن محاولة الاستعمار فرض المسيحية بإفريقية ، وعن التفرقة العنصرية ، وقد صورت لنا هذه الدراسات صوراً من قسوة الاستعمار بالقارة السوداء ، ومع هذا لا تزال هناك صنوف أخرى من هذه القسوة والوحشية ، يتحتم أن نشير إليها لتكمل لنا صورة هذا الاستعمار بتلك القارة .

وعلى الرغم من بشاعة الرق وبُعْده عن الإنسانية ، فإن بعض الإفريقيين يرى الرق أهون من الاستعمار لأن الرق لم يستعبد سوى بعض الأفراد ولكن الاستعمار استعبد الجميع ، وقد خسرت القبائل بعض رجالها الذين خطفهم تجار الرقيق ، ولكن القبيلة خسرت كيانها كلّه عندما زحف الاستعمار إلى القارة ، وامتدت يده فامتلكت الأرض والمتاع ، ولم يُبْقِ له إلا الفتات ، ولقد كان من الممكن أن تنسى القبيلة من اختطفه النخاسون من أبنائها ، ولكنها لم تستطع قط أن تنسى صور الاستعباد التي كانت تتجلى في كل مظهر من مظاهر الحياة التي فرضتها أوربا على إفريقية .

ولقد آل الثراء الإفريقي إلى أن تُصبح إفريقية بلاداً منتجة للمواد الأولية بأرخص سعر لأن اليد العاملة لم تكن لها أية حقوق ، وراحت هذه المواد الأولية إلى مصانع أوربا لتتحول إلى مصنوعات دقيقة ، ثم تصدَّر مرة أخرى إلى إفريقية لتباع هناك بأغلى الأسعار فتمتص المال القليل الذى تدفعه أوربا هدايا للزعماء أو أجوراً للعمال .

ومن العجيب أن إفريقية الخصبة أصبحت فى ظل الاستعمار محتاجة إلى المواد الغذائية لتستوردها من الخارج ، وذلك لأن الجهود اتجهت فى

الحقل الزراعي إلى إنتاج الحاصلات التي تصدَّر ، لا الحاصلات التي تستهلك محلياً ، وعلى هذا اتسعت مزارع القطن والبن والشاى والكاكاو اتساعاً كبيراً ، وترك الإفريقيون يعانون نقص الغذاء ، وعلى الرغم من أن إفريقية محاطة من جميع جهاتها بالمحيطات فإن صناعة صيد السمك لم تتجه لها الأنظار وتُرك المجال لأساطيل الصيد اليابانية والأوربية تجول فى مياه إفريقية ، وتعود إلى بلادها بالصيد الوفير ، حيث يُعلَّب هناك ويُعاد تصديره إلى إفريقية نفسها .

ولم يكن حرمان الإفريقى مرتبطاً بصيد البحر فقط ، ولكنه حُرِم كذلك من صيد البر ، فقد كانت الطيور فى الغابات فى متناول يده ، ولكن الأوربى كان هو وحده الذى يستطيع أن يصيدها ، وقد انطلق الشاعر الإفريقى يصوِّر هذه المأساة بقوله :

فوق الجميزة سنجابٌ والأرنب يمرح فى الحقلِ
وأنا صيادٌ وثابٌ لكن الصيد على مثلى
محظورٌ إذْ أنِّيَ عبدُ

وقبل أن ندع حديثنا عن تجويع إفريقية نذكر أن الكاتب Derek Kartun[1] عقد فصلا عن الجوع فى كتابه عن إفريقية صوَّر فيه ما تُعانيه القارة من مجاعات ومن أمراض تنتشر بسبب هذه المجاعات ، وفى مطلع هذا الفصل يذكر أن الجوع يكاد يكون ظاهرة عامة فى إفريقية ، وإذا وُجِد إفريقى لديه ما يكفيه ويكفى عائلته من الطعام طيلة أيام السنة ، فإنه يوجد مئات آخرون ليس لديهم ما يكفيهم ، وعليهم أن يروا أطفالهم يتضورون من الجوع ثم يذوون ويموتون أمام أعينهم ، إن الجوع حقيقة واقعة فى إفريقية وهو بالنسبة للإفريقى يطغى على كل ما عداه ، وأن ما يُذاع

(1) Africa Africa Chap. VI

عن خرافة كسل الإفريقى ليس إلا نتيجة لسوء التغذية ، لأن الإفريقى لا يعرف اللحم ولا السكر ولا المواد الدهنية التى تمد الجسم بالحرارة الطبيعية وبالنشاط الذى يعطى القدرة على العمل ، وليس من العدل أن تنتظر من إنسان يُعانى الجوع القارص أن يستطيع أن يكدح وأن يظهر بمظهر النشاط وليست عنده وسائط النشاط .

ويذكر Kartun أن هذا الجوع عرّض الإفريقى إلى ألوان من الأمراض ويقرر أن هذا الكلام يجده الباحث فى كل التقارير الرسمية أينما أدار رأسه فى إفريقية .

والعجيب أن هذا الإفريقى الجائع كانت تُفرض عليه ضرائب قاسية ، وكانت تُستعمل معه وسائل وحشية لجباية هذه الضرائب ، ففى الكونغو مثلا كانت القرى التى تفشل فى تقديم المقدار الكبير من المطاط المستخرج من الغابات فى الموعد المحدد يتعرض أهلها لأعمال القسوة التى لا يمكن وصفها ، وقد جرت عادة البلجيك على أن يقتلوا الرجال والأطفال ، ثم يقطعوا أيديهم لإرسالها إلى المعتمد البلجيكى دليلا على نجاح بعثة العقاب(١) .

وكتب الكاتب الأمريكى مارك توين كتاباً عن حكم الملك ليوبولد ووحشيته فى الكونغو ، وقد جاء فى هذا الكتاب قوله إن دم الضحايا الأبرياء الذى أراقه الملك ليوبولد فى الكونغو لو صب فى دلاء ، ولو صفّت هذه الدلاء لامتد الصف ألف ميل ، ولو قدر للهياكل العظيمة للملايين العشرة الذين قتلوا أو ماتوا جوعاً أن تنهض وتمشى فى خط واحد لا ستغرق مرورها من نقطة واحدة سبعة أشهر وأربعة أيام .

ومن قسوة الاستعمار الأوربى بإفريقية أعمال السخرة التى فرضتها جميع الدول على المناطق التى استعمرتها ، فقد أجْبِر الرجال على أعمال قاسية بدون

(١) W. E. Abraham: The Mind of Africa pp. 143—146.

مقابل مدة تتراوح بين خمسة شهور وسبعة شهور في السنة، ولم يكن يوجه لهؤلاء العمال أي اهتمام طبي مما جعل الكثيرين منهم يسقطون في ميدان العمل، وما زالت السخرة متبعة في جنوبي إفريقية وموزمبيق وأنجولا وإفريقية الاسبانية مصحوبة بقصص أسطورية من الوحشية والقسوة(١).

ونجيء إلى قسوة من نوع آخر تلك هي حرمان الإفريقيين من الصحة والثقافة، فإن المناهج التعليمية التي رسمتها أوربا لإفريقية لم يكن هدفها خدمة المجتمعات الإفريقية والحفاظ على وحدة المجتمع، وإنما رسمت هذه المناهج لتقوية ما تقدمه إفريقية لأوربا من خدمات، ومن هنا نشأ هذا الشكل الغريب للتعليم بكل ما فيه من محتوى تافه، وقد يختلف نهج التعليم الذي تفرضه دولة أوربية عن الذي تفرضه دولة أوربية أخرى، ولكن الهدف واحد، وإن اختلفت الأشكال؛ ففرنسا مثلا كانت ترى أن رعاياها يمكن أن يصنفوا فئتين، فئة الصفوة المختارة وفئة الجماعات (البادية)، وكانت فرنسا تتجه لتثقيف الفئة الأولى بالثقافة الفرنسية، وتعلمهم عاداتها وأساليب حياتها ليصبحوا فرنسيين قلباً وقالباً، أما الفئة الثانية فلم يكن أفرادها يتلقون إلا شكلا خفيفاً من أشكال التعليم الأولى، في مدارس أقرب إلى الكتاتيب، واتبع البلجيكيون نهجاً لا يختلف عن النهج الفرنسي في تقسيم الرعايا قسمين، ولكنهم كانوا يختلفون عن هذا النهج في أنهم كانوا يرون أن ممتلكاتهم الإفريقية ليست إلا مجرد شيء يملكونه ولم تساورهم الفكرة التي ساورت الفرنسيين في أن يدمجوا مستعمراتهم ببلادهم فرنسا، ولم يكن هناك في المستعمرات البلجيكية أي تعليم بعد حدود التعليم الأولى أما الصفوة النادرة المختارة فكان يبعث بها إلى بلجيكا لتعاد صياغتها من جديد، حتى تصبح أداة في يد المستعمر، أما البرتغاليون والأسبان فقد تجردوا تماماً عن

---

(١) Africa Africa pp. 29—30

فكرة التعليم واتجهوا إلى استغلال المستعمرات ورأوا أن سكانها ليسوا إلاّ مجرد مواد طبيعية وأولية يستغلونها بوحشية لتعطيهم أكبر عطاء ممكن ، وينطبق هذا على الألمان عندما كانت بلادهم فى عداد الدول التى تستعمر إفريقية .

وفى ختام هذه اللمحات عن قسوة الاستعمار الأوربى لإفريقية نقتبس فقرات من الخطاب الحافل الذى ألقاه باتريس لومومبا رئيس وزراء الكونغو فى الثلاثين من يونيو سنة ١٩٦٠ بمناسبة استقلال بلاده ، قال :

« لقد خبرنا العمل الشاق المرهق نبذله مقابل أجور لم تكن تسمح لنا أن نأكل حتى نسكت صوت الجوع فى أحشائنا ، أو بأن نلبس أو نسكن فى احترام ، أو بأن ننشىء أولادنا باعتبارهم أحب المخلوقات لدينا .

« لقد خبرنا السخرية والإهانات والضرب ، توجه إلينا فى كل وقت صباحاً وظهراً وليلا ، لالشىء إلاّ لأننا « زنوج » . . . مَنْ سينسى أنهم كانوا يخاطبون الزنجى باحتقار ، وبألفاظ مجردة من كل احترام ، لأن ألفاظ الاحترام والتوقير كانت وقفاً على البيض فقط .

« لقد رأينا أرضنا تُستَنْزَف باسم نصوص قانونية لم تكن فى الواقع غير سلطة القوى وجبروته .

لقد رأينا القانون لا يسوّى فى المعاملة بين البيض والسود » . . فحينا نجده متساهلاً إنسانياً بالنسبة للبيض ، فهو فى الوقت نفسه قاس غير إنسانى بالنسبة للسود .

« لقد رأينا القسوة المتناهية التى يعانيها الذين يسجنون بسبب آرائهم السياسية أو معتقداتهم الدينية ، لقد رأيناهم يُنفَوْن فى قلب بلادهم ، ورأينا مصيرهم أسوأ من الموت نفسه .

« لقد علمنا أنه فى المدن توجد مـ رائعة للبيض ، وجحور صغيرة للزنوج ، وأن الزنجى لا يُسمح له بدخول دور السينما أو المطاعم ، ولا بدخول ما يسمى بمحلات الأوربيين ، وأن الزنجى حين يسافر فإما سيراً على قدميه أو قابعاً فى جوف قارب . . أما الأبيض فبسيارته الفاخرة .

« وأخيراً من سينسى المشانق ، والحرائق الشاملة ، التى أبيد بها العديدون من إخواننا ، أو الزنزانات المخيفة التى ألقى فيها بوحشية هؤلاء الذين نجوا من طلقات الجنود . . . هؤلاء الجنود الذين جعل منهم الاستعمار أدواته وزبانيته(١) ؟ » ؟

(١) James Duffy and Robert Manners : Africa Speaks pp. 51 — 52

الصراع ضد الاستعمار

يمكن القول إن إفريقية ناهضت الاستعمار منذ مطلعه ، وأن حركات المقاومة ضد المستعمر لم تهدأ يوماً من الأيام ، وإذا كان البرتغاليون هم أسبق الأوربيين استعماراً لإفريقية فإنهم كانوا أسبق الأوربيين مواجهة للصراع ضد الاستعمار ، ففي سنة ١٦٥٠ ثار ساحل إفريقية الشرقي كله ضد البرتغال ، ووجد الثوار مساعدات جمة من عرب عمان ، وظل الصراع دون هوادة من عام إلى عام ، وفي سنة ١٦٩٨ حاصرت حملة عمانية حصن يسوع حوالي ثلاث سنوات قضت خلالها على أكثر من ألف جندي برتغالي ، وعلى كثير من أعوانهم ، وتم طرد البرتغال من الساحل الإفريقي .

وفي مطلع القرن السادس عشر كان أحمد القرين الذي تحدثنا عنه من قبل يصارع إمبراطور أثيوبيا في منطقة هرر ، واستعان الإمبراطور بالبرتغاليين ولكن أحمد القرين استعان بالعثمانيين وحقق في زحفه كثيراً من الانتصارات .

ومنذ اللحظة الأولى للاحتلال الألماني لشرقي إفريقية هب السكان في ثورات متلاحقة ضده ، وكثرت هذه الثورات هنا وهناك ثم تجمعت تحت قيادة قائد بطل اسمه بوشيري بن سالين وهو من أب عربي وأم زنجية ، وكان واسع الدهاء والشجاعة ، عميق الإخلاص لدينه ووطنه ، ولذلك نراه يعلن السخط على سلطان زنجبار لأنه أجر للألمان بعض المناطق على الساحل وسمح لهم بنزول البلاد ، كما وقف موقف التحدي من الألمان أنفسهم ، وقد انفجرت ثورته في سبتمبر سنة ١٨٨٦ وأخذ يهاجم الساحل . وقد حقق في هجومه انتصارا كبيرا فأباد القوة الألمانية في المنطقة التي هاجمها ، ثم دخل دار السلام فقبض على البعثات التبشيرية بها ، وأصبح له

السلطان فى منطقة واسعة ، وطلبت شركة شرقى إفريقية معاونة السلطان ولكن بوشيرى أعلن أنه سيصارع السلطان إن تدخل ، ولم يكن موقف السلطان من الألمان مخلصا ، مما دعا الشركة أن تطلب معاونة حكومة ألمانيا ، وسرعان ما زحف الأسطول الألمانى يحمل قوة كبيرة ، وكانت الحملة الألمانية بقيادة الميجور فيسمان ، ودار صراع طويل مرير بين القوتين انتهى بالقبض على بوشيرى وإعدامه فى ديسمبر سنة ١٨٨٨ .

ولكن القبائل التى أيدت بوشيرى انضمت إلى خلفه بوناهرى ، ويبدأ تحت قيادته صراع جديد ، كما قامت القبائل بالداخل بحركات ثورية عظيمة بعضها لمحاولة الثأر لإعدام القائد بوشيرى ، وفى سنة ١٩٠٥ هبت ثورة ماجى ماجى ، ويشبهها بعض المؤلفين(١) بالثورة المهدية بالسودان ولكن يظهر الفرق بينهما فى عدم توفر الزعامة الموحدة المركزة لثورة ماجى ماجى ، وقد كانت مدينة كلوة الشهيرة أهم مركز لتوجيه نشاط هذه الثورة التى ظلت ثلاث سنوات وكلفت المستعمر الألمانى كثيرا من الأرواح والعتـــاد .

فإذا جئنا إلى فترة سعار الاستعمار الأوربى بإفريقية الذى يبدأ مع الربع الأخير من القرن التاسع عشر أمكننا أن نبرز المعالم الكبرى للصراع ضد هذا الاستعمار فى العوامل التالية :

١ — حركات مصر وصداها :

لا تدخل مصر فى نطاق الإطار الذى نتحدث عنه فى هذا الجزء ، ولكن مصر بإفريقية لها وضع خاص ، فهى باب إفريقية الفسيح المطل على العالم ، وهى ذات التاريخ الطويل المجيد ، ثم — وهو المهم هنا — تعقمت

---

(١) دكتور زاهر رياض : الاستعمار الأوربى لإفريقية ص ٢٨٢

مصر فى قلب إفريقية سياسيا وثقافيا إلى أبعد مدى حتى أصبحت حركاتها تتجاوب بها كل البقاع فى هـــذه القارة ، وبخاصة البقاع الإسلامية التى تحدثت عنها ،فقد كان أكثر مفكريها على صلة بمصر، وكانوا يعدونها الوطن الأم ، وينقلون عنها اتجاهاتها فى ميادين الحياة المختلفة ، وبخاصة أدق تلك البقاع التى ارتبطت بمصر سياسيا كالسودان والصومال وساحل البحر الأحمر ، فإن هذه كانت أقرب ليظهر بها صدى الصراع ضد الاستعمار الذى هبَّ بمصر .

وصراع مصر ضد الاستعمار بدأ مبكراً ، وانحاز له الخديوى عباس حلمى نفسه ، وقاده مصطفى كامل ومحمد فريد وانضمت لهم جموع الشعب ، وعندما اتهم بطرس غالى بالخيانة لكثرة ما نسب له من أشياء تتنافى مع الوطنية أطلق عليه إبراهيم الوردانى أحد الشبان الفدائيين الرصاص فقضى عليه ، واضطرت إنجلترا أن تعزل الخديوى فى مطلع الحرب العالمية الأولى ، ولكن حركة مصر ظلت فى طريقها ، وقادها فى مرحلتها الجديدة سعد زغلول سنة ١٩١٩ ، واستطاع هو ورفاقه أن ينتزعوا من إنجلترا تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، واستمر الصراع بعد ذلك لاستكمال ما كان فى هذا التصريح من نقص ، واشترك فيه السياسيون والطلاب ، هؤلاء بالمفاوضة وأولئك بالثورات والتضحيات ، ثم هبت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فأكملت الشوط ، وكان الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة فى العالم ، فلم تطل مقاومته لزعماء هذه الثورة وحمل عصاه ورحل عن البلاد .

هذه فكرة سريعة عن صراع مصر ضد الاستعمار ، وقد كانت حركات مصر حركات رائدة بالنسبة لإفريقية ، ولكن مصر لم تكتف بذلك ، بل أعلنت أن سلامة إفريقية سلامة لها ، فساندت كل ثورة إفريقية ، وفتحت أبوابها للثوار الإفريقيين الذين وفدوا إلى القاهرة ليمارسوا ألوانا من النشاط

ضد الاستعمار فى بلادهم ، وتدخلت بصور شتى لتحقيق استقلال البلاد الإفريقية .

وكانت الثورة المهدية فى السودان استمراراً لثورة العرابية ، التى كانت ترمى إلى سيادة العنصر الوطنى ، والقضاء على الامتيازات التركية والأوربية ، وقد استطاعت الثورة المهدية أن تنتزع السودان من مصر حتى لا تمتد له يد الاحتلال البريطانى ، وقضت الثورة المهدية على المحاولات البريطانية التى قادها هكس وجوردون ليمتد أثر هذا الاحتلال إلى الجنوب ، وعندما قضت إنجلترا على الثورة المهدية أخذ السودانيون يتربصون ليهبوا من جديد ثائرين فى وجه المحتل الغاصب .

وفَشَلُ الثورة المهدية بعد الثورة العرابية ألقى الزمام لثائر آخر فى جزء آخر من الأجزاء التى كانت تكوّن الإمبراطورية المصرية ، وذلك الجزء فى هذه المرة هو الصومال ، والثائر هو محمد بن عبد الله بن حسن الشهير بالملا ، وقد لقب نفسه « المهدى » مما يشعرنا بعلاقة ارتباط بينه وبين الثورة المهدية بالسودان .

ومهدى الصومال ولد سنة ١٨٥٦ ميلادية من إحدى بطون قبائل الأوجادين وهو صومالى أباً وأماً ، تثقف فى مطلع حياته ثقافة دينية ، حفظ القرآن وعرف مبادئ العلوم الدينية والعربية ؛ ثم التحق بحلقات العلم والأدب ، كان حسن الصله بشيوخه شديد الرغبة فى الأخذ عنهم ، وكان يحيا بين الأوجادين مسقط رأسه وبين الصومال وطن أبيه وأمه ، ولكنه بعد وفاة أبيه عاد إلى الصومال فى المنطقة التى كانت بريطانيا قد تسلطت عليها وعاش بهـذه المنطقة واشتغل بالتدريس ، وسافر منها إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، وهناك التقى بكبار الشيوخ وقادة المسلمين ، وعاد للصومال البريطانى وقد أضمر شيئاً .

وفى سنة ١٨٩٧ نزل المبشرون المسيحيون الصومال البريطانى ، فثار الرأى العام لذلك ، واتجه الساخطون إلى الشيخ محمد بن عبد الله فتزعمهم ، وطالب رجال الإدارة بإبعاد المبشرين ، ولكن البريطانيين لم يستجيبوا لهذا الطلب ، وكان هذا الوضع مطلع ثورة الجهاد الكبرى التى قادها محمد بن عبد الله ، وقد انضم له كل الصوماليين فى أقسام الصومال وبنوا الحصون وأعدوا الذخائر والمون وقاد المهدى هذه الثورة بشجاعة فائقة ، ومقدرة هائلة ، ومن خلفه وقف الجند يعملون بعزيمة لا تكلّ ، ووقف الزراع يكدحون ليقدموا المؤن للجيش المكافح ، وقد حقق المهدى ألوانا من الانتصارات أقضّت مضاجع المستعمر وكلفته كثيراً من الأموال والرجال ، ولم يعد مهدى الصومال يقنع بطرد المبشرين ،وإنما راح يطالب بجلاء المستعمر عن البلاد ، ولم يعد مهدى الصومال يهدد الاستعمار الإنجليزى وحده، وإنما أخاف بحركته التى استمرت أكثر من ربع قرن كل المستعمرين بإفريقية ، وعلى الرغم من المنافسات الاستعمارية بين دول أوروبا فإنها تعاونت للقضاء عليه خوف أن تتسرب حركته إلى حيث تعيش هذه الدول المستعمرة ، وهكذا اجتمعت إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وأثيوبيا ضده ، ولعبت الخدع السياسية دورها حتى نمى إليه أن بعض أنصاره يعملون عيوناً عليه ، وينقلون أسراره إلى الأعداء ، ويبدو أن هذه التهمة ثبتت على بعضهم فأصدر عليهم حكمه بالإعدام لخيانتهم،واستمرت السياسة الاستعمارية فى نشاطها ، فاتخذت من هذا الحادث ما أثار بعض القبائل على القائد ، وعملت هذه السياسة على إشاعة الفرقة بين الصوماليين بدعوى أن القائد يسعى لنفعه الشخصى ، فتخلى عنه أتباعه شيئاً فشيئاً ، وكانت سنه قد تقدمت ومسه الضر نتيجة الصراع الطويل ، فتراجع وضعف ومات سنة ١٩٢١ فى مكان بالصومال الأوجادينى ودفن فى مكان لا يعرفه إلاّ خاصة أصدقائه ، وحاول أعداؤه العثور على جثته فلم يهتدوا ، وبقى تاريخه مثار الفخر والإعجاب بين الصوماليين .

وقد كتب الملاّ رسائل بعنوان « مباحث المنافقين » شرح فيها . فلسفته في الكفاح ، كما شرح أسباب الصراع ، وهي أسباب دينية ووطنية وتكلم عن اجتماع كلمة المستعمرين ضده ، كما تحدث عن المنافقين الذين تعاونوا مع الاستعمار ، وهو يصف هؤلاء وأولئك بأنهم أحاطوا برجاله كإحاطة الهالة بالقمر والسوار بالمعصم ، وأنهم قطعوا عنه وعن رجاله جميع المواصلات والإمدادات الحربية والغذائية ، ويذكر أنه قد اتفقت لإبادته الحكومات الإنجليزية والفرنسية والحبشية والإيطالية مع بعض القبائل الصومالية التي خالفت العهد وانضمت للمعتدين .

وسيرة مهدي الصومال سيرة عطرة ، وموقفه من الاستعمار موقف جدير بالتقدير والإعجاب(١) .

وبينما كان مهدي الصومال يضعف ويلقي الزمام ، كانت مصر تعود لتلتقط الزمام مرة أخرى ، وكان في هذه المرة في يد سعد زغلول ورفاقه في ثورة سنة ١٩١٩ الهائلة التي أشرنا لها من قبل ، ويذكر الدكتور زاهر رياض فكرة تكاد تكون مجمعاً عليها من المؤرخين هي أن ثورة ١٩١٩ جعلت الحياة الثورية تدب في إفريقية كلها فكان له صدى في الجزائر وتونس والمغرب وبرقة ، وكان صداها واضحاً كذلك بالسودان ؛ إذ قام البطل علي عبد اللطيف ينادي باستقلال السودان وطرد المستعمر منه وألّف لذلك جمعية اللواء الأبيض وجعل رمزها علماً أبيض رسم عليه خريطة للنيل ورسم في ركن منه العلم المصري الأخضر ، دليل ارتباط بين سكان الشمال والجنوب .

---

(١) عن مهدي الصومال إقرأ : ١ — تقرير عن أحوال المسلمين في بلاد الصومال واريتريا للأستاذين عبد الله المشد ومحمود خليفة ص ٩٠ — ٩٢
وكتاب « مهدي الصومال » للدكتور محمد المعتصم سيد

٢ — الإسلام :

يعتبر الإسلام من أهم القوى التي ساعدت دول جنوب الصحراء على التحرر ، فإن المسلمين بهذه الدول أحسوا دائما بأن المستعمر المسيحي يحارب دينهم قبل كل شيء فتكتلوا ضـــده ، ومن هنا نستطيع أن نقول بثقة وإصرار إن الإسلام حمى معتنقيه ، وإن الاستعمار الأوربي الذي غمر إفريقية كلها ، لم يستطع أن يستقر في المناطق الإسلامية ، وإذا كان قد استوطن بعض مناطق إفريقية فذلك لأنه حطّ رحاله في هذه المناطق قبل أن يصل لها الإسلام ، ثم إن الدول الإسلامية في المحيط العالمي تبنّت حركات التحرر التي ظهرت بين مسلمي إفريقية ، وكان هذا النضال من الداخل والخارج سببا مهما من أسباب الاستقلال .

٣ — الحربان العالميتان الأولى والثانية :

كان الصراع بين المستعمرين من أهم أسباب الحرب العالميـــة الأولى ، ولكن أوار هذه الحرب تخطى مناطق الاستعمار وشمل العالم كله ، واضطرت أمريكا أن تخوض غمار هذه الحرب ، ولذلك حاول مستر ولسن أن يضع حدا للصراع بين الدول ، وقد ترجم هذه المحاولة في تصريحه ذي الأربع عشرة مادة الذي قررت احدى مواده حق الدول في تقرير مصيرها . ولذلك ما إن توقفت هذه الحرب حتى هبت المستعمرات كلها تطالب بالحرية ، ولكن أملها سرعان ما خاب ، وتبين لها أن مثل هذا التصريح كان خدعة لجذب المستعمرات إلى جانب الحلفاء وقت الحرب ، وثار الزعماء ، وعوقبوا بالنفي خارج بلادهم ، ولكن نفيهم زاد النار اشتعالا .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وادعى المحور والحلفاء جميعا أن انتصاره

سيكون فتحا للشعوب المستعمرة ، وأصبحت هذه الدعوى مثار التأكيد من الجانبين ، وأخذت الدول الصغيرة المواثيق لذلك وبخاصة عن طريق نداء الرئيس روزفلت ، واشتركت قوات كثيرة من جنود المستعمرات فى هذه الحرب مع الحلفاء ، فأسهمت فى انتصار الحلفاء على قوات المحور ، وطالما وقف الرجل الإفريقى بجوار الرجل الأبيض فى ميادين القتال ، وعانى معه قسوة الصراع ، وتلقى معه سهام الموت ، ولذلك . ما إن توقفت هذه الحرب حتى هبت الدول تعلن استقلالها من جانبها دون انتظار موافقة الدول المستعمرة ، وقد قاومت أوربا هــذه الاتجاه ، ولكنها لم تستطع أن تصمد فى المقاومة ، فبدأت تعترف بهذه الحقيقة راغمة حتى لا تفقد صلتها بهذه الدول كما حصل مع هولندا التى قاومت رغبة إندونيسيا فى التحرر فانتصرت إندونيسيا ، وخسرت هولندا مستعمرتها كما خسرت صداقتها لهذا الشعب الذى خضع لها عدة قرون .

٤ ــ التعليم :

اتجهت إفريقية للتعليم فى القرن العشرين ، ولم يحل حائل بين الشاب الإفريقى وبين العلم ، فتخطى حدود القبيلة والدولة باحثا عن معهد أو مدرسة ، واستقبلت مدارس المبشرين عدد كبيرا من الإفريقيين ، وكانت هذه المدارس تعمل لترسم لهم طريقا معينا يسيرون فيه ، ولكن عندما ترقى الفكر عند الإفريقى لم يخضع للتخطيط الذى رسمه له المبشرون ، بل أخذ يخطط لنفسه ويعمل لصالح بلاده .

وخرج بعض الطلاب من هذا النطاق الذى نتحدث عنه فالتحق بالأزهر وبعض معاهد الشمال ، بل التحق بعض الطلاب بجامعات أوربا وأمريكا ، وعاد هؤلاء بقلوب متفتحة ونفوس طموحة ، وأخذوا عدتهم لتجميع

مواطنيهم حول راية الحرية ، وساعدتهم اللغات الأجنبية التي تعلموها وأخذوا يشرحون قضاياهم للرأى العام العالمى ، ويدافعون عن حقوقهم ، ولم يسكت هـذا الصوتُ الذى أطلقه العلم ، وحرَّر قيودَه ، حتى حقق النجاح لبلده .

٥ — نمو القومية :

كان من أسباب نجاح الاستعمار بإفريقية وجود القبيلة ، ولم تستطع القبيلة أن تنتصر على جيوش المستعمرين ، ولكن العلم أزال حاجز القبيلة ، وأخذ المتعلمون يعملون لتحل القومية محل الحياة القبلية ، وقد ساعد الاستعمارُ هذا الوضع بطريق مباشر وبدون قصد عندما ربط حياة القبائل فى نظام واحد وتحت قوانين واحدة ، وقد أدرك الإفريقى أن الدول الأوربية وبخاصة ألمانيا وإيطاليا كانت تعانى من الانقسام وكثرة الولايات وأن الوحدة هى التى سببت لها هذه القوة بالداخل والخارج ، فراح يزيل حواجز القبيلة ويعمل لإنعاش الدولة ، والتفت تحت رايةٍ واحدةٍ جماعاتٌ كانت متنافرة متحاربة ، فهزّت بوحدتها الغزاة الوافدين من الشمال .

٦ — الاتحاد السوفييتى :

تمخضت الحرب العالمية الثانية عن قوتين كبيرتين هما قوة الولايات المتحدة وقوة الاتحاد السوفييتى ، والقوتان ليست لهما مستعمرات فى إفريقية ، وتتطلعان لمد نفوذهما لهـذه المنطقة أو لعقد روابط من الود والصداقة ، ولكن الاستعمار الأوربى كان يحول دون ذلك ، فعملت الدولتان لمساعدة الشعوب الثائرة ، وكان نصيب الاتحاد السوفييتى فى هذا المجال وفيرا ، فلم تكن بينه وبين المستعمرين الأوربيين مجاملات تقضى بأن يتجه لإغضاء الطرف عن تصرفات الاستعمار كما فعلت أمريكا ، وهكذا

وقف الاتحاد السوفيتي في صف شعوب هذه المنطقة ، وكان صوته عاليا في الأمم المتحدة لتأييد تحرير هذه الشعوب ، وأسرع الاتحاد السوفيتي فتقدم بألوان العون للدول التي استقلت حتى يحميها من أن تعود بسبب الحاجة المادية إلى الارتماء في أحضان الاستعمار الاقتصادى ، وأيًّا ما كانت الدوافع التي دفعت الاتحاد السوفيتي لذلك ، فإن النتيجة كانت استقلال الشعوب الإفريقية .

٧ — الاستعمار الجديد :

ومن أهم الأسباب التي أنهت الاستعمار الأوربي لإفريقية هو إحساس العالم أن عصر الاستعمار بالمعنى الذى كان موجودا بإفريقية قد انتهى ، وأن يقظة الشعوب الإفريقية هددت المستعمر وجعلته يدرك أن الاستعمار سيكلفه الكثير من الأرواح والكثير من النفقات ، مما أفقد الاستعمار غايته ، فراحت الدول الأوربية تبحث عن بديل لذلك ، وكان البديل الذى وجدته هو الاستعمار الثقافى والاقتصادى الذى يضمن لها كثيراً مما كانت تأمل فيه عن طريق الاستعمار العسكرى . وقد نجح هذا الاستعمار في بعض المناطق وفشل في أخرى ، والمأمول ألا تحقق الدول الإسلامية له أى نجاح في هذا القطاع الذى نتحدث عنه ، وأن تتجه نظرتها إلى خير الدين والوطن ، وأن تتخلص مما تكون قد أكرهت عليه من تنازلات للاستعمار .

٨ — المؤتمرات :

أحست شعوب إفريقية بأن مشكلتها واحدة ، وأن التحدى الذى يوجَّه لها من الغرب يوجه لها ككل ، ولذلك تضافرت وتعاونت لرد هذا الاعتداء ، فاجتمع ممثلون للشعوب عدة مرات في مؤتمرات مهمة ، وتدارسوا مشكلات بلادهم وموقف الاستعمار منها ، واتخذوا قرارات رفعوها للمحافل الدولية ، وتعاهدوا على العمل على تنفيذها لإنقاذ بلادهم وسكانها واقتصادها من الغاصب ، وقد هزت هذه القرارات صرح الاستعمار وقوَّضت أركانه .

ومما يذكر للقارة بخير أن للدول التى استقلت منها لم تنس فى أفراحها جاراتها التى لم تستقل ، بل راحت تعلن أن الاعتداء على هذه الأجزاء من القارة اعتداء على القارة كلها ، وتنفيذا لذلك عقدت عدة مؤتمرات على مستوى الدول أعلنت فيها الحكومات المستقلة مساندتها للشعوب التى كانت لم تستقل بعد ، بل سمحت هذه المؤتمرات بأن تمثل بها البلاد التى لم يكتمل استقلالها فكان هذا تحديا صريحا للمستعمر وتجاهلا لوجوده .

وقد أفادت المؤتمرات الشعبية ، والدولية قضية إفريقية فائدة تامة ، وفيما يلى إشارة لأهم هذه المؤتمرات .

صور المؤتمرات الشعبية :

١ – مؤتمر الشعوب الإفريقية والآسيوية بالقاهرة سنة ١٩٥٧ وقد طالب بإقرار حق المستعمرات فى الاستقلال التام ، وأيد مطالب شعوب الكمرون وكينيا وأوغندا والجزائر ومدغشقر والمغرب والصومال فى التمتع بالحريات .

٢ – مؤتمر أكرا فى ديسمبر سنة ١٩٥٨ وطالب بعدم الانضمام إلى كتلة من الكتل ، وبضمان سيادة الدول الإفريقية ومناهضة الاستعمار .

٣ – مؤتمر الشعوب الإفريقية فى تونس سنة ١٩٦٠ .

٤ – مؤتمر الشعوب الإفريقية بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

صور المؤتمرات الدولية :

١ – مؤتمر باندونج لدول آسيا وإفريقية وقد عقد سنة ١٩٥٥ وناقش حقوق الإنسان الأساسية فى الاستقلال ومناهضة الاستعمار .

٢ — مؤتمر طنجة وقد عقد سنة ١٩٥٧ .

٣ — مؤتمر أكرا وقد عقد فى إبريل سنة ١٩٦٠ :

٤ — مؤتمر أديس أبابا فى يونيو ١٩٦٠ وحضره مراقبون عن الدول المستعمرة ونوقش فى المؤتمر موضوع الاستعمار الجديد .

٥ — مؤتمر منروفيا فى مايو ١٩٦١ ولم تحضره مصر لرفض تمثيل حكومة الجزائر المؤقتة به .

٦ — مؤتمر الدار البيضاء فى يناير ١٩٦١ وكان نجاح المؤتمر كبيراً فى اعتبار إسرائيل قاعدة استعمارية ، وتجميع الجهود الإفريقية ، وإنشاء قوة عسكرية .

٧ — مؤتمر القمة الأول فى أديس أبابا فى مايو ١٩٦٣ والغرض منه هو تصفية الاستعمار ومناهضة التفرقة العنصرية ؛

٨ — مؤتمر القمة الثانى بالقاهرة سنة ١٩٦٤ ، وقرر تحقيق التضامن والوحدة الإفريقية والقضاء على التفرقة العنصرية ؛

٩ — مؤتمر القمة الثالث فى أكرا فى أكتوبر ١٩٦٥ وتناقش المؤتمر فى مشكلة الكونغو وروديسيا .

٩ — عوامل أخرى :

هناك عوامل أخرى أسهمت بشكل واضح فى تحقيق الاستقلال لدول جنوب الصحراء ، ومن هـــذه العوامل افتضاح قوى كثير من الدول الاستعمارية ، تلك القوى التى انهارت بسرعة هائلة أمام زحف ألمانيا ، فلم يعد فى مقدورها أن تدعى ما كانت تدعيه من غطرسة وجبروت .

وكان هناك عدد وفير من الإفريقيين اشترك فى الحرب العالمية الثانية وأبلوا فيها بلاء حسناً ، وعندما عاد هؤلاء الأبطال إلى بلادهم ، بدأت موجات من الوعى السياسى تبرز ، واشترك هؤلاء المحاربون فى إعداد قوى شعبية تكافح المستعمر ، واستعملوا فى ذلك خبراتهم ومهاراتهم التى اكتسبوها من الحرب العالمية .

وهناك النشاط العالمى الذى ظهر بتكوين هيئة الأمم المتحدة التى اتجهت بحماسة لمحاربة الاستعمار فى كثير من الظروف .

وكان لاستقلال آسيا حافزاً دفع إفريقية إلى أن تطالب بالمثل ، وكانت أوربا هى التى تقوم بدور المستعمر فى آسيا وإفريقية ، فعندما جلت عن آسيا كان لا بد أن تجلو كذلك عن إفريقية .

وهناك سبب غير متوقع كافح الرجل الأبيض بإفريقية فى كثير من البقاع ، ولم يمنحه الاستقرار بها ، ذلك هو « ذبابة التسى تسى » ويقول عنها أحد الإفريقيين : إنها الجندى الذى ساعد على حمايتنا ، ودفع الرجل الأبيض بعيداً عنا ، ويتحدث كثير من أبناء ساحل الذهب عن أن من العدل أن يُقام تمثال لهذه الذبابة التى كانت من أقوى المكافحين لاسترداد الاستقلال الوطنى .

خطوات الصراع :

كانت التفرقة العنصرية التى تحدثنا عنها من قبل هى أبرز دافع للإفريقى ليناهض المستعمر ، فلم يكن من المعقول أن يصبح الوافد سيد الدار والمواطن غريبا فى وطنه ، مسلوب الحقوق سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، ومن هنا فقد هبت إفريقية تقاوم التفرقة العنصرية وتطالب بالمساواة ، ولكنها فى ثورتها أحست أن المغتصب لا يسمح بالمساواة ، ولا يقبل أن يصبح الرجل

الأبيض كالإفريقى فى كل الحقوق ، وأحست كلك بدافع التطور أن ليس هناك موجب أن تستجدى المساواة مع الغاصب ، فلماذا لا تطالب بطرد الغاصب من الأرض ، واسترداد كل الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟ وكانت ثورة الشعوب عاتية عبر عنها كليمنت دافيلز زعيم حزب الأحرار البريطانى بقوله : إننا لم نكن نستطيع البقاء فى وجـه مقاومة عنيفة من الرأى العام العالمى والبريطانى ، وزد على ذلك أننا لو حاولنا البقاء لاكتسحنا الانفجار الشعبى .

وهكذا خطا الصراع من المطالبة بالمساواة إلى المطالبة بالاستقلال التام وطرد المستعمر ، وتركزت المطالبة فى هذا الاتجاه الجديد ، ولم يعد الرجل الإفريقى يقنع بمناهضة التفرقة العنصرية ، وكان له ما أراد .

جيوش المرتزقة :

أدت العوامل السابقة إلى تحرير القارة الإفريقية أو أكثرها ، وانسحبت منها جيوش المستعمر ، وعادت الحقوق لأصحابها ، ولكن شيئاً حدث يندى له الجبين ، ذلك أن بعض الدول لم تقنع بما سلبته من إفريقية فراحت تضع تخطيطا يشغل الإفريقيين ويبتز نشاطهم حتى لا يتفرغوا لإعادة البناء ، وذلك بإنشاء جيش من المرتزقة البيض لا هم له إلا مناهضة الوطنيين وإثارة الشغب وتقوية المتمردين ، ولا يزال هذا الداء يدب فى القارة ، تؤيده إسرائيل وبقايا المبشرين الذين يدعون أنهم ينتمون إلى المسيحية وهم عنها بمنأى بعيد ، ويتخذ هؤلاء المرتزقة من غينيا البرتغالية وجنوب السودان مراكز لهم ، ولا بد فى يوم قريب أن تتخلص إفريقية من هذا الداء الوبيل .

الاستعمار الأوربى لإفريقية فى الميزان

عاش الاستعمار الأوربى بسواحل إفريقية وقلبها عدة قرون ، واصطدم بقوى الشعوب التى رأت فيه غاصباً جاء يسلب الدار وصاحب الدار ، فأخذت تقاومه وتناهض أهدافه ، وخلصت القارة بعد جهد جهيد من هذا الدخيل ، والآن نريد أن ننظر للنتائج التى خلّفها هذا الاستعمار وهذا الصراع ، فالبيض يدعون أن أى تطور عرفته القارة هو نتيجة لوجودهم بها ، وأنه ثمار عملهم ، أما الإفريقى فيرى أن التقدم الذى حصلت عليه إفريقيه خلال الاستعمار ليس إلا من فعل الزمن ، ولا يمكن أن نسقط عدة قرون من تاريخ تطور القارة ، ففى خلال هذه القرون ، خطا العالم خطوات فسيحة جداً نحو التقدم والرقى ، ولو نجت إفريقية من الاستعمار لكان حظها أوفر ، ولكن الاستعمار عاقها عن أن تنال نصيبها الطبيعى من التطور العالمى .

وبنظرة عادلة ينبغى أن نضع الأمور فى نصابها ، فلا نستطيع أن نسقط من حساب التقدم تلك القرون ، كما لا نستطيع أن ننسى بعض صور التقدم التى جلبها المستعمر لإفريقية لسبب أو لآخر .

وكل ما يذكره الباحثون عن الفوائد التى جلبها الاستعمار إلى إفريقية هى أنه نقلها بسرعة (!!!) من الحالة البدائية إلى عصر المحراث فعصر الآلات ، وأحلّ اقتصاد العملة محل اقتصاد المبادلة ، وتكونت فى رحابه حياة القرية بفضل الشبان الوطنيين الذين تعودوا على العمل فى المدن محل الحياة القبلية .

وجلب المستعمر بعض أنواع الثقافة ، وربما أراد بها خلق طائفة من

الأتباع أو صغار الموظفين والعمال ، ولكنها كانت فوائد على كل حال ، وأقام بعض السدود وطرق المواصلات لخدمة اقتصاده ، ولكنه تركها على كل حال عندما غادر البلاد .

ولكن ما خصصه المستعمر من أموال لتحسين حالة الشعب الإفريقي كان ضئيلا جداً ، ويورد Derek Kartun مثالا يدل على تفاهة ما أنفقته بريطانيا لرفع مستوى الشعوب التي كانت تقع تحت سيطرتها ، قال : فى أثناء السنوات الخمس التي تولت خلالها وزارة العمال الحكم ابتداء من عام ١٩٤٥ أنفقت بريطانيا فى ٤٦ مستعمرة تابعة لها مبلغ ٤١ مليونا من الجنيهات على سكانها ، وكانت بريطانيا تفخر بذلك ، ولكن الواقع أن عدد السكان كان أكثر من ثمانين مليوناً ، وهذا يعني أن كل فرد نال من هذه المبالغ حوالى شلنين فى السنة ، وهو رقم يدعو للخزى والعار إذا قيس بما يتكلفه الفرد فى بريطانيا ، أو بما تأخذه بريطانيا من ثروات هذه المستعمرات(١) .

فإذا جئنا إلى مضار الاستعمار وعيوب الثقافة الأوربية فى إفريقية ، قابلنا فيضا من الدراسة تشرح ما حل بالقارة من ضيم ، وتقرر أن الأوربيين عندما نزلوا بإفريقية أنهوا حقبة طويلة من السلام والنمو الثقافي اللذين كانا يميزان إمبراطوريات السود الإسلامية ، وأنهم عزلوا إفريقية عن العالم المتمدن ، وعندما خرجت أوربا من إفريقية تركتها على ما كانت عليه أو أسوأ مما كانت عليه(٢) ، ويذكر الباحثون عن نجاح البعثات التبشيرية فى تحويل بعض الإفريقيين إلى المسيحية ، أن هذه المسيحية كانت شكلية بحتة ، قرنت بالاعتقاد فى الأرواح ، ويتحدث العالم « أبيل » عن دور المسيحية

---

(١) Africa Africa .q 38

(٢) Ina Corinne Brown : The Story of the Negro .q 39

والحضارة الأوربية بإفريقية بقوله : إن مملكة الكونغو تعرضت لنفوذ الإرساليات المسيحية ، والثقافة الأوربية أكثر من مائتى سنة دون انقطاع ، ولكن حينما يبحث المرء عن نتائج كل هذا الجهد لا يرى أنه أنتج أى تقدم أخلاقى أو مادى للزنوج[١] . ويذكر عالم متخصص فى شئون إفريقية أن جميع الكتاب الذين كتبوا عن المستعمرات البرتغالية الإفريقية ومَن استوطنها من البرتغاليين يجمعون أنها كانت سلسلة متابعة من الإخفاق الاقتصادى ، كما أخفقت أيضا فى إدخال أى نوع من المدنية[٢] .

فإذا تركنا بلجيكا والبرتغال وجئنا للاستعمار الإيطالى وجدناه أشنع وأبشع ، فقد عملت إيطاليا على القضاء على العنصر الوطنى ، فأسرفت فى القتل والتنكيل وحشدت الآلاف فى معسكرات الاعتقال ، وحرقت كثيراً من القرى على سكانها ، وقد عاش الصومال تحت الحكم الإيطالى قرابة خمس وأربعين سنة دون أن تصنع له شيئاً ، وتركت الناس هناك فى فقر شديد ، يعيشون على الفطرة ، وعشرات الألوف منهم فى المراعى والغابات شبه عرايا يعيشون على الصيد أو الرعى فى أولى مراحل الحضارة الإنسانية ، وتركت إيطاليا مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة دون أن تستثمرها ، وعندما غادرت البلاد ، كان الناس بالصومال يجهلون أبسط وسائل الزراعة ، كالمحراث والساقية والشادوف[٣] .

وهناك عيوب مشتركة ، يلحظها الدارس جميع المستعمرات الأوربية على السواء ، فالتعليم فيها كلها ضعيف جداً فى كمه ، أما من ناحية الكيف فيكاد يكون معدوماً ، وتتراوح نسبة التعليم بين ٢ ٪ و ١٩ ٪ مع ملاحظة

---

(١) نقلا عن « استعمار إفريقية » للدكتور زاهر رياض ص ٣٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٧١

(٣) زاهر رياض : الاستعمار الأوربى لإفريقية ص ٢٦٠

أن المتعلم هنا هو من يعرف القراءة والكتابة فقط ، وهناك ٨٠ ٪ من أطفال القارة لا يتلقون أى نوع من الدراسة ، وقد كان للأوربين مدارسهم الخاصة التى لا تقبل إفريقيين بها ، أما الإفريقيون فقد ترك تعليمهم لمدارس التبشير ، وقد اهتمت مدارس التبشير ، والمدارس الأوربية بإفريقية على العموم بلغة المستعمر وعاداته وتاريخه ، وبهذا قضت هذه الثقافة على اللغات الأصلية ولم نعمل على تطويرها ، كما قضت على التاريخ الطويل العريض للإمبراطوريات الإسلامية فى القطاع الإسلامى الذى نتحدث عنه ، فأهملته أهمالاً تاماً ، وهى بهذا تقصد الإيحاء إلى الإفريقى بأن بلاده غير ذات حضارة أو فن ، وهو ما يكذبه الواقع على الأقل بالنسبة للمنطقة الإسلامية التى قامت بها حضارة مزدهرة عدة قرون .

ومن آثار الاستعمار الإفريقى فى هذه المنطقة وسواها ، جعل البلاد تقتصر على الإنتاج الزراعى دون الصناعى ، وتصدير الخامات المعدنية لتصنيعها بأوربا ، ومن آثاره نشر الإفساد السياسى والاجتماعى بإثارة الفتن والاضطرابات بين القبائل تحقيقا لسياسة « فرّق تسد » ، ومن آثار الاستعمار الأوربى العمل على إضعاف صحة الإفريقيين بإهمال العلاج من جهة ، وإدخال الخمور والمخدرات من جهة أخرى ، بل إن الاستعمار قد عمل أحياناً على نشر الأمراض بين المواطنين ، بقصد إضعافهم وإبادتهم[1] .

أما الحديث عن الرق الذى جعل الإفريقيين سلعاً تباع وتشترى ، فهو من أخطر عيوب الاستعمار الأوربى لإفريقية ، وقد سبق أن تحدثنا عنه وعن المساوئ المتعددة التى ترتبط به .

---

(١) دكتور فيليب رفله : الجغرافية السياسية لإفريقية ص ٦٥ – ٦٦

الاستعمار وتفتيت القارة

من مساوئ الاستعمار الأوربى فى إفريقية مسألة تفتيت القارة ، وقد قلنا فى مطلع هذا الباب إن الاستعمار عندما جاء إفريقية أزال الحدود والأسماء ، وقام بعملية تجميع أطلق عليها مسميات جديدةمثل إفريقية الغربية الفرنسية وإفريقية الغربية البريطانية وهكذا ، ولكنه عندما وجد ألا مناص من الرحيل راح يفتت القارة ويقطع أوصالها ، ويخلق منها دولا متعددة هزيلة ضعيفة لتظل كلها تتطلع إليه ، وبينما كان العالم يوقن أن التجمع أساس القوة ، وأن الولايات المتحدة وألمانيا وإيطاليا لم تأخذ مكانتها إلا بسبب الوحدة ، فإن سياسة الاستعمار بإفريقية كانت تعمل للفرقة والتشتيت ، ويلاحظ أن عمليات التجميع وعمليات التفتيت جميعا لم تكن برأى السكان ولا لصالحهم ، وإنما كانت عمليات استعمارية لصالح الاستعمار ، فاتحادات وسط وشرق إفريقية لم تكن متجانسة ، وتفتيت الإمبراطوريات كانت له أهداف استعمارية عميقة .

ويبدو أن خبراء الاستعمار بذلوا أقصى الجهد ليحققوا أهدافهم فى إضعاف القارة ، وخلق المشكلات بها عقب خروجهم منها ، واتخذوا تفتيت القارة أساسا لهذا الهدف ، ونتج عن ذلك وجود خمسين دولة بإفريقية بالإضافة إلى بعض الجيوب الاستعمارية ، وبهذا أصبحت إفريقية أكثر القارات تقسيما وتعدداً سياسيا ، وهى بهذا تمثل النقيض لاستراليا (القارة الدولة) والنقيض للولايات المتحدة لأن دول إفريقية غير متحدة .

وإذا قارنا إفريقية بآسيا نجد أن وحدات آسيا ٣٥ وحدة مع أن آسيا أوسع رقعة من إفريقية ، ووجدنا أن الصحراء الكبرى بآسيا وهى سيبريا تكاد تقع كلها فى حدود دولة واحدة ، ولكن الصحراء الكبرى بإفريقية

يتقاسمها عشر دول(١) ، وبسبب كثرة الوحدات وبالتالى كثرة الحـدود أصبحت حدود إفريقية أطول من حدود القارات جميعا بطبيعة الحال .

وحدود إفريقية حدود لا تحمد على المظاهر البشرية أو الجغرافية ، وإنما هى حدود استعمارية بنيت على النظرية الفلكية فحسب ، وارتبطت بخطوط الطول والعرض ، ولهذا فهى حدود مستقيمة غالبا ، وفى شبه القارة الهندية أجناس ولغات وعقائد متعددة ، ومع هذا فقد قامت بها دولة واحدة ، ولكن الاستعمار عمل بإفريقية عكس ذلك فخلق عديدا من التقسيمات بين الجنس الواحد وبين المتكلمين بلغة واحدة أو المعتقين لدين واحد . فقد قسمت قبائل الأيوى فأصبح جزء منها فى غانا والجزء الآخر فى توجو ، وقسمت قبائل الماساى بين كينيا وتنجانيقا ، وقبائل صوماليا فأصبح بعضها فى أثيوبيا وبعضها فى الصومال ، وبعضها فى كينيا ، وبعضها فى الصومال الفرنسى ، وهكذا ، كما جعلت الأنهار حدودا مع أن الأنهار عوامل ربط لا عوامل فصل ، فإذا انتقل الإنسان من شاطئ نهر إلى الشاطئ الآخر انتقل من دولة إلى أخرى مع ما فى ذلك من صعوبات لعدم إمكان تخطيط الحدود فى منتصف الأنهار ، ولعرقلة الاتصال البشرى والمادى .

ويلاحظ على حدود السودان أنها ليست حدوداً جنسية ، فقبائل البديات والمسالبط تنتشر فى السودان وفى جمهورية إفريقية الوسطى ، وقبائل بنى عامر فى الشرق تنتشر فى السودان وفى أثيوبيا ، والأزاندى فى الجنوب الغربى ينتشرون فى السودان وفى الكونغو ، والحد المصرى السودانى لا يفصل سلالات متباينة ولا أرضاً مختلفة ولا بلاداً متمايزة فى أى اعتبار ، فهو حد صناعى يمتد عبر أرض متشابهة وسكان متحدين فى أصولهم وثقافتهم .

---

(١) دكتور جمال حمدان : إفريقية الجديدة ص ٨٩ — ٩٠

ومن مشاكل التفتيت الصناعي ما يظهر في جنوب شرق غينيا ، فإنه منعزل عن باقي أجزاء الجمهورية وعن خطها الحديدى ، وإن اتصال هذا الجزء بالبحر تعوقه سيراليون وليبريا وغينيا البرتغالية وهي مشكلة اقتصادية خلقتها الحدود المصطنعة التي لم تحسب أي حساب للظروف الطبيعية أو البشرية(١) .

وقد نتج عن كثرة الوحدات بإفريقية وجود عدد كبير من الدول بدون سواحل يزيد عن الدول التي لا سواحل بها في العالم كله ، ففي إفريقية ١٣ دولة من هذا النوع ، وفي القارات الأخرى كلها إحدى عشرة دولة فقط (٤ في أوربا و ٥ في آسيا ودولتان في أمريكا الجنوبية) ولذلك تسمى إفريقية « قارة الدول الداخلية » وللدول الداخلية مشكلات صعبة بالنسبة لاقتصادها،وكثيرا ما تلجأ هذه الدول إلى العزلة الداخلية والانقطاع والتكيس الحضارى والاكتفاء الذاتى الذى يشجع على الاقتصاديات البدائية ، ويزداد هذا إذا كانت المحاصيل الرئيسية من النوع الثقيل الوزن القليل القيمة كالجلود والحيوانات الحية ، ويزداد هذا إذا ضعفت وسائل المواصلات كالحال في منطقة تشاد ، وكثيرا ما تضطر هذه الدول للدخول في اتفاقيات معينة لمرور التجارة أو الأشخاص ، وكثيراً ما يمتد هــذا إلى نوع من التبعية الاقتصادية(٢) ، والدول الإسلامية الداخلة في القطاع الذى نتحدث عنه هي تشاد والنيجر ومالى .

ومن مشكلات كثرة الدول في إفريقية تعدد الجيران ، ويصل الجيران إلى ٨ في السودان و ٩ في الكونغو وهي مشكلة تؤثر في التماسك السياسى ،

---

(١) دكتور فيليب رفلة : الجغرافيا السياسية لإفريقية ص ١٠٨ – ١١١ بتصرف

(٢) دكتور جمال حمدان : إفريقية الجديدة ص ٧٦

ويزيد من صعوبة هذه المشكلة ألا يوجد تناسب فى عدد السكان بالأقطار المجاورة ، فإذا كان لقطر عدد كبير من الجيران وكان ازدحام السكان واضحا بها فإن ذلك يهدد هذا القطر ويجعله يحتاج دائما إلى يقظة لمراقبة حدوده ، وهذه الحالة كثيرة الانتشار فى إفريقية .

ومن مشكلات كثرة الدول وعدم تناسق التقسيم ، أن وجدت بإفريقية دول فقيرة لا تقوم لها قائمة إلا بالاعتماد على دولة أخرى ، وكثيرا ما كانت الدولة التى تقدم المساعدات دولة غربية ، وهذا منزلق للنفوذ والتأثير فى القارة ، ومن هذه الدول الصومال وموريتانيا وليبيا قبل اكتشاف البترول .

وفى مصر والسودان نموذج عجيب لما أراده الاستعمار من تفتيت وتقطيع الأوصال ، فقد كانت الإمبراطورية المصرية كما ذكرنا من قبل تشمل مصر والسودان ومنطقة خط الاستواء وبحر الغزال وجنوب السودان ، وتشمل مناطق واسعة على البحر الأحمر وكذلك الصومال وهرر ، ولما جاء الاستعمار إلى مصر مزق أوصال هذه الإمبراطورية فأضاع منطقة هرر والصومال وممتلكات مصر على ساحل البحر الأحمر جنوبا ، ومع أنه أعاد فتح السودان باسم مصر سنة ١٨٩٩ إلا أنه استقل بالسيطرة على السودان ، واتجه بكل جبروته الفكرى والعسكرى لعزل السودان عن مصر والاتجاه به إلى الشرق بدل اتجاهه الطبيعى إلى المنطقة العربية بالشمال ، وكان من وسائله لذلك قطع المواصلات بين السودان ومصر ، فالخط الحديدى الذى أنشئ بالسودان إبان حملة الفتح بدئ به من وادى حلفا بدلا من أن يكون البدء به من أسوان أو من الحدود بين السودان ومصر ، وجعل عرض الخط يختلف عن عرض الخطوط المصرية حتى لا يتحقق يوما ما الاتصال بين الخطوط الحديدية المصرية والسودانية ، ثم اتجه هذا الخط إلى البحر الأحمر الذى أقيمت به ميناء بور سودان ليتحقق اتجاه السودان نحو هذا البحر ، وربطت

مراكز الإنتاج بالسودان بهـذا الميناء لتصريف محصول القطن والمحاصيل الزراعية الأخرى ولاستيراد مختلف الأشياء دون الاتصال بالشمال .

ولم يكن ذلك لخدمة السودان وإنما كان لخدمة الاستعمار ، بدليل أن الاستعمار اتجه لعملية فصل جديدة بين أقاليم السودان بعضها وبعض ، فقد عمل على عزل جنوبي السودان عن شماليه ، واتخذ لذلك وسائل العزل اللغوى والديني ، كما أشاع بين سكان الجنوب أنهم زنوج يختلفون عن سكان الشمال الذين ينتمون للجنس السامى ، واتخذ الاستعمار كذلك قطع المواصلات بين الشمال والجنوب وسيلة لذلك ، فلم يمد السكة الحديدية إلى الجنوب ، ولم يعمل على تمهيد الطرق البرية ، ولم يشجع الملاحة ، ولا يزال جنوب السودان يعانى مما غرسته به يد الاستعمار .

بقى من الآثار التى خلفها الاستعمار بإفريقية نقطة تتصل بعواصم الدول الإفريقية ، تلك أن الغالبية العظمى من العواصم ساحلية ، فكلما وجدت دولة تتصل بالساحل نجد عاصمتها ساحلية ، وضعها الاستعمار كذلك منذ زحف بحريا ثم ظلت كذلك ، والاستعمار بذلك يهددها عند اللزوم ، ثم إن وجود العاصمة على الساحل دون أن تتوسط الدولة يجعل من الصعب أن تسيطر على الأقاليم ، كما يجعل الاتصال بها عبئا على السكان البعيدين عن الساحل ، فيقل ولاؤهم لها ، ويزيد سخطهم عليها ويكثر التفكك وتتضاعف هذه المشكلات مع صعوبة المواصلات . والعجيب أن الدول القليلة غير الساحلية وضعت عواصم أكثرها فى طرف الدولة ولم توضع فى وسطها وذلك يضفى عليها أكثر مساوئ العاصمة الساحلية .

وهناك إسفين مرير وضعه الاستعمار الأوربى فى الدول الإسلامية قبل أن يترك هذه الدول ، وهو بإيجاز مقصود يرتبط بالقوى التى هيأ الاستعمار

لها السلطة والنفوذ قبل أن يرحل ، ففى كثير من هذه الدول حيث توجد أغلبية إسلامية ساحقة ترك الاستعمار زمام الأمر فى أيد غير إسلامية ، وطبيعى أن هذا أشاع القلق فى كثير من الحالات ولا تزال بعض الدول الإسلامية تعانى منه .

• • •

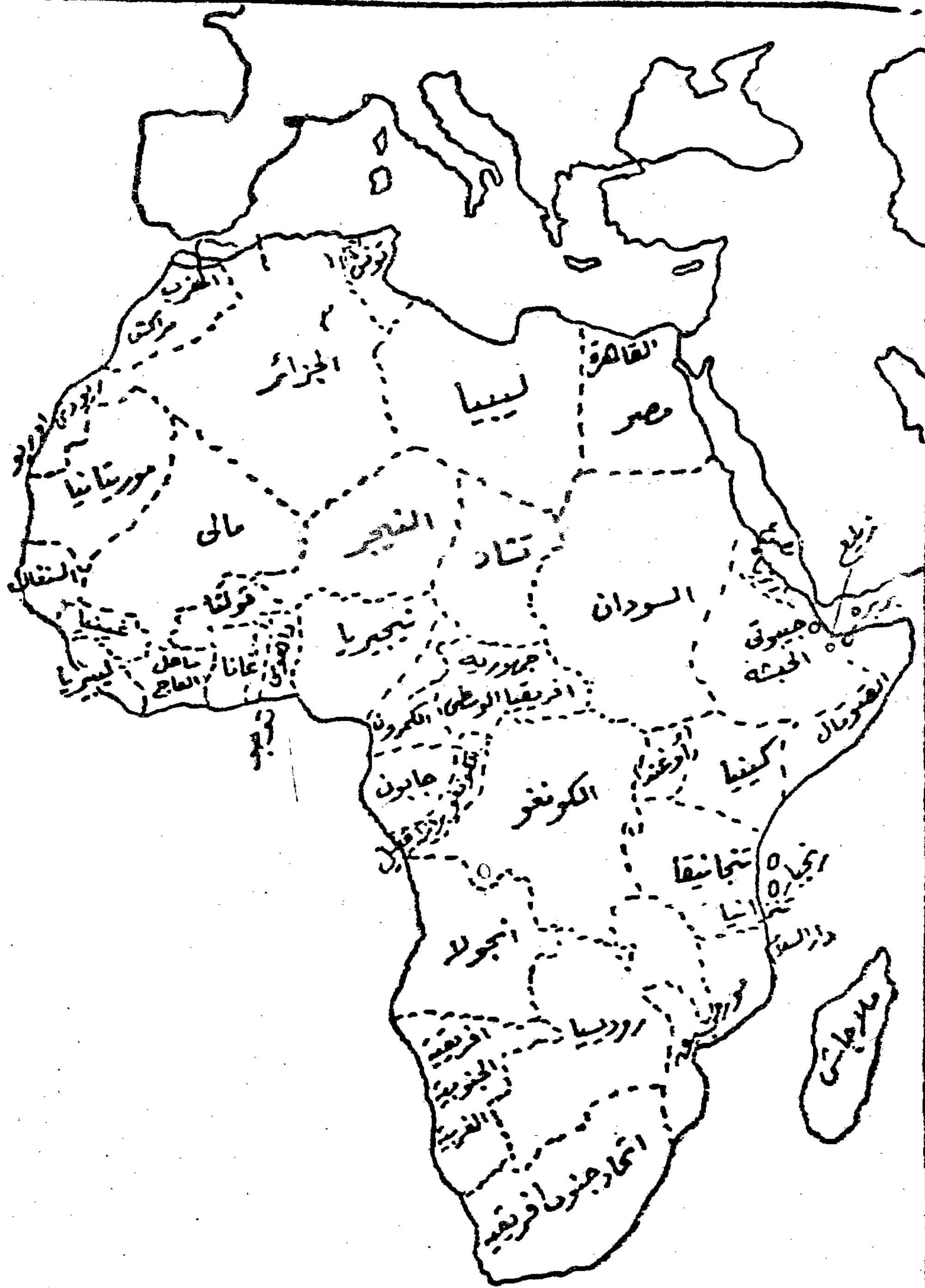
وهكذا عند حساب الأرباح والخسائر التى ترتبط بآثار الاستعمار الأوربى لإفريقية نجد أن خسارة إفريقية كانت باهظة ، وألا مزايا لها من هذا الاستعمار البغيض على الإطلاق .

• • •

هذا ، وبعد زوال الاستعمار الأوربى أصبح بالقطاع الذى نتحدث عنه عشر دول إسلامية هى موريتانيا والسنغال وجامبيا وغينيا ومالى والنيجر ونيجيريا وتشاد والسودان العربى والصومال ، وستكون موضوع حديثنا فى الباب التالى ، كما سنذكر كذلك كلمة إجمالية عن المسلمين فى الدول غير الإسلامية .

الباب السادس

الدول الإسلامية جنوب الصحراء الإفريقية بعد زوال الاستعمار



دول افريقية الآن

مقدمة

سرنا فى هذا القطاع بإفريقية منذ دبَّ فيه الإسلام حتى انتشر ، ثم تكلمنا عنه عندما قامت به دول وإمبراطوريات إسلامية لها حضارة زاهرة ومجد عظيم، ورأيناه والصراعات الداخلية تضعفه ،والنزعات القبلية تقتسمه، ورأينا الاستعمار الأوربى ينتهز هذه الفرصة فيمد لهذا القطاع نفوذه ويسلبه حريته وحقوقه ، ثم شاهدنا هذا القطاع وهو يصارع الاستعمار وينتصر عليه ، والآن نسير خطوة أخرى مع هذه الدول التى انبثقت فى هذا القطاع الإسلامى بعد زوال الاستعمار ، وهنا سنتحدث حديثاً فيه ايجاز ولكن فيه شمول ، فيه إيجاز لأن كل دولة من هذه الدول يمكن أن يكتب عنها كتاب مستقل ولذلك لا بد من الايجاز لنظل فى حدود هذا المجلد ، وفيه شمول لأننا لن نترك نقطة ذات بال دون أن نلم بها ، وسنجعل حديثنا عن كل دولة من هذه الدول عرضاً تاريخياً يربط الماضى بالحاضر ، ثم يعطى صورة واضحة لحالة كل دوله منها ، مع إبراز الدور الذى يمكن أن تلعبه فى مجال السياسة الإسلامية أو الاقتصاد الإسلامى .

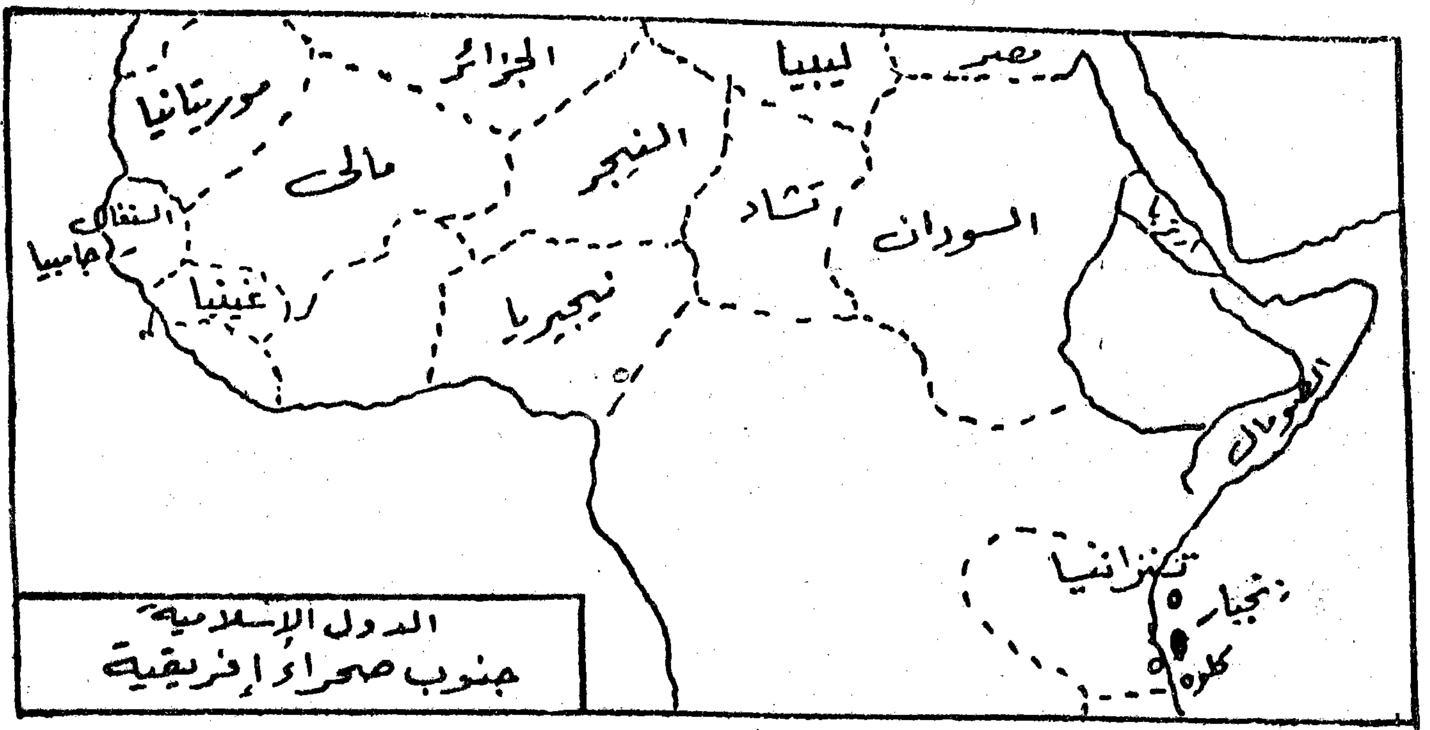
وسنبدأ حديثنا عن هذه الدول بإعطاء صورة عامة لها نبين فيها تبعية كل دولة إبان الفترة الاستعمارية ، ومكانها من الدول والإمبراطوريات الإسلامية قبل الاستعمار .

الدولة الآن	تبعيتها فى عهد الاستعمار	تبعيتها فى العصور الوسطى الإسلامية
موريتانيا	إفريقية الغربية الفرنسية	تابعة للمغرب حتى عهد بنى مرين – حكم قبلى – الاستعمار البرتغالى فالفرنسى
السنغال	إفريقية الغربية الفرنسية	جزء من إمبراطورية مالى الإسلامية – حكم قبلى – الاستعمار الفرنسى
جامبيا	بريطانيا	جزء من إمبراطورية مالى الإسلامية – حكم قبلى – الاستعمار البرتغالى ثم صراع بين فرنسا وانجلترا ونجاح انجلترا فى هذا الصراع
غينيا	إفريقية الغربية الفرنسية	جزء من إمبراطورية مالى الإسلامية – حكم قبلى – الزعيم ساموري يحاول توحيد غربى إفريقية تحت زعامته ولكن دهمه الاستعمار الفرنسى
مالى	إفريقية الغربية الفرنسية	جزء من إمبراطورية مالى الإسلامية – حكم قبلى – الاستعمار الفرنسى
النيجر	« « «	جزء من إمبراطورية صنغى ومملكة برنو – نشاط دان فديو – رابح الزبيرى – الاستعمار الفرنسى
تشاد	إفريقية الاستوائية الفرنسية	كانم وباجرمى وواداى – رابح الزبيرى – الاستعمار الفرنسى
نيجيريا	إفريقية الغربية البريطانية	اليوروبا فى الجنوب – دول الهوسا فى الشمال – والفولانى وعثمان دانفديو – الاستعمار البريطانى
السودان	بريطانيا من الناحية الفعلية	الفونج – كردفان – دارفور – مصر تجمع المنطقة كلها . وتدفع حدود السودان فى كل اتجاه – الثورة المهدية – بريطانيا .
الصومال	فرنسا – إيطاليا – بريطانيا	إمبراطورية عدال – سلطنة مقدشو – أحمد

زنجبار	البرتغال – ألمانيا – بريطانيا	القرن فى هرر – اليمن فالأتراك العثمانيون – مصر – الاحتلال البرتغالى فالبريطانى والإيطالى والفرنسى . العرب بالساحل الشرق والجزر – سلطنة كلوة – البرتغال – عمان – بريطانيا وألمانيا ثم بريطانيا بزنجبار وألمانيا بالساحل ثم بريطانيا بعد نهاية الاستعمار الألمانى .

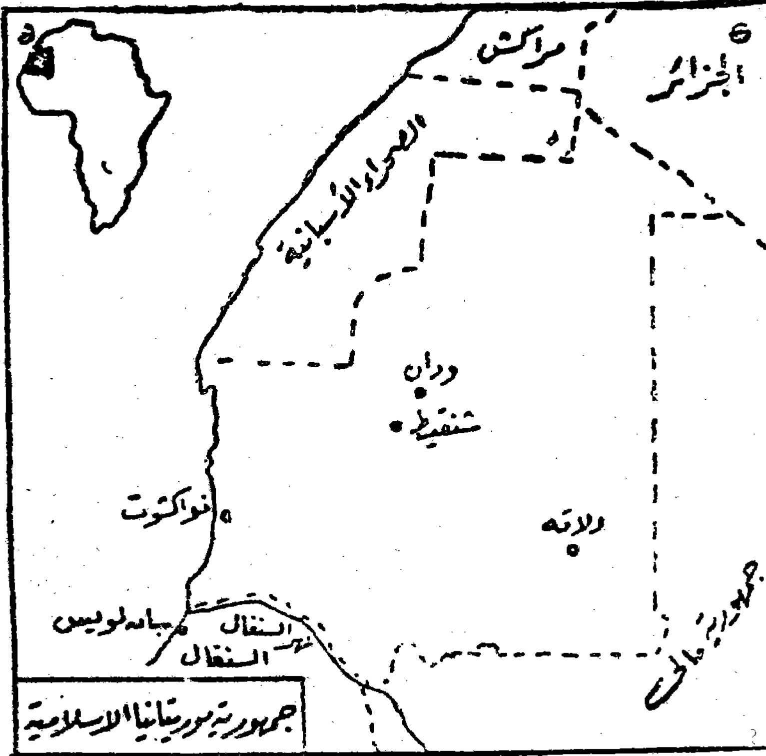
وينبغى أن يلاحظ أن هذا التحديد ليس كامل الدقة ، لأن الحدود بين الدول لم تكن دقيقة وحاسمة ، ولكن هذا الموجز على كل حال يعطى صورة أقرب ما تكون إلى الواقع .

والآن نبدأ دراستنا عن كل دولة على حدة مبتدئين من الغرب متجهين نحو الشرق اتباعاً لخطتنا فى كتابة هذه الموسوعة .


الدول الإسلامية
جنوب صحراء إفريقية
موريتانيا
الجزائر
ليبيا
مصر
مالي
النيجر
تشاد
السودان
السنغال
جامبيا
غينيا
نيجيريا
الصومال
تنزانيا
زنجبار
كلوه

موريتانيا

« جمهورية موريتانيا الإسلامية »



التسمية والموقع :

أطلق الرومان كلمة موريتانيا على المنطقة الشمالية الغربية من قارة إفريقية ، إذ كان هذا الاسم يُطلق على مملكة قديمة قبل العهد الروماني ، فلما جاء العهد الروماني أطلق هذا الاسم على المنطقة كلها (1) ، ومن هنا كان الأسبان يطلقون على العرب الذين جاءوا إلى شمالي إفريقية كلمة

(1) Encyclaopedia Britannica, Article "Mauritania"

« مور » إذ كان قائدهم طارق بن زياد وأكثرُ جنده من أبناء هذه المنطقة، وسار الفرنسيون والإنجليز على طريق الأسبان ، فأطلقوا كلمة « مور » على سكان موريتانيا إذ كانت منهم الجيوش التى عبرت المضيق مرة أخرى لرد الفرنجة الزاحفين على ملوك الطوائف المسلمين بالأندلس .

وجمهورية موريتانيا الإسلامية يحدها من الشمال الغربى إقليم تندوف والساقية الحمراء «الصحراء الأسبانية» ومن الجنوب نهر السنغال وجمهورية مالى، ومن الشرق جمهورية مالى ، ومن الغرب المحيط الأطلسى ، وتبلغ مساحتها ٤١٩ الف ميل مربع :

ويذكر الكتاب السنغاليون أن موريتانيا والسنغال كان يطلق عليهما « فوتى» قبل الاحتلال الفرنسى ، ولما جاء الفرنسيون لهذه المنطقة أعادوا كلمة « مور » للجزء الواقع شمال نهر السنغال واطلقوا اسم النهر على الجزء الواقع إلى الجنوب منه[1] وكان ذلك تفتيتاً للقوى . كما قصد به كذلك عزل هذه المنطقة عن تاريخها الذى ارتبط بالشيخ عمر الفوتى وخلفائه .

السكان : وما ولغة ودينا :

تعداد السكان غير معروف بدقة ، ويمكن القول إن سكان موريتانيا يزيدون عن مليون نسمة وتقديرات حكومة موريتانيا سنة ١٩٦٥ تصل بجملة السكان إلى نحو المليونين ، والسكان من المغاربة غالباً ، وهم شعب أبيض بدوى ينحدر من أصل بربرى وعربى ، وهناك قلة تعيش فى الجنوب فيهم دماء زنجية وهؤلاء يعملون بالزراعة فى حوض نهر السنغال ، ومن ثَمَّ فهم مستقرون ، وليس هؤلاء منعزلين عن سكان الشمال ، بل هناك على مر الزمن ألوان من

---

(١) أبو بكر خالد : فوتى السنغالية ص ٨ (الهامش) .

(٢) انظر الجزء الرابع من هذا الكتاب ص ٣٢١ .

الاختلاط بهم ، أما المغاربة فأكثرهم رحل كانوا يعيشون على الرعى والانتقال من مكان إلى مكان ، وتحاول الحكومة فى العصر الحديث أن تربط كثيرين منهم بصناعات مختلفة أو بالزراعة عن طريق الآبار والمياه الجوفية، وبهذا ينقلونهم إلى حياه الاستقرار بالمدن والقرى :

واللغة العربية هي لغة الغالبية العظمى من السكان ، وتوجد معها اللغة البربرية فى بعض المناطق ، ولهجات الزنوج بالجنوب ، كما توجد اللغة الفرنسية عند بعض السكان ، تلك اللغة التى خلفها الاستعمار الفرنسى بموريتانيا كما خلفها عند بعض السكان فى كل المناطق التى احتلها :

وإذا كانت اللغة العربية هى لغة الغالبية العظمى ، فإن الإسلام هو دين الجميع دون استثناء ، بل إن هذه البلاد كانت المركز الذى تربت فيه حركة المرابطين واندفعت منه تنشر الإسلام فى نواح كثيرة وتحمى الإسلام بالأندلس من زحف الفرنجة :

كلمة تاريخية :

يتجه أكثر الباحثين إلى القول بأنه ليس لهذه المنطقة تاريخ معروف قبل الإسلام ، ومرجع ذلك أن الرومان عندما حكموا الساحل الشمالى لم ينحدروا إلى الصحراء ، وتركوا الأهالى يعيشون فى الأراضى الداخلية تحت إشراف مندوبين منهم ، وتركت لهم حرية الإبقاء على تنظيمهم القبلى .

ومع هذا فإن وجود هذه المنطقة فى طريق الخط التجارى بين منحنى النيجر وبلاد المغرب الأقصى أكسبها ألواناً من الحضارة والغنى ، وجعلها على صلة بالمدنية العالمية آنذاك ، ولذلك أبرزت الحفريات أن البلاد كانت تعيش فى ازدهار حتى أغارت عليها جماعات الفاندال التى اكتسحت أسبانيا

وشمالي إفريقية وحطمت روما سنة ٤٥٥ ميلادية ، وقد كانت غارات مليئة بالعنف والوحشية لا غرض لها إلاّ تحطيم آثار الحضارات والفنون حتى شتق من اسمهم صفة للتعبير عن التدمير الأخرق ، الذى يسعى لتحطيم كل ما هو جميل وهذا التعبير هو : «Vandalism» (١) ؛

وعندما جاء الإسلام إلى هذه المنطقة قدّر لها أن تلعب دوراً كبيراً فى تاريخ الإسلام ، وأن تصبح مركزاً وهاجاً ينشر هذا الدين ويزود عنه فى الشمال والجنوب ، ومن أجل هذا ينبغى أن نفسح المجال لدراسة تاريخ الإسلام فى هذه المنطقة المهمة .

فى صحراء موريتانيا كانت تعيش قبائل الملثمين التى تنحدر من قبائل صنهاجة ، وقد اتخذت هذه القبائل لقب « الملثمين » إذ كان اللثام شعاراً مهماً لها لا يكاد ينفك عنها ، حتى كان كشف الوجه عندها مثل كشف العورة(٢) ، وكانت هذه القبائل تستعمل اللثام فى الليل والنهار فى أثناء العمل وفى أثناء الراحة ، بل كانوا ينامون ويأكلون وهم ملثمون(٣) ، ومن هنا كانت تسميتهم بالملثمين تسمية طبيعية .

أما اتصال هؤلاء بصنهاجة وبالعرب فتؤكده شـواهد كثيرة ، لعل أوضحها ما قاله ابن خفاجة الشاعر الأندلسى وهو يمدح الأمير أبا يحيى إبراهيم ومنه نقتبس البيتين الآتيين :

تُنميهم الدنيا إلى صنهاجة ... والدين ينميهم إلى الأنصار
شادت يد العلياء فى عرصاتهم ... أعلى منار فى أعز ديار(٤)

---

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقية المعاصرة ص ٢١ .
(٢) الدمشقى : نخب الدهر ص ٢٦٧ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ٢٦٠ .
(٤) ديوان ابن خفاجة : ص ٥٥ .

وقد تكون نسبة الملثمين إلى العرب صحيحة ، أو قد تكون قد اشتهرت بناء على ادعاء رسخ فى أذهان الناس . إذ يلاحظ أن كثيراً من القبائل المغربية كانت تنسب نفسها إلى العرب، لأنها أرادت بعد أن تم إسلامها أن تكون على قدم المساواة مع القبائل العربية حتى تستطيع المشاركة فى الحياة السياسية الجديدة التى أظلت المغرب بمجيء العرب[١] : ونقطة أخرى يلزم توضيحها هنا هى الامتزاج الذى تم سريعاً بين العرب وغيرهم فى كل المناطق التى دخلها العرب مع الإسلام ، وهذا الامتزاج الذى كان التزاوج أساسه حمل أنساب العرب من مكان إلى مكان .

على أن بعض الباحثين يرى أن هذه القبائل عربية ، دخلت المغرب مع موسى بن نصير ، وتوجهت مع طارق إلى طنجة ، ولكن كثيرين منهم مالوا بعد ذلك إلى البعد عن ضوضاء المدن ، فدخلوا الصحراء بالمغرب الأقصى واستوطنوها[٢] .

وقبائل الملثمين كثيرة العدد ،ولكن أهمها لمتونة فى الشمال،إلى الجنوب من مراكش الحالية، وجُدالة فى الجنوب بالقرب من نهر السنغال، ومسوفة فى الوسط ، وقد كان للمتونة الرياسة على كل هذه القبائل[٣] .

وعلى كل حان فإن قبائل الملثمين اتخذوا موقعهم فى موريتانيا إمّا فراراً من صخب الحياة فى الشمال ، أو هرباً أمام الغزوات العربية والهجرات العربية التى اندفعت إلى شمالى إفريقية فى موجات الفتوحات التى تعاقبت على هذه المناطق خلال حكم الدولة الأموية .

---

(١) دكتور حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧ .
(٢) عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ١٧٥ .
(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨١ .

ولما قامت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢ هـ ـ ٣٧٥ هـ) ، اندفعت تنشر الإسـلام فى مناطق الجنوب ، واستطاعت بالحرب تارة ، وبالفكر تارة أخرى أن تدخل منطقة موريتانيا ، وأن تنشر الإسلام بين الملثمين ، وقد تمّ ذلك فى القرن الثالث الهجرى ، فأصبحت هذه المناطق عميقة الإيمان قوية العقيدة ، ولكن دخولها الإسلام خلق اتجاها جديداً فيها ، فقد وحَّد صفوفها بعد أن كانت متفرقة ، ووضحت زعامة لمتونة لها بفضل الزعيم ثيولوتان بن تيكلان الذى كان قوى الإسلام قوى الشخصية ، فانصاعت له كل الفروع فى قبائل الملثمين[1] .

وأنفت هذه القوة الجديدة أن تظل على خضوعها للأدارسة ، وبدأت تكوّن لها كياناً خاصاً ، وكان من الأيسر عليها بعد ذلك أن تتجه إلى الجنوب لتنشر الإسلام فراحت تهاجم مملكة غانا الزنجية وتوجه لها أعنف الضربات ، وكان المهاجمون يترقبون إحدى الحسنيين ، فإما أن يموتوا فى سبيل الله ، وإما أن ينشروا دين الله ويقضوا على الوثنية فى مملكة الزنوج[2] ، وساعدهم على ذلك أن شعب صوصو الذى كان يقطن إلى الجنوب من مملكة غانا انتهز فرصة هجوم الملثمين بالشمال على مملكة غانا ، وراح يطعنها من الجنوب ، وبهذا أتيح للملثمين النصر ، وتوغلوا فى مملكة غانا ، واستولوا على مدينة أودغشت[3] .

ويبدو أن قوة الملثمين بدأت تضعف بعد ذلك ، وأن حياة الترف شغلتهم عن الدين ، فلما جاء القرن الخامس ، بدأت نهضة جديدة لهذه القبائل ، وكانت هذه المرة بقيادة يحيى بن عمر من لمتونة كذلك ، ومعه الفقيه العالم عبد الله بن يس الجازولى ، وكان عبد الله يلقى دروسه على

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨١ ـ ١٨٢ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩٣ .
(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٩٩ .

الملثمين.، ولكنهم استصعبوا عمله وتركوا الأخذ عنه ، فأعرض عنهم وترهب وتنسك معه يحيى بن عمر من رؤساء لمتونة وبعض المريدين ، وانتبذوا الناس فى ربوة أسموها رباطاً ، أى قاعدة يرابطون فيها للجهاد والعبادة ، وكان هذا الرباط فى جزيرة عند مصب نهر السنغال هى التى تقع عليها اليوم ميناء سانت لويس . . . . . . ، وفى خلال هذه الفترة تكاثر المريدون فى هذا الرباط حتى صاروا ألفاً ، فهتف فيهم عبد الله بن يس قائلا :

« إنكم لن تُغلَبوا عن قلة ، وقد تعيّن علينا القيام بالحق والدعاء إليه ... » فخرج المرابطون بقيادة يحيى بن عمر ، ولما توفى يحيى خلفه أخوه أبو بكر وابن عمه يوسف بن تاشفين ، وبدأ بهما ملك المرابطين الذى اتجه نحو الجنوب حتى بلاد السنغال ، كما اتجه نحو الشمال حتى ضم أسبانيا .

وهكذا تتضح لنا أهمية موريتانيا فى التاريخ الإسلامى ، والقوى العظيمة التى نشأت بها ودفعت الإسلام إلى الجنوب مساحات واسعة ، كما حمت الإسلام فترة طويلة عندما تعرض لضغط الفرنجة فى أسبانيا ، ولم يكن المرابطون وحدهم هم الذين نشأوا فى منطقة موريتانيا وما حولها وإنما نشأ بها الموحدون وبنو مرين مما يوضح لنا أن لهذه البلاد فى التاريخ الإسلامى دوراً حافلاً ، ذكرناه بشىء من التفصيل فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة ، إذ كانت الصلة وثيقة بين موريتانيا والمغرب ، وكانا يكونان دولة واحدة طيلة التاريخ الإسلامى الوسيط .

وموريتانيا فى التاريخ الوسيط كانت تسمى شنقيط ، ولا يزال هناك كثير من العلماء يحملون اسم الشنقيطى نسبة لهذه البلاد .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨٣ وكارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ٢ ص ٧٢ وما بعدها .

وبعد هذا التاريخ الناصع انحلت البلاد ، وتقطعت أوصالها ، وقام بها حكم قبلي مهد الطريق للاستعمار الأوربي .

موريتانيا والاستعمار الأوربي :

كان البرتغاليون أول من زحف على هذه المناطق لقرب المسافة بين البرتغال وموريتانيا من جهة ، وللثأر من هذه المناطق التي طالما دفعت بأبنائها لاقتحام أسبانيا والبرتغال من جهة أخرى ، ثم بدافع احتكار تجارة الصمغ العربي الذي اشتهرت به منطقة السنغال .

ولم يبق البرتغاليون وحدهم في هذه المناطق مدة طويلة ، فسرعان ما جاء على أثرهم الهولنديون والفرنسيون ، وكان الفرنسيون أطول مقاماً وأعرض آمالا ، أما البرتغاليون فقد اتجهوا إلى الجنوب من نهر السنغال في محاولتهم للدوران حول القارة والوصول إلى الهند ، وقد اتجهت عناية الفرنسيين لاحتكار تجارة الصمغ ، ومن ثم أقامت فرنسا محطة تجارية جنوب مصب السنغال لتفد لها قوافل التجارة من الداخل ، ولكن بعض قبائل موريتانيا وبخاصة جماعات الطرارزة أخذوا يغيرون على هذه القوافل وعلى منطقة نهر السنغال التي اعتبرها الفرنسيون أرضاً لهم ، فبدأ الفرنسيون يردون غارات الطرارزة ويهاجمون أرض موريتانيا ، وقد ظلت هذه هي العلاقة بين موريتانيا وفرنسا حتى القرن التاسع عشر عندما عُيِّن فيدرب Faidherbe حاكماً على أرض السنغال وتصدى لقبيلة الطرارزة وهزمها سنة ١٨٥٨ وأرغم زعماءها على توقيع معاهدة تلتزم فيها بعدم الاقتراب من حوض السنغال وعدم مهاجمة سكانه أو القوافل المارة به .

وكانت هذه المعاهدة مطلع تطلعات فرنسية لموريتانيا ، فلما جاء عصر الاستعمار الأوربي بعد ذلك ، مدت فرنسا نفوذها كاملا لموريتانيا واتخذ الحاكم الفرنسي اكسافير كوبولاني المنافسة بين العرب والبربر وسيلة للسيطرة على

هذه المناطق ، فاتصل ببعض زعماء البربر وأغراهم بطلب الحماية الفرنسية ، وفى عام ١٩٠٣ ضم إلى حكمه أرض الطرارزة ، وبعد وفاته سنة ١٩٠٥ سار الكولونيل غورو على نهجه فبسط نفوذه الفعلي على منطقة أورار سنة ١٩٠٩ وبهذا سيطرت فرنسا على أغلب البلاد وفى سنة ١٩٢٠ اعتبر الفرنسيون أرض موريتانيا وحدة إدارية ، وأصبحت بالتالى إقليما من إفريقية الغربية الفرنسية التى تضم ثمانى مقاطعات فرنسية فى إفريقية الغربية(١) ، وكانت عاصمتها مدينة « سانت لويس » وهى تقع فى بلاد السنغال وليس فى بلاد موريتانيا ، وذلك من دواعى الدهشة ، وقد بقيت « سانت لويس » عاصمة لموريتانيا حتى يوليو سنة ١٩٥٧ فصدر مرسوم بجعل العاصمة مدينة « نواكشوت » وهى مدينة موريتانية وانتهى بذلك هذا الشذوذ .

الاستقلال :

إن استقلال موريتانيا وغيرها من المستعمرات الفرنسية لم يتم دفعة واحدة وإنما مرت هذه المناطق بمراحل طويلة حتى وصلت إلى الاستقلال التام ، وسنقدم هنا دراسة عن « المستعمرات الفرنسية وطريقها إلى الاستقلال » وهى دراسة تفيدنا مع كل الدول الإسلامية التى كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى بإفريقية ، لأن الطريق كان واحداً ولم تظهر فروق إلا مع استفتاء ٢٨ سبتمبر الذى اقترحه الجنرال ديجول ، وفيما يلى هذه الدراسة .

المستعمرات الفرنسية بإفريقية وطريقها للاستقلال :

كانت إفريقية الفرنسية الغربية تتكون من أقاليم ثمانية هى : موريتانيا والسنغال والسودان الفرنسى « مالى حالياً » وغينيا الفرنسية « غينيا حالياً » وساحل العاج وفولتا العليا وداهومى والنيجر .

---

(١) تقويم البلدان الإسلامية ص ٢٢٢ .

وكان يحكم كلَّ إقليم من هـذه الأقاليم حاكم فرنسي ، وكان هؤلاء مسئولين أمام حاكم عام للمنطقة كلها يقيم فى دكار التى كانت فى الوقت نفسه عاصمة إقليم السنغال، هذا الحاكم بدوره مسئول أمام وزير المستعمرات والبرلمان الفرنسى .

وكانت إفريقية الفرنسية الاستوائية تتكون من أربعة أقاليم هى جابون والكونغو الأوسط وأوبانجى شارى « إفريقية الوسطى الآن» وتشاد ، وكانت - كإفريقية الفرنسية الغربية - يحكم كلَّ إقليم منها حاكم فرنسى ، وكان هؤلاء الحكام الأربعة مسئولين أمام حاكم فرنسى عام للمنطقة كلها يقيم فى برازافيل بالكونغو الأوسط ، فى حين كانت عاصمة هذا الإقليم هى (بوانت نوار) وكان الحاكم العام مسئولا أمام وزير المستعمرات والبرلمان الفرنسى ، وكان لكل حاكم مساعدون فرنسيون للشئون المختلفة ، ولا يُستعان بالوطنيين إلا فى الأعمال الدنيا ، وكان النظام الانتخابى المعمول به غير مباشر ، وهكذا كانت فرنسا تحكم هذه الأقاليم حكماً مباشراً دون الاعتماد على السلاطين أو الرؤساء الذين استغنت عنهم الإدارة الفرنسية شيئاً فشيئاً ، ولم يبق لهم إلا مظاهر لا جدوى لها كجباية الضرائب لحساب الخزانة الفرنسية وكالإعفاء من الجندية .

وظل الحال كذلك منذ بدء الاستعمار الفرنسى بإفريقية حتى سنة ١٩٤٤ وكانت فرنسا قد سقطت فى الحرب العالمية الثانية أمام ألمانيا ثم بدأت تنتعش من جديد ، ولكن كبرياءها كان قد انهار ، فعُقِد فى هذا العام مؤتمر فى برازافيل أوصى بضرورة تطوير نظم الإدارة وزيادة استخدام الإفريقيين فى وظائف الحكومة ، والأخذ بنظام الانتخاب المباشر ، كما ظهر فى المؤتمر اتجاه نحو منح هذه الأقاليم الحكم الذاتى والاكتفاء بالارتباط بفرنسا فى اتحاد فيدرالى[1] .

---

(١) دكتور عبد الملك عودة : السياسة والحكم فى إفريقية ص ١٧٣ .

وبناء على هذا المؤتمر جاء دستور ١٩٤٦ وأهم ما ورد به البنود التالية :

١ ــ أصبحت الإمبراطورية تدعى « الاتحاد الفرنسى » وذلك تراجع واضح من الاستعمار :

٢ ــ ألغيت كلمة « المستعمرات » وحل محلها تعبير جديد هو « الأقاليم الواقعة فيما وراء البحار » ومنحت حق تمثيلها فى الجمعية الوطنية ومجلس الجمهورية ، وجمعية الاتحاد الفرنسى .

٣ ــ تنتخب الأقاليم الفرنسية ممثلين لها فى الجمعية الوطنية الفرنسية .

٤ ــ تكوين جمعية تمثيلية بالانتخاب فى كل إقليم .

٥ ــ إنشاء « المجلس الكبير » لكل من إفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية وتختار الجمعيات الإقليمية ممثليها فيه .

٦ ــ يتمتع جميع الأفراد بهذه الأقاليم بصفة « المواطن الفرنسى » ولكن لا يكون له حق الانتخاب إلا إذا كان موظفاً عمومياً أو من المحاربين القدماء أو من حملة الإجازات العالية .

وعلى الرغم مما فى هذا الدستور من قصور فإنه أتاح لعدد كبير من الإفريقيين أن يصيروا أعضاء فى الجمعية الوطنية الفرنسية بباريس ، وهناك زمجرت هذه الأصوات وطالبت بحقوق أوسع ، وعدالة أكمل ، كما أنه أعاد لهذه الأقاليم كيانها إلى حد كبير :

وفى مطلع عهد ديجول أدركت فرنسا أن عهد الاستعمار المباشر قد انتهى فأرادت أن تكوّن منها ومن مستعمراتها السابقة جماعة أشبه بالكومنولث البريطانى ، فأعلن ديجول قيام الجمهورية الفرنسية الخامسة سنة ١٩٥٨ ، ومن أهم ما ورد فى دستورها مما يتصل بالمستعمرات السابقة ما يلى .

١ — يتحول الاتحاد الفرنسى إلى « الجماعة الفرنسية » أو « المجتمع الفرنسى » ؛

٢ — تمنح الأقاليم الإفريقية الاستقلال الذاتى، ويكون لكل دولة رئيسها وبرلمانها ولكن الجماعة تحتفظ بطائفة من الاختصاصات أهمها السياسة الخارجية والدفاع والاقتصاد ، وهذه الأمور يديرها « مجلس تنفيذى » مكون من رؤساء كل الدول المتحدة التى يرأسها رئيس الدولة الأم (فرنسا) ومعهم الوزراء الفرنسيون المسئولون عن المسائل المشتركة .

٣ — للدول الحق فى الانسحاب من الجماعة وقتما تشاء إذا أرادت ذلك .

وجرى استفتاء فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨ فوافقت عليه كل الدول الإفريقية الفرنسية إلا غينيا فقالت « لا » مؤثرة الاستقلال التام خارج الجماعة .

وينبغى أن نوضح أن الاستفتاء لم يكن حراً حرية حقيقية ، فلم يجىء معبراً تعبيراً دقيقاً عن اتجاه الشعوب ، ولذلك كانت نتائجه قصيرة العمر ، فلم يستمر العمل طويلا به ، وسرعان ما رأينا الدول التى أعلن من قبل أنها موافقة على الدستور تطالب بالاستقلال التام ، على أن يكتفى بمعاهدات ثنائية لمعالجة بعض الأمور ، وطأطأت فرنسا للعاصفة ، وتركت الدول الإفريقية تستقل عنها كما أرادت ، وكان عام ١٩٦٠ عام الاستقلال وحل محل المجلس التنفيذى « مؤتمر دورى من رؤساء الدول والحكومات » يقتصر عمله على التنسيق، لأن السياسة الخارجية والمال والدفاع تركت لكل دولة ، وتبعاً لذلك لم يكن فى هذا المؤتمر مكان للوزراء لأنه لم تعد هناك أمور مشتركة معلقة كما كانت الحال من قبل[1] .

---

(١) جاك ووديس : جذور الثورة الإفريقية ترجمة أحمد فؤاد بلبع ص ٥٥٦ و٥٥٨ والدكتور راشد البراوى : مشكلات القارة الإفريقية ١٢٣ وما بعدها .

موريتانيا من الاستعمار إلى الاستقلال :

مرت موريتانيا بالمراحل التى ذكرناها فى الدراسة السابقة حتى إذا جاء الاستفتاء على دستور ٢٨ سبتمبر صوتت موريتانيا إلى جانبه ، ونتيجة لذلك أصبحت عضواً مستقلا فى الجماعة الفرنسية ، ثم أخذت بعد ذلك طريقها بالمراحل التالية ليكمل لها الاستقلال :

— فى مارس سنة ١٩٥٩ صدر أول دستور للبلاد ، ويقضى بأن تتولى السلطة التنفيذية حكومة من ثمانية وزراء مع جمعية وطنية تتكون من ٣٤ عضواً .

— فى نوفمبر سنة ١٩٦٠ أعلن استقلال البلاد .

— فى مايو سنة ١٩٦١ صدر دستور جديد يقضى بتكوين حكومة رياسية يكون رئيس الجمهورية فيها هو رئيس الوزراء ، وله ما يتبع ذلك من حقوق .

— ضمت موريتانيا إلى منظمة الأمم المتحدة فى أكتوبر سنة ١٩٦١ .

— اختير الرئيس « مختار ولد داده » رئيساً للجمهورية فى أغسطس سنة ١٩٦٢ ، وجدد انتخابه فى أغسطس سنة ١٩٦٦ وهو رئيس الجمهورية الآن .

اقتصاد موريتانيا :

لا تعد موريتانيا من البلاد الغنية ، فالصحراء تغطى أغلب أرضها ، وتنحصر المنطقة الزراعية فى حوض نهر السنغال جنوبى البلاد ، والمدن قليلة فى موريتانيا وأغلب السكان بدو يعيشون على الرعى وتربية الماشية ، وفى حوض نهر السنغال يزرع الدُّخن وهو نبات من فصيلة النجيليات حبه

صغير ، يقدم طعاماً للطيور والدجاج ، كما تزرع الفاصوليا والبطاطا وتكثر التمور وكلها تستهلك محلياً ، وبمناسبة الحديث عن التمور ذكرت إحصائيات سنة ١٩٥٩ أن بموريتانيا حوالى نصف مليون نخلة ، ويعتبر التمر غـذاء رئيسياً للبدو ، وبين أشجار النخيل يزرع الشعير والقمح والتبغ والحناء ، وكثير من أشجار الفاكهة ، وفى عهد الاستقلال اهتمت الحكومات باستصلاح الأراضى ، وإعادة الحياة للمزارع القديمة ، ومن أشهر المشروعات الزراعية فى موريتانيا محطتان زراعيتان فى كيفا وكانكوسا .

ونظراً لكثرة المراعى فى موريتانيا كانت تربيـة الحيوانات تمثل جزءاً عظيما من النشاط الاقتصادى فى موريتانيا ، وتذكر الإحصائيات أن بالبلاد أكثر من خمس ملايين رأس غنم وماعز ، وحوالى مليون بقرة ، ومئات الآلاف من الجمال والخيل والحمير .

وصيد الأسماك يمثل جانباً مهما فى اقتصاد موريتانيا ، ويُعْتَمَد على المحيط وعلى نهر السنغال فى صيد هذه الكمية الكبيرة من الأسماك ، ويستهلك أكثره محلياً ، ويصنَّع بعضه تجفيفاً أو تعليباً ليصدَّر إلى البلاد المجاورة .

أما الثروة المعدنية فتعتمد على الحديد الذى يستخرج من مناجم فورغورو ، وهى مناجم غنية بالحديد بنسبة ٦٥ ٪ وبالإضافة إلى الحديد هناك معدن النحاس الذى عثر عليه فى منطقة أكجوج ، كما أن هناك توقعات حول العثور على البترول بكميات وافرة بالقرب من ساحل الإطلنطى ، أو فى الحوض الرسوبى لنهر السنغال ، ويؤمل أن يحقق عهد الاستقلال ألوانا من الرفاهية للسكان ، وأن ينقل البلاد إلى الزراعة المتطورة ، والصناعة التى ترتبط بما فى البلاد من محاصيل زراعية أو معدنية .

التعليم :

إن حياة التنقل التي أشرنا إليها ، والتي تنتظم كثيراً من سكان موريتانيا كانت من أهم العوامل التي أدت إلى صعوبة التعليم ، وانخفاض نسبته ، وفي عهد الاستقلال حاولت الدولة أن تعالج هذا الأمر ، فتنعت القبائل عندما تحط رحالها لتوجه أطفالها إلى أقرب المدارس إلى المكان الذي ينزلون به ، ولكنها أدركت صعوبة هذه الحالة ، لاختلاف مستوى التعليم بين تلاميذ البدو والتلاميذ المقيمين ، ولذلك بدأت الدولة مشروع المدرسة المتنقلة فألحقت بالقبائل مدرسين يقيمون معها ويرحلون بترحالها ، بيد أن هذه الحالة سيحل مكانها المدارس الثابتة مع نجاح خطة الاستقرار للبدو التي تعمل الدولة على نشرها بربطهم بالزراعة بدل الرعي ، وعلى كل حال فقد شهد عهد الاستقلال تطوراً واضحاً في عدد المدارس ونوعها ، وعدد التلاميذ والطلاب ، فأصبح في موريتانيا عدد كبير من المدارس الابتدائية ، وحوالي عشرين مدرسة ثانوية ، ومعهد للدراسات الإسلامية ، أما التعليم العالي فلا يزال محدوداً في موريتانيا ولذلك يتجه الراغبون فيه إلى جامعة داكار في السنغال أو إلى مصر .

بين المغرب وموريتانيا :

هناك تياران سياسيان يتجاذبان موريتانيا ؛ أحدهما تيار الجنس الغالب والدين وهو يجذبها نحو المغرب ، والثاني تيار الروابط الاقتصادية والتقارب المادي وهو يجذبها نحو وسط إفريقية[1] ، وقد ظلت موريتانيا تكوّن مع المغرب وحدة واحدة طيلة عهد المرابطين والموحدين وبني مرين ، وانتشرت

---

(١) صلاح صبري : إفريقية وراء الصحراء ص ١٩٦ .

بها اللغة العربية والدين الإسلامي خلال هذه العصور ، لكن سكان موريتانيا هم من القبائل ، وطبيعة القبائل لا تميل للخضوع لحكومة مركزية ، وتحاول ما استطاعت أن تتمرد على هذه التبعية وتعود للانطلاق ، ومن هنا كان سكان موريتانيا يقتنصون الفرص لإعلان نوع من الاستقلال عن حكومة الشمال ، وهكذا عاشت موريتانيا معظم الوقت تتأرجح بين الاندماج فى المغرب أو إعلان نوع من الاستقلال عنه ، وإقامة حكم محلى قبلى .

ولما زحف الاستعمار الفرنسي إلى منطقة السنغال فى آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وزحفت قواته إلى موريتانيا لحماية تجارته فى السنغال كما ذكرنا آنفاً ، عارضها السكان والأهالى ، ولكن مراكش نفسها سرعان ما خرت تحت الاستعمار الفرنسي والأسبانى ، وفى عهد الاستعمار رجحت الكفة التى تميل للتفرقة بين موريتانيا والمغرب (١).

٥

وإذ كان دعاة الانضمام للمغرب يستندون إلى نوازع الجنس والدين ، فإن دعاة الاستقلال يستندون إلى أنه ليس هناك حدود مشتركة بين المغرب وموريتانيا ، ويرون أن موريتانيا لها طابع خاص يخالف طابع سكان الشمال كما يخالف طابع سكان قلب إفريقية ، ومن ثم فموريتانيا تكون حلقة اتصال بين القسمين ، ولا يجوز أن تندمج مع أى منهما .

ونحن دعاة وحدة ، ونرى فى الوحدة مجدنا وقوتنا ، ولكننا فى الوقت نفسه يحكمنا حق تقرير المصير ، فالوحدة لا بد أن تكون إرادة الشعوب ، وفى كلمة مخلصة أحب أن أقرر أن مصر باركت استقلال السودان مع شدة ارتباطها به ومع تمسكها بالوحدة معه فترة طويلة ، ولكنها رأت أن الاعتراف باستقلال السودان سيحرس الروابط بين البلدين ، ويزيل الجفوة

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٤ ص ٢٢٥ – ٢٢٦ من الطبعة الثالثة

التى ظهرت لسبب أو لآخر ، وقد استطاع البلدان أن يحققا خطوات واسعة فى سبيل التقارب بعد موقف مصر من الاعتراف باستقلال السودان، ومثل هذا موقف مصر بالنسبة إلى سوريا ، فقد اعترفت مصر باستقلالها سنة ١٩٦١ بعد أن ربطتها بها وحدة تامة أرادها شعب مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ ، وفى ظل اعتراف مصر باستقلال سوريا عادت خيوط الود تنسج من جديد بين البلدين الشقيقين .

وكم أتمنى أن يقف المغرب من موريتانيا نفس الموقف الذى وقفته مصر من السودان ومن سوريا لتحتفظ بموريتانيا ، دولة عربية إسلامية ؛ واعتقادى أنه لو تمَّ هذا لأصبح بين المغرب وبين موريتانيا علاقات قوية ينسجها التاريخ الطويل المشترك ، والأمل العريض فى المستقبل .

أحداث جديدة تتصل بموريتانيا :

دارت الأيام دورتها وتغيرت الأوضاع بالنسبة لموريتانيا فى ذاتها ، وبالنسبة لموريتانيا فى علاقاتها بجيرانها ، وحتى يتضح الموقف نذكر أن الصحراء المغربية التى احتلتها أسبانيا سنة ١٨٨٥ كانت السبب فى هذا التغير ، وكانت المغرب ترى أن الصحراء جزء منها ، أما أسبانيا فكانت تتمسك بهذه الأرض مدَّعية أنها عندما احتلتها سنة ١٨٨٥ كانت أرضا بلا صاحب ، وقد تساهلت المغرب فى الصراع كما يقول سفيرها بالقاهرة حرصاً على علاقات العرب بأسبانيا وتقديراً لموقف أسبانيا من العرب فى قضية فلسطين والشرق الأوسط ، ولكن التساهل لم يكن أبداً يعنى التنازل عن هذه الأرض .

وانتهزت أسبانيا فرصة التساهل المغربى فقوَّت أطماعها فى المنطقة

وبخاصة عنـــد احتمال ظهور البترول فيها ، وتحقيقاً لأهدافها قامت بالاتفاق مع بعض سكان المنطقة لتمنح المنطقة استقلالاً ، ولتفصلها نهائياً عن المغرب ، ومما ساعد على ذلك أن موريتانيا كانت كذلك تدعى أن لها حقا في الصحراء .

وإزاء ذلك تم الإتفاق سنة ١٩٧٤ بين موريتانيا والمغرب على أن تقسم الصحراء بين الدولتين ، وتقدمت المغرب برسالة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة تنذر باستخدام القوة إذا أقدمت أسبانيا على تنفيذ مخططها ، فقررت هيئة الأمم تحويل القضية إلى محـكمة العدل الدولية فى لاهاى ، وفى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٥ قررت محـكمة العدل الدولية أن هذه الصحراء لم تـكن أرضاً بلا صاحب حين تم ضمها لمستعمرات أسبانيا فى أواخر القرن الماضى ، كما قررت أن هذه الصحراء كانت لها روابط قانونية بالمملـكة المغربية . وعقب ذلك قرر الملك الحسن أن يقوم المغاربة بزحف سلمى إلى الصحراء .

انسحاب أسبانيا :

ونتيجة لـكل ذلك وقعت اتفاقية مدريد فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٧٥ والتى تقضى بانسحاب أسبانيا من الصحراء ، ثم عقدت اتفاقية فى نفس العام بين المغرب وموريتانيا بتقسيم الصحراء بين المغرب فى الشمال وموريتانيا فى الجنوب .

الوفاق بين المغرب وموريتانيا :

وهكذا تحقق الأمل الذى تطلعنا له وصفت العلاقات بين المغرب وبين موريتانيا ، فلم يـكتف المغرب باعترافه باستقلال موريتانيا

بل أضاف لها جزءاً من الصحراء ، وفى مايو سنة ١٩٧٧ عقدت اتفاقية دفاع وتعاون اقتصادى مشترك بين المغرب وموريتانيا رابطت بمقتضاه قوات مغربية داخل موريتانيا يبلغ عددها ٩ آلاف مقاتل .

الجزائر ومشكلة الصحراء :

على أن القضية لم تنته بالوفاق بين المغرب وموريتانيا، فقد برز اسم الجزائر فى الصراع من أجل هذه الصحراء ، وأيدت الجزائر منظمة ظهرت حديثا باسم « منظمة البوليزاريو » ولها جيش يسمى « جيش التحرير الصحراوى » وكان موقف الجزائر مبنيا على ادعاء حقوق لها فى الصحراء ، ثم لمحاولة الحصول على طريق برىّ فى جمهورية صحراوية مستقلة لتنقل عن طريقه ثروتها المعدنية إلى المحيط الأطلسى ، وقد وصل الخلاف إلى معارك عربية اشتركت فيها الجزائر ، وتدخلت وفود عربية لإيقافها ، ولم تصل المشكلة بين الجزائر والمنظمة الصحراوية من جانب وبين المغرب وموريتانيا من جانب آخر إلى حل نهائى حتى كتابة هذه السطور (أكتوبر ١٩٧٨)

موريتانيا تنضم للجامعة العربية :

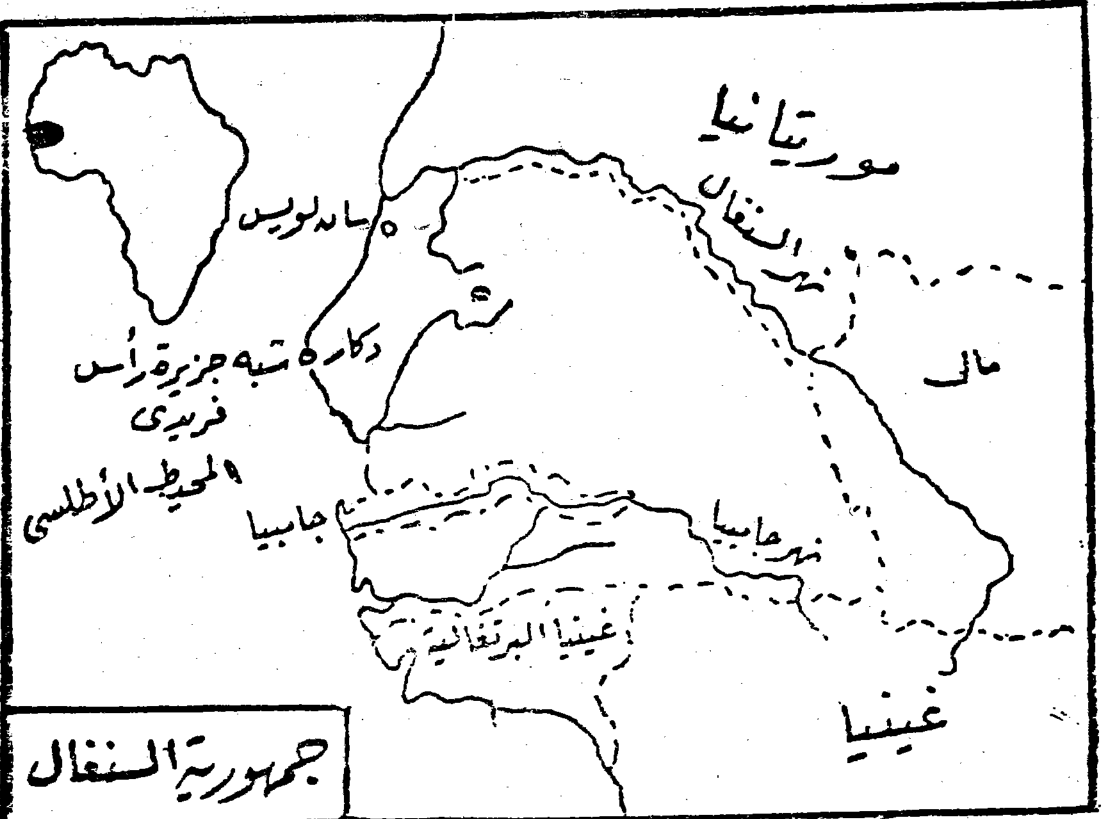
فى مطلع عام ١٩٧٤ وعقب اتفاق موريتانيا مع المغرب أسفرت موريتانيا عن عروبتها ، وأعلنت انضمامها لجامعة الدول العربية فتحقَّق بذلك الأمل الذى راود محبى العرب بأن يغمر اللسان العربى هذه المنطقة المهمة من إفريقية ، ونرجو فى ظل هذا الوضع الجديد أن تزداد اللغة العربية بموريتانيا ازدهاراً ورفعة .

انقلاب فى موريتانيا :

فى العاشر من يوليو سنة ١٩٧٨ هبَّ انقلاب فى موريتانيا بقيادة مصطفى محمد ولد سالك الذى كان يشغل منصب أركان حرب القوات الموريتانية المسلحة ، وكان سبب هذا الانقلاب كما قال الرئيس الجديد هو الاضطراب الاقتصادى ،وضعف حكومة مختار ولد داده فى مواجهة حرب الصحراء .

وقد أعلن الرئيس الجديد أن الانقلاب يحرص على استمرر التعاون مع المغرب وعلى العزم على وضع حد لحرب الصحراء ،والاستمرار على السياسة الخارجية السابقة ، مع محاولة إصلاح الاقتصاد الموريتانى وتقوية الجيش بالأساليب المتعددة .

السنغال



أهمية السنغال :

للسنغال أهمية خاصة بالنسبة لأقطار إفريقية الغربية الفرنسية كلها حتى جرى على ألسنة كثير من الناس فى الشرق والغرب تسمية جميع هذه الأقطار باسم السنغال(١) ومرجع ذلك أنه عن طريق نهر السنغال تغلغل الاستعمار

---

(١) أبو بكر خالد : فوق السنغالية ص ٢٦ .

الفرنسى حتى شمل المنطقة كلها ، واعتُبِر إقليم السنغال نقطة الارتكاز للاستعمار الفرنسى فى غربى إفريقية ، كما اعتُبِرت دكار عاصمة السنغال أحد طرفى الحزام الإفريقى الذى كانت فرنسا تطمع فى مدّه بين هذه العاصمة وجيبوتى ، وكان بهذه العاصمة أكبر قاعدة جوية وبحرية لخدمة الاستعمار الفرنسى ، وكانت دكار عاصمةً للمنطقة كلها ومقرّ المقيم العام الفرنسى كما سبق ، ومن أجل هذه الأسباب كانت عناية المستعمر الفرنسى بالسنغال أكثر من عنايته بالمناطق الأخرى ، فنال السنغال من التقدم ما لم يحظ به إقليم آخر من أقاليم هذه المستعمرات .

المرقع والتسمية :

تقع السنغال بين جمهورية مالى فى الشرق والمحيط الأطلنطى فى الغرب وبين جمهورية موريتانيا فى الشمال وجمهورية غينيا وغينيا البرتغالية فى الجنوب ، وهى المنفذ الطبيعى لجمهورية مالى ، ومن هنا يوجد خط حديدى يربط بين البلدين ، ويبدأ من « باماكو » عاصمة مالى حتى يصل إلى المحيط ، وتقع السنغال فى أقصى امتداد إفريقية إلى الغرب ، ومن هنا كانت أنسب المحطات فى الطريق بين أوربا والولايات المتحدة .

أما تسمية السنغال فموضع حديث طريف ، ويرى البعض أن هذا القطر اشتق اسمه من نهر السنغال[1] . ولكن هذا الاتجاه لا يحل المشكلة ، فالسؤال سيظل قائماً مع تحوّل بسيط هو لماذا سمى هذا النهر نهر « السنغال » وبخاصة أن هذا النهر لم يحمل هذا الاسم إلا فى القرن السابع عشر[2] ؟

والذى يبدو لنا أن تسمية النهر والمنطقة مرتبطة بقبيلة صنهاجة العربية

---

(١) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى ج ٣ ص ٥٢٤ .

(٢) تقويم البلدان الإسلامية ص ٣٥٤ .

التي سبق أن تحدثنا عنها عندما أوردنا كلمة تاريخية عن موريتانيا ، فإن أفراداً من قبيلة لمتونة إحدى قبائل صنهاجة اتخذوا لهم رباطاً فى جزيرة عند مصب نهر للسنغال . . . . . . ومن هذا الرباط خرج المرابطون وحققوا انتصارات واسعة للإسلام والمسلمين بمعونة قبائل أخرى تنحدر أيضاً من صنهاجة ، ولذلك كان من حق هذا النهر أن يحمل اسم الجماعة التى تربت فى كنفه وخرجت من بين أحضانه تدافع عن عقيدتها وتنشر دين الله ، وبالتالى أن يصبح هذا الاسم اسماً لهذه المنطقة التى شهدت هؤلاء الأبطال يخرجون ليحملوا هذا العبء ولينشروا الحق فى هذه الربوع ، ومن الواضح أن اللسان الإفريقى انحرف قليلا بنطق الكلمة فاستبدل بالصاد سينا وبالهاء غينا على نحو ما فعل بأكثر الكلمات التى اقتبسها من اللغة العربية ، وعلى نحو ما يحصل دائماً عندما تنتقل كلمة من شعب إلى شعب ، وكان إقليم السنغال يعرف قديماً ببلاد التكرور .

وتقع فى السنغال مدينة « سانت لويس » وكانت كما قلنا من قبل عاصمة موريتانيا ، ولهذا لا زالت هذه المدينة تحمل ذكريات هذا التاريخ على الرغم من انصراف العمران عنها إلى داكار التى يتزايد سكانها من يوم إلى يوم ، وتقع داكار فى نهاية شـــبه جزيرة « رأس فريدى » وعندها ينتهى الخط الحديدى سالف الذكر .

وتعانى بلاد السنغال أثراً سيئاً من آثار الاستعمار وآثار تنافس الدول الأوربية التى استعمرت إفريقية فترة طويلة من الزمن ، وذلك هو وجود دولة كاملة بداخلها هى دولة جامبيا التى كانت مســـتعمرة بريطانية : وهى تمتد مع نهر جامبيا وعلى جانبيه فى داخل السنغال بعرض حوالى ١٣ ميلا وطول ٣٠٠ ميل ، وسنتكلم عن دولة جامبيا فيما بعد ، ولكننا هنا نذكر ما يخص السنغال من هذا الوضع ، فإن دولة جامبيا تشغل الجزء الصالح للملاحة من نهر جامبيا الذى يُعَدّ من أصلح مجارى المياه للملاحة

فى كل إفريقية ، إذ أن البواخر الكبيرة عابرة المحيط يمكن أن تسير فى النهر حوالى مائة وخمسين ميلا من باثورست عاصمة جامبيا وبخاصة فى أيام الفيضانات ، ولهذا كان هذا النهر جديراً بأن يكون أصلح مخرج لتجارة السنغال ومالى لولا هذا التقسيم الاستعمارى الذى بُليت به المنطقة ، ولما كان نهر السنغال أقل صلاحية للملاحة من نهر جامبيا فإن السنغال ومالى لم تستطيعا الاعتماد عليه فى نقل تجارتهما للمحيط ، وأقامتا الخط الحديدى سالف الذكر مع ما كلّفه إنشاؤه من نفقات باهظة ، ومع ما يتطلبه النقل بالخط الحديدى من تكاليف . وهناك تأثير معيب آخر تعانيه السنغال بسبب هذه الإصبع الممتدة بداخلها ، ذلك أن جامبيا تعزل ولاية كاسامانس الجنوبية عن شمالى السنغال ، وتجعلها بطيئة التطور على الرغم من التسهيلات التى حصلت عليها السنغال ابتداء من سنة ١٩٤٧ للاتصال بين جانبيها عبر دولة جامبيا(١) .

وبالإضافة إلى نهر السنغال الذى يقع على الحدود بين موريتانيا والسنغال ونهر جامبيا الذى تحدثنا عنه والذى يعبر فى أرض السنغال فى مجراه الأعلى حتى يصل إلى أرض جامبيا ، يوجد هناك نهران مهمان هما نهر سالوم ونهر كاسامانس وهما صالحان للملاحة فى بعض أجزائهما .

السكان : عددا ولغة ودينا :

يتألف السواد الأعظم من السكان من قبائل الولوف وتوكولور والفلانى والماندنجو والبربر ، وعدد السكان حوالى ثلاثة ملايين ، وترتفع نسبة المسلمين منهم إلى ما يزيد عن ٩٠ ٪ والباقى مسيحيون أو وثنيون ؟ أو لادينيون . ويتكلم السكان لغاتهم المحلية وتنتشر العربية بين المثقفين المسلمين ، والفرنسية هى اللغة الرسمية حتى الآن .

---

(١) Paul Fordham : The Geography of African affairs pp. 68—69

كلمة تاريخية :

كانت بلاد السنغال أو بلاد التكرور إقليما هاماً فى مملكة غانة القديمة : ثم دخلها الإسلام من الشمال وافداً مع التجار والدعاة من بلاد المغرب ، ومن الشرق وافداً من مصر وسودان وادى النيل ، ومن ليبيا عبر نهر النيجر ، ويقرر بعض الكتاب السنغاليين[1] أن عدداً وفيراً من المسلمين رحلوا من مصر العليا عقب الفتح العربى واتخذوا وجهتهم إلى الغرب حتى استقر بهم المقام فى السنغال ، وقد أصبح لهم الملك فيما بعد فى هذه المناطق ، وقد اعتنق ملك التكرور وأعيان دولته الإســلام فى منتصف القرن الحادى عشر .

ومن هذه المناطق هب المرابطون كما ذكرنا من قبل[2] ، ونشروا الإسلام فى ربوعها نشراً واسعاً ولمــا قامت إمبراطورية مالى (القرن ١١ ــ ١٥) أصبحت بلاد السنغال جزءاً من هذه الإمبراطورية ، ولعبت دوراً هاماً فى نشاطها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وعقب انهيار إمبراطورية مالى قام بهذه المنطقة نظام الحكم القبلى فأضعف شأنها وبدد قوتها ، ثم هبت نهضة إسلامية بقيادة توكلور الذى قام بالتبشير الإسلامى بين قبائل فولبى سنة ١٧٧٠ ونجح فى ضمها للإسلام سنة ١٧٧٦ ، وكان بذلك يصارع الاستعمار الذى دبَّ فى هذه المناطق ابتداء من القرن الخامس عشر واشتد عوده فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ومن قادة هذا الصراع المتأخرين الحاج عمر الفوتى التيجانى الذى جند جيشاً كبيرا جمع أهم كتائبه من فوتى السنغالية التى تحدثنا عنها من قبل ثم دعا إلى جهاد الكفار ، وهاجم الأمراء الذين اتفقوا مع فرنسا ، واستطاع أن يحقق

---

(١) أبو بكر خالد : فوتى السنغالية ص ٢٩ .

(٢) ص ١٠٩ و ٢٢١ .

كثيراً من الانتصارات ضد الاستعمار الأوربى وضد قبائل البجارة الوثنيين وضد أمراء المسلمين الذين هادنوا الاستعمار : وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥ م ، وقد خلف للطريقة التجانية سلطنة إسلامية عظيمة فى وسط بلاد الزنوج ، وخلفه ابنه أحمدو شيخو ثم أحمدو صمدو الذى ظل يناضل حتى سنة ١٨٩٨ عندما أسره الفرنسيون وتوفى فى المنفى بجابون سنة ١٩٠٠ (١).

ذلك هو موقف هذه البلاد من الاستعمار ، ومدى المقاومة الصلبة التى أبدتها ، ولنعد للاستعمار لنتحدث عنه من مطلعه ببلاد السنغال :

وقلنا آنفاً إنه عقب انهيار إمبراطورية مالى قام بهذه المنطقة نظام الحكم القبلى الذى أضعف من شأنها وبدد قوتها ، وكان سعار الاستعمار قد بدأ يظهر ويتجه لإفريقية ، ومهد الحكمُ القبلى له الطريق ليدخل هذه المنطقة ، وقد وصل البرتغاليون إلى رأس فيردى فى القرن الخامس عشر ،ومنه تسللوا إلى منطقة بامبوك بحثاً عن الذهب ولكن السكان طردوهم .

ثم جاء الاستعمار الفرنسى إلى هذه المنطقة ، وتأسست بالساحل أول مستعمرة فرنسية سنة ١٦٢٦ فى « سانت لويس » التى تحدثنا عنها من قبل ولكن هذه المستعمرة احتلها البريطانيون سنة ١٧٥٨ ثم عادت منطقة السنغال إلى فرنسا بناء على معاهدة عقدت سنة ١٧٨٣ ، وحاولت إنجلترا خرق هذه المعاهدة والعودة لاحتلال المنطقة ، ولكن فرنسا استطاعت أن تثبت أقدامها فى المنطقة ابتداء من سنة ١٨١٧ (٢) .

ومن الواضح أن فرنسا فى هذه الكرة كانت تعاصر النهضة الإسلامية التى قادها « توكلور » ونجح فيها فى ضم قبائل فولبى للإسلام سنة ١٧٧٦ وأخذت فرنسا تغرى بعض الإمارات بالدخول معها فى حلف حتى تنجو

---

(١) محمد الحافظ التيجانى : الحاج عمر الفوتى سلطان الدولة التيجانية ص ٣ و ٤ .

(٢) تقويم العالم الإسلامى ص ٣٠٢ .

من الزحف الإسلامى الذى كان يقوده خلفاء توكلور من التجانية ، وقد استجاب للأسف بعض منهم لدعوة فرنسا فأبرم « إلمامى محمد » أول معاهدة وداد مع فرنسا سنة ١٨٤١ وتمكنت فرنسا بذلك من التعمق داخل البلاد ، وأخذت تحض بعض الأقاليم التى كانت التحقت بالحلف الإسلامى على التخلى عن هذا الحلف ، والاعتراف بالسلطات الفرنسية ، كما أن فرنسا أجبرت بعض الإمارات على الدخول معها فى معاهدات ضد الحلف الإسلامى ، وينبغى أن نذكر أن بعض الإمارات وقفت صامدة أمام القوة الفرنسية ، ولم تعترف بسيادتها طيلة فترة الصراع الذى قاده خلفاء عمر الفوتى ، ولم يتم لفرنسا الأمر إلا سنة ١٨٩٨ عندما قبض على أحمدو صمدو كما ذكرنا آنفاً[1] . وكان « فايد هرب » القائد الفرنسى أشهر القواد الذين باشروا هذا النضال ضد الحكام المسلمين وقضوا على استقلال هذه المنطقة .

وفى سنة ١٨٩٥ عندما مالت الكفة الفرنسية إلى الرجحان ، وضعفت مقاومة المسلمين أعلنت فرنسا قيام ما يسمى « إفريقية الغربية الفرنسية » وجعلته يضم ثمانى مناطق ، وجعلت « سانت لويس » عاصمة لهذه المنطقة الواسعة ، ثم نقلت العاصمة سنة ١٩٠٢ إلى داكار .

وفى سنة ١٩٢٤ صدر مرسوم بجعل داكار والمنطقة المحيطة بها منطقة خاصة ، ولكنها عادت فاتحدت مع السنغال بمرسوم آخر صدر سنة ١٩٤٦ ، وفى خلال هـــذه الفترة تطورت أحوال داكار انتفاعاً بهذه الميزة حتى أصبحت عاصمة كبرى مليئة بالحياة والحركة والتقدم ، ويبدو أن مكانة داكار وما حصلت عليه من تقدم سياسى واقتصادى أنساب إلى ما حولها من نواح بمنطقة السنغال ، فنال السنغال نصيباً أوفر من التقدم فى إفريقية الغربية الفرنسية ، فأصبح به ربع شبكة الخطوط الحديدية التى أقامتها فرنسا

---

(١) فوق السنغالية ص ١٣ - ١٤ .

بإفريقية الغربية كلها ، وأصبح يضم نصف عدد الأوربيين ، كما كان تطوره الصناعي أسبق من التطور فى البلدان المجاورة ، وكان يضم عدداً كبيراً من المدن ، وبلغت نسبة التعليم فيه ٢٠ ٪ سنة ١٩٥٥ مقابل ١٠ ٪ بالمنطقة كلها وكان بالسنغال وحده ثلث تلاميذ المدارس الثانوية بالمنطقة ، وفيه وحده كان الإفريقيون يتمتعون بما للمواطنين الفرنسيين من الحقوق السياسية بالرغم من عدم خضوعهم لقانون الأحوال الشخصية الفرنسى ، وبسبب كثرة العمال فى السنغال لعبت المنظمات العمالية دوراً كبيراً لرفع مستوى العمال الإفريقيين ، وطالبت بمبدأ « تساوى الأجر إذا تساوى العمل »(١) .

خطوات الاستقلال :

إن تفوق السنغال الذى أشرنا إليه خدم المنطقة كلها وهى تناضل من أجل الاستقلال ، وقد مر السنغال فى طريقه للاستقلال بالمراحل المختلفة التى ذكرناها فى الدراسة التى أوردناها عند الحديث عن موريتانيا ، عن « المستعمرات الفرنسية وطريقها للاستقلال » وكان من الخصائص التى برزت فى نضال السنغال جهودها فى ميدان الكتل والأحزاب السياسية فقد ظهرت بها هذه التجمعات من سنة ١٩٥٢ وكانت الكتل والأحزاب تحمل الأسماء الآتية :

الاتحاد الديمقراطى السنغالى والكتلة الديمقراطية السنغالية ، ومنهما تكون حزب الكتلة الشعبية السنغالية ١٩٥٦ ، وبرزت كذلك الحركة الاشتراكية الافريقية التى اتحدت سنة ١٩٥٨ مع حزب الكتلة الشعبية السنغالية سالف الذكر فتكوّن حزب الاتحاد التقدمى ، وأصبح الحزب الوحيد فى البلاد .

وفى سنة ١٩٥٨ عند إجراء الاستفتاء على دستور ديجول صارت

---

(١) دكتور راشد البراوى : مشكلات القارة الإفريقية ص ١٣٢ .

السنغال عضواً فى الجماعة الفرنسية مع سلطة داخلية كاملة ، وفى يونيو سنة ١٩٦٠ أعلنت الجمهورية فى السنغال ، واختير ليوبولد سنجهور رئيساً للجمهورية ، ولا زال يشغل هذا المنصب حتى كتابة هذه السطور ، كما اختير محمد ضيا « ماما دويا » رئيساً للوزراء ، ولكن حدث صراع بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء انتصر فيه رئيس الجمهورية ، وقبض على محمد ضيا ، وأودع السجن ، ثم صدر دستور جديد بأن تكون الحكومة فى السنغال ذات نظام رياسى ، فأصبح الرئيس سنجور رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء .

والرئيس ليوبولد سنجهور فيلسوف شاعر ، بالإضافة إلى موقعه كقائد سياسى ، وشعره باللغة الفرنسية يضعه بين الصفوف الأولى للشعراء الفرنسيين ، وله دوره الكبير فى قيادة إفريقية بوجه عام وغربى إفريقية بوجه خاص[1] ، وسنجهور كاثوليكى يقود دولة إسلامية ، ومن أجل هذا يرجى أن يقود هذه الباخرة بنجاح ، وأن يصل شعبه بالشعوب الإسلامية فإن ذلك سيجعل تمثيله لهم معبراً عن اتجاهاتهم السياسية والروحية .

اتحاد مالى :

عندما انحلت الرابطة الاستعمارية التى كانت تحمل اسم « إفريقية الغربية الفرنسية » قام على إثرها دول ثمانية كان أكثرها داخلا فى إمبراطورية مالى الإسلامية خلال العصر الإسلامى الوسيط بإفريقية ، وقد نجحت فرنسا فى خلق حدود بين هذه الإمارات أو الدول على نحو ما ذكرنا من قبل عند حديثنا عن كثرة الدول بإفريقية وطول الحدود : بيد أن هذه الدول عندما نالت استقلالها ظهر فيها الحنين إلى التجمع ، وكان السودان الغربى « مالى » أكثر حاجة لهذا التجمع بسبب عدم اتصاله بالبحر وحاجته إلى

---

(1) Ronald Segal : Political Africa pp. 240-242

الارتباط بدول ساحلية ، وجرت مفاوضات واتصالات أوشكت أن تؤدى إلى قيام اتحاد فيدرالى بين السودان الغربى (مالى) والسنغال وداهومى وفولتا على أن يظل الباب مفتوحاً أمام دول غربى إفريقية الأخرى ، ولكن فرنسا انزعجت من هذه الفكرة لأن هذا الاتحاد سيمنح هذه المجموعة قوة تستطيع بها أن تواجه المطامع الاستغلالية الفرنسية ، كما أن هذه الدول الأربع ستتكامل اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ، مما يجعلها تستغنى إلى حد كبير عن فرنسا ، وزاد فى المشكلة أن هذا التجمع اتجه لاتخاذ « اتحاد مالى » اسماً له ، وهو بهذا يربط بين حاضره وماضيه ويعيد للأذهان ذكرى هذه الإمبراطورية الفسيحة بما حوته من أمجاد وبطولات مما يهدد أطماع فرنسا ، ويخلق قوة كبيرة تقضى على مصالحها وآمالها فى هذه المنطقة .

وزاد فى المشكلة أيضاً أن هذا الاتجاه برز بعد أن أعلنت غينيا فى استفتاء ديجول أنها تريد الاستقلال التام ، وألا تكون عضواً فى الجماعة الفرنسية ، غير مكترثة بالتهديدات التى صاحبت هذا الاتجاه ، فإذا قام اتحاد مالى بعد ذلك ، فإنه يحمل ثورة عاتية ضد نفوذ فرنسا فى هذه المنطقة .

ومن أجل هذا أخذت فرنسا تحارب اتجاه التجمع ، ومارست ألواناً من الضغط السياسى والاقتصادى على زعماء داهومى وفولتا ، مما أدى إلى انسحاب هاتين الدولتين قبيل إعلان الاتحاد ، وبقيت السنغال والسودان الغربى ، فأعلنا قيام « اتحاد مالى » سنة ١٩٥٩ . واتخذ الاتحاد داكار عاصمة للاتحاد ، وفى يونيو سنة ١٩٦٠ أصبح اتحاد مالى مستقلا ، ولكنه ظل ضمن الأسرة الفرنسية .

ولكن عمر هذا الاتحاد كان قصيراً لأن السودان الغربى كان يميل إلى التقليل من التعاون بين الاتحاد وبين فرنسا ، كما مال إلى أفرقة الوظائف فى الاتحاد ، وكانت السنغال تتجه إلى التعاون مع فرنسا ، وتأجيل هذه

الأفرقة ، كما حدث خلاف حول من يشغلون الوظائف الكبرى ، فقد أيَّد موديبوكيتا « لامين جوى » عمده داكار رئيساً للاتحاد بدل سنجور . . . . . ومن أجل هذا انسحب السنغال من الاتحاد فى ٢٠ يونيو سنة ١٩٦٠ وأعلن السودان نفسه جمهورية مستقلة استقلالاً تاماً ، باسم « جمهورية مالى » ولم يلتزم بالمعاهدة التى كان اتحاد مالى قد عقدها مع فرنسا ، وفى نفس الوقت أصبح السنغال جمهورية مستقلة كذلك .

اقتصاد السنغال :

يمكن القول إن السنغال بلد زراعى من الدرجة الأولى ، ويعد الفول السودانى أشهر محاصيلها الزراعية ، وتصديره يدر ربحاً واسعاً على البلاد ، ومن المحاصيل الزراعية الأخرى الأرز والذرة والبطاطا والقطن ، وتحاول الحكومة استصلاح مزيد من الأراضى وجعلها صالحة لإنتاج الأرز وتصديره ، كما عملت على تطوير مستودعات الفوسفات لاستخدامه فى إخصاب الأرض ، وأنهار السنغال تساعد كثيراً على تطور الاتجاه الزراعى بالبلاد ، كما أن تربتها الخصبة تعمل كذلك لتحقيق هذا الهدف .

وفى البادية تكثر المراعى وتربى الأبقار والأغنام والجمال والخيول ويوجد منها عدد كبير .

وهناك غابات فسيحة فى السنغال معظمها فى القسم الجنوبى ، ولذلك يعتبر الفحم الحجرى أهم منتجات هـــذه الغابات ، كما أنها تنتج الخيزران وأشجار جوز الهند .

وفى السنغال بعض المعادن من فوسفات الكلسيوم وفوسفات الألومنيوم كما يوجد الحجر الجيرى لإنتاج الأسمنت .

وبدأ إنتاج البترول يظهر فى السنغال ابتداء من سنة ١٩٥٢ وهو فى تزايد ظاهر .

ومن ناحية الصناعة فإن داكار كانت المركز الصناعى لإفريقية العربية الفرنسية كلها حيث يوجد بها مصنع للسكر ومصنع لصناعة الحبال ومصانع للنسيج وبعض المصانع للصناعات الكيماوية ، ولا تزال هذه المصانع تقوم بعملها فى عهد الاستقلال مع تطور ملحوظ .

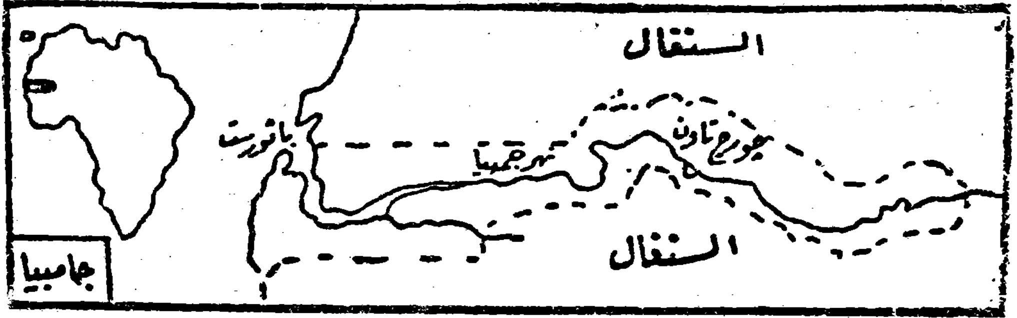
وموقع السنغال أعطاها أهمية كبيرة فى نطاق المواصلات العالمية مما عاد على اقتصادها بالخير العميم ، فمطار داكار يعتبر أعظم مطار فى غربى إفريقية ، وهو يربط بين أوربا وجنوبى إفريقية ، وبين أوربا وأمريكا الجنوبية ، وميناء داكار يعتبر أكبر ميناء إفريقى على المحيط الأطلنطى ، وفى سنة ١٩٥٧ دخلت موانى السنغال ٤٩٣٦ سفينة ، واستخدمت مطاراتها ٩٢٨٠ طائرة :

التعليم فى السنغال :

تنعم السنغال بأعلى نسبة ثقافية إذا قيست بسواها من المستعمرات الفرنسية كما ذكرنا من قبل ، ويوضح آخر إحصاء رسمى أن عدد الطلاب فى المدارس الابتدائية حوالى مائة ألف طالب ، وفى المدارس الثانوية حوالى ٧٠٠٠ طالباً ، كما توجد مدارس مهنية تضم أكثر من ألف طالب .

وفى سنة ١٩٥٧ افتتحت جامعة داكار ، وهى تستقبل الطلاب من بلاد غربى إفريقية الناطقة باللغة الفرنسية ، وتوجد بها كلية للطب وأخرى للصيدلة وكلية للحقوق ومعاهد للاقتصاد والإحصاء ومراكز تدريب للإخصائيين على أعمال التعدين والصناعة ، وفى داكار معهد للدراسات الإفريقية يعد من أهم المعاهد فى هذا المجال ، وكل هذا جعل السنغال مشعل نور فى إفريقية الغربية كلها .

جاميــــا



مقدمة :

على الرغم من صغر مساحة هذه الدولة (٤٠٠٠ ميل) فإنها لم تكن كتلة موحدة ، وإنما كانت أشلاء أطلق الاستعمار عليها مسميات متعددة ، فالعاصمة (باثورست) كانت مستعمرة والأرض كانت محمية ، وبينما كانت الضفة الجنوبية لمدخل نهر جامبيا التي سميت الدولة باسمه فى يد الإنجليز كانت الضفة الشمالية فى يد فرنسا ، ومن هذه الأشلاء تكونت جامبيا التى لا تزال حجر عثرة وضعها الاستعمار فى طريق تقدم السنغال ، بل فى طريق وحدة غربى إفريقية كله ، لأنها إنجليزية اللغة والثقافة والفكر تعيش فى قلب المناطق التى كانت تعرف بإفريقية الغربية الفرنسية ، والتى تأثرت بالفكر الفرنسى ، وتستعمل اللغة الفرنسية ، فهى جسم غريب فى قلب السنغال وفى قلب المنطقة كلها ، قريب الشبه من هذه الناحية بإسرائيل فى قلب البلاد العربية ، وإن كانت إسرائيل تزيد عن جامبيا بأنها غريبة الدم وافدة من الخارج ، ولكن جامبيا غريبة الفكر والثقافة فحسب .

التسمية والموقع :

اتخذت هذه الدولة اسمها من نهر جامبيا ، لأنها كما قلنا من قبل شريط ضيق يسير مع مجرى النهر حوالى ٣٠٠ ميل ، وتبعد الحدود عن مجرى النهر حوالى سبعة أميال فى الشمال ومثلها فى الجنوب تقريباً ، ولذلك يمكن أن تسمى دولة النهر ، ومن أجل هذا فالحديث عن النهر يعتبر حديثاً عن الدولة ، لأنه كل شيء فيها تقريباً .

وينبع نهر جامبيا من مرتفعات فوتا جالون ، ويسير فى أرض غينيا فالسنغال ، ثم يدخل أراضي جامبيا عند بلدة كونيا وقد بقى من طوله حوالى ٣٠٠ ميل ليصل إلى المصب ، وهو من أكثر الأنهار صلاحية للملاحة، لأن عابرات المحيط (غاطس ١٩ قدماً) تستطيع أن تسير فيه حتى « كنتور » على مسافة ١٥٠ ميلا من باثورست ، ويمكن أن تصل السفن التى غاطسها ستة أقدام ونصف إلى « فوتوتو » على مسافة ٢٨٨ ميلا من العاصمة ، وهي آخر مرمى للسفن التجارية ، أما القوارب واللنشات فتصل إلى ما يقرب من منبعه ، وطول مجرى النهر ٥٠٠ ميل ولكنه كثير الالتواء ، ولهذا فالمسافة بين منبعه ومصبه أقصر من ذلك بكثير ، وسعة النهر عند مصبه حوالى ثلاثة أميال[١] .

وحوض النهر تكثر فيه الأوبئة وتنتشر الملاريا وغيرها من الأمراض نتيجة لكثرة المستنقعات والأشجار ، والجو حار للغاية حتى أن العاصمة « باثورست » تسمى « حفرة جهنم » ، وقد حصل اختلاط عند الجغرافيين الأول حول امتداد هذا النهر ، وظنه بعضهم امتداداً لنهر النيل أو امتداداً لنهر النيجر ، ولكن يبدو أن شهرة النيل جعلته يرادف كلمة « نهر » فكان يقال

---

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : افريقية المعاصرة ص ٧٢ .

« النيل » يقصدون النهر وأحيانا يقولون نيل النيجر أو نيل السودان وربما نيل جامبيا .

وهناك صلة أخرى تربط هذه المنطقة كلها « موريتانيا والسنغال وجامبيا » بمصر وحوض النيل ولكنها هذه المرة أقرب إلى الصواب ، فيذكر الرواة أخبار هجرات بين القرنين العاشر والخامس عشر لأناس حاميين هاجروا من حوض النيل إلى الغرب ، وأكد هؤلاء الرواة أن هؤلاء الناس قد وصلوا إلى حوض السنغال وجامبيا وأنهم قد وجدوا الأرض تماثل ما تركوه وراءهم من أرض فى حوض النيل الأعظم ، ولهذا أقاموا واستقروا وتزاوجوا مع الناس الذين وجدوهم فى مقدمهم الجديد ، وسببت هذه الهجرات وجود ظواهر قبلية تبدو واضحة فى المجموعات القبلية التى تعيش فى غربى إفريقية[1] .

والسنغال تحيط بجامبيا من الشمال والجنوب والشرق ، وتواجه جامبيا المحيط الأطلنطى من الغرب .

السكان : ودينا ولغة وعددا :

تعداد سكان جامبيا حوالى ٣٥٠ ألفا وهم ينتمون إلى قبائل أهمها الماندنجو والفولانى والسيراكولى والولوف والجولا ، والماندنجو والفولانى والسيراكولى من المسلمين ويوجد بعض الوثنيين فى الجولا ، وبعض المسيحيين فى العاصمة (باثورست) ونسبة المسلمين حوالى ٩٠ ٪ من السكان ، واللغة الرسمية للبلاد هى الإنجليزية ، ويتكلم السكان لغاتهم المحلية ، والمثقفون المسلمون يعرفون اللغة العربية .

كلمة تاريخية :

لم يعرف انفصال منطقة جامبيا عن السنغال إلا مع الاستعمار ، أما قبل ذلك

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : افريقية المعاصرة ص ٦٤ .

فقد كانت هذه المنطقة ضمن السنغال ، وكان يطلق على الكل « بلاد التكرور » ويميل أكثر المؤرخين إلى أن بلاد التكرور كانت جزءاً من إمبراطورية مالى الإسلامية ، وإن كان Ward كما ذكرنا من قبل يزعم أنها ظلت مع انتشار الإسلام فيها بلاداً مستقلة لم تخضع لدولة مالى ، ولا يمكن القطع بهذا الزعم لأن الحدود لم تكن ثابتة ، فيمكن توفيقاً بين الرأيين أن تقرر أن بعض بلاد التكرور انضم إلى امبراطورية مالى إبان نهضتها أو أن كل بلاد التكرور انضمت لفترة ما ، فلما ضعفت الإمبراطورية استقلت التكرور عنها كما استقلت أكثر أطرافها ، مع ملاحظة احتمال طول فترة الاستقلال بالنسبة لبلاد التكرور لأنها فى أقصى الغرب بالنسبة للإمبراطورية ؟

وعلى كل حال فإن الإسلام انتشر فى هذه المنطقة قبل قيام دولة مالى أى منذ عهد المرابطين .

وكان البرتغاليون أول من قصد جامبيا من الأوربيين ، وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس عشر ، ولكنهم لم يتعمقوا فى البلاد بل جلسوا على الساحل يباشرون التجارة فى المحصولات الزراعية وفى الرقيق ، على أن شيئاً مهما كان يجذب البرتغاليين لهذه المنطقة هو أطماعهم فى الوصول إلى مناجم الذهب التى كان يَرِدُ قدر كبير منها إلى أسواق الساحل ، وكان البرتغاليون لا يعرفون مصدرها بالضبط ، بل يتوقعون أنها ليست بعيدة عن مصب النهر .

وابتداء من القرن السادس عشر بدأ الإنجليز والفرنسيون يفدون إلى نفس المنطقة التى يصب عندها نهر جامبيا ، وقد جاء الإنجليز لهذه المنطقة إثر صفقة بيع قام بها المطالب بعرش البرتغال (دون أنطونيو) لصالح التجار الإنجليز ، فقد باع لهم حق الاتجار على نهر جامبيا سنة ١٥٨٨ ، وانتهى بذلك دور البرتغال ، وحل محله صراع بين فرنسا وانجلترا ، ففى منتصف القرن السابع عشر باع أحد الزعماء المحليين جزيرة تبعد قليلا عن

مصب النهر وتقع إلى الشمال منه إلى « دوق كورلاند » فأصبحت هذه الجزيرة تسمى باسم هذا الدوق « جزيرة جيمس » ، وبنى بها هذا حصنا يحمى تجارتها ويعزز الدفاع عنها ، ثم جاءت فرنسا إلى هذه المنطقة فاستولت على جزء صغير على الضفة الشمالية للنهر يقابل جزيرة جيمس وبنت به حصنا سمى Albreda (البريدا) ، وبذلك بدأ الصراع بين الإنجليز والفرنسيين الذين تقابلت قواتهم ولم يعد يفصل بينها إلا النهر ، وحصلت حركات عسكرية بين الطرفين رجحت فيها كفة الإنجليز وبخاصة عندما اشتروا سنة ١٨١٦ جزيرة تانجول من أحد الزعماء المحليين التى سميت « جزيرة سانت مارى » وهى تقع قرب مصب النهر إلى الجنوب منه ويمكن لهذه الجزيرة أن تتحكم فى مدخل النهر ، ولم يجد الفرنسيون حيلة للتمسك بهذه المنطقة فتنازلوا عن جيب البريدا للإنجليز مقابل بعض الامتيازات التجارية ، وأصبح للإنجليز كل السلطان على مدخل النهر ، وكان قد تم اكتشاف منابعه فى مطلع القرن التاسع عشر فسار نشاط الإنجليز السياسى إلى الداخل مع النهر ، وعقدوا بضع معاهدات مع الزعماء المحليين بهذه المنطقة ؛ ومن أهم هذه المعاهدات المعاهدة التى عقدت سنة ١٩٠١ مع موسى مللو زعيم فولادو الأكبر ، وتكونت بذلك دولة جامبيا .

وقد عادت فرنسا تحاول أن تتفق مع انجلترا لإجراء عملية تبادل بين منطقة جامبيا ومنطقة أخرى فى غربى إفريقية حتى لا تبقى جامبيا فى قلب السنغال الذى كانت فرنسا توليه عنايتها والذى يعتبر مركزاً للمنطقة الاستعمارية الفرنسية ، ولكن الاستعمار الإنجليزى ما كان يقبل أن يدعم الاستعمار الفرنسى وأن يزيل المشكلات من طريقه ، ولذلك لم تنجح هذه المفاوضات وبقيت جامبيا « إسفينا » فى قلب الاستعمار الفرنسى وفى قلب السنغال المستقل كما ذكرنا من قبل .

وينبغى أن نتذكر صراع المسلمين ضد الاستعمار فى هذه المنطقة الذى قام

لدفع المستعمر ورده عن أرض الإسلام ، وقد وصفناه من قبل عند حديثنا عن السنغال ، وقد كان هذا الصراع للدفاع عن المنطقة كلها فلم تكن دولة جامبيا قد خلقت بعد .

وقد أدركت انجلترا شذوذ هذه الدولة ففكرت أن تقيم وحدة أو اتحاداً بينها وبين سيراليون ، ولكن علم وجود حدود تربطها بسيراليون حال دون ذلك ، كما حال دون ذلك أيضاً اختلاف العنصر هنا وهناك .

الحكم البريطانى فى المستعمرات الافريقية :

يجدر بنا ونحن بصدد الحديث عن إدارة جامبيا إبان عهد الاستعمار أن نعطى صورة لنظم الحكم البريطانى فى المستعمرات الإفريقية لنرى مكان جامبيا فى هذه النظم ، ثم ليساعدنا ذلك عند الحديث عن باقى المستعمرات البريطانية بإفريقية .

ويمكن القول إن بريطانيا لم تحدث فى مستعمراتها تطوراً فى نظام الحكم كذلك التطور الذى أحدثته فرنسا فى مستعمراتها ، والذى أوردناه عند الكلام عن موريتانيا ، فقد اتبع نظام الحكم فى المستعمرات البريطانية بشكل عام أحد وجهتين ، الوجهة الأولى نظام الحكم غير المباشر ، وقد طبق ذلك فى البلاد التى رأى الاستعمار البريطانى أن بها نظما على درجة معقولة من الرقى وذلك مثل نيجيريا وغانا وزنجبار ، والوجهة الثانية نظام الحكم المباشر الذى تتولى فيه بريطانيا إدارة كل الشئون ، وقد وجد ذلك فى المناطق التى رأت بريطانيا أنه لم يكن بها قبل الاستعمار نظم حكم معقولة ، كما حدث فى السودان والصومال البريطانى وجامبيا ، ويلاحظ أن السودان حُكِم إلى حد كبير بطريق مباشر ، إذ لم تعترف بريطانيا بنظم الحكم التى كانت سائدة به قبل الاستعمار ادعاء منها أن حكم الدراويش قضى على النظم الحكومية الجديرة بالتقدير .

ويشترك النظامان للمباشر وغير المباشر فى أن هناك حاكماً عاماً إنجليزياً فى كليهما ، وهو الرئيس الأعلى للمستعمرة والمسئول أمام وزير المستعمرات .

وفيما عدا الحاكم العام فإن الحكم المباشر يختلف عن الحكم غير المباشر ، ففى الحكم غير المباشر يحكم الحاكم العام عن طريق الملوك أو السلاطين ، فنصيحته واجبة التنفيذ إن نصح ، وإن لم ينصح فالأمر للملك أو السلطان ، ومساعدو السلاطين من زعماء القبائل يوجد بجوارهم موظفون بريطانيون هم بالنسبة لهم كالحاكم بالنسبة للملك أو السلطان ، وفيما يتعلق بالإدارات المالية والتعليمية فإنه يرأسها موظف بريطانى كبير ، وتحت رياسته يوجد عدد من الموظفين الوطنيين ، ومن الممكن أن تكون هناك مجالس تشريعية وطنية ، أو مجالس استشارية للملوك والسلاطين ، على أن يبقى نفوذ هذه المجالس سائراً فى الفلك الذى يريده الاستعمار ، وهؤلاء الزعماء والموظفون الوطنيون يمكن عزلهم إذا حادوا عن الاتجاه الذى يريده الاستعمار ، كما يمكن حل هذه المجالس التشريعية أو الاستشارية ، وإحلال غيرها محلها ، وينحصر التطور الذى أدخله البريطانيون فى هذه المجالس فى ضم بعض الأعضاء البريطانيين إليها ، ويقل عدد البريطانيين رويداً رويداً مع تقدم الأنظمة ، وللحاكم العام معارضة قرارات هذه المجالس على أن يبين أسباب معارضته لها .

أما الحكم المباشر فإن السلطة فيه تكون لهيئة بريطانية تعاون الحاكم العام وتتكون من السكرتير العام الذى يرأس ثلاثة من السكرتارين هم : السكرتير المالى ، والسكرتير الإدارى ، والسكرتير القضائى . وهؤلاء الأربعة يتكون منهم ومن المفتش العام ما يسمى « مجلس الحاكم العام » الذى يرأسه الحاكم .

وتنقسم المستعمرة إلى مقاطعات يرأس كلاًّ منها مدير ، وتنقسم المقاطعة بدورها إلى مراكز يرأس كلا منها « مأمور » وجميع هؤلاء من البريطانيين فيما عدا السودان حيث كان المأمورون من المصريين ، لإعطاء الحكم صورة

أنه ثانى ، وفى كل مقاطعة مفتش وظيفته الطواف بالمقاطعة للإشراف على المأمورين والاستماع إلى آرائهم وشكاواهم ، ويرأس هؤلاء المفتشين « المفتش العام » الذى أشرنا إليه آنفاً وهو يطوف على المقاطعات كلها ليستمع إلى آراء المفتشين وحكام المقاطعات ، وهو يمثلهم فى مجلس الحاكم العام :

أما الإدارات المالية والثقافية فيشرف عليها موظفون بريطانيون بحيث يصبح البريطانيون هم المسئولين عن كل شىء فى المستعمرة ، ولا يستعان بالوطنين إلا فى الأعمال الصغيرة[1] .

* * *

وقد طبق نظام الحكم غير المباشر فى جامبيا لأنها تقع فى منطقة عالية المستوى من الناحية التاريخية والفكرية ، ولأن بها نظما استبقاها المستعمر فى قواعدها وحكم البلاد عن طريقها .

تطورات جامبيا نحو الاستقلال :

ولننتقل فى العرض التاريخى إلى فترة الاستقلال ، فإن سنة ١٩٦٠ تعد عام الاستقلال لمنطقة غربى إفريقية ، ولكن جامبيا كانت بعيدة عن الاستقلال ، بيد أن استقلال الأقطار المحيطة بها فتح لها الباب لتبدأ خطوات الاستقلال ، وهكذا بدأت جامبيا مراحل استقلالها عندما انتهت الدول المجاورة إلى قمة هذه المراحل ، ففى مايو سنة ١٩٦٠ أجريت أول انتخابات عامة لانتخاب بعض أعضاء الجمعية الوطنية التى تتكون من ٣٠ عضواً ينتخب مواطنو الجمعية ١٢ عضواً منهم ومواطنو المستعمرات سبعة ورؤساء القبائل ثمانية ويعين الحاكم العام ثلاثة .

---

(١) دكتور زاهر رياض : استعمار أفريقية ص ٢١٩ - ٢٢٢ بتصرف .

وفى إبريل ١٩٦٢ صدر دستور يوحد البلاد ويمنحها حق الحكم الذاتى ، وبمقتضاه جرت انتخابات جديدة وأسندت رياسة الوزراء إلى « داود كويسى جوارا » وظل الحاكم العام يتولى الشئون الخارجية والدفاع حتى سنة ١٩٦٥ ، وفى هذه السنة حصلت جامبيا على الاستقلال وأصبحت عضواً فى الكومنولث ، وانضمت إلى هيئة الأمم .

ولا تزال جامبيا تكون مشكلة مع السنغال ، ولعل الحل الوحيد لهذه المشكلة هو إقامة وحدة بين جامبيا وبين السنغال ، وإن كان اختلاف اللغة والمشرب فى العهد الماضى يجعل ذلك صعباً إلى حد ما ، ولكن هذه الصعوبة يمكن أن تذلل ، فالتاريخ الطويل وصلات القربى والدين الإسلامى ، كل هذه العوامل القوية كفيلة أن تتغلب على ما خلفه الاستعمار من تباعد بين السنغال وجامبيا .

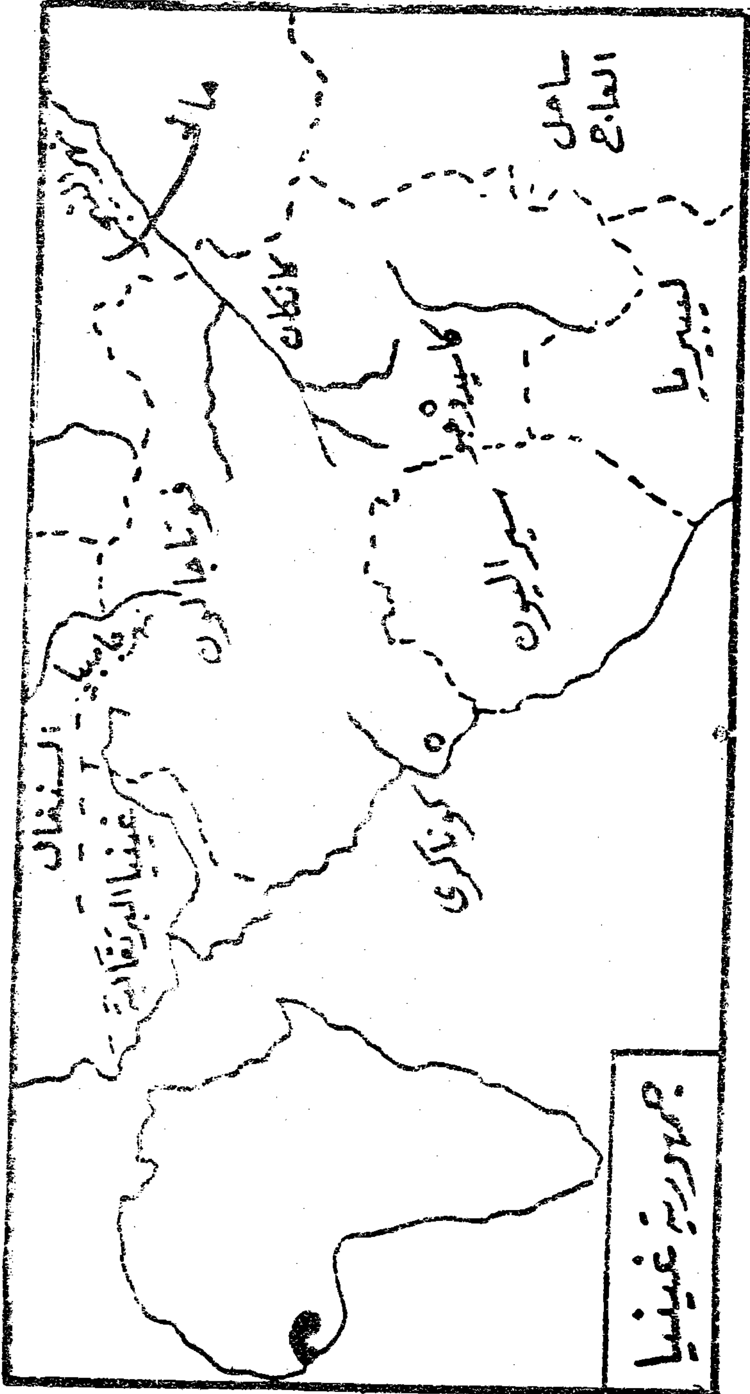
اقتصاد جامبيا :

جامبيا بلاد زراعية وأشهر محصولاتها الفول السودانى ، ولعله المحصول الوحيد التى تصدره البلاد ، وليس فى جامبيا معادن ولا بترول ولا صناعات تذكر ، وقد كان استعمال السنغال لنهر جامبيا مصدراً من مصادر الدخل العام ، ولكن تطور المواصلات الحديدية فى السنغال قلل من حاجتها لاستعمال هذا النهر ، وبالتالى قلت موارد جامبيا منه ، ومن الموارد التى تحصل عليها جامبيا وفود السكان الذين يرحلون سنوياً إلى السنغال ليعملوا فى مزارعها ، ويعودون إلى جامبيا بعد جنى الفول السودانى ومعهم حصيلة عملهم طيلة مدة إقامتهم بالسنغال ، وبالإضافة إلى الفول السودانى يزرع كذلك الأرز فى المستنقعات المطهرة وفى المناطق الرطبة القريبة من النهر ، وتزرع الذرة مع الفول السودانى أو بعده ، والأرز والذرة هما الغذاء الرئيسى للسكان ، وبجوارهما تزرع البطاطا والكاكاو .

التعليم فى جامبيا :

وضعت مدارس التبشير أساس التعليم فى جامبيا ، ولا يزال للإرسالية الكاثوليكية مدرستان ثانويتان فى باثورست بالإضافة إلى كثير من المدارس الابتدائية ، ولما استقلت البلاد تولت الحكومة الإشراف على التعليم ، وفى جامبيا الآن حوالى ثمانين مدرسة ، ومعهد للمعلمين ، ونصف المدارس تقريباً يوجد فى باثورست وحدها ، وتمارس بعض القبائل المسلمة تعليم أولادها فى الكتاتيب والمعاهد الدينية ، ولكن ذلك قليل ، ولا تزال الأمية منتشرة وبخاصة فى مناطق الريف ، والمأمول أن يجد كل تلميذ فرصته للعلم ، وأن تقضى الحكومة الوطنية على النفوذ التبشيرى فى التعليم ليتخذ العلم طريقة الصحيح لخدمة الدين والوطن .

غينيا



مالي
النيجر
كانكان
ساحل العاج
ليبيريا
سيراليون
فوتاجالون
كوناكري
غامبيا
السنغال
غينيا البرتغالية
جمهورية غينيا

التسمية والموقع :

يعتقد بعض المؤرخين أن تسمية غينيا اشتقاق من كلمة « جنى » المدينة الزاهرة التى تحدثنا عنها من قبل[1] ويقال إن هذه المدينة أعطت اسمها لكل الساحل ، ويرى آخرون أن غينيا اشتقاق من كلمة غانا ، فجمهورية غينيا أولى بميراث إمبراطورية غانا القديمة .

وغينيا تحتلُ موقعاً خطراً للغاية ، فهى فى الانحناء الجنوبى الغربى لمنطقة إفريقية الغربية ، وعلى هذا فإنها تُعَدُّ محطة مهمة بين جنوبى إفريقية ، وإفريقية الغربية ، كما أنها تطل على المحيط من الناحية الغربية والناحية الجنوبية ، ويحدها شرقاً ساحل العاج ، وجزء من جمهورية مالى ، وشمالاً جمهورية مالى والسنغال وغينيا البرتغالية وجنوباً ليبيريا وسيراليون ، أما فى الغرب فيقع المحيط الأطلنطى كما ذكرنا آنفاً .

وتعد غينيا البرتغالية فى الحقيقة جزءاً من غينيا ، ولكن البرتغال تحتفظ بسيادتها على هذه المنطقة وتؤيدها فى ذلك دول الغرب تأييداً واضحاً أو مستتراً ، لأن الدول الاستعمارية ترى فى غينيا واجهة الاستقلال لهذه المنطقة ورمز التحرر ، ومن أجل هذا أبقت على البرتغال فى هذا الإسفين ، ليكون شوكة فى ظهر الدولة الناهضة ، وقد تحرك جنود المرتزقة من غينيا البرتغالية وهددوا غينيا الإسلامية التى نتحدث عنها أكثر من مرة ، ولكن الشعب الصامد المسلم دمّر هذه الديدان التى أرادت أن تمس جسمه وتضعف بنيانه .

وبالإضافة إلى ما تعانية غينيا مما يسمى « غينيا البرتغالية » فى الشمال ،

---

(١) ص ١٩٩ ، ٢٣٣

نجدها تعانى مشكلة أخرى فى الجنوب ، فإن امتدادها الطبيعى نحو الساحل قد قُطِع بكل من سيراليون وليبريا ، فأصبحت سيراليون بذلك تقع فى قلب غينيا ، كما وقفت ليبريا حاجزاً بين الجزء الجنوبى من غينيا وبين الساحل ، وهذا جعل الجنوب الشرقى لغينيا لا يحظى بصلة مباشرة بالبحر ، وأصبح على هذا الجزء أن يقطع مسافة طويلة ليصل إلى ميناء كوناكرى مما أدى إلى تأخر هذا الجزء اقتصاديا[١] .

وفى قلب جمهورية غينيا توجد مرتفعات فوتاجابون التى يصل ارتفاعها إلى ستة آلاف قدم وتسقط عليها أمطار غزيرة يصل معدلها إلى ثمانين بوصة فى السنة ولذلك سميت « القلعة المائية » لإفريقية الغربية ، ومنها تنبع الأنهار العظيمة لهذه المنطقة وهى النيجر والسنغال وجامبيا .

وأكثر مساحة البلاد من الجبال ومناظرها ذات جمال أخاذ[٢] .

وعاصمة غينيا هى مدينة كوناكرى ، ولهذه العاصمة ميزان خاص فى تاريخ الصراع الوطنى الذى قامت به إفريقية للتحرر ، لأنها اجتذبت كل الزعماء الإفريقيين الذين يحاربون الاستعمار بإفريقية الغربية أو يحاربون الزعامات التى خلقها الاستعمار ، فهى لذلك مركز إشعاع تحررى فى المنطقة كلها .

السكان وما ولغة ودينا :

ينتسب أغلب شعب غينيا إلى أصلين كبيرين هما الفولانى والمالينك ، ويعيش الفولانى فى هضبة فوتاجالون ، وفى السهول التى تقع إلى الشمال الشرقى منها ، ويعيش المالينك فى شمالى غينيا حول مجرى نهر النيجر وفروعه ،

---

(١) دكتور فيليب رفلة : الجغرافية السياسية الإفريقية ص ٤٦٦ .

(٢) تقويم البلدان الإسلامية ص ٨٦ .

ويجوار هاتين المجموعتين الكبيرتين هناك قبائل الماندى التى تعيش فى منحدرات فوتاجالون من ناحية الجنوب ، وقبائل الفولانى يمثلون العنصر الغالب على أهل غينيا ، وهذه القبائل امتزاج تاريخى بين سادة غانا القديمة وأتباعهم الذين فروا منها عقب قيام دولة الإسلام بها ، وبين السكان الأصليين بالبـــلاد .

ومجموع السكان ثلاثة ملايين حسب إحصاءات الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ وفى البلاد لغات أصلية ثلاث هى الفولانية والمالينكية والصوصوية ، ويتكلم بهذه الأخيرة جماعة الصوصو أكبر قبائل الماندى بغينيا ، وبجوار هذه اللغات المحلية هناك اللغة الفرنسية التى تعد لغة رسمية حتى الآن ، ولكن الحكومة تعترف باللغات الوطنية الثلاث ، وتضع اللغة الانجليزية لغة أوربية ثانية بمدارسها ، أما المثقفون المسلمون فيعرفون اللغة العربية ، وبعضهم يجيدها إجادة عالية .

والإسلام هو دين الدولة إذ تبلغ نسبة المســـلمين فيها طبقاً لتقديرات الحكومة ٩٥ ٪ أما القلة الباقية فوثنية أو مســـيحية ، وقد افتتحت الجلسة التاريخية للجمعية التشريعية التى أعلن فيها الاستقلال فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٨ بآيات من القرآن الكريم ، وقال رئيس الجمعية التشريعية فى خطابه الافتتاحى إن العالم يشهد اليوم مولد دولة إسلامية جديدة ، دولة مســتقلة ذات ســيادة(١) .

كلمة تاريخية

كانت أرض غينيا وبخاصة المناطق الداخلية على هضـــبة فوتاجالون ومنحدراتها حتى القرن السادس عشر الميلادى جزءاً من الممالك الإفريقية

---

(١) صلاح صبرى إفريقية وراء الصحراء ص ٣٤٣ .

التى قامت على نهرى النيجر والسنغال ، فكانت جزءاً من إمبراطوريات غانا ومالى وصنغى : أما المنطقة الساحلية ، فكانت ملجأ للفارين من حكم هذه الإمبراطوريات ، سواء من الأسر المالكة أو من سواهم ، وكانت الهجرات تكثر عادة فى عهد الملوك الأشداء المحاربين أمثال منسى موسى، وأسكيا محمد ، وكانت هذه الهجرات كبيرة أحياناً شملت جماعات وقبائل متعددة ، بل هناك احتمال يميل إلى القول بأن هذه المنطقة الساحلية ، تلقت وفوداً من المهاجرين قبل قيام هذه الإمبراطوريات[1] .

وعندما ضعفت إمبراطورية صنغى وانحلت ، قام بهذه المناطق حكومات قبلية متنافرة أحياناً ومتحاربة أحياناً ، وفى وسط الظلام الذى تثيره الفرقة قام رجل مسلم تقى يدعى « كارموكوا » حوالى سنة ١٧٣٠ م واستولى على الحكم فى منطقة فوتاجالون وتمكن بقوة شكيمته أن يبعث نهضة إسلامية عظيمة انتشرت طولا وعرضاً بين شعبه « الفولانى » وبين الشعوب المجاورة حتى شملت تلك النهضة منطقة النيجر العليا والوسطى وإلى أبعد منها[2] :

وبعد هذا المجاهد عادت المنطقة إلى الحياة القبلية مما مهد الطريق للاستعمار الأوربى ليطرق هذه المناطق ، بيد أن بلاد غينيا كانت أكثر المنطقة استعداداً للصراع ، فالكثيرون من سكانها ينحدرون من أسر وقبائل حاكمة كما ذكرنا ، ومن هنا لم يكن سهلاً عليهم أن يخضعوا للمستعمر ، أو يستكينوا لقوته ، بل إن هذه البلاد اختطت لنفسها سنّة للحفاظ على استقلالها ، فعمدت إلى عدم السماح لغريب غير مسلم بالدخول إلى أراضيها ؛ ورفضت بإصرار أن تتعامل مع الأوربيين .

وأدرك الاستعمار أن غينيا تحتاج إلى نهج جديد لقهرها ، فاعتمد سنة

---

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقية المعاصرة ص ٨٣ .

(٢) تقويم البلدان الإسلامية ص ٨٨ .

١٨١٥ على مغامر فرنسي يدعى « رينيه كابل » كان يتقن العربية ، ويدعى أنه مسلم مصرى فرّ من اضطهاد سلطان مصر ، واستطاع تحت هذا الستار أن يدخل البلاد ، وفى داخل غينيا لم يعدم الرجل المحتال أن يقابل بعض ضعاف النفوس من الزعماء أو بعض الموتورين منهم ، واستطاع هو وأمثاله ممن لحق به من المحتالين أن يعقدوا فى الظلام بعض معاهدات مع هؤلاء ؛ وبقى بعد ذلك أن يكشف النقاب عن هذه المعاهدات ، وأن تتدخل القوة لفتح الطريق إلى غينيا ، فأرسلت فرنسا حملة عسكرية فى منتصف القرن التاسع عشر لتمكّن الفرنسيين من إنشاء مستعمرة على ساحل غينيا ، ووووجهت هذه الحملة بمقاومة عنيفة(١) ، وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تطلعت فرنسا إلى احتلال البلاد بأسرها ، ولكن زعيما برز من صفوف الشعب ، أو دفعه الشعب ليقود نضاله ضد المعتدين ، ذلك الزعيم هو « الساموري توري » وجرت معارك عنيفة بين قوات العدوان وبين المواطنين أظهر أهل غينيا خلالها بطولة نادرة ولم يستطع الساموري أن يقاوم الأسلحة الجديدة ، فوقّعت معاهدة بين القوتين سنة ١٨٨٤ تُقرِّر أن تنسحب فرنسا إلى الساحل ويسمح لها بالبقاء هناك ، وأن يترك الداخل إلى الساموري ليمد مملكته إلى الشرق فى كتلة فوتاجالون وما حولها ؛

على أن هذه المهادنة كانت موقوتة ، ففى سنة ١٨٩٠ نظم الساموري توري مع إمبراطورية التكولور فى الشمال ومع مملكة « سيكاسو » فى الشمال الشرقى حلفاً هجومياً دفاعياً وبدأت القوات المتحدة حرباً ضد الفرنسيين لطردهم من البلاد ، وفى سنة ١٨٩٨ أى بعد ثمانى سنوات فى قتال استنفد فيه الفرنسيون كل ضروب الوحشية تمت هزيمة قوات الساموري توري وسيطر الفرنسيون على غينيا وساحل العاج .

---

(١) صلاح صبرى : إفريقية وراء الصحراء ص ٣٤٤

واستمرت المقاومة بعد ذلك حتى سنة ١٩١١ ، ولكنها كانت مقاومة مبعثرة غير منسقة وكانت ذات طابع محلى ، وكان يقوم بها الزعماء الوطنيون كل فى منطقة قبيلته ، وكُبِتَتْ هذه الثورات المسلحة بقسوة ووحشية ، ولعل هذا النشاط العسكرى كان السبب فى أن أرض غينيا كانت أقل المناطق تطورا ، فلم يُعْنَ الفرنسيون بتطويرها ، ويحفظ الناس حتى الآن ذكريات الآلام التى مرت بهم إبان الحكم الفرنسى(١) .

على أنه كان هناك امتداد للساموري ، ويروى عنه أنه كان يدعو أن يجيء من أحفاده من يحمل رسالته من بعده ، ويطهر أرض غينيا من الفرنسيين ، وقد تحققت أمنية هذا الزعيم البطل ، فإن سيكوتورى بطل القرن العشرين حفيد لبطل القرن التاسع عشر(٢) .

سيكوتورى ودوره فى غينيا وفى إفريقية :

٥ نحن الآن أمام بطل من أبطال إفريقية ، وزعيم من زعماء الإسلام ، وأمام موهبة نادرة من المواهب الوطنية فى العالم ، نحن الآن مع الزعيم المسلم الرئيس سيكوتورى ويمكن أن يطول الحديث عنه ، والحديث عنه عذب جميل ، ولكننا فى نطاق دراستنا التى تأخذ طابع الشمول والإيجاز معاً ، لن نطلق العنان لحديث طويل عن هذا البطل ، وسنكتفى بإبراز أخطر مواقفه .

ولد الزعيم سيكوتورى سنة ١٩٢١ وبدأ دراسته فى اتجاه إسلامى ، إذ التحق بمدرسة لتحفيظ القرآن وللدراسات الإسلامية فى مدينة « كان كان » ، ثم انتقل بعد ذلك للدراسة فى مدرسة صناعية فرنسية ، وعندما ترك المدارس والتحق بالعمل فى إحدى الوظائف الحكومية الصغيرة ، لجأ إلى تثقيف

---

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقية المعاصرة ص ٨٥

(٢) صلاح ضبرى : المرجع السابق ونفس الصفحة بتصرف .

نفسه ، واتجه إلى العمال وتنظيم اتحاد العمال ، فبرزت موهبته الإدارية والخطابية ، وأتيح له أن يزور أغلب أقطار أوربا الشرقية والغربية ، فعاد بحصيلة فكرية واسعة ، وأسس أول اتحاد وطنى لعمال غينيا غير تابع لاتحادات العمال الفرنسية ، واشتغل بعد ذلك بالسياسة وبالأحزاب ، فلمع نجمه ، وأصبح موضع تقدير الجميع ، وأصبح لحزبه « حزب الجبهة الديمقراطية الإفريقية » مكان الصدارة بين الأحزاب .

وكانت فرنسا قد اتجهت عقب الحرب العالمية الثانية — كما ذكرنا من قبل عند الحديث عن موريتانيا — إلى تغيير سياستها نحو المستعمرات ، وقد مرت غينيا بالمراحل التى ذكرناها هناك ، ولكن غينيا كانت غير قانعة بهذه الخطوات التى ابتكرها العقل الفرنسى ، وصاح سيكوتورى يعلن أن هذه القوانين ليست إلا واجهة جديدة للنظام السابق ، وأن غينيا ترفض ذلك .

وتوقع سيكوتورى أن يحاول المستعمر الاستفادة من كثرة الأحزاب السياسية فى غينيا ، فدعا إلى توحيد الأحزاب والتكتل فى جبهة واحدة ، فاستجابت له الأحزاب[1] .

وجاء دور استفتاء ٢٨ سبتمبر ولم تُعط الحرية الكاملة للشعوب الإفريقية لتقول رأيها بصراحة فى هذا الاستفتاء فإن ديجول هدد بمقاطعة الدولة التى تختار الاستقلال التام ، ولكن سيكوتورى سخر من هذا التهديد ، ورسم سياسة الحرية الكاملة للمستعمرات الفرنسية كلها ، أو المستعمرات الأوربية على العموم وقال جملته الشهيرة رداً على تهديد ديجول ، تلك الجملة التى تعد أنشودة وطنية رائعة النغمات وهى : « إننا نفضل الفقر فى ظل الحرية على الغنى مع العبودية »

---

(1) Ronald Segal : Political Africa pp' 340 - 343

وراح سيكوتورى يحث قومه على أن يقولوا فى الاستفتاء « لا » أى أن يرفضوا الدخول فى الجماعة الفرنسية ، وأن يختاروا الاستقلال التام ، وعقد الاجتماعات الكثيرة لهذا الغرض وطاف البلاد وهو يهتف « إن يوم الاستفتاء سيخرجنا إلى عالم الحرية ، وسنصبح دولة مستقلة اعتباراً من ٢٩ سبتمبر ، فالجماعة الفرنسية ليست فى الواقع سوى الاتحاد الفرنسى فى صورة مجددة . إنه نفس البضاعة القديمة مع بطاقة جديدة » .

واستجابت غينيا لهتاف سيكوتورى ، وقالت فى الاستفتاء « لا » وأعلنت استقلالها يوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٨ ، وقد راح سيكوتورى وهو فى موجة الفرح بهذا الاستقلال يُعلل الأسباب التى جعلته يقول « لا » فى هـذا الاستفتاء ، وفى ذلك يقول : « إن موقفنا من هذا الاستفتاء كان عملا إيجابياً فى الأساس إزاء الإسراع فى التطور التاريخى لإفريقية ، فليس علينا أن نحدد أنفسنا بالنسبة للقوة الاستعمارية ، وإنما نحدد لأنفسنا بالنسبة لأنفسنا
ولإفريقية . ما هى الفكرة التى سادت فى الجمهورية الغينية فى ٢٨ سبتمبر ٥
سنة ١٩٥٨ ؟ إنها فكرة الاستقلال ، لقد كنا نريد تأسيس أمة ذات سيادة ، فاقترعنا « لا » فى الاستفتاء الذى كان يسعى إلى ربطنا بالنظام الفرنسى ، ويجب أن نشير إلى أن اختيارنا جانب الاستقلال لم يكن إيجابياً فقط لصالح غينيا ، وإنما كان إيجابياً لصالح إفريقية كلها ، إذ أن دستور « الأسرة الفرنسية » قد تجاوزته الأحداث بفعل هذا الاقتراع وأمسى بالياً ، حتى أننا نستطيع القول أن هذا الاقتراع الغينى هو الذى شق طريق الاستقلال أمام جميع الدول التى كانت تشكل فى السابق الممتلكات الاستعمارية الفرنسية فى إفريقية

« إن الدور الذى لعبته غينيا والذى قاد إلى انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية فى إفريقية بشكل عاجل ، هو أبعد ما يكون عن عرقلة الوحدة الإفريقية ، بل إن الموافقة على اقتراع ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ كان أهم الأسس لعرقلة الوحدة ، فمن عوامل

الوحدة أن يتصرف كل شعب إفريقى بمصيره الخاص ، فيربط وجوده بوجود الشعوب الأخرى فى القارة ، بكل حرية ودون أى تدخل خارجى . ولكن الوحدة الوهمية التى كانت الأسرة الفرنسية تقترحها علينا لم تكن لتستطيع أن تخرج للنور وحدة إفريقية حقيقة ، لقد كانت تساعد بالأحرى على « بلقنة إفريقية » ، وأعنى بذلك تقسيمها إلى دول مستقلة صغيرة فى اتحاد سياسى اقتصادى يرتبط بالدولة الاستعمارية ، وهذا هو الهدف الأساسى لكافة التكتلات سواء كانت الأسرة الفرنسية الإفريقية أو الكومنولث أو تجمع المقاطعات الإفريقية تحت السيطرة البرتغالية .

« لقد تبين اليوم أن الاستقلال الغينى كان بمثابة خميرة لاستقلال كافة البلدان الإفريقية[1] » .

وقد واجهت غينيا ضغطا قاسياً من فرنسا فور إعلان نتيجة الاستفتاء ؛ فسحبت فرنسا فى الحال من غينيا الموظفين الإداريين والفنيين والمعلمين والأطباء بحيث لم يبق منهم سوى عشرين شخصاً من بين أربعة آلاف ، ولكن الحزب الحاكم صمد للموقف بشجاعة ، واستطاع بصلابته وبنفوذه بين الجماهير أن ينقذ البلاد من كارثة اجتماعية واقتصادية محققة .

واضطرت فرنسا أن تعود للتعاون مع غينيا حتى لا تتم القطيعة بين الدولتين ، ولم يكن استقلال غينيا محدود النتائج بل إن موجة الاستقلال اندفعت من قطر إلى قطر ، فلم تأت سنة ١٩٦٠ حتى كانت كل المستعمرات الفرنسية قد أعلنت استقلالها سيراً وراء النهج الذى رسمته غينيا ، والريادة الرشيدة التى ابتكرتها وتحملت نتائجها .

واعترف الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة بغينيا ، واعترفت بها دول

---

(١) الرئيس أحمد سيكوتورى : إفريقية والثورة ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

العالم وانضمت لهيئة الأمم المتحدة فى ديسمبر سنة ١٩٥٨ ، واختطت غينيا لنفسها نظاماً وطنياً ، كما اتجهت للتعاون التام مع دول إفريقية ، فوقعت مع جمهورية مصر العربية اتفاقات القاهرة التى تُقَرِّر التعاون بين الشعبين فى قضايا التجارة والمدفوعات والمساعدة الفنية والتعليم والتسليح ، وأعلنت تأييدها لسياسة الحياد الإيجابى ، وفى النطاق الإفريقى أعلن قيام اتحاد بين غانا وغينيا ، ثم انضمت له مالى سنة ١٩٦٠ ولم تكتف غينيا بالتمرد السياسى على فرنسا بل إنها أصدرت سنة ١٩٦٠ عملتها المحلية ، وتركت منطقة الفرنك ، وعقدت اتفاقات تجارية مع بريطانيا والولايات المتحدة وحصلت على معونات كثيرة من دول الكتلة الشرقية .

وهناك إصلاح إدارى اقترحته عبقرية سيكوتورى هو القضاء على النظام القبلى الذى كان يتنافى مع الروح القومية ، وأحل سيكوتورى محل زعماء القبائل مجالس محلية تقوم على أساس الانتخاب العام المباشر ، وهذا الإجراء الذى اتخذ قبل الاستقلال كان بلا شك العامل الأساسى فى استجابة الشعب لاتجاه سيكوتورى تجاه استفتاء ديجول .

لقد بذل سيكوتورى جهداً كبيراً فى سبيل غينيا وفى سبيل إفريقية ، ولكن ينبغى أن نعترف أن البلاد استجابت له ، فالخامات الطية تستجيب ليد الصانع المخلص الحكيم . فتحية إلى غينيا المسلمة وللأبطال الذين قادوا الباخرة بين الأعاصير حتى وصلوا بها إلى بر السلامة .

اقتصاد غينيا :

لا تزال الزراعة أساساً للنشاط الاقتصادى فى غينيا ، ويعمل فيها حوالى ٨٠ ٪ من السكان ، والزراعة تمد البلاد بالغذاء الكافى ، وتسهم فى التجارة

الخارجية بنصيب كبير ، وأهم الحاصلات الزراعية فى غينيا هى الذرة والفول السودانى والقمح والبطاطا ، والكاسافا « تسمى أيضا التابيوكا وهى كالبطاطا نبات درنى » ، وهناك كذلك حاصلات البلح ، والموز والفواكه الحمضية والأناناس ، وهى تكفى للاستهلاك المحلى والتصدير ، وتكثر فى غينيا حقول البن الذى ينتجه الفلاحون فى منطقة الغابات ، ويكثر السمسم الذى تؤخذ منه الزيوت ، ويزرع الأرز فى مناطق فوتاجالون حيث الخصوبة وكثرة الماء ، وتنتشر فى غينيا جوزة الكولا .

وتعد المراعى مصدراً هاما للاقتصاد الغينى ، وتمارس قبائل الفولانى الرعى وتربية الماشية ، وتزيد رءوس الماشية فى غينيا عن المليونين وهى من الأغنام والماعز والبقر التى تصدر لحومها إلى سيراليون وليبريا ، ومما يذكر أن غينيا الإسلامية تمنع تربية الخنازير .

والأسماك تمثل نصيبا كبيراً فى الاقتصاد الغينى كذلك ، وظهرت فى غينيا أخيراً بعض الصناعات السمكية التى تعنى بتعليب السمك وتصديره .

وتغطى الغابات حوالى ثلاثة ملايين من الأفدنة فى غينيا ، والغابات مصدر للأخشاب والخيزران والطيور وبعض الفاكهة وجلود الزواحف والحيوانات ، ويستعمل الخشب لصنع فحم الحطب الذى يصدر منه قدر كبير .

وأرض غينيا غنية بمعادن الحديد والبوكسيت « خام الألمونيوم » ويوجد بها كذلك الذهب والرصاص والماس . وتعد مناجم خام الألمونيوم من أغنى مناجم العالم ، فجزيرة « روما » المواجهة لميناء كوناكرى تؤلف كتلة ضخمة من البوكسيت ، والماس اكتشف فى الطبقات الرسوبية بالمجارى المائية وفى مناطق أخرى ، والحديد اكتشف فى شبه جزيرة كالون بالقرب من كوناكرى وأعطى كمية كبيرة .

وتهتم غينيا بمشروعات توليد الكهرباء من مساقط الأنهار السريعة المنتشرة بها ومن أهمها مشروع نهر كوناكرى ، ويرجى أن تولد هذه المشروعات كميات ضخمة ينتفع بها فى تطوير الصناعة ، وعلى كل حال فإن صناعة التعدين ، تعد أهم الصناعات فى غينيا حتى الآن ، وبالإضافة إلى صناعة التعدين ، توجد صناعات لحفظ الفاكهة والأسماك ومعمل للبلاستيك ، ومصنع للدخان .

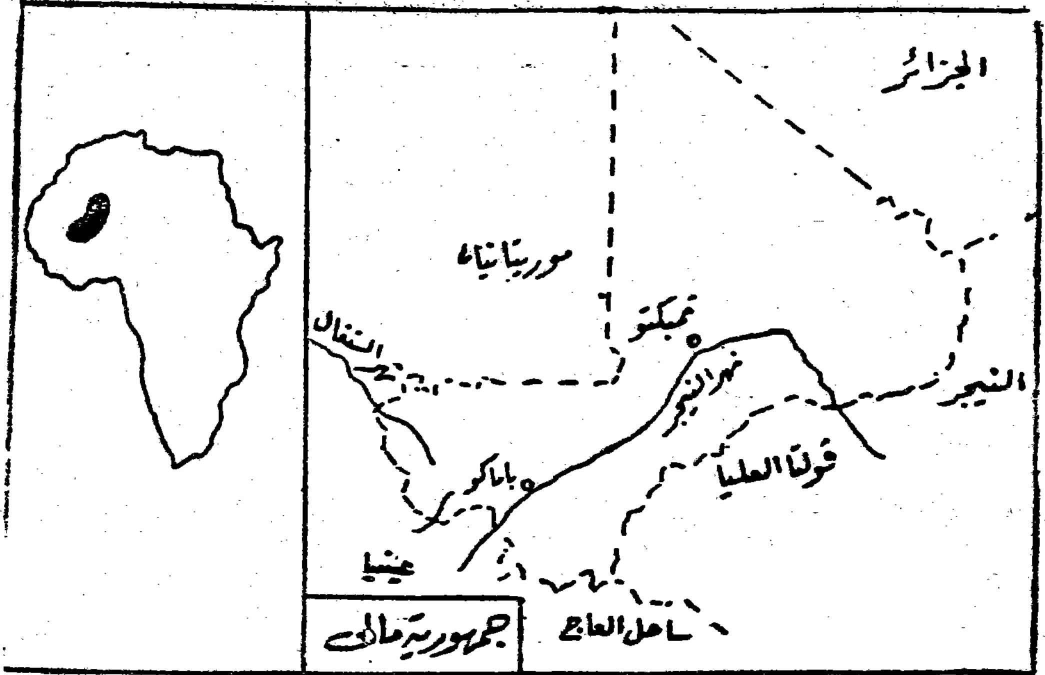
وفى كلمة قصيرة نقرر أن غينيا بلاد أقرب إلى الغنى ، وأن مستقبلها الاقتصادى يبشر بازدهار عظيم .

التعليم فى غينيا :

قلنا من قبل إن غينيا لم تحظ بتطوير حياتها إبان فترة الاستعمار ، إذ كان المستعمر يخافها ويتوقع حركات استقلالية بها ، وكان إهمال التعليم وعدم تطويره من أبرز ما عانته غينيا خلال فترة الاستعمار ، وكان التعليم يسير فى غينيا طبقا للمناهج الفرنسية ، ويعنى بتخريج بعض صغار الموظفين والعمال ، وكانت اللغة الفرنسية هى اللغة المستعملة فى التعليم .

وورث عهد الاستقلال هذا العبء الكبير ، ولكن غينيا راحت تحل هذه المشكلة بحزم ونشاط ، فبذلت الجهد الكبير لمحاربة الأمية المنتشرة فى البلاد ، وبنت عدداً ضخماً من المدارس الإبتدائية والثانوية والمهنية ، وجذبت هذه المدارس لها عدداً كبيراً من الشبان والفتيات ، وتعمل الحكومة على أن يكون لكل تلميذ مكانه فى المدرسة الإبتدائية كما تعمل على إتاحة الفرصة للموهوبين أن يكملوا تعليمهم ، وقد بدأت حكومة غينيا بإنشاء نواة للتعليم العالى يرجى أن يتطور ويصبح جامعة عظمى .

مـــالى



مقدمة :

إن الحديث عن مالى يشد الباحث إلى العصر الوسيط حيث كانت إمبراطورية مالى شعلة نور وهاج فى قلب إفريقية ، وحيث كانت حدود الإمبراطورية مترامية الأطراف وعاصمتها مركز إشعاع وزعماؤها شيوخ البحث والفكر فى مختلف الفنون ، والعجيب أن الدولة التى أخذت اسم الإمبراطورية الفسيحة التى كانت تسيطر على الساحل والداخل ، هذه الدولة حبيسة ليس لها مرفأ على المحيط ، ولا تخرج إلى العالم إلا عبر أقطار أخرى ، ومع هذا فقد استطاعت مالى الجديدة أن تحقق الكثير لتصبح جديرة برعاية التراث الضخم الذى خلفته جمهورية مالى فى العصور الوسيطة .

التسمية والموقع :

كلمة مالى تعنى باللغة البمبارية « فرس البحر » ، وترمز التسمية إلى قوة الدولة ومنعتها ، وكانت إمبراطورية مالى جديرة بهذه التسمية ، وحظيت خلال بعض عصورها بمكانة سامية فى التاريخ ، ويبدو أن هذا التاريخ كان يلوى فى آذان الغرب فأراد الاستعمار أن يخفى هذه التسمية ، حتى لا يرتبط الأحفاد بالأجداد فيتخذوا من تراثهم دوافع وقوة تزلزل أقدام المستعمر ، ومن أجل هذا أطلق الاستعمار سنة ١٩٠٤ على هذه المنطقة اسم « السنغال العليا والنيجر » وفى عام ١٩٢٠ أطلق الاستعمار اسماً جديداً على هذه المنطقة هو السودان الفرنسى ، ثم أصبحت إقليماً من أقاليم إفريقية الغربية الفرنسية ، ولكن يبدو أن التسمية الحقة كانت فى أعماق الشعب ، فانتهز الفرصة لإعلانها كما سنرى فيما بعد .

ومالى يحدها من الشرق النيجر ومن الغرب السنغال ومن الشمال الجزائر وموريتانيا ، ومن الجنوب الغربى غينيا ، ومن الجنوب الشرقى فولتا العليا ، ومن الجنوب ساحل العاج .

ويمكن تقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق جغرافية : المنطقة السودانية الممتدة إلى الجنوب من نهر النيجر وهى منطقة زراعية واسعة ، ومنطقة حوض النهر ، ومنطقة الصحراء الكبرى فى الشمال ، ومن الناحية المائية يشكل القسم الغربى من مالى جزءاً من حوض نهر السنغال ، ويشكل الجزء الأوسط جزءاً من حوض نهر النيجر ، وبالقرب من تنبكتو يلتقى نهر النيجر بنهر بانى الذى يروى مع روافده مساحة كبيرة جداً ، وتشغل بحيرات النيجر أجزاء شاسعة حول النهر ، وفى الجنوب الغربى توجد جبال فوتاجالون التى تمتد إلى غينيا(١) .

---

(١) تقويم العالم الإسلامى ص ٢١٠ .

السكان وما ولغة ودينا :

يبلغ تعداد سكان مالى حوالى أربعة ملايين ونصف ، وأكثرهم من قبائل الماندنجو ومن الطوارق ، واللغة الرسمية بالبلاد هى اللغة الفرنسية ويتحدث الناس لغات محلية من أهمها لغة البمبارا والمالينكى والموسى والتوكولور ، وفى الشمال يتحدث الطوارق لغة البربر ، وبعض اللغات تكتب بالحروف العربية ، والمسلمون المثقفون يعرفون اللغة العربية معرفة قوية .

والإسلام هو دين الغالبية من السكان ، ويشكل المسلمون حوالى ٩٠٪ منهم ، أما الباقون فلادينيون أو يتبعون الديانات البدائية ، وهناك قلة ضئيلة تتبع المذهب الكاثوليكى .

ويكثر فى مالى أن يُعرف الناس بصناعاتهم فتنقسم القبيلة إلى شُعَب يطلق على كل شعبه اسم الصناعة التى تشتهر بها .

لمحة تاريخية :

إن صحراء مالى الشمالية التى أشرنا لها من قبل جزء مهم من الصحراء الإفريقية التى تصل إلى الجزائر وبلاد المغرب ؛ ومن هنا ارتبط تاريخ بلاد مالى بتاريخ الشمال عبر الصحراء الكبرى ، فقد كانت القوافل التجارية تحمل الرقيق والذهب من الجنوب وتستبدل به الملح والملابس والسلع الأخرى من الشمال ، وعلى هذا ارتبط تاريخ هذه المنطقة بتاريخ الشمال الإفريقى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الرباط الذى أقامه عبد الله بن يس فى جزيرة بالقرب من مصب السنغال كان غير بعيد من هذه المنطقة ، وعلى هذا انحصرت بلاد مالى بين حركتين إسلاميتين إحداهما وافدة من الشمال مع التجارة الصاعدة والهابطة ، والأخرى وافدة من الغرب مع حركة

عبد الله بن يس ، وكانت هذه المناطق تابعة لإمبراطورية غانا ، فلما هبّ عبد الله بن يس من رباطه سنة ١٠٤٢ حرّر قبيلته لمتونة من سلطان غانا وراح — ومعه أبطال هذه القبيلة وجنودها — يدعو إلى الإسلام برابرة أدرار وزنوج تكرور ، فاعتنق ملك تكرور وأسرته الدين الإسلامي ، واعتنق ملك ماندنج « مالى » الإسلام كذلك ؛ وعندما اتجه المرابطون إلى الشمال بقيادة يوسف بن تاشفين واختلف معه ابن عمه أبو بكر بن عمر عاد هذا إلى الجنوب ومعه بعض أتباعه كما أشرنا من قبل[1] واستطاعوا احتلال كومبي عاصمة أمبراطورية غانا ، وبهذا قضى على هذه الإمبراطورية واتسع انتشار الإسلام فى هذه المناطق .

ولم يطل جهد المرابطين بالجنوب واتجه نشاطهم كله إلى الشمال بعد وفاة أبى بكر بن عمر سنة ١٠٨٧ ولكن الإسلام ظلّ ينتشر فى هذه المناطق ، وقامت على أثر ذلك إمبراطورية مالى التى تحدثنا عنها من قبل ، والتى كان بعض ملوكها ذوى صيت واسع فى التاريخ ، وقد استطاع منسى موسى « ١٣٠٧ — ١٣٣٢ » وهو أحد أباطرة مالى العظماء أن يستولى على تمبكتو[2] التى كانت مركزاً ثقافياً وتجارياً كبيراً ، ويستولى كذلك على أرض مترامية الأطراف حول النيجر .

وفى هذه المنطقة كذلك قامت إمبراطورية صنغى ذات الصيت البعيد الذى تحدثنا عنها من قبل ، ولما ضعفت هذه الإمبراطورية ، فكر سلطان المغرب فى الاستيلاء على هذه المناطق وبخاصة لأن بها مناجم الملح ، وقد تحدثنا من قبل عن هذه المغامرة وعن نتائجها ؛ على أن أهم هذه النتائج كان التفكك والانحلال وقيام الحكم القبلى والدويلات الضعيفة وكان ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر .

---

(١) ص ١٠٩ و ٢٢٠ .

(٢) عبد الرحمن السعدى : تاريخ السودان ص ٢٠ وما بعدها .

ومن الواضح أن تاريخ جمهورية مالى ارتبط فى هــذه الفترة بتاريخ النيجر وتشاد وإفريقية الغربية على العموم ، وقد سبق أن تكلمنا عن النهضة الإسلامية التى قادها عثمان دان فديو فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وقد استطاع أن يؤسس أمبراطورية سُكوتو ، وقد تبعه سيكو حماد الذى أرسى الإسلام فى ماسينا وشيد عاصمة له أسماها «حمد الله» عام ١٨١٠ ، ثم أتى توكولور حاج عمر الذى حمل لقب خليفة التيجانية وقد سبق أن تحدثنا عنه ، وقد عاصر حاج عمر بدء تدخل الفرنسيين فى هذه المنطقة وحاربهم حرباً لا هوادة فيها حتى قتل سنة ١٨٦٤ ، وتسلم ابنه زمام الأمر ، ولكن الفرنسيين بذلوا كل الجهد وألقوا فى الميدان بأخطر الأسلحة وعندما اختفى هذا القائد أخذ مكانه الساموري الذى تحدثنا عنه عند كلامنا عن غينيا وظل يصارع حتى نهاية القرن التاسع عشر .

كلمة موجزة نقرر بها أن هذه المنطقة عريقة فى الإسلام وأنها صارعت الاحتلال دون هوادة مدة طويلة ، ولم تُتِحْ للمستعمر لحظة استقرار أو هدوء وإذ كنا قد تكلمنا عن الجانب الإســـلامى فيجدر بنا أن نصف الجانب الاستعمارى وهو يزحف على هذه المنطقة الغالية .

لم يصل من الأوربيين إلى داخل إفريقية وإلى منطقة مالى الحالية سوى بعض الرحالة الذين كانوا يسعون للكشف والتعرف على البلاد ، وكان أشهر هؤلاء فوج من الملاحين البرتغاليين الذين ساروا فى نهر النيجر ووصلوا إلى تمبكتو فى القرن السادس عشر .

أما عن الاستعمار العسكرى فمن الواضح أن المستعمر التقى بمنطقة الساحل فى مطلع العهد الاستعمارى ، ولكنه فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأ يتجه إلى الداخل ليقمع المقاومة التى كانت تتخذ من الداخل مركزاً لها وتهاجمه فى الساحل ، هذا من جهة ومن جهة أخرى اتجه الاستعمار ليحصل على مزيد من الكسب

والثراء من داخل البلاد ، وكان قدومه إلى منطقة مالى الحالية عن طريق نهر السنغال وقد وصل المستعمر إلى مدينة كايس فى غرب مالى سنة ١٨٨٠ ثم أراد أن تكون الصلة بين الساحل والداخل سريعة فأنشأ خطاً حديدياً من ساحل السنغال إلى كايس ثم مده إلى باماكو العاصمة الحالية ، وأخيراً جعل الاستعمار هذا الخط جزءاً من شبكة المواصلات العامة التى أراد بها ربط مناطق غربى إفريقية بعضها ببعض ، وعلى هذا فالاستعمار الفرنسى لمالى بدأ متأخراً ، وصادف مقاومة عنيفة جعلت استقراره لم يبدأ إلا مع القرن العشرين فقد شغل الحاج عمر ثم الساموري فترة الصراع التى امتدت حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وبعد ذلك رزحت هذه البلاد تحت يد الاستعمار الفرنسى ، وكابدت ما كابدته المناطق الأخرى من قسوة ووحشية ، وعانت أرض الأبطال ذل الاستعمار حتى بدأ النور يتسرب من جديد لهذه المنطقة ، وكان ذلك عقب نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأدركت فرنسا أن لا أمل فى استمرار الحال على ما هو عليه فخطت فرنسا تلك الخطوات التى أوردناها من قبل عند الحديث عن موريتانيا عن « المستعمرات الفرنسية وطريقها إلى الاستقلال » وقد مرت مالى بهذه الخطوات جميعاً ، فلما أعلنت الجمهورية الخامسة فى فرنسا اتجهت مالى فى استفتاء ٢٨ سبتمبر إلى قبول أن تبقى عضواً فى الجماعة الفرنسية عن أن يكون لها حكمها الذاتى ، وكان ذلك ناتجاً عن التهديدات التى أعلنها ديجول لمن يرفض الاستمرار فى عضوية الجماعة الفرنسية ، ولكن الوضع الجديد لم يقنع مالى كما أنه لم يقنع غيرها من الدول التى اتجهت هذا الاتجاه وأصبحت غينيا التى رفضت البقاء فى الجماعة وأعلنت الاستقلال التام مثلا لغيرها من دول هذه المنطقة ، وأدرك الاتحاد الفرنسى ذلك الاتجاه ، فأعطى مالى مزيداً من السلطات وعناصر الاستقلال ، وفى يناير سنة ١٩٥٩ أعلن قيام اتحاد فيدرالى بين السنغال

والسودان الفرنسي ، واتخذ الاتحاد اسم « اتحاد مالى » ليربط نفسه بتراث الإمبراطورية العظيمة التي أشرنا لها ، وحصل الاتحاد على الاستقلال ضمن الجماعة الفرنسية فى يونيو سنة ١٩٦٠ ، ولكن هذا الاتحاد كان قصير العمر ؛ فانهار بسرعة وانسحبت منه السنغال كما ذكرنا من قبل(١) فأعلن السودان الفرنسي نفسه جمهورية مستقلة استقلالا تاماً باسم « جمهورية مالى » وتخلى عن المعاهدة التي كان اتحاد مالى قد عقدها مع فرنسا .

واتجهت مالى اتجاهاً جديداً بالنسبة للاتحاد ، فانضمت إلى اتحاد غانا وغينيا الذى أشرنا إليه عند حديثنا عن غينيا(٢) ثم انسحبت القوات الفرنسية من قواعدها بمالى سنة ١٩٦١ واستكملت مالى بذلك استقلالها .

ومنذ استقلال مالى اتجهت هذه الدولة اتجاهاً واضحاً لخدمة القضايا التي يمليها عليها تاريخها ومكانها فى إفريقية ، فهى تساند كل جهد للحرية الكاملة ، وتستجيب لكل اتجاه للوحدة الإفريقية .

وعاصمة جمهورية مالى الآن هى باماكو ، وعقب الاستقلال اختير موديبو كيتا رئيسا لها فى يناير سنة ١٩٦١ وهو من أسرة إسلامية عريقة لأحد فروع قبيلة بمبارا وينتهى نسبه إلى أباطرة مالى القديمة ، وقد بدأ حياته معلما ، ثم اتجه للسياسة فنجح فيها نجاحا عظيما ، وقاد بلاده إلى التقدم والنجاح ، واتخذ سياسة الحياد الإيجابى سياسة لبلاده ، ولم يسمح بأى نفوذ خارجى أن يطرق بابه ، وخلفه فى الرياسة موسى تراورى سنة ١٩٦٨ م .

اقتصاد مالى :

قلنا من قبل إن هناك منطقة زراعية هائلة فى جنوب البلاد يرويها نهر

---

(١) ص ٥٢٦ – ٥٢٧ . (٢) ص ٥٤٩ .

النيجر ونهر باني ونهر السنغال ، وفى الشمال توجد الصحراء الفسيحة ، ويرتبط اقتصاد مالى على العموم بهاتين الظاهرتين ، ففى المنطقة الزراعية تنمو حاصلات وفيرة وأهمها الأرز ويُعد المحصول الرئيسى للاستهلاك المحلى ، كما ينمو الفول السودانى والقطن والذرة والسمسم والفاكهة والحناء ، ومن أجل هذا كانت الزراعة هى المصدر الرئيسى لاقتصاد مالى ويشتغل بها حوالى ٦٠ ٪ من السكان ، وتنتج البلاد كل حاجاتها الغذائية ولديها فائض كبير تحاول تصديره للخارج ، وكان التصدير أيام الاتحاد مع السنغال عن طريق السكة الحديدية إلى داكار ومن داكار إلى الأقطار المختلفة ، ولكن انسحاب السنغال من الاتحاد جعل مالى تحاول أن تجد مخرجا آخر عن طريق كوناكرى بغينيا أو عن طريق ابيجان بساحل العاج ، وتعمل مالى الآن على بناء الطرق الحديثة التى تربطها بغينيا لتتخذ منها مخرجا إلى المحيط الأطلسى ، ويساعدها على ذلك وحدة التاريخ والدين والثقافة بين البلدين .

ولما كانت الزراعة هى أهم مصدر لاقتصاد مالى فإن جهوداً تبذل لتوسيع مساحة الأرض المزرعة ، وقد أقيم لذلك سد على نهر النيجر ، بالإضافة إلى خنادق تغذية وقنوات للرى ، وخزانات أضافت ما يقرب من مائة ألف فدان للمنطقة الزراعية ، كما أقيمت بعض الصناعات التى ترتبط بالحاصلات فى هذه المنطقة .

أما فى الشمال فى المنطقة الصحراوية فتربى الماشية على نطاق واسع ، وقد بلغ عدد المواشى رقما هائلا يقدره الباحثون بحوالى سبعة ملايين من الغنم والماعز ، وأربعة ملايين من البقر بالإضافة إلى الخيول والحمير ، ويصدر منها عدد كبير من الرءوس ، كما تصدر عشرات الآلاف من معلبات اللحوم .

ومن الصادرات كذلك التي ترتبط بحوض النهر وبالصحراء ، جلود التماسيح والأفاعي والفهود .

وتوجد في مالي غابات تعد مصدراً للأخشاب والصموغ التي تستهلك في الداخل ويصدر بعضها للخارج .

ويمثل صيد الأسماك بأنهار الجنوب جزءا من اقتصاد مالي ، وهو يستعمل في التغذية الداخلية ، وتصدر منه كميات كبيرة للبلدان المجاورة .

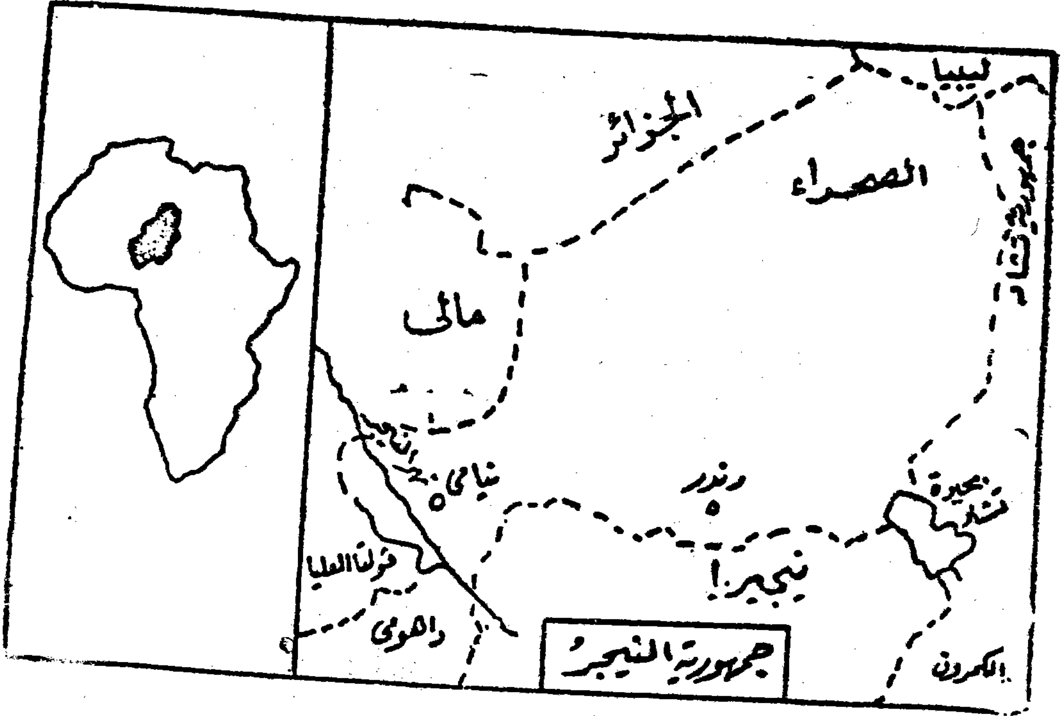
أما المناجم فأهمها الذهب والملح ، وللذهب والملح تاريخ طويل في هذه المنطقة وتعد مدينة تمبكتو مركزاً تجاريا للقوافل التي تحمل السلعتين ، وهناك آثار تدل على وجود الحديد الخام والمنجنيز والماس والبترول ، وقد بدأ العثور على بعضها ولكن بقدر غير تجارى حتى الآن ، ويرجى أن يمنح باطن الأرض لسكانها ألوانا من الغنى والثراء ، ويرتبط بالمعادن موضوع الصناعة ، فليس في مالي صناعات ثقيلة ذات بال ، لعدم وجود المواد الخام بكميات تسمح بالتصنيع ، ولذلك تتجه الصناعة إلى المنتجات المحلية ، كصناعة الزيوت والجلود والصابون والأدوات المنزلية .

التعليم في مالي :

لم تُعنَ دوائر الاستعمار بنشر التعليم في مالي أو غيرها لأن التعليم عدو الاستعمار دائما ، ولذلك كان الذين يلمون بالقراءة والكتابة عند حصول مالي على الاستقلال لا يزيدون عن ٥ ٪ من السكان ، وكان هناك عدد ممن يلتحقون بالكتاتيب ليحفظوا القرآن ومبادئ الدراسات الإسلامية ، وكانت الكتاتيب تنتشر بالقرى وتعيش في حالة بدائية ، ومن العجيب أن يحصل ذلك في مالي التي كانت في العصور الوسطى مركز إشعاع ونور والتي تضم مدينة تمبكتو التي كانت ملاذ العلم والعلماء طوال سنوات عديدة ،

وعلى كل حال فقد بدأت الجهود الواسعة لنشر الثقافة والعلم فى عصر الحرية والاستقلال ، فأنشأت عدداً وفيراً من المدارس الابتدائية والثانوية ، ومعاهد كثيرة للمعلمين وللتعليم المهنى ، وبُعثت الحياة فى تنبكتو ، فاستقبلت من جديد طلاب الدراسات الإسلامية على مستوى عالٍ ، والمأمول أن تحقق حكومة مالى ما يحتاجه السكان من ثقافة شاملة عميقة ، وأن تصبح تمبكتو من جديد جامعة تنشر العلم والفكر ، لا فى مالى وحدها ولكن فى سواها من الأقطار الإسلامية المجاورة .

النيجـــر



التسمية والموقع :

أخذت جمهورية النيجر اسمها من نهر النيجر ، وإن كان النهر فى الحقيقة لا يمس إلا جانباً صغيراً من الجنوب الغربى للجمهورية ، وتسمية النيجر مستمدة من الكلمة اللاتنية نجرو Negro أى الأسود وكان يسمى نيل النجرو أى نيل الزنج أو نيل السودان ثم أخذت البلاد اسمها منه ، وللنهر عدة أسماء محلية ، فهو عند الفولانى « جوليبا » وعند الهوسا « بارا » وعند اليرروبا « أوبا »(١) ، وقد تطورت تسمية البلاد فى عهد الاستعمار ، وتطورت

(١) آدم عبد الله الألورى : تاريخ نيجيريا ص ٢١

حدودها كذلك ، فقد كانت جزءا من منطقة كبرى تشمل النيجر والسنغال ، وكانت تسمى « السنغال العليا ـ النيجر » ثم دخلت وحدة ضمن المنطقة الغربية الاستوائية ، ثم عدلت حدودها وأطلق عليها النيجر .

وعاصمة النيجر لم تكن مستقرة كذلك ، وكانت تتأرجح بين مدينتى « زندر » و « ميامى » ثم استقرت العاصمة ابتداء من سنة ١٩٢٦ فى « ميامى » .

ويعتبر نهر النيجر كبير الأهمية لهذه البلاد ، لأنه النهر الوحيد الذى يوجد بها ومن أجل هذا كان عصب الحياة فيها ، بل فى كل البلدان التى تقع عليه فى إفريقية الغربية ، ومن أجل هذا عُنى به الجغرافيون العرب الذين زاروا هذه المناطق أو سمعوا عنها ، وفيما يلى مقتطفات مما كتبه هؤلاء الجغرافيون .

يقول عمر بن الوردى :

وتكرور مدينة فى جنوب النيل وغربيه ، وبها أمم عظيمة من السودان ، وهى مقر ملكهم وببلادهم معدن الذهب ، ويسافر إليها أهل المغرب بالصوف والنحاس والخرز والودع ولا يجلب منها إلاّ الذهب العين ، و « لملم » مدينة متوسطة ، وبها معدن الذهب ، وأرض مغراوة ، وأرض غانا أكبر بلاد السودان ، وأوسعها شجراً ومالاً ، وللسكان فى النيل زوارق عظيمة ، وأهلها يستخرجون الذهب ويصنعونه فى ألواح « كاللّبِن[1] » .

ويقول ابن بطوطة :

ثم سرنا فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل الذى ينحدر إلى كابره ثم زاغا ، وأهل هذه البلاد قدماء فى الإسلام متدينون يحبون العلم ، ثم يسير النيل من زاغا إلى تنبكتو فكوكو فمالى التى هى من أكبر بلاد السودان ،

---

(١) خريدة العجائب ص ٥٦ – ٥٨ بتصرف

وسلطانها مسلم من أعظم سلاطينهم ولا يدخلها الرجل الأبيض لأنهم يمنعونه ويقتلونه قبل الوصول إليها ، ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير(١) .

وإذا تركنا حوض النهر فى الجنوب واتجهنا إلى الشمال وجدنا صحراء فسيحة ، تغطى ثلثى البلاد تقريباً ، وتتماوج الرمال بدفعات الريح حتى تصبح كأنها فى سير منتظم ، والحياة فيها صعبة ، ولذلك يندر فيها السكان .

وحدود النيجر هى جمهورية تشاد شرقا ومالى وفولتا العليا غربا ، وليبيا وصحراء الجزائر شمالاً ، واتحاد نيجيريا وجمهورية داهومى جنوبا ، وتقع بحيرة تشاد فى الزاوية الشرقية الجنوبية لها ، وعاصمتها هى كما قلنا مدينة ميامى وتقع فى حوض نهر النيجر بالجنوب الغربى من البلاد ، ومن أهم مدنها زندر وأغاديس .

السكان وما ولغة ودينا :

سكان النيجر حوالى ثلاثة ملايين ونصف ، والجنوبيون منهم من قبائل الهوسا والجرما ، أما فى الشمال فيعيش الفولانى والطوارق ، ولا زال الطوارق بالنيجر يستعملون اللثام انتساباً للملثمين الذين سبق أن تكلمنا عنهم ، وبشرتهم أقرب إلى البياض ، ويتكلمون اللغة العربية ، ويعملون فى الرعى بخلاف سكان الجنوب الذين يشتغل أغلبهم فى الزراعة ، والمرأة عند الطوارق لها احترام وفير ، ويستشيرها الرجال فى كل مشاكلهم ، وإذا رفع الرجل صوته أمام امرأة عُدّ ذلك من سوء الأدب .

وليس الطوارق هم البيض فقط ببلاد النيجر ، فالتوبو كذلك بشرتهم أقرب إلى البياض وهم يعيشون فى الشمال الشرقى .

---

(١) رحلة بن بطوطة جـ ٢ ص ٢٣٦

واللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية بالبلاد ، وبجوارها توجد لغات محلية أهمها لغة الهوسا وهى لغة التجارة ، وتوجد كذلك بعض اللهجات المحلية ، أما اللغة العربية فتوجد فى الشمال كما قلنا ، ويتكلم بها كذلك بعض المثقفين المسلمين فى مناطق مختلفة .

والإسلام هو دين الغالبية العظمى ، وتصل نسبته إلى ٩٥ ٪ أما القلة الضئيلة الباقية فتتبع الديانة المسيحية أو الوثنية الإفريقية .

لمحة تاريخية :

بلاد النيجر متصلة من ناحية الشمال بالشمال الإفريقى ، وتربط الصحراء الكبرى بين هذه وتلك ، ولم تكن الصحراء دائما حاجزا بين المنطقتين فى الشمال منها وفى الجنوب ، بل كانت أحيانا همزة وصل . ووسيلة ارتباط ، وبواسطة الصحراء عُرِفت بلاد النيجر منذ العهد الرومانى ، فيروى أن حملة رومانية توغلت فى المناطق الجبلية حتى جنوب الصحراء الكبرى . وقد حددت هذه المنطقة فيما بعد بكتلة جبل « إير » بالنيجر الآن(١) .

ومما يتصل بتاريخ هذه المنطقة قبل الإسلام كذلك ما يروى عن انحدار الساميين والحاميين من الشمال والشمال الشرقى للسيطرة على القبائل الزنجية . وما يروى عن أن النفوذ الحامى قد وصل إلى هذه البلاد منذ عهد بعيد من مصر ومن بلاد النوبة العليا(٢) .

على أن النيجر كسواها من أقطار هذه المنطقة مدينة للإسلام بما هيأ لها من إيضاح التاريخ ، وبما دفع لها من نور الثقافة والمعارف ، حتى يمكن القول إن التاريخ الدقيق لهذه المناطق ارتبط بالإسلام والحياة الإسلامية .

---

(١) تقويم البلدان الإسلامية ص ٢٣٩

(٢) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقية المعاصرة ص ٢٥٦

وبلاد النيجر لها وضع يختلف نوعا ما عن بلاد غربى إفريقية التى تحدثنا عنها من قبل ، ذلك أن بلاد النيجر ارتبطت بنشاط إسلامى وافد من الغرب ومن الشمال ومن الشرق ، وكانت النيجر أقصى الأمكنة التى طرقها الإسلام من مصر والشرق ، فإن المعروف أن النشاط الإسلامى الوافد من الشرق ، والوافد من الغرب التقيا عند بحيرة تشاد ، وبذلك تأثرت بلاد النيجر بكلا الاتجاهين ، وفى القرن التاسع عشر امتد النفوذ السياسى لعثمان دان فيديو من الجنوب ومن الغرب إلى النيجر ، كما امتد لها نفوذ رابح الزبيرى الزاحف من السودان العربى بالشرق ، وفيما يلى تفصيل لهذا الاجمال :

كان هناك خط تجارى يسير من مصر فليبيا إلى منطقة بحيرة تشاد مارًّا بمدينة أغاديس التى كانت مركزا تجاريا عظيما ، وكانت أغاديس كذلك موضع تقاطع الطريق التجارى بين شمالى إفريقية والبحيرة ، ومن هنا جاء الإسلام مع التجار الوافدين من الشرق والوافدين من الشمال : وانتشر الإسلام بين السكان خطوة خطوة ، ثم قامت بهذه المنطقة إمبراطورية مالى الإسلامية التى كانت فسيحة الأرجاء والتى انتشر الإسلام فى رحابها انتشارا واسعا ودخلته قبائل الهوسا ، وفى مطلع القرن السادس عشر مدّ اسكيا محمد إمبراطور صنغى سلطانه إلى هذه المناطق وأخضع لحكمه بعض ولايات الهوسا ، واستولى على مدينة أغاديس ، وأصبح الإسلام واسع الانتشار بالأرض التى تعرف الآن بجمهورية النيجر ، وبعد انهيار مملكة صنغى استعاد الطوارق نفوذهم بمنطقة أغاديس وتغلبوا على الفولانيين ، ثم هب من بين قبائل الفولانى زعيم عظيم هو عثمان دان فيديو ، فى مطلع القرن التاسع عشر ، وأخضع إمارات الهوسا لحكمه ، ومدّ سلطانه إلى جزء من إمبراطورية برنو التى تقع غربى بحيرة تشاد ، وساد الحكم الإسلامى هذه الإمبراطورية الواسعة إبان عهده وإبان عهد خلفائه ، وتأثرت منطقة النيجر بذلك تأثيراً كبيرا .

وجاء الاستعمار الأوربى إلى إفريقية واتخذ من الساحل – كما قلنا من قبل – مراكز لينفذ منها للداخل، وكانت مناطق غربى إفريقية غالبا من نصيب فرنسا ، كما كانت فرنسا قد احتلت الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ وصحراء الجزائر تقع على حافتها الجنوبية منطقة النيجر ، وبدأت أهمية هذه المنطقة تتضح للفرنسيين ، فهى كما أشرنا آنفا على طريق القوافل القديم الذى استخدمته الجماعات البشرية منذ آلاف السنين وما زالت تستخدمه إلى اليوم ، وهو الطريق الذى يبدأ من مدينة الجزائر شمالا ويتجه جنوبا ليمر بعين صالح فى صحراء الجزائر ، ثم يدخل النيجر ، ليمر بمدينتى أجاديس وزندر ، ومنها إلى منطقة الغابات الكثيفة التى تقع خلف حزام السافانا ، وتحتل النيجر موقعا استراتيجيا هاما بالنسبة لدول غربى إفريقية وشرقيها وشماليها ، فنى الغرب مالى والسنغال وفى الشرق تشاد والسودان وفى الشمال ليبيا والجزائر ، والنيجر بذلك تستطيع أن تتحكم فى مجموعة هذه الأقاليم[1] ومن هنا حرصت فرنسا على ضمها لسلطانها .

غير أن فرنسا واجهت فى زحفها على هذه المنطقة قوة إسلامية كبيرة جاءت من الشرق وسبقت فرنسا فى الاستيلاء على هذه البلاد ، وتلك القوة كانت بقيادة رابح الزبيرى الذى تكلمنا عنه من قبل ، والذى كان من أتباع الزبير سلطان دارفور ، ولم يقبل أن يسلم للإنجليز كما فعل سليمان بن الزبير وسلو مع مجموعة كبيرة من أتباعه تجاه الغرب حتى وصل واداى وبرنو – فانتصر على السلطنات القائمة هناك ، وكوّن له إمبراطورية واسعة حول بحيرة تشاد .

وجاء سُعار الاستعمار لهذه المنطقة آنذاك ، ووقف رابح بين قوتين هائلتين من قوات أوربا الضارية المعتدية ، إحداهما الجيوش الإنجليزية فى

---

(١) أحمد سوار : كفلح النيجر ص ٦٨ – ٦٩ بتصرف

الشرق والتى كانت تزحف لتستعيد السودان ، والثانية فى الغرب وهى قوة فرنسا التى تطلعت إلى منطقة النيجر الحالية ومنطقة تشاد ، ولم يكن فى طوق رابح ولا خلفائه أن ينتصروا على هـذه القوى الباغية ، فتمّ الأمر لفرنسا ودخلت النيجر .

وكان نهر النيجر من أبرز الطرق التى سلكها الاستعمار ليصل إلى هـذه المنطقة ، كما أنه سلك طرقاً برية أخرى من الجزائر عبر الصحراء ، وما إن احتلت فرنسا هذه البلاد حتى هبّ السكان فى صراع مرير طويل ضد الغاصب الأوربى ، وكانت قبائل الطوارق وعرب كانم أول من قاد هذا الصراع ، فقد أخذت تشن الغارات المتوالية ضد الحاميات الفرنسية التى وضعت بالمناطق التى كانت تعيش بها هذه القبائل ، فرأت فرنسا ضرورة التضييق على هؤلاء باحتلال منطقة تيبستى بالشمال ، التى تمدهم بالعون والتى يفرون إليها عقب غاراتهم على القوات الفرنسية ، ولم تستطع فرنسا أن تسيطر على منطقة تيبستى إلا سنة ١٩١٤ بعد تضحيات فادحة وخسائر واسعة ، ولكن الثورة كانت قد هبّت فى مكان آخر بالجنوب والغرب ، ويسجل التاريخ أن الثورات التى قام بها السكان هناك ، اشترك فيها جماهير الشعب وقادتهم جميعاً ، أما الجماهير فلم تكن تكف عن الاضطرابات والغارات ، وأما القادة فالتاريخ يقرر أن سلطان زندر أعدّ العدة لوثبة قوية ضد الفرنسيين سنة ١٩٠٦ ، ولكن السلطات الفرنسية عرفت أخبار هذا الاستعداد قبل نشوب الثورة فخلع السلطان ، وفى خلال الحرب العالمية الأولى اشترك الطوارق والسنوسيون وغيرهما من الجماعات والقبائل فى حرب اتخذت شعار « الحرب المقدسة » ضد الغاصبين لا فى النيجر فحسب ، بل فى كل المناطق الإسلامية التى احتلها الفرنسيون والإنجليز على السواء ، ولم يجد الإنجليز والفرنسيون بداً من أن يتعاونوا لمقاومة هذه الحرب المقدسة ، ولم يتم النصر ضد القوات الوطنية إلا فى سنة ١٩٢٢ ، وفى هذه السنة جعل

الفرنسيون من النيجر مستعمرة لهم ، وعانت النيجر من الاحتلال الأجنبي ما تعانيه كل الدول من المحتل الأوربي الذى يسرق الأموال ويقتل الحريات وينشر الجهل ، ويثير الحزازات والقبلية ليضرب بعض الناس ببعض ، فلما قامت الحرب العالمية الثانية راحت الدول الأوربية تخطب ود مستعمراتها ، وتعدهم بالاستقلال بعد الحرب ، وقد كانت هذه الدول تحسب هذه الوعود خديعة تخدر بها قوى المستعمرات ، ولذلك حاولت الدول الأوربية التخلص من وعودها عقب الحرب ، ولكن زمام الأمر كان قد أفلت من يدها لأن تطورات هائلة شملت المستعمرات ، وإصراراً واضحاً على الحرية أصبح أنشودة الجميع ، وإزاء ذلك قامت فرنسا بالاصلاحات الدستورية التى ذكرناها عند الحديث عن موريتانيا بعنوان « المستعمرات الفرنسية وطريقها إلى الاستقلال » وقد مرت النيجر بها جميعا ، وفى استفتاء ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨ قالت غينيا « لا » وفضلت الاستقلال التام على الرغم من تهديدات ديجول وصحبه كما ذكرنا من قبل ، وفى الحقيقة أن غينيا لم تكن وحدها فى هذا الاتجاه ، بل إن النيجر كانت تقف هذا الموقف ، وكانت بها أغلبية ساحقة تفضل الانفصال والحرية على الدخول فى الجماعة الفرنسية ، وكانت هذه الأغلبية بقيادة « باكارى » زعيم حزب التجمع والذى كان من أقوى زعماء التحرر فى إفريقية ، وقد قاد باكارى أعنف حملة واجهها دستور ديجول ، وقت إجراء الاستفتاء عليه ، ولذلك عمدت الإدارة الفرنسية إلى تأجيل إعلان نتيجة الاستفتاء ، إذ أدركت أنه يتجه إلى الرفض ، فادعت فساد الإحصاء الأول ، وأجرت استفتاء لاحقاً ، وخلال تلك الفترة طاردت « باكارى » ومنعت عقد اجتماعات حزبه ، وما لأت القلة المناهضة ، وأخيراً أعلنت نتيجة مزورة .

وقد رأينا من قبل خطورة موقع النيجر بالنسبة للمستعمرات الفرنسية ، وقد برزت هذه الخطورة بوضوح بالنسبة لاستفتاء ديجول ، فهى تقع فى حدود صحراء الجزائر إلى الجنوب الشرقى ،

وإلى الشرق منها تبدأ الدول الاستوائية الفرنسية ، فهى إن خرجت على المجموعة الفرنسية شطرتها قسمين دون اتصال(١) .

ولكن مسرحية ديجول لم يطل عرضها ، وأثر موقفُ غينيا وانتصارها على التهديدات على اتجاه ديجول ، كما أثرت روح الحرية والاستقلال التى بدأت تنتشر وتنتصر فاتجه ديجول إلى السماح للدول الأعضاء بممارسة السيادة التامة فى الشئون الداخلية والخارجية مع عقد معاهدات عسكرية تتضمن حق فرنسا فى إنشاء قواعد عسكرية بالبلاد ، وعقد معاهدات اقتصادية تحقق امتيازات خاصة للتجارة الفرنسية ، ولكن النيجر لم يقبل هذا الاتجاه وانتهز فرصة تراجع ديجول ليحقق النيجر كل أمانية ، فتمسك شعب النيجر وقادته بالاستقلال التام غير المشروط ، وحصلت النيجر على استقلالها سنة ١٩٦٠ ، واختير الرئيس هامانى ديورى رئيساً للنيجر ، وأصبحت النيجر عضواً فى هيئة الأمم المتحدة عقب استقلالها .

والرئيس ديورى من أبناء مديرية ميامى ، تلقى دراساته بالمدارس المحلية ثم انتقل إلى داكار عاصمة السنغال فأتم بها تعليمه ، واشتغل بالتدريس فترة ، ثم ترك التدريس واشتغل بالسياسة وسرعان ما أصبح نائبا عن منطقة زندر ، وممثلا لبلاده فى الجمعية الوطنية الفرنسية من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٩ ، ثم أصبح رئيسا للجمهورية عقب الاستقلال ، وظـــل فى منصبه حتى وقع انقلاب ضده فى منتصف أبريل ١٩٧٤ بقيادة الكولونيل سينى كونتى الذى كان رئيســـا للأركان ، والذى أصبح رئيسا لجمهـــورية النيجر

اقتصاد النيجر :

تشمل جمهورية النيجر مساحات واسعة تختلف طبيعة الأرض فيها ، فحول نهر النيجر توجد الأرض الصالحة للزراعة ، وفى المناطق الجنوبية تنطى

---

(١) صلاح صبرى : إفريقية وراء الصحراء ص ٢١٥ - ٢٤٠

الأرض بالحشائش الصغيرة التى تعرف بالسافانا ، وفى الشمال تكثر الصحارى الشاسعة التى توجد بها بعض الواحات وبعض المراعى .

والمنطقة الزراعية تنتج بوفرة الفول السودانى والأرز والقمح والبطاطا والقطن والذرة ، وتقوم قبائل الهوسا بزراعة هذه الأرض ، وإنتاج هذه المحصولات ، أما فى منطقة السافانا فتكثر المراعى وتربى الماشية بأعداد كبيرة هذه المنطقة وفى مراعى الصحراء ، وتبلغ الأبقار والأغنام عدة ملايين تربو على العشرة ، وتكثر بها الخيول والحمير والجمال وتصدر النيجر أعداداً هائلة من المواشى إلى المناطق المجاورة وبخاصة نيجيريا كما تصدر اللحوم إلى ساحل العاج وداهومى وغانا وفولتا العليا .

أما عن الثروة المعدنية فقد اكتشفت منها كميات كبيرة فى الصحراء ، وهى تشمل المواد المشعة والقصدير والحديد الخام والمنجنيز والصفيح وهناك أمل فى وفرة البترول والغاز امتداداً للبترول الذى اكتشف على الجانب الآخر للحدود فى الجزائر .

وترتبط الصناعة فى النيجر بالحاصلات التى أشرنا إليها فهناك صناعة للجلود وحفظ اللحوم ، ومعاصر لإنتاج الزيت من الفول السودانى ومصانع لحليج القطن .

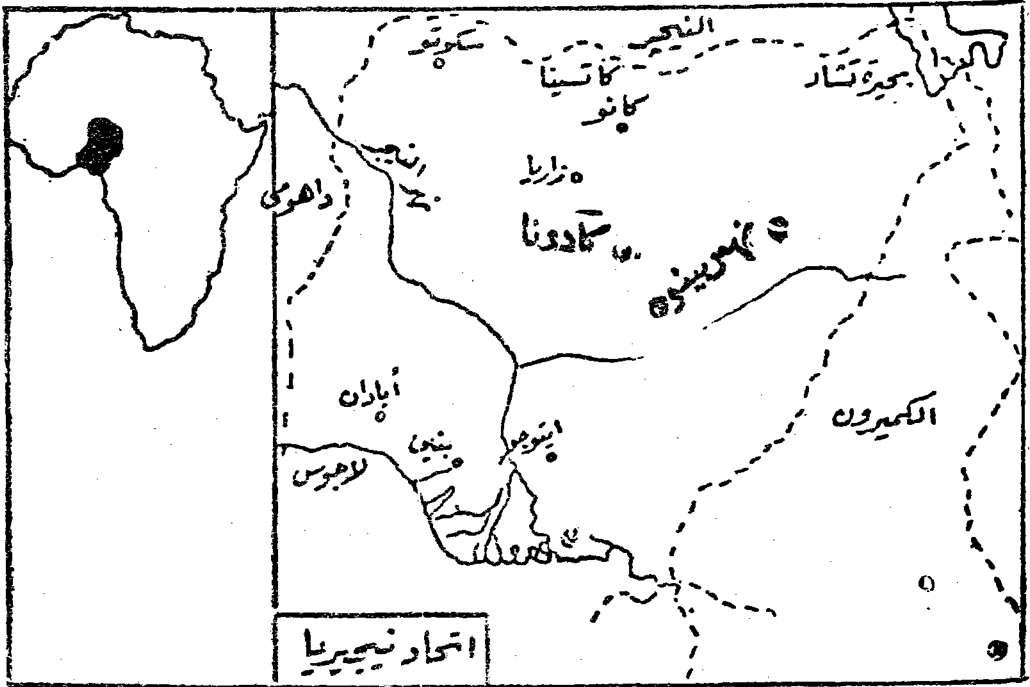
وتعد نيجيريا المنفذ الطبيعى لبلاد النيجر ، والعلاقات بين النيجر ونيجيريا طيبة للغاية ، فقبائل الهوسا تسكن فى جنوبى النيجر وشمالى نيجيريا ، وقد قسم الاستعمار هذه القبائل ، فأصبح بعضها تابعاً لفرنسا فى النيجر ، وبعضها تابعاً للإنجليز فى نيجيريا ، وأقيمت الحواجز والحدود بين أبناء الجنس الواحد ، وقد أعاد الزعماء هنا وهناك بعد الاستقلال فتح الطريق بين أبناء الجنس الواحد ، ومما ساعد على حسن الجوار كذلك ، وحدة الدين ،

فالمنطقتان تتبعان الدين الإسلامى . وتتحمسان لشعائره ، وكل هذا قضى على الفواصل المفتعلة التى أتى بها الاستعمار بين البلدين الشقيقين .

التعلم فى النيجر :

من الطبيعى أن التعلم تخلّف تخلفا واسعاً فى النيجر إبان فترة الاحتلال ، وكانت نسبة المثقفين ضئيلة للغاية وكانت المدارس قليلة ، فقد كان من أهداف المستعمر أن ينشر الجهل ليكون ذلك عوناً له على الاستغلال ، ويمكن القول إن الهيئات الإسلامية هى التى حرست الثقافة فى النيجر خلال فترة الاحتلال ، فقد أقامت عدداً من المعاهد والمراكز الثقافية ، ونشرت المكتبات ، فكانت بذلك مشاعل ضوء وسط الظلام الحالك ، ولما جاء عهد الاستقلال عنى بالتعلم عناية كبيرة ، فأنشأ المدارس فى المراحل المختلفة ، كما أنشأ معاهد للتدريب المهنى ، وأنشأ كذلك المدارس المتنقلة التى تتحرك مع القبائل لتعلم أبنائهم ، واهتم عهد الاستقلال بإرسال البعثات للخارج لتحصيل التعلم العالى ، كما أنشأ قرية للشباب ومنظمات دينية ورياضية ، ومعهداً للدراسات الشعبية والآثار ، وكل هذه تتعاون لخدمة العلم ونشر الثقافة بالبلاد .

نيجيريا



التسمية والموقع :

إن تسمية نيجيريا متصلة بنهر النيجر ، وإذا كانت دولة النيجر أخذت اسم النهر تماماً فإن نيجيريا أضافت على اسم النهر مقطعاً ، فأصبحت بذلك تعنى « ما حول النيجر » والنيجر – كما قلنا من قبل – معناه الأسود (Negro) فالنهر يسمى نهر الزنج أو نهر السودان وأحياناً نيل الزنج أو نيل السودان ، وله أسماء محلية أخرى ذكرناها فى مطلع الحديث عن « جمهورية النيجر » ، ولكن الفرنجة هم الذين أطلقوا عليه « النيجر » تبعاً للون ، وكان الأسبان أول من اشتق من اسمه تسمية

للجزء المحيط بالنهر من نيجيريا الحالية[١] أما جعل الاسم شاملا لكل نيجيريا الحالية فيقال إنه من اختراع جريدة التيمس البريطانية فى عددها الصادر بتاريخ ٨ من يناير سنة ١٨٩٧[٢] ويبدو أنها كانت تعبر بذلك عن أن سلطان بريطانيا قد انبسط على هذه المنطقة الفسيحة التى كانت تشمل ولايات الهوسا ودولة اليوروبا ودولة برنو ومناطق الايبو ، ثم كانت الفكرة بجوار ذلك أن تعزل بلاد نيجيريا عن المنطقة كلها فقد كان العرب يطلقون على هذه المنطقة اسم « السودان الغربى » أو « بلاد التكرور » .

ومما يتصل بالتسمية كذلك أن العاصمة الفيدرالية « لاجوس » أخذت اسمها من اللغة البرتغالية ، فكلمة « لاجوس » معناها بالبرتغالية « البحيرة » ومنها الكلمة الإنجليزية « Lakes » أى البحيرات لأن لاجوس كانت أشبه ببحيرة واسعة هادئة فاتخذت ميناء طبيعياً للأسطول البرتغالى .

ونيجيريا تحدها الكاميرون شرقاً وبحيرة تشاد فى الشمال الشرقى وتشاد والنيجر شمالا وداهومى غرباً ويقع المحيط إلى الجنوب منها .

وتتكون نيجيريا الحالية من برنو ودول الهوسا ومناطق اليوروبا الجنوبية ، ومن بعض مناطق صغيرة أخرى كانت مبعثرة هنا وهناك ، وبلغة أخرى تشمل نيجيريا الحالية أساساً دولة برنو وإمبراطورية الفولانى وممالك اليوربا والأيدو ومناطق الأيبو بالإضافة إلى المناطق الصغيرة المتناثرة وهى بهذا من أكبر دول إفريقية من حيث المساحة ، وتصل مساحتها إلى أربعة أضعاف مساحة بريطانيا .

ويشق نيجيريا نهران عظيمان هما نهر النيجر سالف الذكر ونهر بينو ، ويدخل نهر النيجر بلاد نيجيريا من الغرب بعد أن يجرى عبر البلدان

---

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ٢١ بتقديم وتأخير .

(٢) عبد الرحمن صالح : أحمدو بللو زعيم من نيجيريا ص ٢٢ .

الأخرى حوالى ثلثى طوله البالغ ٢٦٠٠ ميل وعندما يصبح نهر النيجر على بعد ٣٤٠ ميلا من المحيط يلتقى بنهر بينو عند مدينة لوكوجا ، ويعتبر نهر بينو من الروافد الرئيسية للنيجر ، وهو ينبع من بلاد الكمرون ولكنه سرعان ما يدخل نيجيريا منحدراً من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، وهناك روافد أخرى لنهر النيجر أهمها سوكوتو وكادونا ، ولنهر النيجر دلتا واسعة إذ تتعدد فروعه قبل أن يصب فى خليج غينيا .

ويلعب النهران الرئيسيان دوراً مهماً فى نيجيريا لا من الناحية الاقتصادية فحسب ، بل من الناحية السياسية كذلك ، فالأرض الواقعة إلى الشرق من نهر بينو وإلى الشرق من نهر النيجر بعد أن يلتقى النهران تكوّن الإقليم الشرقى ، والأرض الواقعة إلى الغرب من نهر النيجر تكوّن الإقليم الغربى ، أما الإقليم الشمالى فيتكون من الأرض التى تقع شمالى النهرين ؛ وذلك هو الإقليم الفسيح كثير السكان ، وقد نظم دستور ١٩٤٦ المقاطعات وفقاً لهذا التقسيم الذى يمكن عده تقسيما طبيعيا ، فقسّم هذا الدستورُ الجنوب إلى مقاطعتين شرقية وغربية ، وأقام برلمانات للمقاطعات الشمالية والشرقية والغربية مع مجلس تشريعى مركزى تشترك فيه كل المقاطعات ، وتكون فى نيجيريا إقليم رابع هو الإقليم الغربى الأوسط وكان ذلك نتيجة استفتاء عام أجرى سنة ١٩٦٣ وتعداد السكان حوالى ٥٥ مليونا موزعة على الأقاليم كالآتى :

الإقليم الشمالى تعداده حوالى ٣٠ مليونا من الهوسا والفولانى ومعهم قبائل الكانورى .

الإقليم الشرقى تعداده حوالى ١٢ مليونا أكثرهم من الإيبو .

الإقليم الغربى تعداده حوالى ١٠ ملايين أكثرهم من قبائل اليوروبا والإيدو .

الإقليم الغربى الأوسط تعداده حوالى مليونين وأكثرهم من اليوروبا والإيبو كذلك .

وعاصمة الإقليم الشمالى كادونا والإقليم الشرقى اينوجو وللغربى أبادان والإقليم الغربى الأوسط بنين ، أما العاصمة الاتحادية فهى لاجوس ، وقد كانت سوكوتو عاصمة الشمال إبان عهد عثمان دانفديو ، ثم أصبحت كادونا هى العاصمة منذ عهد الاحتلال ، ومنذ ذلك العهد اطلقت كلمة سوكوتو على الإقليم الذى به العاصمة القديمة والذى يشمل بلاد زنفره إحدى ممالك الهوسا القديمة ، ولكن هذه المقاطعة لا تزال عريقة الصلة بالماضى تتمتع تاريخها بجو روحى عبق ، ويحمل سلطانها لقب أمير المؤمنين[١] .

وتقع كادونا على النهر المسمى باسمها وبها منطقة صناعية عظيمة ، وقد زاد نموها زيادة مطردة منذ أصبحت عاصمة الإقليم الشمالى ، كما أصبحت مركزاً ثقافياً وحضارياً يستلفت الأنظار .

وإينوجو عاصمة الإقليم الشرقى منجم مهم لإنتاج الفحم ، ويصدر الفحم المستخرج من مناجمها بوساطة خط للسكك الحديدية يصلها بميناء بورت هاركورت ، وعندما أعلن انفصال الإقليم الشرقى كما سنرى فيما بعد لم يطل انفصال إينوجو عن الوطن الأم فسرعان ما سقطت فى أيدى القوات الاتحادية فى غضون بضعة أشهر من إعلان الانفصال ، وكان سقوط العاصمة ممهداً لعودة الإقليم كله إلى مكانته من اتحاد نيجيريا[٢] .

وابادان (Ibadan) عاصمة الإقليم الغربى أكبر بلاد غربى إفريقية وأكثرها سكانا ، وبها أكبر جامعات نيجيريا ، وكانت من قبل كلية جامعية تأسست سنة ١٩٤٨ كفرع لجامعة لندن ثم استقلت واتسعت

---

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز نيجيريا ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) جاك ووديس : جذور الثورة الإفريقية ص ٤٦٠ (إضافات المترجم) .

وأصبحت مشعل نور لنيجيريا كلها وللأقطار المجاورة ، وكانت أبادان قبل الاحتلال البريطاني مركزاً مهما للثقافة الإسلامية والعربية ، وكان يقصدها الطلاب من كافة أنحاء يوروبا ، ومن للذين عملوا على رفعة شأنها في مجال الدراسات الإسلامية الرالى عثمان بشورن الذى أوفد إليها جلة العلماء من بلاد الهوسا وأنفق على نشر التعليم من ماله الخاص ، ثم حذا حذوه بالى ششث ثم عباس أولويدن ، وكلهم مسلمون مخلصون شيدوا المساجد ونوّهوا بفضل العلم والعلماء .

ومن العلماء الذين كرسوا حياتهم للدراسات الإسلامية والعربية فى أبادان الشيخ عثمان التندى الذى تولى الإمامة فيها سنة ١٨٣٩ ثم الإمام هارون ابن السلطان الذى كان يدعى بالشيخ الأكبر لأهل أبادان وكانت وفاته سنة ١٩٣٥ ، وقد تعاون هؤلاء مع الرؤساء فى توطيد دعائم الإسلام واستقدموا المرشدين والمدرسين إلى بلاد يوروبا من بلاد الهوسا ومن غيرها ، وكان لجهدهم ثماره الطيبة التى نشرت الإسلام والفكر الإسلامى بهذه المناطق[١] .

وأبادان الآن من أكثر مدن إفريقية نشاطاً وأكبرها حجما ، ويرجع التوسع المستمر فيها إلى موقعها كمركز تجارى لكل ما يتعلق بمحصول الكاكاو النيجيرى ، وقد وجدت البعثات التبشيرية بها — للأسف — مكاناً أفرخت فيه ، فأصبح لهـا نفوذ كبير وبخاصة فى التعليم على الرغم من أن أكثر سكانها من المسلمين[٢] .

و « بنين » عاصمة الإقليم الغربى الأوسط ، وفى منطقتها وجدت إمبراطورية بنين التى شكلها الزنوج : وقد امتد سلطانها نحو الشرق ، وهناك فواصل عنصرية تفصل سكان هـذه المنطقة عن قبائل اليوروبا

---

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ٤٣ — ٤٤ .

(٢) جاك ووديس : جذور الثورة الإفريقية (تعليقات المترجم ص ٥٦١) .

والإيبو ، كما أن هناك مميزات اجتماعية وحضارية يختص بها سكان منطقة بنين .

والذين بنوا مدينة « بنين » ليسوا من قبائل اليوروبا ، ولا يتكلمون لغتهم ، وقد امتدت فتوحات اليوروبا فشملت بنين واستعمرتها ، وخلفت قبائل اليوروبا فى بنين بعض التراث اللغوى والثقافى ، ولكن بنين سرعان ما استعادت استقلالها ، وأنشأت مملكة قوية الشوكة أدركها الأوربيون فى أوج الحضارة والمدنية ، عندما حط البرتغاليون رحالهم بها سنة ١٤٨٥ ، وقد التقى القائد البرتغالى مع ملك بنين ، وجرت بينهما مفاوضات أسفرت عن إرسال سفير من بنين إلى البرتغال لعقد اتفاق تجارى بين البلدين ، وإعطاء تصريح للمبشرين البرتغاليين ليباشروا أعمالهم التبشيرية فى بنين .

ويبدو أن بنين اتخذت هذه الخطوة اتقاء لما توقعته من إمكان هجوم قبائل اليوروبا عليها ، وكانت بنين بذلك من أول المراكز التى اقتحمها التبشير المسيحى عن طريق البرتغال ولكن ذلك التبشير لم يستقر بها طويلا ، وانتقل إلى قبائل الإيبو سنة ١٥٢٠ ثم غادر بعد ذلك نيجيريا ، وفى سنة ١٥٥٣ وصلت لها أول باخرة إنجليزية باسم التجارة ، ولكن روح الاستعمار ظهرت فى تصرفات الإنجليز ، فبدأ النزاع بينهم وبين الأهالى ، فهاجمت القوات الإنجليزية بنين ودمرت أبنيتها .

وفى عصر الاستقلال عادت بنين من جديد لتصبح مدينة مهمة ، وعاصمة للإقليم الغربى الأوسط ومكانة بنين هذه هى التى دفعتها لتكوين مقاطعة خاصة بها عن مناطق اليوروبا .

ولاجوس هى العاصمة الاتحادية والميناء الرئيسى لنيجيريا وثانى مدنها بعد أبادان وتقع على بحيرة ساحلية بجانب خليج غانا ، وتقوم المدينة على جزيرتى لاجوس وإدو ومنطقة بالساحل المجاور ، وقد اتخذت اسمها من مكانتها بالنسبة للبحيرة ، فلاجوس معناها بحيرة فى اللغة البرتغالية كما قلنا من قبل .

وبالإضافة إلى هـذه العواصم توجد فى نيجيريا بلاد ذات أهمية كبرى فى مجال التاريخ الإسلامى ، ومن أهمها كانو وكاشنه وزاريا وكاتسينا وغيرها .

السكان دما ولغة ودينا :

سكان نيجيريا يبلغون حوالى ٥٥ مليوناً ، منهم حوالى ٣٨ مليوناً من المسلمين ، وهناك حوالى ١٣ مليوناً من المسيحيين والباقى من الوثنيين واللادينيين .

وينتسب السكان إلى قبائل برنو والهوسا والفولانى والإيبو واليوروبا وقبائل نوفى ويقطن قبائل برنو بالشمال الشرقى من نيجيريا ، ويشتهرون بالفروسية والشجاعة وبإتقان الصناعات المختلفة ، ومن أبرز صفاتهم الأنفة وعزة النفس والفخر بالآباء ، وقبائل الهوسا والفولانى هم سكان الإقليم الشمالى بوجه خاص ، ويوجد منهم فروع فى الأقاليم الأخرى ، وقد اندمج الفولانى فى الهوسا ، حتى لم يعد هناك من يمكن أن يدعى أنه ينسب إلى الدم الفولانى الخالص ، ولهذه القبائل تاريخ مجيد ، وذكريات طيبة فى السياسة والتجارة والصناعة ، وينتشر الإسلام بينهم انتشاراً واسعاً حتى يحسب البعض أنهم جميعاً مسلمون ، ويعرف هؤلاء باعتزازهم بأنفسهم وتمسكهم بالإسلام ، واحترامهم للتقاليد ، وصراعهم مع الاستعمار ، وتوقفهم منه موقف الخشية والحذر مما حد من نفوذهم الثقافى فى خلال الفترة الاستعمارية .

وتقطن قبائل الإيبو فى الإقليم الشرقى غالباً ، وقد كانت هذه القبائل جماعات متفرقة لا تربطها روابط ، ولا تتكون منها دولة ، وبالتالى لا تخضع لأمير أو سلطان ، وكانت هذه المنطقة من المناطق التى اتخذها التبشير المسيحى مركزاً له ، حتى أصبح عدد المسيحيين فيها يبلغ حوالى نصف السكان ،

أما النصف الثانى فلا يزالون وثنيين ، وهناك قلة قليلة من المسلمين ؛ وقد نالت هذه المنطقة كثيراً من التطور فى عهد الاستعمار ، وبرز فيها ألوان من المثقفين ، فى مختلف العلوم والفنون وكان منها « الدكتور نمدى أزيكوى » الذى كان حاكماً عاماً على نيجيريا وأول رئيس للجمهورية .

أما قبائل يوروبا فعظمهم فى الإقليم الغربى ويوجد بعضهم بالإقليم الشمالى ، وكانوا أكثر قبائل نيجيريا إقبالا على الثقافة الأوربية والتعليم العام حتى أصبح منهم عدد كبير من الأطباء والمحامين ورجال السياسة ، وسكان هذا الإقليم مزيج من المسلمين والوثنيين والمسيحيين ، ونسبة المسلمين فيهم ربما تزيد عن نسبة سواهم .

أما قبائل نوفى فإنهم ينزلون على ضفاف نهر النيجر ، فى المقاطعات المحاذية لبلاد يو روبا .

وهناك زنوج بنين بالإقليم الغربى الأوسط ، وسكان هذا الإقليم مزيج من المسلمين والمسيحيين والوثنيين[1] .

واللغات فى نيجيريا كثيرة جداً تبعاً لبطون القبائل التى أشرنا إليها ، ويقال إنها تصل إلى حوالى ٢٥٠ لغة ، وينبغى أن نبدأ حديثنا عن اللغات بكلمة عن اللغة العربية بنيجيريا التى كان لها مجال واسع جداً فى نيجيريا قبل الاستعمار، فقد انتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً مع الدين الإسلامى ، وحملها الطوارق إلى أرض الهوسا ، فكانت لغة الثقافة والعلم ، وقد عُنى بها عدد وفير من أهل نيجيريا فجعلوها لغتهم الأولى ، دونوا بها المؤلفات ونظموا القصائد والأشعار ، وكانوا يفدون إلى مصر والبلاد العربية ، ويبقون فترات طويلة لمزيد من تجويد هذه اللغة ، ولمزيد من الاطلاع على

---

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٢٥ — ١٢٨ بتصرف واسع والإسلام فى نيجيريا ص ١٠ .

آدابها ، وكان بعض سلاطين الهوسا من العلماء ، برزوا فى اللغة العربية وآدابها وكتبوا بها مؤلفاتهم ، ومن هؤلاء الإمام محمد بلو بن عثمان دانفديو ، الذى كتب كتابه الذى يعتبر حجة فى تاريخ هذه البلاد وعنوانه « إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور » ، وقد تحدث فى هذا الكتاب أحاديث دينية ، وترجم لوالده القائد الشهير عثمان دانفديو وتحدث عن غزواته وانتصاراته الكبيرة ، وبالإضافة إليه عقد المؤلف فصلا ترجم فيه لبعض علماء الأقاليم السبعة[1] التى عاشت بها قبائل الهوسا ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ عبد الله سك الفلاتى الذى رحل فى طلب العلم إلى فزان وغيرها ثم رجع لبلاده وتصدى للإقراء وتعليم اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، ومنهم الشيخ محمد الكشناوى الذى رحل للشرق وحج وجاور بالحرمين ورحل لمصر وتوفى بها ، وقد شهد له علماء الحرمين ومصر بالعلم والفضل ، ومنهم القاضى محمد بن أحمد الذى كان فقيهاً عالماً ومحدثاً كبيراً جيد الحفظ حسن الفهم كثير المنازعة ، وقد رحل للشرق حيث قابل التلقشندى وابن أبى شريف السنباطى وغيرهما ، وأجازه من مكة أبو البركات النويرى ، وعلى بن ناصر الحجازى وغيرهما ، ورجع لبلاد السودان فتولى قضاءها .

ومنهم الشيخ البليغ عمر بن محمد التردى ، وكان بجانب فقهه وعلمه شاعراً مجيداً ، له تخميس على « بانت سعاد » ، ومنهم الأستاذ جبريل بن عمر شيخ الإسلام العلامة المحقق الذى مدحه الإمام محمد بن بلو بقصيدة مطلعها :

إن قيل فيه بحسن الظن ما قيلا فموجة هو من أمواج جبريلا

ومن أشعار الشيخ نفسه قوله فى شيخه مرتضى :

فريد الدهر فايق كل قرن عجيب شأنه فى كل فن[2]

---

(١) الفصل التاسع .

(٢) اقرأ : إنفاق الميسور ص ٥٥ — ٥٦ .

وبين أيدينا كتاب آخر ألفه باحث نيجيرى عن تاريخ نيجيريا ، وأورد فيه نماذج كثيرة لعلماء من نيجيريا أجادوا اللغة العربية وكتبوا بها مؤلفاتهم ونظموا بها القصائد والأشعار ، ومن هؤلاء علماء كشنة الذين برزوا فى الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، ومن أشهرهم ابن الصباغ الذى يقول فى فضل العلم :

العـلم روض لله كالبستان ... أشجاره كثـيرة الأفنـان

ومنهم محمد مود بن محمد الذى يذم الحسد بقصيدة طويلة منها :

من أجْهَلُ الناس سوى الحسودْ ... يغضب من قضـية الودودْ
مـتى رأى نزول غيث الرحْمَةْ ... تُصيـبهْ غشـية تذيب لحمَهْ

ويقول مؤلف هذا الكتاب إن الإسلام لمـا دخل نيجيريا أزال عن أهلها الأمية والجهالة ، فصاروا فى عداد الأمم الكاتبة القارئة ، وبالتالى ظهر فيهم علماء يؤلفون باللغة العربية مؤلفات نثرية وشعرية ناضجة فى شتى الموضوعات الأدبية والدينية والاجتماعية(١) .

وكان من ميزات اللغة العربية بنجيريا أنها لعبت دور الوسيط اللغوى ، فصارت كما يقولون « Lingua franca » أى أصبحت لغةً يتكلم بها جماعات تختلف لغاتهم الأصيلة ، فلما جاء الاستعمار حارب اللغة العربية بسلاحين : السلاح الأول دَفْعُ اللغات المحلية إلى البروز والظهور ، ومحاولة خلق أحرف هجائية لها لتصبح لغات تكتب . والسلاح الثانى هو أنه دفع لغته لتحل محل العربية فى مجالات الثقافة والعلم ، وفى أن تصبح لغة وسيطة تتكلم بها مختلف القبائل ، وهناك سلاح

---

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٠٢ وانظر نماذج أخرى فى صفحات أخرى .

ثالث أضرَّ باللغة العربية وقلل من مكانتها ذلك هو أن المستعمر أوقف السيل البشرى الجارف الذى كان يتمثَّل فى طالبى العلم من نيجيريا إلى البلاد العربية ، ليعودوا إلى بلادهم وقد تمكنوا من هذه اللغة ، على أن اللغة العربية قبل أن تضعف فى نيجيريا تركت آثارها التى لا تمحى عن طريق بعض القواعد التى انسابت منها إلى لغة الهوسا كالضمائر المؤنثة والمذكرة وجموع التكسير ، وضمائر المتكلم والغائب والمخاطب ، وعن طريق الكلمات الكثيرة التى اقتبستها اللغات الكبرى بنيجيريا كلغة الهوسا ولغة اليوروبا ، وبعض الكلمات العربيه دخل لغة الهوسا دون تحريف كالأعداد من العشرين إلى التسعين ، وبعضها دخل بشىء من التحريف الذى تقتضيه الأحبال الصوتية ، وعضلات النطق التى تختلف من شعب إلى شعب(١) ، وقد أورد الألورى نماذج كثيرة من الكلمات العربية التى انتقلت إلى لغة الهوسا أو لغة اليوروبا بتغيير بسيط فى نطقها وكتابتها(٢) .

• وبعد الحديث عن اللغة العربية ننتقل إلى الحديث عن أشهر اللغات بنجيريا ، وفى القمة من هذه اللغات توجد لغة الهوسا ، وهى لغة أهل شمالى نيجيريا كما أنها تخطت حدود نيجيريا ، فأصبحت لغة التجارة والسياحة بغرب إفريقية كلها ، وذلك بسبب انتشار قبائل الهوسا الذين يزاولون التجارة والسياحة فى هذه الأقطار ، وقد دخلت لغة الهوسا كلمات كثيرة من اللغة العربية كما ذكرنا ، ومن لغات الزنج والبربر والنوبة ، كما أنها اقتبست من اللغة الإنجليزية أسماء المخترعات الحديثة والمصطلحات السياسية ، ولغة الهوسا سهلة التعبير خفيفة على اللسان(٣) ، لها قواعد ثابتة دقيقة ، وكانت من قبل تكتب بالحروف العربية ، وفى عهد الاستعمار وضعت لها حروف لاتينية .

---

(١) آدم عبد الله الألورى الكتاب السابق ص ١٤٤ بتصرف .

(٢) الكتاب السابق : ص ١٤٥ — ١٤٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٤ — ١٤٥ .

وبعد لغة الهوسا تجيء لغة إيبو ويتكلم بها حوالى ثمانية ملايين من قبائل الإيبو بشرق نيجيريا ، وقد تختلف لهجة منها عن أخرى مع اختلاف البطون .

واللغة الثالثة بنيجيريا هى لغة اليوروبا ويتكلم بها حوالى خمسة ملايين بالإقليم الغربى كما يتكلم بها أبناء قبائل اليوروبا بالإقليم الشمالى وبغانا وساحل العاج وداهومى ، وهذه اللغة غنية بالكلمات العربية التى اندمجت فيها . كما أخذت بعض الكلمات من لغة الهوسا ومن الإنجليزية .

وننتقل الآن للحديث عن الأديان بنيجيريا ، وفى هذه الأرض الفسيحة كانت تنتشر الأديان المحلية والمعتقدات البدائية ، كعبادة الأصنام والتماثيل المنحوتة من الخشب والطين ، وكانت الذبائح والقرابين تقدم لهذه الأصنام ، وكان منهم من يعبد الرعد والبرق والنار وبعض الأنهار والأشجار ، وتوجد الطوطمية كذلك فى بعض نواحى نيجيريا ، كما تعبد أرواح الأجداد والتماسيح والثعابين والأفيال ؛ ومن أعيادهم الدينية عيد الغول ، وفيه يتنكرون داخل جلود السباع ، وكانت تنتشر فى نيجيريا عبادة النار ، وكان عبادها يطوفون بها ويرقصون حولها ، وعلى هذا فالوثنية بسائر أنواعها كانت الديانة الأولى بنيجيريا ، وللوثنية كهنة يرشدون إلى تأدية الطقوس ويقودون إلى خدمة هذه الآلهة التى يصنعها الإنسان[1] .

وبينا كانت نيجيريا تعيش فى هذا الظلام إذ دق الإسلام بابها واتخذ طريقه إليها ، فبعث بها النور والحضارة ، وسكب فى أرجائها المدنية والعرفان ، ويرى علماء نيجيريا أن الإسلام دخل هذه البلاد فى أواخر القرن الأول الهجرى الذى فتح المسلمون فيه شمالى إفريقية وجزءاً من غربها ، ويرون أن الإسلام اندفع إلى نيجيريا من منبعين أولهما من مصر عبر السودان العربى ودارفور وباجرمى وبرنو ، وثانيهما من شمالى إفريقية عبر الصحراء :

---

(١) آدم عبد الله الألورى : المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٧ .

ثم جاءت إمبراطوريات غربى إفريقية وحركة عثمان دان فيديو الإصلاحية فتمكن الإسلام بالشمال وانتشر به انتشارا واسعاً ، ومن الشمال انساب نحو الغرب وبخاصة فى عهد إمبراطورية الفولانى .

وهكذا شمل الإسلام مناطق الهوسا بشمالى نيجيريا مما جعل بعض المؤرخين يعتقدون أن هذه المناطق الشاسعة تتبع دين الإسلام بنسبة ١٠٠ ٪ أو أقل قليلا ، أما غربى نيجيريا فقد عرف الإسلام فى أيام إمبراطورية الفولانى ، ومن هنا كان الإسلام فى الغرب يشمل حوالى نصف السكان أما النصف الثانى فيتبع المسيحية والوثنية ، أما شرقى نيجيريا فلم تمتد له إمبراطورية الفولانى ، ولهذا كان انتشار الإسلام فيه محدوداً .

وجاءت المسيحية إلى نيجيريا مع الاستعمار الأوربى ، ولم تكن نيجيريا قبل ذلك تعرف كلمة واحدة عن المسيحية إلا عن طريق ما يرد عنها فى الدراسات الإسلامية أو تفسير القرآن الكريم ، فلما جاء الاستعمار تعاون المستعمرون على اختلاف ميولهم ، وعلى ما بينهم من حقد وصراع لينشروا المسيحية فى نيجيريا كما فعلوا فى مستعمراتهم الأخرى ، كأنهم كانوا يدركون أنهم يوماً ما سيُطرَدون من مستعمراتهم ، وأن الشىء الوحيد الذى سيبقى لهم فى المستعمرات هو المسيحية الغربية التى تشد بعض الوطنيين إليهم وتربطهم بهم برباط محكم ، وفى نيجيريا اتجه الاستعمار إلى المناطق الوثنية واللادينية فهى التى يمكن التأثير فيها ، أما المناطق الإسلامية فلم يجد الاستعمار وسيلة لنشر ديانته بها ، وهكذا كان انتشار المسيحية مطرداً اطراداً عكسياً مع انتشار الإسلام ، فكلما كان انتشار الإسلام واسعاً كلما ضاقت حلقة انتشار المسيحية ، وعلى هذا لم تجد المسيحية منفذاً لها فى الشمال ، أما فى الغرب فاقتسمت النفوذ مع الإسلام وأما فى الشرق فقد وجدت الحقل فتغلغلت وزاد انتشارها .

على أن الاستعمار لم يدع المسلمين بالشمال يعيشون فى سلام ، بل لحاطهم

بستار حديدى حجب عنهم العرفان والنور ، وحجب عنهم صلتهم بالدول الإسلامية ، وبذلك لم يدع منفذاً للفكر والمعرفة يتخطى ديارهم ، وكلس كل نشاطه فى المناطق الأخرى التى نشر فيها المسيحية ونشر فيها مع المسيحية العلوم الحديثة وتطورات الفكر العالمى ، ووحّد الاستعمار بين أجزاء نيجيريا بهدف واضح ، هو أن تستولى القلة المسيحية باسم الثقافة والمدنية على الأكثرية المسلمة التى حكم عليها بالتخلف وحجب عنها نور المدنية ، وقد كانت ثورة شرق نيجيريا نتيجة طبيعية للأوضاع فى نيجيريا ، فقد أراد هذا الجزء أن يتسلط على الكل تحقيقاً لأهداف الاستعمار ، فلما عجز أعلن استقلاله وأيده الاستعمار ، ولكن قوى الحق أعادته إلى مكانه الطبيعى من الوطن الواحد ، وسنتحدث فيما بعد عن هذه الأحداث السياسية .

وفى كلمة موجزة يشمل الإسلام حوالى ٧٠ ٪ من سكان نيجيريا ، وتشمل المسيحية حوالى ٢٠ ٪ والباقون لا يزالون على الوثنية والأديان البدائية .

والإحصاءات الإنجليزية تعمد إلى التقليل من عدد المسلمين والمبالغة فى عدد المسيحيين ، ومع هذا فالكاتب الإنجليزى Geoffrey Parrinder يذكر أن المسلمين فى نيجيريا يبلغ عددهم حوالى ثلاثة أضعاف المسيحيين ، وإن كان يعمد إلى التقليل فى العددين لأن تقليل عدد المسلمين فى نيجيريا وفى إفريقية مقصود لذاته ، وتعداد المسلمين فى رأيه ١٤,٠٠٠,٠٠٠ (١) وتعداد المسيحيين ٥,٠٠٠,٠٠٠ (٢) .

ويقرر Stapeleton ما سبق أن أوردناه عن أن انتشار المسيحية بنيجيريا لم يتم إلا فى أثناء الحكم البريطانى ، ويضيف أن انتشارها اعتمد فى الغالب على الإغراء المادى أو جاذبية مدارس الإرساليات (٣) .

---

(١) Religion in Africa p. 220 — (٢) Ibid p. 167

(٣) The Wealth of Nigeria pp. 53-56

كلمة تاريخية :

ترك العلماء المسلمون العرب نُتفاً يمكن أن تعطى صورة واضحة عن تاريخ الجزء الشمالى من نيجيريا ، كما أن مسلمى نيجيريا الذين تعمقت ثقافتهم الإسلامية العربية كتبوا أيضاً لمحات من تاريخ هذه البقاع ، ويمكن أن نأخذ من هذه وتلك صورة واضحة عن تاريخ شمالى نيجيريا ، أما الإقليم الغربى فليس له تاريخ مدون إلا ما جاء عرضاً فى أثناء تاريخ الشمال ، وأما الإقليم الشرقى فلم يدون له تاريخ إلا ابتداء من تاريخ الاحتلال البريطانى ، وسنحاول أن نورد إلمامة واضحة عن تاريخ هذا القطر الواسع الرقعة العميق التأثير فى الحياة الإفريقية .

وتدل المراجع التاريخية على أن صلة وثيقة قامت بين مصر ونيجيريا إبان التاريخ القديم ، فقد وجدت فى نيجيريا آثار مصرية ، كالتماثيل الخزفية ، والمسلات الحجرية ، والحجارة التى نقش عليها بحروف هيروغليفية ، مما يدل على أن المصريين وصلوا إلى هذه البلاد ، وتركوا بها ألواناً من حضارتهم ، وجاء فيما كتبه هيرودوت أبو التاريخ أن الجيش المصرى فى عهده كانت به وحدات زنجية تحمل أسلحة هى نفس الأسلحة التى كان يستعملها سكان نيجيريا ولا زال بعضهم يستعملها حتى الآن(١) .

ويذكر W. Ward فى كتابه عن تاريخ إفريقية(٢) أنه وُجد فى نيجيريا ألوان من الصناعات لا يمكن أن تكون من صنع أهل نيجيريا ولم تكن مادتها الخام قد عرفت عندهم ، وتدل هذه الصناعات على أنها نوع من حضارة مصر القديمة ، حيث كان السلام والطعام متوافرين ، وحيث وجد رجال عندهم وقت للتفكير ومواهب للابتكار .

---

(١) آدم الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ٣٢ و ١٧ بتقديم وتأخير .

(٢) A Short History of Africa p. 87

وذكرت Margaret Potts[1] أنه ثبت أن أحد فراعين مصر فى القرن الثامن عشر ق . م قام بفتوحات واسعة فى الشمال، ثم انثنى راجعاً إلى بلاده، وسار إلى الجنوب حيث لقى مجموعة عديدة من أجناس البشر الحفاة العراة . ووصل فى سيره إلى النهر الأسود « نهر النيجر » واجتمع هناك بسلطان عظيم المملكة والأبهة فتبادل معه الهدايا والأحجار الكريمة .

ويدل التاريخ كذلك على صلة وثيقة بين البربر من جهة وشمالى نيجيريا ومناطق اليوروبا من جهة أخرى، فقد نزل البربر إلى تلك البقاع حوالى القرن السادس الميلادى وكونوا بها ممالك قوية[2] .

على أن تاريخ نيجيريا اتضح بدخول الإسلام لها وانتشاره بها ، وقد بدأ الإسلام يدخل هذه البقاع فى عهد مبكر يرجع به بعض مفكرى نيجيريا إلى القرن الأول الهجرى كما ذكرنا آنفاً ، ويذكرون أن خلق التسامح الذى عرف به سكان هذه المناطق ساعد على انتشار الإسلام ، فقد كان الوثنيون من الملوك وأفراد الشعب يجاملون المسلمين ويحتفلون معهم بأعيادهم ، ويكرمون العلماء المسلمين والتجار المسلمين ، وقد ساعد ذلك على نشر الإسلام من يوم إلى يوم ومن جماعة إلى جماعة .

وقد دخل الإسلام نيجيريا من الشمال ومن الشرق ومن الغرب ، وكانت بلاد الهوسا هدفه الرئيسى ، وسرعان ما انتشر الإسلام بها ، ولا بد أن نذكر فى هذا المجال ما أحرزه الاسلام من تقدم خلال إمبراطورية غانة التى تحولت إلى الاسلام فى عهدها الأخير بفضل الجهد الذى بذله أبو بكر بن عمر أحد زعيمى المرابطين ، والزعيم الثانى هو ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وقد اتجه هذا إلى الشمال فبنى مراكش واقتحم أسبانيا ، واتجه أبو بكر إلى

---

(١) A Short History of Nigeria p. 11.

(٢) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقية من السنغال إلى نهر جوبا ص ١٠٣ و ١٢٦

الجنوب فانتشر الاسلام فى هـــذه الربوع التى امتدت حتى شملت شمالى نيجيريا[١] .

وبعد إمبراطورية غانة قامت إمبراطورية مالى الاسلامية التى أخذت تمارس نشاطها فى السودان الغربى كله ، وامتدت إمبراطوريتها الإسلامية من جبال الأطلس غرباً إلى بلاد الهوسا شرقاً ، ومن المحيط الأطلسى جنوباً حتى الصحراء الكبرى شمالا ، ومن أشهر ملوكها منسى موسى الذى انتشر الاسلام فى عهده فى أكثر بلاد نيجيريا حتى أصبح سكان يوروبا يربطون بين الاسلام ودين مالى ، فيسمونه دين مالى لأنهم عرفوه أول ما عرفوه عن طريق تجار مالى وسفرائها إلى بلادهم قبل أن يزحف لها الاسلام .

وقامت إمبراطورية صنغى بعد إمبراطورية مالى ومن أشهر ملوكها أسكيا محمد الذى امتدت إمبراطوريته الاسلامية فشملت بلاد التكرور وشمالى نيجيريا كلها ، وضمت ممالك الهوسا فترة من الزمن[٢] .

وإلى الشرق من نيجيريا قامت دولة كانم الاسلامية التى امتد منها الاسلام إلى منطقة برنو إحدى مقاطعات نيجيريا الحالية .

ثم جاء الزحف الكبير الذى شنه فى مطلع القرن التاسع عشر الأمام عثمان دان فديو ، وقد تحدثنا عنه من قبل وقد قام الإمام بما سماه مؤرخوه « غزوات[٣] » وضم بها ممالك الهوسا وبلاد جوبر وكبى ؛ وتكونت بذلك إمبراطورية واسعة حكمها عثمان دان فديو ، وكانت سوكوتو عاصمتها ، وقسم الامام إمبراطوريته قسمين جعل القسم الشرقى لابنه محمد بللو والقسم

---

(١) آدم الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٤ .

(٢) W. Ward : A Short History of Africa p. 98

(٣) اقرأ هذه الغزوات مفصلة فى كتاب إنفاق الميسور تأليف الإمام محمد بن عثمان ص ٩٤ — ١٥٤ .

الغربى لأخيه الأصغر عبد الله وقد اتجهت الامبراطورية الغربية لمزيد من التوسع فأخذت تصطدم بإمارات دولة اليوروبا ، وكانت دولة اليوروبا قد أضعفتها الحرب وتجارة الرقيق ، وانتهز الفولانى فرصة هذا الضعف كما انتهزوا فرصة الخلاف على السلطة فى إحدى ولايات هذه المملكة وهى ولاية نوبى فتدخلوا فى الصراع وكان لهم الفوز ، وبعد نوبى زحفوا على ألورين واحتلوها كذلك فأصبحت هى الأخرى إحدى ولايات إمبراطورية الفولانى ، وعقب ذلك انهارت مملكة اليوروبا ودخل أكثرها فى حكم إمبراطورية الفولانى الغربية ، وقد حالت المرتفعات الصخرية والغابات الكثيفة دون تقدم الفرسان الفولانيين فى أقصى الجنوب(١) .

وحاول الفولانى فى عهد الإمام عثمان أن يحققوا مزيدا من التوسع فهاجموا دولة برنو ولكن هذه المملكة استجارت بجارتها كانم فأجارتها ، وزحفت لرد الفولانيين واستطاعت كانم بقيادة الشيخ محمد الأمين الكانمى أن تحمى برنو ، ولما رأى محمد الأمين أن دولة برنو لا تقوى على حماية نفسها أقام بها واختط مدينة « كوكا » سنة ١٨١٤ لتكون عاصمة له بعد أن دمر الفولانى العاصمة السابقة « قصر اكمو » وتكونت من كانم وبرنو دولة واحدة بزعامة الكانمى وأولاده من بعده ، وسنرى بعد قليل كيف أصبحت برنو جزءاً من نيجيريا .

وقد كان نفوذ الفولانى قويا فى هذه المناطق الشاسعة عند ما دق الاستعمار الأوربى أبوابها ، وشىء آخر شاهده الاستعمار فى الشمال هو الوحدة والتعاون بين السكان وإن اختلفت جذورهم أو قبائلهم(٢) .

وفى الحديث عن الاستعمار الأوربى بنيجيريا ينبغى أن نعود للوراء لنتابعه منذ طرق أبواب إفريقية قبل قيام إمبراطورية الفولانى بأمد بعيد ، وكان

---

(١) تقويم البلدان الإسلامية ص ٢٥٠

(٢) Lewis : Islam and Nationalism in Africa pp. 72-73

البرتغاليون أول من وصلت سفنهم إلى خليج غينيا سنة ١٤٨٥ ودخلوا مدينة بنين ، واتصلوا بملكها وعقدوا معه معاهدة ودية ، وفى سنة ١٥٥٣ وصلت أول حملة إنجليزية إلى هذه الشواطىء ، ولكنها لم تستقر بها فتركتها ثم عادت سنة ١٥٨٨ وفى هذا العام بدأ نوع من الاستقرار التجارى لدول أوربا فأنشئت أسواق بعضها تابع لإنجلترا ، وبعضها تابع للبرتغال وهولندا ، وكانت التجارة مقتصرة على العاج والفلفل وزيت النخيل وبذوره ، ثم اتجهت التجارة كلها إلى الرقيق كما ذكرنا من قبل ، فلما تم إلغاء الرقيق أخذت بريطانيا ذلك وسيلة للتدخل فى شئون هذه البلاد باسم القضاء على تجارة الرقيق ، وكان ذلك بدء الاستعمار البريطانى لنيجيريا .

ولما كانت لاجوس أكبر موانى غربى إفريقية لتجارة الرقيق ، فقد رأى الإنجليز أن يستعمروها ليستطيعوا بذلك أن يحققوا مخططهم الذى يضمر الاستعمار ويظهر العمل على القضاء على الرق ، ومما ساعدهم على التدخل فى أمور لاجوس نزاع قام بين أخوين على عرشها واستعان أحدهما بالإنجليز ، فانتصروا له على الثانى وعينوه على العرش ، وعقد معهم معاهدة تتضمن توسيع أعمال التبشير المسيحى ، وإطلاق الحرية لهم لإقامة معسكراتهم أنى يشاءون .

وهكذا أصبحت لاجوس أول مستعمرة بريطانية فى هذه المنطقة وكان ذلك سنة ١٨٦١ ، ولكن كان من أثر ذلك أن امتنع زعماء البلاد عن تسيير تجارتهم إلى لاجوس ، وبدءوا يعارضون البريطانيين ، فكسدت التجارة وشعر بكسادها التجار البريطانيون ، كما شعر مبعوثو البعثات التبشيرية بعداء الأهالى ، فاتجه البريطانيون إلى مهاجمة الأهالى بالساحل[1] وأخذوا يتحركون ويتغلغلون فى الجهات المجاورة ، ويفرضون نفوذهم بالسياسة حيناً ، وبالحرب فى أكثر الأحوال ، وقد تصدى لهم الشعب ودافعهم فى حروب طويلة فلم يتمكنوا من السيطرة على هذه المناطق (جنوبى نيجيريا) إلا بعد صراع مرير استطاعت بريطانيا خلاله أن تعقد مجموعة من المعاهدات مع الأمراء

---

(١) دكتور زاهر رياض : استعمار إفريقية ص ٢١٢

المهزومين أو المرتدين ، وقد بلغت هذه المعاهدات ٣٧٢ بين سنتى ١٨٨٤ و١٨٩٢ ثم حلت بريطانيا سنة ١٩٠٠ « شركة إفريقية المتحدة » التى كانت بريطانيا قد أقامتها لتقوم بالنشاط التجارى التى كان يقوم به من قبل عدد من الشركات التجارية البريطانية ، وسميت المنطقة « محمية نيجيريا الجنوبية »

واتجهت بريطانيا إلى الشمال حيث كان الأمراء الفولانيون يحكمون أرض الهوسا وأخذت تغريهم بإقامة معاهدات سياسية لحمايتهم من النفوذ الألمانى فى الشرق والفرنسى فى الغرب ، ولكن أمراء الشمال رفضوا هذا العرض ، وأعدوا أنفسهم للدفاع عن بلادهم ، ودار صراع عنيف بين الإنجليز وأمراء الشمال ، استعمل فيه الاستعمار كل قوى التدمير ، وحقق بذلك النصر فأنشأ ما أسماه « محمية نيجيريا الشمالية » سنة ١٩٠٠ ، وقد لاقى الاستعمار البريطانى وهو يزحف على كانو وكاشنة مقاومة عنيدة كادت تنتصر عليه لولا الامدادات الضخمة التى زحفت له من لاجوس ، ولما تقدم نحو سوكوتو قاومه السلطان الطاهر بن أحمد بن عتيق بن عثمان إلى أن سقطت سوكوتو ، وكان السلطان وقضاته وأمرائه من ضحايا هذا العدوان الذى نجح على أشلاء القادة والجنود وكان ذلك سنة ١٩٠٣ .

ووصل الإنجليز الآن إلى حدود برنو التى تكلمنا عنها من قبل ، وكان رابح الزبيرى قد استولى عليها كما ذكرنا من قبل ، فاستغاث أميرها الشيخ هاشم بفرنسا لتسترد ملكه من رابح ، وانتهزت فرنسا هذه الفرصة ، فتقدمت لرابح وهزمته ، وطالبت فرنسا الشيخ هاشم بجزية مالية نظير مساعدتها له ، ولكن إنجلترا كانت قد وصلت إلى هذه المنطقة ومدت أطماعها إليها ، وعقد اتفاق بين ألمانيا وفرنسا وإنجلترا حصلت به إنجلترا على نصيب كبير من برنو سنة ١٩٠٦ وضمته إلى محمية الشمال(١) .

وهكذا نجد أن نيجيريا الحالية من صنع الإنجليز سواء فى تكوينها ككل ، أو فى تقسيمها الداخلى ، فقد كان الإنجليز فى هذا وذاك لا يتبعون أساساً طبيعياً ولا قبلياً وإنما يعملون لصالح الاستعمار فى كل خطوة قاموا بها ، فخلقوا نيجيريا من جماعات تختلف فى الدم والدين واللغة ، ثم عمدوا إلى

---

(١) هذه المعلومات مستقاة من عدة مراجع بعد كثير من التهذيب والتنظيم والتحقيق .

تقسيمها لئلا يربطها رباط يخلق منها قوة تحارب الاستعمار ، ولكن كل حساب قام به الإنجليز فشل فى النهاية ، ولكن بعد صراع ودماء .

ولنعد إلى نيجيريا بعد أن سيطر عليها الإنجليز لتتابع تطور الحكم بها ، ففى سنة ١٩٠٠ تم استيلاء إنجلترا على كل المنطقة المسماة نيجيريا ، وكانت مقسمة ثلاثة أقسام منفصلة هى مستعمرة لاجوس ومحمية الجنوب ومحمية الشمال ، ويحكم كلا منها حاكم مسئول أمام السلطات العليا فى المملكة المتحدة ، وفى سنة ١٩٠٤ ضمت مستعمرة لاجوس ومحمية جنوب نيجيريا ووضعتا تحت إدارة حاكم عام واحد هو السير والتر ايجرتون . . وظلت كل من نيجيريا الشماليه ونيجيريا الجنوبية تحكم حكما منفصلا حتى سنة ١٩١٤ حين أدمجت مستعمرة لاجوس ومحميتا الشمال والجنوب ، ووضعت كلها تحت إشراف حاكم عام واحد وأدمجت فى وحدة سياسية موحلة سميت مستعمرة ومحمية نيجيريا وجعلت لاجوس عاصمة لها . وكان الرابط الوحيد فى الوحدة السياسية لهذه الدولة هو شخص الحاكم العام الجديد السير فردريك لوجارد ، فقد ظل كل إقليم محتفظا بطابعه الإدارى الخاص ، ونفذ فى نيجيريا نظام الحكم غير المباشر الذى شرحناه عند كلامنا عن نظم الحكم البريطانى للمستعمرات ، ثم قسمت محمية الجنوب قسمين . . الإقليم الشرقى والإقليم الغربى يفصل بينهما نهر النيجر ويحكم كلا منهما نائب للحاكم يخضع مباشرة للحاكم العام ويتبعه عدد من الموظفين البريطانيين يتولون كل المناصب الكبيرة والحساسة(١) .

ومنذ تم توحيد مناطق نيجيريا بدأت هذه البلاد تخطو نحو الحكم الديمقراطى ، وكانت أولى الخطوات نحو هذا قيام المجلس الاستشارى الذى أنشأه لوجارد سنة ١٩١٤ وكان يضم أعضاء بحكم مناصبهم كالحاكم ونائب الحاكم والسكرتير الإدارى ونائبى الحاكم فى الجنوب والشمال وامراء الأقاليم ، يضاف إليهم أعضاء يختارهم الحاكم من المواطنين ومن الأوربيين الذين

---

(١) عبد الرحمن صالح : زعيم من نيجيريا ص ٢٣ — ٢٤
و A short History of Africa : ward ص ١٠٨

يمثلون غرف التجارة والمناجم ، وينتخب سكان لاجوس ثلاثة أعضاء ينوبون عنهم . ولم يكن لهذا المجلس نفوذ يذكر .

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها بدأ الوعى السياسى يتضح بالبلاد فطالبت بمزيد من السلطة ، فأعلن دستور ١٩٢٢ وبمقتضاه ألف مجلس دستورى ليحل محل المجلس الاستشارى الذى كان قد ألفه لوجارد ، وكان هذا قد تقاعد سنة ١٩١٩ ، وقد ضمن المجلس الدستورى مزيدا من السلطة لنيجيريا ، ولكن الإقليم الشمالى لم يكن ممثلا به ، وكان الحاكم العام هو الذى يصدر التشريعات الخاصة بهذا الإقليم .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية صدر سنة ١٩٤٦ دستور يؤهل نيجيريا للحكم الذاتى ويقرر أن تقسم نيجيريا ثلاثة أقاليم : هى إقليم الشمال وإقليم الشرق وإقليم الغرب ، وأن يكون لكل إقليم مجلس تشريعى خاص مؤلف من ثمانين عضواً ينتخبهم دافعو الضرائب ثم تختار هذه المجالس بدورها مجلساً موحداً يكون مقره لاجوس ، وكان من مميزات هذا الدستور أن مثلت كل الأقاليم فى المجلس التشريعى ، وأصبحت الأغلبية للمنتخَبين ، وكانت الأغلبية من قبل للرسميين الذين يعينون بحكم وظائفهم .

ولكن ممثلى الأقاليم كانوا بناء على هذا الدستور متساوين فى العدد مع اختلاف نسبة السكان ، وكان هذا يسيء للإقليم الشمالى ولذلك عدل هذا الدستور سنة ١٩٤٩ بحيث أصبح للإقليم الشمالى نصف الأعضاء والنصف الآخر للإقليمين الشرقى والغربى ، وكان الحاكم يعين من هؤلاء النواب مجلس الوزراء تحت رياسته ، وظل الحكم بهذا النظام حتى سنة ١٩٥٣ ، فأصبح رئيس الوزراء من أهل نيجيريا ، ولكن على أن يأخذ لقب الوزير الأول ، وخطت البلاد خطوة أخرى فأصبح رئيس الوزراء من نيجيريا ويأخذ لقب رئيس الوزراء ، ثم سرعان ما طالب هؤلاء باستقلال نيجيريا ، واستجابت بريطانيا لذلك فأعلن استقلال نيجيريا فى أول أكتوبر سنة ١٩٦١ على أن تكون نيجيريا عضوا فى الكومنولث البريطانى ، وعين الدكتور نمدى أزيكوى حاكما عاماً والحاج أبو بكر تفاوا رئيساً للوزارة المركزية ، وفى سنة

١٩٦٣ وافق البرلمان النيجيرى على دستور جمهورى يجعل نيجيريا جمهورية اتحادية ضمن الكومنولث وانتخب الدكتور أزيكوى رئيساً للجمهورية بعد أن كان حاكماً عاماً ، وفى نفس العام وجد القسم الرابع الذى أشرنا له من قبل وهو الإقليم الغربى الأوسط ، وقد تمّ ذلك بانتخاب مباشر (١) .

ومن المتاعب التى خلفها الاستعمار بنيجيريا أن بريطانيا ساعدت الصهيونيين على التغلغل فى الإقليم الغربى ، فانتشرت رءوس الأموال اليهودية ، وأصبح الصهيونيون يشرفون على بعض المزارع ، وحاول اليهود أن يتغلغلوا إلى الإقليم الشمالى ولكن السلطات المحلية الإسلامية رفضت السماح لهم بذلك(٢) .

بعد الاستقلال :

إن نظام الحكم الذى اقترحته بريطانيا لنيجيريا وضع أساسا للصراع الذى عانته هذه البلاد بعد الاستقلال ، فقد عملت بريطانيا على إعطاء كل من الأقاليم الثلاثة سلطات واسعة حتى أصبح كل منها يتمتع بشىء من الفردية والاستقلال ، وقد اتضح هذا فى دستور سنة ١٩٤٦ والتعديلات التى طرأت عليه والدساتير التى جاءت بعده ، ففى دستور ١٩٤٦ أعطى كل إقليم بعض السلطات الواسعة ثم أخذت هذه السلطات تتسع حتى جاء دستور ١٩٥٤ فأعطى الأقاليم مزيداً من الاستقلال الذاتى داخل اتحاد نيجيريا الفيدرالى ، وقبل ذلك كانت إنجلترا — كما شرحنا من قبل — قد عمدت إلى توسيع الهوة الثقافية والاجتماعية بين هذه الأقاليم ، فنشرت المسيحية فى الشرق ونشرت معها ألوان الثقافة المدنية والعلم وأهملت الشمال إهمالاً تاماً ، فعاش فى عزلة إلى حد كبير عن الثقافة والعلم ، ورضى الشمال بهذه العزلة

(١) تقويم العالم الإسلامى : ص ٢٥٥ – ٢٥٦ وموجز تاريخ نيجيريا ص ١٢١ – ١٢٢

(٢) فيليب رفلة : الجغرافية السياسية لإفريقية ص ٥٢٥

خوفاً من التبشير المسيحي الذى كان يبذر الثقافة والمدارس فى نيجيريا ، أما إقليم الغرب فقد وقف بين بين تبعاً لانتشار الإسلام فى بعض مناطقه والوثنية فى جهات أخرى ، وهذا الوضع خلق نوعاً من التفكك لا محيص عنه ، وكأنما أراد الاستعمار أن يدمر هذه الدولة التى تحمل لقب « العملاق الإفريقى » فعاشت نيجيريا منذ استقلالها فى شكل وحدة ، ولكنها لم تكن فى الحقيقة وحدة ، فقد كان القلق والاضطراب يزلزل هذا الكيان الذى يحتاج إلى جهود كبيرة لتكوين دولة واحدة منه ، وإذا كان الإقليم الشمالى قد تخلف فى ميدان العلم والمدنية فإنه يمثل أكثر السكان عدداً وأوسع البقاع مساحة ، ثم إنه كان مستعداً بعد الاستعمار أن يسرع الخطى نحو ركب النور والمدنية لأن التربية الروحية التى غرسها الإسلام فيه غرست هذا الاستعداد ، ولذلك اتجه بسرعة نحو تكميل نفسه فى ظل الاستقلال حتى يعوض مافات .

وإذا كان الجنوب "يدل" بعلمه على الشمال ، فإن الشمال — مع سيره الحثيث نحو العلم والمدنية فى ظل الاستقلال — "يدل" بعدده الكبير وبتاريخه المجيد الذى يثبت له طيب المنبت ، وهذا الصراع من هنا ومن هناك قاد للانقلابات التى عانتها نيجيريا ، وكان الانقلاب الأول فى يناير سنة ١٩٦٦ وقام به عدد من صغار ضباط الجيش ، واغتيل فيه زعيم نيجيريا الشمالية أحمدو بلو ، والحاج أبو بكر تفاوا رئيس الوزارة الاتحادية ، ورئيس الإقليم الغربى وغيرهم ، وقامت حكومة عسكرية ترتكز فى نفوذها على الإقليم الشرقى ، وكان هذا الانقلاب نذير حرب أهلية تهدد البلاد بالخطر ، وفى وسط هذه البلبلة قفز إلى السلطة ضابط من الإيبو اسمه أورونسى لم يشترك فى الانقلاب ولكنه جنى ثماره ، ولم تكن تصرفاته بريئة عن الريبة ، فأصدر قرارا بأن تكون نيجيريا وحدة لا اتحادا وأن تكون هناك حكومة واحدة ومجلس تشريعى واحد ، وعين حكاما عسكريين على

الأقاليم ، وألغى مركز رئيس الجمهورية الذى كان يتولاه أزيكوى وكان هذا آنذاك يعالج فى بريطاليا .

ونظام الوحدة لا يناسب ظروف نيجيريا للاختلافات الواسعة بين الجماعات التى تعيش بها ، ومن هنا فُهِمَ نظام الوحدة على أنه تسلط سكان الشرق على باقى السكان ، وكان هذا الشعور كافيا لزعزعة هـذا النظام وتقويض أركانه .

وبعد ستة أشهر من هذا الانقلاب حدث انقلاب آخر قاده الكولونيل يعقوب جوون وهو من أهل الشمال ، وهو انقلاب مضاد كان هدفه إزالة دكتاتورية الشرق والعودة إلى الديمقراطية التى ينبغى أن تُحَكِّمَ الأقاليم كلها بواسطتها ، وذلك بالعودة إلى نظام الاتحاد الذى يدع لكل إقليم جانبا من السلطة فى إطار الحكم الفيدرالى ، ولكن الكولونيل أوجوكو الحاكم العسكرى على الإقليم الشرقى لم يرض عن هذا النظام ، وتردد بين الانفصال عن نيجيريا وبين الخضوع لوحدتها الفيدرالية ، وقد جرت محاولات متعددة لإعادة الوئام بين الإقليم الشرقى وباقى الأقاليم ، ولكن هذه المحاولات لم تأت بطائل ، وأعلن الكولونيل أوجوكو أن الانقلاب المضاد الذى وقع فى يوليو لم يضع خليفة كفئاً لأورونسي الذى كان يحظى بقبول الإقليم الشرقى ، والذى كان له نفوذ قوى — فى تقديره — على كل البلاد ، وأضاف أن الجيش أصبح منقسماً على نفسه بدرجة خطيرة على أساس إقليمى ، وأن المذابح التى وقعت للمدنيين قضت قضاء تاماً على الأمل الذى كان ينبنى عليه الاتحاد الفيدرالى القديم .

وواضح من تصريحات هذا القائد أنه كان يتجه إلى حركة انفصالية رويداً رويداً وقد استغل الاستعمار هذه الحركة فأيدها وبخاصـة أن هذا الإقليم يدين أكثره بالمسيحية وقد تطور خلال الاستعمار إلى درجة ملحوظة

فى ناحية الثقافة والمدنية ، ثم إنه إقليم غنى وبخاصة بالبترول ففيه ثمانون فى المائة من بترول نيجيريا ، كماتوجد به ثروات نيجيريا المعدنية ومن أهمها الفحم وقد ظهر به معدن الكولومبيت الذى يستخدم فى صناعة صواريخ الفضاء ، وقادت أمريكا حركة الاستعمار التى أيدت الانفصال لتكون لها السلطة فى هذه المنطقة بدل بريطانيا التى كانت ترتكز على الحكومة الاتحادية والتى ترتبط بالاتحاد بروابط وثيقة ، وتقدمت إسرائيل لتنفذ مخطط أمريكا فساعدت الحركة الانفصالية بمختلف الوسائل .

وفى ضوء هذا قدم أوجوكو الحاكم العسكرى للإقليم الشرقى لائحة مطالب إلى الحكومة الاتحادية ينبعث منها ريح الانفصال ، وهدد بفصل الإقليم الشرقى عن اتحاد نيجيريا إذا لم تستجب الحكومة الاتحادية لمطالبه .

ولم يكن من الممكن الاستجابة لهذه المطالب ، لأن الاستجابة لها تضر سياسياً واقتصادياً وعسكريا بالبلاد ، ونتيجة لذلك أعلن الجنرال أوجوكو فى ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ انفصال الإقليم الشرقى تحت اسم جمهورية « بيافرا » وأعلن أن العاصمة هى اينوجو .

وانتظرت الحكومة الاتحادية شهرا كاملا ولم تحرك ساكنا وذلك فى محاولة دائبة منها لحل الأزمة سلميا وتجنب نشوب حرب أهلية واكتفت بمحاصرة الإقليم بحريا وفى الوقت نفسه وجهت إنذارا إلى أوجوكو من ثلاث نقاط .

١ ــ التراجع عن القرار بانفصال الإقليم الشرقى ــ وإلغاء جميع الإجراءات المترتبة على إعلان الانفصال .

٢ ــ ان تعترف السلطات الشرقية علنا بسلطة الحكومة الاتحادية فى لاغوس العاصمة الاتحادية .

٣ ــ أن توافق حكومة الإقليم الشرقى على رفع الحجز على الأموال الفيدرالية التى استولت عليها عقب إعلان الانفصال .

ولكن السلطات الانفصالية لم ترضخ لإنذار الحكومة الاتحادية ، وفى ٨ يوليو وافقت الحكومة الاتحادية على عقد مؤتمر قمة من رؤساء زامبيا وأوغندا وتانزانيا لحل المشكلة، ولكن الاجتماع لم يسفر عن أية نتائج إيجابية .

ولم يكن أمام الحكومة الاتحادية بعد أن استنفدت جميع الوسائل السلمية الممكنة غير الزحف لتحرير الإقليم الشرقى وضمه إلى الوطن الأم ، إلى الاتحاد النيجيرى .

وهكذا زحفت القوات الاتحادية ، ورغم المساعدة الأجنبية لقوات الانفصال فقد استطاعت القوات الاتحادية تحرير الإقليم والسيطرة على عاصمته ، واستسلمت القوات الانفصالية فى يناير سنة ١٩٧٠ إثر هرب أوجوكو، وانتهت أسطورة جمهورية بيافرا وعاد الإقليم الشرقى جزءا من نيجيريا(١) .

الجنرال مرتضى الله

فى الأيام الأخيرة من شهر يوليو سنة ١٩٧٥ كان مؤتمر القمة الإفريقى منعقداً فى كمبالا بأوغندة ، وكان الجنرال يعقوب جوون رئيس جمهورية نيجيريا ممثلاً لبلاده فى هذا المؤتمر . وفى هذه الأثناء وقع انقلاب عسكرى فى نيجيريا ضده ، وأعلن قادة الانقلاب ومن بينهم الكولونيل جوزيف جاربا رئيس الحرس الخاص لرئيس الجمهورية إسناد منصب رياسة الدولة إلى البريجادير مرتضى الله رفاعى محمد الذى عين

---

(١) هذه المعلومات مستقاة من الدوريات والصحف والمحاضر الرسمية لهذه الأحداث .

أيضا رئيسا للقوات المسلحة ، والرئيس الجديد كان قد أسهم بدور كبير فى تولية الجنرال يعقوب جوون مقاليد الحكم سنة ١٩٦٦ ، وكان الرئيس الجديد يعمل رئيسا لسلاح الإشارة بالقوات المسلحة النيجيرية ؛ وقد تم الانقلاب بدون إراقة دماء ، وأعلن قادة الانقلاب ان السبب فيه يرجع للأحداث التى مرت بالبلاد فى الشهور القليلة الماضية ، ويقال إن جوون كان يتوقع هذا الانقلاب وأنه لذلك بعث بأسرته إلى لندن قبل أن يغادر لاجوس إلى كمبالا ، ومما يذكر أن جوون عندما تلقى خبر الانقلاب ضده أصدر بياناً وُزع على أعضاء مؤتمر القمة ذكر فيه أن حكومة جديدة قامت فى نيجيريا ، وأنه يقبل هذا التغير ، ويعلن ولاءه لدولته ، وللحكومة الجديدة ، داعياً لبلاده بالخير والرشاد ، وداعياً كل الأطراف أن تتعاون بحماسة مع الحكومة الجديدة للبلاد وتمنى لها الأمن والوحـــدة والاستقرار ، وأعلن كذلك استعداده لأن يخدم بلاده من أى موقع يوضع فيه » .

ونعلق على هذا البيان الذى اقتبسنا بعض فقراته بأن نحمد للرئيس يعقوب جوون هذا الموقف الذى يعد بعيداً عن الأنانية ، ويضع مصلحة الوطن فوق كل المصالح الفردية .

ولم يحضر يعقوب جـــوون باقى جلسات المؤتمر بعد توزيع قام به له رئيس المؤتمر عيدى أمين رئيس جمهورية أوغندا المضيفة .

ويذكر المعلقون السياسيون أن السبب فى الانقلاب أن جوون كان قد وعد فى أوائل السبعينات بتسليم السلطة للمدنيين فى ١٩٧٦ ، ولكنه عاد منذ شهر ليعلن أن هذه الخطوة لن تتم فى الموعد الذى حـــدده من قبل « خشية أن تعود الفوضى إلى البلاد من جديد » .

وقد أعقبت ذلك مطالبات بتولى المدنيين زمام السلطة فى البلاد ، وطالب رئيس اتحاد نقابات العمال فى نيجيريا باستقالة جوون وتنفيذ وعده ، نظرا لأن عشر سنوات من الحكم العسكرى أمر يبرر تغيير القيادة ، كما نظم الطلاب والأساتذة الجامعيون مظاهرات تطالب بالحكم المدنى ، وانضم إلى المظاهرات بعض المسئولين فى الحكومة وبعض العسكريين . ودعا الحاج شيخ شجـــارى وزير الخزانة النيجيرى باتخاذ خطوات تدريجية لإعادة الحكم المدنى ، وتشكيل لجان دستورية واستشارية لهذا الغرض .

ولعل هذا التراجع من يعقوب جوون هو الذى دفع إلى هذا المصير .

قتل مرتضى الله وبقاء نظامه :

فى منتصف فبراير سنة ١٩٧٦ قاد الكولونيـــل ديمكه انقلابا ضد حكومة الرئيس مرتضى الله فى لاجوس ، ولعل من أهم الدوافع التى دفعت ديمكا لهذه المحاولة أنه من قبيـــلة الجنرال يعقوب جوون الذى أطاح به الرئيس مرتضى الله فى الانقلاب السابق .

وقد قتل الجنرال مرتضى الله فى هذه المحاولة ، كما قتل معه أربعة من كبار العسكريين ، ولكن المحاولة منيت بالفشل إذ تصدّت لها قوات الحكومة وقضت عليها وألقت القبض على الكولونيل ديمكا والقوات المتمردة التى ساندته .

والكولونيل مرتضى الله أحد زعماء قبيلة الهوسا وهى من أكبر قبائل نيجيريا ، وكان قد اكتسب شعبية عريضة خلال الشهور التى حكم فيها نيجيريا ، ومن أهم الخطوات التى لقيت صدى طيباً لدى المواطنين النيجيريين ما أعلنه قبل وفاته بحوالى أسبوع أنه سيعيد تشكيل ولايات

الاتحاد ، وسيرفع عددها إلى ١٩ ولاية بهدف توسيع نطاق الحكم المحلى وتخفيف المركزية ، وحدة الاحتكاكات القبلية .

وقد أُعلن عقب نجاح القوات الحكومية أن الجنرال أولوسيجوى أوباسانجو قد عين رئيساً للدولة خلفاً للجنرال مرتضى الله . وكان هذا يحتل مركز الرجل الثانى بعد مرتضى الله في نيجيريا كما كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة وأعلن عقب توليته أن حكومته ستواصل نفس السياسة التى كان الرئيس مرتضى الله ينتهجها ، وسيبقى كل شيء كما كان فى عهد الرئيس الراحل ، كما سيبقى الوزراء فى مناصبهم .

اقتصاد نيجيريا :

إن الإنتاج الزراعى هو الإنتاج الرئيسى فى البلاد ، وهو يسهم بأكبر نصيب فى اقتصاد الدولة ، إذ تصل قيمة الغلات الزراعية حوالى ٥٠٪ من الدخل القومى ، وتشمل المحاصيل الزراعية الغلات الغذائية كالبطاطا والموز والحبوب والبقول والفاكهة والخضروات ، كما تشمل المحاصيل النقدية كالقطن والكاكاو ، والمحاصيل الزيتية كالفول السودانى والسمسم والكولا ، ولما كانت الحاصلات الزراعية تمثل هذا النصيب الكبير فى اقتصاد نيجيريا فقد قامت الدولة بعدد من مشروعات التنمية الزراعية رجاء الحصول على محاصيل أكثر وأجود ، ومن هذه المشروعات مشروعات تهتم بالأبحاث الزراعية ، واستعمال المخصبات وتوفير الخدمة والتنظيم التعاونى ، وإدخال

الوسائل الحديثة فى الزراعة وقد أفادت هذه التطورات فى تحسين الإنتاج وإكثاره[1] ، وهناك مشروع متعدد الأغراض هو مشروع سد النيجر عند كاينجى وهو مشروع لخدمة الأغراض الزراعية والصناعية ويضيف كذلك لوسائل النقل وسيلة النقل بالبواخر وهى من أرخص وسائل النقل .

وفى نيجيريا ثروة حيوانية واسعة ، وهناك قبائل متنقلة من الفولانى منتشرة فى المنطقة المدارية تمتلك من قطعان البقر والجاموس أعداداً كبيرة ، وتدل التقارير على أن بنيجيريا ثمانية ملايين رأس من البقر ، يوجد أكثر من نصفها فى الإقليم الشمالى ، ويوجد لديها من الأغنام أكثر من خمسة ملايين ومن الماعز أكثر من عشرة ملايين[2] .

وتغطى الغابات ثلث المساحة الكلية تقريباً ، ولكن أكثرها تنحصر أهميته الاقتصادية فى استعمال أخشابها مواد للوقود ، ولعمل الفحم النباتى ، ولأغراض البناء ، والإقليم الشرقى غنى بالغابات ، ولكن وسائل النقل فيه قليلة ، مما لا يتيح فرصة لمزيد من الانتفاع بأخشابها .

وتحتكر نيجيريا معدن الكولومبيت ، حيث تنتج ما يقرب من ⅘ الإنتاج العالمى ، كما أنها تشغل المركز السادس من بين الدول المنتجة للقصدير ، ويوجد هذان المعدنان فى هضبة جوس ، وتعتبر نيجيريا البلد الوحيد فى غرب إفريقية من ناحية إنتاج الفحم التى تقدر المدخرات منه بحوالى ١٤٠ مليون طن ، وتوجد أربعة مناجم منه بالقرب من اينوجو بالإقليم الشرقى ، ونيجيريا رابع بلد إفريقى ينتج البترول ، وبها عدة حقول يتدفق منها النفط فى منطقة الجنوب ، وقد بلغ الإنتاج النيجيرى سنة ١٩٦٢ ثلاثة ملايين

---

(١) عبلت أنلم شرابى : نيجيريا الجديدة : كنوزها واقتصادياتها ص ٥٢ وما بعدها

(٢) U.N. Economic Development in Africa

ونصف طن ، وهناك أمل في العثور على مزيد من حقول البترول بنيجيريا(١) .

وبالإضافة إلى هذه المعادن توجد بنيجيريا معادن أخرى كالذهب الذى يوجد في المناطق الشمالية الغربية ، وتعتبر منطقة شرق مديرية أويو أهم المناطق التي يستخرج منها الذهب في الوقت الحاضر ، ويستخرج بعضه كذلك من منطقة كالابار(٢) .

ومنها كذلك الحديد ، وقد عثر عليه في نيجيريا منذ عدة قرون ، ويستعمل في الصناعات في نطاق محلى كصناعة الحراب والسيوف والمحاريث ، وغيرها من الأدوات الزراعية ، ولا يستغل استغلالا اقتصادياً لبعد نيجيريا عن أهم مراكز الصناعة العالمية ولعدم وجود صناعات على مستوى عالٍ بالداخل(٣) .

ويوجد الرصاص والزنج في شمالى نيجيريا منذ زمن طويل ، واكتشفت في نيجيريا معادن متعددة من تلك التي تستخدم في الطاقة الذرية ، وتعتبر طبقات كانو الجراتينية من الأنواع المحتوية على اليورانيوم ، والنيوبيوم ، ويقدر احتياطى الخام منها بملايين الأطنان ، ويمكن القول أن محتويات الخام الموجودة في نيجيريا بها كميات من المواد المشعة ، تبلغ قيمتها أضعاف قيمة الذهب الذى ينتجه جنوب إفريقية(٤) ، هذا بالإضافة إلى الملح والحجر الجيرى ، والكاولن وغيرها من المعادن التي لم تصل بعد إلى درجة تجارية .

التعليم بنجيريا :

يقرر تاريخ نيجيريا أن هذه البلاد قامت بها مدارس ومعاهد للدراسات الإسلامية والعربية في مدن متعددة ، من أهمها كاشنة وبرنو وكانو وزاريا ،

---

(١) مجلة نهضة إفريقيا : إبريل سنة ١٩٦٣ مقال الدكتور راشد البراوى عن اقتصاد نيجيريا .

(٢) Buchanan K.M. and Pugh J : Land and People of Nigeria p. 184

(٣) محبات إمام : نيجيريا الجديدة كنوزها واقتصادياتها ص ٢٠٢

(٤) Harrison Church : west Africa p. 509

وقد ارتقى بها التعليم حتى وصل المستوى الجامعى فى العهد الماضى ، وصار المتخرجون منها يكتبون الكتب والرسائل فى مختلف الموضوعات الدينية والأدبية ، وقد برع الكثير منهم براعة تضعهم فى مستوى الكتّاب العرب دون تفاوت ، وحسبك أن تذكر – بالإضافة إلى من سبق أن أوردنا أسماءهم – الإمام عثمان دان فديو نفسه الذى ألّف عدة كتب ، منها : عمدة البيان ، وعمدة العلماء ومرآة الطلاب ، والسلاسل الذهبية ، وقد أوردها ابنه محمد بلو ، وذكر أنها تزيد عن المائة كتاب(١) ، ومنهم الإمام عبد الله بن فديو شقيق الإمام عثمان ومن أشهر مؤلفاته تزيين الأوراق ، ومنهم الإمام محمد بلو نجل عثمان وهو مؤلف كتاب إنفاق الميسور الذى اقتبسنا منه كثيراً من المعلومات فى هذه الدراسة . ومنهم . . . المؤلف الشهير عبد الرحمن السعدى الذى يُعد كتابه المسمى « تاريخ السودان » المصدر الأول لتاريخ هذه البلاد ، وهو فى أسلوبه وتخطيطه يفوق كثيرين من الكتاب العرب الذين عاصروه .

وقد ظل التعليم الإسلامى والعربى ينمو ويتطور من القرن السابع الهجرى حتى أواخر القرن الثالث عشر ، وحينئذ بدأ يتقلص بسبب الاستعمار الذى حارب الفكر الإسلامى واللغة العربية ، وعمل على نشر الثقافة الأوربية واللغة الانجليزية بالبلاد ، فأخذت اللغة الانجليزية تحل محل اللغة العربية ، بعد أن مهد الانجليز لتعلمها السبل والأسباب ، ورفعوا شأن من يعرفها وجعلوها اللغة الرسمية للبلاد .

وقد سبق أن ذكرنا أن الاستعمار لم يهتم بنشر الثقافة والتعليم بالشمال ، واتجه بكل جهده إلى الشرق والغرب ، وشعر فيا بعد إخصاءبذلك ، ومن أجل هذا دبت اليقظة والغيرة فى نفوس أهل الشمال ، فأعادوا للثقافة العربية والإسلامية نهضتها من جديد كما فتحوا بها المدارس المختلفة ليلحقوا أبناءهم

---

(١) انفاق الميسور ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

بركب الثقافة المدنية ، وهكذا أنشأ أمراء المسلمين بالشمال مدرسة العلوم العربية فى كانو سنة ١٩٣٤ كما أنشأوا مراكز التعليم العربى الإسلامى فى أبى كوته سنة ١٩٥٢ ، واتجه كذلك أبناء المسلمين بالإقليم الغربى لإحياء الثقافة العربية والإسلامية ، فأنشأوا عدداً من المدارس لهذا الغرض ، واتجه أبناء الشمال والغرب إلى إرسال مبعوثين إلى مصر والبلاد العربية ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

أما المدارس الإنجليزية فقد بدأ ظهورها بنيجيريا سنة ١٨٤١ على أيدى المبشرين المسيحيين لغرس العقيدة النصرانية فى نفوس الأطفال ، وكان المبشرون فى بداية أمرهم يجمعون أطفال القرى باستعمال آلات اللهو واللعب وبتوزيع الحلوى والأكسية عليهم ، كما كانوا يستعملون الكتب المصورة ذات الألوان الزاهية بهدف جذب الأطفال إلى هذه الدراسة ، وقد بنى المبشرون الكنائس والمدارس فى نطاق واحد إذ لم يكن التعليم منعزلاً عن التبشير ، وكان اتجاه المبشرين مركزاً فى شرق نيجيريا وغربيها كما قلنا وفيما يلى إحصائية تدل على اهتمام الاستعمار بنشر التعليم بالشرق والغرب كما تدل على مدى إهماله للشمال ، وهذه الإحصائية هى للتعليم العام ، وهى عن سنة ١٩٥٧ :

فى شرق نيجيريا ٧٢٢٦ مدرسة بها ١,٢٣٣,٣٥٤ تلميذاً
وفى غربى نيجيريا ٦٩٦٣ مدرسة بها ١,٨٤٥,٢١٨ «
وفى شمالى نيجيريا ١٩٩٥ مدرسة بها ٢١٢,٨٥٤ « —

وهكذا يتضح أن نصيب الشمال ضئيل جداً ، وبخاصة إذا لاحظنا أن سكان الشمال يزيد عددهم عن مجموع سكان الشرق والغرب :

أما عن التعليم العالى فإن أول مدرسة عالية فى نيجيريا هى كلية يابا الحكومية وقد أنشئت سنة ١٩٣٤ وقد لعبت دوراً هاماً قبل إنشاء الجامعات ،

وأنشئت أول جامعة بنيجيريا فى أبادان بالإقليم الغربى سنة ١٩٤٨ ، وكانت آنذاك مشتركة للمستعمرات البريطانية فى غربى إفريقية ، وتعتبر الآن أولى جامعات نيجيريا ، ثم أسست جامعة نيجيريا بالشرق سنة ١٩٦٠ ، وفى نفس السنة أسست بالغرب جامعة أخرى هى جامعة إيفى ، وفى سنة ١٩٦٢ أسست جامعة أحمد وبلو بزاريا فى الإقليم الشمالى ، وفى نفس السنة أسست جامعة لاجوس .

وتنتشر فى نيجيريا مدارس كثيرة للمعلمين ، وللتدريب المهنى ، وللصناعات ، واهتم عهد الاستقلال بإنشاء فصول لمحو الأمية بين كبار السن ، ولتثقيف الكبار ، وكان الجهد الذى بذله الشمال فى هذا المضمار كبيراً للغاية[1] .

وتمتاز نيجيريا عن الدول المجاورة بأنها ما تزال تحتفظ بثقافة محلية مروية ، وبمحصول ضخم من القصص الشعبية على الرغم من تأثير ثقافة الغرب وتعليمه ، وكانت القصص الشعبية فى نيجيريا الوسيلة الوحيدة لنقل الثقافة القومية والأساطير والمعتقدات ووجهات النظر الاجتماعية من جيل إلى جيل ، وقصص نيجيريا الشعبية ذات روح مرحة ، ولكنها مع هذا كانت أداة للنقد الموجه ولمقاومة الاحتلال[2] ، وبين أيدينا كتاب حافل بمجموعة كبيرة من هذه القصص ، ولسنا نستطيع أن نقتبس منها سوى نموذجين أحدهما يتبع الاتجاه الرمزى ، والنموذج الذى اخترناه لذلك عنوانه « لماذا يطارد الثعلب الديك ؟ » وهو يرمز إلى أن هجوم الاستعمار على إفريقية كان نتيجة لتساهل الإفريقيين حتى أطمعوا المستعمر الأوروبى فى اقتحام ديارهم ، والنموذج الثانى أخلاقى وعنوانه « الزنبور والنحلة » وهو يعلمنا أن نصغى باهتمام لتعليمات المعلمين والمرشدين لنصل إلى الغاية المثلى .

---

(١) هذه المعلومات مستقاه من عدد مراجع ونشرات وإحصائيات ، وبعضها أخذ من كتاب موجز تاريخ نيجيريا .

(٢) بار باراك وارين ووكر : نيجيريا ؛ ثقافتها وقصصها الشعبية : انظر المقدمة

ونص الأسطورة الأولى هو :

فى قديم الزمان كان الثعلب يهرب كلما رأى ديكا ، لاعتقاده أن عُرفه من مادة نارية ، وذلك بسبب تشابه اللون بين عرف الديك والنار ؛

ودهش الديك عندما لاحظ أن الثعلب يخافه ويفر منه ، وكان الديك طيب القلب لا يحب أن يزعج أحدا ، فسأل الثعلب يوما : لماذا تهرب منى وأنا حيوان مثلك ؟

فأجاب الثعلب : أخاف النار التى فوق رأسك .

قال الديك : إنها ليست نارا ، وكيف أحمل نارا فوق رأسى وأروح بها وأغدو وأنا من لحم ودم ؟ تعال المسْها لترى .

فتقدم الديك رويدا رويدا ولمس عرف الديك فلم يجده يحرق . وسأل الثعلبُ نفسَه : ألا يكون هذا العرف لذيذ الطعم ؟ وصمم على أن يختبر ذلك ، وكان الديك قد اطمأن له ووثق به ، ولكن الثعلب خانه وقضم عرفه فوجده لذيذ الطعم ، ومنذ ذلك الحين والثعلب يطارد الديك(١) .

ونص الأُسطورة الثانية هو :

خلق الله العالم ، وأخذ يعلم مخلوقاته الدور الذى تقوم به فى هذا الكون ، فلما جاء دور النحلة وقفت صابرة لتتلقى تعليمات العزة الإلهية فتعلمت كيف تمتص الرحيق من الزهر ، وكيف تصنع العسل ، ثم نزلت إلى الأرض .

وأتى بعد ذلك دور الزنبور ، وكان قلقا متسرعا ، فلم ينتظر ليتلقى تعليمات الخالق ، وادعى أنه يعرف كل شىء وأسرع بالنزول إلى الأرض .

---

(١) نيجيريا : ثقافتها وقصصها الشعبية ص ٤٦-٤٧ مع صياغة جديدة لفكرة الأسطورة

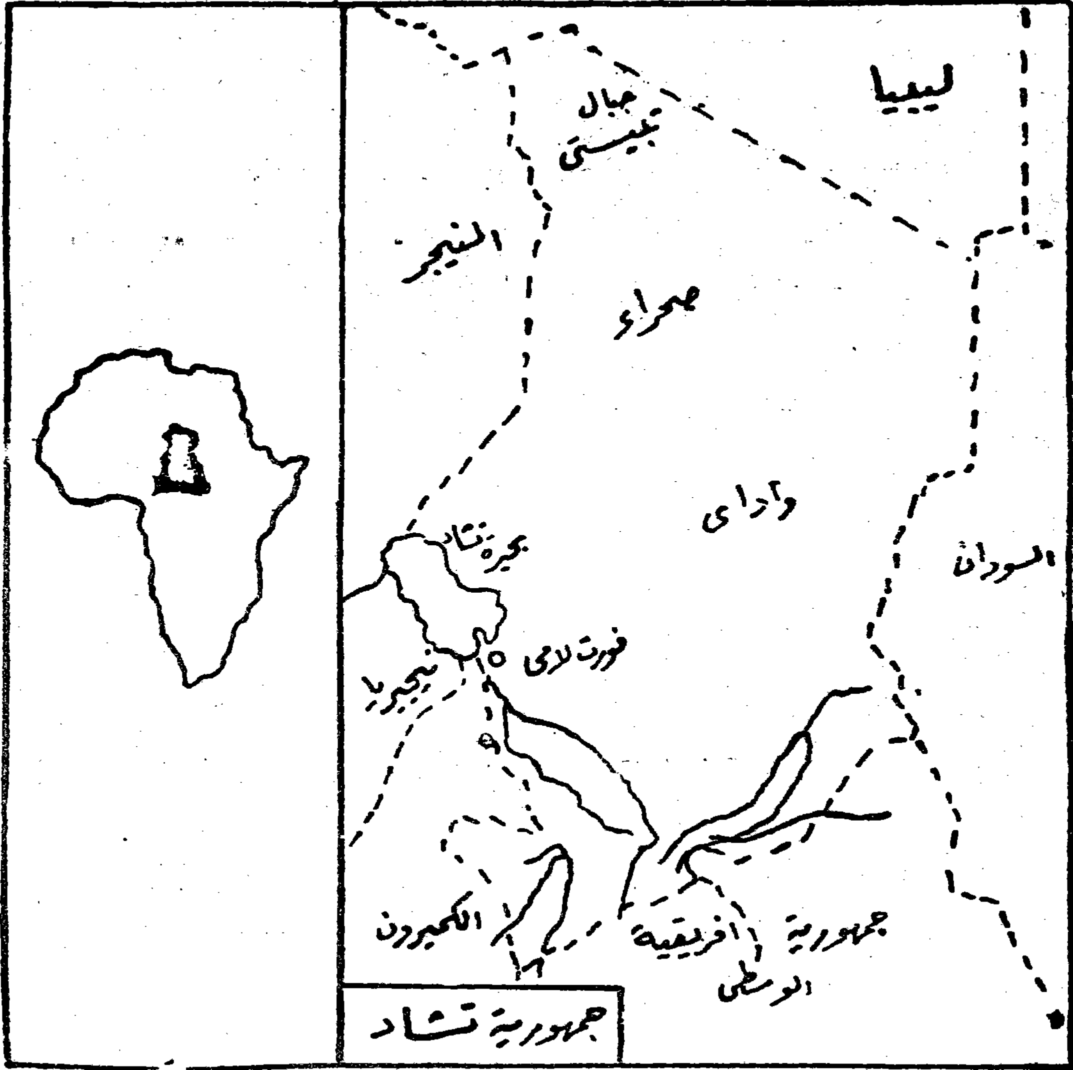
وأدت النحلة دورها بنجاح فأخرجت عسلا شهيا فيه شفاء للناس ، وحاول الزنبور أن يصنع عسلا ففشل ، فحقد على النحلة وراح يهاجمها ، فتصدى له الناس ليقتلوه حتى لا يقتل النحل ، وحينئذ صنع فى جسمه خلية ملأها بالسم ، وأخذ يهاجم بها الإنسان .

ولا زال الزنبور يطارد الناس ويطارده الناس ، ولا تزال النحلة تجيد لتنتج الشهد المصفى[1] .

---

(١) نيجيريا : ثقافتها وقصصها الشعبية ص ٧١-٧٢ مع صياغة جديدة لفكرة الأسطورة

تشـــاد



التسمية والموقع :

اتخذت تشاد تسميتها من البحيرة الشهيرة التى تقع فى حدودها الغربية ، وبحيرة تشاد أخذت تسميتها من اسم نوع الأسماك (Chad = Shad) غنى

بالمواد الغذائية ويكثر وجوده فى هذه البحيرة(١) .

وتقع جمهورية تشاد فى أواسط إفريقية ويحدها شمالا ليبيا وجنوبا جمهورية إفريقية الوسطى ، وشرقا سودان وادى النيل وغربا النيجر وبحيرة تشاد ونيجيريا والكمرون ، وهى بهذا منطقة مغلقة لا سواحل لها وتبعد عن السواحل بأكثر من ألف ميل ، ومن أجل هذا يصفها بعض الباحثين بأنها « نهاية العالم » وطريق جمهورية تشاد للتخلص من هذه العزلة هو أن تخترق أراضى جيرانها للوصول إلى البحر ، وهذا ممكن عن طريق نيجيريا أو الكميرون أو السودان أو ليبيا . ومن الملاحظ أن الاتصال بالبحر عن طريق نيجيريا أو الكمرون سيُلقى بتجارتها بعيداً عن أوربا وتحتاج إلى رحلة بحرية طويلة لتصل إلى أهدافها ، أما الاتصال بالبحر الأحمر عن طريق السودان أو الاتصال بالبحر المتوسط عن طريق ليبيا فهو أقرب وأيسر للوصول إلى الهدف ، والواضح أن طريق ليبيا أقصر وأهم ولكن قوى متعددة تحاول أن تحول دون نجاح هذا الاتصال حتى لا تندمج تشاد فى المحيط العربى الإسلامى ، ولكن الخير يكمن فى هذا الطريق ولا بد للخير أن ينتصر .

وتعتبر بحيرة تشاد الحد الفاصل بين شرق إفريقية وغربها تقريباً ، وملتقى الحضارات الزاحفة من الشرق ومن الغرب ؛ ومن هنا كانت جمهورية تشاد فى النصف الشرقى وكانت وجهتها مصرية سودانية ؛ أو بلغة أخرى كانت امتداداً للجهة الشرقية فى اللغة والدين والحضارة ، وهى كذلك معبر للثقافة الشرقية ، وللتجارة بين الشرق والغرب ، ومن ناحية أخرى فإن أراضيها تمتد فتشمل بعض صحراء الشمال وتنساب جنوبا حتى أرض الغابات الاستوائية ، فكانت بذلك معبراً للتجارة بين ساحل البحر الأبيض وبين منطقة قلب إفريقية . وهكذا نجد البلاد المغلقة المحرومة من الاتصالات بالبحر ، تمثل حلقة اتصال بين مجموعة من البلدان ومجموعة من الثقافات .

---

(١) القاموس الإسلامى .

وتشمل جمهورية تشاد مناطق جبلية شهيرة فى التاريخ أهمها جبال تيبستى فى الشمال وجبال واداى فى الجنوب ، وهنا وهناك قامت حضارات وأمم عظيمة الشهرة فى التاريخ ، والموقع الذى تشغله جمهورية تشاد حاليا قامت به من قبل مملكة كانم وباجرمى وواداى ، ولا تزال مدينة (أبشة) عاصمة واداى مركزاً إسلاميا مهما كما كانت فى فترة ازدهار هذه المملكة ، أما عاصمة تشاد الآن فهى فورت لامى وقد أخذت اسمها من القائد الفرنسى لامى الذى قتل هو ورابح الزبيرى فى معركة كسورى ؟

السكان : ومما واقعة ودينا :

يبلغ عدد سكان جمهورية تشاد حوالى ثلاثة ملايين ، ويرتبط حديثنا عنهم بالنسبة للدم والقبائل بحديثنا عنهم مرتبطاً بالدين ، وذلك لأن القبيلة الواحدة بها كانت غالباً تتبع دينا واحداً ، ومن أجل هذا يمكن تقسيم هؤلاء السكان قسمين كبيرين :

١ ــ السكان المسلمون وهم يتكونون من العرب الذين يشتغلون بالرعى غالباً ، ومن الهوسا الذين يشتغلون بالتجارة أساساً ومن أهل واداى الذين يحترفون الزراعة ومن التوبو وهم من البدو الرحل ، وأكثر السكان المسلمين يعيشون بالمناطق الشمالية ويقدر بعض الباحثين نسبة المسلمين بحوالى ٨٥ ٪ من السكان(١) .

٢ ــ السكان غير المسلمين ويتكونون من السارا والحجة والماسا والموندانج وتنتشر بينهم الوثنية التى تقدس الحيوان والظواهر الطبيعية ، وتقل فيهم المسيحية(٢) ، ويعيش هؤلاء بالمناطق الجنوبية ، ويعمل أكثرهم فى الزراعة وقطع الأشجار والأعمال اليدوية البسيطة .

---

(١) تقويم البلدان الإسلامية ص ٧١ .

(٢) فيليب رفله : الجغرافية السياسية لإفريقية ص ٥٣٤ .

وقد أثار الاستعمار ولا زال يثير زوابع من الخلاف بين المسلمين والمسيحين ، ومثل هذه الزوابع تثور أيضاً فى نيجيريا وفى كل بلد للاستعمار فيه سلطة ظاهرة أو باطنة ، ومن العجيب أنك لا ترى مثل هذا الاتجاه بالنسبة للأقليات المسيحية فى مصر وسوريا لأن الأكثرية المسلمة تعرف لأهل الذمة حقوقهم على أن يؤدى هؤلاء واجباتهم تجاه المجتمع المشترك ، ويوم ينقضى نفوذ الاستعمار فى إفريقية سيكون التعاون بين المسلمين والمسيحين سائراً على النهج الذى تسير عليه البلاد التى تقلص فيها نفوذ الاستعمار .

والشمال المسلم محافظ قبلى ، أهدافه السياسية تتجه إلى تقليل الارتباط بفرنسا ، وزيادة الارتباط بالدول الإسلامية المجاورة ؛ وأهدافه الاجتماعية تتركز فى نشر الإسلام وتعميق فهمه ، والمحافظة على الاتجاهات الإسلامية فى شئون الأسرة والمجتمع ، أما الجنوب الوثنى المسيحى فهو ضد القبلية ويتجه إلى العلمانية ، ويعارض بشدة أى اتحاد أو ارتباط سياسى بالدول الإسلامية المجاوره[١] ؛

وفى السنوات الأخيرة توترت العلاقات بين تشاد وجارتيها العربيتين ليبيا والسودان وتعددت حوادث الحدود ، كما تعقدت تيارات اللاجئين السياسيين المتبادلة ، ولكن كانت هناك لحسن الحظ محاولات جادة لتصفية هذه المشكلات والتغلب عليها[٢] ؛

واللغة العربية سائدة فى مناطق الشمال ، وتوجد كذلك لغة سارا وهى إحدى لهجات البانتو ، واللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية ؛

---

(١) W. Lewis : Islam and Nationalism in Africa p. 72—73.

(٢) دكتور جمال حمدان : العالم الإسلامى المعاصر ص ١١٠ وافريقية الجديدة ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

كلمة تاريخية :

تدل بعض الآثار التى عثر عليها بجبال تبستى على أن حضارة قديمة قامت بهذه المنطقة ، فقد وجدت بعض الرسوم والمصنوعات الفخارية التى تثبت مهارة الصانع ورقى فكره ، ومن المؤكد كذلك أن طريقى القوافل : من مصر إلى بحيرة تشاد عبر السودان ، ومن الشمال عبر ليبيا إلى نفس البحيرة يعودان إلى الوراء عدة مئات من السنين ، وقد حملت هذه القوافل حضارة مصر وحضارة حوض البحر المتوسط إلى هذه المنطقة .

على أن تاريخ هذه البقاع اتضح مع الإسلام فقد قامت بها الدول التى تحدثنا عنها من قبل ، وأولها مملكة كانم التى انتشر بها الإسلام فى القرن الحادى عشر وتكونت بها أسرة مالكة هى الأسرة السيفية التى فرّت إلى برنو إثر اضطرابات داخلية ثم استطاعت أن تحكم برنو وأن تزحف منها إلى كانم فتعيد عليها سلطانها ، وظلت هذه الأسرة حتى حلت محلها أسرة الشيخ الكانمى وبعدها رابح الزبيرى الذى صارع الاستعمار الفرنسى حتى سقط سنة ١٩٠٠ فى معركة كسورى ، ومن الدول الإسلامية التى قامت بأرض تشاد مملكة باجرمى إلى الشرق من موقع مملكة كانم ومملكة وادى إلى الشرق من باجرمى على حـــدود دارفور ، وكانت وادى تدفع الجزية لدارفور ثم قويت واستقلت وغزت باجرمى واتجهت تصارع دارفور عندما تقدم رابح الزبيرى لغزو الجميع ، وفى أيام رابح نشطت الدعوة الإسلامية فى الجزء الجنوبى لجمهورية تشاد الحالية .

وعندما كانت فرنسا تصارع رابح الزبيرى فى هذه المنطقة كانت انجلترا تطارده من الخلف باسم استعادة السودان ، ولم يستطع رابح وابنه فضل الله أن يتغلبا على القوتين الكبيرتين بأسلحتهما الفتاكة ، وبخاصة أن انجلترا آنذاك كانت تستعمل اسم مصر وتدعى أنها تستعيد السودان لها ، وكانت فرنسا تحالف

سلطان باجرمى الذى طرده رابح واستولى على مملكته . ، ومع هذا فقد كان صمود رابح صموداً عنيداً وقوياً ، فقد سقط معه القائد الفرنسى لامى فى نفس المعركة ، وباسم هذا القائد سميت العاصمة الحالية پورت لامى أو فورت لامى تبعاً للنطق الفرنسى . وعندما سقطت إمبراطورية رابح اقتسمت القوتان الغربيتان الاستعماريتان هذه المنطقة ، فوقفت قوى بريطانيا على الحدود بين دارفور وواداى ، واستولت فرنسا على واداى وباجرمى وكانم ، أما مملكة برنو فقد أخذت فرنسا جزءاً منها من الناحية الشرقية وتكونت من هذه المناطق جمهورية تشاد الحالية ، واستولت بريطانيا على أكثر برنو وضمته إلى نيجيريا فحققت بذلك المحاولة التى أرادها الإمام عثمان دان فيديو .

وقد كانت تشاد منطقة شديدة الأهمية للاستعمار الفرنسى ، فقد سبق أن قلنا إن فرنسا اتجهت فى إفريقية إلى أن تقيم بمستعمراتها حزاماً يصل بين شرقى إفريقية وغربيها ، وكانت تشاد تمثل جزءاً هاماً فى تحقيق هذه المحاولة ، واكتمل لفرنسا فى إفريقية الاستوائية السيطرة على مناطق أربعة هى : الكونغو برازافيل ، وأوبنجى شارى « جمهورية إفريقية الوسطى حالياً » وجابون وتشاد ، وبدأت فرنسا بأن كونت من أوبنجى شارى وتشاد مستعمرة واحدة أسمتها مستعمرة أوبنجى شارى – تشاد وكان ذلك سنة ١٩١٠ ، ثم فصلت المستعمرتين وأصبحت كل منهما قائمة بذاتها وتكوّن من المستعمرات الأربع سالفة الذكر ما سمى « إفريقية الاستوائية الفرنسية » ، وخلال الحرب العالمية الثانية استعملت تشاد قاعدة تموينية لمسرح عمليات الدول الحليفة فى شرقى إفريقية والبحر المتوسط ، وبحكم موقعها بين ليبيا وجمهورية إفريقية الوسطى والكمرون والنيجر ونيجيريا والسودان كان لها مركز استراتيجى خاص ، وفى تشاد تجمعت الجيوش الفرنسية التى خرجت بقيادة الجنرال لكريل عبر الصحراء لقتال الألمان فى شمالى إفريقية سنة ١٩٤١ – ١٩٤٢ .

وتطور الحكم فى تشاد على نحو ما تطور فى المستعمرات الفرنسية بإفريقية كلها وقد سقنا من قبل نسق هذا التطور[1] ، فلما جاء استفتاء سبتمبر سنة ١٩٥٨ كانت الأكثرية بجانب دستور الجنرال ديجول ، وأصبحت تشاد بذلك عضواً فى مجموعة الشعوب الفرنسية .

بعد الاستقلال :

وكانت الزعامة فى تشاد لرجل من الهند الغربية اسمه جبريل ليزيت أتى البلاد فى وظيفة إدارية ثم اشتغل بالسياسة وأسس حزباً باسم التشاديين القدمين ولكن هذا الزعيم أحس بأنه ليس عريق الأرومة فى هذه البلاد ، فأفسح المجال لعضو من حزبه من أبناء البلاد هو « فرنسوا تومبالباقا Francois Tombalbya فأصبح هذا رئيساً للوزراء ، وقنع ليزيت بأن يكون نائباً للرئيس مع احتفاظه بزعامة الحزب وتطورت تشاد مرة أخرى فأصبحت جمهورية مستقلة فى ٢ أغسطس سنة ١٩٦٠ ، وأعلن ذلك فى فورت لامى ، وفى اليوم التالى منح فرنسوا تومبالباقا لقب رئيس الجمهورية مع احتفاظه برياسة الوزراء ، وأصبحت تشاد عضواً فى هيئة الأمم المتحدة من ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٦٠ ، وفى نوفبر سنة ١٩٦٠ عدل دستور مارس ١٩٥٩ ليتمشى مع الاستقلال الناجز ، وبناء على الدستور الجديد أصبحت السلطة التنفيذية فى يد رئيس الجمهورية الذى يشغل منصب رئيس الوزراء أيضاً ، وفى أواخر عام ١٩٦٠ أعفى ليزيت من جميع مناصبه وأصبح تومبالباقا رئيساً للحزب أيضاً .

وحدثت بعد ذلك تطورات داخلية مهمة ، فقد كان الدستور ينص على أن يختار رئيس الجمهورية بواسطة زعماء القبائل ورؤساء المدن ، ويختار أعضاء الجمعية الوطنية بانتخاب مباشر بواسطة الأهلين ، وفى يونيو سنة

---

(١) ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

١٩٦٤ أصدرت الجمعية الوطنية قراراً بأن تتولى الهيئة السياسية لحزب تشاد التقدمى السيطرة على كل النشاط الحكومى وأنها هى التى تختار المرشحين لكل المراكز الرئيسية بما فى ذلك منصب رياسة الجمهورية ، وفى سنة ١٩٦٧ عقد هذا الحزب مؤتمره السادس وكان الهدف من انعقاده فى هذه المرة أن يكون نقطة تحول فى تاريخ البلاد ، ومن أجل هذا دُعيت له وفود من عدة أقطار ، وحضره بعض رؤساء الجمهوريات الإفريقية ووفود من أقطار أوربا ، وفى هذا المؤتمر أعلن رئيس الجمهورية فى خطابه الطويل أن التصرفات المستقبلة لأعضاء الحزب ستكون موضع مراقبة ونقد حازمين ، وأن الطريق للمستقبل ليس مفروشاً بالورود ، وأن تشاد تحتاج إلى التضحية الشخصية وإلى التقشف ، كما تحتاج أولا وقبل كل شيء إلى النزاهة وندّد بالمسئولين الحكوميين الذين ينظرون إلى الخدمة العامة ، باعتبارها وسيلة للارتقاء الشخصى ، وفى هذا المؤتمر عولجت مشكلات التخلف الاجتماعى والاقتصادى بواقعية وابتكار ، ورُسمت خطة لتحقيق نمو مطرد ، ولكنه بطيء ، وتم فى صراحة بحث المشكلات الشائكة مثل الأمية ومكانة المرأة والنقص فى عدد الموظفين المدربين والحاجة الماسة إلى المساعدات الفنية والمادية ، وقد تضمنت قرارات المؤتمر أن يكون التعليم إلزامياً ، وأن يكون هناك اتحاد واحد للعمال ، وطُلب من الشركات الأجنبية العاملة فى تشاد أن يكون لها مركز رياسة فى فورت لامى[1] ، ويرجى من هذه القررات أن تساعد على حلّ مشكلات التخلف التى تعانيها تشاد فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية .

---

(١) محمد عبد الفتاح : إفريقية المعاصرة ص ٢٧١ .

انقلاب عسكرى فى تشاد

فى الثالث عشر من أبريل سنة ١٩٧٥ حدث انقلاب عسكرى فى تشاد كان يقوده جنرال نويل أودينجار القائد الأعلى للقوات المسلحة بالنيابة ، وقد قاوم الرئيس تومبالباى ومعاونوه هذا الانقلاب ، فحدث صراع بين الجانبين ، ودارت معارك بالمدفعية والأسلحة الخفيفة حول مبنى الرياسة ، ولم تتوقف هذه المعارك حتى أعلن أن الرئيس تومبالباى لقى مصرعه ، وقد سقط فى هذه المعارك عدد كبير من القتلى والجرحى .

وكان تومبالباى قد غير اسمه فى الفترة الأخيرة من فرانسوا إلى نجارتا ، وغير اسم العاصمة من فورت لامى إلى نجامينا ، كما غير أسماء الشوارع الفرنسية إلى أسماء إفريقية ، وكانت إذاعة تشاد قد توقفت عدة ساعات وعندما استأنفت إذاعتها أعلن راديو تشاد أنه تم إطلاق سراح ثلاثة من العسكريين من بينهم الجنرال فيلكس مأمون القائد العام السابق الذى كان قد قبض عليه بتهمة تدبير مؤامرة ضد تومبالباى . وأصبح الجنرال فيلكس مأمون رئيس مجلس الثورة الذى حكم البلاد ، ثم اختير رئيسا للجمهورية .

اقتصاديات تشاد :

فى مطلع حديثنا عن اقتصاديات تشاد ينبغى أن نوضح أن هذه البلاد كانت تمثل فى نظر الفرنسيين موقعا استراتيجيا عسكريا ليس غير ، فلم يكن

فيها مطمع اقتصادى وهذا ويفسر لنا السبب فى أن فرنسا لم تبذل جهداً يذكر للنهوض باقتصاد البلاد على أن فرنسا عادت بعد ذلك فقدمت مساعدات ضخمة لتقيم أود البلاد ، ويدخل فى هذه المساعدات المعاشات التى تدفعها فرنسا إلى المحاربين القدامى ومساعدات أخرى متعددة ، أما باقى الدول فإن معونتها هزيلة لا تكاد تذكر ، ومن المضحك أن الدعاية تبلغ حداً كبيراً أحياناً لمعونة هزيلة شاحبة كتلك التى تقدمها الولايات المتحدة إلى تشاد ، ويمكننا فى هذا الصدد أن نقتبس فقرة من دراسة نشرتها جريدة لموند الفرنسية فى عددها الصادر بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩٦٧ للباحث الفرنسى فيليب دوكر وفيما يلى نصها :

تعتبر فرنسا الدولة الوحيدة التى تقدم مساعدات قيمة إلى جمهورية تشاد ، أما بقية الدول فهى تقوم بدعاية ضخمة عندما تقدم مساعدات ضئيلة للغاية ، وقد أقامت سفارة الولايات المتحدة فى تشاد احتفالا كبيراً من أجل تسليم نصف دستة من الكرات لفريق كرة القدم فى تشاد .

ولا تنطبق هذه الحالة على حكومة الولايات المتحدة وحدها وإنما على جميع الدول التى تدعى أنها تساعد الدول الإفريقية الحديثة . وتتكلم الأرقام عن نفسها . فى الفترة من بداية الاستقلال حتى عام ١٩٦٥ بلغ حجم المساعدات الفرنسية خمس ضعفاً للمساعدات التى قدمها صندوق التنمية الأوروبى ، وثلاثين ضعفاً لمساعدات الولايات المتحدة وجمهورية ألمانيا الاتحادية والأمم المتحدة مجتمعة كلها . وقد صرح رئيسى الوزير المختص بتنفيذ الخطة وبالتعاون بقوله : نحن لا نُعْتَبَرُ فى المحيط السياسى الإفريقى من بين الثوريين كما لا نعتَبَرُ من بين الرجعين ولذلك لا يهتم بنا أحد . ويعتبر هذا الوزير من ضمن العناصر الشابة التى يعتمد عليها الرئيس فرنسوا تومبا لباقا لتنفيذ خطة التنمية(١) » .

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

وهكذا تقرر المراجع أن تشاد بلد محدود الدخل اقتصادياً ، ويُعد من بلاد إفريقية الفقيرة ، ولعل من أسباب تخلفه ارتفاع أسعار المواد المستوردة فالبنزين مثلا يرتفع سعره إلى ثمانية أضعافه بسبب نقله من موانى نيجيريا إلى فورت لامى ، والأسمنت يرتفع سعره إلى أربعة أضعافه بسبب نقله من موانى الكميرون إلى فورت لامى ، وهذا مما لا يشجع على استثمارات صناعية فى تشاد .

وتعتمد تشاد على الزراعة ، والقطن هو المحصول الرئيسى النقدى بالنسبة لميزانية البلاد ، ويزرع فى جنوب بحيرة تشاد ، ويزرع كذلك الفول السودانى والأرز والذرة ، وتبذل جهود واسعة لرفع مستوى الزراعة من ناحية الكم والكيف .

وفى تشاد ثروة حيوانية كبيرة فى مناطق واداى وباجرمى ، وقد أنشئت بعض الصناعات لتعليب اللحوم وصناعة الجلود والفراء وتصدر تشاد البقر واللحم والجلود إلى جابون وجمهورية إفريقية الوسطى .

وتعتبر بحيرة تشاد مصدر ثروة سمكية واسعة ، وتصدر تشاد بعض أنواع السمك إلى الكمرون ونيجيريا .

ولا توجد فى تشاد غابات تذكر ، كما لا توجد معادن ذات بال سوى كربونات الصوديوم ، ولكن توجد على العموم إمكانيات لم تستخدم بعد ، ويرجى منها مستقبل أحسن لهذه البلاد الإسلامية المهمة .

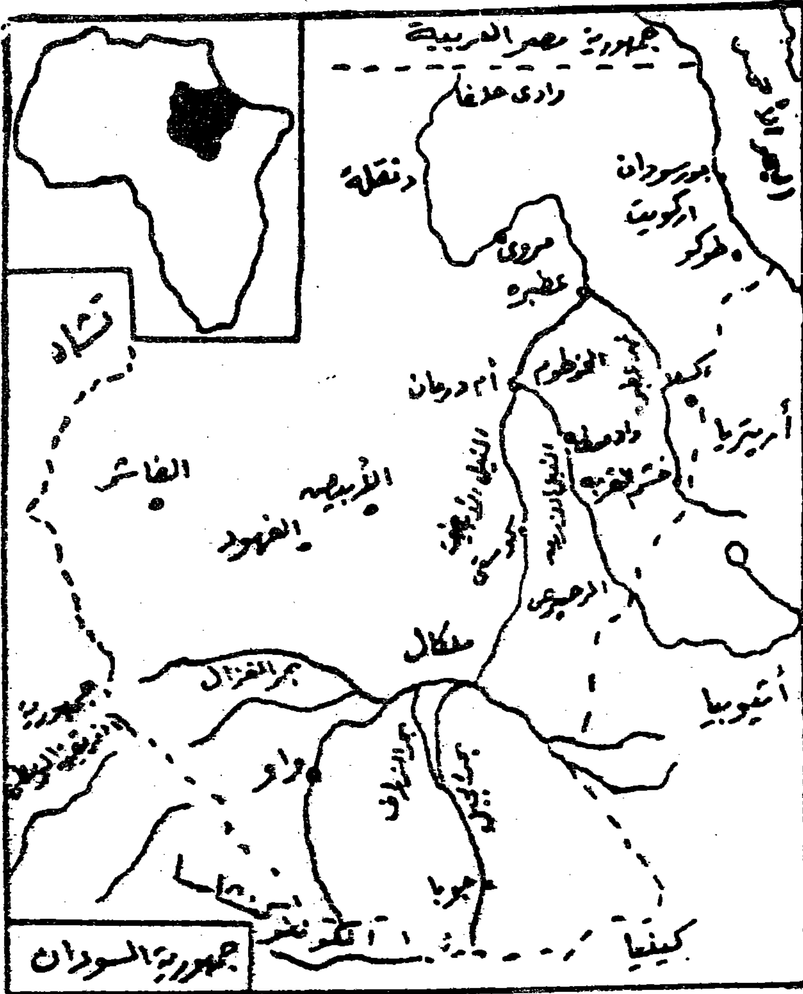
التعليم فى تشاد :

فى أيام الاستعمار لم تُوجه أية عناية إلى التعليم من قبل السلطات الفرنسية ، وكانت مدارس التعليم الابتدائى والثانوى قليلة جداً لم تتسع إلا إلى أقل من ٠,٥٪ من الذين كانوا فى سن التعليم فى سنة ١٩٤٥ ، وكان شعاع الضوء ينبعث فقط من المعاهد الإسلامية التى أقامها المسلمون فى مناطق الشمال وبخاصة من

جامعة أبشة التى فتحت أبوابها للطلاب من مختلف البلاد ليعودوا رسلاً إلى أقاليمهم ينشرون العلم والفكر الإسلامى ، وفى عهد الاستقلال حاولت الحكومة الوطنية أن ترعى العلم والتعليم ، فأكثرت من فتح المدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد المهنية ومعاهد التدريب ، ولاتزال تكافح فى هذا المضمار لتقدم العلم لطالبيه أو لمستحقيه ، وتعتبر العاصمة أهم مركز ثقافى فى البلاد ، ففيها عدد من المدارس بمستوياتها المختلفة ، والتعليم فى تشاد باللغة الفرنسية فى المدارس الحكومية ، وباللغة العربية فى المدارس والمعاهد الإسلامية ، ويتم الطلاب دراستهم العالية فى مصر وفى فرنسا وفى بعض البلاد المجاورة ، ويؤمل من الحكومة أن تبذل مزيداً من الاهتمام بالتعليم ، ومزيداً من تنمية الاقتصاد ، ومزيداً من الديمقراطية .

السودان

السودان



مقــــدمة :

كتابة التاريخ فى العصر الحاضر كتابة هادفة ، وفى هذه الموسوعة نبرز الرباط الطبيعى بين الدول الإسلامية بعضها والبعض الآخر كما نبرز رباط الثقافة والحضارة لتتخذ هذه الدول من ذلك وسيلة لمزيد من الالتقاء ومزيد من التعاون .

وعند حديثنا عن السودان يبرز رباط آخر يربطنا بهذه الأرض ، فالعلاقات بين مصر والسودان لم تنشأ مع الإسلام ، وإنما تمتد جذورها عشرات القرون قبل هذا الدين الحنيف ، ولهذا يتحتم أن نعطى مزيداً من التفاصيل عن الشطر الجنوبى لوادى النيل وعن الأرض التى تربطنا بها أوثق الروابط ، روابط الدم والدين واللغة والحياة والماضى والمستقبل ، ولعلنا بهذه الدراسة نعالج عيباً كان يوماً من الأيام واضحاً جلياً يؤاخذنا عليه إخوتنا بالسودان ، ذلك العيب هو قلة علمنا أمور السودان من مدنية وجغرافية وتاريخية واجتماعية ، وكانوا يرون أن من العيب أن يعرف المصرى كثيراً من الشئون حول البلاد العربية الأخرى ، بل أن يعرف كثيراً عن أوربا وأمريكا ثم يجهل نظائر ذلك عن السودان ، ولعلنا فى هذه الدراسة نفتح أمام المصريين والمسلمين آفاقاً للتعرف على جنوب الوادى ، ثم لعلنا نستجيب لهذا العتب فنكتب عن السودان ونتحدث عن السودان .

وقد أكدت الطبيعةُ الوحدةَ بين شطرى الوادى بما هو واضح من تداخل كثير من المظاهر الطبيعية فى الشمال والجنوب ، ونظرة إلى خرائط التضاريس والمناخ والنبات كافية لتأكيد هذا الترابط ، فظاهر السطح تكاد تجرى بنظام واحد ، وحالة المناخ والنبات إنما هى حالة تدرج طبيعى لا يحس فيه الإنسان بانتقال فجائى بين مصر والسودان .

والحدود الفاصلة بين مصر والسودان حدود صورية مبنية على اتفاقات إدارية ولا يتوفر فيها أى أساس من الأسس الجغرافية للحدود الصحيحة ، كما ذكرنا من قبل[1] ، وعلى هذا فالحدود برهان على الصلة وليست برهانا على الانفصال ، ومن أبرز دلائل عيوبها أنها تقسم أراضى القبيلة الواحدة

---

(١) ص ٤٨٧

بآبارها ومراعيها فتعد جزءاً منها فى مصر والجزء الآخر فى السودان كما يتضح بالنسبة للبشاريين وغيرهم .

وتكوين السكان فى الشمال والجنوب يبين مدى الترابط والاتصال بين المجموعتين ، فالأثر الحامى فى سكان السودان هو الأثر الذى يرتبط ارتباطا وثيقاً بسكان مصر والنوبة إذ أسهمت الموجات الحامية مساهمة أساسية فى التكوين الجنسى لسكان السودان على اختلاف ما يسكنون من أقاليم ، ولكن موقع السودان بالقرب من مواطن الزنوج فى وسط إفريقية بدون حواجز طبيعية مانعة لوصول الأثر الزنجى إليه ؛ ذلك الموقع هو الذى قلل من الأثر الحامى فى جنوب السودان ، ولكنه على أى حال قوى جداً فى الشمال وفى الجزء الشرقى من وادى النيل ، وبخاصة فى المنطقة التى تسكنها جماعات البجة .

ولا يقل الترابط الثقافى بين مصر والسودان أثراً عن الترابط المادى وترابط الدم ، وتعود هذه الآثار الثقافية إلى عصور متناهية فى القدم .

وكل هذا نزع السودان وأهله من طابع الثقافة الإفريقى إلى الطابع الأسيوى الذى كانت مصر بابه على مر العصور ، وهكذا ظل السودان يتجه نحو مصر ويتخذها مركزا للزعامة الثقافية والروحية ، أو — كما يقول بعض الباحثين — يتخذها قبلة له فى مجال الفكر والثقافة والأمل[1] . ويقول الأستاذ عمر الحاج موسى وزير الثقافة والإعلام السودانى : إن الوحدة بين مصر والسودان قائمة من زمن بعيد ، وإنها فى وجدان كل سودانى وعقله ، وإنها لا محالة تعلن اليوم أو غداً ، وإن احتياج مصر للسودان والسودان لمصر بديهية سياسية واقتصادية وثقافية[2] .

---

(١) دكتور يسرى عبد الواحد الجوهرى : جمهورية السودان ص ٨ — ٩

(٢) من حديث نشره الأستاذ أنيس منصور فى أوائل يناير سنة ١٩٧٢ بصحيفة الأخبار

التسمية والموقع :

كان المصريون يسمون البلاد بلغتهم الهيروغلوفية « تا ـ نيكسو » أى أرض السود ، وهو نفس المعنى الذى يدل عليه الاسم الحديث « بلاد السودان » ، وأطلق المصريون على هذه البلاد فى عصورهم المتأخرة اسم « كوش » وهو الاسم الذى اقتبسه الحبشة فيما بعد فأصبح خاصاً بها ، وفى زمن الرومان كان يطلق على بلاد السودان اسم « نوبيا » .

وإذا رجعنا إلى كلمة السودان فى نطاقها العام نجد أن هذه التسمية تُطلق على الحزام الإقليمى الذى يشمل المساحة التى تقع بين المشارف الجنوبية للصحراء الكبرى الإفريقية وبين الأقاليم الاستوائية ، ويمتد هذا الحزام بعرض القارة كلها من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسى ، أى يشمل النطاق الذى نتدارس تاريخه وأحواله فى هذا المجلد ، ويميز الجغرافيون العرب بين بلاد السودان وبلاد الزنج ، ومع أن لفظ السودان يعنى بلاد السود إلاّ أن سواد البشرة وحده لا يكفى لاعتبار الزنوج والسودان جنساً واحداً ، فكلمة السودان فيها معنى أن اللون طارئ ومستحدث فى هذه المنطقة ، أما الزنوج ففيها معنى أصالة اللون الأسود ، وسبب ذلك أن هذا الحزام الذى يطلق عليه « السودان » دخلته عناصر مختلفة من عرب وبربر وحاميين وساميين ، وأن الجنس الجديد يمثل مزيج هذه الدماء بدماء السكان الأصليين لهذه المنطقة .

ويقسم الجغرافيون المحدثون السودان بوجه عام إقليمياً إلى ثلاث مناطق هى : السودان الغربى والسودان الأوسط ثم سودان وادى النيل ، ويضم السودان الغربى فى الوقت الحاضر الوحدات السياسية الآتية : السنغال ، جامبيا ، غينيا ، مالى ، النيجر مع أجزاء من الكونغو وسيراليون وغانا وفولتا العليا ، أما السودان الأوسط فيشمل تشاد وجمهورية إفريقية الوسطى مع بعض أجزاء

من الكرون ونيجيريا ، أما سودان وادى النيل فهو وحدة سياسية قائمة بنفسها وهى جمهورية السودان حالياً .

وقد تخلصت هذه المناطق من هذه التسمية بلداً إثر بلد ، وكانت مالى آخر هذه البلاد التى اطرحت اسم السودان واستعادت الاسم التاريخى « مالى » واحتفظ سودان وادى النيل بهذه التسمية ، مع أنه من أقل هذه البلاد سواداً إذا لوحظ لون البشرة ، فالشماليون أقرب فى لونهم إلى سكان صعيد مصر ، ولا يزال الامتزاج واسع النطاق بين سودان وادى النيل وبين أرض الشمال فى مصر ، مما يجعل لون البشرة يتدرج يوماً بعد يوم نحو اللون العربى الذى نطلق عليه السمرة بدل السواد .

وتتصل حدود جمهورية السودان بثمانى دول ، فيحدها من الشمال مصر ومن الجنوب كينيا أوغندا والكونغو ، ومن الشرق أثيوبيا (ومعها ارتيريا) والبحر الأحمر ومن الغرب ليبيا وتشاد وجمهورية إفريقية الوسطى .

السكان دما ولغة ودينا :

يبلغ تعداد سكان السودان حوالى ١٢ مليون نسمة ، ولعله مما يرتبط بالتعداد أن نقرر حقيقة يذكرها كل الباحثين هى أن السودان يحتاج إلى أضعاف هذا العدد لتُستَثمر أراضيه الشاسعة وتستغل موارده الكبيرة ، ففى السودان ما يقرب من ٢٥ مليون فدان صالحة للزراعة ولا يزرع منها إلاّ حوالى أربعة ملايين ، وإذا جاز لنا أن نستطرد فإننا نقرر أن هذه الحالة موجودة أيضاً فى بلاد عربية أخرى ، ويوجد فى مصر عكس هذا الوضع كأنما ألقت الأقدار على المصريين عبء حمل التبعات المرتبطة بالتنمية ، فالأرض فى السودان وفى بلاد عربية أخرى تجود بالخصوبة وتجود بالمعادن ، والأرض

فى مصر تنتج الرجال الذين يمكن أن يتعاونوا مع رجال كل قطر لاستغلال الأرض والرقى بالمستوى الفكرى والاجتماعى هنا وهناك .

والسودانيون من الناحية العنصرية ينتمون إلى الحاميين وإلى العنصر الزنجى ، وقد وفدت للسودان منذ عهد طويل جماعات قوقازية عن طريق الشمال مع مجرى النيل وجماعات ليبية وفدت فى عصور متأخرة من الشمال الإفريقى عن طريق تبستى أو من السودان الأوسط مثل واداى وتشاد واستقر فى غرب السودان(١) ، على أن أكبر غزو بشرى عرفه السودان جاء عن طريق العرب فمنذ القرن السابع غزا العرب بلاد النوبة من الناحية الشمالية كما أن مجموعات عربية أخرى استمرت تعبر البحر الأحمر طيلة عدة قرون مهاجرة من الجزيرة العربية ، وعلى هذا صار السودان الشمالى عربيا مسلما نتيجة للامتزاجات العنصرية بين السكان الأصليين والعرب الوافدين ، ويحوى السودان الشمالى العناصر البشرية التالية :

١ ــ الهدندوة والبشارين وبنى عامر فى منطقة جبال البحر الأحمر ؛

٢ ــ القبائل النوبية فى وادى النيل الشمالى ؛

٣ ــ مجموعة ضخمة من القبائل العربية تسكن كل السودان الأوسط كالكبابيش والكواهلة والجعليين ومختلف قبائل البقارة وغيرها ؛

٤ ــ بقايا السكان الأوائل مثل النوبة والفور الذين لم يتم اتصالهم بالعنصر العربى الوافد ؛

أما السودان الجنوبى فقد بقى بعيدا عن التأثيرات الوافدة بسبب الصعوبات

---

(١) انظر « الشعوب والسلالات الإفريقية » للدكتور محمد عوض ٢٣٢ وما بعدها والقاموس الإسلامى للأستاذ أحمد عطية الله ج ٣ ص ٥٥٣

المناخية والجغرافية ، وتسكن هناك مجموعات بشرية زنجية يمكن تقسيمها إلى المجموعات التالية :

١ ـ السودانيك : وهم مجموعات مختلفة من القبائل غرب النيل ومنهم الزاندى والمورو ـ مادى .

٢ ـ النيلين : ويسكنون حول الأنهار والمستنقعات ومنهم الدنيكا والنوير والشلوك(١) .

ويلاحظ أن جزءا كبيرا من سكان المدن فيما بين الخرطوم وحلفا من أصول مصرية .

واللغة العربية هى اللغة الوحيدة لأكثر سكان الشمال والوسط وهى اللغة الأولى لباقى هؤلاء السكان ويتكلم معها هؤلاء ببعض اللهجات الخاصة أو بقايا اللغات القديمة ؛ أما سكان الجنوب فقد وقف الاستعمار حائلا دون تعلمهم اللغة العربية ، وحاول نشر اللغة الإنجليزية بينهم ، ولا يزال هؤلاء يعتمدون على اللهجات المحلية قليلة الفكر والثقافة ، ويعرف المسلمون منهم اللغة العربية كما توجد اللغة الإنجليزية بين الذين التحقوا بمدارس التبشير الغربية ، ويكثر أن تكون اللغة العربية بين هؤلاء لغة التخاطب عند تعدد اللهجات .

وفيما يتعلق بالدين فإنه لم يحدث أن أجرى إحصاء دقيق للديانات فى السودان ، ومن الواضح أن سكان المديريات الستة الشمالية كلهم مسلمون ما عدا عدداً قليلا من اللادينيين وحفنة من المسيحيين الذين يقطنون المدن

---

(١) تقويم السودان : أصدرته وزارة الاعلام والشئون الاجتماعية بجمهورية السودان سنة ١٩٦٧ ص ٣٥ ـ ٣٦

فى الغالب ، أما عن المديريات الجنوبية الثلاث فيوجد بها عدد كبير من المسلمين والمسيحين ولكن أغلبية السكان من اللادينيين[١] .

ويرتبط بالناحية الدينية فى السودان موضوع شديد التأثير هو الطرق الصوفية ، وقد تحدثنا عن الطرق الصوفية من قبل حديثاً شمل الحزام السودا الذى ندرس تاريخه فى هذا المجلد ، ولكنا نضيف هنا عن الطرق الصوفية شيئاً متصلاً بالسودان وأهم الطرق الصوفية بالسودان الطرق الآتية :

الطريقة التى أسسها عبدالقادر الجيلانى ، وتسمى الطريقة القادرية ، وهى أول طريقة دخلت السودان ، وكان دخولها بواسطة الشيخ تاج الدين البهارى ، وقد انقسمت هذه الطريقة فيما بعد بالسودان إلى أقسام متعددة .

الطريقة البدوية وتعرف بالطريقة الأحمدية وتنسب للشيخ أحمد البدوى المدفون ببلدة طنطا بمصر ، ودخلت هذه الطريقة بالسودان بعد الفتح المصرى فى القرن التاسع عشر .

الطريقة السمانية وأتباعها ينتشرون فى منطقة النيل الأزرق والأبيض .

الطريقة الشاذلية أو المجذوبية ، وقد أدخلها إلى السودان الشيخ محمد المجذوب فى القرن الثامن عشر وأتباعها ببربر والدامر .

الطريقة الختمية وزعماؤها من آل الميرغنى .

الطريقة التيجانية ومؤسسها أحمد التيجانى من مراكش .

الأنصار وهم أتباع أسرة المهدى وينتشرون فى أنحاء مختلفة بالسودان .

وقد حاولت حكومة الثورة بالسودان أن تخلق رباط الوحدة الوطنية بين شعب السودان ليحل محل الطرق الصوفية التى اتخذت أحياناً مجالاً سياسياً فأحلت الفرقة محل الوحدة بين صفوف الشعب الواحد[٢] .

---

(١) تقويم السودان ص ٣٧

(٢) المرجع السابق ص ٣٧ — ٣٨

كلمة تاريخية :

يذكر تقويم السودان[1] أن الاكتشافات الأثرية القديمة أثبتت وجود إنسان العصر الحجرى القديم فى السودان ، ويحتمل أن يكون الاستيطان الأول قد حدث بين سنة ٥٠٠٠ و ٤٠٠٠ ق م ولم يكن المستوطنون يعرفون الزراعة فى ذلك الحين ، ويقول هذا التقويم : إن الوثائق المصرية القديمة هى المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن الأحداث التاريخية المبكرة والتى تنحصر فى السودان الشمالى (كوستى القديمة) وأولى تلك الأحداث كانت عبارة عن الغارات التى قام بها المصريون فى المملكة القديمة حوالى سنة ٢٨٠٠ ق م ، وبعد مضى ٢٠٠ سنة من تلك الغارات قام المصريون بنشاط تجارى فى منطقة دنقلا ، وقد تكونت هناك حملة وصلت إلى دارفور ، وفى أثناء هذه الفترة كانت تقطن السودان مجموعات من الناس تمارس شئون الزراعة والرعى ، وتجهل فنون الكتابة والاشتغال بالمعادن .

وفى عهد المملكة المصرية الوسطى التى بدأت حوالى عام ٢٠٠٠ ق م بسط المصريون سيطرتهم على السودان إلى منطقة الشلال الثانى ، وأنشأوا على طول النيل سلسلة من القلاع لتحمى المواصلات مع مصر ، واستمرت هذه الفترة حوالى ٣٠٠ سنة ، ويبدو أن نهايتها كانت مرتبطة بغزو الهكسوس لمصر حوالى سنة ١٧٠٠ ق م .

وبعد طرد الهكسوس أعاد المصريون سلطانهم على السودان ابتداء من عهد أحمس الأول[2] الذى بنى معبداً فى بوهين بالقرب من وادى حلفا ، ثم بنيت بجواره معابد أخرى كثيرة ، وعند انتهاء الامبراطورية المصرية فى نهاية الألف الثانى قبل الميلاد اختفى المصريون مرة أخرى من تاريخ السودان ،

---

(١) ص ٣٢ وما بعدها

(٢) انظر كتاب « اليهودية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف

وبالتالى مرت فترة اختفى فيها تاريخ السودان بوجه عام حتى حوالى سنة ٧٥٠ ق . م ، إذ قامت فى نبتة بالقرب من مروى مملكة سودانية ذات صبغة مصرية من حيث الثقافة والدين ، ثم اتسع نفوذ هـذه الدولة تجاه الشمال فدخلت مصر وكونت الأسرة الخامسة والعشرين ، ثم تغلب الأشوريين على مصر ففر أمامهم هؤلاء الحكام إلى السودان ، وظلت مملكة نبتة فترة تقرب من ألف عام ، ونقلت عاصمتها من نبتة سنة ٥٥٠ ق . م إلى مروى شمال شندى الآن وبقيت نبتة مركزاً دينياً يدفن فيها ملوك وملكات مروى ؛ واحتفظت هذه المدينة بأهمية كبيرة حتى فتك بها الرومان سنة ٢٣ ق . م ، وكانت قد وصلت آنذاك إلى قمة ازدهارها ، وقد تدهورت مملكة مروى بعد ذلك ، إما بسبب زحف من الجنوب أو زحف من أثيوبيا حوالى سنة ٣٥٠ ميلادية وليس تاريخ هذه الفترة واضحاً ، وتلا هذه الفترة عصر انحلال وقيام عدد من الممالك الصغيرة المستقلة القبلية .

وفى القرن السادس بدأ تحويل السودان إلى الديانة المسيحية ، وكان نفوذ الكنيسة القبطية أقوى من نفوذ الكنيسة الملكانية ، وفى ظل المسيحية قُسّم القطر سياسياً إلى مملكتين هما مملكة مقرة وعلوة وقد سبق أن تحدثنا عنهما[1] .

ثم دخل الإسلام مصر ، ومن مصر دخل الإسلام بلاد النوبة السودانية من عهد مبكر ، إذ كانت غارات النوبيين غير المسلمين تتوالى على حدود مصر الجنوبية ، فأرسل عمرو بن العاص حملة هاجمت دنقلة ، وأرغمت ملك النوبة على إعلان السلام ، ووقعت معاهدة بين الطرفين نصّت على أن المسلمين فى بلاد النوبة ، يجب أن توفر لهم الحماية ، وقد ظلت هذه المعاهدة معمولاً بها حوالى ستة قرون ، فلما كان عهد المماليك فى مصر أصبح واضحاً أن

---

(١) ص ١٤٤ – ١٤٦

الاستمرار للمملكتين المسيحتين بالسودان لم يعد ممكناً ، لأن أكثر الرعايا كانوا قد دخلوا الدين الإسلامى كما زحف إلى السودان عدد كبير من القبائل المسلمة الوافدة من الجزيرة العربية أو من مصر ، وكان من نتيجة هذه الاضطرابات أن خرِّبت دنقلة العجوز ، واندحرت الأسرة المالكة حوالى سنة ١٣٤٠ ميلادية وسقطت هذه المملكة ، وتبع ذلك هجرات سريعة من مصر ونشر الإسلام فى السودان حتى شندى ، وقسمت الأراضى بين زعماء القبائل .

وعاشت المملكة الجنوبية « مملكة علوة » فترة أطول بالرغم من أنه كان يبدو أن القبائل العربية كانت تتسلل داخل الدولة فى أواسط القرن الخامس عشر ، وجاءت نهاية مملكة علوة سنة ١٥٠٤ ميلادية ، وقامت على إثرها مملكة الفونج التى سبق أن تحدثنا عنها وظلت مملكة الفونج حوالى ٣٠٠ سنة ، وكانت عاصمتها سنار ، واستولى سلاطين الفونج على كردفان لمدة وجيزة فى القرن الثامن عشر ، ولم يستطيعوا التوسع فى الشرق بسبب قيام مملكة مسيحية قوية فى الحبشة ، وكانت سلطنة الفونج على العموم أشبه باتحاد إقطاعى متفكك ، وكانت الأرض مقسمة بين الإمارات الكثيرة التى تتمتع كل منها باستقلال كبير .

هذا وقد كان الفشل فى بناء إدارة مركزية مع ضعف البيت المالك على العموم وظهور نفوذ الهمج سبباً فى تفكك الدولة ، وشهد القرن الثامن عشر زعزعة ولاء الحكام المحليين واحداً تلو الآخر لسنار ، وحتى سنة ١٨٢٠ كان سلطان الفونج يمتد قليلا إلى ما بعد شمال الخرطوم .

وقد أتاح هذا الاضطراب والتفكك فى الجنوب الفرصة من جديد لمصر لتستعيد نفوذها بالسودان مرة أخرى ، فأرسل محمد على حملة إلى السودان سنة ١٨٢١ وقد تحدثنا عنها من قبل ، ولم تجد هذه الحملة مقاومة تذكر . فتم الاستيلاء على سنار والأبيض وأنشئت العاصمة « الخرطوم » وقسم

السودان إلى مديريات ومراكز ، ولم يتحقق هدف محمد على للحصول على الذهب فى السودان ، أو الحصول على جنود للمعارك الكبرى التى كان يقودها محمد على هنا وهناك ، ولذلك اتجه محمد على إلى إدخال الكثير من المحصولات الجديدة بالبلاد وتطوير اقتصادياتها ، ليمكن الانتفاع بالجنوب فى النطاق الزراعى والاقتصادى .

وشهد عهد الخديوى إسماعيل فكرة ضخمة حاول هذا تحقيقها ، وهى خلق إمبراطورية مصرية واسعة فى إفريقية ، وقد تحقق له كثير من هـذه المطامع ، فدانت له دارفور وضمت الأقاليم الجنوبية بعد اكتشافها وهى التى عرفت باسم مديريتى بحر الغزال وخط الاستواء ، كما ضمت الموانى البحرية ، وهى محافظات سواكن ومصوع وزيلع وبربرة فضلا عن حكمدارية هرر ، وأصبح السودان وحدة سياسية ضخمة تمتد من المحيط الهندى إلى الشلال الأول ومن ساحل البحر الأحمر إلى واداى . وأصبح السودان مع مصر يكونان إمبراطورية مصرية ضخمة وأجريت تحسينات واسعة فى المواصلات البرقية لربط هذه الإمبراطورية بعضها ببعض ، ولكن خطأ إسماعيل كان فى اعتماده وثقته بالإداريين الأوربيين الذين وكل لهم الاستمرار فى التوسع فى قلب إفريقية ، ووكل لهم الشئون الإدارية فى المناطق التى يتم فتحها ، فى نفس الوقت الذى كانت ممالكهم وأوطانهم تحاول التوسع فى هذه المناطق .

وتم احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ فبذل هذا المستعمر أقصى الجهد لإخلاء السودان ، أمام الثورة المهدية التى كانت قد هبت قبيل ذلك التاريخ ولم يكن إخلاء السودان عجزاً عن مقاومة المهديين ، ولكنه كان ينبع من سياسة بريطانية تخطط للمستقبل ، وترمى لإعادة الفتح من جديد ليتحقق بذلك الفتح سلطان بريطانيا على الجنوب .

وكانت الثورة المهدية قصيرة العمر فقد استولت على الخرطوم سنة ١٨٥٥ وفى نفس العام توفى المهدى زعيم هذه الثورة ، وتولى مكانه الخليفة

عبد الله التعايشى ، وقامت عقب ذلك اضطرابات داخلية واسعة أتاحت الفرصة لإعادة فتح السودان ، وسرعان ما تمّ ذلك سنة ١٨٩٩ وقُتل الخليفة عبد الله التعايشى فى الميدان ، وعادت السودان هذه المرة ليست تابعة لمصر ، لكن تابعة لحكم ثنائى من الناحية القانونية ولحكم بريطانى من الناحية الواقعية ، وكان لمصر جيش فى السودان مع الجيش البريطانى ولكن نفوذه كان محدوداً ، وانتهزت بريطانيا فرصة حدثت سنة ١٩٢٤ وهى أن قُتل بالقاهرة السير لى ستاك حاكم السودان العام ، فقررت إجلاء القوات المصرية عن السودان ، وإجلاء المدرسين والإداريين المصريين .

ونعود الآن إلى مرجع سودانى لنرى رد فعل ذلك التصرف لدى الجنود السودانيين الذين كانوا يرون فى الجنود المصريين إخوة لهم ، ويرون فى نجليز عدوا للجميع ، يقول الدكتور مكى شبيكه[1] :

وعند ما أرادت السلطات الإنجليزية تنفيذ سفر الوحدات المصرية إلى مصر ، رفض قائد الطوبجية الأمر إلا بأوامر تصله من الملك وبعث الملك مندوباً فى طائرة خاصة ، وانصاع القائد لأمر الملك ، وبدأ يتجهز بأورطته للرحيل ، وترامى إلى سمع الضباط السودانيين رفض الطوبجية الرحيل ، وأشيع أنهم سيقاومون واستعد الضباط السودانيون لمساعدة المصريين ، وخرج جماعة منهم على رأس جنودهم للانضمام إلى زملائهم فى السلاح بكامل معداتهم ، ولما كانوا فى شارع الشاطىء بالقرب من المستشفى العسكرى تصدت لهم القوات البريطانية التى كانت تحتل كلية غوردون ومنعتهم من الوصول إلى الكوبرى ، ووقعت معركة حامية استمرت بقية اليوم وطيلة الليل وصباح اليوم التالى ، وانهزم السودانيون بعد أن أبلوا بلاء حسناً وقدموا تضحيات واسعة ، وكان على رأس المضحين

---

(١) السودان عبر القرون ص ٤٣٧

البطل عبد الفضيل ألماظ حيث سقط فى المعركة وهو ممسك بمدفعه الرشاش ؛ وكبدوا البريطانيين خسارة كبيرة ، ولولا أن ذخيرتهم نفدت لصمدوا وقتاً كبيراً مضحين بأرواحهم ، وقبض على الضباط الثوار وأعدموا وهم المغفور لهم سليمان محمد وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم .

ذلك موقف رائع يعد خير دليل على روابط الود بين الشمال والجنوب ، ولكن الإرادة الإنجليزية نفذت على أى حال وتم إجلاء المصريين ، وحاولت إنجلترا أن تسترضى السودانيين فأحلت السودانيين محل المصريين فى الوظائف التى كان يشغلها هؤلاء ، ولم تكن محاولة السودنة التى ظهرت آنذاك لصالح السودانيين ، وإنما كانت حلقة من حلقات التقسيم الذى أراده الإنجليز من عهد مبكر ، وكانت خطتهم أن يخلعوا السودان من مصر ، ثم أن يعمدوا للسودان بالتجزىء والتقسيم فيضموا الجنوب إلى أوغندا وكينيا ليؤلفوا من ذلك جامعة زنجية مسيحية يحاربون بها العرب والإسلام كما كان فى تخطيطهم أن يسلخوا شرق السودان لضمه إلى أريتريا أو إلى الحبشة ، كما حاولوا إعادة أحفاد السلاطين القدامى لمنطقتى كردفان ودار فور[1] ، وقد نجحوا فى بعض هذه المحاولات وأضاعوا بعض الممتلكات السودانية كهرر التى تركوها للحبشة وكأجزاء واسعة على البحر الأحمر ، ولكن عيون المواطنين حفظت باقى السودان من الضياع .

ويمكن تقسيم التطور السياسى للسودان منذ الفتح الثانى إلى الاستقلال إلى الأقسام التالية :

١ — من سنة ١٨٩٩ إلى ١٩٣٨ وفى هذه الفترة تم بالتدريج إحلال المدنيين مكان العسكريين فى الإدارة ، وبعد الحرب العالمية الأولى قللت

(١) محمد نجيب : رسالة عن السودان ص ٤ — ٥

الحكومة بعض الوظائف والمناصب الإدارية المحلية الصغيرة لزعماء القبائل ، وفى سنة ١٩٣٦ عقدت المعاهدة المصرية البريطانية التى أعادت الجيش المصرى للسودان ولكن بنفوذ محدود الغاية .

٢ — من سنة ١٩٣٨ إلى ١٩٥١ وفى هذه الفترة تأسس مؤتمر الخريجين العام الذى حمل علم الكفاح بين السودانيين ، وعبّر عن آمالهم وقاوم أطماع المستعمر ، وفى هذه الفترة كذلك تمّ تأسيس مجلس استشارى للسودان الشمالى كان أعضاؤه سودانيين ،واتجه مؤتمر الخريجين اتجاهين بالنسبة إلى مصر ، فنادى بعض أعضائه بالاتحاد مع مصر ، ومال البعض الآخر إلى الاستقلال التام .

٣ — من سنة ١٩٥١ إلى ١٩٥٣ : وفى مطلع هذه الفترة أعلنت مصر من جانبها إلغاء معاهدة التحالف مع بريطانيا التى عقدت سنة ١٩٣٦ وكذلك الاتفاقية المشتركة لاستعادة السودان التى عقدت سنة ١٨٩٩ ونودى بملك مصر ملكا على مصر والسودان ، ولم تقبل بريطانيا هذا التغيير ، وبعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ تنازلت مصر عن موقفها بالنسبة للسودان ، ووصلت مع بريطانيا إلى اتفاقية حددت الخطوات الدستورية التى يتحدد بمقتضاها مستقبل السودان ، ومن أهمها أن يوجد إشراف دولى على الانتخابات وأن تحدد فترة ثلاث سنوات يقرر السودانيون فى نهايتها مستقبل بلادهم فى حدود الاتحاد مع مصر بصورة من الصور أو الاستقلال التام ، ووقعت بذلك اتفاقية مصرية بريطانية سنة ١٩٥٣ ، وأشرفت لجنة دولية على الانتخابات التى جرت فى نفس العام ، والتى فاز فيها الحزب الوطنى الاتحادى الذى كان ينادى بالاتحاد بين مصر والسودان ، وأصبح رئيس الحزب « الرئيس إسماعيل الأزهرى » أول رئيس للسودان وافتتح البرلمان فى مارس سنة ١٩٥٤ .

وخطا الرئيس إسماعيل الأزهرى بعد ذلك خطوة هامة ننقلها بحروفها من تقويم البلدان الإسلامية(١) :

« ربح الحزب الوطنى الاتحادى الانتخابات بتأييد المصريين ، وتعهد زعيم الحزب عقبه ذلك بتحقيق اتحاد مع مصر تعبيراً عن رغبة الجماهير السودانية ، ولكنه غيّر سياسته إلى سياسة مستقلة ، وأزاح جانباً بكل فطنة وذكاء جميع الخطط الانجلو - مصرية من أجل إجراء استفتاء وغير ذلك من الإجراءات الطويلة الأمد التى نصت عليها المعاهدة المصرية البريطانية وارتضاها كل السودانيين ، وفى يناير سنة ١٩٥٥ أعلن البرلمان السودانى البلاد جمهورية مستقلة ، ولما ووجهت كل من بريطانيا ومصر بهذه الحقيقة الراهنة لم تستطيعا إلاّ أن تقبلاها وترسلا أطيب التمنيات ، واستقال الحاكم العام، واستبدل به مجلس أعلى مؤلف من خمسة من الزعماء السودانيين ، وانسحبت الحاميات البريطانية والمصرية فى شهرى ديسمبر ١٩٥٥ ويناير ١٩٥٦ وقدمت مصر لجيش السودان الناشئ كل ما كان لدى جيش مصر بالسودان من أسلحة ومعدات ، وأعلن قيام جمهورية السودان المستقلة إبتداء من أول يناير سنة ١٩٥٦ وقبلت عضواً بالأمم المتحدة منذ ذلك التاريخ » .

وهذه القفزة التى قفزها الرئيس إسماعيل الأزهرى وباركها أكثر السودانين وقبلتها مصر وبريطانيا ، تركت آثاراً شاحبة على الحكم فى السودان لأنها فتحت الباب لقفزات مماثلة قامت بها حركات انقلاب عسكرية متعددة ، وكانت المحاولة الأولى فى مايو سنة ١٩٥٧ وكان يتزعمها الصاغ عبدالرحمن كبيدة والملازم عمر خلف الله ، ولم تنجح هذه المحاولة إذ تم اكتشافها قبل

---

(١) تقويم البلدان الإسلامية ص ٣٢١

وقوعها ، والمحاولة الثانية كانت فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٨ وكان يقودها الفريق إبراهيم عبود القائد العام للقوات المسلحة ونجحت هذه المحاولة وأعلن القائد العام فى بيانه الأول حل جميع المنظمات الديمقراطية وتعطيل الدستور المؤقت وإعلان حالة الطوارئ فى جميع البلاد ، كما قام بتكوين مجلس أعلى للقوات المسلحة ليكون السلطة التشريعية والمجلس الأعلى للحكم فى البلاد ، وأصبح هو رئيساً لهذا المجلس ورئيساً لمجلس الوزراء ووزيرا للدفاع وقائدا عاما للجيش(١) .

وفى عام ١٩٥٩ حدثت ثلاث محاولات للانقلاب نجحت الأولى وفشلت الثانية والثالثة ، ولذلك يعرف هذا العام بعام الانقلابات ، وكان نجاح الأولى بإبعاد بعض أعضاء المجلس الأعلى وتعيين قادة هـــذه المحاولة أعضاء فيه .

وفى أكتوبر سنة ١٩٦٤ هبت ثورة مجيدة فى السودان وضعت نهاية للحكم العسكرى ، وأعادت حياة الديمقراطية ، واختير مجلس سيادة برياسة الرئيس إسماعيل الأزهرى .

ومع هذا فقد حدثت محاولة عسكرية فى ٢٨ ديسمبر ١٩٦٤ بقيادة الملازم خالد حسين أحمد ، ولكنها كانت محاولة تحمل بذور فشلها .

وحدثت بعد ذلك حركة عسكرية فى مايو سنة ١٩٦٩ سميت حركة التصحيح لمسيرة أكتوبر سنة ١٩٦٤ وكانت هذه المرة بقيادة اللواء جعفر نميرى ولكن هذا التصحيح أيضا هب ضده انقلاب فى أغسطس ١٩٧١ بقيادة الرائد هاشم عطا ولكن انتصاره كان قصير العمر فلم يمكث أكثر من يومين عاد

بعدهما اللواء جعفر نميرى إلى مكانه حيث قضى على القائمين بهذه الثورة وانتخب بعد ذلك رئيسا للجمهورية .

مؤامرة يوليو سنة ١٩٧٦ :

على أن المؤامرة التى قامت ضد الرئيس نميرى فى يوليو سنة ١٩٧٦ كانت أقسى ماتعرض له السودان من مؤامرات وانقلابات ، وزعيم هذه المؤامرة اسمه محمد نور سعد وهو عميد سابق فى الجيش السودانى ، وكان يؤيده بعض زعماء الأحزاب السودانية السابقة ، وقد أذيع أن ليبيا كانت تنفق على هذه المؤامرة ، وأن تخطيطا دقيقا وضع لها بمعرفة قادة عسكريين من الصفوف العالمية الأولى ، وأذيع كذلك أن المؤامرة كانت جزءا من الصراع ضد دولتى وادى النيل العربيتين (مصر والسودان) وقال الرئيس أنور السادات فى تصريحه فى العاشر من يوليو إننى كنت أعرف من مدة خبر الاستعداد لمؤامرة ضد السودان ، وهذا ماجعلنى أرسل مندوبا إلى الخرطوم منـــذ شهر ، وأطلب إليـــه أن يوقظ الرئيس نميرى لو كان نائما .. ليطلعه على ماتلقيناه من معلومات عن الإعداد لمؤامرة ، كان محددا لها ٢٥ مايو الماضى .. واتخذ نميرى حيطته ولكننا لم نكن نتصور أن المؤامرة غزو شامل .. دبر نفذ على مدى عام كامل ونقل لتنفيذه المئات ومعهم أحدث الأسلحة ..

وقال الرئيس : « ان خطة هذا الغزو الخطير ، أكبر كثيرا جدا ، من تفكير القـــذافى .... إنه تخطيط على مستوى عالمى ، من أصحاب إمكانيات عصرية ، بأحدث وسائل الإرهاب والانقلابات تخطيطا وتنفيذا » .

وكان زعماء المؤامرة قد انتهزوا فرصة غياب الرئيس نميرى عن السودان فى رحلة إلى أمريكا وأوربا وعرفوا موعد عودته، ويبدو أن الخطة قد وضعت لاغتياله ساعة وصوله إلى المطار بتدمير طائرته والقضاء على مستقبليه، وانتهاز هذه الفرصة لاحتلال القيادة العامة فى غيبة قادتها، بواسطة فرق عدوانية مسلحة اتخذت أهبتها فى أمكنة متعددة، ولكن طائرة الرئيس نميرى وصلت قبل موعدها بساعة، وعندما عرفت الفرق المستعدة للزحف خبر وصول طائرة الرئيس تقدمت واستطاعت أن تحقق ألواناً من النصر، فاحتلت المواقع العسكرية المهمة كالقيادة العامة وسلاح المهندسين، ثم مبنى الهاتف ومبنى الإذاعة والتليفزيون، واقتحمت منازل القادة والوزراء، فقتلت مَنْ بها من الرجال والنساء والأطفال، وقبضت على البعض وحبستهم فى غرف ضيقة دون تفكير فى طعامهم وشرابهم، وهاجمت منزل نميرى فقضت على حرسه بعد معركة رهيبة.

بيد أن الاستعداد للعدوان على طائرة نميرى لم يكن قد اكتمل ساعة وصولها المبكر، وأحس نميرى ومستقبلوه بالخطر من دوى الرصاص فأسرع الرئيس نميرى بالاختفاء ليقود النضال ضد هذا الخطر.

ولعبت مصر دوراً مهماً فى مساندة نميرى، وقد وصف الرئيس السادات هذا الدور بقوله: لقد أقمنا جسراً هائلاً من طائرات الانتينوف، وقد نقلت هذه الطائرات القوات السودانية التى كانت على الجبهة المصرية بأسلحتها الكاملة إلى السودان، واستطاعت هذه القوات التى قادها نميرى أن تسحق هذا الانقلاب وتقضى عليه، وكان الرئيس نميرى يقودها من مكان مجهول، ولم يظهر إلا بعد أن ظهرت تباشير النجاح

ومما يذكر أن صلحاً تم بعد ذلك بين الرئيس نميرى وزعماء الأحزاب الذين قيل إنه كان لهم دور فى هذا الزحف وعلى رأسهم السيد الصادق المهدى ، وعاد الزعيم عقب الصلح ليسهم فى خدمة بلاده وأمته

جنوب السودان:

أشرنا آنفاً أن إنجلترا بذلت أقصى الجهد لفصم عُرى الارتباط بين مصر والسودان ، ولكنها بذلت جهوداً أوسع وأحكم لفصل جنوبى السودان عن شماليه ، ومن أبرز ما عمله الاستعمار لذلك أن اعتبر جنوب السودان منطقة مقفلة بالنسبة للمصريين ولأهل الشمال السودانيين ، ولكنه فتح أبوابها على مصاريعها بالنسبة للإرساليات المسيحية التى بذلت جهوداً عنيدة لفصم كل العلاقات بين الشمال والجنوب ، فقد وكُلِت لها شئون التعليم تماماً ، واتخذت البعثات التبشيرية من ذلك وسيلة لنشر المسيحية ونشر اللغة الإنجليزية ، ومحاربة الإسلام واللغة العربية ، ثم لعبت الإدارة البريطانية والبعثات التبشيرية لعبة الجنس والعنصر لتضيف بذلك وسيلة جديدة إلى اللغة والدين بقصد القضاء على كل مقومات الصلة بين الشمال والجنوب ، وقد شجعت بريطانيا أهل الجنوب فعقدوا مؤتمراً فى جوبا سنة ١٩٤٧ يطالبون فيه بالانفصال ، وأثارت اضطرابات فى « توريت » جنوبى السودان الأقصى ، وشجعت على إقامة الأحزاب التى تنادى بالانفصال مثل حزب سانو الذى يميل الكثيرون من أتباعه إلى الانفصال التام ، وفى مقدمة هؤلاء الزعيم « جادين » ، ويميل بعض أتباع هذا الحزب إلى قيام اتحاد فيدرالى ، ويتزعم هؤلاء « وليم دينج » ٥

وعند ما اضطر الاستعمار أن يخلى السودان ظل على صلة بالمتمردين من أهل الجنوب وكانت هناك اتصالات غامضة بين الإنجليز فى أوغنده وبين

زعماء القبائل الانفصالية ، ولما استعملت حكومة اللواء عبود باشا القوة ضد ثورات الجنوب فرّ حوالى ١٥٠ ألفاً من الجنوبيين المتمردين إلى الكونغو وأوغندا وكينيا وأثيوبيا .

على أن عدواً جديداً للعرب وللمسلمين بدأ يلتقط الزمام من الإنجليز ويعمل على تحقيق المخطط الاستعمارى ، ذلك العدو هو إسرائيل ، وفى قضية المرتزق الألمانى رولف اشتاينر الذى كان يقود المتمردين بالسودان وقبضت عليه حكومة اللواء جعفر نميرى فى أغسطس ١٩٧١ ظهرت حقائق بعيدة العمق فى هذا المجال ، فقد اعترف شتاينر أن إسرائيل تدرب المتمردين وتمدهم بالأسلحة ، وأن الفاتيكان يدفع بعض تكاليف عمليات العصيان ، وكشف رئيس هيئة الادعاء السودانى فى محاكمة هذا المرتزق أنه شخصية عجيبة كانت تفرض الموت على الأحرار فى كل مكان إذا ما طالبوا بالحرية ، ومن أجل هذا الهدف عمل هذا الرجل فى الهند الصينية والجزائر والسويس وبيافرا ثم انتهى به المطاف إلى جنوبى السودان ، وقد ذكر السيد خلف الله رشيد رئيس هيئة الادعاء بالسودان أن شتاينر اعترف بأنه تمّ تدريب عدد من قادة المتمردين بإسرائيل ، وأن إسرائيل تقدم للمتمردين مساعدات عسكرية ضخمة ، وأن العسكريين الإسرائيليين يقومون بزيارات لم تنقطع لمعسكرات المتمردين بجنوبى السودان ، وأنها تلقى لهم الأسلحة والعتاد الحربى والأطعمة عن طريق الطائرات التى تخرج من قواعد إحدى الدول المجاورة ، وأكثر من ذلك لقــد أنشأ الإسرائيليون مدرسة لتخريج الضباط فى ونجى كابول لتخريج القادة العسكريين الذين يقودون الحركة الانفصالية ، بل إنهم كانوا يشتركون اشتراكا مباشرا فى تخطيط عمليات المتمردين .

وأكد رئيس هيئة الادعاء أن استجواب المتهم شتاينر قد أكد أن حاييم

ماسانى رجل المخابرات الإسرائيلية فى أوغنده كان يعاود بين الحين والآخر زيارة مناطق المتمردين فى جنوبى السودان .

وأكد استجواب شتاينر كذلك امتداد هذا الدور الإسرائيلى القذر إلى كل حركات الانفصال والتمرد فى إفريقية . . ومن خلال شهادته التى تلاها المدعى العام تأكد أن أبا إيبان وزير الخارجية الإسرائيلى كان موجودا فى بيافرا خلال الحرب الأهلية النيجيرية ، وأنه هو الذى دبر شحن الأسلحة إلى جماعات الانفصاليين . . أما كيف أدرك شتاينر ذلك فلأنه بنفسه كان مسئولا عن إعداد المخططات العسكرية للحركة الانفصالية فى بيافرا ولكن بيافرا انهارت قبل أن تتحقق هذه المخططات .

ومن الجمعيات التى اتصل بها شتاينر قبل سفره لجنوبى السودان جمعيات مسيحية تسمى جمعية « آباء فيرونا » وقد طلب الأب أنستوفى أحد زعماء هذه الجمعية من شتاينر السفر إلى جنوبى السودان ليقوم بمهمة جمع المعلومات حول طبيعة التمرد القائم فى الجنوب ومدى المساعدات اللازمة لنجاحه(١) .

ذلك حديث موجز عن الجنوب فيما يختص بالسياسة ودور الاستعمار والتبشير وإسرائيل فى هذا الدور ، ولنا فيما بعد حديث آخر يتصل بالجنوب فى ميدان الثقافة والعلم . وسنلم بهذا الحديث عند كلامنا عن التعليم فى السودان .

وقبل أن ندع ميدان السياسة نقرر أن الحكومة الحاضرة تعمل على القضاء على سياسة التفرقة ، وتتعاون مع المخلصين من الجنوبيين ، وقد قرر اللواء جعفر نميرى أن يستمتع الجنوب بالحكم الذاتى فى إطار الوحدة مع الشمال ، وعقدت اتفاقية بذلك .

---

(١) صحيفة الأهرام فى ٦ أغسطس سنة ١٩٧١

اقتصاديات السودان :

يمكن اعتبار السودان بلداً زراعياً نظراً لمعالمه الجغرافية ومصادره الطبيعية ، ومع أن الزراعة فى السودان قديمة وعريقة ، فإن مشروع الجزيرة الذى بدأ فى سنة ١٩٢٥ كان دفعة قوية إلى الأمام منحت السودان كثيراً من التقدم فى مجال الزراعة ، ومنحت أفواجاً من البدو حياة الاستقرار والرخاء .

وقد اشتق المشروع اسمه من الجزيرة التى يقع بين النيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ، وتبلغ المساحة الكلية المزروعة حالياً بأرض الجزيرة بما فيها أرض التوسع الزراعى بمنطقة المناقل حوالى ٠٠٠ر٨٧٠ر١ فدانا يزرع منها سنوياً أكثر من نصف مليون فدان قطنا ، ويعتبر القطن عماد الإنتاج الاقتصادى للمشروع الذى يزرع إلى جانبه بعض المواد الغذائية والعلف .

وقد اعتمد هذا المشروع على سدين عظيمين هما سد سنار الذى أقيم إلى الشمال على بعد ١٨ ك من المناطق المروية وذلك لتخزين المياه عقب انتهاء فيضان النيل الأزرق ، فبناء على اتفاقية الميـــاه المعقودة بين مصر والسودان سنة ١٩٢٩ حددت بدقة كمية المياه اللازمة للزراعة فى فترة الحاجة إلى المياه ، أما اتفاق ١٩٥٩ فقد أوجد إمكانيات جديدة عن طريق بناء السد الثانى وهو يقع بالقرب من الروصيرص ،وهذا السد يخزن خمسة أضعاف الكمية التى يخزنها سد سنار ، وهذا مكن السودان من زيادة مساحات واسعة جديدة لأرض الجزيرة وينتج مشروع الجزيرة قطنا طويل التيلة ، وهو من الأقطان القليلة فى العلم ولذلك يكثر الطلب عليه ، كما ينتج كميات هائلة من الذرة واللوبيا والقمح والفول السودانى والخضراوات .

ويزرع القصب فى منطقة جنيد بأرض الجزيرة أيضا على النيل الأزرق غير بعيد عن الخرطوم ، والمساحة المزرعة قصبا تبلغ حوالى ٤٥ ألف فدان ، وأنشىء بجوارها مصنع لإنتاج السكر ، وقد بلغ إنتاجه ٦٠ ألف طن سنويا وهى كمية تعادل نصف احتياجات السودان ، ويأتى مشروع الجنيد بعد مشروعى الجزيرة والمناقل ، وفيما عدا هذه المشروعات فإن الزراعة بوجه عام تعتمد على الأمطار بالسودان .

ويحتل الصمغ العربى المكان الثانى فى قائمة الصادرات بعد القطن بالسودان، ويؤخذ من شجر الهشاب والطلح وأهم جهاته كردفان ، وأهم مراكز تسويقه الأبيض التى تعد أكبر سوق للصمغ فى العالم ، وقد صدر منه سنة ١٩٥٦ بمبلغ خمسة ملايين من الجنيهات ، ومن أشجار السنط يؤخذ القرض للدباغة .

وقد نجحت زراعة الأرز فى الجنوب بعد أن فشلت فى أرض الجزيرة ، ويزرع فى منطقة واو وأويل ، كما يوجد البن والتبغ فى المناطق الاستوائية[1]

وتكثر فى الجنوب قطعان الماشية وأصناف الفواكه الكثيرة كالباباى والموز والقشطة والمانجو وأشجارها تنمو نموا منقطع النظير وتجود محاصيلها جودة فائقة حتى أنها تملأ جوانب الشوارع والطرقات[2] ولكن الاستفادة بها قليلة جدا لأن الاستعمار لم يوجه أية عناية لخلق شبكة مواصلات بالسودان ويقول الأستاذ عمر الحاج موسى وزير الثقـافة والإعلام السودانى فى حديث صحفى[3] : إن فى السودان أكثر من عشرين مليون رأس من الأغنام يحلبها أصحابها ، ويلقون بلبنها فى الأرض كل يوم لأنه لا توجد وسيلة لحفظ اللبن ونقله إلى المدن التى تحتاجه ، وإن ثمار المانجو يدفن أصحابها منها بالأرض ما تساوى قيمته عشرة ملايين من الجنيهات

---

(١) دكتور فيليب رفلة : الجغرافية السياسية لإفريقية ص ٣٢٤ — ٣٢٥

(٢) مهندس توفيق محمد خليفة : الحياة فى السودان ص ١٠٣

(٣) الأخبار فبراير سنة ١٩٧٤

لأنهم لا يستطيعون نقلها إلى المدن ، ولأن تركها بدون دفن يُسبب كثرة الذباب والأمراض .

والغابات تغطى ٣٧ ٪ من مساحة السودان ، وتغطى الغابات حاجة البلاد من الأخشاب وأعمدة البناء ، وبعض الأخشاب من أنواع الماهوجنى غالى القيمة فى صناعة الأثاث ، وقد وضع مشروع لصيانة الغابات وغرس الأشجار وتضم المناطق الحرجية الشاسعة فى السودان حيوانات برية متعددة ، تجلب انتباه السائحين ، وتكسب البلاد مزيداً من العملة الأجنبية عن طريق تصدير هذه الحيوانات أو منتجاتها كالعاج والجلود .

وقدرت الثروة الحيوانية فى سنة ١٩٦٠ بما يزيد على ٧ ملايين رأس من البقر و ٧ ملايين رأس من الغنم و ٦ ملايين رأس من الماعز ومليونى جمل(١) .

وقد اكتشفت فى السودان المعادن التالية :

الذهب — الكروميت — خام الحديد — خام المنجنيز — خام النحاس — خام الرصاص مع الزنك — موليبدنيت — كولبيت — مغنسيوم — ملح طعام — حجر جيرى (رخام) وغيرها من المعادن الكثيرة .

وقد استُغِل الذهب على نطاق محدود فى جبال البحر الأحمر والمديرية الشمالية وجنوب وادى حلفا وجنوب الفونج والمنطقة الاستوائية وتوجد خامات الحديد بالقرب من وادى حلفا وفى جبال البحر الأحمر وكذلك توجد بالقرب من الزنك وفى كردفان (جبل ابوتولو) وفى المنطقة الاستوائية وغرب دارفور .

---

(١) تقويم البلدان الإسلامية ص ٣٣٥

وقد استخرجت خامات الحديد من قرب وادى حلفا ومن جبال البحر الأحمر ومن جنوب كردفان .

وأهم خامات الحديد المكتشفة والمستخرجة حتى الآن فى رجل الفوله جنوب كردفان .

وعلى كل حال فإن المعادن فى السودان لم تُضف بعد قدرا كبيراً فى ميزانية الدولة .

وقد شهدت السنين الماضية قيام عدة مصانع حكومية بالسودان ، وهى مصنع السكر بالجنيد ، ومصنع السكر بخشم القربة ، والمدبغة الحكومية ، ومصنع الكرتون بأروما ومصنع تعليب الفاكهة بواو وآخر بكريمة ، ومصنع تجفيف البصل بكسلا ، ومصنع البلح بكريمة ، وغيرها . وهناك عدة مصانع غير حكومية مثل مصنع النسيج السودانى وشركه الخرطوم للغزل والنسيج ، ومصنع التريكو ومصنع الأسمنت وغيرها من المصانع الهامة(1) .

وتعتبر مصر من أهم البلاد التى تتجر مع السودان ، تصدِّر لها وتستورد منها ، وتتنافس مصر وبريطانيا والهند فى اتخاذ المكانة الأولى بين الدول التى ترتبط بالسودان بروابط تجارية .

التعليم بالسودان :

عند إعادة فتح السودان سنة ١٨٩٨ كانت هناك بالسودان مدرستان فقط ، إلى جانب مدارس تحفيظ القرآن ، وكانت الدراسة فى هاتين المدرستين مقصورة على البنين ، وكان عدد التلاميذ بهما حوالى ثلاثمائة تلميذ فقط .

---

(١) تقويم السودان : ص ٤٤ و ١١٣

وحدد كرومر اتجاه الاستعمار فى السودان نحو التعليم ، وأعلن سنة ١٩٠٢ عن ذلك الاتجاه بقوله « إن الحكومة البريطانية ستعمل على نشر القراءة والكتابة والحساب بين مجموعة معينة من الشبان حتى يصبحوا قادرين على شغل المناصب الصغيرة فى إدارة بلدهم » .

وكان هذا هو المخطط الاستعمارى للثقافة بالسودان ، ولذلك كان تقدم التعليم بطيئاً ومحدوداً ، حتى أن كلية غوردن التذكارية التى أنشئت فى الخرطوم سنة ١٩٠٢ لم تكن غير مدرسة إبتدائية ، وربما لم تؤسس إلاّ للتذكير بالقائد الإنجليزى الذى سقط فى الخرطوم بسيوف أبناء السودان[١] .

على أن التعليم انطلق من عقاله على الرغم من إرادة المستعمر ، وربما كان انطلاقه بسبب كثرة المدارس التبشيرية بالجنوب ، مما ألزم الحكم الثنائى بإنشاء مدارس بالشمال ، ثم إن لدينا مرجعاً يقرر أن الحكومة المصرية حملت عبء نفقات التعليم بالسودان إبان عهد الاحتلال رغبة منها فى المساهمة فى رفع مستوى السكان ، ولولا ذلك لظل التعليم بالسودان محدوداً[٢] ، ونتيجة لتطور التعليم بالسودان بلغ عدد الطلاب سنة ١٩٣١ تسعة آلاف طالب ، وعند استقلال السودان كان هناك أكثر من ١١٠٠ مدرسة حكومية ، بها ما يقرب من مائة ألف طالب ، وبعض هذه المدارس كان للتعليم الإبتدائى وبعضها للثانوى كما كان هناك كليات للمعلمين والمعلمات ونحو ٦٠٠ مدرسة من مدارس التبشير أكثرها فى الجنوب ، كما أن كلية غوردون التذكارية تطورت من مدرسة إبتدائية عند إنشائها إلى مدرسة ثانوية سنة ١٩١٣ مع محاضرات خاصة للمعلمين والمهندسين والقضاة ، وفى سنة ١٩٢٤ افتتحت مدرسة كتشنر للطب ، وفى سنة ١٩٥١ اتحدت

---

(١) جورج كبل : إفريقية المدارية جـ ٢ ص ١٢١ – ١٢٢

(٢) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى جـ ٣ ص ٥٥٥

المدرستان لتؤلفا كلية الخرطوم الجامعية ، وبعد بضعة شهور من الاستقلال أطلق عليها جامعة الخرطوم وضمت عدة كليات للفنون والآداب والقانون والاقتصاد والهندسة والطب والعلوم والصيدلة والطب البيطرى .

وقد عُنى عهد الاستقلال عناية كبرى بالتعليم فى مختلف فروعه ، فأنشأ المدارس الابتدائية فى أكثر القرى وفى كل المدن ، كما أنشأ كثيرا من المدارس المتوسطة والثانوية ، وعُنى عناية كبيرة بالتعلم المهنى وإعداد المعلمين ، أما التعليم الجامعى فقد شهدت السودان منه ثلاثة منابع كبرى أولها جامعة الخرطوم سالفة الذكر التى تضم عدة آلاف من الطلاب والطالبات ، والتى يعمل بها أساتذة من مختلف أقطار العالم بالإضافة إلى الأساتذة السودانيين ، ولهذه الجامعة مكتبة ضخمة تسير على أحدث النظم وبها حوالى مائتى ألف مجلد فى مختلف المواد ومختلف الدراسات .

أما المنبع الثانى للتعليم العالى فيتمثل فى فرع جامعة القاهرة بالخرطوم ، وقد أنشئ ذلك الفرع سنة ١٩٥٥ ويشمل ثلاث كليات هى كلية الآداب وكلية الحقوق وكلية التجارة ، ولكل منها أقسامها الخاصة ، وهذه الكليات وحدات مستقلة عن نظيراتها بجامعة القاهرة ، وتكوّن كل منها وحدة تتبع جامعة القاهرة ، ولهذه الكليات مجلس يرأسه مدير الفرع لبحث الموضوعات الخاصة بهذه الكليات تمهيداً لعرضها على مجلس جامعة القاهرة ، وهناك أيضا مجلس استشارى يمثل فيه السودانيون ليوصى بما يراه من حيث البرامج والمواعيد وشروط القبول وغيرها ، والإقبال على هذه الكليات واسع للغاية ، وطلابها الآن حوالى خمسة آلاف ، وتهتم جامعة القاهرة بالرعاية الصحية والاجتماعية والرياضية لطلاب الفرع بالإضافة إلى اهتمامها بالناحية العلمية .

أما المنبع الثالث فى التعليم العالى ، فهو جامعة أم درمان الإسلامية ،

هى تطوير لمعهد أم درمان العلمى الذى أنشئ سنة ١٩١٢ ، ثم اكتمل نموه فأصبح به قسم للتعليم العالى سنة ١٩٢٤ ، ثم تطور إلى كلية إسلامية فجامعة إسلامية ١٩٦٦ تضم كلية للآداب وكلية للشريعة والقانون وكلية للبنات ، كما تضم معهدين للدراسات العليا ، أحدهما للدراسات الإفريقية والآخر للدعوة الإسلامية وكاتب هذه السطور كان له الشرف أن عمل بهذه الجامعة رئيساً لقسم التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب ، ومع أن المدة التى شغل فيها هذا المنصب لا تتجاوز العامين فإنه بذل مع زملائه جهودا كبرى لخدمة الدراسات الإسلامية واللغة العربية ، وقام بالإضافة إلى محاضراته بالجامعة ، بإلقاء عدد كبير من المحاضرات العامة فى عدد من عواصم المديريات وفى هيئات متعددة ، كما اشترك فى الدورات التدريبية التى أقامتها الجامعة للصحفيين ورجال الإعلام ، ولرجال الدعوة ولأمناء المكتبات ، وأشهد أنه من حق الإخوة فى السودان أن نشيد بتعاونهم وإقبالهم الذى لمسناه واضحاً فى الزملاء من الأساتذة السودانيين ، وفى الطلاب الذين أقبلوا علينا بنهم وحرص شديدين .

وفى السودان مدارس للتعليم الدينى تحت إشراف دائرة الشئون الدينية ، وهى تدير عدداً من المدارس مخصصة لتعليم الثقافة الإسلامية ، وهذه المدارس ذات مراحل ، فهى تستمد طلابها من كتاتيب تحفيظ القرآن المنتشرة فى القرى ، وترتقى بمستواهم فتعلم لهم علوم القرآن وعلوم السنة ، وشيئاً من التاريخ الإسلامى وبعض المواد المدنية تمهيداً لالتحاقهم بالجامعة الإسلامية أو بالكلية الإسلامية التى حلت محل هذه الجامعة إبتداء من سنة ١٩٦٩ .

التعليم فى جنوب السودان :

من الملاحظات التى استرعت انتباهى وأنا أعمل بالسودان ، أنه لا يوجد

طالب واحد من طلبة الجنوب بجامعة القاهرة « الفرع » أو بجامعة أم درمان الإسلامية ، ويقل جداً عدد الطلاب الجنوبين الملتحقين بجامعة الخرطوم ، وهذه الحالة ناشئة عن الماضى الاستعمارى للبلاد الذى حارب اللغة العربية بالجنوب ، فوضع بذلك حائلا دون التحاق الجنوبيين بالكليات والجامعات التى يكون التدريس فيها باللغة العربية .

ولنعد إلى الوراء قليلا لنرى موقف الاستعمار من الثقافة بالجنوب ، وينبغى أن نكرر ما سقناه آنفاً من أن الاستعمار كان حريصاً كل الحرص على عزل جنوب السودان عن الشمال ، وأنه اتخذ وسيلته لذلك بمحاربة الدين الإسلامى واللغة العربية ، ثم بإثارة جماهير الجنوبيين ذوى الدماء الزنجية ضد الدم العربى المنتشر بالشمال ، ورغبة فى أن نجعل كلامنا محدوداً فى نطاق التعليم نقرر أن الحركات التبشيرية بدأت بالجنوب وبالشمال مع مطلع الزحف الأوربى على إفريقية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أو قبله بقليل ، وكان ذلك تنفيذاً للقرار الذى أصدره البابا جريجورى السادس عشر سنة ١٨٤٦ بتأسيس مركز تبشيرى فى السودان يعمل على تنصير الزنوج وإصلاح الحالة الروحية ، وعلى كل حال فإن هذه المحاولة التى امتدت فى شمال السودان وجنوبه ، لم يطل نجاحها لأن الثورة المهدية — وقد قامت باسم الدين — حاربت هذا الاتجاه دون هوادة ، وقضت عليه قضاء تاماً ، ولكن القضاء على الحكم المهدى ، وبسط نفوذ الإنجليز فى هذه البقاع أعطى الزمام لبريطانيا لتتصرف فى الثقافة على نحو ما تشاء ، وفيما يتعلق بالجنوب فإن بريطانيا جعلته كما قلنا من قبل منطقة مقفلة على أهل الشمال وعلى المصريين ، وفتحت أبوابه على مصارعها للمبشرين الغربيين ، فانتشرت بالجنوب مدارس التبشير وكنائس المبشرين ، ولم يقف أمامها إلا المراكز

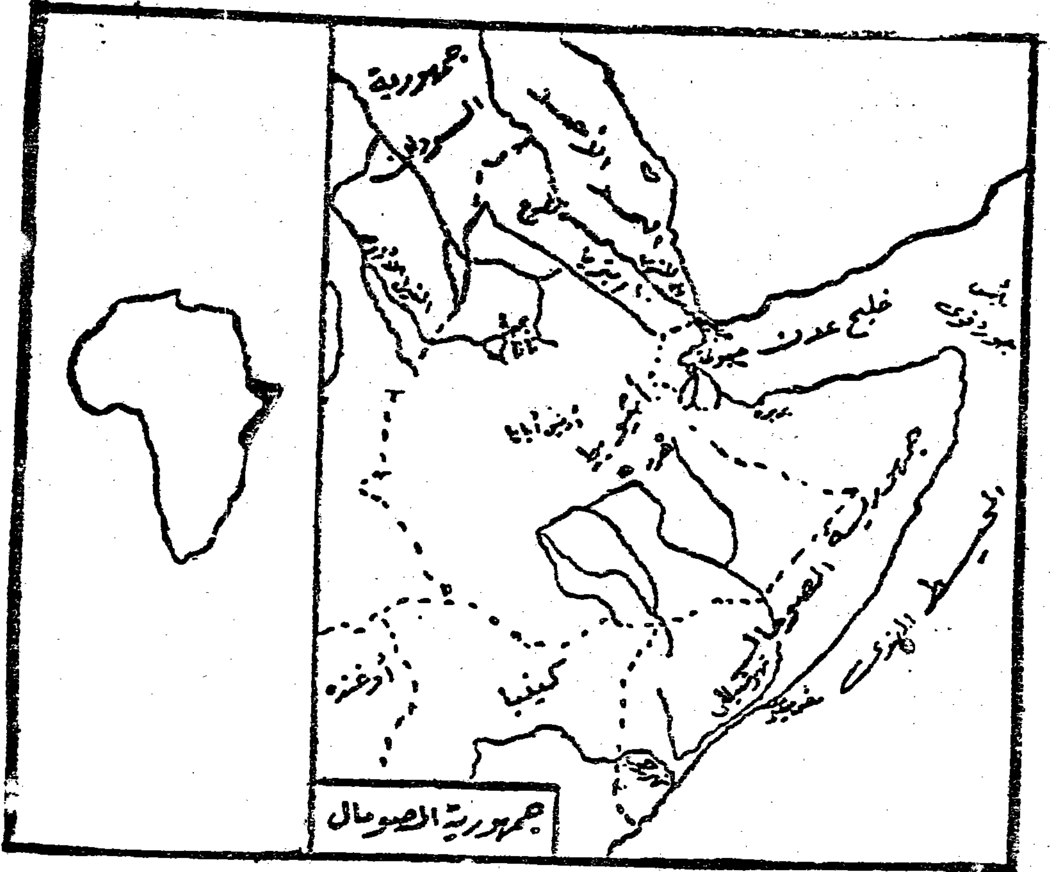
الإسلامية الباهتة التي كانت يظهر وميضها خافتا هنا وهناك في بعض نواحي الجنوب .

ولكن مئات الكنائس وعشرات المستشفيات التي أقامها المبشرون بالسودان لم تحقق نجاحاً يذكر ولكن التعليم على كل حال كان تابعاً لهذه الكنائس ، فمن أراد أن يتعلم تحتم عليه أن يعتنق المسيحية .

وجاء الاستقلال فوجد أن الكنائس بالجنوب تمثل دولة داخل الدولة ، وعند ما أرادت حكومة السودان أن تشرف على التعليم بمدارس التبشير أو توصي ببعض العلوم في مناهجه ، ثارت هذه الكنائس في وجه الحكومة السودانية ، ورفضت قبول توصياتها ، ولذلك خطت حكومة اللواء عبود خطوة مهمة . فأممت التعليم بالسودان ، وعزلت المدارس عن الكنائس لتزاول التزامها الطبيعي في الإشراف على التعليم ، ولكن هذا لم يرض الكنائس لأن المدارس كانت وسيلتها السهلة لتأدية مهمتها ، فثارت هذه الكنائس ضد الحكومة وأعلنت مقاومتها لقرار التخلي عن المدارس ، وكان أن خطا اللواء عبود خطوة ثانية هي أن أمم الكنائس نفسها ، وأعلن أنها ستدار لعبادة الله على يد رجال الدين السودانيين ، ولكن هذا ضاعف الثورة ، وانطلق المبشرون ومن تبعهم ممن يدين بالولاء لهم إلى الغابات ثائرين ، وتعاون الاستعمار وإسرائيل كما قلنا آنفا في مدّ هذه الثورات بالنار والسلاح حتى تبقى متأججة ، وقد سردنا آنفا طرفا منها متصلا بالمرتزق رولف شتاينر ، وهنا نعود إلى التعليم لنقرر أن الدولة تتولاه الآن بالجنوب كما تشرف عليه بالشمال ، وتفتح المدارس وتنشر لغة البلاد والثقافة المنتمية ، وقد دعت المتمردين إلى إلقاء السلاح والتعاون لخير الوطن واعدة من استجاب بعفو شامل .

ويوم يختفي التبشير من السودان ينتشر دين الله ويرتفع علم الإسلام بالدعوة الخالصة كما انتشر في كل مكان .

الصـــومال



موقع الصومال :

تقع جمهورية الصومال الحالية شرقى إفريقية ، ويتخذ الجزء الشمالى من أرض الصومال شكل مثلث رأسه هى رأس « جوردفوى » ثم يمتد فى شكل مستطيل على المحيط الهندى فهو بذلك يطل من ناحية الشرق على المحيط الهندى ، ويطل من ناحية الشمال على خليج عدن ، وعلى هذا فالصومال يشمل الأجزاء

الساحلية التى تبدأ من جنوب مدينة جيبوتى ويستمر حتى جنوب نهر جوبا .
وفى الشمال يقع الصومال الفرنسى ، وفى الغرب إثيوبيا ، وفى الجنوب الغربى
والجنوب كينيا .

والصومال بذلك له موقع استراتيجى خطير لأنه يشرف على بوغاز
باب المندب ، مدخل البحر الأحمر ، ثم هو أقرب نقطة التقاء فى المحيط الهندى
بين إفريقية وآسيا ، وقد اصطلح علماء الجغرافيا على أن يسموا ذلك الجزء
البارز من أرض الصومال « القرن الإفريقى » .

ويجرى فى جمهورية الصومال نهران هما نهر جوبا وشبيلى ويستمدان
ماءهما من جنوب منطقتى عيسى وبالى فى إثيوبيا ويصب نهر جوبا فى المحيط
الهندى قرب مدينة كيسماو ، ويتلاشى الثانى فى الرمال قرب مدينة براوة .

وجمهورية الصومال الحالية لا تسيطر على كل الشعب الصومالى وكل
الأراضى التى يسكنها هذا الشعب ، بل هناك أجزاء كبيرة مقتطعة من الوطن
الكبير أو من الصومال الكبير ، وسيتضح ذلك عند الكلام عن تاريخ الصومال .

السكان : دما ولغة ودينا :

موقع الصومال خلق رباطاً كبيراً بين هذه المنطقة وبين مصر منذ فجر
التاريخ ، فهذا الموقع يحرس مدخل البحر الأحمر من الجنوب ومصر تسيطر
على مدخله من الشمال ، ولهذا يرى كثير من المؤرخين أن رحلات وصلات
واسعة وُجدت بين مصر والصومال فى الأزمنة القديمة ، سواء فى ذلك من
قدموا من مصر إلى الصومال أو ذهبوا من الصومال إلى مصر ، أو من
هاجروا من العرب فى وقت مبكر عبر باب المندب إلى الصومال فمصر ،
وهذا يفسر التشابه الواضح فى الملامح بين المصريين والصوماليين ، ذلك
التشابه الذى لا يزال بارزاً حتى العهد الحاضر ، وقد عثر فى جنوب الصومال

على لوحات أردوازية ترجع لعصر ما قبل الأسرات وعليها نقوش تؤيد الصلات المصرية القديمة بالصومال .

وقد زادت هذه الصلات قوة خلال بعض فترات عصور الأسرات بمصر ، وكانت الصلات التجارية والسياسية عميقة الانصال بين البلدين ، ومن أشهر هذه الصلات بعثة الملكة حتشبسوت إلى الصومال ، وقد نقشت أخبار هذه البعثة على جدران معبد الملكة حتشبسوت بالبر الغربي بمدينة الأقصر ، وقد حملت هذه البعثة هدايا من الملكة لحكام الصومال وعادت بالكثير من الهدايا الصومالية للملكة المصرية .

وكانت صلة الصومال بالجزيرة العربية وثيقة منذ فجر التاريخ كذلك ، فتجارة اليمن عرفت الطريق إلى الصومال ، وبوغاز باب المندب شهد رحلات متبادلة بين الموقعين . وعقب انهيار سد مأرب استقبلت الصومال عدداً كبيراً من المهاجرين العرب ، كما استقبلت أعداداً كبيرة من العرب بعد الإسلام كما سنشرح فيما بعد ، وكان من نتائج ذلك أن انتشرت الأسماء العربية بالصومال انتشاراً واسعاً ، وأوشكت بذلك أن تختفي الأسماء الإفريقية .

ووفدت إلى بلاد الصومال كذلك قبائل الجلا من قلب إفريقية ، ولكن التزاوج بين هذه القبائل والقبائل العربية خلق مزيجاً جديداً يمثل مع الدم المصرى والدم العربى حقيقة أصل السكان بهذه البلاد .

وقد جاء فى كتاب « السلطنة الاستعمارية الألمانية » ما يفيد أن أهل الصومال اختلطوا مع العرب منذ أكثر من ألف سنة ، وأن صورهم وقسماتهم لا تختلف عن العرب اختلافاً كثيراً »[1] .

والصوماليون الذين يرجعون بأنسابهم إلى العرب يسمون « الأشا »

---

(١) نقلا من تقرير الأستاذين عبد الله المشد ومحمود خليفة مبعوثى الأزهر للصومال .

ومعناها الصوماليون الخلص ، أما الذين ينحدرون من قبائل الجلا فيسمون « افويا » ولم تخل قبائل الجلا من الدم العربي الذى امتزج بها على مر العصور .

وقبائل الصومال أشهرها الداروت والاسحاقيون والدر وعيسى والهاوية ، وتسكن الداروت فى شمالى الصومال الجنوبى وفى إقليم الأوجادين ، ويسكن الاسحاقيون فى الصومال الشمالى بهرجيسة وبربرة ، وبعض مناطق الصومال الحبشى ، ويسكن الهاوية والدر بالصومال الجنوبى وتسكن قبائل عيسى فى الصومال الشمالى بمنطقة زيلع وحول جيبوتى بالصومال الفرنسى .

وبالإضافة إلى هذا المزيج الذى تظهر فيه سمات الوجه العربى ، فإن قبائل عربية هاجرت على مختلف العصور واستوطنت الصومال ، وهى تكون الآن أكبر جالية به ، ومعظمهم من اليمنيين والحضارمة ، ويسهمون بنصيب كبير فى حضارة الصومال ونشاطه الاقتصادى ، ويسكنون المدن والقرى .

وهناك كذلك الجالية الهندية الباكستانية ، وأفرادها يسكنون المدن ويقومون بدور الوسيط التجارى بين البلاد وخارج البلاد . هذا بالإضافة إلى الجالية الأوربية التى بدأت مع الاحتلال الأوربى وأكثر هؤلاء من الإيطاليين وفيهم بعض الإنجليز والأمريكان .

وهكذا نستطيع أن نقول إنه لولا ما خلقه الاستعمار من تباعد لكان الصومال بلداً عربياً بحكم الهجرات العربية الواسعة إليه ، وبحكم تعرب السكان الأصليين نتيجة لهذه الهجرات .

ولغة أهل البلاد هى اللغة الصومالية ، وهى لغة متعددة اللهجات ، وتنتشر فى المدن والقرى والبوادى ولكنها لغة تُنطق ولا تكتب ، وليست لها قواعد أو نظم تعليمية ، وقد تسربت كلمات كثيرة وجمل متعددة من اللغة العربية إلى اللغة الصومالية .

أما لغة الأدب والوثائق والكتابة فى الصومال فهى اللغة العربية ،

وهى واسعة الانتشار فى المدن ، ويعرفها رجال الدين بالقرى والبوادى ؛ وهى اللغة التى تكتب بها الحجج وعقود الزواج والوقف ، وهى لغة التعليم بالمرحلة الأولى ، ويتجه أغلب السكان أو كلهم إلى جعلها لغتهم الرسمية ، ولكن الاستعمار حال دون ذلك ، مخافة أن تصبح الصومال بلداً عربى الدم واللغة ، وحاول الاستعمار فرض لغته ، كما حاول أن يبتكر وسائل لكتابة اللغة الصومالية لتقوى هـذه فى مواجهة اللغة العربية الزاحفة ، وعلى هذا تنتشر فى الصومال الشمالى اللغة العربية أولاً ثم اللغة الإنجليزية ، وفى الصومال الجنوبى اللغة العربية ثم اللغة الإيطالية ، وتوجد بالشمال الصحف العربية والإنجليزية وفى الجنوب الصحف العربية والإيطالية .

أما عن نسبة الإسلام بين سكان الصومال فإنها تضع الصومال مع المملكة العربية السعودية أو قريبة جداً منها ، فالإسلام فى الصومال يشمل السكان جميعاً أو لا يدع أكثر من ١ ٪ لغيره من الأديان ، وعدد سكان جمهورية الصومال الحالية حوالى مليونين وإن كان الصوماليون لا يذكرون عددهم بدون أن يذكروا ذويهم وأهليهم الذين يخضعون للحكم الأجنبى وتحتويهم ممالك أجنبية ، وإذا لاحظنا ذلك فإن تعداد الصوماليين هنا وهناك يصل إلى خمسة ملايين ؛ مع ملاحظة أن الإسلام دينهم جميعاً فى كل بلد التحقوا به أو وطن انتسبوا إليه ، ومن أجل هذا اتخذ البرلمان الصومالى فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٦٣ قراراً بأن الإسلام هو الدين الرسمى للجمهورية الصومالية .

كلمة تاريخية :

إن تاريخ الصومال قبل الإسلام يكتنفه شىء من الغموض بسبب الحياة القبلية التى كانت مسيطرة عليه ، وبسبب حياة الارتحال والبداوة التى كانت طابع السكان(١) .

---

(١) جامع عمر الصومالى : تاريخ الصومال ص ١٢ .

وقد بدأ تاريخ الصومال يتضح مع دخول الإسلام هذه الأرض إذ أصبحت الصومال جزءاً من عالم المدنية والحضارة التى ظهر فى العصور الوسطى فى العالم ، ولكن الصومال تعرضت للاستعمار الأوربى منذ عهد مبكر ، إذ اقتحمها البرتغاليون فى أوائل القرن السادس عشر ، وحاولوا هم ومن جاء بعدهم من المستعمرين الأوربيين لهذه البلاد طمس معالم التاريخ التى خطها الإسلام بأرض الصومال ، فقد كان من سياسة الاستعمار أن يدفن محاسن الدول المغلوبة ويعمىّ تاريخها ، وأن ينشر بها تقاليده وأفكاره ، وقد نجح الاستعمار إلى حد كبير فى إخفاء معالم تاريخ الصومال ، ولكننا على كل حال نستطيع أن نقتبس لمحات من الماضى وأن نضم هذه اللمحات بعضها إلى بعض ليتكون منها تاريخ هذا البلد الحبيب .

ولسنا نحب أن نعود إلى تاريخ الصومال القديم اكتفاء بما ذكرناه آنفاً عن علاقته بالمصريين والعرب قبل الإسلام ، ولنمش خطوة خطوة فى إبراز تاريخه الإسلامى ، وفى هذا العهد الإسلامى حكمت هذه البلاد بالعرب والفرس والبرتغال ثم العرب مرة أخرى فمصر فألمانيا فإنجلترا وفرنسا وإيطاليا واقتطعت أجزاء منها كما سنرى فيما بعد ، ضمّ بعضها إلى الحبشة وبعضها إلى كينيا ، وجاء الاستقلال بعد ذلك فحقق تحرير بعض الأرض ، ولا يزال يعمل لتحرير الباقى .

وسنسير خطوة خطوة مع كل مرحلة من مراحل تلك الحياة السياسية التى عاشها الصومال :

العرب والإمارات العربية بالصومال :

يرتبط تاريخ العرب بالصومال مع التاريخ الإسلامى ، ويبدو أن الصومال كان من أسبق البلاد لدخول الإسلام ، فهناك رأى سديد يذكر أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت عن طريق الصومال ، وأن هؤلاء المهاجرين الأول

حطوا رحالهم ببلاد الصومال فترة يغلب أن تكون طويلة نوعاً ما عقب عبورهم البحر الأحمر ، فلقد وجدوا فى إفريقية منجاة من العسف القرشى الذى كانوا يعانونه فى مكة ، وإذا كانوا قد حثوا السير فى الجزيرة العربية ليُفْلِتوا من الكفار الذين كان من الممكن أن يلحقوهم ويُكرِهوهم على العودة ، فإنهم فى الجانب الثانى من البحر أحسوا بالأمن والطمأنينة ، فلم يعودوا يحثون الخطا ، بل مالوا إلى الراحة وحاولوا نشر للدعوة ، ولا يزال فى الصومال قبائل تنتسب إلى عقيل بن أبى طالب ، وهى قبائل الداروت التى ينحدر منها الشيخ الجبرتى المشهور ، وهذا يشير إلى أن المهاجرين أقاموا بالصومال فترة سمحت بأن تبقى جذورهم بها بعد أن استأنفوا السير إلى الحبشة .

وتتابعَ دخولُ الإسلام بلاد الصومال منذ ذلك التاريخ المبكر عن طريق الهجرة أو التجارة ، على أن هناك معالم بارزة دفعت الإسلام إلى الصومال ، وفرضت سيادة ذلك الدين على الساحل والداخل جميعاً ، ومن أهم هذه المعالم ما يروى أن عبد الملك بن مروان (٨٦ هـ) الخليفة الأموى الشهير أرسل جيشاً إلى بلاد الصومال ضمن جيوشه التى بعث بها هنا وهناك تنشر الإسلام ، وتقاوم دولة الكفر والشرك ، وكان الجيش الأموى بقيادة بطل اسمه الأمير موسى من بنى جشعم ، ولم يقابل هذا الجيش جيوشاً صومالية ، وبالتالى لم يدخل معارك حربية ، إذ كانت الأفكار الإسلامية قد سبقت ذلك الزحف ، وكانت الدماء العربية أسبق من الأفكار الإسلامية لهذا المكان ، فلم تَدُرْ معارك حربية ، وإنما انقلبت عملية الجيش إلى دعوة إسلامية ، وإلى تقديم كتاب الله وسنة رسوله لمزيد من السكان ، ونشطت بذلك دعوة الإسلام نشاطاً ملحوظاً .

وهناك موجة إسلامية أخرى جاءت إلى بلاد الصومال فى مطلع القرن الهجرى الثانى ، وكانت هذه الموجة تتمثل فى جماعة الزيدية أتباع الإمام زيد

حفيد الإمام علىّ بن أبى طالب ، وكان هذا الإمام قد خرّ صريعاً عقب ثورته على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ(١) ، ففرّ أتباعه وخافوا اضطهاد الأمويين وعبروا البحر إلى منطقة الصومال .

وإذا كانت الحملة التى أرسلت فى عهد عبد الملك بن مروان ونشرت الإسلام فى الصومال قد انماعت بين السكان ، فإن جماعة الزيدية لم ينماعوا ، وإنما استقروا على الساحل عند مدينة بنادر ، وسيطروا على هذه المنطقة وأقاموا بها إمارات عربيـــة أخذت تباشر الأمور التجارية والزراعية والحضارية ببلاد الصومال .

وهناك موجة أخرى عربية إسلامية دخلت الصومال ونشرت الإسلام به ، وقد جاءت هذه الموجة من بلاد الإحساء على الخليج العربى بزعامة إخوة سبعة ، واستقرت على ساحل بنادر حيث كان الزيديون يعيشون ، ولم يشأ الزيديون أن يدخلوا معارك ضد المسلمين السنيين الوافدين من الإحساء ، فقد كانوا قد كرهوا المعارك بعد أن رأوا إمامهم يُقتل ويصلب ، ومن أجل هذا هجروا الساحل واتجهوا إلى داخل البلاد ، وكان لهذا التصرف أثر بعيد عليهم وعلى السكان الأصليين ، أما الأثر الذى يتصل بهم فهو أنهم انماعوا بين السكان الأصليين ، وبالتالى اختفى المذهب الشيعى الذى كانوا يتمسكون به فإن وجودهم فى محيط أوسع جعل اتجاههم يختفى ، وأما الأثر الخاص بالسكان الأصليين فهو مزيد من نشر الإسلام بالداخل ، إذ كان الساحل من قبل أكثر تأثراً من الداخل فى هذا المجال .

الفرس والإمارة الفارسية بالصومال :

هناك موجة أخرى حملت الإسلام إلى هذه المناطق وتتمثل هذه المرة فى

---

(١) عن ثورة الزيدية ونتائجها اقرأ الجزء الثانى من هذه الموسوعة ص ٢١٢ - ٢١٥ من الطبعة الثالثة .

جماعة من الفرس ، نزحوا من شيراز فى القرن العاشر الميلادى إلى ساحل الصومال ، وحطوا رحالهم فى المكان الذى أقاموا فيه إمارة مقدشو ، وكان اسم هذا المكان من قبل « حُمر » نسبة إلى الحميريين الذين كانوا يعيشون بها منذ أمد بعيد ، وقد بنى الفرس مدينة مقدشو فى ذلك المكان ، وكونوا لهم حولها إمارة بين الإمارات العربية ، وجعلوا مقدشو مقراً لهذه الإمارة .

وتعاون العرب والفرس فى الصومال على خدمة التجارة والزراعة ؛ فقد اشتغلوا بالزراعة وعلموا أبناء البلاد الاشتغال بها ، وأدخلوا إلى أرض الصومال أنواعاً من أشجار الفاكهة ، كما أدخلوا شجرة القطن وكذلك السمسم وغيرها .

وعندما جاء القرن الحادى عشر الميلادى ، كان الإسلام قد شمل هذه المناطق جميعاً ، وأصبح السكان الأصليون يدينون بالدين الحنيف شأنهم شأن الوافدين من العرب والفرس .

وقد عثر البرتغاليون على وثيقة عربية فى مدينة كلوة سنة ١٥٠٥ ، وأمكن منها معرفة بعض الأخبار المهمة عن مدينة مقدشو فى القرون الأولى للهجرة منها أخبار البعثات العربية التى قدمت من الإحساء سالفة الذكر . وتنسب الوثيقة لهم أنهم هم الذين أسسوا مدينتى مقدشو وبراوة ، وتذكر الوثيقة العربية أن العرب أقاموا بهذه المدن حكماً شورياً ظل حوالى ثلاثمائة سنة ، وأن أكبر الهجرات التى وصلت إلى مقدشو كانت سنة ١٤٩ هجرية ، وكانت مكونة من إحدى وثلاثين قبيلة أكثرهم وفدوا من حضرموت(١) .

وليس ذلك مخالفاً لما أوردناه عن نسبة هذه البلدة للفرس ونسبة اسمها للغة الفارسية ، فإن المدينة كانت أقدم وجوداً من الهجرة الفارسية ؛

---

(١) نقلا عن الإسلام فى الصومال : رسالة ماجستير للأستاذ عبد الرحمن النجار ص ٦٥ (لم تطبع بعد) .

وكان العرب أقدم نزوحاً لهذه المنطقة من الفرس ، ويبدو أن الفرس جاءوا إليها واستوطنوها فنسبت إليهم .

ولم يكن هناك حكم واحد يسيطر على إمارات الساحل وقبائل الداخل ، فقد كانت القبائل بالداخل شبه مستقلة ، وكانت كل إمارة بالساحل شبه مستقلة كذلك وقد استطاع الشيخ عمر فخر الدين الصومالى « عمر جلولة » فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى أن يمد نفوذه إلى مقدشو وبعض المناطق المجاورة ثم ورث السلطنة بعده ابنه أبو بكر بن عمر وكان من خيرة السلاطين وتعاقب بعدهم السلاطين الوطنيون الذين حاولوا تكوين مملكة متحدة من هذه الإمارات ، حتى فاجأهم الاستعمار البرتغالى ، وقد سبق أن تحدثنا عن عمر جلولة وسلطنة مقدشو عند كلامنا عن الإمارات والممالك بالساحل الشرقى[١] .

البرتغال فى الصومال :

يرتبط تاريخ البرتغال بالصومال بهذه الرحلة المشئومة التى قام بها الرحالة فاسكودى جاما وطاف بها حول إفريقية واكتشف رأس الرجاء الصالح ، وقد وصل الاستعمار البرتغالى إلى بعض مناطق الصومال سنة ١٤٩٩ م ، ثم أخذ يمتد حتى شمل نفوذه التجارى منطقة الساحل سنة ١٥٠٣ ما عدا مدينة مقدشو ، وكانت فترة النفوذ البرتغالى فترة عصيبة على أهل الصومال ، وقد امتدت حوالى ١٧٠ سنة ؛ كانت بلاد الصومال خلالها مصدراً سلّبَ منه البرتغاليون وغير البرتغاليين من الأوربيين كل ما استطاعوا أن يحصلوا عليه من خيرات البلاد وثرواتها ، وقد اتسم هذا العهد بأنه عهد التدمير والتخريب ، فقد تحطمت خلاله ميناء براوة نتيجة لحملات السلب والنهب

---

(١) انظر ص ٣٩٥ وما بعدها .

التى كان يقوم بها « راكبو السفن » وهى التسمية التى كان يطلقها الصوماليون على الفرنجة فى ذلك الوقت .

عمان فى الصومال :

تطلع أهل الصومال وهم عرب مسلمون إلى عون الدول العربية والإسلامية ضد الغزو البرتغالى ، فأرسلوا رسالة سرية إلى إمام عمان يشرحون له فيها أحوالهم السيئة وما يعانونه من غزو المسيحيين الأوربيين ، ويطلبون منه أن يمد لهم يد العون ليتحرروا ويحموا أرضهم وتراثهم ، وكان طبيعياً أن يستجيب إمام عمان ، فأرسل لهم جيشاً كبيراً فى النصف الثانى من القرن السابع عشر (الحادى عشر الهجرى) وكان يقوده بطل اسمه الأمير سالم الصارمى ، وقد اشتبكت هذه الجيوش فى حرب طاحنة مع البرتغاليين وهزمتهم ، وأرغمتهم على الجلاء لا من الصومال فحسب ، بل من أغلب الموانى التى كانوا يحتلونها فى الشاطئ الشرقى لإفريقية، ومن بينها موانى ممباسة وزنجبار ، ولم يكن لسلطان عمان مطامع بهذه البلاد ، ولذلك غادرتها جيوشه عقب طرد البرتغاليين بعد أن أسلمت السلطة إلى المواطنين ممثلين فى شيوخ القبائل، وهناك مخطوطة صومالية تصور النصر الذى أحرزه القائد العمانى ، كما تصور فرح الصوماليين بالاستقلال ، وقد كتبت هذه المخطوطة مسجوعة وهو أسلوب العصر آنئذ ، ومما جاء فيها « ورجع الأمير إلى عمان مسرور الحال ، وأخبر الإمام أخباراً سارة عن نهاية القتال ، ضد الذين كانوا يفعلون أمور المكروه والمنكر وذكر للإمام أن المسلمين يدعون له بالعمر الطويل ، والخير الجزيل ، لأنه دفع عنهم الذل والبلوى ، وتفضل فسمع منهم الشكوى ، وكان ذلك الوقت سنة ١٠٧٦ وطاب قلب الإمام بذلك »[1] .

---

(١) مخطوطة صومالية نقلا عن الإسلام فى الصومال للأستاذ عبد الرحمن النجار ص ٩٩ .

وهكذا عادت الصومال إلى الاستقلال وحكمت نفسها بنفسها مرة أخرى ، وبرزت من جديد السلطات القبلية ، ولكن ذلك أدىّ إلى جو من التنافس انقلب إلى صراع مرير وخاصة فى منطقة بنادر ، فهبت معارك دامية بين أهلها وكان ذلك فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى و التاسع عشر الميلادى ، وقد انتهز الأوربيون فرصة هذا الصراع فبدأوا يغيرون على الشاطئ يسلبون ثرواته ، ويهددون ساكنيه مما فتح الباب لمرحلة جديدة فى تاريخ الصومال تلك هى مرحلة سلطة زنجبار بالساحل :

زنجبار فى الصومال :

يمكننا هنا أن نقول القولة الشائعة بأن التاريخ يعيد نفسه : فالزحف الأوربى دفع الصوماليين للاستعانة بأمير عمان فى القرن الحادى عشر ، والاضطراب الداخلى بالصومال الذى جاء جنباً إلى جنب مع المحاولات الأوربية للعودة للصومال دفع البلاد مرة أخرى أن تطلب العون من حفيد إمام عمان الذى حماها من قبل وأعاد لها استقلالها ، وكانت سلطنة عمان ومسقط بعد أن حققت انتصاراتها على البرتغاليين بسواحل بلاد العرب وشرقى إفريقية قد اتجهت لاتخاذ جزيرة زنجبار قاعدة لها تواجه بها الزحف الأوربى الذى كان يعاود التطلع لهذه المنطقة ، فنقل السلطان سعيد سلطان عمان مقر سلطنته إلى زنجبار سنة ١٨٣٢ ، وعقب وفاته انقسمت دولته إلى سلطنتين الأولى فى عمان والثانية فى زنجبار ، وحكم ابنه ماجد زنجبار وبعده جاء برغش وفى عهده عادت بلاد الصومال تطلب عونه ، وما إن تلقى برغش دعوة الصوماليين حتى استجاب لها ، وزحف إليها سنة ١٨٧١ ، ولكن نفوذه لم يستطع أن يشمل البلاد كلها بل امتد إلى السواحل الجنوبية فقط (١) .

---

(١) انظر ص ٤٠٨ وما بعدها من هذا المجلد .

مصر فى الصومال :

كانت تركيا قد مدت نفوذها خلال التوسع العثمانى إلى بعض الموانى بالساحل الإفريقى بالبحر الأحمر لتحمى بذلك سلطانها على البلاد التابعة لها على جانبى البحر وهى الجزيرة العربية فى الشرق ومصر فى الغرب ومن أهم هذه الموانى سواكن ومصوع ، ولكن سلطان تركيا على هذه الموانى كان اسمياً لا تقصد به الموانى نفسها بقدر ما يقصد به حماية الأسطول التركى الذى يحمى بدوره البلاد التابعة لتركيا على جانبى البحر الأحمر .

فلما قامت أسرة محمد على بمصر بدأت هذه الأسرة تتجه إلى هذا البحر وتمد نفوذها عليه ، فاستأجر محمد على مينائى سواكن ومصوع من سلطان تركيا ، وبدأ يدب فى هذين الميناءين روح جديدة ، فنشطت التجارة بين مصر وبينهما وتعددت الرحلات السياسية والثقافية .

وفى عهد الخديوى إسماعيل حدث حادثان كبيران يرتبطان بمصر ، الحدث الأول هو مزيد من التوسع فى بلاد السودان وحوض النيل الأعلى ذلك التوسع الذى بدأه محمد على ، والحدث الثانى هو افتتاح قناة السويس «سنة ١٨٦٩» التى ربطت البحر الأحمر بالبحر الأبيض ، وأبرزت ضرورة سيطرة مصر على هذا البحر ، وقد عمل الخديوى إسماعيل على أن تلتقى جهوده بالسودان مع توسعاته على البحر الأحمر ، وكان لمصر آنذاك أسطول فى هذا البحر ، ولهذا الأسطول محطات فى أماكن متفرقة على الساحل الإفريقى ، وقد امتد نفوذ مصر فى هذا العصر إلى زيلع وبربرة ، ثم اتجهت مصر إلى المحيط الهندى ليكون للأسطول محطات به ، وكان ذلك سنة ١٨٧٥ حين أقلعت حملة مصرية فوصلت القرن الإفريقى ، ونزلت إلى الجنوب منه ، أى فى شمالى الصومال ، وهناك استقبلها الصوماليون بالترحاب

لتساعدهم ضد الغزو الأوربى الذى كان يدق أبواب الصومال ، والذى لم يعد سلطان زنجبار قادراً على رده ، وهكذا ارتفع العلم المصرى على هذا الموقع الخطير ، وبعد ذلك واصلت الحملة سيرها ببلاد الصومال تجاه الجنوب ، وكانت تُستَقبَل فى هذه البلاد بالحفاوة البالغة والترحيب المتواصل: فدخلت براوة التى كانت تابعة لسلطان زنجبار ، ورحّب هذا السلطان بالمصريين ، باعتبار أن القوة الإسلامية قوة واحدة تتعاون ضد الزحف الأوربى الذى يتخذ الصليب رمزاً له فى الظاهر أو فى الباطن ، وفى براوة ترك الأسطول المصرى حاكماً مصرياً ، واستمر فى زحفه إلى الجنوب حتى بلدة كيسمايو التى تقع إلى الجنوب من نهر جوبا ، ودخلت السفن المصرية هذا النهر وسارت فيه مسافة طويلة بقصد أن تلتقى بمنطقة البحيرات الاستوائية التى كان الزحف لها يسير من الداخل أيضاً كما قلنا من قبل ، وأطلقت مصر على بلدة كيسمايو « بور إسماعيل »(١) .

وعلى الرغم من الترحيب الواسع الذى لقيته القوات المصرية فى زحفها على ساحل المحيط الهندى ، وعلى الرغم من أن القبائل كانت تجئ من الداخل لترحب بمقدم المصريين لهذه المناطق ، بل جاءت لهم وفود السلاطين من جزر القمر « القومور » يطلبون أن تمد مصر نفوذها إلى جزرهم ، وأن تركز سلطانها بالساحل كله وبالجزر المقابلة له ، نقول على الرغم من ذلك فإن الوقت لم يكن مناسباً لهذا الزحف المصرى لأن الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان قد أطل ، فبدأت الدول الأوربية وبخاصة إنجلترا تضع العراقيل فى الطريق المصرى ، ومن أهم هذه العراقيل دَفْعُ سلطان زنجبار إلى المطالبة بحقوقه فى الساحل المواجه للمحيط الهندى ، إذ كانت قوة الإنجليز يسهل عليها أن تقهر هذا السلطان ، وتمد نفوذها إلى الداخل ، ولكن ذلك لم يكن

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل .

سهلاً فى حالة وجود المصريين بالصومال ، وفى نفس الوقت كان الساحل قد طال على الأسطول المصرى وكانت حمايته أمام الزحف الأوربى عسيرة ، ولم تشأ مصر أن تنزل صراعاً مع المسلمين الممثلين فى سلطنة زنجبار ، فتم الاتفاق على أن يكون الساحل المواجه لخليج عدن حتى القرن الإفريقى تابعاً لمصر بما فى ذلك الصومال الشمالى « البريطانى بعد ذلك » ، واعترفت بريطانيا بذلك فى معاهدة سنة ١٨٧٧ .

وقد بقيت مصر فى هذه البلاد حوالى عشر سنوات ، ومع أن هذه المدة قصيرة إلا أن آثارها واسعة المدى ، فقد أخذت مصر للصومال الشمالى حضارتها وفكرها ونظمها ، ولا تزال الآثار قائمة فى كثير من بلاد هذه المنطقة تشهد بما أدته مصر من خدمات لها ، ولا يزال الناس يتحدثون عن تلك الأيام الغر التى انتشرت فيها حضارة الإسلام وحضارة مصر ببلادهم دون ضغط أو إكراه فلقد تفاعلت هذه البلاد مع مصر ، وكأنها تستعيد روابط الدم والعلاقات القديمة التى ربطت الصومال بمصر منذ فجر التاريخ : ووفدت إلى السلطات المصرية وفود القبائل من الداخل تطلب مزيداً من التدخل للإصلاح والتوفيق بين القبائل المتنافرة ، وتبرز المراجع المصرية أسماء أربعة من زعماء القبائل هم عثمان شيخو وعلى القاضى والحاج محمد عبد القادر ومحمد بشير .

ولم يكن من الممكن أن تطول مدة المصريين أكثر من ذلك ، فإن سعار الاستعمار الأوربى قد اشتد ، ووقعت مصر نفسها فى قبضة هذا الاحتلال سنة ١٨٨٢ ، وقامت الثورة المهدية بالسودان التى تحدثنا عنها من قبل ، وأرغمت قوات مصر على إخلاء كل المناطق التى كانت قد امتد نفوذ المصريين لها ، وأخذت الإمبراطورية المصرية تنكمش إلى حدود مصر ، تاركة السودان والمناطق الجنوبية وتاركة الصومال الشمالى الذى نتحدث عنه الآن ، وقد ثار الصوماليون لسحب القوات المصرية من بلادهم ، ذلك

لأنهم لم يحسوا أنها قوات احتلال ، ولأن هذه القوات لم تكن كذلك فى الحقيقة ، وإنما كانت قوة إسلامية فى بلاد إسلامية ، ولا يعرف الإسلام حدوداً بين أراضيه ، وبخاصة إذا تعرضت منطقة من مناطقه إلى تهديد أجنبي وتدخل صليبى .

وكان من آثار قرار حكومة مصر أن تسحب قواتها أن غضب الشعب الصومالى على هذا القرار وظهر أسفه فأرسل ممثلو بربرة عدة عرائض إلى الحكومة المصرية يطلبون منها عدم الانسحاب ، وقد جاء فى إحدى هذه العرائض « إننا مسلمون ولا يمكن أن ندين بالطاعة إلا لمسلمين مثلنا » .

وكتب سكان هرر عريضة أخرى وقعها ثلاثة وخمسون شخصاً من الأعيان والتجار الوطنيين جاء فيها :

« من خمسين سنة خلت كانت هذه المملكة ميداناً للبربرية يحكمها ملوك صغار ، وكان إهراق الدماء وأعمال السلب والنهب قائمة على قدم وساق ، وقد هيمنت الحكومة المصرية على هذه البلاد قبل تسعة أعوام ، فوطدت النظام والأمن ، وجعلت من مدينة هرر مركزاً من أهم مراكز التجارة فإذا كان قرار الحكومة لا مرد له لم يكن لنا بد من ــ الهجرة مع الجنود وترك أملاكنا للنهب » .

وقد أخلت مصر تحت الضغط الاستعمارى تاجورة وزيلع وبربرة عام ١٨٨٤ ، أما هرر فرفضت حاميتها تنفيذ أمر الإخلاء واستعدت للمقاومة ، ولكن صدور الأوامر بفصل كل متمرد من خدمة الجيش ، جعل الحامية تستسلم للقرار وخرجت الحامية من المدينة فى شهر يونيو من العام التالى سنة ١٨٨٥ وسط أسف الناس وأحزانهم(١) .

---

(١) الأستاذ عبد الرحمن النجار : الإسلام فى الصومال ص ١٠٥ .

الاستعمار الأوربي بالصومال :

عقب انهيار الحكم المصرى ببلاد الصومال زحفت عليه القوات الأوربية لأن بلاد الصومال بلاد ساحلية تعتبر باباً مهماً من أبواب إفريقية ، وقد تقاسمته أوروبا على النظام الآتى :

١ ـ أسرعت إنجلترا فاحتلت المناطق التى كانت تحتلها مصر بالصومال الشمالى ، باعتبارها وريثة مصر والمسئولة عن أملاكها ، ولكنها فى الحقيقة كانت تأخذ المنطقة لنفسها ، لأنها تواجه خليج عدن ، وتحرس الطريق لإمبراطوريتها بالهند ، وقد تم احتلال هذه المنطقة فى نفس الوقت الذى خرجت فيه القوات المصرية ، بل ربما قبل ذلك بقليل « سنة ١٨٨٣ » إذ كانت القوات المصرية فى كل مكان خاضعة لإنجلترا منذ احتلالها لمصر سنة ١٨٨٢ ، وعاصمة هذه المنطقة هرجيسة .

٢ ـ وحتى لا تصطدم إنجلترا بفرنسا تمّ الاتفاق على أن تحتل فرنسا منطقة صغيرة عند مدخل البحر الأحمر هى الصومال الفرنسى الآن وعاصمتها جيبوتى ، وقد عزلت فرنسا هذه المنطقة عن العالم ، وأقامت عليها ستاراً حديدياً يقطع الصلة بين هذه المنطقة وبين جهات العالم ، وبخاصة العالم الإسلامى ، وكانت هذه المنطقة تابعة لمصر أيضاً .

٣ ـ عاد الصومال الجنوبى إلى السلطة الاسمية لسلطان زنجبار ، ولكن هذا كان قد أصبح غير قادر على مقاومة الاستعمار الأوربى ، فعقد معاهدة مع ألمانيا سنة ١٨٨٦ اعترفت له ألمانيا فيها بالسلطان على زنجبار وسواحل الصومال الشرقية ، على أن تكون هذه المنطقة تحت حماية ألمانيا ، ولكن ألمانيا لم تدم على تمسكها بهذه المنطقة فتخلت عنها لإنجلترا سنة ١٨٨٩ ، وسمحت بريطانيا لإيطاليا أن تعقد اتفاقيات مع بعض السلاطين لتأجير الموانى إليها ، وكان

ذلك أساساً لاحتلال إيطاليا للصومال الجنوبى سنة ١٨٩١ وعاصمة هذا الجزء هى مقدشو ، والصومال الإيطالى يمثل الجزء الأكبر من الصومال وكان يمتد فيشمل المنطقة الجنوبية من الصومال التى تتبع كينيا الآن .

٤ ــ الصومال الحبشى وهى المنطقة التى تعرف باسم أوجادين ، وقد زحف لها الأحباش عقب انتصارهم على إمارة هرر سنة ١٨٧٦ ومنطقة الأوجادين منطقة صومالية ١٠٠ ٪ يسكنها حوالى ½ مليون من الصوماليين ولكن بريطانيا سهلت للحبشة باسم الصليب الزحف على هذه المناطق الإسلامية .

وفى سنة ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ زحفت إيطاليا على الحبشة فاحتلتها واحتلت معها منطقة الأوجادين وهرر وبهذا أصبح لإيطاليا جزء كبير فى شرقى إفريقية يمتد من المحيط الهندى إلى قلب إفريقية ويشمل الصومال الإيطالى والأوجادين وهرر وبلاد الحبشة .

وامتد نفوذ إيطاليا فشمل الصومال البريطانى نفسه فى مطلع الحرب العالمية الثانية أى عندما انضمت إيطاليا لألمانيا التى كانت قد حققت انتصارات سريعة على الحلفاء ، فأرادت إيطاليا أن تكسب من انتصارات ألمانيا فانضمت لها ، وسرعان ما استولت على الصومال البريطانى نفسه فضمت رقعة جديدة إلى النفوذ الإيطالى فى هذا المكان .

ولكن ذلك لم يدم طويلاً فإن قوات الحلفاء سرعان ما استعادت خيوط النصر ، ففى سنة ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ انهزمت إيطاليا فاستولت بريطانيا على كل ما كان لإيطاليا فى شرقى إفريقية ، أى على الصومال البريطانى والإيطالى وعلى الأوجادين وهرر والحبشة ، وفى سنة ١٩٤٧ تركت الحبشة لأهلها وأعادت الإمبراطور هيلاسلاسى إلى سلطانه بها ، وبقى سلطانها على الصومال الشمالى والجنوبى وعلى منطقة الأوجادين وعلى المنطقة الصومالية التى تتبع كينيا الآن .

وهكذا آل أمر الصومال كله إلى بريطانيا ما عدا الصومال الفرنسي ، وأرادت بريطانيا أن تكوّن منه دولة واحدة تمنحها الاستقلال الاسمي تحت سلطانها ، ولكن الصوماليين رفضوا هذا الاتجاه ، ومن ثمّ اتجهت بريطانيا إلى تحقيق ما يمكن تحقيقه من أهدافها بالصومال قبل أن تترك الصومال ، فأعادت سنة ١٩٤٩ منطقة أوجادين إلى الحبشة مدعية أن هذه المنطقة كانت ضمن الحبشة قبل استيلاء إيطاليا عليها ، متناسية أن هذه المنطقة منطقة صومالية بحتة ، وأن الحبشة قنعت باستقلالها ، وما كان لها أن تطالب بأن تضم لها الأوجادين التي أخذتها في فترة من فترات قوتها بمساعدة الاستعمار الأوربي الذي كان دائماً يحارب الإسلام ويقوي جانب الأحباش .

وتصرف آخر قامت به بريطانيا قبل أن تترك الصومال وهي أنها ضمت جزءاً من جنوب الصومال إلى كينيا ، وهذا الجزء هو ما يعرف الآن بالصومال الكيني ، وكانت بريطانيا تدرك أن الأمل في بقائها بالصومال ضئيلا ، ولكن هذا الأمل كان واسعاً بالنسبة لبقائها في كينيا ، وكان المسلمون يؤيدون اتجاهات الصومال الاستقلالية ، وكانت إيطاليا بعد أن اتجهت نحو الحلفاء تطمع في أن تستعيد نفوذها بالصومال ، ومن أجل هذه الأسباب كلها رأت بريطانيا أن تأخذ بعض الغنيمة فضمت الجزء الجنوبي من الصومال إلى كينيا وهو جزء صومالي الشعب والأرض ، سكانه مسلمون مائة في المائة تربطهم كل الروابط بإخوانهم بالشمال .

وهكذا لم يبق من الصومال إلاّ جزءان هما الصومال البريطاني في الشمال ، والصومال الإيطالي بالجنوب وسلبت أجزاء ثلاثة من الصومال هي الصومال الحبشي والصومال الكيني والصومال الفرنسي .

استقلال الصومال البريطاني والإيطالي :

عقب الحرب العالمية الثانية ، هبّ الشعب الصومالي يطالب باستقلاله

وكانت ثورته امتداداً لثورة مهدى الصومال التى أشرنا إليها من قبل وثورات صومالية كثيرة ظهرت ضد المستعمرين الأوربيين فى كل مكان ، وإزاء هذه الثورات ، اضطرت الدول الأربع : أمريكا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا إلى عقد اجتماع بينها لتحديد مستقبل الصومال ، وفى هذا الاجتماع ظهرت اتجاهات متعددة كلها كانت ضد الصومال والصوماليين ، ولكن عين المواطنين كانت بالمرصاد ، فاضطرت هذه الدول إلى أن تصل إلى اتفاق يرضى بعض آمال الصوماليين وبخاصة أنّ نادى الشباب الصومالى الذى أنشئ سنة ١٩٤٣ كان قد تحول إلى حزب سياسى سنة ١٩٤٧ وأخذ يتولى الدفاع عن مستقبل البلاد ، ويعارض بشدة الاتجاهات الاستعمارية ، وكل هذا لم يتح فرصة للدول الأربع الكبرى أن تصل إلى اتفاق ، فأحالت الأمر إلى الأمم المتحدة ، ونظرته الجمعية العامة فى دورتها الثالثة ، ثم صدر قرار الأمم المتحدة فى ديسمبر سنة ١٩٥٠ .

وأهم ما ورد فى هذا القرار ما يلى :

١ ــ يصبح الصومال الإيطالى دولة مستقلة بعد عشر سنوات .

٢ ــ خلال هذه الفترة يوضع الصومال الإيطالى تحت وصاية إيطاليا ويتحتم عليها أن تعده للاستقلال خلال هذه الفترة .

٣ ــ يساعد السلطة الإيطالية مجلس استشارى يتكون من ممثلين لمصر وكولومبيا والفيلبين .

وقد أسهمت مصر ومندوبها المرحوم كمال الدين صلاح بنصيب كبير فى تهيئة الشعب الصومالى للاستقلال ، وقدمت خدمات واسعة فى هذا المجال .

أما الصومال البريطانى فقد وعدت بريطانيا بمنحه الاستقلال سنة ١٩٦٠ .

وبناء على ذلك تمّ استقلال الصومال البريطانى فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٠ ، وتمّ استقلال الصومال الإيطالى فى أول يوليو سنة ١٩٦٠ وقد أجمع السكان

الصوماليون بالصومال الإيطالى والبريطانى على تكوين دولة واحدة هى جمهورية الصومال ، على أن يطلق على الصومال البريطانى الإقليم الشمالى ، وتكون عاصمته الإقليمية هرجيسة، ويُطلق على الصومال الإيطالى الإقليم الجنوبى وتكون مقديشو عاصمة الإقليم الجنوبى وعاصمة للجمهورية ، وانتخب أعضاء المجالس التشريعية فى الصوماليين آدم عبد الله عثمان رئيساً للجمهورية ،وأصبحت الجمهورية الصومالية عضواً بالأمم المتحدة ابتداء من سبتمبر سنة ١٩٦٠ :

وبعد الرئيس آدم عثمان تولى عبد الرشيد شارماكى رئاسة الجمهورية وظل يشغل هذا المنصب حتى اغتيل فى أكتوبر سنة ١٩٦٩ وحدثت عقب اغتياله ثورة ٢١ أكتوبر التى سنتكلم عنها فيما بعد .

وفى عهد الاستقلال حقق الصومال ألواناً من التقدم فى المجالات المختلفة .

ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٩ :

عقد الصومال المستقل اتفاقيات فنية وتجارية مع الولايات المتحدة ومع إيطاليا ومع غيرهما من الدول الأوربية ، وقد رأت مجموعة من ضباط جيش الصومال أن هذه المعاهدات تكبل بلادهم ، وتدفعها إلى طريق غير الطريق الذى يريده المواطنون ، كما اتهم هؤلاء الضباطُ بعضَ حكام البلاد بالانحراف عن الأهداف الوطنية ، ومن ثمَّ قامت ثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٩ بقيادة اللواء محمد سياد برى ، وقد كان قيامها بعد ستة أيام من اغتيال الرئيس عبد الرشيد شارماركى وبعد يومين من تشييع جنازته ، وتبذل الثورة جهوداً كبيرة فى ميادين السياسة والاقتصاد والتعليم والإعلام والتصنيع وغيرها لتسير بالصومال قدما نحو مستقبل أنصع .

اقتصاد الصومال :

يمكن القول بوجه عام أن الصومال قد تركه الاستعمار وهو فى حالة ظاهرة من التخلف الاقتصادى ، ولعل أوضح دليل على ذلك أن بالصومال

حوالى ١٥ مليون فدان تصلح للزراعة ، وهى أرض منبسطة خصبة ، ولكن الذى يزرع فعلاً لا يتجاوز مائتى ألف فدان ، وتلك نسبة ضئيلة جداً ، وإذا لوحظ أن الصومال ليست به صناعة ذات بال كما سنرى فإن ذلك يبرز المشكلة ، إذ يصبح القطر قليل الإنتاج وبالتالى يحتاج إلى عون من الخارج .

وتوجد الزراعة فى حوض نهر شبيللى وحوض نهر جوبا ، وقد شُقّت حديثاً بعض القنوات لرى الأرض البعيدة عن النهرين ، كما أنشئت بعض الخزانات للاحتفاظ بالمياه التى كانت تنحدر إلى المحيط أو تبتلعها الرمال ، فإذا أضيف إلى ذلك ما قدمه عهد الاستقلال للمواطنين من الوسائل الحديثة للزراعة أمكن القول أن تطور الإنتاج الزراعى يسير قدماً إلى الأمام ، وبالإضافة إلى حوضى النهرين هناك مزارع تعتمد على الآبار أو على مياه الأمطار .

ويزرع فى الصومال القطن للتصدير والموز والأرز للاستهلاك المحلى وللتصدير ، كما يزرع السمسم والذرة والقمح وقصب السكر .

وفى ضوء ما قدمنا من معلومات عن ماضى الزراعة وما اتصل بها من إهمال ، يتضح لنا السبب فى اهتمام الصوماليين بالثروة الحيوانية، مما جعل تربية الحيوانات هى المصدر الأول للثروة ، ويقدّر ما يوجد بالصومال منها بمليونى رأس من الغنم ومثلها من الماعز وما يقرب من هذا الرقم من الجمال وأكثر من مليون رأس من الأبقار ، والثروة الحيوانية لهذا تعدُّ أهم مصدر للثروة فى الصومال ، ويصدر الصومال أعداداً وفيرة منها ، كما ينتفع بالجلود والأصواف والوبر ، وينتفع باللحوم والألبان للاستهلاك الداخلى وللتصدير .

ومن مصادر الثروة فى الصومال صيد الأسماك ، ويشتغل بهذه الحرفة عدة آلاف من الصوماليين ، ويستعمل السمك فى الاستهلاك المحلى كما يوجد مصنع لتعليب الأسماك لتصديرها .

وتوجد الغابات فى بعض نواحى الصومال ، حيث توجد بها بعض

الحيوانات المفترسة ، وبعض الزواحف ، والغابة مصدر رزق لبعض المغامرين الذين يعملون فى صيد الحيوانات والزواحف لبيعها حية أو الانتفاع بجلودها ، كما يتجه للغابة كثير ممن يجلبون الأخشاب ويجمعون الصمغ .

أما الصناعة فهى مبتدئة بالصومال ، ويوجد منها — بالإضافة إلى مصنع تعليب الأسماك — مصانع لتعليب الفاكهة ولتعليب اللحوم ، ومصانع للسكر وللنسيج والصابون ودبغ الجلود ، وفى برامج حكومات الاستقلال اتجاهات لترقية الصناعة بالصومال من ناحية فتح ميادين صناعية جديدة أو تحسين إنتاج للمصانع الموجودة وتوسيعها .

وقد اكتشف البترول فى الأجزاء الشمالية من الصومال ، ولم يصل بعد إلى كمية تجارية يحسب حسابها فى ميزان الاقتصاد .

والإحصائيات فى مطلع الستينات تقسم الأهالى بالنسبة لنشاطهم الاقتصادى كما يلى :

٤٣ ٪ رعاة رحل يرعون البقر والغنم والماعز والجمال .

٢٨ ٪ رعاة مستقرون يزرعون بعض المناطق بالإضافة إلى الرعى .

١٩ ٪ زراع بالقرب من نهرى شبيللى وجوبا

٦ ٪ صناع وأصحاب حرف يدوية بسيطة

٣ ٪ تجار ومساعدون لهم

١ ٪ يشتغلون بصيد الأسماك وبالقنص بالغابات

التعليم فى الصومال :

يمكن القول بحق أن من مفاخر الإسلام أنه بعث شعاعاً من ضوء العلم فى كثير من الأقطار ، ولولا الإسلام وما ارتبط به من معاهد لعمّ الظلام عدداً كبيراً من البلدان كالذى حدث فى المناطق الوثنية قبل الاستعمار ،

وحسبك أن تعود الوراء قرناً أو قرناً ونصف قرن لترى مصر وليس بها إلا الأزهر وبعض المساجد التى تُعدُّ للأزهر ، والكتاتيب التى بالمساجد ، وقد كانت هذه المعاهد هى مراكز النور فى مصر التى تعد الآن رائدة فى مجال الفكر بين أقطار العلم الإسلامى .

والصومال مثل بارز فى الانتفاع بالإسلام، فتاريخه الطويل ارتبط بالتعليم الدينى ، وكان هذا التعليم يبدأ بالكتاتيب ويسمونها هناك (الدوكسى) وكانت منتشرة فى المدن والقرى ويعلَّم بها كتابُ الله واللغةُ العربية وبعض العلوم الابتدائية ، وينتقل منها الطالب إلى الالتحاق بمساجد المدن ليدرس العلوم الإسلامية فيما يقابل التعليم الإعدادى . وهناك مرحلة إسلامية أنشئت حديثاً هى المعاهد الدينية ، ومنها معهد مقدشو وهو للدراسة الثانوية ، وقد أنشئ معهد الدراسات الإسلامية العالية ويلتحق به الذين أكملوا دراستهم بالمعاهد الدينية الثانوية ، وبعض هذه المعاهد تابع للأزهر .

وحتى منتصف القرن العشرين لم يكن بالصومال مركز إشعاع علمى إلا ما اتصل بالإسلام ، وكانت هذه المراكز ضئيلة الضوء ولكنها على كل حال ثابتة ، وكانت ملاذ الفكر حتى جاء عهد النور فأزال عنها الصدأ وأضاف إليها مراكز ثقافية أخرى كما سنرى . وكان التعليم الدينى فى جميع مراحله باللغة العربية .

وهناك نوع ثان من التعليم يسمى « التعليم الوطنى » وهو نوع من التعليم يضمُّ إلى الدراسات الإسلامية العلومَ الحديثة ولغة أجنبية وقد أنشأه الصوماليون من ذوى الوعى المدنى ابتداء من سنة ١٩٢٤ واتخذوا المنها المصرى مناراً لهم ، وكثيراً ما استقدموا مدرسين مصريين للتدريس بهذه المدارس(١) .

---

(١) George Kimble : Tropical Africa p. 139

ويجيء دور التعليم المصرى بالصومال ، والمدارس المصرية بالصومال تسير تبعاً لخطة المدارس بمصر ، ويقبل عليها أبناء الصومال إقبالا ملحوظاً .

أما التعليم الحكومى فهو حديث النشأة ، فقد ظلت الصومال كما يقول George Kimble حتى أواخر الأربعينات من القرن العشرين دون سياسة تعليمية ، ولا تكاد تعرف شيئاً عن الاتجاهات العلمية الحديثة ، ففى أثناء الاحتلال الإيطالى وقبـــله لم يهتم أحد بالاحتياجات التعليمية للسكان الأصليين[1] ولم يقدم الإنجليز فى المدة التى كان لهم فيها السلطان على الصومال بين ١٩٤١ و ١٩٥٠ أى جهد يذكر فى هذا المجال ، ولكنهم على العموم فتحوا الباب لنوع من التعليم الحكومى الذى نما فى عهد الوصاية ثم تطور فى عهد الاستقلال ، ولكن عهد الاستقلال قابل مشكلتين مهمتين : أولاهما أن المدارس بالإقليم الشمالى كانت ذات طابع إنجليزى والمدارس بالإقليم الجنوبى كانت ذات طابع إيطالى ، وكان لا بد من جعل الطابع الصومالى مسيطراً على الجميع . المشكلة الثانية أن التعليم فى الشمال والجنوب كان باللغة العربية فى المدارس الابتدائية ، وكانت اللغة الإنجليزية أو الإيطالية تقدم كلغة ، أما فى الثانوى فإن التعليم يصير بالإنجليزية أو الايطالية وتقدم اللغة العربية كلغة فقط .

وقد عملت الثورة الجديدة لتصفية هذه المشكلات كما عملت على الإكثار من المدارس حتى تستوعب أكبر عدد ممكن ، وقامت بإنشاء مدارس متنقلة تسير مع الرعاة الرحل وتباشر تعليم صغارهم من مكان إلى مكان ، وعمل عهد الاستقلال كذلك على إنشاء جامعة صومالية ، وقد ظهرت بعض كلياتها للواقع ، كما اتجهت الصومال إلى الإكثار من إيفاد مبعوثين لها لتلقى العلم بالجامعات الخارجية وخاصة بمصر ، وعملت الثورة على اختيار العناصر الصالحة لهذه البعثات ليخضع المبعوثون بهذه الفرصة ويعودوا فيخدموا الثقافة بالصومال .

(١) Tropical Africa, p. 118 .

وقد اهتمت الثورة بإنشاء عدد من المدارس الفنية المهنية ومدارس البنـــات .

وفى أيام الاستعمار كانت هناك مدارس لأبناء الجاليات الأجنبية الأوربية ، وكانت تفتح أبوابها للأجانب فقط ، وقل أن دخل بها أحد من الصوماليين . وبعد الاستقلال بقيت بالصومال مدارس أجنبية تتبع عدة دول حتى صدر قرار بتأميمها .

مصر وتعليم الصوماليين :

ومما حق ينبغى أن تذكر ، هى أن مصر قدمت للصومال والصوماليين جوانب من العون ولمسة فى مجال التعليم ، فقد كان لها بالصومال مدارس إعدادية وثانوية، ولها معاهد أزهرية، وكانت تستقبل عدداً كبيراً من الطلبة الصوماليين الذين يفدون لإكمال دراساتهم بالمعاهد والكليات بمصر ويجدون بها أرق ترحيب وعناية طيبة مشهودة . ولا غرو فالروابط التاريخيـــة التى تربط الصومال بمصر روابط وثيقة العرى عميقة الجذور ، وقد أممت الصومال المؤســسات المصرية بها ، ورضيت بذلك مصر مراعاة للروابط بين الشعبين .

حركات فى الصومال

شهدت الصومال منذ مطلع عام ١٩٧٣ حتى كتابة هذه السطور فى أغسطس ١٩٧٨ مجموعة من الحركات التى يبدو بها بعض التناقض ، وسنشير لها هنا برفق ، رجاء أن تحمل لنا أنباء المستقبل ما يملأ صدورنا بالاطمئنان نحو مستقبل هذا القطر العربى الإسلامى الشقيق .

١ ـ اللغة فى الصومال والانضمام لجامعة الدول العربية :

فى منتصف يناير سنة ١٩٧٣ قرر المجلس الأعلى للثورة الصومالية أن اللغة الصومالية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى البلاد على أن يسرى

ذلك على جميع الصحف والمجلات ، وبعد حوالى عام من ذلك (١٤/٢/٧٤) انضمت الصومال إلى جامعة الدول العربية فشغلت المقعد رقم ١٠ فى هذه الجامعة ، وأعلن وزير الخارجية الصومالى عمر عمرته أن انضمام الصومال لجامعة الدول العربية وضع الأمور فى وضعها السليم . ولاشك أن انضمام الصومال للجامعة العربية شيء يعتز به العرب ، ولكنه يستلزم أن تصبح اللغة العربية هى اللغة الرسمية لهذا الشعب ، وأن تلغى فى الحال كل الإجراءات التى تدفع الصوماليين بعيداً عن المجتمع العربى وعن اللغة العربية .

٢ ـ الفكر الإسلامى فى الصومال :

وهناك كذلك تحول نتطلع أن تعنى به حكومة الصومال ، فقد نشر فى الشهور الماضية كلام كثير عن مواقف تنبثق في الصومال ولاتتفق مع الفكر الإسلامى ، وتسبب عن ذلك احتجاج بعض العلماء وعقوبات صارمة نزلت بالذين احتجوا . . . .

ونحب أن نقول فى قوة ووضوح إن الإسلام دين كل زمان ومكان ، وإنه لا اجتهاد مع وجود نص إسلامى فى قضية من القضايا ، وإن الحقوق التى كفلها الإسلام للمجتمع الإسلامى والمجتمع البشرى بوجه عام حقوق رائعة تكفل كل الخير لهذا المجتمع ، ومايقال عن التجديد والتطور فى غير نطاق الحدود الإسلامية كمكانة المرأة ونصيبها فى الميراث يضر أكثر مما ينفع ، وقد فشل فى الغرب تماماً ، فلسنا فى حاجة أن نقتبس هذا النوع من الحضارة ، فتراثنا فى هذا المجال وفير ، وينبغى أن نتجه إلى الغرب لنقتبس منه فى الصناعة والاختراع ، أما مكانة المرأة فى المجتمع وحقوق المرأة ، فذلك شيء نقف فيه موقف المعلم لا موقف المريد ، فقد قدمناه للمجتمع العالمى ولانزال نقدمه ، ولذلك نرجو أن يهدى الله إخوتنا فى الصومال إلى الرشد وأن يعودوا للوضع السليم .

٣ — الصومال والسوفييت :

وقع الصومال فيما وقعت فيه مصر فى عهد عبد الناصر ؛ فقد غنَّت مصر بما أسماه عبد الناصر وأعوانه (كسر احتكار السلاح) وكانت أغنيةً مدمرة وفكرة مريضة جلبت على مصر عداوات كثيرة وهزائم ساحقة ، ولم تُشْفَ مصر منها إلا بالعودة إلى حيث كنا نشترى السلاح من أمريكا وبريطانيا وفرنسا بعد أن توقف السوفييت عن إمدادنا بالسلاح فى أخطر فترة من فترات التاريخ .

وهكذا فعلت الصومال ، ولكن بشكل أكثر مرارة ، فمن المعروف أن أجزاء واسعة من الصومال ضمتها أثيوبيا فى عصور الظلام مثل « أوجادين » و « هرر » و « الصومال الغربى » .

ولم ينس الصوماليون أرضهم السليبة ، وكان يؤرقهم اقتطاعها من الوطن الأم ، وقد فرح الصومال بسقوط هيلاسلاسى، وظن الصوماليون أن حكام أثيوبيا الجدد سيردون الأرض إلى أصحابها ، ولكن سرعان ما خاب أملهم ، فإن مانجستو زعيم أثيوبيا سار على سيرة سلفه ، ومن هنا اشتعلت الثورة فى الأرجاء الصومالية السليبة وأمد الصومالُ الثوارَ بالسلاح، وفى طريق الحاجة للسلاح تمَّ اتصال بين زعماء الصومال وبين السوفييت ورحب السوفييت بهذا الطلب بشرط أن يدفع الصومال الثمن من تراثه وحضارته وصلاته بالعروبة والإسلام وأن يصبح أحمر الفكر والاتجاه .

ودفع الصومال الثمن ، ويقول الملقون أن اللافتات الحمراء ملأت الجدران فى مقدشيو ، وأحاطت الشارات الشيوعية صور سياد برى إلى جوار صور لينين وماركس وانجلز ، وربما قَبِل الصوماليون أو بعضهم هذا المظهر من أجل تقوية الجيش الذى رُؤِىَ فيه الخلاص ،

ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد فقد استمر الإلحاح بتغيير النظم الاجتماعيـــة والأحوال الشخصية بالصومال بما ينافى الاسلام ، وتحت هذا الضغط صدر قانون يعطى المرأة نفس حظ الرجل فى الميراث ، ويقيد حق الزواج والطلاق ، ويعطى للمرأة حق مطالبة الرجل مقاسمتها شئون التدبير المنزلى ...

ولم يكن هناك أى مشكلة اجتماعية تقضى بإصدار هـــذا القانون ، ولكنها الشورة الغبية من الأصدقاء الجدد الذين أرادوا توسيع الهوة بين الحاكم والمحكوم من جانب ، وبين الصومال والدول الاسلامية والعربية من جانب آخر ..

وهاجم العلماء هذا القانون ولاقوا أقسى تصرف وهم يدافعون عن دينهم وتقاليدهم .

بيد أن السوفييت وجدوا فرصة أوسع لنفوذهم فى إفريقية ، تلك هى صلتهم بأثيوبيا التى لا تخضع لما تخضع له الصومال من علاقات عربية وإسلامية ، وأمد السوفييت أثيوبيا بالسلاح أيضا ، بل بالسلاح الكثير ، وقللوا من حماستهم للصومال ومن إمدادهم بالسلاح وقطع الغيار ، وحاول السوفييت التوفيـــق بين الصومال وأثيوبيـــا ولكن ذلك كان مستحيلا ، بل بالغ الأثيوبيون حينما طلبوا من الصومال عشرة آلاف جنـــدى ليقضوا بها على ثورة أرتيريا ، وفى الوقت نفسه تيقظ العرب فقدموا بعض القروض والمساعدات للصومال ، فقويت الهوة بين الصومال والسوفييت .

إنه درس جديد على مدى إخلاص السوفييت واتجاهاتهم ، لعل الدول تعيه فلا تسقط فيما سقطت فيه مصر والصومال .

جيبوتى دولة مستقلة جديدة بإفريقية

اشتدت فى السنوات الماضية حركة تحرير الساحل الصومالى الذى كان خاضعاً إلى فرنسا ، وقد قويت هذه الحركة التى بدأت نشاطها منذ حوالى عشر سنوات ، وقام ممثلو حركة التحرير بزيارة الأقطار العربية والإسلامية لشرح قضيتهم وكسب تأييد الرأى العام لجانبهم ، وقد أصدرت الجامعة العربية قراراً بتأييد هذه الحركة ، وشكلت لجنة لدراسة الموضوع مع الحكومة الفرنسية ، وأعلن ممثلو حركة التحرير أن الوجود العسكرى بالمنطقة قوى وتطرد قوته باستمرار ، لتظل ميناء جيبوتى متحكمة فى باب المندب والباب الجنوبى للبحر الأحمر ، وأن الاستعمار الفرنسى يخدع الرأى العام العالمى بقوله إن المنطقة تتمتع بالحكم الذاتى ، وإن بها حكومة ومجلساً تشريعياً . والحق أن جميع هؤلاء من الموالين للاحتلال وليست فى أيديهم سلطة حقيقية لأن السلطة الحقيقية متركزة فى يد القوميسير الفرنسى .

وقال زعماء الحركة الوطنية إن حركتهم تقابل بإجراءات قمع وإرهاب ، وإن المعتقلين السياسيين بالمنطقة وصل عددهم إلى حوالى خمسة آلاف .

وقد أنشأت الجبهة مكاتب لها فى القاهرة وطرابلس وعدن والجزائر ودار السلام ، تحاول من خلالها التعريف بالقضية وأهميتها .

وكانوا يدركون دقة العلاقات العربية الفرنسية ، ويتصورون أن تحسن هذه العلاقات ينبغى أن يهيئ الفرصة لحل مشكلاتهم مع فرنسا .

وقد كللت هذه المساعى بالنجاح فأجريت فى ١٩٧٧/٥/٨ عملية استفتاء على مستقبل هذه المنطقة ، واتفق ممثلو البلاد على ضرورة حصول

جيبوتى على الاستقلال ، فقد تقدمت الأحزاب بالبلاد قائمة واحدة ضمت ٦٥ شخصا تحت راية التجمع الشعبي للاستقلال ، وفى هذا الانتخاب أعلن شعب جيبوتى رغبته فى الاستقلال بنسبة إجماعية تقريبا كما انتخب أعضاء القائمة المذكورة أعضاء لأول برلمان للبلاد ، وأختير حسن جوليد رئيسا للدولة .

ونحن نرحب بالدولة الجديدة وندعو لها بالعز والرفاهية .

المسلمون

فى الدول غير الإسلامية بإفريقية

بالإضافة إلى المسلمين الذين شملهم حديثنا فى هذا الكتاب ، وبالإضافة إلى المسلمين الذين يعيشون فى الشمال الإفريقى لا يزال هناك عدد آخر من المسلمين يزيد عن الثلاثين مليوناً يتناثرون هنا وهناك بباقى دول إفريقية ، ومن العجيب أنهم فى دولة كالحبشة أكثرية ولكنها أكثرية مغلوبة على أمرها ، فالسلطة فى يد المسيحيين الذين يجعلون المسيحية طابَعَ الدولة ، ويبرزون الحبشة — بالقوة لا بالعدد — جزيرة مسيحية وسط محيط من المسلمين :

وفى بعض دول أخرى يزيد عددهم قليلا أو ينقص قليلا عن النصف ، وتنتشر اللادينية بين الباقين ، ولكن السلطة مع هذا فى أيدى غير المسلمين لأنه فى عهد الاستعمار اتجه غير المسلمين إلى الثقافة الحديثة وبرعوا فيها ، وفى نفس الوقت أحجم المسلمون عن المدارس التى فتحها الاستعمار خوفاً على أولادهم من المدرسين الأوربيين أن يلقنونهم المسيحية مع ما يقدمون من أفكار(١) ، فلما أحس الاستعمار بنهايته أسلم السلطة لغير المسلمين متخذاً من تفوق هؤلاء الثقافى أساساً لذلك ، ولكن الحق أنه لم يطمئن قط للمسلمين ورأى أن التعاون مع سواهم أيسر وأنجح .

وفى هذه الدول لا يمكن أن نعتبر المسلمين أقلية ، لأنهم فى هذه الحالة لا يمثلون طرفاً فى ثنائية دينية ، بل يتحرك المسلمون فى فراغ دينى ، وبخاصة إذا لاحظنا أن الأكثرية الوثنية لا تُعادى الإسلام غالباً بل تفتح أبوابها إليه ، وقلوبَها لاعتناقه ،وأبرز مثال لهذا الوضع دول غربى إفريقية الساحلية ابتداءاً

---

(١) Ward : History of Africa p. 108

من سيراليون إلى داهومى بما فى ذلك فولتا العليا، وينطبق هذا أيضاً على الكمرون والكونغو وشرقى إفريقية وموزامبيق وغيرها ، وفيها جميعاً يزحف الإسلام حالياً بقوة ، ويرجح أن يحقق الإســلام بها أكبر توسع خلال العقد القادم[1] .

ولعل الكمرون هى أبرز حالات الأقليــات الكبيرة - ففيها يبلغ تعداد المسلمين ثلث السكان أو يزيد ، وفى وحدات غربى إفريقية تحتل الأقليات الإسلامية موقعاً شمالياً غالباً ، وتتفاوت فى أهميتها ، فالأغلبية فى توجو وثنية ، ولكن المتسلمين كثيرون ، وفى فولتا العليا يكثر المسلمون وهم من الطوارق والفوله ، وفى ليبيريا جماعات من الماندى شديدة التمسك بالإسلام ، وفى غينيا البرتغالية يؤلف الماندنجو والفوله حوالى مائتى ألف ، ويكثر المسلمون فى غانا كثرة بالغة ، ولكن الدولة العلمانية تحد نشاطهم ، ويقرر الباحثون أن أكبر مجال للتقدم الإسلامى فى هذه المنطقة هو فى فولتا العليا وساحل العاج وسيراليون[2] .

أما فى شرقى إفريقية وموزمبيق فهناك ما يزيد على ثلاثة ملايين من المسلمين ، والإسلام هنا قديم الجذور ، إلا أنه تلقى موجة جديدة فى القرن الحالى ، هى هجرة الهنود إلى الساحل الشرقى ، ويكثر المسلمون فى بعض مناطق شرقى إفريقية لدرجة تخلق اتجاهات انفصالية أحياناً كما هو حادث فى الصومال الكينى الذى يحاول سكانه الاستقلال عن كينيا أو الانضمام للصومال الكبير[3] .

وفى اتحاد جنوب إفريقية يدوى صوت الإسلام عن طريق الهجرات

---

(١) Lewis : Islam and Nationalism in Africa p. 81

(٢) دكتور جمال حمدان : إفريقية الجديدة ص ٢٧٨ - ٢٧٩

(٣) Statesman Year - Book

الهندية والماليزية ، وقد انضم لها عدد من السكان الأصليين مما جعل الجالية الإسلامية يُحسب حسابها ، وإن كان عددها حتى الآن محدوداً للغاية .

وبين أيدينا إحصائية عن المسلمين في الدول غير الإسلامية (١) ، وترفع هذه الإحصائية عدد المسلمين في بعض الأقطار فتجعلهم أغلبية ، وقد يكون ذلك صحيحاً ولكن طابع هذه الدول ليس إسلامياً على كل حال ، وفيما يلي نورد هذه الإحصائية متجهين – تبعاً لخطتنا – من الغرب إلى الشرق :

الدولة	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين المئوية
غينيا البرتغالية	٦٠٠٠٠٠	٣٣٠٠٠٠	٥٥ ٪
سيراليون	٢,٤٥٠٠٠٠	١,٥٩٢٥٠٠	٦٥ ٪
ليبريا	٢,٥٠٠٠٠٠	٧٥٠٠٠٠	٣٠ ٪
ساحل العاج	٣,٣٧٥٠٠٠	١,٨٥٦٢٥٠	٥٥ ٪
فولتا العليا	٤,٤٠٠٠٠٠	٢,٤٢٠٠٠٠	٥٥ ٪
غانا	٧,٣٩٠٠٠٠	٢,٢١٧٠٠٠	٣٠ ٪
توجو	١,٥٢٠٠٠٠	٨٣٦٠٠٠	٥٥ ٪
داهومي	٢,٠٥٠٠٠٠	١,٢٣٠٠٠٠	٦٠ ٪
الكمرون	٤,٩٠٧٠٠٠	٢,٦٩٨٨٥٠	٥٥ ٪
جابون	٤٤٨٠٠٠	١٧٩٢٠٠	٤٠ ٪
الكونغو برازافيل	٩٠٠٠٠٠	١٣٥٠٠٠	١٥ ٪
إفريقية الوسطى	١,٢٥٠٠٠٠	٧٥٠٠٠٠	٦٠ ٪
إثيوبيا	٢٣,٨٠٠٠٠٠	١٤,١٨٠٠٠٠	٦٠ ٪

---

(١) نقلا عن « تقويم البلدان الإسلامية » ص ٤٧٦ – ٤٨٢ .

الدولة	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين المئوية
أوغندا	٦,٨٤٥٠٠٠	١,٣٦٩٠٠٠	٢٠ ٪
كينيا	٨,٦٧٦٠٠٠	١,٦٤٨٤٤٠	١٩ ٪
تنزانيا	٩,٨٧٥٠٠٠	٦,٠٢٣٧٥٠	٦١ ٪
موزمبيق	٦,٦٥٠٠٠٠	١,٦٦٢٥٠٠	٢٥ ٪
ملاجاشي	٥,٧٣٠٠٠٠	١,١٤٦٠٠٠	٢٠ ٪

رئيس جمهورية إفريقيا الوسطى

يشهر إسلامه

من الأحداث المهمة التى ترتبط بجمهورية إفريقيـــة الوسطى أن رئيسها « جان بيدل بوكاســـا » دخل الإسلام وأعلن ذلك على يد إمام مسجد بانجوى العاصمة ، وقد تم هذا الحدث العظيم على الرغم من أن الزعيم بوكاسا قد تربى فى مدارس البعثة الكاثوليكية .

والزعيم بوكاسا بدأت رياسته لجمهورية أفريقيـــة الوسطى فى مطلع سنة ١٩٦٦ وهو يناهض الاتجاهات الموالية للاستعمار ، ويبذل كل جهد ليحقق لبلاده استقلالا كاملا لاتشوبه شائبة .

وبوكاســـا من الزعماء الإفريقيين الذين يؤمنون بقيمة التعاون العربى — الإفريقى لصالح القضايا المشتركة ، فخلال حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، أعلن قطع بلاده لعلاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل .. وقام بعـــدة جولات فى كثير من الدول العربية ، وقد زار مصر عدة مرات ، منح خلالها قلادة النيل .. ومن كلماته حول التعاون العربى الأفريقى ، قوله :

إن الدماء العربية تجرى فى جسد الأفارقة ، كما أن الدماء الافريقية تجرى فى جسد العرب ، ولما كنت أعلم أننى شخصيا لى أجـــداد من العرب ، فإننى شديد القرب منهم .

والاعتقاد السائد هو أن دخول الرئيس بوكاســـا الإسلام سيفتح الباب أمام حشد من المواطنين ليعلنوا دخولهم الإسلام ، ونحن نحيى الرئيس بوكاسا ونرجو الخير له ولبلاده ، ونرحب بإفريقية **الوسطى**

أريتريا

بين الحبشة وبين الاستقلال

إن حديثنا عن أريتريا سيتصل إتصالا وثيقا بالحديث عن الحبشة أو اثيوبيا التى تناولتها دراساتنا فى هذا الجزء فى عدة أمكنة ، ولكن الحبشة التى تكلمنا عنها فى الطبعة الأولى كانت حبشةَ هيلاسلاسى الذى كان يقيم أعياد ميلاد صاخبة لكلابه وشعبُه يسقط من الجوعِ ، كانت الحبشةَ التى تمثَّل مخلب القط الذى استعمله الاستعمار الأوربى ليضرب الإسلام والمسلمين فى كل اتجاه بإفريقية ، ولكن الحبشة فى هذه الطبعة هى حبشة العلمانية كما أعلن زعماؤها الجدد ، الحبشة التى تخلصت من هيلاسلاسى ويرجى أن تتخلص من مساوئه، وأن تتحرر المناطق التى ضمها بظلمه وجبروته ، وفى مقدمتها أريتريا .

ومن أجل هذا نبدأ حديثنا عن أريتريا بالتقاط فقرات مما أوردناه فى الصفحات السابقة مصوّرين بها الماضى ليكون ذلك أساساً لدراساتنا عن الحاضر والمستقبل .

الحبشة أو أثيوبيا :

الحبشة — كالأحابيش — معناها التجمعات التى لا تربطها قومية أو وطن ، والكلمة مأخوذة من تحبّشوا أى تجمّعوا[1] ، ومن أجل هذا لا يميل قادة هذه البلاد إلى استعمال هذه الكلمة اسما لبلادهم لأنها توحى بالتفكك ، ويفضلون أن تسمى بلادهم « اثيوبيا » ومعناها الوجه المحروق » ولكن

(١) الروض الانف جـ ٢ ص ٣٣١

كلمة « الحبشة » كانت الاسم الشائع استعماله من قبل ؛ ولذلك سنستعمل كلمة « الحبشة » حتى نصل إلى العصر الحديث ، فنتجه إلى استعمال كلمة « اثيوبيا » .

عزلة الحبشة فى الماضى :

ولإبراز دور الحبشة العدوانى يتحتم أن نعود إلى الوراء لنتعرف على حقيقة الحبشة قبل أن تبدأ دور العدوان والتسلط ، ويقول المؤرخون إنه فى خلال ازدهار مملكة عدَل فى القرن الخامس عشر كانت الحبشة محصورة بين الممالك الإسلامية ، فعدَل تحيط بها من الجنوب والشرق ، والسودان تحيط بها من الشمال والغرب ، ولم يكن للحبشة موانٍ على البحر الأحمر ، وقد أدى ذلك إلى تدهور الحبشة وعزلتها عن العالم الخارجى ، فرقدت فى ثبات عميق عدة قرون ، نسيت خلالها العالم ، ونسيها العالم ، ووصل الأمر إلى أن أصبح عدد كبير من الناس لا يعرفون فى أى قارة من قارات الأرض تقع الحبشة[1] .

مصر والحبشة :

وفى القرن التاسع عشر كان اتساع الإمبراطورية المصرية قد بلغ مداه فى إفريقية ، وامتدت حدودها فى عهد الخديوى إسماعيل امتداداً واسعاً ، فشملت هرر ومنطقة خط الاستواء ، ومنطقة بحر الغزال ، وضربت فى قلب إفريقية حتى قريباً من بحيرة تشاد كما شملت ساحل البحر الأحمر كله ، وهيمنت على مداخله ، وعلى الجزء الواقع إلى الشرق منه وإلى الجنوب ، ضامّةً بلاد الصومال حتى مصب نهر جوبا ، وكان التوسع المصرى بإفريقية يصحب معه كل أساليب الحضارة والمدنية ، وكل جوانب التعارف والود ، ولذلك ازدهرت

---

(١) انظر صفحة ٣٩١ من هذا الكتاب

كل البقاع التي امتد لها الحكم المصرى وانتشر بها الإسلام وروح الإسلام[1]

وتستحق أريتريا هنا كلمة خاصة ، فإن العثمانيين كانوا قد ضموا لهم هذه المنطقة منذ احتلالهم اليمن فى مطلع القرن السادس عشر ، فقد كانت هذه تابعة لليمن ، فلما امتد نفوذ العثمانيين لليمن مدوا كذلك نفوذهم إلى أريتريا ، وعندما تقدمت فتوحات محمد على فى السودان ، استأجر مصوع عاصمة أريتريا آنذاك[2] كما استأجر المنطقة المحيطة بها من السلطان العثمانى لتكون هذه المنطقة وسيلة تربط مصر بفتوحاته بإفريقية عن طريق البحر الأحمر ، فلما جاء عهد إسماعيل لم يكتف هذا بعملية الاستئجار ، كما لم يكتف بهذه المناطق ؛ ففى سنة ١٨٦٥ تنازل الباب العالى لمصر نهائياً عن منطقة أريتريا وسواكن ، ثم توالى التوسع المصرى على نحو ما سبق ، وجذبت أريتريا إليها عناصر عربية كثيرة ، ووجهت مصر لها عناية خاصة ، ولذلك سرعان ما انتشر بها الإسلام واللغة العربية ، وأصبحت جزءاً مهماً من الوطن العربى الإسلامى .

الاستعمار يصارع الامتداد المصرى بإفريقية :

اتجه الاستعمار الأوروبى بضراوته نحو إفريقية ، عقب انتصار المسيحيين على المسلمين فى أسبانيا فى نهاية القرن الخامس عشر ، ولكن أمريكا ظهرت للعالم آنذاك فجذبت أنظار القوى الأوربية ، وفى أواخر القرن الثامن عشر استقلت أمريكا ، وطردت الغزاة الأوربيين ، فاتجه هؤلاء من جديد إلى إفريقية ، ولكنهم وجدوا النفوذ المصرى متغلغلا ، والإمبراطورية ممتدة هنا وهناك ، كما وجدوا الإسلام قوة تعارضهم ، فاتجهوا لمحاربة مصر ومحاربة الإسلام ، وفيما يتعلق بمحاربة مصر

---

(١) انظر صفحة ٣٣٥ من هذا الكتاب .
(٢) العاصمة الحالية أسمره أما مصوع الآن فميناء مهم لأريتريا .

اتخذوا وسيلتهم لذلك عزل الخديوى اسماعيل بدعاوى باطلة من أسباب عزله ، وبإبعاد هذا الخديوى العظيم خلا الجو للاستعمار الأوربى فى إفريقية ، إذ أن الاستعمار جاء بالخديوى توفيق ، . هو شخصية ضئيلة سيطر عليها الاستعمار ، واستطاع عن طريقه أن يُجرِىَ تصفيةً للامبراطورية المصرية بإفريقيه ليخلو له الجو ، وفيما يتعلق بالإسلام عثر الاستعمار على الحبشة المسيحية ، فنفث فيها القوة ، واستعملها وسيلة لضرب الإسلام فى المناطق المحيطة بها ، بعد أن وعدها بنصيب من أشلاء الإمبراطورية المصرية التى تقرر القضاء عليها(١) .

توزيع الغنيمة وضم أرتيريا إلى ايطاليا :

وعندما سقطت الامبراطورية المصرية استولت الحبشة على هرر واستولت إيطاليا على أرتيريا وعلى الإقليم الشرقى من الصومال ، وسُمِّى الصومال الإيطالى واستولت فرنسا على منطقة جيبوتى وميناء إيبوك وسميت الصومالى الفرنسى ، ونالت إنجلترا نصيب الأسد إذ احتلت مصر ، وباسم نفوذها فى مصر أخذت زيلع وملحقاتها ، والإقليم الشمالى من الصومال ، وسيطرت على أوغندا وعلى السودان الذى استعادته باسم مصر ثم استبدت به ، وقد تم لها هذا بعد أن تركت لشركائها نصيباً من الغنيمة كما أوضحنا آنفاً(٢) .

أريتريا منع إيطاليا إلى الحبشة :

واتجهت إيطاليا فى المناطق التى احتلتها وبخاصة فى إريتريا إلى القضاء على العنصر الوطنى قضاءاً تاماً ، لتدفع بالإيطاليين إلى مساكن هؤلاء وأراضيهم ،

---

(١) انظر ص ٣٣٦ وما بعدها من هذا الكتاب .
(٢) انظر ص ٣٣٩ من هذا الكتاب .

وحاولت لتحقيق ذلك أن تضرب بعض القبائل بالبعض الآخر ، وأن تدفع بالسكان بعيداً عن المدن والمناطق الخصبة ،وأن تقضى على الإسلام واللغة العربية. ولكن إيطاليا فشلت فى كل ذلك ، ولم يتحقق لها أى شىء مما سعت إليه ، وخسرت إيطاليا خسارة اقتصادية فادحة وهى تعمل لرعاية المستوطنين الجدد الذين جلبتهم إيطاليا لهذه المناطق ، فأصبح الاستعمار عبئاً على الخزانة الإيطالية وحقق الصراع الوطنى أهدافه ضد الجيش الإيطالى المحتل ، فجعله يعيش فى ذعر مستمر وقلق دائم .

ولما وقفت إيطاليا ضد الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، وانهارت فى هذه الحرب ، اتجه الحلفاء بكل قواهم لمساعدة الحبشة التى كان موسولينى قد استولى عليها ، ولم يكتف الحلفاء بإعادة الاستقلال للحبشة ، ولكنهم منحوها ومنحوا إمبراطورها هيلاسلاسى كل تأييد ومساعدة ، وكان من ذلك أن اتجهوا إلى خلق منفذ له على البحر الأحمر ، فاتجهت الأنظار إلى أريتريا وكانت الدول الأربع الكبرى قد عقدت معاهدة سلام مع إيطاليا سنة ١٩٤٧ وبمقتضاها تنازلت إيطاليا عن مستعمراتها فى افريقية ، وفشلت الدول الأربع فى الوصول إلى اتفاق بشأن القضية الأريترية ، وذلك بسبب اتجاه بعض هذه الدول لضم ارتيريا إلى الحبشة ومعارضة البعض الآخر ، فأحيلت القضية إلى الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٨ . وفى ديسمبر ١٩٥٠ اتخذت الجمعية العامة قراراً بارتباط أريتريا مع أثيوبيا فى اتحاد فيدرالى ، وأكد القرار على مبدأين أساسيين هما سيادة أريتريا ضمن نظام اتحاد حقيقى ، وحكم ديمقراطى لأريتريا .

ولكن سرعان ما مارست حكومة الإمبراطور بواسطة جيش الاحتلال الأثيوبى سياسة الإرهاب ، وشنت حرباً ضروساً على معالم الكيان الأريترى مركزة على محو اللغة العربية ، واعتقلت كافة العناصر القيادية الشعبية ، وناهضت الإسلام مناهضة جبارة .

وإزاء هذه الاعتداءات شكل الشعب الأريترى وفداً إلى البلاد العربية والجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة ليشرح لها مأساة الشعب الأريترى . وترأس الوفد إدريس محمد . وفى نفس الوقت بدأ النشاط السياسى ينتشر بين الجماهير الذى انبثق عنه جبهة تحرير أريتريا . وفى سبتمبر ١٩٦١ أعلنت الجبهة الثورة المسلحة ، وكان رد الحكومة الأثيوبية أن أعلن الأمبراطور فى يونيو ١٩٦٢ أن أريتريا جزء لا يتجزأ من أثيوبيا وأنه لن يتخلى عنها بأى حال .

ولكن الثورة المسلحة ظلت مشتعلة لتحقق الاستقلال لأريتريا .

وبدأت بذلك مشكلة أريتريا تتعقد ، وانشغلت الدول العربية عن أريتريا فقد كان هناك ود عميق بين هيلاسلاسى وجمال عبد الناصر ، فضعفت الأصوات التى تساعد الشعب العربى الشقيق ضد هيلاسلاسى عدو الإسلام والعروبة والإنسانية .

كلمة عن حبشة هيلاسلاسى :

على أن أريتريا لم تكن وحدها فيما عانته من حكم الإمبراطور العجوز ، فقد عانت الحبشة كلها حكم هذا الطاغية ، ومن أجل هذا ينبغى أن نقف هنا لنلقى بعض الأضواء على حبشة هيلاسلاسى معتمدين على كلمات الثقات الذين زاروا الحبشة حديثاً ، وعلى كلمات المعلقين السياسيين الذين يتابعون الأحداث بالإمبراطورية المزعومة .

يصف شاهد عيان جموع الناس فى إثيوبيا عقب صلاة عيد الفطر فيقول : كانوا خليطاً غريباً من الناس ، يلبسون خليطاً من الأزياء ، وكان المصلون يشقون طريقهم بصعوبة وسط مئات الشحاذين العميان والعرج والمرضى بأمراض خبيثة الذين كانوا يتصايحون بكلمات السؤال والاستجداء ، وكان منظرهم مثيراً ،

وغير محتمل، يثير مشاعر متباينة بين الشفقة عليهم والغضب على السلطات التى دفعت بهم إلى هذا الدرك الأسفل من الفقر ، فإذا وصل الإنسان قلب العاصمة وجدها عامرة بالبارات والمواخير ، ورأى الفتيات يقفن فى ميكروجيب قبيح مبهكات ليضيفوا اللمسات الأخيرة فى صورة غريبة لعالم فريد معقد ومنعزل ، عالم اسمه « المجتمع الاثيوبى » .

وإثيوبيا بلاد متناهية فى التباين والتنافر فى طبيعتها وجوها وما بها من لغات وعادات وأجناس تتألف من كتل تصل العداوة بين بعضها والبعض الآخر إلى منتهاها .

وإذا انحدر الإنسان خارج العاصمة ، أو فى الأحياء القديمة من العاصمة نفسها سرعان ما يجد نفسه وقد تراجع إلى الوراء عدة قرون ، ويحس بأن الشعب لا يكاد يشعر بكيانه أو بعلاقته مع الدولة .

وأشهر قبائل الحبشة هى قبائل الأحباش (أمهره) ، وقبائل الجالا الزنوج، وقبائل الصوماليين ، والتنافر شديد جداً بين هذه القبائل بعضها والبعض الآخر ، وقبائل الأحباش فى يدها الحكم منذ عدة قرون ، ولكن قبائل الجالا تصارع الأحباش ، وتحاول أن تسلب منهم السلطان ، وقبائل الجالا تدين بالإسلام ، وهى من أنشط قبائل الحبشة وأكبرها وأكثرها قدرة على العمل ، وهى تمتلك مناطق واسعة ، وتشتغل بالزراعة وتسيطر على التجارة فى المدن ، وكثير من المراقبين يتصورون أن الحبشة قد تدخل فى عصر جديد تكون الغلبة فيه لهذه القبائل .

وينص الدستور الأثيوبى الذى صدر سنة ١٩٥٥ فى المادة الثانية على ما يلى :

تظل السلطة الإمبراطورية متصلة فى سلالة هيلاسلاسى الأول ، حفيد الملك سهلاسلاسى الذى ينحدر بدون انقطاع من أسرة منليك الأول ابن ملكة أثيوبيا ملكة سبأ والملك سليمان ملك بيت المقدس ، وشخص الإمبراطور مقدس لا منافس لسلطته ، ولا نزاع فى حكمه ، وتقع على الإمبراطورية مسئولية حماية « المذهب الأرثوذكسى » .

وغالبية السكان فى اثيوبيا مسلمة ، ولكن هيلاسلاسى جعل الحبشة جزيرة مسيحية فى بحر من الإسلام ، والإمبراطور العجوز من مواليد عام ١٨٩١ ، واسمه الأصلى تافرى ، أما كلمة هيلاسلاسى فمعناها باللغة الأمهرية « قوة الثالوث » وامبراطور الحبشة قبل هيلاسلاسى اسمه ييج ياسو ، وقد اعتنق الإسلام ، وكان تافرى متعصباً للأرثوذكسية وواليا على بعض المقاطعات ، فأثار جانباً من الجيش ضد ياسو وأكرهه على التنازل عن العرش ، وأجلس تافرى على العرش فتاة من الأسرة المالكة ، ونصب نفسه وصياً عليها ، وفى سنة ١٩٢٨ توج تافرى ملكا على أثيوبيا ثم أمبراطورا .

وقد شاهد الملقون السياسيون حفلات صاخبة كان الامبراطور يقيمها بقصوره لأعياد ميلاد كلابه ، وفى نفس الوقت كان الشعب يتساقط من الجوع والعوز ، وكانت بعض المؤتمرات الدولية تعقد بعاصمة أثيوبيا ، وكان الامبراطور يقيم حائطاً من الصفيح فى الطرقات التى يخترقها المدعوون من المطار إلى قصور الضيافة حتى يخفى خلفها الأكواخ والبيوت المتداعية .

وكان من الضرورى أن يختفى مثل هذا الرجل عن مسرح السياسة ، فهو م الملك خان شعبه وعاش مترفاً على أنقاضه وبسبب جوعه ، ومما أطال عمر الرجل أنه كان قاسياً مع معارضيه ، وعندما هبَّ انقلاب ضده سنة ١٩٦٠ وهو فى البرازيل عاد بسرعة إلى بلاده واستطاع أن يقضى على الانقلاب ، وشنق

الذين قاموا به في شوارع العاصمة أمام أهليهم وذويهم ، ولكن لكل إنسان نهاية ، وسنرى فيما يلي خطوات هذه النهاية :

الإمبراطور في الطريق إلى النهاية :

لا يستطيع الشر أن يدوم وإن استطاع أن يطول ، وقد طالت شرور هيلاسلاسي ليس على المسلمين في الحبشه فقط ، ولا على المناطق الإسلامية كأرتيريا التي استولى عليها بالقهر فقط ، بل على الشعب الأثيوبي كله على اختلاف جماعاته وأجناسه ، ومن أجل هذا السوء الذى امتدّ ، والشر الذى انتشر قام بعض العسكريين بإعداد انقلاب ضده وبذلوا أقصى الجهد لينجح الانقلاب هذه المرة .

والانقلاب الجديد قاده تحالف عسكرى مدنى يتزعمه لجنة التنسيق للقوات المسلحة التي تتكون من ٩٦ عضواً ، من بينهم مجموعة صغيرة العدد (حوالى خمسة أعضاء) تأخذ مكان الزعامة في هذه اللجنة ، وهى تمثّل أسلحة الجيش المختلفة ، وفرق القوات المسلحة ، ودستور هذه اللجنة الإيمان بضرورة التغيير في ميادين الإصلاح الزراعى ، والحريات السياسية والنقابية ومحاربة الفساد ، والاعتراف بالحقوق القومية للشعوب والقوميات المتعددة داخل البلاد ، وحل مشكلة أريتيريا التي تدور فيها حرب مسلحة طيلة اثنتى عشرة سنة .

وقد بدأ ظهور هذه الحركة في فبراير سنة ١٩٧٤ ، واتخذت أسلوب حصار الطبقة الحاكمة القديمة ، وانتزاع التنازلات منها وإجبارها على التراجع المستمر ، حتى تمّ القضاء عليها ، ثمّ اتجه الأسلوب لاعتقال جميع القيادات العسكرية والمدنية القديمة حتى الطبقة المحيطة بالإمبراطور من مرافقين ومستشارين ، واتجهت اللجنة إلى خطوة ثالثة هى إلزام الوزارة الامبراطورية

التى كان يرأسها أكليلو هيت لود بالاستقالة ، وتم القبض على جميع أعضائها ، وفى نفس الجولة عُزلت القيادات المركزية والإقليمية وعُينت قيادات جديدة ، واتُهمت القيادات الامبراطورية بالفساد والرشوة والعمولات ، وبأنها المسئولة عن المجاعة التى اجتاحت البلاد ، ومات بسببها مائة وخمسون ألفاً من المواطنين .

الكنيسة والامبراطور :

عندما بدأت حركة الانقلاب خطواتها الأولى هادئة متأنية حسبت الكنيسة أن الحركة سيقضى عليها كالحركات التى سبقتها ، وكانت الكنيسة فى أثيوبيا تنعم كالقصر الإمبراطورى بكل صور الثراء والسلطان ، إذ كان لها ٣٠ ٪ من مساحة الأراضى المزروعة بالحبشة ، وكانت مع ذلك تجبى الصدقات والنذور من المعدمين والفقراء التعساء والجهلة ، وكان للامبراطور وأسرته وحاشيته ٥٠ ٪ من مساحة الأراضى ، أما باقى الأرض فقد منحه الامبراطور لكبار الموظفين المدنيين والعسكريين ولبعض زعماء القبائل . وتُركت الجماهير للحرمان والعوز .

وعلى هذا فإن الكنيسة كانت شديدة الحرص على بقاء النظام الامبراطورى ، ولذلك ما إن أحست بقوى تناهض هذا النظام حتى دقت أجراسها فى كل مكان ، تستنفر الرعية للدفاع عن النظام المقدس ، وتذكِّر الشعب بالحكمة المقدسة التى تقرر أنه : « إذا راح ملك الملوك اختفت العدالة » .

ولكن الحركة هذه المرة كانت أقوى من الكنيسة ، وكانت تعارض الكنيسة كما تعارض الإمبراطور ، والعجيب أن الكنيسة عندما أحست بأن الحركة أقوى منها ، وأن العرش لا أمل فيه راحت تؤيد النظام الجديد وتستعطفه .

وفى شهر أغسطس سنة ١٩٧٤ كانت الحركة الانقلابية قد قضت على

كل أعوان الإمبراطور ، وتركته وحده ، فبدأت الحركة تدفعه إليه ، بعد أن كانت تحوم حوله ، ففى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٧٤ حددت القوات المسلحة إقامة هيلاسلاسى ، وألزمته بأن يلزم قصره وألا يتجول فى أديس أبابا إلا مسافة لا تتجاوز خمسة كيلومترات ، وفى نفس الوقت تم تجريد الإمبراطور من كل سلطانه ، ومن ملكية جميع قصوره .

وفى ١٢ سبتمبر ١٩٧٤ أعلن الجيش عزل الإمبراطور هيلاسلاسى وتعيين ابنه الأمير اصفا واصن خلفاً له ، والملك الجديد قارب الستين من عمره وهو مريض بشلل يعالج منه فى مصحات سويسرا ، ولم يكن هذا ولىّ عهد الإمبراطور ، فإن الامبراطور كان قد عين حفيده الأمير زارا يعقوب ولياً لعهده ، وكان من الواضح أن تعيين أصفا واصن أمبراطوراً ليس إلا خطوة على الطريق .

وفى نفس اليوم أصدر الجيش قراراً بحل مجلس الشيوخ والنواب ووقف العمل بالدستور .

وكانت اللجنة العسكرية قد مهدت لعزل الإمبراطور بإعلان اتهامه بالاحتفاظ بعشرات الملايين من الدولارات بالخارج ، وبنقل مئات الآلاف من الكيلوجرامات من الذهب إلى الخارج ، وبغير ذلك من صور الاستغلال وأجبرته على التنازل عن ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ (خمسة عشر ألف مليون دولار) كان يحتفظ بها فى البنوك الأجنبية ، وبخاصة بنوك سويسرا ولذلك كان الشعب يهتف ضده « باللص » وهو ينتقل إلى منفاه .

إلغاء الملكية فى إثيوبيا :

لقد كان واضحاً من الإجراءات التى أوردناها أن العرش الإثيوبى أصبح فى خطر ، وأن تعيين ملك جديد ليس إلا خطوة فى طريق إلغاء الملكية تماماً فى أثيوبيا ، وفى ٢٢ مارس ١٩٧٥ أذاعت الحكومة العسكرية مرسوماً

ألقت فيه القرار الخاص بتعيين أصفا واسن ملكا على البلاد ، وقالت إنها ستترك للشعب الأثيوبى أن يقرر مستقبل بلاده ، وكان واضحاً أنها تنوى إعلان أثيوبيا جمهورية اشتراكية . وانتهى بذلك عرش كان الفساد قوائمه والظلم أساسه ، وتتجه الأمور نحو إعلان الجمهورية وتكوين حزب اشتراكى ليحكم البلاد . ويبدو أن ذلك سيكون فى ١٢ سبتمبر أى بعد عام من عزل هيلاسلاسى .

نجّى الموت هذا الرجل من مزيد من الهوان كان يمكن أن ينزل به . فقد أذاعت الأنباء الاثيوبية يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٧٥ أن أحد خدم القصر رأى الإمبراطور وهو ملقى على سريره دون حركة ، ولما اقترب منه وجده قد فارق الحياة .

والموت نهاية كل حى ، ولكنه نهاية مريرة للظالمين .

إريثيريا بين حكمين

لقد كان واضحاً أن أريتريا كانت سبباً من أسباب الثورة على الإمبراطور ، فقد اشتعلت فيها حرب التحرير منذ سنة ١٩٦٢ ، وعندما ظهر الانقلاب الأثيوبى أعلن قادة الانقلاب أن من مبادئهم احترام القوميات ، وحل المشاكل بالبلاد وبخاصة مشكلة أرتيريا ، واتجهت الأنظار إلى الصلح ، وتقدم السودان باقتراح لوقف إطلاق النار ، وفتح حوار عاجل بين الجانبين ، وظهر الأمل فى نجاح هذا الاتجاه ، ولكن سرعان ما ظهر اتجاهان يتعارضان معه ، الاتجاه الأول يدعو للأسف الشديد ذلك أن صراعاً نشب بين زعماء أرتيريا بعضهم والبعض ، والاتجاه الثانى هو اتجاه قادة مجلس الثورة الأثيوبى الذى أعلن أن حل مشكلة أريتريا فى نظر نا الانقلاب يتمثل فى اللامركزية التى نتجه

لها البلاد في عهدها الجديد ، والعلمانية التي لا تفرق بين دين ودين ، وفي اللامركزية وفي العلمانية حل لمشكلة أريتيريا ، ومعنى هذا أن الاستقلال التام الذي ترنو له أريتيريا ليس معترفاً به الآن من زعماء أثيوبيا في عهدها الجديد ، وقد وصل بهم الأمر إلى قطع العلاقات مع تونس لأنها أعلنت أنها تؤيد انفصال اريتريا .

ولا تزال المشكلة قائمة ، ولكن الأمل كبير في تحقيق استقلال أريتيريا إذا استطاع زعماء البلاد أن يوحدوا جبهتهم ، وأن يتكلموا بلسان واحد ، وهو ما نرجو أن يكون ، وأريتريا بالنسبة للحبشة ليست إلا كالجزائر بالنسبة لفرنسا ؛ وكما انتصرت الجزائر ستنتصر أريتريا ولكن بعد توحيد صفوفها على نحو ما فعلت الجزائر .

التقارب بين الدول العربية والدول الإفريقية

عقد مؤتمر قمة إفريقى بالقاهرة فى أوائل شهر مارس سنة ١٩٧٧ ، مثّلت فيه ستون دولة عربية وإفريقية، وتدارس المؤتمر الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى تربط بين المجموعتين ، وأصدر فى نهاية اجتماعاته قرارات هامة سميت « ميثاق القاهرة » وقد وقعه ستون ملكاً ورئيس دولة ورئيس وفد ، وتقرر أن تحفظ نسخة من ميثاق القاهرة بالجامعة العربية ، ونسخة بمنظمة الوحدة الأفريقية . وتعهدت دول البترول بتقديم الكثير من العون الاقتصادى للدول الأفريقية ، وكان نصيب المملكة العربية السعودية من تحمل هذه المسئوليات كبيراً .

وقد نص ميثاق القاهرة على احترام سيادة جميع الدول العربية والأفريقية ، واستقلالها الاقتصادى والسياسى . وإدانة الصهيونية والاستعمار والاستعمار الجديد وكل أنواع التمييز العنصرى والدينى فى أفريقيا وفلسطين والأرض المحتلة . كما تضمن مساندة القضايا الأفريقية والعربية فى العالم ، ومواصلة مساندة حركات التحرر الأفريقية والعربية، وتأكيد التعاون الاقتصادى فى الاقتصاد والمال والتجارة والتعدين والزراعة وتكثيف التعاون بين المؤسسات المالية العربية والأفريقية ، وتكثيف التعاون فى استغلال الموارد الطبيعية فى إفريقية . وإنشاء لجان مشتركة على المستوى الوزارى لمتابعة التنفيذ .

وتضمن إعلان القاهرة السياسى تأييد حركات التحرر فى جنوب إفريقية وفلسطين ، والنضال المشترك للشعوب العربية والأفريقية ، وأنّ أى عدوان على دولة إفريقية أو عربية يعتبر اعتداء موجها ضد إفريقية والعرب .

کلمۂ ختام

حضارة الإسلام بإفريقية

إن الحضارة هى النتيجة المهمة للتاريخ ، فقيامُ الدول وسقوطها ، والانتصارُ فى المعارك أو الهزائم فيها ، لا يعنى شيئاً إلاّ إذا أنتج فكراً وحضارة ، وقد إنساب الإسلام إلى إفريقية ، وانتشر فى ربوعها ، رويداً رويداً ، وقامت فى ظله دول وإمبرطوريات إسلامية ، ونريد هنا أن نتعرف على نتائج انتشار الإسلام بإفريقية ، وعلى الدور الحضارى الذى قام به .

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن حضارة كل دولة إسلامية بإفريقية عقب حديثنا عنها ، ولكنّ هناك ملامح عامة أضفاها الإسلام على كل المسلمين وكل الدول الإسلامية بإفريقية ، وهى التى نريد أن نتحدث عنها هنا .

والباحث فى هذا الموضوع يدرك أن الحضارة الإسلامية التقت بالتقاليد المحلية بإفريقية وصارعتها ، فقضت على ما يخالف الإسلام منها واختلطت بالتقاليد الأخرى فعدّلتها حتى تتمشى مع الفكر الإسلامى ، وأعطى الإسلامُ فى تشريعاته هذه الفرصة للوفاق والامتزاج الحضارى . وهذا يفسر ما يقول m.ek[1] من أن اعتراف الإسلام بتعدد الزوجات وبالرق على العموم جعل الطفرة من المجتمع البدائى للمجتمع الجديد ليست واسعة ، وسهّل على الإفريقيين دخول الإسلام لشيوع تعدد الزوجات بينهم تعددا غير محدود ، ولشيوع الرق فى الخدمة والحراسة كذلك ، وكأنّ ذلك كان خطوة سريعة ، سرعان ما يدرك المسلم بعدها أن تعدد الزوجات ليس مطلقا ، وأن الرق ضيق المدخل وواسع المخرج بحيث يصبح بعد الدراسة والتأنى مقفل الباب[2] .

---

(١) Northern Tribes of Nigeria p. 5

(٢) اقرأ ما كتبه المؤلف عن تعدد الزوجات وعن الرق فى كتابه « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان .

وكان انتشار الحضارة الإسلامية بإفريقية مهلاً يسيراً كانتشار الدين نفسه ، فالمسلمون لم يبذلوا جهوداً كبيرة لنشر دينهم أو نشر حضارتهم ، وكان دورهم في ذلك أن قدّموا الدين لطالبيه ، وعلّموا المسلمين سلوك هذا الدين ونظمه ، وهذا يختلف اختلافاً كبيراً عن نشر المسيحية بين الإفريقيين ، فقد كان للمبشرين سياسة مرسومة ، وأهداف محدّدة ، وكانت ترمى قبل كل شيء إلى إخضاع السود للبيض ، وأوضح دليل على ذلك أن نقتبس من مبشر رسولى كان مديراً لدير الروح القدس، وقد وضع المبشر صيغة صلاة يُعلّمها للسود في المستعمرات الفرنسية ، ونصها ما يلى :

أيها الروح القدس ، ليتسع صدرى دوماً حتى لا أحاول — وأنا الآتى للمظالم — أن أنتقم لنفسى ، وأرد السوء بالسوء ، يجب علىّ أن أنزع تماماً من قلبى الميل نحو الأشياء الزائلة الفانية . . . . من كل قلبى يا إلهى أصلّى من أجل سيدى ، تفضّلْ واقبل صلاتى ، أتضرع إليك بأن تغدق خيراتك على سيدى وعلى جميع أفراد عائلته وبارك كل ما يملك[١] .

وهكذا ندرك هدف نشر المسيحية ، لقد كانت تبنى نفسها على أنقاض الآخرين ، أما الإسلام فكان يعلى بناء الآخرين ، ويُعطيهم حضارة تضمن لهم خير الدنيا والدين .

وقد قدّم الرئيس أحمد سيكوتورى دراسة واسعة النطاق للحضارة بإفريقية قبل الإسلام وبعده ، فسخِرَ من الذين ينكرون حضارة إفريقية بإغفال حضارة مصر ، وحضارة النوك وحضارة بنين . . . . ، كما قدّم بإفاضة دراسة للحضارة السودانية في العصور الوسطى تلك الحضارة التي نبتت في ظل الإسلام وازدهرت بازدهاره[٢] .

---

(١) نقلا عن إفريقية والثورة للرئيس أحمد سيكوتورى ص ٢٠٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٨٤ وما بعدها .

وقد شملت الحضارة الإسلامية بإفريقية النواحى النظرية ، والنواحى العمرانية ، فعرف الإفريقيون فى الحكم قاعدة الشورى ، وكانت دار الشورى تُسمى عندهم « المِشْوَر » . وقد تحدث ابن بطوطة عن « المشور » حديثا طويلا يشمل وصفه وطريقة الشورى به(١) ، [وعرف الإفريقيون نظام البيعة الذى اشتهر عند المسلمين] وأن أهل الحل والعقد هم الذين يقومون به ، كما عرفوا حق الجماهير فيما يقرره أهل الحــل والعقد ؛ وكانت البيعة مشروطة بأن يتبع الخليفة كتاب الله وسنة رسوله ، وإلاّ فلا طاعة له على المسلمين ، وكان نص البيعة « بايعتك على السمع والطاعة ، الأمر أمرك والنهى نهيك على السنة والكتاب(٢)

وعرف الإفريقيون فى الاقتصاد حق الفقير فى مال الغنى ، ونظام بيت المال ، وردّ الأمانات إلى أهلها ، كما عرفوا فى الآداب الدينية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتزموا بترك المحرمات وآداء الصلوات(٣) ، وعرفوا فى الآداب الاجتماعية اللباس الفضفاض والعمامة والقلنسوة ، واهتموا بالنظافة اهتماماً كبيراً والتزموا بمراسم الوفاء ، وعلا شأن المرأة فمارست حقوقها بانطلاق وحرية ، وتغلغلت الشريعة الإسلامية شيئاً فشيئاً فى المجتمع القبلى بفضل الأحكام الشرعية التى كان يصدرها رجال القضاء الإسلامى فى تلك البــلاد(٤) .

ولما كان الفقهاء هم مصدر العلم فقد حظوا بمكانة سامية فى بلاط السلاطين

---

(١) رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

(٢) نعوم شقير تاريخ السودان : جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٣) نعوم شقير : جـ ٢ ص ١٤١ .

(٤) هوبير ديشان : الديانات فى إفريقية السوداء ص ١٤٤ .

والملوك ، وكان لهم ثراء عريض وجاه عظيم بحيث كان من يلجأ لبيت العالِم يأمن العقاب ، ولا يجرؤ أحد على التعرض له كما قلنا من قبل .

ويقرر هوبير ديشان أن كبار المشايخ وأفذاذ العلماء كانوا فى منتهى الاستقامة والمعرفة بقواعد الإسلام ، فكانوا لا يدّعون لأنفسهم كرمات أو خوارق ، وكانوا على فضلهم وسعة علمهم لا تعدو علاقة الواحد منهم بمريديه علاقة الأستاذ بطلبته ، وكان الخاصة المستنيرون يرون العلماء مربين روحيين يوجهون النفوس ويبصّرون الناس بأحوال القلوب ، ولكن العامة كانت تنظر لهؤلاء العلماء نظرة تقديس ، وقد بلغ نفوذهم بين قبائل الولوف فى السنغال أن حلّوا محل أرباب الإقطاع فى النظام السياسى القديم لتلك القبائل(١) .

والحضارة الإسلامية فى ناحية الجنس واللون حضارة تدعو إلى الإعجاب والفخر ، وقد انطلق فيها قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم(٢) » ، وقال ﷺ فى حجة الوداع : أيها الناس إن ربكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلاّ بالتقوى » وهكذا نقل الإسلام التفاضل من مجال الجنس واللون إلى مجال العمل النافع والخلق الصالح .

وإذا قورن هذا بالفكر الأوربى تجاه الجنس واللون يتضح لنا شطط الفكر الأوربى ، ذلك الشطط الذى لم ينحرف له فقط عامة الأوربيين ، وإنما انزلق إليه كبار المفكرين والفلاسفة الأوربيين مثل مونتيسكيو المفكر الفرنسي الذى يرى أن استعباد الأوربيين للزنوج عمل طبيعى اقتضته حكمة الله ، وقد اقتبسنا كلماته من قبل .

---

(١) تكوينات فى إفريقية السوداء : ص ١٤٦ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

ويقدم الرئيس أحمد سيكوتورى دراسة حافلة حول مفهوم الزنجية ، ويسخر من أولئك الأوربيين الذين اندفعوا إلى إفريقية بمساطر وأقلام يقيسون الجماجم والقسمات ويقررون بناء على هذه المقاييس الظالمة ، أن الرجل الأسود مكانه فى عالم الحيوان بين الشمبانزى والجيبون أى القرود شديدة الشبه بالإنسان ، ويصرخ الرئيس سيكوتورى بأن لون البشرة ليس سوى واقع يطابق ظروف البيئة ، ويتساءل هل جميع الأبقار لها لون واحد ، وهل تفضل البقرة البيضاء زميلتها الحمراء أو السوداء ؟ والإجابة بالنفى بالتأكيد(١) .

وفى الحضارة العمرانية يفخر الإسلام بأن فى ظله عرفت إفريقية المدن الفسيحة ، والمساجد ، والبيوت ، والقصور ، ومعاهد العلم ، وقد أوردنا فى دراستنا السابقة أحاديث عن المدن التجارية والثقافية التى بنيت على طراز مدن الشمال وحاكتها فى أبهتها وجمالها .

بقى بعد ذلك أن نقتبس من مفكرى الغرب رأيهم فى الحضارة الإسلامية بإفريقية ، وما قدمته للإفريقيين من نور وضياء ، يقول Meek :

إن الإسلام جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعاً حضارياً متميزاً لا زال واضحاً حتى اليوم مؤثراً فى نظمهم السياسية والاجتماعية . ذلك أن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل المتبربرة ، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوباً ، وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة . . . لقد وسع من أفق الناس ، ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى راق ، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين . . ولقد أدخل الإسلام فن القراءة والكتابة ، وحرم الخمر ، وأكل

---

(١) : أفريقية والثورة ص ١٨٩ وما بعدها .

البشر ، والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من العادات الوحشية ، وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يُصبح مواطناً حراً فى عالم حر(١) .

ويقول Anderson :

وقد أخذ أثر الشريعة الإسلامية يجاوز نطاق العقيدة إلى الحياة العامة الإفريقية ، لأن الشريعة الإسلامية لها قوانينها فى الزواج والطلاق والميراث والوصية : وقد نجح هذا القانون فى تحديد تعدد الزوجات ، كما أن الميراث الإسلامى ألغى نظام الأمومة ، وجعل الأبوة هى الأصل العلاقات الأسرية ...(٢) »

ويقول Bosworth Smith(٣) :

« إن أقبح الرزائل وهى أكل لحوم البشر ، وتقديم الإنسان قرباناً ، ووأد الأطفال أحياء ، تلك الرذائل ، قد اختفت فجأة وإلى الأبد . والأهالى الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة أو أشباه عراة بدءوا يرتدون الملابس ، بل أخذوا يتأنقون فى ملابسهم ، والأهالى الذين لم يغتسلوا قط من قبل ، بدءوا يغتسلون ، بل إنهم يكثرون من الاغتسال ، لأن الشريعة الإسلامية تأمر بالطهارة . . . واتجه النظام القبلى إلى إفساح المجال لأساس أوسع نطاقاً ، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها فى بعض لتصير أمماً ، وبازدياد النشاط والمعرفة أصبحت الأمم إمبراطوريات .

« وإذا نظرنا إلى الحروب نجد أنها فى ظل الإسلام أصبحت دقيقة النظم ،

---

(١) C. K. Meek : The Northern Tribes of Nigeria pp. 1, 4

(٢) The Civilization of Islam in Africa p 273.

(٣) The Nineteenth Century, December 1887 pp 798—800

فالمسلمون لا يثيرون القتال دون سبب ، ويقل أو ينعدم فى حروبهم النهب والسلب ، كما زاد تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم ».

« وفى ظل الإسلام أنشئت مدارس لو اقتصرت على تعليم القرآن لكانت ذات قيمة كبرى ، فما بالك وقد خطت خطوات واسعة فى مختلف الدراسات ، وأصبح المسجد الجيدُ البناء ، النظيفُ ، بما فيه من أذان للصلاة خمس مرات فى اليوم ، وقبلةٍ تتجه إلى مكة ، وإمامٍ وصلاةِ جمعةٍ ، مركزاً للقرية بدلاً من دار عبادة الأوثان ذات المنظر البشع ».

« وقد قهرت عبادة الله الواحد القهار ، الكائنِ فى كل مكان ، العليمِ الرحيمِ كلَّ ما لُقِّنَ الأهالى عبادته من قبل ، قهراً لا حد له ، وظهرت صناعات وتجارة لا كالتجارة الصامتة التى تقوم الإشارات فيها مقام اللغة فى التفاهم ، ولا كالمبادلة البدائية فى الخامات تلك المبادلة التى نعرف من هيرودوت أنها وجدت فى إفريقية منذ أقدم العصور ، بل أصبحت الصناعات تنطوى على مهارة فائقة ، وأصبحت التجارة منظمة نظاماً محكماً ، وظهرت هذه المدن الكبيرة فى أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة ، وتأثير الحكومات المستقرة التى جاء بها الإسلام .

« أما فيما يتعلق بالفرد ، فمن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام أمدَّ السود الذين تحولوا إليه بالنشاط والعزة ، والاعتماد على النفس واحترام الذات ، وهذه كلها صفات يندر جدا أن نجدها فى مواطنيهم الوثنيين أو المسيحيين » .

وفى مجال الاقتباس من الغربيين اعترافاتهم عن الطور العظيم الذى لعبته الحضارة الإسلامية بإفريقية ، نتجه إلى باحث مسيحى عنى عناية كبرى بالإسلام فى إفريقية ، ذلك الباحث هو Sqeneer Trimingham الذى كتب عدة كتب فى هذا المجال ، وكتب أخيرا كتابا خاصا عن أثر الإسلام على

إفريقية عنوانه « The Influence of islam upon Africa » ومن هـذا الكتاب نقتبس عدة اقتباسات فى جوانب مختلفة من جوانب الحضارة :

ـ كانت الجماعة الإفريقية تؤسس حياتها على أساسين : القبيلة والأرض التى تعيش عليها ، وكانت العصبية القبلية على أشدها ، كما كانت العصبية شديدة بالنسبة للأرض التى تعيش بها القبيلة أو مجموعة من القبائل ، فلما جاء الإسلام غير هذين الأساسين ، فحلت الأخوة فى الإسلام محل العصبية القبلية ، وارتبط الإفريقى بالمسلمين جميعاً بعد أن كان رباطه محدوداً بأفراد قبيلته وذلك طبقاً للآية الكريمة « إنما المؤمنون أخوة[١] » ، وساعد على ذلك ما خلقه الإسلام من ظروف تؤكد هذه الأخوة ، فالمسلمون جميعاً يحتفلون بعيد واحد ، ويصومون شهر رمضان ، ويتخذون يوم الجمعة يوم عطلة لهم ، كما يتبعون نوعاً واحداً من التشريع ، وكانت من قبل أعيادهم مختلفة وشرائعهم متباينة .

أما الأساس الثانى وهو أرض القبيلة ، فقد حل محله أساس جديد جعل ديار الإسلام كلها دياراً للمسلم ، وجعل المسلم فى أى مكان يحس بمشكلات أخيه المسلم فى أقصى الأرض ويدرك أنه مسئول عنها[٢] .

ـ كان اتجاه المسلمين تجاه الحضارة الأوربية قليلا أو معدوما ، لأن الإسلام حمى معتنقيه من الحضارات التى تخالفه ، ومنحهم حضارات فى مختلف شئون الحياة ، وكان المسلمون يتمتعون بثقافتهم الإسلامية ، أما الوثنيون اللذين لم تكن لهم حضارة تشغلهم فقد اتجهوا للاغتراف من الحضارة الغربية ، وفى كثير من الأحوال جذبتهم المسيحية فأصبحوا على دين المستعمر وتابعين لحضارته ، وقد انتهز المستعمرون هذا الاتجاه لعزلوا المسلمين عن الحضارة

---

(١) سورة الحجرات الآية العاشرة .

(٢) The Influence of Islam Upon Africa p. 75.

الغربية واتجهوا بحضارتهم إلى العناصر الوثنيـــة والعناصر التى جذبتها المسيحية[١] .

ونتيجة لعزل المسلمين عن الحضارات الحديثة ، عاش هؤلاء فى تخلف فى العلوم التجريبية ، وجعل الاستعمار مدارس الأطفال لا تعرف غير القرآن الكريم ، ولكن الذين اتبعوا ثقافة الغرب فتحت أمامهم أبواب المعارف المختلفة ، فدرسوا الطب مثلا على أحدث النظم ؛ ومن الحق أن نذكر أن هذه النظم الحديثة كانت معروفة لدى المسلمين فى الأقطار المتطورة ، ولكن الاستعمار حال دون دخولها مدارس المسلمين فى إفريقية[٢] .

– انتشرت مع الإسلام بإفريقية أحكام الشريعة الإسلامية فى مختلف الشئون ؛ فعرف الإفريقيون نظام الفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وعرفوا الزكاة وكانوا من قبل يأنفون من نظام الضرائب ؛ واتبعوا بدقة قوانين الإسلام فى الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق ، وقوانين الإسلام فى المال فأصبح نظام الملكية لا يقوم على القوة ، وأصبح الربا ممنوعا ، وأخذوا بنظام الميراث الإسلامى مع أنه يختلف عن نظمهم القبلية اختلافا كبيرا ؛ واتبعوا نظام الإسلام فى الجنائز ودفن الموتى[٣] ؛

– ويحرم الإسلام العُرْى ، ومن هنا اختفى العرى بين المسلمين بإفريقية بل اهتم الكثيرون من المسلمين بالأناقة فى الملابس ، كما اهتموا بالنظافة ، وحرموا بعض الأطعمة والأشربة تبعا للإسلام[٤] .

---

(١) Ibid p. 107

(٢) Ibid p. 111

(٣) Ibid p. 51

(٤) Ibid p. 52

– وكان للحج أهمية كبرى على الإفريقيين فإن الإفريقي كان عندما يسافر هذه المسافة الطويلة فى أرض إسلامية يحس بالفخر ، ويشعر كأن العالم كله أصبح مسلما ، وهناك يرى الجماهير الغفيرة ويشترك مع هؤلاء فى أداء الشعائر فيزيد تعلقا بدينه وتقديرا له ، ذلك الدين الذى جعله عضوا فى هذه الجماعة الواسعة التى انسابت من كل مكان إلى الأرض المقدسة التى تباشر الشعائر فى مساواة لا تعرف فروق الغنى ولا فروق الجنس و اللون(١) :

(١) Ibid p. 63

مستقبل الإسلام بإفريقية

ذكرنا من قبل أن إفريقية يقال لها القارة المسلمة ، وأنها بذلك تقف مواجهة لأوربا المسيحية ، وأن انقشاع الاستعمار عن إفريقية أضْعَفَ نتائج التبشير المسيحي الذى كان يتحرك بتأييد السلطات المستعمرة ، وفتح الباب على مصراعيه لمزيد من النشاط الإسلامى فى القارة .

ولكن لا ينبغى للمسلمين أن يعيشوا فى هذه الصورة الزاهية ، وأن يهملوا التزاماتهم التى لا بدَّ منها لينتقل هذا الأمل إلى حقيقة واقعة ، فعلى المسلمين فى كل مكان أن يتذكروا أن هذا السباق الذى يقوم به المبشرون المسيحيون لا يرمى لضم أتبـاع جدد إلى المسيحية ، ولا يقصد إلى رفع شأن الدراسات الروحية ، وإنما يرمى قبل كل شىء وبعد كل شىء إلى محاربة الإسلام والمسلمين ، بدليل أن هؤلاء لا يبذلون أى جهد لتعليم أبنائهم ولا ذويهم دين السيد المسيح ، وأن أوربا وأمريكا ليس بهما أى اهتمام دينى يذكر ، فالجهد ليس متجها نحو الدين ، وإنما هو وسيلة عدوانية ضد الإسلام وضد الشرق .

وماذا يفعل المسلمون لمقابلة هذا التحدى ؟ وللذود عن أنفسهم ضد من يقتحم عليهم دارهم ؟

هذا ما نريد أن نضعه فى ختام هذه الدراسة الطويلة المضنية :

نريد أن يبرز الإسلام الحقيقى بشريعته وأخلاقه ، وهذه الكلمات القصيرة تشمل مدلولات واسعة للغاية ، إنها تشمل تطبيق النظم الإسلامية فى السياسة وفى الاقتصاد وفى الحياة الاجتماعية ، أى أن تكون الشورى أساس السياسة فى الدول الإسلامية ، وأن تكون العدالة الاجتماعية دعامة التفكير

الاقتصادى ، حتى تطابق هـذه النظم ما شرعه الله ، ونريد تطبيق النظم الاجتماعية الإسلامية فى المجتمع الإسلامى[١] ونريد التمسك بأخلاق الإسلام وآدابه ، تلك الأخلاق التى تحتم المساواة والحرية والأمانة والوفاء بالوعد والعدل والتعاون . . . . . وتنهى عن الإهمال والرشوة والغش والحسد وشهادة الزور . . .[٢] .

ونحب أن نثبت هنا إجابة لشكوك تدور فى بعض الأذهان ؛ فإننا عندما نصرخ بأن طريق النجاح للمسلمين يكمن فى العودة للإسلام الصحيح ، يجيبنا البعض بأن كثيراً من الأقطار غير الإسـلامية خطت نحو النجاح وحققت ألواناً من التقدم فى مختلف الاتجاهات .

ونقول لهؤلاء إن هذه الأقطار اقتبست الفكر الإسلامى ، شعرت بذلك أو لم تشعر ، فالفكر الإسلامى أصبح تراثاً إنسانياً اقتبسته أوربا فى الأندلس وفلسطين ، واقتبسته دول أخرى قبل ذلك وبعد ذلك . وبَعُد المسلمون للأسف عن هذا الفكر ، ففى اللقاءات التى تمت بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى فى العصر الوسيط والعصر الحديث حصل تبادل فى الأفكار فأخذوا أجمل ما عندنا وتركوا بيننا مساوئهم التى يعرفها التاريخ دون أى غموض .

فإذا أردنا أن نحقق ما حققه المسلمون السابقون من انتصارات وتقدم ؛ كان علينا أن نعود للإسلام وأخلاق الإسلام وشريعة الإسلام .

وعلينا كذلك أن نأخذ من العلوم التجريبية كالطب والرياضة وغيرها أعلى ما وصل له الفكر العالمى ، وأن نسهم فى تنشيط هذا الفكر ، وأن

---

(١) انظر سلسلة « الحضارة الإسلامية » للمؤلف وهى فى ستة أجزاء تشرح رأى الإسلام فى الفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والتربية ، والشئون العسكرية .

(٢) اقرأ بابى « الدين المعاملة » ، فى كتاب الإسلام من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

نذكر أن أجدادنا قدموا فى هذا المجال ذخيرة ضخمة ، وأن علماءنا كانوا أساتذة العلم وقروناً طويلة فى هذا المضمار[1] .

وينبغى أن يكون الداعى المسلم واسع الثقافة ، عميق الفكر ، مطلعاً على النتاج الحديث فى الدراسات الإسلامية الذى يقدم له خير عون وهو يتحدث عن الإسلام ، وفى مقدمة ذلك دراسة الحضارة الإسلامية بأفانينها واتجاهاتها .

والمبشر المسيحى يعرف الكثير عن الإسلام ، ويهاجم الإسلام من خلال هذا التعرف المنحرف ، ولذلك ينبغى للداعى المسلم أن يدرس مقارنة الأديان ليعرف الأديان السابقة ومكانة الإسلام منها ، فقد مضى العهد الذى كان الإسلام فيه يدرس دراسة مستقلة ، واتجه الفكر الآن إلى تصحيح ذلك ، فأصبح الإسلام يُدْرَس كحلقة ختامية فى سلسلة الأديان ، وهذا يستلزم أن نعرف الأديان السابقة وندرس كل شىء عنها ، ثم نعرف الدور المهم الذى جاء الإسلام به ليُكْمِلَ صلة السماء بالأرض ، وليقدم للبشرية خاتمة الرسالات .

ويتحتم على المسلمين وبخاصة العرب أن يبذلوا أقصى الجهد لنشر اللغة العربية فى إفريقية ، فاللغة العربية هى الوعاء الذى جاء به كلام الله وأحاديث الرسول ، والتعرفُ عليها سيفيد كثيراً فى مزيد من فهم الإسلام وتقديره ، ثم إن اللغة العربية هى أوسع اللغات الإفريقية انتشاراً وأكثرها حضارة ، فالتعرف عليها سيكون مفيداً كل الفائدة . وإذا لم تكن اللغة العربية هى الأولى فى الأقطار الإسلامية فلتكن الثانية بعد اللغة الوطنية إن كانت هناك لغة وطنية ، ولكن يتحتم أن تسبق اللغات الأوربية ، فمن العيب أن نرى مؤتمراً انعقد ضد الاستعمار القديم أو الحديث ولكن اللغة التى

---

(١) انظر كتاب الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره للمؤلف من سلسلة الحضارة الإسلامية .

نستعمل فيه هي لغة المستعمر ، وقد كان لى الشرف أن كنت عضواً فى الوفد الذى مثّل مصر فى المؤتمر الإسلامى بماليزيا سنة ١٩٦٩ وفى هذا المؤتمر قدمتُ بحثاً عن ضرورة الاهتمام باللغة العربية فى كل الأقطار الإسلامية ، وقد وُوفق على هذا البحث بالإجماع ولكن التنفيذ يحتاج إلى تخطيط ودراسة .

وينبغى أن نذكر أننا سنقابل مقاومة عنيفة عندما نشرع فى نشر اللغة العربية بإفريقية وستكون هذه المقاومة من أولئك الذين جعلوا اللغة الأوربية حياتهم ومفتاح مجدهم ، فهم يريدون الدفاع عنها بإصرار ، ولكن يتحتم أن نَثْبُتَ فى الميدان حتى نهزم هذه الاتجاهات ،وقد شهدتُ فى مصر نفسها منذ حوالى ربع قرن أناسا يتشدقون بلغات أجنبية ، أو يحشرون كلمات منها فى أحاديثهم دليلا على معرفتهم بها ، ولكن هذا التيار أوشك أن يزول ، وفى الصراع الذى يقوم به قادة الجزائر لتعريبها مستعينين بمدرسين من مصر ، اتجهت بعض القوى المضادة بالجزائر لإيقاف هذه الحركة عن طريق إثارة متاعب فى وجه المدرسين المصريين لعلهم يقلُّ نشاطهم أو تقلُّ حماستهم للسفر للجزائر ، ولكن هذه القوى لم تحقق أى نجاح ، وانتصر عليهم اتجاه الحق ، وبدأ اللسان العربى يحل محل الرطانة الفرنسية فى مدى وجيز ، ومثل هذه المقاومة ستظهر هنا وهناك ولكن لا بد من تقويم هذا الانحراف .

ولكن الاهتمام باللغة العربية يجب ألا ينسينا أن نحاول تقديم الإسلام للناس بلغاتهم ، وأذكر أن لى تجربة فى هذا المجال حققتْ كثيراً جداً من النجاح ، فقد ذهبت إلى إندونيسيا أستاذاً بالجامعة الإسلامية ومديراً للمركز الثقافى المصرى ، وكنت أعرف قليلا من اللغة الإندونيسية وهناك زدت تعرفاً على هذه اللغة وإجادةً لها ، واستطعت أن أتحدث بها ، وألقى بها محاضراتى ، وأكتب بها كتبى أو أراجعها إذا ترجمها بعض الزملاء ، وقد ظهرت فائدة هذا الاتجاه ظهوراً بيناً . وعندما تركت إندونيسيا عائداً إلى بلادى ، تركت بها آلافاً من المريدين وأكثر من عشرة كتب باللغة

الإندونيسية ومقالات وأبحاثاً منشورة ، وقد شهدت النتائج الضخمة لهذا العمل ، ولا زلت أراه من تكرار طبع هـذه الكتب ونشرها فى نطاق واسع .

ومما يذكر فى مجال تقديم الدين إلى القوم بلغاتهم نذكر أن الكنيسة وضعت أجزاء من الإنجيل فى حوالى ٥٠٠ لغة أو لهجة إفريقية(١) لتيسر على الناس قراءة الإنجيل ، ولست أقصد بذلك أن نكتب للقوم أجزاء من القرآن الكريم بلغاتهم أو لهجاتهم ، وإنما أقصد أن نقدم لهم الإسلام والفكر الإسلامى بهذه اللغات وتلك اللهجات ، وأن تكون آيات القرآن الكريم منارات بين هذه الدراسة .

ويتحتم على المسلمين أن يعملوا بأقصى الجهد للتقريب الثقافى بين بلدان العالم الإسلامى ، وقد دعانى إلى ذلك ما لاحظته حين زياراتى لأقطار العالم الإسلامى من فروق كبيرة من مدلول الدراسات الإسلامية هنا وهناك،ويوشك الإنسان عندما ينتقل من مصر إلى إندونيسيا واليمن ودول إفريقية . . . . أن يقرر أن الإسلام هنا يختلف عن الإسلام هناك ، وأن الدراسات الإسلامية تبعد بعداً واسعاً فى مكان ما ، عنها فى مكان آخر ، فالفقه الإسلامى والفقه المقارن الذى يُدرس بكلية الحقوق بجامعة القاهرة بعيد كل البعد عن فقه الحواشى الذى لا يزال يدرس فى إندونيسيا وفى إفريقية ، والحضارةُ الإسلامية التى ازدهرت دراستها فى بعض البلاد تعثرت فى بلاد أخرى ، واختفت تماماً من بعض البلاد الإسلامية ، وهكذا ، ومن أجل ذلك ينبغى أن تقرّب بين الثقافات الإسلامية هنا وهناك ، وأن تكون هناك هيئة إسلامية تمثّل فيها كل الأقطار الإسلامية ، لتضع خطط هذا التقارب وتعمل على تنفيذه .

---

(١) Geoffrey Parrinder : Religion in Africa p. 164

وتحتم على المسلمين وهم يضعون الأسس العملية لرفع شأن الإسلام بإفريقية أن يوجهوا عناية كبيرة إلى المرأة الإفريقية ، فالمرأة عماد الأسرة ، ويوم تعرف المرأة الإفريقية الإسلام وحضارته وآدابه ، ستنشئ أبناءها عليه ، ومما يذكر فى هذا المجال أن الكنيسة عنيت بالمرأة الإفريقية فى كثير من الأحوال ودفعتها لتشغل مكان بارز فى المجتمع ، وعملت لتسند لها بعض الوظائف الهامة ، ولتصبح عضواً واسع النشاط فى بعض الأنظمة[1] ، ويمكننا أن نقول بصراحة إن هذا أرضى غرور المرأة وجعلها أحياناً شديدة الحماسة للمسيحية ، لأنها اعتقدت أن هذا التصرف كان ميزة مسيحية قُدِّمت لها ، وعندما نهتم بالمرأة الإفريقية سندرس لها مكانة المرأة فى الحضارات العالمية ومكانتها فى الحضارة الإسلامية ، لترى ماذا قدّم الإسلام للمرأة وكيف نقلها من حال إلى حال ، بعد أن كانت مغبونة فى أوروبا حتى مطلع هذا القرن[2] .

وهناك بالتحديد مكان حساس يعتبر باباً مهما من أبواب الثقافة الإسلامية إلى إفريقية ، وهو لا يزال باباً مفتوحاً ولكن يُخشى أن يوصد ، هذا الباب هو جنوب السودان ، فجنوب السودان منفذ فكرى إلى قلب إفريقية ، ويمكن أن يكون منفذاً عربياً كذلك ، وهو منطلق فسيح به ثروات معروفة ، وثروات مجهولة ، ثروات واقعة وثروات متوقعة ، وبه رصيد بشرى ارتبط بالشمال فترة طويلة ، ثم عزله الاستعمار ، ودربه المبشرون ، حتى رأى بعض سكانه فى هؤلاء المبشرين خلاصه واستقلاله ، وهم فى الحق أبعد ما يكون عن خدمة الشعوب واستقلالها ، هذا الموقع يحتاج إلى جهود كبيرة لتثقيف أهله وتصحيح مفاهيمهم ، وهذه الجهود

---

(١) Geoffrey Parrinder : Religion in Africa p. 164

(٢) انظر بحثاً مقارناً عن المرأة وموقف الإسلام منها فى كتاب الإسلام من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

ينبغي ألا تترك للسودان وحده ، بل لا بد أن يشترك مع السودان دول العالم العربي والإسلامى ، لترعى هذه الدول سكان الجنوب ولتجعل اتجاهه نحو الشمال ، ارتباطاً بالسودان الشمالى ، وتطلعاً إلى العالم العربي والإسلامى ، وإذا قصّر السودان ، أو قصرت الدول العربية والإسلامية فى ذلك ، اتجه الاستعمار بمزيد من الجهد نحو هذه الأرض فزادها بُعداً عن السودان وعن الوطن الأم » .

وقد شهد هوبير ديشان حركة نشاط إسلامى ضخم بالسودان أيام كان حاكماً للمستعمرات الفرنسية بإفريقية فى الربع الثانى من هذا القرن ، وكتب عن هذه الحركة وعن صداها ونتائجها ، وقبل أن نقتبس ما كتبه نقرر أن بالعالم الإسلامى الآن حركات تجديد أوسع مدى من تلك التى عرفها العالم الإسلامى فى الربع الثانى من هذا القرن ، ولو اتجهت هذه الحركات الإسلامية لإفريقية لكانت لها نتائج أعمق وأوسع من تلك التى شهدها هوبير ديشان وسنقتبس فيما يلى كلماته لعلها تشجعنا على مواصلة السعى لتحقيق مزيد من النتائج ، يقول هوبير ديشان :

« أخذ الإسلام فى الاتساع بشكل ملحوظ بين قبائل وثنية دأبت على مقاومته زمناً طويلاً مثل قبيلة « موشى » وقبائل أخرى فى جنوب مستعمرة نيجيريا ، ومن جهة أخرى نشاهد فى بلاد السنغال وغينيا وهى بلاد إسلامية ، اتجاهاً من الطرق الدينية إلى اقتباس النظام الاشتراكى الزراعى السائد بين طائفة المريدين . .

« ولكن أبرز تلك المظاهر وأقواها ذلك النشاط العظيم الذى دبّ فى أوصال العالم الإسلامى ، وحركة التجديد التى سرت فى كيانه . فقد هبّ رجاله وعلماؤه ونادوا بوجوب تطهير الدين من الشوائب والبدع الدخيلة عليه . وقد بدأت تلك الحركة فى سوريا والبلاد العربية الأخرى ، وقامت مصر بنشرها وإذاعتها ، فوصل صداها إلى أقاصى أرجاء السودان ، ونبه

شعوبها العريقة فى الإسلام ، فأيقظ فيها الوعى الدينى وخاصة حيث توجد الطبقات المستنيرة من المسلمين ، وقصدت أفواج من طلبة نيجيريا ، ومستعمرة « نيجر » إلى الجامع الأزهر فى مصر ، فتعلموا اللغة العربية ولقنوها أبناءهم ، فأصبحت لغة التخاطب بينهم ، واشتدت أواصر الصلات بين منطقة تشاد وبين مصر والسودان الفرنسى ، وأسست مدرسة دينية فى مدينة « أبشر » فى « واداى » . وقد تحولت اليوم إلى كلية إسلامية .

« وسارت حركة الإصلاح الإسلامى جنباً إلى جنب مع انتشار اللغة العربية ببلاد السودان بفضل سهولة المواصلات ، وأساليب الدعاية التى تتبعها الدول الشرقية ، وكان من نتائج ذيوعها وتأثيرها ذلك الاقتراح الذى تقدمت به الجمعية الوطنية فى السنغال ، وطلبت فيه أن تكون اللغة العربية لغة إجبارية فى برامج الدراسة ، ولا شك إن هذه ظاهرة خطيرة ، تدل على مدى انتعاش الحركة التقدمية للإسلام بين الشعوب الزنجية ، وتنبئ بما سيكون لها من آثار بعيدة المدى فى الخطط المرسومة لحكم المستعمرات بخاصة ، والسياسة الدولية بوجه عام[1] »

إفريقية قارة المستقبل وقارة الإسلام :

الباحثون يقررون أن إفريقية كما أنها قارة المستقبل ، فإنها ستصبح قارة الإسلام ومنطلقه ، وكما أن الإسلام قضى فى فجر الدعوة الإسلامية على كل الخلافات والحروب القبلية ، وذوب الفوارق التى كانت تقوم بين جماعات المسلمين ، فإنه وحده الدواء الذى يمكن أن يصهر الأفارقة ، ويزيل الحواجز التى خلقها الاستعمار أو خلقتها القبلية والتقوقع ، ويجعل من الشعوب الإفريقية المسلمة شعبا قوياً متحداً ، لا يبدأ حضارة جديدة ، وإنما يعتمد على الحضارة الإسلامية

---

(١) [illegible] : [illegible] فى إفريقية السوداء ص ٥٩ [illegible]

الزاهية التى عرفها صدر الإسلام وطوّرها المسلمون على مرّ العصور ، والتى كانت أساساً لحضارة أوربا .

والإسلام وحده هو الذى يقضى على الصراع الدائر فى إفريقية سواء كان وجهُهُ شرقياً أو غربياً ، فالوجهان يعملان لصالح الشرق وصالح الغرب لا لصالح إفريقية ؛ يحاول الوجه الشرقى اجتذاب الدول إلى جانبه وبثّ تعاليمه فيها ، ويحاول الوجه الغربى مزيداً من الاستغلال والاحتفاظ بالأسواق لمنتجاته ، أما الإسلام فقوة متكاملة ، تعطى إفريقية ولا تأخذ منها .

والإسلام هو الوسيلة التى تقضى على التبشير الجارف الذى يحاول أن يجتاح القارة وبالتالى يغطّيها ببشرة كالحة ويعيدها إلى التبعيّة لأوربا عن طريق الدين بعد أن عجزت السياسة عن إخضاع القارة لهذه التبعية ، وكما يقضى الإسلام على التبشير المسيحى فإنه كذلك يقضى على الشيوعية الملحدة التى تتدثر بغلالة الأمل وليس فيها أمل .

ومن الواضح أن الإسلام يحقق انتصارا فى القارة كل يوم ، فإذا كانت قبائل الهاروصا والبهل فى نيجيريا وعددها عشرون مليونا قد دخلت الإسلام فى القرن الماضى ، فإن قبيلة ديولا فى السودان وهى تضم مئات الألوف قد دخلت الإسلام منذ سنوات قليلة ، وإذا قفزنا إلى العهد الحاضر وجدنا أن قبائل إيبو بنيجيريا تدخل الإسلام الآن تباعا بعد أن كانت تخاصمه بالأمس القريب[1] .

وينبغى أن نوضح فكرة مهمة تتصل بالإحصائية التى أوردناها ص ٦٧٥ من هذا الكتاب وبإحصائيات هيئة الأمم المتحدة عن تعداد سكان القارة وأديانهم ، وتلك الفكرة تصحح خطأ شائعا هو أن هذه الإحصائيات الرسمية

---

(١) نقلا عن الأستاذ زين العابدين الكتانى (بحث بمجلة دعوة الحق يونيو ١٩٧٠)

تذكر مثلا أن نسبة المسلمين للسكان فى فولتا العليا ٥٥٪ وفى سيراليون ٦٥٪ وفى ساحل العاج ٥٥٪ ويظن بعض الناس أن باقى السكان مسيحيون أو على الأقل تكثر المسيحية فيهم ، وهذا خطأ ، فإحصائية الأمم المتحدة تقرر أن المسيحيين فى فولتا العليا أقل من ١٪ وأنهم فى سيراليون ٦٪ وفى ساحل العاج ١٢٪ وهى نسبة ضئيلة من جانب ، وتميل للانخفاض يوما بعد يوم من جانب آخر .

وليس معنى هذا أن نميل للدعة وتدفعنا هذه المعلومات للتهاون ، فإن نشاط المسيحية مسعور ، ويوم نتصدى له ، ونحرص على تقديم ديننا الحنيف للسكان بحماس ومثابرة ودقة فإننا نقرب اليوم المأمول الذى تصبح فيه إفريقية قارة الإسلام ومنطلقه .

مستقبل الدول الإسلامية بإفريقية

عرفنا فى الدراسة السالفة تاريخ الدول الإسلامية بإفريقية سواء منها ما يقع شمال الصحراء ، وما يقع جنوبها[1] ، وعرفنا أن الصحراء لم تكن حاجزاً بين الشمال والجنوب ، وإنما كانت وسيلة ارتباط ، وأن الإسلام زحف من الشمال عبر الصحراء ، وانتشر فى الجنوب ، وهذه الحقيقة ينبغى أن تكون مناراً يهدى لمستقبل أزهى وألمع ، فعلى دول الشمال أن تدرك التزاماتها تجاه دول الجنوب تلك الالتزامات التى يجب أن تتخطى المجال الثقافى إلى سواه من المجالات الحيوية ، وعلى دول الجنوب ألا تنسى الدول الأم فى الشمال ، وأن تظل على صلة بها ، صلة الشقيق بشقيقه الأكبر .

على أن الصلات مع دول الجنوب ينبغى ألا تقف عند حدود دول الشمال ، بل يتحتم أن تشمل كذلك الدول الإسلامية جميعاً ، وإننا نقولها واضحة جلية : إن فى جنوب صحراء إفريقية عشر دول إسلامية مستقلة ، وعشرات الملايين من المسلمين فى أقطار غير إسلامية ، ولهؤلاء وأولئك حق على المسلمين جميعاً فى كل أقطار الأرض ، ولهذا نتطلع إلى يوم تقوى فيه العلاقات بين الدول الاسلامية فى جميع القارات ، وتحس كل دولة إسلامية بالتزاماتها تجاه المجتمع الإسلامى كله وحقوقها لديه .

وينبغى أن ننبه إلى أن الاستعمار يقف بالمرصاد من الإسلام ، ويعمل بكل جهوده للنيل منه ، يُثير الفتن فى الداخل بين المسلمين وغير المسلمين ، ليتخذ من غير المسلمين وسيلته للتدخل ، وليضعف من قوى المسلمين ، ويحدثنا الواقع عن الآذان الصماء والقلوب المقفلة ، حتماً توجد منابع ضد المسلمين فى الفيلبين أو فى غيرها من الأمكنة ، كما يحدثنا عن الصراخ

---

(١) تاريخ دول الشمال فى الجزء الرابع ، ودول الجنوب هنا فى هذا الجزء .

للموتى ، والزمجرة العاتية عندما يحصل أي عدوان على مسيحي في أي بلد من البلدان ، حينذاك ترى وتسمع كلاماً طويلاً عن الإنسانية وعن حرية الأديان وعن الضمير البشري ، ولهذا ينبغي أن يواجه المسلمون هذه الاتجاهات بوعي شامل ، وأن يدفعوا بإصرار أي عدوان على المسلمين في أي مكان ، وألا يسمحوا بأي عدوان على غير المسلمين حتى لا يتيحوا فرصة التدخل الاستعماري .

واستمراراً لهذا الحديث نقرر أن الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين بإفريقية يؤخذ وسيلة أحيانا لحركات انفصالية ، وعندما يتم الانفصال يتجه الغرب بكل طاقاته لتقوية غير المسلمين ليستعملوهم أدوات للهجوم على المسلمين ، ونحن نحذر من هذه الاتجاهات التي لا ترمي إلا لخدمة الاستعمار ، فالاستعمار عدو الإفريقيين جميعاً ، وكان الإفريقيون جميعاً ضحاياه اقتصادياً وسياسياً وإنسانياً ، على اختلاف قبائلهم وأديانهم ، ولهذا نقرر أننا لا نوافق على الحركات الانفصالية باسم الإسلام ، وندعو لإقامة مجتمعات متماسكة متحابة فيها حرية الأديان مكفولة ، وقد أقام سيدنا رسول الله ﷺ أول مجتمع إسلامي بالمدينة وكان يحوي أغلبية مسلمة وأقلية عربية وثنية وأقلية يهودية ، ووضع الرسول أول معاهدة تعاون بين هذه الأصناف الثلاثة ، وتم التعاون بين المتعاقدين ، لولا غدر اليهود الذي ظهر من عام إلى عام ، فكدّر هذا المجتمع الناشئ .

وليعلم المسلمون أن الوصول إلى الاستقلال ليس شيئاً إذا قيس بالمحافظة على هذا الاستقلال ، وكم من دولة ضحت بالدماء لتحصل على الاستقلال ، ولكنها بعد أن حصلت عليه تورطت في صراع داخلي ، أو حكمتها طبقية استبدادية ، أو مال أهلها إلى الهدوء والترف ، وكل هذه الأشياء تدمر الاستقلال وتقضي عليه ، وتجعل عهد الاستعمار أقل منه لظى واضطراباً ، ولذلك فإننا ننصح الدول الإسلامية التي استقلت أن تعد نفسها لعهد ما بعد

الاستقلال ، وهو عهد يحتاج إلى جهود أوسع ، وتخطيط أدق ، وإيثار ، ليبنى المسلمون ما دمره الاستعمار ، وما دمره الصراع من أجل الاستقلال ، فليس الحصول على الاستقلال هو نهاية المطاف ونهاية الصراع ، ولكنه نهاية مرحلة لتبدأ مرحلة أخرى أشق وأطول وأكثر حاجة للتدبر والجهد المخلص المضنى .

وإذا كان الحصول على الاستقلال ليس نهاية المطاف بالنسبة للدول الإفريقية فإنه أيضاً ليس نهاية المطاف بالنسبة للدول المستعمرة ، فإن الاستعمار عندما رأى تصميماً أكيداً من الشعوب الإفريقية لتحكم نفسها بنفسها ، وتقيم لها نظماً برلمانية ، وتنصب أعلاماً وطنية ، وتنشد أناشيد قومية ..... عندما رأى الاستعمار ذلك بإفريقية وضع خطاً جديداً قوامه العناوين التالية :

– الذهاب من أجل البقاء ، أى أن يذهب جيشه ليبقى نفوذه .

– الاختفاء من أجل الظهور ، أى أن يختفى ممثلوه البيض ليظهر ممثلوه السود

– الخروج من الباب والدخول من النافذة ، أى خروج الجيش ثم دخول ممثلين كخبراء ومستشارين .

وهكذا وضع الاستعمار هذه الأسس وغيرها ، وبمقتضى هذه الأسس يمكن أن يتوارى الاستعمار خلف الاستقلال ، أو أن يلبس الاستعمار ثوب الاستقلال ، وفى أمريكا اللاتينية مثلا عدد كبير من رؤساء الجمهوريات أقامتهم أمريكا كالمثّال يصنع التمثال ؛ وليس للتمثال من رأى ، وإنما الرأى لصانعه وخالقه(١) .

ولم تقنع الولايات المتحدة بدورها فى أمريكا اللاتينية ، بل راحت تمدُّ جهودها تجاه إفريقية لترث بها تفوق الدول الأوربية بلافتة خداعه توهم

---

(١) انظر أمثلة محددة أوردها Jack Woddis فى كتابه :
Africa, The Way Ahead p. 55

أن أمريكا عدوة الاستعمار ، وهى فى الحقيقة أم الاستعمار ، يقول Jack Woddis :

« عن طريق القواعد العسكرية ، والتغلغل الاقتصادى ، والضغط السياسى ، واستغلال الدعاية على نطاق واسع ، تجاهد الولايات المتحدة فى أن تدفع نفسها إلى كل منطقة فى إفريقية ، مستقلة كانت أو غير مستقلة .

« وفى كل مكان يجد المرء جموعاً متزايدة من الأمريكيين الذين يُجرون دراسات مطولة ، ويعملون كفنيين ومستشارين ، ويشتركون فى الوفود التى تزور إفريقية ، ويفتتحون المشروعات ، وينشئون الاتصالات .

« ويتركز نشاط الولايات المتحدة بصفة خاصة فى ميدان الدعاية ، حيث تنشئ مراكز الإعلام الفاخرة ، وتنشر المطبوعات بسخاء ، وتقيم عروض الأفلام مجاناً ، وتوزع الآلات الناسخة ، وأجهزة العرض السينمائى ، وعربات مكبرات الصوت ، كما تمنح الإفريقيين المختارين الذين تعتزم صبغهم بالحياة الأمريكية المنح الأمريكية السخية ، ومن ثمّ تحيلهم إلى أصدقاء لوزارة الخارجية الأمريكية .

« ويستفيد الاستعمار الأمريكى من كراهية المناطق الإفريقية للحكم الاستعمارى المباشر ، فيحاول أن يزعم مناهضته للاستعمار ، آملاً أن تمكنه هذه الطريقة من تنحية الدول الاستعمارية القديمة ، ولا سيما بريطانيا وفرنسا ، ومن تعزيز نفوذه فى الممتلكات السابقة لهذه الدول .

« وتقوم نقابات العمال الأمريكية بالدور الرئيسى فى تغلغل أمريكا فى القارة الإفريقية(١) . »

والعجيب أن أمريكا بثرائها الفاحش تضنّ على إفريقية بأى معونة ، وتقيم الدنيا وتقعدها إذا قدمت معونة تافهة ، وقد سبق أن تحدثنا عن

---

(١) Africa, the Lion Awakes p. 130.

احتفال هائل أقامته أمريكا لتقدم عدداً من كرات القدم لفريق رياضى ! ! ومن المؤكد أن تكاليف حفل الدعاية تكلف أكثر من ثمن هذه الكرات التى ليست لها قيمة تذكر ، وقد أعرب الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة فى العاشر من ديسمبر سنة ١٩٥٩ عن الاستياء من محاولات الولايات المتحدة لاستغلال مشروعات المعونة فى التدخل فى شئون بلاده ، وأعربت صحيفة خزان الليبية (قبل الثورة) عن استياء مشابه عند ما قالت : إننا نتلقى من أمريكا مبلغاً من المال لا يُسْمَح لنا بإنفاقه بحسب ما نرى ، فالمال يأخذ سبيله إلينا عن طريق وكالات غير اقتصادية يعمل فيها موظفون من الأجانب ذوى المرتبات العالية وتستخدم أساطيل من السيارات[١] .

فإذا جئنا للقروض وجدنا الحال أدهى وأكثر مرارة ، فإن أمريكا خصصت للقروض فى المدة بين ١٩٤٥ و ١٩٥٥ مبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١٦ دولار وكان نصيب كل دول إفريقية مجتمعة من هذا المبلغ حوالى ٢ ٪ (اثنين فى المائة) وذهب نصف ما خصص لإفريقية إلى اتحاد جنوبى إفريقية ، فدول إفريقية كلها — ما عدا جنوبى إفريقية — تأخذ ١ ٪ من هذه القروض[٢] ! ! ! وقد دفعت أمريكا لإسرائيل بطريق الهبات والقروض أضعاف أضعاف ما دفعت لكل دول إفريقية ، وبعد هذا تستطيع أمريكا أن تتكلم عن صداقتها للدول إفريقية ومساندتها لها .

وبمناسبة الحديث عن إسرائيل يتحتم أن نرفع علامة الخطر أمام قادة الدول الإسلامية بإفريقية بوجه خاص والدول الإفريقية جميعاً بوجه عام ، فإسرائيل فى ذاتها عدوة الإسلام ، ولكل الأديان ، ولكل القيم الإنسانية ، وإسرائيل لم تقم بنفسها وإنما أقامتها قوى أخرى عدوة للإسلام والشرق ، وإسرائيل لم تعش بنفسها وإنما تعيش بعون هذه القوة ، وإسرائيل

---

(١) Ibid p. 173

(٢) Ibid p. 165

لا تتحرك بدوافع ذاتية وإنما تتحرك بدوافع القوى المادية ، فإسرائيل — فى ذاتها — خطر على الإسلام وعلى إفريقية ، وإسرائيل — بالقوى التى تحركها — خطر أكبر على الإسلام وعلى إفريقية ، وهذا هو الناقوس ندقه لنحذر من هذه الديدان التى أقامها الاستعمار ، ودعمها الاستعمار ، ليصل عن طريقها إلى ما يريد ، واختارها بوجه خاص لينتفع بما يجرى فى عروق الصهاينة من حقد على الإنسانية ، ومن سخط على الإسلام ، ومن رغبة ذاتية فى التدمير . وقد سبق أن أوردنا دور إسرائيل فى الصراع الذى كان يدور فى جنوبى السودان ، وذكرنا أنها دربت المتآمرين وأمدتهم بالسلاح والمال ، أما دور إسرائيل فى أوغندة فقد كشفته الوثائق الرسمية التى أذاعتها أوغندة بعد أن قطعت علاقاتها السياسية مع إسرائيل فى أوائل أبريل سنة ١٩٧٢ وطردت منها جميع الخبراء العسكريين والمدنيين الإسرائيليين ، بعد علاقة بدأت مع استقلال أوغندة أو سبقت هذا الاستقلال .

لمـــاذا فعلت أوغندة ذلك :

يقول الرئيس الأوغندى « عيدى أمين » : إن تسلل إسرائيل إلى أوغندة خطأ لن يحدث مرة أخرى ولا يجب تكراره فى أية دولة إفريقية ، لقد كانت إسرائيل تعيش فى أوغنده ، لا لصالح الشعب الأوغندى ، بل لصالح إسرائيل وصالح الاستعمار ، وكانت تعمل جاهدة لتدمير الاقتصاد الأوغندى وتدمير الوحدة الأوغندية وتقرر البيانات الرسمية أن إسرائيل كانت تعمل ضد مصلحة أوغندة بوجه خاص ومصالح الدول الإفريقية بوجه عام ، فكانت تقوم على ترتيب الانقلابات الداخلية ، وتعمل على القضاء على حركات التحرر الوطنى ، وتحاول التحكم فى القوات العسكرية ، وهى فى كل هذا كانت تقوم بدورها بالاتفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية[1] »

---

(١) ملخص لما ذكرته الصحف والدوريات فى إبريل ومايو سنة ١٩٧٢ .

وفى ختام هذا البحث الطويل الشاق نقرر أن الدول الإسلامية بإفريقية ينبغى أن تقيم نوعاً من الوحدة أو الاتحاد بينها ، فذلك هو أساس ما يرجى لإفريقية من نجاح ، ويقول الرئيس أحمد سيكوتورى[1] : نحن نريد الوحدة الإفريقية على غير أساس الحدود المصطنعة التى فرضها الاستعمار ، نريدها من زاوية معطيات جديدة تحطم هذه الأطر الجغرافية والسياسية والاقتصادية التى قامت تحت ستار إفريقية التى كانت الدول الاستعمارية تعبر عنها وتتحدث باسمها ، وأن اليوم الذى نحقق فيه هذا الهدف لا بد أن يطل على إفريقية لتطل معه القوة والرفاهية .

ولنجعل حديثنا عن الوحدة مسك الختـــام .

وإلى اللقاء فى الجزء السابع إن شاء الله

---

(١) إفريقية والثورة ص ٢٣٦ .

وبعـــد ...

من الحق عليّ أن أنحنى لله ، وأن أحمده شاكراً عونه الكبير الذى لازمنى حتى أتممت هذا المجلد الضخم ، ولقد تحملت من العناء وأنا أُعِدُّه أكثر مما يخطر بالبال ، وكنت قد عقدت العزم حين بدأت العمل فيه منذ أكثر من عشر سنوات ، أن أضع له تخطيطاً يمتاز بالوضوح والتسلسل ، وأن أنقل الدراسة فيه من السرعة إلى الأناة ، ومن الحدس إلى البحث العلمى ، ومن السطحية إلى العمق ، ومن دراسة الأجزاء إلى الشمول ودراسة الكلّ ، وأرجو أن أكون قد نجحت فى تحقيق هذا العزم .

وهذا العمل هديتى للأقطار الشقيقة جنوب الصحراء ، وهديتى لكل مسلم باحث عن إخوته المسلمين فى جميع أرجاء الأرض ؟

ثبت المراجـــع

ملحوظتان :

١ ــ المصادر المذكورة هنا هى التى اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت فى ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التى أسهت بطريق فيه غير مباشر فلم تذكر فى هذه القائمة :

٢ ــ الطريقة التى اتبعت فى تنظيم هذه القائمة أبجدية على عدم اعتبار الملحقات (ابن وال) .

١ ــ القرآن الكريم

٢ ــ مجموعة من كتب التفسير

٣ ــ كتب الأحاديث الستة

٤ ــ مجموعة من كتب الفقه

٥ ــ الإنجيل

٦ ــ Encyclopaedia of Islam

٧ ــ Encyclopaedia Britannica

٨ ــ (U.N.) Economic Development in Africa

٩ ــ وثائق ومعاهدات

١٠ ــ صحف ومجلات ودوريات كثيرة

١١ ــ مقابلات شخصية لزعماء أسهموا فى صنع التاريخ الحديث

١٢ ــ لقطات مما أذاعه الزعماء بالراديو أو التليفزيون

١٣ ــ أطلس الشئون الإفريقية (ترجمة عبد العليم منسى ولم يذكر مؤلفه)

١٤ ــ تقويم السودان ؛ أصدرته وزارة الإعلام والشئون الاجتماعية بجمهورية السودان سنة ١٩٦٧ م .

١٥ ـ تقويم البلدان الإسلامية (مؤتمر العالم الإسلامى بجدة)

١٦ ـ Statesman,s Yearbook

١٧ ـ Nigeria Handbook 1970

١٨ ـ Periplus of the Erythraean Sea

١٩ ـ آدم عبد الله الألورى — الإسلام فى نيجيريا

٢٠ ـ » » » — موجز تاريخ نيجيريا

٢١ ـ آدم متز — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (ترجمة د . محمد أبو ريدة)

٢٢ ـ Abraham, W. E. — The Mind of Africa

٢٣ ـ دكتور إبراهيم طرخان — إمبراطورية غانة الإسلامية

٢٤ ـ إبراهيم فوزى — السودان بين يدى غوردون وكتشنر

٢٥ ـ أبو بكر خالد — فوتى السنغالية

٢٦ ـ أبو الفدا — المختصر فى أخبار البشر

٢٧ ـ » » — تقويم البلدان

٢٨ ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار (التيجانى) — جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى فيض الشيخ التيجانى

٢٩ ـ ابن الأثير — الكامل فى التاريخ

٣٠ ـ Egmant Hake — Gordon in China and the Sudan

٣١ ـ الرئيس أحمد سيكوتورى — إفريقية والثورة

٣٢ ـ أحمد شفيق باشا — مذكراتى فى نصف قرن

٣٣ ـ دكتور أحمد شلبى — موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (الأجزاء السابقة)

٣٤ ـ دكتور أحمد شلبى — مقارنة الأديان : اليهودية

٣٥ ـ » » » — » » : المسيحية

٣٦ – دكتور أحمد شلبي	مقارنة الأديان : الإسلام
٣٧ – » » »	» » : أديان الهند الكبرى
٣٨ – » » »	الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره
٣٩ – » » »	تاريخ العربية الإسلامية
٤٠ – » » »	المجتمع الإسلامى
٤١ – » » »	السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى
٤٢ – أحمد صوار	كفاح النيجر
٤٣ – أحمد عطية الله	القاموس الإسلامى
٤٤ – الشيخ أحمد كاتب الشونة وآخرون	تاريخ ملوك السودان
٤٥ – الإدريسى	نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (مخطوط)
٤٦ – »	صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذ من المخطوط السابق)
٤٧ – »	روض الأنس فى نزهة النفس
٤٨ – الإربلى	تفريج الخاطر فى مناقب الشيخ عبد القادر
٤٩ – Ardrey Butt	The Nilotes
٥٠ – Arkell, A. I.	A History of the Sudan from the earliest time to 1821
٥١ – إسماعيل سرهنك باشا	حقائق الأخبار عن دول البحار
٥٢ – الإصطخرى	المسالك والممالك
٥٣ – »	صور الأقاليم
٥٤ – Olaude Oeorge	The Rise of British West Africa
٥٥ – إلياس الأيوبى	تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل
٥٦ – أنتونى نانتنج	شهيد فى غير محله

٥٧ ـ أنجلو ساماركو — رحلة محمد على إلى السودان (١٠/١٥/ ١٩٣٨ ـ ١٨٣٩/٣/١٥)

٥٨ ـ أندا بانتجى سيتهول — بحث من مجموعة بحوث جمعها وترجمها عبد الواحـــد الإنبابى بعنوان « فجر التاريخ الإفريقى » :

٥٩ ـ Endre Sik — The History of Black Africa

٦٠ ـ Anderson — The Civilization of Islam in Africa

٦١ ـ East. D. I. — Western Africa

٦٢ ـ Ina, Corinne Brown — The Story of the Negro

٦٣ ـ باربارالـٔ وارين ووكر — نيجيريا ؛ ثقافتها وقصصها الشعبية

٦٤ ـ j. Barth — Travels

٦٥ ـ Basil Davidson — Rediscovery of Ancient Africa

٦٦ ـ Basil Davidson — The Lost Citis of Africa

٦٧ ـ Palmer — Islam in the Western Sudan and on the West Coast of Africa

٦٨ ـ Palmer — The Burno, Sahara and Sudan

٦٩ ـ Panikar, M. H. — Serpent and Crescent.

٧٠ ـ Buchan john — Gordon at Kartoum

٧١ ـ Buchonan and Pugh — Land and People of Nigeria

٧٢ ـ ريف — الإسلام والوثنية فى السودان الفرنسى

٧٣ ـ ابن بطوطة — تحفة النظار فى غرائب الأمصار

٧٤ ـ البكرى (عبـــد الله بن عبد العزيز) — المسالك والممالك

٧٥ ـ البكرى (عبـــد الله بن عبد العزيز) — (المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب) جزء نشره لارسال من الكتاب السابق

٧٦	Blyden, E.W	Christianity, Islam and the Negro Race
٧٧	Bosworth Smith	The Nineteenth Century, (December, 1887)
٧٨	Bovil, E.W.	The Golden Trade of The Moors
٧٩	Poul. A.	A History of the Beja Tribes
٨٠	Poul Fordhan	The Geography of the African Affairs
٨١	Beatham, T. A.	Christianity and the New Africa
٨٢	Pearl Primus	The African Dancing
٨٣	Pioves Achelle	Francias et Anglais en Egypt
٨٤	Charles Eliot	East Africa Protectorate
٨٥	Trimingham, Spencer	Islam in the Sudan
٨٦	Trimingham, Spencer	The History of Islam in West Africa
٨٧	Trimingham, Spencer	The Influence of Islam upon Africa
٨٨	مهندس/ توفيق محمد خليفة	الحياة فى السودان
٨٩	Sir Thomas Arnold	The Preaching of Islam
٩٠	Thomas Hodgkin	ممالك السودان الغربى ؛ بحث من مجموعة بحوث بعنوان « فجر التاريخ الإفريقى »
٩١	ابن تيمية	المنتقى من منهاج الاعتدال
٩٢	Theobold, A. B.	The Mahdiya, a history of the Anglo-Egyptian Sudan
٩٣	Jackson, H.	Osman Diqna
٩٤	Jsck Waddis	Africa : the Roots of Revolt.
٩٥	Jsck Waddis	« : The Line Awakes

٩٦ — Jack Waddis — Africa : The Way Ahead

٩٧ — جامع عمر الصومالى — تاريخ الصومال

٩٨ — جبريل قران — المسلمون فى مدغشقر

٩٩ — ابن جبير — رحلة ابن جبير

١٠٠ — جورجى زيدان — تاريخ مصر الحديث

١٠١ — Gervase Mathew — The Land of Negra

١٠٢ — G. Morrison — Fashoda, the incident and its Diplomatic setting

١٠٣ — دكتور جلال يحيى — الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان

١٠٤ — دكتور جلال يحيى — العلاقات المصرية الصومالية

١٠٥ — دكتور جمال حمدان — إفريقية الجديدة

١٠٦ — دكتور جمال حمدان — العالم الإسلامى المعاصر

١٠٧ — George Kimble — Trobical Africa

١٠٨ — Gordon Brown — East Africa

١٠٩ — Joseph Thomson — Mohammadanism in Central Africa

١١٠ — Joseph Thomson — Note on African Tribes of British Empire

١١١ — Jocques Baulin — The Arab Role in Africa

١١٢ — John Buchholzer — The Land of Burnt Faces

١١٣ — Jones, D. H. — شعوب وممالك السودان الأوسط ؛ من مجموعة بحوث « فجر التاريخ الإفريقى »

١١٤ — James Duffy and R. Manners — Africa Speaks

١١٥ — Geoffrey Parrinder — Religion in Africa

١١٦ — Quillain	Documents،
١١٧ — دكتور حامد عمار	علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية
١١٨ — دكتور حسن إبراهيم	انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى
١١٩ — دكتور حسن محمود	الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية
١٢٠ — » » »	قيام دولة المرابطين
١٢١ — الحسن الوزان Lea Africanis	Africa —
١٢٢ — دكتور حسين مؤنس	فتح العرب للمغرب
١٢٣ — ابن حوقل	صورة الأرض
١٢٤ — ابن خرداذبة	المسالك والممالك
١٢٥ — ابن خفاجة	ديوان ابن خفاجة
١٢٦ — ابن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر
١٢٧ — الخوارزمى	رسائل الخوارزمى
١٢٨ — Darmesteter James	Mahdi past and present
١٢٩ — الدمشقى	نخب الدهر
١٣٠ — Dorothy Middleton	Baker of the Nile
١٣١ — Derek Kartum	Africa Africa
١٣٢ — دكتور راشد البراوى	مشكلات القارة الإفريقية
١٣٣ — Robin Hallett	Elkanemi of Bornu من مجموعة Eminent Nigerians of the 19 th Century .
١٣٤ — Richard Conoley	Africa To-Day
١٣٥ — Roland Oliver and Fage	History of Africa
١٣٦ — Roland Segal	Political Africa

١٣٧ — Ruete, R.	Sáid Bin Sultan, Roler of Oman and East Africa
١٣٨ — زامباور	معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى
١٣٩ — دكتور زاهر رياض	كشف إفريقية (ناشراً)
١٤٠ — » » »	استعمار إفريقية
١٤١ — » » »	الاستعمار الأوربى لإفريقية
١٤٢ — » » »	الممالك الإسلامية فى غربى إفريقية
١٤٣ — ى . سافلييف و ج . ڤاسلييف	موجز تاريخ إفريقية (ترجمة أمين الشريف)
١٤٤ — Stapeleton	The Wealth of Nigeria
١٤٥ — Stanley Lame-Poole	Mohammadan Dynasties
١٤٦ — سعد الدين بن الزبير	إمبراطورية رابح الزبير
١٤٧ — سعد الدين بن الزبير	الزبير باشا رجل السودان
١٤٨ — ابن سعيد المغربى	بسط الأرض فى الطول والعرض
١٤٩ — سلاطين باشا	السيف والنار فى السودان]
١٥٠ — السلاوى	الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى
١٥١ — سليجمان	أجناس إفريقية
١٥٢ — Cyril Claydon	The Rise French Imperialism
١٥٣ — Sharif MM.	Moslim Thought : Its Origin and Achievements
١٥٤ — شكيب أرسلان	حاضر العلم الإسلامى
١٥٥ — صبرى أبو المجد	ثورة إفريقية
١٥٦ — صلاح صبرى	إفريقية وراء الصحراء

١٥٧ – دكتور صلاح العقاد زنجبار
و د : جمال قاسم

١٥٨ – الطبرى تاريخ الأمم والملوك

١٥٩ – الطيب الأشبل السنوسى الكبير

١٦٠ – عبد الحميد العبادى المجمل فى تاريخ الأندلس

١٦١ – عبد الرحمن الرافعى عصر إسماعيل

١٦٢ – دكتور عبد الرحمن زكى الإسلام والمسلمون فى شرقى إفريقية

١٦٣ – » » » » » فى غربى إفريقية

١٦٤ – » » » المسلمون فى العالم

١٦٥ – عبد الرحمن السعدى تاريخ السودان

١٦٦ – عبد الرحمن صالح أحمدو بللو زعيم من نيجيريا

١٦٧ – عبد الرحمن النجار الإسلام فى الصومال (رسالة ماجستير لم تطبع بعد)

١٦٨ – عبد العزيز عبد المجيد التربية فى السودان

١٦٩ – دكتور عبد العزيز كامل قضية كينيا

١٧٠ – عبد الله المشد ومحمود خليفة تقرير عن أحوال المسلمين فى بلاد الصومال وأرتريا وعدن

١٧١ – الإمام عبد الله بن محمد تزيين الورقات

١٧٢ – دكتور عبد المجيد عابدين بين الحبشة والعرب

١٧٣ – » » » تاريخ الثقافة العربية فى السودان

١٧٤ – دكتور عبد الملك عودة السياسة والحكم فى إفريقية

١٧٥ – عرب فقيه فتوح الحبشة

١٧٦ – على شلش من الأدب الإفريقى

١٧٧ – عمر طوسون	تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها إلى ضياعها (١٨٦٩–١٨٨٩ م)
١٧٨ – عمر بن الوردى	خريدة العجائب
١٧٩ – العمرى	مسالك الأبصار
Fitzgreld – ١٨٠	Africa
Fage, J. D. – ١٨١	An Introduction to the History of West Africa
١٨٢ – فيليب حتى	History of the Arabs
١٨٣ – دكتور فيليب رفلة	الجغرافية السياسية لإفريقية
١٨٤ – قدامة بن جعفر	كتاب الخراج
١٨٥ – القلقشندى	صبح الأعشى
١٨٦ – ابن القيم	زاد المعاد
١٨٧ – كارل بروكلمان	تاريخ الشعوب الإسلامية
Crawford, O. S. – ١٨٨	The Fong Kingdon of Sennar
١٨٩ – (لورد) كرومر	بريطانيا فى السودان
Crewe – ١٩٠	The Marquess of Lord Rosebery
Colbornet, J – ١٩١	With Hicks Pach in the Sudan
Lugard, F. – ١٩٢	An Outlines of the Ancient History of the Western Sudan
Lewis, W. H. – ١٩٣	Islam and Nationalism in Africa
Margolioth – ١٩٤	On Mahdi and Mahdism
١٩٥ – محبات إمام شرابى	نيجيريا الجديدة : كنوزها واقتصادياتها
١٩٦ – محجوب زيادة	الإسلام فى السودان
١٩٧ – محمد أمين البغدادى	سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب

١٩٨ ــ الإمام محمد بلو بن عثمان دان فديو	إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور
١٩٩ ــ محمد الحافظ التيجانى	الحاج عمر الفوتى ؛ سلطان الدولة التيجانية
٢٠٠ ــ محمد عبد العزيز إسحاق	نهضة إفريقية
٢٠١ ــ محمد عبد الفتاح إبراهيم	إفريقية ؛ الأرض والناس
٢٠٢ ــ « « «	الثقافات الإفريقية
٢٠٣ ــ « « «	إفريقية من السنغال إلى نهر جوبا
٢٠٤ ــ « « «	إفريقية المعاصرة
٢٠٥ ــ د . محمد عبد الهادى شعيرة	المرابطون وتاريخهم السياسى
٢٠٧ ــ دكتور محمد عوض محمد	السودان الشمالى
٢٠٨ ــ « « « «	الشعوب والسلالات الإفريقية
٢٠٩ ــ دكتور محمد فؤاد شكرى	مصر والسودان
٢١٠ ــ الشيخ محمد للقبانى	السودان المصرى الإنجليزى
٢١١ ــ دكتور محمد محمود الصياد	صور إفريقية
٢١٢ ــ دكتور محمد المعتصم	مهدى الصومال
٢١٣ ــ « « «	هرر والصومال
٢١٤ ــ محمد نجيب	رسالة عن السودان
٢١٥ ــ محمود كعت	تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ؛ وذيله لبعض حفدته
٢١٦ ــ محيى الدين الزنزبارى	السلوى فى تاريخ كلوا ؛ مخطوط نشر فى (J. R. A. S.) 1895
٢١٧ ــ المسعودى	أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان « مخطوط »

٢١٨ ـ المسعودى	مروج الذهب ومعادن الجوهر
٢١٩ ـ مصطفى فهمى هداية	واقعة فاشودة
٢٢٠ ـ دكتور مصطفى مسعد	الإسلام والنوبة
٢٢١ ـ المقدسى	أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
٢٢٢ ـ المقريزى	الإلمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الإسلام
٢٢٣ ـ المقريزى	السلوك .
٢٢٤ ـ المقريزى	المواعظ والاعتبار
٢٢٥ ـ دكتور مكى شبيكة	السودان عبر القرون
٢٢٦ ـ « « «	السودان فى قرن
٢٢٧ ـ « « «	مملكة الفونج الإسلامية
Meek ـ ٢٢٨	The Northem Tribes of Nigeria
٢٢٩ ـ دكتور نعوم شقير	تاريخ السودان القديم والحديث
٢٣٠ ـ نعيم قداح	إفريقية الغربية فى ظل الإسلام
٢٣١ ـ دكتور نقولا زيادة	ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال
Harry Hazard ـ ٢٣٢	Atlas of Islamic History
Harrison Church ـ ٢٣٣	West Africa
٢٣٤ ـ هوبير ديشان	الديانات فى إفريقية السوداء
Hughes, A. j. ـ ٢٣٥	East Africa
Henty, G. A. ـ ٢٣٦	With Kitchener in the Sudan
Ward, W.F. ـ ٢٣٧	History of Africa
Wittfogel ـ ٢٣٨	Oriental Dispotism
٢٣٩ ـ ود ضيف الله	الطبقات

٢٤٠ — Westermann, D. — The African Today and Tomorrow

٢٤١ — Wingfield, R. — The Story of Old Ghana and Songhai

٢٤٢ — Winwood Reade — African Sketchbook

٢٤٣ — ياقوت — معجم الأدباء

٢٤٤ — » — معجم البلدان

٢٤٥ — دكتور يسرى عبد الواحد الجوهرى — جمهورية السودان

٢٤٦ — يعقوب باشا أرتين — إنجلترا فى السودان

٢٤٧ — اليعقوبى — كتاب البلدان

٢٤٨ — اليعقوبى — صفة المغرب المأخوذة من كتاب البلدان

فهرس الأعلام

ملاحظات :

١ ــ تحاشياً للإطالة لم أضمّن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في ثبت المراجع .

٢ ــ رتبت الكلمات في الفهرس ترتيباً أبجدياً مع عدم اعتبار الملحقات « ابن ــ أل » ومع عدم اعتبار الألقاب .

٣ ــ حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة على أن الاسم تكرر في الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفــاء

حرف القــاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأمكنة

تحاشياً للإطالة لم أضمن هذا الفهرس الكلمات الآتية :

١ - أسماء الدول التي عقدت الدراسات هنا حولها ؛ سواء كانت هذه الدول قبل الاستعمار الأوربي أو بعده ، اكتفاء بفهرس المحتويات في مساعدة الباحث .

٢ - كلمة « إفريقية » وما اتصل بهذه الكلمة مثل : صحراء إفريقية - الشمال الإفريقي - شمال الصحراء الإفريقية - جنوب صحراء إفريقية لكثرة ورود هذه الكلمات بالكتاب مما يجعل إثباتها في هذا الفهرس قليل الجدوى .

٣ - كلمة « مصر » لورودها في أكثر صفحات الكتاب .

حرف الألف

حرف البــاء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء